جامعة قطر
QATAR UNIVERSITY
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
COLLEGE OF SHARIA AND ISLAMIC STUDIES

بصائر المعرفة القرآنية
(١)

تسوير السور القرآنية
(١)

المفصل في تفسير

سورة الفاتحة

وبصائرها

منهاج حياة

عمود السورة (موضوعها الكلي)

الإسلام في سبع آيات

فالفاتحة تعرف العالم بالإسلام

الأستاذ الدكتور
عبد السلام مقبل المجيدي
كلية الشريعة / جامعة قطر

دار بصائر المعرفة
الطبعة الرابعة
١٤٤٧هـ/٢٠٢٦م



قرآن يتلى لإنسانية ترقى

المفصل في تفسير

سورة الفاتحة

بصائر المعرفة القرآنية

١

تسوير السور القرآنية

١

المفصل في تفسير

سورة الفاتحة

وبصائرها

عمود السورة (موضوعها الكلي)

الإسلام في سبع آيات

فالفاتحة تعرف العالم بالإسلام

الأستاذ الدكتور

عبد السلام مقبل المجيدي

كلية الشريعة / جامعة قطر

الطبعة الرابعة ١٤٤٧ هـ – ٢٠٢٦ م

المفصل في تفسير

سورة الفاتحة

أ.د/ عبد السلام بن مقبل المجيدي

أستاذ الدراسات القرآنية / كلية الشريعة/ جامعة قطر

خضع هذا الكتاب للتحكيم العلمي

راجعه

القسم العلمي بمؤسسة

بصائر المعرفة القرآنية

وحدة البحوث والدراسات

كلية الشريعة والدراسات الإسلامية / جامعة قطر

يمكن لمن يحب أن يعيد طباعة هذا الكتاب بشرط ألا يتصرف في مضمونه، ويحبذ إعلام المؤلف

رقم الإيداع بدار الكتب القطرية : ٢٠٢٦/١٢٥

الترقيم الدولي ISBN : ٩٧٨٩٩٢٧٢٠٦٠٥٤

طبعت بمطابع الراية

الطبعة الرابعة

١٤٤٧ هـ – ٢٠٢٦ م


بسم الله الرحمن الرحيم
٤٢

المُفصّل
في تفسير سورة الفاتحة وبيان إعجازها

عَمُودُ السُّورَة (مَوْضُوعُهَا الكُلِّيّ)

الإسلام في سبع آيات
فالفاتحة تعرف العالم بالإسلام
وتُرسل آياتها السبع الخريطة الكلية لمقاصد القرآن الكريم
ومعارفه الكبرى في عشرة مقاصد

عبد السلام مقبل المجيدي

مُقَدِّمَة

فِي بَصَائِرِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ، وَرَسْمِهَا لِخَرِيطَةِ النَّجَاحِ الْإِنْسَانِيِّ

الْحَمْدُ لِلَّهِ.. حَمْدًا يَبْلُغُنَا رِضَاهُ، وَإِنْ كَانَ جَهْدُ الْحَمْدِ لَا يَفِي بِشُكْرِ أَدْنَى نِعَمِهِ.

الْحَمْدُ لِلَّهِ.. حَمْدًا يُسْبِغُ بِهِ عَلَيْنَا مَزِيدًا مِنْ عَطَايَاهُ، وَإِنْ كَانَتْ مَحَامِدُنَا لَيْسَتْ شَيْئًا أَمَامَ كَرَمِهِ.

الْحَمْدُ لِلَّهِ.. حَمْدًا لَا مُنْتَهَى لِحَدِّهِ وَمَدَاهُ، وَإِنْ كَانَتْ أَلْفَاظُنَا تَتَصَاغَرُ أَمَامَ جَلَالِ آيَاتِهِ وَكَلِمِهِ.

اللَّهُمَّ اجْعَلْ صَلَوَاتِكَ، وَرَحْمَتَكَ، وَبَرَكَاتِكَ عَلَى سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ، وَإِمَامِ الْمُتَّقِينَ، وَخَاتَمِ النَّبِيِّينَ، مُحَمَّدٍ عَبْدِكَ وَرَسُولِكَ، إِمَامِ الْخَيْرِ، وَقَائِدِ الْهُدَى، وَرَسُولِ الرَّحْمَةِ، وَسَلِّمْ تَسْلِيمًا كَثِيرًا.

وَبَعْدُ:

أَيُّهَا الْمُبَارَكُ، أَيَّتُهَا الْمُبَارَكَةُ: هَذَا الْكِتَابُ "تَفْسِيرُ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ وَبَصَائِرِهَا: الْإِسْلَامُ فِي سَبْعِ آيَاتٍ" يَسْتَكْشِفُ بَصَائِرَ الْفَاتِحَةِ وَأَنْوَارَهَا، وَيُعِيدُ قِرَاءَةَ آيَاتِهَا عَلَى نَحْوٍ جَدِيدٍ لِيُظْهِرَ أَسْرَارَهَا، وَيُبْرِزَ أَوْجُهَ قُوَّتِهَا وَجَمَالِهَا، وَيُحَدِّثَ أَخْبَارَهَا.

إِنَّهَا الْفَاتِحَةُ: كَنْزٌ مُتَجَدِّدٌ يُشْعِرُكَ بِالْإِدْهَاشِ كُلَّمَا تَدَبَّرْتَهَا، وَضِيَاءٌ مُتَوَقِّدٌ يَجْذِبُكَ كُلَّمَا تَلَوْتَهَا.

يُقَدِّمُ هَذَا التَّفْسِيرُ سُورَةَ الْفَاتِحَةِ بِاعْتِبَارِهَا مَنْهَجَ حَيَاةٍ شَامِلًا، وَبَرْنَامَجًا عَنِ الْعَالَمِ بِفَهْمٍ مُتَكَامِلٍ. يَأْخُذُنَا فِي رِحْلَةٍ عَمِيقَةٍ وَمُثِيرَةٍ لِنَكْتَشِفَ مِنْ خِلَالِ آيَاتِهَا السَّبْعِ الْإِسْلَامَ وَالْكَوْنَ وَالْإِنْسَانَ، وَيَمْنَحُنَا مَفَاتِيحَ أَلْغَازِ فَهْمِ هَذَا الْوُجُودِ الْكَوْنِيِّ عَلَى مَمَرِّ الْأَزْمَانِ. إِنَّهُ يُبَيِّنُ لَنَا كَيْفَ

تُقَدِّمُ الْفَاتِحَةُ الْحَقَائِقَ الْكَوْنِيَّةَ الْكُبْرَى لِتُزِيلَ مِنَّا كُلَّ عَلَامَاتِ الِاسْتِفْهَامِ الَّتِي شَغَلَتِ الْعَقْلَ الْبَشَرِيَّ وَمَا زَالَتْ عَبْرَ الْقُرُونِ.

يُقَدِّمُ هَذَا التَّفْسِيرُ سُورَةَ الْفَاتِحَةِ بِاعْتِبَارِهَا تَحْتَوِي الْمَفَاتِيحَ الَّتِي تُدِيرُ الْحَيَاةَ، وَتُنْشِئُ حَضَارَةً بَاذِخَةً يُحَرِّكُهَا الْعَدْلُ، وَتَسِيرُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، وَتَتَّصِلُ فِي اتِّجَاهَاتِهَا بِاللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ.

يُقَدِّمُ هَذَا التَّفْسِيرُ سُورَةَ (الْفَاتِحَةِ الْمُبَارَكَةِ) مِنْ مُنْطَلَقٍ جَدِيدٍ: فَهُوَ يَرَى أَنَّهَا تُقَدِّمُ لِلْعَالَمِ تَعْرِيفًا مُكَثَّفًا لِلْإِسْلَامِ فِي آيَاتِهَا السَّبْعِ. إِنَّهَا الْكَلِمَاتُ الْإِلَهِيَّةُ الْعَظِيمَةُ الَّتِي تَسْمَحُ لَكَ بِالتَّوَاصُلِ مَعَ اللهِ وَمَعَ الْآخَرِينَ مِنْ حَوْلِكَ بِأَعْظَمِ التَّعْبِيرَاتِ الَّتِي يُمْكِنُ أَنْ تَسْمَعَهَا؛ إِذْ حَوَتْ هَذِهِ السُّورَةُ زُبْدَةَ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ.

وَيَعْرِضُ هَذَا التَّفْسِيرُ رُؤًى جَدِيدَةً وَمُتَعَمِّقَةً حَوْلَ مَعَانِي الْفَاتِحَةِ. إِنَّهَا الرُّؤَى الَّتِي تُسَاعِدُنَا عَلَى فَهْمٍ أَعْمَقَ لِلْإِسْلَامِ، وَعَلَى أَنْ نُطَبِّقَهُ فِي حَيَاتِنَا الْيَوْمِيَّةِ لِيَهْدِيَ أَفْكَارَنَا وَأَفْعَالَنَا إِلَى سُبُلِ السَّلَامِ.

إِنَّ مَعَارِجَ الْفَاتِحَةِ تَعْلُو بِسَالِكِهَا إِلَى ذُرَى السَّعَادَةِ، وَتَضَعُهُ ضِمْنَ بَرْنَامَجِ الرِّيَادَةِ؛ لِأَنَّهَا تَرْسُمُ خُطَّةَ الْإِنْقَاذِ لِلْبَشَرِيَّةِ، وَتُقَرِّرُ الْمَقَاصِدَ الْمَعْرِفِيَّةَ وَالسُّلُوكِيَّةَ الَّتِي تَحْتَاجُهَا الْإِنْسَانِيَّةُ.

فِي بِدَايَةِ هَذَا التَّفْسِيرِ: هَذَا سُؤَالٌ يَمْلَأُ الْمَكَانَ، وَيَتَرَدَّدُ فِي الزَّمَانِ، وَيَتَنَاقَلُهُ الْإِنْسَانُ بِصِيَغٍ مُخْتَلِفَةٍ تَرِدُ عَلَى الْأَذْهَانِ: مَا الْقُرْآنُ؟ وَلِمَاذَا نَرَى كُلَّ هَذَا التَّقْدِيسِ، وَالتَّبْجِيلِ، وَالِاعْتِزَازِ بِهِ، وَالدِّفَاعِ عَنْهُ مِنْ قِبَلِ أَتْبَاعِهِ؟ وَلِمَاذَا كُلُّ هَذِهِ الْإِثَارَةِ حَوْلَهُ؟ فَأَتْبَاعُهُ يَلْفِتُونَ أَنْظَارَ الْعَالَمِ نَحْوَهُ، وَأَعْدَاؤُهُ يَتَمَيَّزُونَ غَيْظًا مِنْهُ حَتَّى يَعْمِدَ بَعْضُهُمْ إِلَى أَنْ يُعَبِّرَ عَنْ ذَلِكَ بِحَرْقِهِ فِي أَكْبَرِ الدُّوَلِ الَّتِي تَزْعُمُ أَنَّهَا تُرَاعِي حُقُوقَ الْإِنْسَانِ. نُرِيدُ تَلْخِيصًا يُعَرِّفُنَا بِالْقُرْآنِ.

الْجَوَابُ: ائْذَنْ لِي -أَعَزَّكَ اللهُ- أَنْ أُلَخِّصَ أَفْكَارَ هَذَا الْجَوَابِ فِي الْبَصَائِرِ الْآتِيَةِ:

البصيرةُ الأُولَى

الْقُرْآنُ الْمَجِيدُ «صَانِعُ السَّلَامِ الْحَقِيقِيِّ، فَهُوَ يُبَيِّنُ بَرْنَامَجَ الرَّحْمَةِ الْكَامِلَةِ لِلْحَيَاةِ الْإِنْسَانِيَّةِ.

إِنَّهُ الْكِتَابُ الَّذِي يُفَسِّرُ وُجُودَ الْعَالَمِ (الْوُجُودَ الْكَوْنِيَّ) فِي قَوْلٍ وَاضِحٍ مُبِينٍ: ﴿وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠].

تَسْتَلْهِمُ الْبَشَرِيَّةُ مِنَ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ الْمَعْرِفَةَ، وَالسُّلُوكَ، وَالْمَشَاعِرَ..

إِنَّهُ الْقُرْآنُ ذُو الذِّكْرِ يَفْتَحُ لِلْعَالَمِ الْأَبْصَارَ وَالْبَصَائِرَ، وَيُنِيرُ فِي الدُّنْيَا كُلَّ قَلْبٍ خَائِفٍ قَلِقٍ حَائِرٍ. اسْمَعْ إِلَى الْإِعْلَانِ الْإِلَهِيِّ لِلْعَالَمِ يُخْبِرُ عَنْ حَقِيقَةِ الْقُرْآنِ الْفَاخِرَةِ، بَعْدَ ذِكْرِ رِحْلَةِ الْبَشَرِيَّةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٥٢]:

فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ فَلَيْسَ مُجَرَّدَ تَخْمِينَاتٍ، وَلَا هُوَ أَفْكَارٌ خَاصَّةٌ بِالْعُلَمَاءِ حَوْلَ أَسْرَارِ الْحَيَاةِ، بَلْ هُوَ عِلْمٌ قَاطِعٌ تُشْرِقُ بِهِ الْأَكْوَانُ، وَتَسْعَدُ بِهِ حَيَاةُ الْإِنْسَانِ، وَفِي الْوَقْتِ ذَاتِهِ فَإِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ هُدًى لِكُلِّ قَلْبٍ صَالِحٍ أَوْ لِكُلِّ تَائِهٍ حَيْرَانَ، وَرَحْمَةٌ لِمَنْ يَخَافُ الشَّقَاءَ أَوِ الضَّيَاعَ أَوِ النِّسْيَانَ، وَلَكِنَّهُ لَا يُعْطِي هَذَا الْهُدَى، وَلَا يُحَقِّقُ تِلْكَ الرَّحْمَةَ إِلَّا لِمَنْ آمَنَ بِهِ وَاتَّقَى، أَوِ انْضَوَى تَحْتَ ظِلِّهِ وَمِنْ فَيْضِ حِكْمَتِهِ اسْتَقَى.

الْقُرْآنُ بَيَانٌ إِلَهِيٌّ عَامٌّ يَصْنَعُ السَّعَادَةَ لِلْبَشَرِيَّةِ، وَيُنْقِذُهَا مِنْ شُرُورِ الْقُوَى الْمُسْتَغِلَّةِ، وَيَحْمِيهَا مِنْ إِفْسَادِ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:١٣٨].

قَلِّبْ بَصَرَكَ لِتَرَى مَا آلَتْ إِلَيْهِ حَالَةُ الْإِنْسَانِيَّةِ بِغَيْرِ الْمِنْهَاجِ الْقُرْآنِيِّ مِنَ الدَّمَارِ وَالْخَسَارِ النَّفْسِيِّ وَالْعَقْلِيِّ وَالِاجْتِمَاعِيِّ.

انْظُرْ حَوَالَيْكَ سَتَرَى بُيُوتَ السَّيْطَرَةِ الدَّوْلِيَّةِ وَمَعَاقِلَهَا لَمَّا خَلَتْ مِنْ تَطْبِيقَاتِ الْأَنْوَارِ الْقُرْآنِيَّةِ؛ أَصْبَحَتْ أَدَاةً لِإِشَاعَةِ الْجُنُونِ الْعَالَمِيِّ الْمُثِيرِ لِلْحُرُوبِ، فَلَا تَرَى فِيهَا إِلَّا إِدَارَةً مَسْعُورَةً لِلْعُدْوَانِ وَالدَّمَارِ الْعَابِرِ لِلْقَارَّاتِ، وَالتَّلَاعُبِ بِأَقْوَاتِ الشُّعُوبِ وَفْقَ مُؤَامَرَاتِ الْمُؤَسَّسَاتِ الْفِكْرِيَّةِ وَالْأَمْنِيَّةِ الْمُخْتَلِفَةِ مِمَّنْ يَبْغُونَ الْحَيَاةَ عِوَجًا، وَيَحِيدُونَ عَنْ سَبِيلِ الْحَقِّ مَنْهَجًا.

هُنَا تَظْهَرُ قِيمَةُ الْقُرْآنِ وَأَهَمِّيَّتُهُ؛ لِأَنَّهُ الَّذِي سَيُخَلِّصُ الْبَشَرِيَّةَ مِنَ الشَّقَاءِ وَالْكَدَرِ وَالْعَذَابِ الْأَلِيمِ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النساء : ٢٦].

إِنَّهُ الْقُرْآنُ تَأْخُذُ أَنْوَارُهُ بِنَوَاصِينَا إِلَى جَمَالِ الْحَيَاةِ، وَقُوَّةِ الْقِسْطِ، وَإِغَاثَةِ الْحَقِّ لِلْخَلْقِ، وَتَهْدِي هَذَا الْعَالَمَ لِبِنَاءِ سُبُلِ السَّلَامِ الْحَقِيقِيِّ عَلَى أُسُسِ الْعَدْلِ الْقَوِيمِ، وَلَيْسَ عَلَى أُسُسِ التَّحَكُّمِ وَالسَّيْطَرَةِ، وَلَا عَلَى أَسَاسِ مُسْتَوَى الْقُوَّةِ وَالْإِمْكَانَاتِ، وَالْمُقَدَّرَاتِ: ﴿يَهْدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة : ١٦].

أَلَيْسَ عَجِيبًا أَنْ تَرَى الْمُعَانِدِينَ لِلْقُرْآنِ يَتْرُكُونَ عِنَادَهُمْ عِنْدَمَا تُحِيطُ بِهِمُ الْأَزَمَاتُ، وَتَغْشَاهُمْ أَمْوَاجُ الشَّقَاءِ الْإِنْسَانِيِّ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيهِمْ؟ فَمَاذَا يَفْعَلُونَ؟ يُقْبِلُونَ عَلَيْهِ مُعْتَرِفِينَ بِأَنَّ مَا يُقَدِّمُهُ يُمَثِّلُ الْحَلَّ الْمِثَالِيَّ مِنَ الْأَزَمَاتِ وَالنَّكَبَاتِ.

خُذْ هَذَا الْخَبَرَ:

شَهِدَتْ صِنَاعَةُ الْمَالِ وَالِاقْتِصَادِ الْعَالَمِيِّ تَحَوُّلَاتٍ بَارِزَةً فِي خِضَمِّ الْأَزْمَةِ الْعَالَمِيَّةِ وَأَزْمَةِ الرَّهْنِ الْعَقَارِيِّ عَامَ (٢٠٠٨م)، وَمِنْ هَذِهِ التَّحَوُّلَاتِ: الْمُفَاجَأَةُ الَّتِي فَجَّرَتْهَا صَحِيفَةُ الْفَاتِيكَانِ الرَّسْمِيَّةُ الْمَعْرُوفَةُ بِاسْمِ (أُوسِيرْفَاتُور رُومَانُو) فِي عَامِ (٢٠٠٩م) بَعْدَ تِلْكَ الْأَزْمَةِ

بِعَامٍ؛ إِذْ نَشَرَتْ مَقَالًا عَجِيبًا، أَشَارَتْ فِيهِ إِلَى أَنَّهُ يَتَوَجَّبُ عَلَى الْبُنُوكِ التَّقْلِيدِيَّةِ، أَنْ تَنْظُرَ إِلَى الْمَصْرِفِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ بِعِنَايَةٍ فَائِقَةٍ عَلَى أَنَّهَا الْحَلُّ الْأَمْثَلُ لِلْأَزْمَةِ الْمَالِيَّةِ الْعَالَمِيَّةِ الَّتِي تَعْصِفُ بِدُوَلِ الْعَالَمِ، وَالَّتِي أَطَاحَتْ بِكَيَانَاتٍ مَالِيَّةٍ عِمْلَاقَةٍ، وَأَنَّ اسْتِعَادَةَ الثِّقَةِ لِهَذِهِ الْكَيَانَاتِ الِاقْتِصَادِيَّةِ الْعَالَمِيَّةِ يَكْمُنُ فِي تَطْبِيقِ نِظَامِ الِاقْتِصَادِ الْإِسْلَامِيِّ فِي الْبُنُوكِ الْغَرْبِيَّةِ[1].

وَمَا زِلْنَا نَرَى الِانْهِيَارَ الْمُفَاجِئَ وَالسَّرِيعَ لِمُؤَسَّسَاتٍ مَالِيَّةٍ، وَبُنُوكٍ كُبْرَى فِي أَمِيرِكَا وَغَيْرِهَا مِنَ الْبُلْدَانِ، وَهَذَا يُظْهِرُ الْخَلَلَ الْكَبِيرَ فِي آلِيَّةِ عَمَلِ تِلْكَ الْبُنُوكِ وَالْمُؤَسَّسَاتِ، وَهُوَ كَذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى حَقِيقَةٍ حَتْمِيَّةٍ وَهِيَ أَنَّهُ لَا صَلَاحَ لِحَالِ الْبَشَرِيَّةِ إِلَّا بِهَذَا الدِّينِ الْقَوِيمِ.

وَإِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَقِفُ مُتَعَجِّبًا مِنْهُمْ، لِمَاذَا يَطْلُبُونَ الرُّجُوعَ إِلَى الْقُرْآنِ لِيَجِدُوا حَلًّا لِمَشَاكِلِهِمُ الْمَالِيَّةِ وَالِاقْتِصَادِيَّةِ وَلَا يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ لِيَحُلَّ مَشَاكِلَهُمُ الْأَخْلَاقِيَّةَ وَالِاجْتِمَاعِيَّةَ وَالسِّيَاسِيَّةَ وَالْفِكْرِيَّةَ، وَهِيَ تَعْصِفُ بِهِمْ وَبِمُؤَسَّسَاتِهِمُ الْمُخْتَلِفَةِ؟

هُنَا يَبْرُزُ لَنَا سُؤَالٌ ثَانٍ: إِذَا كَانَ لِلْقُرْآنِ الْمَجِيدِ هَذَا التَّأْثِيرُ الْعَظِيمُ الْمَشْهُودُ، فَلِمَاذَا لَمْ تَظْهَرِ الْحِكْمَةُ وَالرَّحْمَةُ وَالْهُدَى وَالنُّورُ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ الْمُؤْمِنِينَ بِالْقُرْآنِ الْمُتَّبِعِينَ لَهُ بِصُورَةٍ كَامِلَةٍ؛ لِيَكُونُوا قُدْوَاتٍ جَاذِبَةً لِنُورِ الْقُرْآنِ وَحُكْمِهِ؟

الْجَوَابُ: يَظْهَرُ فِي:

البصيرةُ الثَّانِيَةُ

الِاعْتِزَازُ بِبَصَائِرِ الْقُرْآنِ؛ سَبِيلٌ لِإِظْهَارِ أَنْوَارِ الْقُرْآنِ

لَا سَبِيلَ لِإِظْهَارِ قُوَّةِ الْقُرْآنِ وَعَظَمَتِهِ إِلَّا بِالِاعْتِزَازِ بِبَصَائِرِهِ، وَذَلِكَ يَقْتَضِي أَنْ لَا تُظْهِرَ نَفْسَكَ مُعْتَزًّا بِالْقُرْآنِ بِاعْتِبَارِهِ مُصْحَفًا مَكْتُوبًا فَحَسْبُ، فَتُبَاهِيَ النَّاسَ بِصَفَحَاتِهِ الْمَكْتُوبَةِ الَّتِي

---

(١) صحيفة (أوسرفاتوري رومانو) (L'Osservatore Romano) بالإيطالية ٣ مارس ٢٠٠٩ م.

حُزْتَهَا، أَوْ بِكَلِمَاتِهِ الْمُجَرَّدَةِ الَّتِي حَفِظْتَهَا، بَلْ لَا بُدَّ أَنْ تُطَبِّقَ تَفَاصِيلَ أَحْكَامِهِ، وَتَعْمَلَ بِأَوَامِرِهِ وَتَفَاصِيلِ نِظَامِهِ، وَتَسْعَى وَفْقَ مَنْهَجِهِ لِيَمْلَأَ الْعَالَمَ بِإِنْعَامِهِ. فَالْقُرْآنُ لَا تُنَالُ أَنْوَارُهُ، حَتَّى نَعْتَزَّ بِبَصَائِرِهِ، وَنَسْتَخْرِجَ أَسْرَارَهُ وَنَفْخَرَ بِمَنَائِرِهِ.

مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبَ اللهُ عَلَى الْبَشَرِيَّةِ، أَنْ يَكُونَ شَرَفُهَا وَمَجْدُهَا مُرْتَبِطًا بِتَنْمِيَةِ الِاعْتِزَازِ بِالْبَصَائِرِ الْقُرْآنِيَّةِ بِاعْتِبَارِهَا أَهَمَّ عَوَامِلِ الْفَلَاحِ وَالِانْتِصَارِ الْفَرْدِيِّ وَالْجَمَاعِيِّ لِمَنْ يَبْنُونَ وَيَصْنَعُونَ وَيَتَنَافَسُونَ ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠].

مَا أَعْظَمَهَا مِنْ كَلِمَةٍ ﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾؟

كَأَنَّهُ يَقُولُ فِيهِ شَرَفُكُمْ، فِيهِ تَذْكِيرُكُمْ، فِيهِ مَوْعِظَتُكُمْ، فِيهِ مَجْدُكُمْ، فِيهِ نُورُكُمْ، فِيهِ سَنَاؤُكُمْ، فِيهِ سُمْعَتُكُمُ الَّتِي تُذْكَرُونَ بِهَا عَلَى مُسْتَوَى الْعَالَمِ، وَتَرْتَفِعُونَ بِهَا فِي الْأُمَمِ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤].

وَمَا زَالَ الْقُرْآنُ حَبْلَ اللهِ الْمَمْدُودَ؛ لِمَنْ رَامَ مِنْ كُلِّ الْبَشَرِ الرُّقِيَّ وَالسُّعُودَ، وَالتَّقَدُّمَ وَالصُّعُودَ، فَهُوَ يَعْصِمُ مَنِ اسْتَمْسَكَ بِهِ مِنَ الضَّلَالِ الْفِكْرِيِّ، وَالْهَلَاكِ الْمَعِيشِيِّ وَالِاقْتِصَادِيِّ وَالْحَيَاتِيِّ، فَقَدْ قَالَ لَنَا النَّبِيُّ ﷺ مِنْ قَبْلُ قَوْلًا مُسْعِدًا مُؤَيَّدًا: «فَإِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ سَبَبٌ طَرَفُهُ بِيَدِ اللهِ، وَطَرَفُهُ بِأَيْدِيكُمْ، فَتَمَسَّكُوا بِهِ، فَإِنَّكُمْ لَنْ تَضِلُّوا، وَلَنْ تَهْلِكُوا بَعْدَهُ أَبَدًا»(١):

(لَنْ تَضِلُّوا) يَعْنِي: لَنْ تَتِيهُوا مِنَ النَّاحِيَةِ الْفِكْرِيَّةِ وَالْعَقْلِيَّةِ، فَعُقُولُكُمْ لَنْ تَجُرَّكُمْ إِلَى مَتَاهَاتٍ إِذَا أَنْتُمْ جَعَلْتُمُ الْقُرْآنَ مُرْشِدًا لَهَا حَاكِمًا عَلَيْهَا.

(١) ابن حبان (١ / ٣٣٠)، وحسن الأرناؤوط إسناده على شرط مسلم.

امْتَلَأَ قَلْبُ ابْنِ الْقَيِّمِ ﷺ بِهَذِهِ الْحَقِيقَةِ الْإِيمَانِيَّةِ، فَفَاضَ مُعَبِّرًا بِهَذَا الْمَعْنَى اللَّطِيفِ قَائِلًا: «أَنْزَلَهُ لِنَقْرَأَهُ تَدَبُّرًا، وَنَتَأَمَّلَهُ تَبَصُّرًا، وَنَسْعَدَ بِهِ تَذَكُّرًا، وَنَحْمِلَهُ عَلَى أَحْسَنِ وُجُوهِهِ وَمَعَانِيهِ، وَنُصَدِّقَ بِهِ، وَنَجْتَهِدَ عَلَى إِقَامَةِ أَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ» مدارج السالكين (١/ ٢٧).

مراحل استنباط البصائر القرآنية

01 **المرحلة الأولى: مرحلة التكامل المنهجي**

(الجمع بين مجامع التفسير الموضوعي والإجمالي والتحليلي)

02 **المرحلة الثانية: مرحلة التقسيم المحوري**

(الانتقال المتدرج من محاور السورة الكبرى إلى الأقسام المندرجة تحتها ثم استخلاص البصائر من الآيات التفصيلية)

03 **المرحلة الثالثة: مرحلة التأصيل المرجعي**

الرجوع إلى مصادر التفسير الأساسية (التناظر النصي)

04 **المرحلة الرابعة: مرحلة الاستنباط البياني**

(استثمار علوم البيان والمعاني واللغة لتظهر من خلالها الاستنباطات الثرية التي تتضمنها الآيات)

مَنْهَجُ اسْتِنْبَاطِ الْبَصَائِرِ الْقُرْآنِيَّةِ وَعَرْضِهَا فِي هَذَا الْكِتَابِ:

وَهُنَا يَأْتِي السُّؤَالُ: مَا الْمَنْهَجُ الَّذِي اتَّبَعْتُمُوهُ لِاسْتِنْبَاطِ بَصَائِرِ الْقُرْآنِ؟

وَالْجَوَابُ: قَدِ ارْتَضَيْنَا لِأَنْفُسِنَا خُطَّةً نَسِيرُ عَلَيْهَا فِي تَحْرِيرِ هَذَا التَّفْسِيرِ الْمُبَارَكِ، وَتَقْدِيمِ بَصَائِرِ كِتَابِ اللهِ الْمُحْكَمِ عَلَى نَحْوٍ فَرِيدٍ، وَنَهْجٍ جَدِيدٍ، نَحْسَبُهَا خُطَّةً مَرْضِيَّةً، وَمَهْيَعًا لَاحِبًا تَأْنَسُ إِلَيْهِ الْعُقُولُ السَّوِيَّةُ، وَتُعَظِّمُ قَدْرَهُ النُّفُوسُ الْأَبِيَّةُ، وَهُوَ عَلَى مَشَاقِّ مَسَالِكِهِ، وَدَقِيقِ مَدَارِكِهِ إِلَّا أَنَّهُ نَاهِضُ الْحُجَّةِ، وَاضِحُ الْمَحَجَّةِ، قَدِ اسْتَبَانَتْ لِلْمُرِيدِ خُطُوَاتُهُ وَمَنَازِلُهُ، وَتَجَلَّتْ لِلسَّالِكِ أَعْلَامُهُ وَمَرَاحِلُهُ، وَلَاحَتْ فِي أُفُقِ الْمَجْدِ مَنَاقِبُهُ وَشَمَائِلُهُ.

وَفِي هَذِهِ الْمَرَاحِلِ يَسِيرُ هَذَا التَّفْسِيرُ فِي اسْتِنْبَاطِ الْبَصَائِرِ الْقُرْآنِيَّةِ عَلَى مَنْهَجٍ جَامِعٍ بَيْنَ مَنَاهِجِ الْمَدَارِسِ التَّفْسِيرِيَّةِ الَّتِي شَيَّدَهَا النُّبَلَاءُ السَّابِقُونَ:

فَأَمَّا أَوَّلًا: فَيَجْمَعُ بَيْنَ مَجَامِعِ التَّفْسِيرِ الْمَوْضُوعِيِّ وَالْإِجْمَالِيِّ وَالتَّحْلِيلِيِّ فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ عَلَى هَيْئَةٍ أَقْرَبَ إِلَى التَّيْسِيرِ فِي فَهْمِ كَلَامِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ -تَعَالَى ذِكْرُهُ وَعَزَّ جَارُهُ-.

وَأَمَّا ثَانِيًا: فَيَعْتَمِدُ عَلَى تَدَبُّرِ السُّورَةِ وَتَقْسِيمِهَا إِلَى مَحَاوِرَ (مَقَاصِدَ) مُتَرَابِطَةٍ، ثُمَّ يَنْقَسِمُ كُلُّ مِحْوَرٍ بِدَوْرِهِ إِلَى أَقْسَامٍ، وَيَتِمُّ التَّعْبِيرُ بِالْبَصَائِرِ عِنْدَمَا أَتَنَاوَلُ تَفَاصِيلَ الْآيَاتِ، وَأُبْرِزُ مِنْهَا الْفَوَائِدَ الْمُحْكَمَةَ الَّتِي تُوَجِّهُ الْإِنْسَانِيَّةَ.

وَأَمَّا ثَالِثًا: فَيَرْجِعُ إِلَى مَصَادِرِ التَّفْسِيرِ الْأَسَاسِيَّةِ، وَخَاصَّةً تَفْسِيرَ الْقُرْآنِ بِالْقُرْآنِ مِمَّا يُسَمِّيهِ الْمُعَاصِرُونَ (التَّنَاظُرَ النَّصِّيَّ) لِلْبَحْثِ عَنْ حَقِيقَةِ الْمُرَادِ الْإِلَهِيِّ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ لَا يَكْتَمِلُ دُونَ النَّظَرِ إِلَى التَّفْسِيرِ النَّبَوِيِّ قَوْلًا وَفِعْلًا وَسِيرَةً وَتَقْرِيرًا.

وَأَمَّا رَابِعًا: فَيَجْتَنِي ثِمَارَ عُلُومِ الْوَسَائِلِ وَمَقَاصِدَهَا، وَسَتَرَى جَلِيًّا -إِنْ شَاءَ اللهُ- أَنَّنِي حَاوَلْتُ أَنْ أَجْتَنِيَ ثِمَارَ عُلُومِ الْبَيَانِ وَالْمَعَانِي وَاللُّغَةِ؛ لِتَظْهَرَ مِنْ خِلَالِهَا الِاسْتِنْبَاطَاتُ الثَّرِيَّةُ

الَّتِي تَتَضَمَّنُهَا الْآيَاتُ. فَعَسَى عِنْدَ ذَلِكَ أَنْ تَتَسَاقَطَ أَنْوَارُ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ عَلَى الْمُتَدَبِّرِ رُطَبًا جَنِيًّا، لِتُكَوِّنَ الْمَقَاصِدَ وَالْبَصَائِرَ الَّتِي تَبْنِي الْحَيَاةَ.

وَهُنَا قَدْ يَسْأَلُ سَائِلٌ: لِمَاذَا نُفَسِّرُ الْقُرْآنَ وَقَدْ فَسَّرَهُ عُلَمَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ ﷺ تَعَالَى؟

الْجَوَابُ:

أَوَّلًا: الْقُرْآنُ لَا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ، وَهُوَ يُمِدُّ مَنْ يَقْصِدُ بِحَارَ آيَاتِهِ بِفَيْضٍ مِنَ الْكُنُوزِ، وَثَرَوَاتٍ تَنْجُو بِهَا النُّفُوسُ وَتَفُوزُ، وَلَا يَرْجِعُ مَنْ يَطْلُبُ بَصَائِرَ آيَاتِهِ خَاسِئًا أَوْ خَاسِرًا، أَوْ مُكَرَّرًا جُهُودَ السَّابِقِينَ دُونَ إِبْدَاءِ جَدِيدٍ فِي بَيَانَاتِهِ أَوْ أَنْوَارِهِ. فَاللَّهُمَّ افْتَحْ لَنَا مَخْبَآتِ كُنُوزِ كِتَابِكَ.

ثَانِيًا: هَذَا التَّفْسِيرُ يَنْطَلِقُ مِنْ مَبْدَأِ التَّسْوِيرِ، وَيُحَاوِلُ أَنْ يَكْشِفَ لِلْعَالَمِ الْحِكْمَةَ الْعُظْمَى مِنْ تَحَدِّي الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ لَهُمْ أَنْ يَأْتُوا بِسُورَةٍ.

أَلَا تَرَى أَنَّ اللهَ ﷻ سَوَّرَ سَبْعَ آيَاتٍ بِسُورٍ سَمَّاهُ الْفَاتِحَةَ، وَسَوَّرَ (٢٨٦) آيَةً بِسُورٍ سَمَّاهُ الْبَقَرَةَ، وَسَوَّرَ (٦) آيَاتٍ بِسُورٍ سَمَّاهُ النَّاسَ، وَسَوَّرَ (٣) آيَاتٍ بِسُورٍ سَمَّاهُ الْكَوْثَرَ، وَهَذَا السُّورُ أَعْطَاهُ هَذِهِ التَّسْمِيَةَ الْمُمَيِّزَةَ (سُورَةً) ثُمَّ تَحَدَّى اللهُ ﷻ بِسُورَةٍ، فَقَالَ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ...﴾ [يونس: ٣٨].

هُنَا لَا بُدَّ لَنَا مِنْ مَعْرِفَةِ سِرِّ هَذَا التَّسْوِيرِ.. يَدْفَعُنَا ذَلِكَ لِأَنْ نُحَاوِلَ إِدْرَاكَ الْحِكْمَةِ مِنْ جَمْعِ آيَاتٍ بِعَيْنِهَا فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ اسْمُهُ سُورَةٌ ضِمْنَ كَلَامِ اللَّطِيفِ الْخَبِيرِ، وَأَشَارَ الطِّيبِيُّ وَابْنُ عَاشُورٍ ﷺ إِلَى أَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَظْهَرَ مِنِ اجْتِمَاعِ الْآيَاتِ فِي سُورَةٍ مَا لَا يَظْهَرُ فِي الْآيَاتِ الْمُتَفَرِّقَاتِ[١].

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ١٠٤).

ثَالِثًا: الْمَقْصَدُ الْأَسَاسِيُّ مِنْ تَفْسِيرِ الْبَصَائِرِ أَنْ نَجْعَلَ تَفْسِيرَنَا لِلْقُرْآنِ يَنْطَلِقُ مِنْ خِلَالِ كَوْنِ كَلِمَاتِ الْقُرْآنِ بَصَائِرَ نُبْصِرُ بِهَا الْحَيَاةَ لَا أَنْ يَكُونَ التَّفْسِيرُ مُجَرَّدَ فَتْحٍ لِمَعَانِي الْكَلِمَاتِ، وَمَعَالِمِ الْآيَاتِ.

نَجْتَهِدُ فِي أَنْ نَبْحَثَ فِي كُلِّ حَرْفٍ مِنْ كِتَابِ رَبِّنَا، فِي كُلِّ كَلِمَةٍ، فِي كُلِّ جُمْلَةٍ، فِي كُلِّ قَبَسٍ مِنْ أَقْبَاسِ الْقُرْآنِ، فِي كُلِّ آيَةٍ مِنْ آيَاتِهِ، وَفِي كُلِّ سُورَةٍ مِنْ سُوَرِهِ، وَنُنَقِّبَ فِي مَعَانِيهَا الْجُزْئِيَّةِ وَالْكُلِّيَّةِ، عَسَى أَنْ يَفْتَحَ لَنَا رَبُّنَا لِنَرَى كَيْفَ يُعَلِّمُنَا الْقُرْآنُ الْفَهْمَ الْحَقِيقِيَّ لِلْحَيَاةِ.

وَرُبَّمَا سَأَلَ سَائِلٌ: مَا الْأَهْدَافُ الْعُظْمَى الَّتِي نُرِيدُ إِظْهَارَهَا مِنْ خِلَالِ هَذَا التَّفْسِيرِ الْبَصَائِرِيِّ لِلْقُرْآنِ الْعَظِيمِ الْحَكِيمِ؟

الْجَوَابُ: هُنَا تَأْتِي:

البصيرةُ الثَّالِثَةُ: مِنْ أَهَمِّ أَهْدَافِ هَذَا الْكِتَاب



أَمَّا الْهَدَفُ الْأَوَّلُ:

فَهُوَ تَقْدِيمُ الْبَيِّنَةِ الْقُرْآنِيَّةِ لِلْعَالَمِ لِيَشْعُرُوا بِجَمَالِ الْقُرْآنِ وَعَظَمَتِهِ، فَيُلْهِمَ مَشَاعِرَهُمْ، وَيُوَجِّهَ أَفْكَارَهُمْ، وَيُسْعِدَ حَيَاتَهُمْ.

وَأَمَّا الْهَدَفُ الثَّانِي:

فَهُوَ إِحْيَاءُ حَاكِمِيَّةِ الْقُرْآنِ فِي النُّفُوسِ، وَوَظِيفَتِهِ فِي الذِّكْرِ وَالتَّذْكِيرِ، وَهَيْمَنَتِهِ عَلَى الْفِكْرِ وَالتَّفْكِيرِ، وَتَقْدِيمِهِ لِلْإِنْذَارِ وَالتَّبْشِيرِ.

نُعِيدُ تَرْتِيبَ حَيَاتِنَا لِيَكُونَ الْقُرْآنُ لَنَا كَمَا كَانَ لِتَلَامِيذِ النَّبِيِّ ﷺ أَسَاسَ الِانْطِلَاقِ لِلْعَالَمِ وَلِلْحَيَاةِ.

يَنْطَلِقُ الْمُسْلِمُ مِنْ قَوْلِ اللهِ ﷻ: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ [البَقَرَة: ٢٨٥] فَأَمْرُ اللهِ ﷻ نَافِذٌ بِخُضُوعٍ وَاسْتِمَاعٍ، وَحُكْمُهُ قَائِمٌ مُطَاعٌ بِلَا تَرَدُّدٍ وَلَا نِزَاعٍ. هُنَا لَا تَجِدُ النُّفُوسُ حَسَاسَةً مِنْ مُرَادَاتِهِ، وَلَا تَتَضَجَّرُ الْقُلُوبُ مِنْ تَوْجِيهَاتِهِ، وَلَا تُعَارِضُ الْعُقُولُ تَشْرِيعَاتِهِ، هُنَا تَرَى الْمُؤْمِنِينَ يَرْفَعُونَ شِعَارَهُمُ الْأَبَدِيَّ وَمَبْدَأَهُمُ السَّرْمَدِيَّ الَّذِي حَكَاهُ اللهُ عَنْهُمْ، فَقَالَ: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾ [النُّور: ٥١].

وَأَمَّا الْهَدَفُ الثَّالِثُ:

فَهُوَ إِبْصَارُ الرُّؤْيَةِ الْقُرْآنِيَّةِ الَّتِي تُحَدِّدُ لِلْمُسْلِمِينَ -أَفْرَادًا وَأُمَّةً، وَشُعُوبًا وَحُكُومَاتٍ- الْأَوْلَوِيَّاتِ الْحَيَاتِيَّةَ الَّتِي تُشَكِّلُ الْأَسَاسَ الْفِكْرِيَّ وَالثَّقَافِيَّ الَّذِي نُبْصِرُ بِهِ كَيْفِيَّةَ التَّعَامُلِ مَعَ الْوُجُودِ: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ﴾ [الأنعام: ١٠٤]، وَتَطْبِيقُ ذَلِكَ عَلَى سُورَةِ (الْفَاتِحَةِ).

وَأَمَّا الْهَدَفُ الرَّابِعُ:

فَهُوَ النَّظَرُ فِي الْبِنَاءِ الْقُرْآنِيِّ، وَالتَّرَابُطِ الْمُتَنَاهِي فِي تَرْتِيبِ آيَاتِ السُّورَةِ الْوَاحِدَةِ، بِإِظْهَارِ مَحَاوِرِ السُّورَةِ فِي صُورَةٍ خَطِّيَّةٍ مُتَتَابِعَةٍ مُتَرَابِطَةٍ مُتَكَامِلَةٍ تُؤَدِّي كُلُّ آيَةٍ إِلَى الْآيَةِ الَّتِي تَلِيهَا، وَيَقْتَضِي أَوَّلُهَا الْوُصُولَ إِلَى آخِرِهَا، وَيُخْبِرُ آخِرُهَا عَنْ أَوَّلِهَا، فَيَتَجَلَّى جَمَالُ الِاتِّصَالِ الْمُحْكَمِ بَيْنَ آيَاتِ السُّورَةِ الْوَاحِدَةِ.

هَكَذَا تَظْهَرُ مُعْجِزَةُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ الْبَيَانِيَّةُ لِلْعَالَمِ لَا يَقِفُ أَمَامَهَا شَيْءٌ، وَقَدْ كَانَ أَعْدَاءُ الْقُرْآنِ عَلَى مَرِّ الْعُصُورِ إِذَا سَمِعُوا الْقُرْآنَ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَفْعَلُوا أَمَامَهُ إِلَّا شَيْئَيْنِ، مَا هُمَا؟

أَوَّلًا: يُحَذِّرُونَ مِنْ سَمَاعِهِ؛ لِأَنَّهُ لَهُ طَبِيعَةٌ مُؤَثِّرَةٌ وَحَقِيقَةٌ مُسَيْطِرَةٌ يَشْعُرُ بِهَا كُلُّ مَنْ سَمِعَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ غَيْرَ مُؤْمِنٍ بِهِ، أَوْ حَتَّى لَا يَفْهَمَ مَعَانِيَهُ، وَقَالَ اللهُ ﷻ عَنِ الشَّيْءِ الْأَوَّلِ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ﴾ [فُصِّلَت : ٢٦] أَيْ: لَا تَسْتَمِعُونَ لِتِلَاوَتِهِ وَلَوْ كَانُوا يَعْتَقِدُونَ خَطَأَهُ أَوْ عَدَمَ صَوَابِيَّتِهِ؛ لِأَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ الْهَيْمَنَةَ الْعَظِيمَةَ الَّتِي تَكُونُ فِي الْقُرْآنِ وَالْجَاذِبِيَّةَ الَّتِي يَمْتَلِكُهَا، خُذْ هَذَا الْمِثَالَ: النَّائِبُ الْهُولَنْدِيُّ (يُورَامْ كِلَا فِيرْنْ) كَانَ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلْقُرْآنِ الْعَظِيمِ وَالنَّبِيِّ الْأَمِينِ ﷺ، وَدَعَا لِعِدَّةِ قَوَانِينَ ضِدَّ الْمُسْلِمِينَ، وَمِنْ شِدَّةِ عَدَاوَتِهِ لِلْقُرْآنِ وَلِلرَّسُولِ ﷺ أَرَادَ إِكْمَالَ دِرَاسَاتِهِ الْعُلْيَا فِي إِظْهَارِ النُّصُوصِ الْقُرْآنِيَّةِ وَالنَّبَوِيَّةِ الَّتِي تُفَجِّرُ الْإِسْلَامَ مِنَ الدَّاخِلِ، وَاسْتَدْعَى هَذَا أَنْ يَدْرُسَ الْقُرْآنَ وَسِيرَةَ النَّبِيِّ ﷺ. فَمَاذَا كَانَتِ النَّتِيجَةُ؟

لَقَدْ أَبْصَرَ بَصَائِرَ الْحَقِّ، وَأَعْلَنَ إِسْلَامَهُ وَسَطَ دَهْشَةٍ هَائِلَةٍ مِنَ الْمُسْتَكْبِرِينَ الْمُعَانِدِينَ مِمَّنْ حَوْلَهُ. جَذَبَهُ الْقُرْآنُ، وَأَشْرَقَتْ فِي نَفْسِهِ بَصَائِرُهُ، وَمَلَأَتْ عَاطِفَتَهُ أَنْوَارُ نَبِيِّ الرَّحْمَةِ لِلْعَالَمِينَ.

ثَانِيًا: التَّمْوِيهُ عَلَيْهِ وَمُحَاوَلَةُ تَشْتِيتِ انْتِبَاهِ السَّامِعِ عَنِ الِاسْتِمَاعِ وَالْإِنْصَاتِ لَهُ، قَالَ اللهُ تَعَالَى عَنِ الشَّيْءِ الثَّانِي: ﴿وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ٢٦﴾ [فُصِّلَت : ٢٦].

وَقَدْ قَامَ أَعْدَاءُ الْقُرْآنِ الْيَوْمَ بِمُحَاوَلَةٍ جَدِيدَةٍ ظَنًّا مِنْهُمْ أَنَّهُمْ سَوْفَ يَنْتَقِصُونَ مِنْ قَدْرِ الْقُرْآنِ وَمَكَانَتِهِ وَأَثَرِهِ فِي النُّفُوسِ وَالْوِجْدَانِ، فَقَامُوا بِإِحْرَاقِهِ فِي الْمَرَاكِزِ وَالسَّاحَاتِ أَمَامَ الْكَامِيرَاتِ وَالْقَنَوَاتِ، وَتَبَجَّحُوا أَنَّ ذَلِكَ مِنَ الْحُقُوقِ وَالْحُرِّيَّاتِ، وَخَابُوا وَخَسِرُوا فَالْقُرْآنُ الْكَرِيمُ لَا يُحَارَبُ بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ الْهَمَجِيَّةِ إِلَّا وَيَزْدَادُ ظُهُورًا وَوُضُوحًا فِي نُفُوسِ النَّاسِ.

وَقَدْ قَرَّرَ اللهُ -جَلَّ مَجْدُهُ- حَقِيقَةَ تَرَابُطِ آيِ الذِّكْرِ الْحَكِيمِ، فَيَقُولُ: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود:١]، فَمَا مَعْنَى الْإِحْكَامِ الَّذِي أَخْبَرَ اللهُ عَنْهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ؟ وَكَيْفَ يَكُونُ التَّفْصِيلُ وَفْقَهُ؟

إِنَّ الْمُتَأَمِّلَ فِي آيَاتِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ يَجِدُ أَنَّ كُلَّ آيَةٍ تَسُوقُكَ إِلَى مَا بَعْدَهَا بِتَرْتِيبٍ مُعْجِزٍ، وَعَلَى نَسَقٍ خَطِّيٍّ مُسْتَقِيمٍ يُبَيِّنُ التَّمَاسُكَ الْمَوْضُوعِيَّ فِي السُّورَةِ، وَيُسَاعِدُ عَلَى إِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَى الْمُسْتَوَى الْعَالَمِيِّ بِالْبَلَاغِ الْقُرْآنِيِّ.

وَلْنَرَ مَا يَقُولُهُ (جَاكْ بِيرْك) أَحَدُ الْمُفَكِّرِينَ الْفَرَنْسِيِّينَ الْمُتَخَصِّصِينَ فِي دِرَاسَةِ الْقُرْآنِ فِي الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ: «إِنَّ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَقْرَؤُونَ الْقُرْآنَ دُونَمَا إِعْدَادٍ مُسْبَقٍ يَجِدُونَ أَنْفُسَهُمْ مُشَوَّشِينَ بِسَبَبِ إِسْهَابِهِ؛ إِذْ يَنْتَقِلُ الْحَدِيثُ مِنْ مَوْضُوعٍ إِلَى آخَرَ دُونَمَا تَتَابُعٍ أَوِ اكْتِمَالٍ، وَتَتَكَرَّرُ الْمَوْضُوعَاتُ وَالْأَفْكَارُ الرَّئِيسَةُ نَفْسُهَا هُنَا وَهُنَاكَ دُونَمَا انْتِظَامٍ مَلْحُوظٍ»[1].

(١) (فِي نَظْمِ سُورَةِ الْمَائِدَةِ) نَظْمُ آيِ الْقُرْآنِ فِي ضَوْءِ مَنْهَجِ التَّحْلِيلِ الْبَلَاغِيِّ لِمِيشِيل كُويْبِرْس ص١٢، وَهُوَ قَدْ قَامَ فِي هَذَا الْكِتَابِ بِمُحَاوَلَةٍ لَافِتَةٍ لِبَيَانِ الْإِحْكَامِ وَالتَّرَابُطِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، مَعَ اخْتِلَافِ النَّسَقِ الْعَامِّ بَيْنَ عَمَلِنَا هُنَا وَكُتُبِهِ.

وَأَمَّا الْهَدَفُ الْخَامِسُ:

فَهُوَ أَنْ نَعْرِفَ الْحِكْمَةَ، وَالْإِحْكَامَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، فَهُوَ كِتَابٌ وَصَفَهُ اللهُ ﷻ بِأَنَّهُ مُحْكَمٌ وَحَكِيمٌ، وَقَدْ تَجَلَّى وَصْفُهُ بِالْحِكْمَةِ فِي سُورَتَيْ يُونُس وَلُقْمَانَ: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝١﴾ [يونس: ١، لقمان" ٢]، فَهُوَ مُحْكَمٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ، وَوُصِفَ بِأَنَّهُ ذُو حِكْمَةٍ.

إِذًا لَا بُدَّ أَنْ نَعْرِفَ مَا وَجْهُ الْإِحْكَامِ؟ وَمَا وَجْهُ الْحِكْمَةِ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، فَكُلُّ آيَةٍ وَكُلُّ كَلِمَةٍ وَكُلُّ سُورَةٍ تُظْهِرُ لَنَا تِلْكَ الْحِكْمَةَ وَذَلِكَ الْإِحْكَامَ؟

مَاذَا يَعْنِي ذَلِكَ؟

إِنَّهُ يَسْتَوْجِبُ مِنَّا الْمُصَابَرَةَ عَلَى اسْتِكْشَافِ الْمُعْجِزَةِ الْقُرْآنِيَّةِ، وَمِنْ ذَلِكَ اسْتِكْشَافُ الْإِحْكَامِ الْوَارِدِ بَيْنَ آيَاتِ السُّوَرِ وَمَحَاوِرِهَا الْمُخْتَلِفَةِ؛ فَقَدْ شَكَا بَعْضُ الْقُرَّاءِ لِلْقُرْآنِ مِنْ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ أَنَّ الْوَاحِدَ مِنْهُمْ عِنْدَمَا يَرُومُ اسْتِكْشَافَ الْقُرْآنِ لِلْمَرَّةِ الْأُولَى، لَا سِيَّمَا فِي نُسْخَتِهِ الْمُتَرْجَمَةِ، سُرْعَانَ مَا يَقَعُ فِي حَيْرَةٍ إِزَاءَ هَذَا النَّصِّ، نَتِيجَةً لِعَجْزِهِ عَنْ إِدْرَاكِ الْعَلَاقَاتِ بَيْنَ أَجْزَائِهِ الَّتِي تَتَتَابَعُ مَوْضُوعَاتُهَا، وَتَخْتَلِطُ فِيمَا بَيْنَهَا دُونَ أَيِّ مَنْطِقٍ، أَوِ اتِّسَاقٍ ظَاهِرٍ.

اسْقِ -أَيَّدَكَ اللهُ- هَؤُلَاءِ الْعِطَاشَ مِنْ يَنَابِيعِ الْقُرْآنِ مَا يُبَيِّنُ لَهُمُ التَّمَاسُكَ الْمُدْهِشَ، وَالْإِحْكَامَ الْمُذْهِلَ لِلْأَلْفَاظِ وَالْمَعَانِي فِي الْبَيَانِ الْقُرْآنِيِّ؛ فَفَصْلُ الْخِطَابِ أَنَّ آيَاتِ الْقُرْآنِ «جَاءَتْ عَلَى حَسَبِ الْوَقَائِعِ تَنْزِيلًا، وَعَلَى حَسَبِ الْحِكْمَةِ تَرْتِيبًا وَتَأْصِيلًا»[(١)]، «فَمَنْ تَدَبَّرَ الْقُرْآنَ وَتَدَبَّرَ مَا قَبْلَ الْآيَةِ، وَمَا بَعْدَهَا... تَبَيَّنَ لَهُ الْمُرَادُ، وَعَرَفَ الْهُدَى وَالرِّسَالَةَ، وَعَرَفَ السَّدَادَ مِنَ الِانْحِرَافِ وَالِاعْوِجَاجِ»[(٢)].

---

(١) من كلمة سديدة لولي الدين الملوي ﷺ. انظر: البرهان للزركشي ١/ ٣٧، الإتقان في علوم القرآن (٣/ ٣٧٠).

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية (١٥/ ٩٤).

وَلِأَنَّنَا نُرِيدُ اسْتِخْرَاجَ كُنُوزِ الْقُرْآنِ وَاسْتِكْشَافَهَا لَا بُدَّ أَنْ نَتَسَاءَلَ: مَا الْحِكْمَةُ مِنْ تَرْتِيبِ آيَاتِ الْقُرْآنِ وَسُوَرِهِ عَلَى هَذَا النَّحْوِ الْمَوْجُودِ فِي الْمُصْحَفِ مَعَ أَنَّهَا عِنْدَمَا نَزَلَتْ تَارِيخِيًّا لَمْ تَنْزِلْ مُرَتَّبَةً بِتِلْكَ الصُّورَةِ؟

الْجَوَابُ: هُنَا تَأْتِي:

البصيرةُ الرَّابِعَةُ

حِكْمَةٌ مُدْهِشَةٌ: تَرْتِيبُ آيَاتِ الْقُرْآنِ وَسُوَرِهِ

نَعَمْ! يَحِقُّ لِلْمَرْءِ أَنْ يَتَسَاءَلَ حَوْلَ الْحِكْمَةِ مِنْ تَرْتِيبِ الْآيَاتِ عَلَى هَذِهِ الشَّاكِلَةِ الْفَرِيدَةِ دُونَمَا اعْتِمَادٍ لِلْمَنْهَجِ التَّارِيخِيِّ أَوِ الْمَوْضُوعِيِّ الْمُبَاشِرِ.

وَيَكْفِي فِي الْجَوَابِ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ التَّرْتِيبَ الْقُرْآنِيَّ بِسُوَرِهِ وَآيَاتِهِ أَنْتَجَ عِدَّةَ مُسْتَوَيَاتٍ لِفَهْمِ النَّصِّ، مِمَّا مَيَّزَ النَّصَّ الْقُرْآنِيَّ بِجَعْلِهِ مُيَسَّرًا لِلْأُمِّيِّ وَفْقَ مَقْدِرَتِهِ الثَّقَافِيَّةِ، كَمَا مَكَّنَ الْعَالِمَ الرَّاسِخَ مِنْ أَنْ يَسْتَنْبِطَ مِنَ النَّصِّ ذَاتِهِ الْمَبَادِئَ وَالْمَفَاهِيمَ الْمُذْهِلَةَ فِي بِنَاءِ الْحَيَاةِ، وَذَلِكَ بِإِعْمَالِ الْعَقْلِ الْبَشَرِيِّ فِي تَدَبُّرِ كَلَامِ اللهِ -جَلَّ مَجْدُهُ-.

وَتَحْضُرُنِي هُنَا قِصَّةٌ حَدَثَتْ فِي مُلْتَقًى نَظَّمَهُ رَئِيسٌ عَرَبِيٌّ مَعَ السِّلْكِ الدِّبْلُومَاسِيِّ فِي بَلَدِهِ، وَحَضَرَهُ وَاحِدٌ مِنْ أَبْرَزِ الْوُجُوهِ الْعِلْمِيَّةِ، فَطَرَحَ السَّفِيرُ الْفَرَنْسِيُّ عَلَيْهِ سُؤَالًا يَقُولُ فِيهِ: هَلْ أَلْفَاظُ الْقُرْآنِ مَحْدُودَةٌ؟ فَأَجَابَهُ: نَعَمْ، عَدَدُ آيَاتِ الْقُرْآنِ (٦٢٣٦) آيَةً، فَقَالَ: هَلْ قَضَايَا الْعَالَمِ مَحْدُودَةٌ، فَأَجَابَهُ: لَا، فَمَا تَزَالُ الْمُسْتَجِدَّاتُ الْإِنْسَانِيَّةُ تَزْدَادُ مَعَ تَقَدُّمِ الزَّمَانِ، فَقَالَ السَّفِيرُ: فَكَيْفَ يُحِيطُ الْمَحْدُودُ بِغَيْرِ الْمَحْدُودِ؟

وَقَصَدَ مِنَ السُّؤَالِ الرَّدَّ عَلَيْنَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ فِي قَوْلِنَا: إِنَّ الْقُرْآنَ هُوَ الْحَلُّ لِكُلِّ قَضَايَا بَنِي الْإِنْسَانِ، وَقَدْ رَدَّ عَلَيْهِ الشَّيْخُ بِإِجَابَةٍ خُلَاصَتُهَا: الْمَحْدُودُ يَسَعُ كُلَّ مَا يَسْتَجِدُّ مِنَ الْقَضَايَا

وَالْحُدُودِ؛ لِأَنَّ الَّذِي تَكَلَّمَ بِهِ هُوَ الَّذِي خَلَقَ الْإِنْسَانَ، وَهُوَ الْمُحِيطُ عِلْمًا بِكُلِّ الْقَضَايَا الْمُسْتَجِدَّةِ.

وَلِذَلِكَ قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الكهف: ١٠٩]، فَإِمَّا أَنْ يُرَادَ بِهِ الْكَلِمَاتُ، وَإِمَّا أَنْ يُرَادَ بِهَا مَعَانِي الْآيَاتِ مَعَانِي هَذِهِ الْكَلِمَاتِ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، وَلِذَلِكَ قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [النحل: ٨٩]، وَمِنْ هُنَا تَتَجَلَّى لَنَا خَصِيصَةٌ عَظِيمَةٌ، وَصِفَةٌ جَلِيلَةٌ مِنْ أَعْظَمِ صِفَاتِ الْقُرْآنِ، وَهُوَ الْحِكْمَةُ وَالْإِحْكَامُ فِي الْقُرْآنِ، فَهُوَ يُظْهِرُ لَنَا مَعَانِيَ مُتَعَدِّدَةً لَا حَصْرَ لَهَا وَلَا انْقِطَاعَ وَلَا نَفَادَ، نَسْتَلْهِمُهَا مِنْ خِلَالِ تَأَمُّلِنَا وَسَمَاعِنَا لِكِتَابِ رَبِّنَا.

إِنَّ الْإِجَابَةَ وَاضِحَةٌ فِي الْمُسْتَوَيَاتِ الْمُتَعَدِّدَةِ لِفَهْمِ النَّصِّ الْقُرْآنِيِّ وَفْقَ مَنْهَجِيَّةِ أُصُولِ التَّفْسِيرِ، بَلْ إِنَّ هَذَا الْوَجْهَ يُعَدُّ مِنْ أَهَمِّ وُجُوهِ الْإِعْجَازِ الْقُرْآنِيِّ؛ إِذِ الْقُرْآنُ أَلْفَاظٌ مَحْصُورَةٌ، وَكَلِمٌ مَعْدُودَةٌ لَكِنَّهَا رُتِّبَتْ تَرْتِيبًا خَاصًّا، وَنُظِمَتْ نَظْمًا مُحْكَمًا لِتَسْتَوْعِبَ مِنَ الْمَعَانِي مَا لَيْسَ فِي طَوْقِ الْبَشَرِ[1]، وَبِذَا يَتَمَهَّدُ الطَّرِيقُ؛ لِمَعْرِفَةِ تَفْصِيلِ مَقَاصِدِ التَّنْزِيلِ الْقُرْآنِيِّ الَّتِي أُجْمِلَتْ فِي قَوْلِهِ -جَلَّ ثَنَاؤُهُ-: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

وَعَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ نَزَلَتْ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾﴾ [العلق: ١] قَبْلَ أَنْ تَنْزِلَ الْفَاتِحَةُ، بَيْنَمَا نَحْنُ نَجِدُ فِي تَرْتِيبِ الْمُصْحَفِ، الْفَاتِحَةَ فِي أَوَّلِ مُصْحَفٍ، فَمَا السِّرُّ فِي ذَلِكَ؟

---

(١) أشار عبد القاهر الجرجاني إلى نحوِ ذلك في وجه الإعجاز القرآني في تدبرِ آسِرِ. انظر: دلائل الإعجاز للجرجاني، تحقيق محمود شاكر ص٤٠، وراجع دروس شرح الكتاب لفضيلة الأستاذ الدكتور/ محمد أبو موسى.

إِنَّ الْقَوْلَ الرَّاجِحَ هُوَ الَّذِي ذَهَبَ إِلَيْهِ مُحَقِّقُو الْعُلَمَاءِ مِنْ أَنَّ تَرْتِيبَ السُّوَرِ تَوْقِيفِيٌّ لَا اجْتِهَادِيٌّ، وَأَمَّا تَرْتِيبُ الْآيَاتِ فَهُوَ تَوْقِيفِيٌّ بِإِجْمَاعِ أَهْلِ الْعِلْمِ، وَيَرَى الْمُتَأَمِّلُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مِنْ خِلَالِ تَرْتِيبِهِ الْمُخَالِفِ لِلنُّزُولِ التَّارِيخِيِّ حِكَمًا مُدْهِشَةً، يَحِقُّ لِلْمَرْءِ أَنْ يَتَسَاءَلَ: مَا هَذِهِ الْحِكْمَةُ الْمُدْهِشَةُ؟

يَكْفِي فِي الْجَوَابِ أَنْ نَعْلَمَ أَنَّ التَّرْتِيبَ الْقُرْآنِيَّ بِهَذِهِ الصُّورَةِ أَظْهَرَ لَنَا عَدَدًا مِنَ الْمُسْتَوَيَاتِ فِي الْفَهْمِ، فَتَجَلَّتْ لَنَا مَعَانٍ مُتَعَدِّدَةٌ، وَعِنْدَمَا نَنْظُرُ إِلَى نُزُولِ الْقُرْآنِ بِحَسَبِ الْأَوْقَاتِ نَفْهَمُ مِنْهُ أَشْيَاءً، وَعِنْدَمَا نَنْظُرُ إِلَى تَرْتِيبِ الْقُرْآنِ بِحَسَبِ التَّرْتِيبِ الْمُصْحَفِيِّ الْمَوْجُودِ الْآنَ أَيْضًا نَفْهَمُ مِنْهُ أَشْيَاءَ، وَبِذَلِكَ صَارَ الْقُرْآنُ مُيَسَّرًا لِلْأُمِّيِّ، فَهُوَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَفْهَمَ مِنَ الْقُرْآنِ، وَيُحِبَّ الْقُرْآنَ، وَتَرَى عَيْنَيْهِ تَفِيضَانِ بِالدَّمْعِ عِنْدَمَا يَتَدَبَّرُ الْقُرْآنَ وَفْقَ مَقْدِرَتِهِ الثَّقَافِيَّةِ، كَمَا هُوَ مُيَسَّرٌ لِلْمُثَقَّفِ، وَكَذَلِكَ الْعَالِمِ الرَّاسِخِ.

فَكُلُّهُمْ إِذَا سَمِعَ الْقُرْآنَ تَرَاهُ كَمَا وَصَفَ اللهُ الْجَمِيعَ، فَقَالَ: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٨٣﴾ [المائدة : ٨٣]، وَهَذِهِ الْآيَةُ فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ نَزَلَتْ تَصِفُ حَالَ النَّجَاشِيِّ وَأَصْحَابِهِ؛ عِنْدَمَا كَانَ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ يَتْلُو الْقُرْآنَ، وَهَذَا لَيْسَ خَاصًّا بِهِمْ، بَلْ هُوَ حَالُ كُلِّ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَى الْقُرْآنِ وَيَتْلُوهُ وَيَتَدَبَّرُ مَعَانِيَهُ. وَالنَّتِيجَةُ أَنَّ فِكْرَةَ الْإِحْكَامِ وَالتَّرَابُطِ الْمَوْضُوعِيِّ فِي آيَاتِ السُّوَرِ تُصْبِحُ غَيْثًا فِكْرِيًّا وَعَاطِفِيًّا مُرَكَّزًا لِبِنَاءِ الْعَقْلِيَّةِ وَالنَّفْسِيَّةِ الْمُسْلِمَةِ وَفْقَ الْهِدَايَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ، فَهَلْ أَغْفَلَهَا عُلَمَاؤُنَا الَّذِينَ لَهُمْ قَدَمُ صِدْقٍ سَابِقَةٌ فِي التَّفْسِيرِ؟

كَلَّا، بَلْ إِنَّكَ سَتَرَاهَا مَبْثُوثَةً فِي كَلَامِهِمْ وَهُمْ جَهَابِذَةُ الْعُلَمَاءِ، وَأَسَاطِينُ الْمُفَسِّرِينَ إِلَّا أَنَّهَا رُبَّمَا كَانَتْ مُسْتَتِرَةً وَفِي مَوَاضِعَ مُحَدَّدَةٍ، وَبِتَعَابِيرَ مُخْتَصَرَةٍ يَحْجُبُهَا الِاهْتِمَامُ بِالتَّفْسِيرِ

التَّحْلِيلِيِّ لِكُلِّ كَلِمَةٍ وَآيَةٍ عَلَى حِدَةٍ، حَتَّى انْبَعَثَ أَئِمَّةُ الْهُدَى فَظَهَرَ اهْتِمَامُهُمْ بِالتَّفْسِيرِ الْكُلِّيِّ، وَالْإِحْكَامِ الْمَوْضُوعِيِّ بَيْنَ الْآيَاتِ مُقْتَرِنًا بِالتَّفْسِيرِ التَّحْلِيلِيِّ.

وَمِنْ أَبْرَزِهِمْ: **الْإِمَامُ الْفَخْرُ الرَّازِيُّ** (ت٦٠٦هـ) وَشَيْخُ الصَّنْعَةِ **الْبِقَاعِيُّ** (ت٨٨٥هـ)، وَمَضَى عَلَى ذَلِكَ التَّدَبُّرِ مَعَ تَجَدُّدِ الْأَفْكَارِ وَالتَّفَكُّرِ الْأُسْتَاذُ **عَبْدُ الْحَمِيدِ الْفَرَاهِيُّ** (ت١٣٤٩هـ)، وَبَرَزَ ذَلِكَ بِصُورَةٍ مُدْهِشَةٍ عِنْدَ الشَّيْخِ **مُحَمَّد رَشِيد رِضَا** (ت١٣٥٤هـ)، ثُمَّ جَاءَ الْغَيْثُ الْمُنْهَمِرُ مَعَ مَنْ عَاشَ مَعَ الْقُرْآنِ وَمَاتَ عَلَيْهِ إِنَّهُ الْأُسْتَاذُ الْأَدِيبُ **سَيِّدُ قُطْبٍ** (ت١٣٨٥هـ) وَنَلْمَسُ ذَلِكَ بِصُورَةٍ ظَاهِرَةٍ عِنْدَ إِمَامِ الْمُتَأَخِّرِينَ فِي التَّفْسِيرِ **مُحَمَّد الطَّاهِرِ بْنِ عَاشُورٍ التُّونِسِيِّ** (ت١٣٩٣هـ) صَاحِبِ كِتَابِ «تَحْرِيرِ الْمَعْنَى السَّدِيدِ وَتَنْوِيرِ الْعَقْلِ الْجَدِيدِ مِنْ تَفْسِيرِ الْكِتَابِ الْمَجِيدِ»، أُمَّةٌ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ يَصْنَعُ مِنْهُمُ الْقُرْآنُ أَعْلَامًا بَاسِقَةً، وَنُجُومًا يَسْتَضِيءُ الْعَالَمُ بِهَا -جَزَاهُمْ رَبِّي أَحْسَنَ جَزَاءٍ- عَلَى أَنَّنِي لَمْ أَسِرْ فِي هَذَا الْكِتَابِ إِلَّا مُؤَيَّدًا بِالنَّظَرَاتِ الرَّائِدَةِ الَّتِي تَجِدُ رَحِيقَهَا عِنْدَ شَيْخِ الْمُفَسِّرِينَ **أَبِي جَعْفَرٍ مُحَمَّدِ بْنِ جَرِيرٍ الطَّبَرِيِّ** (ت٣١٠هـ) الَّذِي يُقَدِّمُ قَوْمَهُ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ إِمَامَ صِدْقٍ لِمَنْ بَعْدَهُ كَإِمَامِ فُقَهَاءِ الْمُحَدِّثِينَ **أَبِي الْفِدَاءِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ عُمَرَ بْنِ كَثِيرٍ** (ت ٧٧٤هـ)، وَغَيْرِهِمَا رحمهم الله.

هُنَا لَا بُدَّ أَنْ نَتَسَاءَلَ: كُلُّ هَذِهِ الْمَعْرِفَةِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي تَتَجَلَّى لَنَا فِي تَارِيخِ الْقُرْآنِ تَدْفَعُنَا إِلَى سُؤَالٍ أَعْمَقَ: فَمَا السَّبِيلُ الْحَقِيقِيُّ الَّذِي يَكْشِفُ لَنَا أَنْوَارَ الْقُرْآنِ، وَيُخْرِجُ كُنُوزَهُ؟

الْجَوَابُ: هُنَا تَأْتِي:

البصيرةُ الْخَامِسَةُ

مَنْهَجُ التَّدَبُّرِ (أَيُّهَا التَّالِي: أَمْعِنِ النَّظَرَ، وَأَعِدِ التَّفْكِيرَ وَالْتَمِسِ الْعِبَرَ)

مَا الْوَسِيلَةُ الْمُمْكِنَةُ لِاسْتِكْشَافِ الْمُعْجِزَةِ الْقُرْآنِيَّةِ؟

جَعَلَ اللهُ -تَعَالَى عِزُّهُ- اسْتِكْشَافَ النُّورِ الْقُرْآنِيِّ رَهْنًا بِتَدَبُّرِكَ لِآيَاتِهِ، وَإِعْمَالِ فِكْرِكَ فِي بَيِّنَاتِهِ وَمُعْجِزَاتِهِ، وَكُلَّمَا عَظُمَ التَّدَبُّرُ كَانَ الْعَقْلُ الْإِنْسَانِيُّ أَكْمَلَ حَالًا، بَلْ يَصِلُ إِلَى أَنْ يَكُونَ ضِمْنَ النُّخْبَةِ مِنْ أُولِي الْأَلْبَابِ.

تَأَمَّلْ هَذَا الْمَعْنَى فِي قَوْلِ رَبِّنَا -تَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ-: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤].

وَاسْتِخْرَاجُ الرُّؤْيَةِ الْقُرْآنِيَّةِ لِكُلِّ تَفَاصِيلِ الْحَيَاةِ يَتَعَلَّقُ بِالْجَهْدِ الْبَشَرِيِّ فِي التَّعَرُّفِ إِلَى الْكَلَامِ الْإِلَهِيِّ الإلهي: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

عِنْدَ تَنْقِيبِكَ فِي لَآلِئِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَتَدَبُّرِهِ سَتَشْعُرُ بِنَشْوَةٍ غَامِرَةٍ، وَتُعَايِنُ عِنْدَهَا أَنَّ الْقُرْآنَ كَالْمُحِيطِ الْهَائِلِ الرَّائِعِ يُغْرِيكَ كَيْ تُبْحِرَ فِي أَمْوَاجِهِ الْبَاهِرَةِ نَحْوَ الْأَعْمَقِ فَالْأَعْمَقِ حَتَّى تُوغِلَ فِي دَاخِلِهِ، وَلَكِنْ بَدَلًا مِنْ أَنْ تَغْرَقَ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ مُظْلِمٍ سَتَجِدُ نَفْسَكَ مَغْمُورًا فِي بَحْرٍ مِنَ النُّورِ وَالرَّحْمَةِ الْإِلَهِيَّةِ.

فَمَتَى مَا وَجَدَ الْقُرْآنُ إِلَى قَلْبِ الْعَبْدِ مَنْفَذًا يَنْفُذُ إِلَيْهِ، وَوَفَّقَهُ اللهُ فِي تَدَبُّرِهِ سَيَشِعُّ فِي وِجْدَانِهِ أَنْوَارُ الْهِدَايَةِ، وَسَتُشْرِقُ شَمْسُ الْإِيمَانِ لِتُنِيرَ بَصِيرَتَهُ، وَتُبْعِدَ عَنْهُ الْأَوْهَامَ، وَخَيَالَاتِ الظَّلَامِ.

هَذَا هُوَ الَّذِي جَعَلَ عُمَرَ يُسْلِمُ عِنْدَ سَمَاعِهِ لِلْقُرْآنِ، سَمِعَ آيَاتٍ مَعْدُودَةً فَاهْتَزَّ لَهَا وِجْدَانُهُ، وَأَعْلَنَ إِسْلَامَهُ.

هَاهُوَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ وَسَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ ﷺ يُذْعِنَانِ لِنِدَاءِ الْقُرْآنِ، وَيُسْلِمَانِ وَيَسْتَسْلِمَانِ لِعَظَمَةِ الرَّحِيمِ الرَّحْمَنِ، وَرَجَعْتُ إِلَى الْآيَاتِ الَّتِي اسْتَمَعَهَا سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ، فَوَجَدْتُهُ اسْتَمَعَ لِآيَاتِ سُورَةِ الزُّخْرُفِ، وَجَرَّبْتُ أَنْ أُعِيدَ قِرَاءَتَهَا كَأَنِّي أَسْمَعُهَا لِأَوَّلِ مَرَّةٍ، فَوَجَدْتُ شَيْئًا هَائِلًا فَخْمًا آسِرًا، فَاسْتَمِعْ: ﴿**حم (١) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٣) وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ (٤) أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ...**﴾ [الزخرف: ١-...][(١)].

وَامْضِ، وَجَرِّبْ أَنْ تَسْتَمِعَ كَأَنَّكَ لَمْ تَسْمَعْ ذَلِكَ مِنْ قَبْلُ تَرَ عَجَبًا عُجَابًا يَمْلِكُ عَلَيْكَ كُلَّ قَلْبِكَ، وَخُذْ أَوَّلَ آيَاتِهَا، وَأَلْقِ أُذُنًا وَاعِيَةً، وَقَلْبًا حَاضِرًا شَاهِدًا.

إِنَّ التَّدَبُّرَ فِي آيَاتِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ يُوجِدُ الْخَفِيَّ الْمُمْتِعَ مِنَ التَّفَكُّرِ، وَيَجْلِبُ الْعَظِيمَ مِنْ صَادِقِ التَّأَثُّرِ، فَالتَّدَبُّرُ بَحْثٌ عَمَّا وَرَاءَ الْكَلِمَةِ مِنَ الْمَعَانِي الْحَقَّةِ الَّتِي تَرْسُمُ الْوَعْيَ الْإِسْلَامِيَّ، وَتُنِيرُ التَّفْكِيرَ الْإِنْسَانِيَّ.

فَلْنُعِدْ قِرَاءَتَنَا لِلْفَاتِحَةِ بِقَلْبٍ يُؤْمِنُ بِأَنَّهَا النَّبْعُ الصَّافِي وَالدَّوَاءُ الشَّافِي، وَالْبَدِيلُ الْحَقِيقِيُّ الثَّقَافِيُّ لِفَوْضَى الْحُلُولِ الَّتِي نَبْحَثُ عَنْهَا فِي الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ، وَلِتَحْقِيقِ ذَلِكَ لَا بُدَّ أَنْ نَبْحَثَ عَنِ الْمَقَاصِدِ الْكُلِّيَّةِ فِي سُورَةِ الْفَاتِحَةِ الْمُبَارَكَةِ الَّتِي تَتَضَمَّنُ بَصَائِرَهَا وَأَنْوَارَهَا فِي بِنَاءِ الْحَيَاةِ،

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء ١/ ٢٤٣.(١) رواه البخاري معلقًا (٩/ ١٩٥).

لِتَكُونَ مَعَانِيهَا الْمُفْرَدَةُ عَوْنًا عَلَى فَهْمِ حَقَائِقِهَا الْكُلِّيَّةِ بَدَلًا مِنْ أَنْ تَكُونَ الْمَعَانِي الْجُزْئِيَّةُ حَائِلَةً عَنِ الْمُرَادِ الْإِلَهِيِّ، وَهُنَاكَ سَنَرَى الْمَفَاهِيمَ تَكْتَسِي ثِيَابًا خُضْرًا مُشَكِّلَةً جُمَلًا كَامِلَةً تَعْلَقُ بِالذِّهْنِ، وَيُورِقُ بِهَا يَابِسُ الْغُصْنِ، عَسَى أَنْ تَهْتَزَّ أَرْضُ التَّدَبُّرِ بِهَا، وَتَرْبُوَ، وَتُنْبِتَ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ.

دَعْنِي أُحَدِّثْكَ عَنْ تَجْرِبَتِي: وَجَدْتُ السَّلَفَ يَتَسَابَقُونَ -بِصُورَةٍ مُدْهِشَةٍ- إِلَى تَقْرِيرِ الْأَفْيَاءِ الْقُرْآنِيَّةِ، وَالْبَصَائِرِ الْفُرْقَانِيَّةِ عِنْدَ النَّظَرِ فِي الْآيَاتِ. إِنَّهُمْ يَشْعُرُونَ أَنَّهَا تَبْنِي النُّفُوسَ وَالْحَيَاةَ، فَهَاهُوَ مَطَرُ الْوَرَّاقُ يَتَدَبَّرُ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر:١٧] فَيَقُولُ: «هَلْ مِنْ طَالِبِ عِلْمٍ فَيُعَانَ عَلَيْهِ»[(١)].

انْظُرْ جَمَالَ الِاسْتِنْبَاطِ الَّذِي جَعَلَ التَّذَكُّرَ الْوَارِدَ فِي ﴿مُّدَّكِرٍ﴾ يُؤَدِّي إِلَى التَّأَثُّرِ، وَالتَّأَثُّرُ يُؤَدِّي إِلَى الِاجْتِهَادِ فِي التَّحْصِيلِ الْعِلْمِيِّ، لِيَجِدَ الْمَعَارِفَ الْقُرْآنِيَّةَ مُيَسَّرَةً دَانِيَةَ الْقُطُوفِ لِمَنْ رَامَهَا وَاجْتَهَدَ فِي اسْتِخْرَاجِ كُنُوزِهَا.

وَهُنَا نَسْأَلُ سُؤَالًا لَا بُدَّ أَنْ تُفَكِّرَ فِيهِ الْعُقُولُ: لِمَاذَا نَرَى نَحْنُ أَتْبَاعَ الْقُرْآنِ كُلَّ هَذِهِ الْعَظَمَةِ وَالْحِكْمَةِ وَالتَّأْثِيرِ فِي كَلِمَاتِهِ وَسُوَرِهِ وَآيَاتِهِ؟

الْجَوَابُ:

(١) رواه البخاري معلقًا (٩/ ١٩٥).

البصيرةُ السَّادِسَةُ

تَعْتَمِدُ الْبَصَائِرُ الْقُرْآنِيَّةُ عَلَى الْمَصْدَرِيَّةِ الْإِلَهِيَّةِ لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَهِيَ مَصْدَرِيَّةٌ لَمْ تَطَلْهَا يَدُ التَّحْرِيفِ أَوِ التَّزْيِيفِ

هُنَا نَذْكُرُ قَوْلَ (مُوريس بُوكَاي) فِي لِقَاءٍ مُتَلْفَزٍ لَهُ عَامَ (١٩٨٧م):

لَا بُدَّ لِي أَنْ أَعْتَرِفَ حِينَمَا قَرَأْتُ الْقُرْآنَ فِي لُغَتِهِ الْعَرَبِيَّةِ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ فِي عَامِ (١٩٧٢م) كَانَتِ الْمَعْلُومَاتُ الْمُتَعَلِّقَةُ بِجِسْمِ الْإِنْسَانِ فِيهِ هِيَ أَوَّلَ مَا أَدْهَشَنِي إِلَى أَبْعَدِ الْحُدُودِ، وَبِالنَّظَرِ إِلَى وَضْعِ الْمَعْرِفَةِ الْعِلْمِيَّةِ فِي عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ فَإِنَّهُ لَا يُعْقَلُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ الْكَمُّ الْهَائِلُ مِنَ الْمَعْلُومَاتِ الْمُتَّصِلَةِ بِالْعِلْمِ الْوَارِدِ فِي الْقُرْآنِ لَا يُعْقَلُ أَنْ تَكُونَ مِنْ وَضْعِ إِنْسَانٍ، وَلِذَا فَإِنَّهُ مِنَ الْمَشْرُوعِ تَمَامًا النَّظَرُ إِلَى الْقُرْآنِ لَيْسَ بِاعْتِبَارِهِ وَحْيًا مُنَزَّلًا فَحَسْبُ، بَلْ أَنْ نُفْرِدَ لَهُ مَوْقِعًا مُهَيْمِنًا خَاصًّا بِهِ عَلَى أَسَاسِ الضَّمَانِ الَّذِي تُوَفِّرُهُ لَنَا مَصْدَرِيَّتُهُ الْإِلَهِيَّةُ، وَأَيْضًا بِمَا تَحْتَوِيهِ آيَاتُهُ مِنْ إِشَارَاتٍ عِلْمِيَّةٍ عِنْدَمَا نَدْرُسُهَا فِي عَصْرِنَا هَذَا نَرَاهَا لَا تَزَالُ تُشَكِّلُ تَحَدِّيًا حَقِيقِيًّا لِلْمَعْرِفَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ.

إِلَّا أَنَّ كُلَّ مُتَدَبِّرٍ يُقِرُّ بِأَنَّ اسْتِنْبَاطَهُ لِلْبَصَائِرِ الْقُرْآنِيَّةِ يَظَلُّ اجْتِهَادًا بَشَرِيًّا، وَيَقُومُ عَلَى تَدَبُّرٍ إِنْسَانِيٍّ يَطْرَأُ عَلَيْهِ الْخَلَلُ، وَيَعْتَرِيهِ الزَّلَلُ.

وَقَدْ تَفَضَّلَ جَمٌّ غَفِيرٌ مِنَ الْفُضَلَاءِ فَرَاجَعُوا الْكِتَابَ، وَتَابَعُوا تَطَوُّرَ التَّفْكِيرِ فِيهِ، وَهَرَعَ عَدَدٌ مِنَ الْمُحِبِّينَ يَطْلُبُونَ الْمُدَارَسَةَ لِأَفْكَارِهِ فِي مَجَالِسَ قُرْآنِيَّةٍ ازْدَانَتْ بِالْمُنَاقَشَةِ وَالتَّأَمُّلِ، فَكَانُوا شَاهِدِينَ عَلَى تَلَمُّسِ الرُّشْدِ فِي الْمَعَانِي الَّتِي نَتَدَبَّرُهَا فِي السَّبْعِ الْمَثَانِي.

وَاقْتَرَحَ بَعْضُهُمْ تَسْمِيَتَهُ: (**لُبَّ الْأَلْبَابِ فِي مَقَاصِدِ أُمِّ الْكِتَابِ**)، وَتَضَوَّعَ مِسْكُ عَبِيرِ اقْتِرَاحَاتِهِمْ بِغَيْرِ ذَلِكَ، فَرَفَعَهُمُ اللهُ مَكَانًا وَكَانَ بِهِمْ حَفِيًّا، عَلَى أَنَّنِي يَنْبَغِي أَنْ أَذْكُرَ أَنَّ مِنَ التَّسْمِيَاتِ السَّابِقَةِ لِهَذَا الْكِتَابِ: (**الْخُطَّةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِبِنَاءِ الْحَيَاةِ فِي ضَوْءِ مَقَاصِدِ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ**).

وَبَعْدُ:

فِي زَمَنٍ تَلَاطَمَتْ فِيهِ أَمْوَاجُ الْفِتَنِ، وَتَشَعَّبَتْ فِي دُرُوبِهِ سُبُلُ الْمِحَنِ؛ كَانَتْ هَذِهِ النَّظَرَاتُ فِرَارًا إِلَى مَعِينِ الْقُرْآنِ، وَمَلَاذًا مِنْ غَيَاهِبِ الزَّمَانِ.

أَرْتَجِي بِهَا أَنْ تُضَاءَ بِبَصَائِرِ الْقُرْآنِ الْأَبْصَارُ، وَأَنْ تَنْجَلِيَ بِهِدَايَاتِهِ ظُلُمَاتُ الْإِعْلَامِ وَتَحْلِيلَاتُ الْأَخْبَارِ، وَأَنْ تُشْرِقَ مَقَاصِدُهُ لِتَكُونَ لِحَيَاتِنَا أَعْظَمَ الْأَنْوَارِ، فَمَنْ أَوَى إِلَى رِحَابِهِ فَقَدْ أَوَى إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ، وَمَنِ اهْتَدَى بِهَدْيِهِ فَقَدِ اسْتَبَانَ لَهُ الْقَوْلُ السَّدِيدُ.

هُوَ النُّورُ الَّذِي يُبَدِّدُ حَيْرَةَ الْحَائِرِينَ فِي قَضَايَا الْعَصْرِ، وَهُوَ الْحَبْلُ الَّذِي يَنْجُو بِهِ الْمُسْتَمْسِكُونَ مِنْ هَاوِيَةِ الْخُسْرِ.

وَمِنْ هَذَا النَّبْعِ الصَّافِي، يَنْبَثِقُ الْوَعْيُ الْبَنَّاءُ، وَالْفَهْمُ الْمُضِيءُ الْوَضَّاءُ، لِتَقُومَ الْمُؤَسَّسَاتُ التَّعْلِيمِيَّةُ وَالثَّقَافِيَّةُ وَالْإِعْلَامِيَّةُ، عَلَى أَسَاسٍ مِنَ الرُّؤْيَةِ الْقُرْآنِيَّةِ السَّامِيَةِ، وَالْمَنْهَجِيَّةِ النَّبَوِيَّةِ التَّرْبَوِيَّةِ الزَّاكِيَةِ.

وَلَطَالَمَا تَمَثَّلْتُ مُرَدِّدًا قَوْلَ إِقْبَالَ، بَعْدَ قِرَاءَةِ كِتَابِ رَبِّنَا ذِي الْإِكْرَامِ وَالْجَلَالِ:

يَا لَيْتَ قَوْمِي يَسْمَعُونَ شِكَايَةً ... هِيَ فِي ضَمِيرِي صَرْخَةُ الْوِجْدَانِ

إِنَّ الْجَوَاهِرَ حَيَّرَتْ مِرْآةَ هَـ ... ـذَا الْقَلْبِ فَهُوَ عَلَى شَفَا الْبُرْكَانِ

أَسْمِعْهُمُو يَا رَبِّ مَا أَلْهَمْتَنِي ... وَأَعِدْ إِلَيْهِمْ يَقْظَةَ الْإِيمَانِ

وَأَذِقْهُمُ النَّبْعَ الْقَدِيمَ فَإِنَّهُ ... عَيْنُ الْيَقِينِ، وَكَوْثَرُ الرِّضْوَانِ

غرة جمادى الثانية ١٤٣٨هـ

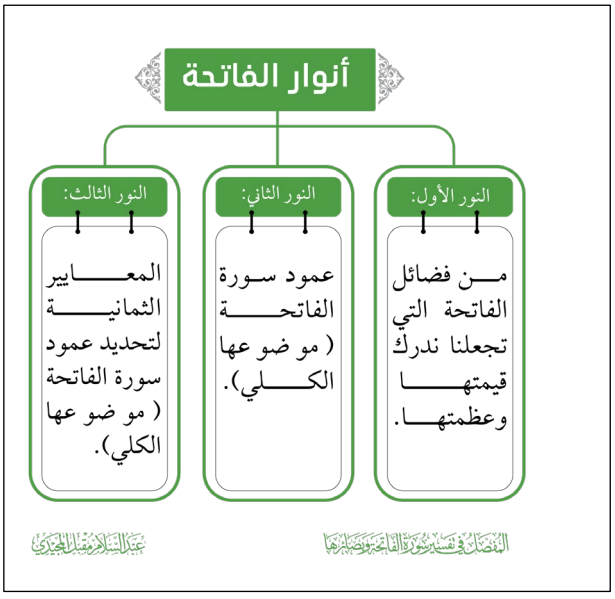
عبد السلام مقبل المجيدي
s١٤٣٥y@gmail.com

أَنْوارُ الفَاتِحَةِ

هَا نَحْنُ نَدْخُلُ مِحْرَابَ سورة "الفَاتِحَة". إنه مِحْرَابٌ يُشْرِقُ بالنُّورِ لِهِدَايَةِ العَالَمِ

مَعَارِجُ الْفَاتِحَةِ تَعْلُو بِسَالِكِهَا إِلَى ذُرَى الْإِيمَانِ إِذَا تَدَبَّرَهَا وَتَعَمَّقَ فِي مَعَانِيهَا الْعَلِيَّةِ وَكُنُوزِهَا الْبَهِيَّةِ؛ لِأَنَّ الْفَاتِحَةَ تُقَدِّمُ الْإِسْلَامَ لِلْعَالَمِ، وَتَرْسُمُ خُطَّةَ الْإِنْقَاذِ لِلْبَشَرِيَّةِ، وَتُقَرِّرُ الْمَقَاصِدَ الْمَعْرِفِيَّةَ وَالسُّلُوكِيَّةَ الَّتِي تَحْتَاجُهَا الْإِنْسَانِيَّةُ.

وَأَوَّلُ مَا يُقَابِلُنَا وَنَحْنُ نُحَاوِلُ اسْتِكْشَافَ كُنُوزِهَا الْمُبَارَكَةِ وَبَصَائِرِهَا الْمُعَظَّمَةِ الْأَنْوَارُ الْآتِيَةُ:



النُّورُ الْأَوَّلُ: مِنْ فَضَائِلِ الْفَاتِحَةِ الَّتِي تَجْعَلُنَا نُدْرِكُ قِيمَتَهَا وَعَظَمَتَهَا.

النُّورُ الثَّانِي: عَمُودُ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ (مَوْضُوعُهَا الْكُلِّيُّ).

النُّورُ الثَّالِثُ: الْمَعَايِيرُ الثَّمَانِيَةُ لِتَحْدِيدِ عَمُودِ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ (مَوْضُوعِهَا الْكُلِّيِّ).

النور الأول

من فضائل الفاتحة التي تجعلنا ندرك قيمتها وعظمتها

الأنموذج الأول:

بين الحضارة العظيمة (حضارة أصحاب الحِجْر) وسورة (الفاتحة).

كنز الفاتحة أعظم من حضارة أصحاب الحِجْر، والتمسك بعهد الفاتحة يعني إنشاء حضارات أعظم من تلك الحضارة في الدنيا فكيف في الآخرة؟!

الأنموذج الثاني:

أسرار وراء البيان، لماذا كانت الفاتحة (أمَّ القرآن)؟

لأن الفاتحة هي مقدمة القرآن، والقرآن هو أساس المعرفة الكونية والدستور الحقيقي لإدارة العالم.

لأن الفاتحة تُقَدِّمُ للعالَم التعريفَ المُكَثَّفَ الواضحَ للإسلام.

الأنموذج الثالث:

(الفاتحة) تمثل اللسان الصادق للبشرية المؤمنة في الصلة برب العالمين والمناجاة المتلذذة.

إن المتأمل في الفاتحة يجدها منبع معرفةٍ لتنوير الفكر والبصائر، وعَظَمَةٍ في تنمية العقول والمشاعر، ورَوعةٍ في إعادة تشكيل العقل الإنساني الحائر. فكيف تَضِلُّ أمةٌ عندها مثل هذه السورة؟!

النُّورُ الْأَوَّلُ

مِنْ فَضَائِلِ الْفَاتِحَةِ الَّتِي تَجْعَلُنَا نُدْرِكُ قِيمَتَهَا وَعَظَمَتَهَا

حَسْبُ الْفَاتِحَةِ شَرَفًا وَمَنْزِلَةً أَنْ كَانَتْ فَاتِحَةَ الْكِتَابِ الْأَعْظَمِ، وَالْوَحْيِ الْأَفْخَمِ، وَلِكَثْرَةِ شَوَاهِدِ رِفْعَتِهَا، وَأَدِلَّةِ مَكَانَتِهَا فَإِنَّنَا سَنَقْتَصِرُ عَلَى مَا نَرَاهُ الْأَهَمَّ وَالْأَجْمَلَ، وَالْأَتَمَّ وَالْأَكْمَلَ.

لِنُدْرِكَ قِيمَةَ هَذِهِ السُّورَةِ الْمُبَارَكَةِ الْمُعَظَّمَةِ ذُرُونَا نَأْخُذْ نَمَاذِجَ تُبْرِزُ لَنَا قِيمَتَهَا وَعَظَمَتَهَا:

الْأُنْمُوذَجُ الْأَوَّلُ: بَيْنَ الْحَضَارَةِ الْعَظِيمَةِ (حَضَارَةِ أَصْحَابِ الْحِجْرِ) وَسُورَةِ (الْفَاتِحَةِ): (الْفَاتِحَةُ).. يَا لَعَظَمَةِ هَذَا الِاسْمِ وَجَمَالِهِ!

حَسْبُكَ فِي مَعْرِفَةِ قِيمَتِهَا أَنْ تَعْلَمَ هَذِهِ الْعَلَاقَةَ الْفَرِيدَةَ بَيْنَ سُورَةِ (الْفَاتِحَةِ) وَبَيْنَ سُورَةِ (الْحِجْرِ).

فَاللهُ - جَلَّ مَجْدُهُ- أَنْزَلَ فِي كِتَابِهِ الْكَرِيمِ سُورَةً جَلِيلَةً سُمِّيَتْ بِاسْمٍ فَرِيدٍ هِيَ سُورَةُ (الْحِجْرِ).. أَمَّا لِمَاذَا سُمِّيَتِ السُّورَةُ بِهَذَا الِاسْمِ فَلِأَنَّ اللهَ ﷻ ذَكَرَ هَذِهِ الْكَلِمَةَ فِي السُّورَةِ، فَقَالَ: ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الحجر:٨٠].

وَلَكِنْ مَا مَعْنَى الْحِجْرِ؟ وَمَنْ هُمْ أَصْحَابُهُ؟

الْحِجْرُ: اسْمٌ لِحَضَارَةٍ عَظِيمَةٍ أَنْشَأَتْهَا قَبِيلَةُ (ثَمُودَ) بِوَادِي الْقُرَى بَيْنَ الْمَدِينَةِ وَالشَّامِ، وَهِيَ بُيُوتٌ مَنْحُوتَةٌ فِي الْجِبَالِ، فَهِيَ بُيُوتٌ شَامِخَةٌ، وَقُصُورٌ مَنِيفَةٌ لَكِنْ دَاخِلَ الْجِبَالِ مِثْلَ الْمَغَارَاتِ، وَكُلُّ جَبَلٍ مُنْقَطِعٌ عَنِ الْآخَرِ، بَلَغَ مِنْ قُوَّةِ أَصْحَابِهَا أَنْ يَنْقُرُوهَا دُونَ احْتِيَاجِهِمْ لِلْآلَاتِ الْمُعَاصِرَةِ، وَسُمِّيَتْ بِالْحِجْرِ؛ لِأَنَّهُمُ انْطَلَقُوا مِنَ الْأَحْجَارِ لِبَيَانِ عَظَمَةِ قُدُرَاتِهِمْ وَطَاقَاتِهِمْ، وَلِأَنَّهَا كَانَتْ حِجْرًا أَيْ دَوْلَةً مَمْنُوعَةً مِنَ الْأَخْطَارِ، مَحْمِيَّةً مِنَ الْجِهَاتِ الْمُعَادِيَةِ، وَقَدْ أَخْبَرَنَا اللهُ خَبَرَهُمْ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ (٨٠)

وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٨١) وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ (٨٢) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ (٨٣) فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٤) وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ (٨٥) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (٨٦) وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ (٨٧) لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ [الحجر: ٨٠ - ٨٨].

وَيَصِفُ اللهُ ﷻ نَحْتَهُمُ الْمُتْرَفَ الْفَارِهَ، فَيَقُولُ: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ﴾ [الشعراء:١٤٩]، فَهِيَ دَلِيلُ رَفَاهِيَةٍ، وَهِيَ أَيْضًا عَلَامَةٌ لِلْأَمْنِ الْحَيَاتِيِّ ﴿وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٢].

تَصَوَّرْ أَنَّهُمْ كَانُوا مَعَ ذَلِكَ يَتَّخِذُونَ الْقُصُورَ فِي السُّهُولِ الْقَرِيبَةِ مِنْ تِلْكَ الْجِبَالِ، وَذَكَّرَهُمْ نَبِيُّهُمْ بِذَلِكَ لِيَعْرِفُوا عَظِيمَ آلَاءِ اللهِ عَلَيْهِمْ فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ [الأعراف: ٧٤].

الْآنَ بَعْدَ أَنِ اسْتَبَانَتْ حَقِيقَةُ الْحِجْرِ، وَسَبَبُ تَسْمِيَةِ السُّورَةِ بِهَذَا الِاسْمِ تَعَالَ نَسْمَعِ اللهَ - جَلَّ فِي عُلَاهُ- يَقُولُ عَقِيبَ ذَلِكَ يُخَاطِبُ النَّبِيَّ ﷺ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ [الحجر:٨٧]، فَافْتَتَحَ الْآيَةَ بِـ(اللَّامِ) الْمُؤَكِّدَةِ، ثُمَّ زَادَهَا تَأْكِيدًا بِـ(قَدْ) الْمُفِيدَةِ لِلتَّحْقِيقِ وَجَاءَ بَعْدَهَا بِالْفِعْلِ (أَتَى) لِمَا فِيهِ مِنَ السُّهُولَةِ وَالْيُسْرِ وَالْعِنَايَةِ وَاللُّطْفِ، ثُمَّ ذَكَرَ الْمُؤْتَى بِهِ فَقَالَ: ﴿سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾، فَيَا لَهَا مِنْ عَظَمَةٍ هَائِلَةٍ فَخْمَةٍ، وَمَجْدٍ فَاخِرٍ بَاذِخٍ! أَسْمَاءٌ رَائِعَةٌ لَافِتَةٌ!

وَهُنَا يَتَبَادَرُ إِلَى أَذْهَانِنَا سُؤَالٌ: مَا مَعْنَى (السَّبْعِ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنِ الْعَظِيمِ)؟ وَمَا عَلَاقَتُهَا بِالْحِجْرِ؟

السَّبْعُ الْمَثَانِي: هِيَ سُورَةُ الْفَاتِحَةِ، سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِأَنَّهَا سَبْعُ آيَاتٍ (مَثَانِي) أَيْ تُكَرَّرُ وَتُثْنَى فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ سَبْعَ عَشْرَةَ مَرَّةً عَلَى الْأَقَلِّ، وَهِيَ (الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ)، فَهِيَ أَعْظَمُ الْقُرْآنِ.

وَيَبْقَى السُّؤَالُ: مَا عَلَاقَةُ الْفَاتِحَةِ بِحَضَارَةِ أَصْحَابِ الْحِجْرِ؟

يُرِيدُ اللهُ ﷻ أَنْ يُبَيِّنَ لَنَا أَنَّ كَنْزَ الْفَاتِحَةِ أَعْظَمُ مِنْ تِلْكَ الْحَضَارَةِ، إِنَّ التَّمَسُّكَ بِعَهْدِ الْفَاتِحَةِ يَعْنِي إِنْشَاءَ حَضَارَاتٍ أَعْظَمَ مِنْ تِلْكَ الْحَضَارَةِ فِي الدُّنْيَا فَكَيْفَ فِي الْآخِرَةِ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ قَالَ اللهُ -جَلَّ فِي عُلَاهُ- بَعْدَ ذَلِكَ: ﴿**لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ**﴾ [الحجر:٨٨].

قال ابنُ عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «مَنْ نَظَرَ إِلَى الدُّنْيَا، وَلَمْ يَنْظُرْ إِلَى الْقُرْآنِ، بِالنَّظَرِ الَّذِي يَجِبُ أَنْ يُنْظَرَ بِهِ إِلَيْهِ، فَقَدْ حَقَّرَ مَا عَظَّمَ اللهُ، وَعَظَّمَ مَا حَقَّرَ اللهُ، وَاللهُ عَظَّمَ الْقُرْآنَ، فَقَالَ: ﴿**وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ**﴾ [الحجر:٨٧]».

هُنا ﴿**لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ**﴾، وَلِمَاذَا سَتَمُدُّ عَيْنَيْكَ، وَأَنْتَ عِنْدَكَ (الْفَاتِحَةُ) الَّتِي إِنْ تَدَبَّرْتَهَا، وَفَهِمْتَ مَرَامِيَهَا سَتُنْشِئُ لَكَ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْ كُلِّ الْحَضَارَاتِ الَّتِي قَامَتْ بِهَا الْبَشَرِيَّةُ؟

وَيُؤَكِّدُ النَّبِيُّ ﷺ ذَلِكَ وَهُوَ يُحَدِّدُ الْمَكَانَةَ الْمَرْكَزِيَّةَ لِسُورَةِ الْفَاتِحَةِ فِي الْوَحْيِ الْإِلَهِيِّ كُلِّهِ الْأَوَّلِ وَالْآخِرِ مُقْسِمًا بِاللهِ، فَيَقُولُ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا أُنْزِلَتْ فِي التَّوْرَاةِ وَلَا فِي الْإِنْجِيلِ وَلَا فِي الزَّبُورِ وَلَا فِي الْفُرْقَانِ مِثْلُهَا، وَإِنَّهَا سَبْعٌ مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُعْطِيتُهُ»[1]، إِذَنْ هِيَ أَعْظَمُ مِنْ كُلِّ مَا نَزَلَ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ كَافَّةً، فَهِيَ أَحْسَنُ الْأَحْسَنِ، وَأَفْضَلُ الْأَفْضَلِ، وَهَا هُوَ النَّبِيُّ a يُعْلِنُ هَذَا لِلنَّاسِ جَمَاعَاتٍ وَفُرَادَى، فَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ

---

(١) الترمذي(٥/ ١٥٥)، وقال: حسن صحيح، ورواه أحمد(٢/ ٤١٢).

فِي مَسِيرٍ، فَنَزَلَ، وَنَزَلَ رَجُلٌ إِلَى جَانِبِهِ، فَالْتَفَتَ النَّبِيُّ ﷺ، فَقَالَ: «أَلَا أُخْبِرُكَ بِأَفْضَلِ الْقُرْآنِ؟» قَالَ: بَلَى، فَتَلَا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1].

وَهَذَا يَدْفَعُنَا إِلَى تَسَاؤُلٍ مُهِمٍّ: هَلِ التَّمَيُّزُ لِهَذِهِ السُّورَةِ الْمُبَارَكَةِ الْمُعَظَّمَةِ جَعَلَ لَهَا مَكَانًا لَهُ مَزِيَّةٌ خَاصَّةٌ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ؟

الْجَوَابُ: نَعَمْ بِصُورَةٍ لَامِعَةٍ ظَاهِرَةٍ، وَهُنَا يَأْتِي:

الْأُنْمُوذَجُ الثَّانِي: أَسْرَارٌ وَرَاءَ الْبَيَانِ، لِمَاذَا كَانَتِ الْفَاتِحَةُ (أُمَّ الْقُرْآنِ)؟

وَهُنَا تَتَسَاءَلُ أَيْضًا: لِمَاذَا كَانَتِ الْفَاتِحَةُ (أُمَّ الْقُرْآنِ)؟

لِمَاذَا كَانَتْ دُونَ سِوَاهَا فَاتِحَةَ الْكِتَابِ؟ لِمَاذَا كَانَ لَهَا هَذِهِ الْمَكَانَةُ الْمَرْكَزِيَّةُ؟

تَعَالَ نَنْظُرْ فِي شَيْءٍ مِنَ الْإِجَابَةِ عَلَى ذَلِكَ:

أَمَّا أَوَّلًا: فَـ(الْفَاتِحَةُ) مُقَدِّمَةُ الْقُرْآنِ، وَالْقُرْآنُ يُمَثِّلُ أَسَاسَ الْمَعْرِفَةِ الْكَوْنِيَّةِ، أَلَيْسَ هُوَ الْبَيَانَ الْإِلَهِيَّ الْأَخِيرَ؟ فَهُوَ إِذَنِ الدُّسْتُورُ الْحَقِيقِيُّ لِإِدَارَةِ الْعَالَمِ، فَفَاتِحَةُ الْقُرْآنِ بِذَلِكَ تُمَثِّلُ: الْخُطَّةَ الْقُرْآنِيَّةَ الْمَرْكَزِيَّةَ لِبِنَاءِ الْحَيَاةِ الْعِلْمِيَّةِ وَالْعَمَلِيَّةِ الَّتِي يَحْتَاجُهَا الْفَرْدُ.

إِنَّهَا أَسَاسُ الْخُطَطِ الَّتِي تَقُومُ بِتَشْكِيلِ الْحَضَارَةِ الرَّاشِدَةِ فِي الْمُجْتَمَعَاتِ، إِنَّهَا السُّورَةُ الَّتِي يَجِبُ إِعَادَةُ تَشْكِيلِ الْعَقْلِ الْمُسْلِمِ فِي ضَوْءِ مَقَاصِدِهَا، وَرَسْمُ خَرِيطَةِ الْآفَاقِ الْفِكْرِيَّةِ عَلَى نُورٍ مِنْ بَصَائِرِهَا.

---

(١) النسائي(٧/ ٢٥٥)، وابن حبان(٣/ ٥١)، والحاكم(١/ ٥٦٠)، وقال: "صحيح على شرط مسلم".

إِنَّ الْفَاتِحَةَ فَاتِحَةُ الْفُرْقَانِ، فَهِيَ بِذَلِكَ فَاتِحَةُ الْأَكْوَانِ، إِنَّهَا فَاتِحَةُ الْمُجْتَمَعَاتِ، وَالشَّافِيَةُ مِنَ الْأَمْرَاضِ وَالْمُلِمَّاتِ، إِنَّهَا فَاتِحَةُ إِصْلَاحِ النُّفُوسِ، وَهِيَ غَيْثُ الْقُلُوبِ وَالْأَرْضِ الْيَبُوسِ، إِنَّهَا فَاتِحَةُ زَوَالِ الْهُمُومِ وَالْكُرُوبِ، وَالسَّعَادَةِ وَالْقُرْبِ مِنْ عَلَّامِ الْغُيُوبِ.

سَتَرَى أَنَّ الْفَاتِحَةَ تَرْسُمُ الْمَعَالِمَ الْإِسْلَامِيَّةَ الْأَسَاسِيَّةَ، وَتُلَوِّنُ خَرِيطَةَ الْحَيَاةِ بِصِبْغَةِ اللهِ، وَتُنِيرُ النَّفْسَ بِالْآفَاقِ الْحَقِيقِيَّةِ لِلنَّجَاةِ، وَتُعَرِّفُ الْعَالَمَ بِالْخَالِقِ -جَلَّ فِي عُلَاهُ-.

إِنَّهَا تُشْرِقُ بِنُورِهَا عَلَى الْإِنْسَانِ لِتُعَلِّمَهُ كَيْفَ يَتَعَامَلُ مَعَ الْحَيَاةِ وَالْكَوْنِ وَالْأَحْدَاثِ الْمُتَجَدِّدَةِ وَفْقَ عَقْلِيَّةٍ وَاعِيَةٍ، وَنَفْسِيَّةٍ مُوَحِّدَةٍ نَقِيَّةٍ صَافِيَةٍ.

هَذِهِ السُّورَةُ الْمُبَارَكَةُ هِيَ (فَاتِحَةُ) الرَّاحَةِ، وَالِاطْمِئْنَانِ، وَالْكَمَالِ فِي الْحَيَاةِ الْأُولَى، وَهِيَ (فَاتِحَةُ) الْعَظَمَةِ، وَالْمَجْدِ فِي الْحَيَاةِ الْأُخْرَى. يَقْرَؤُهَا الْإِنْسَانُ صَادِقًا فَيَصِلُ بِهَا إِلَى أَعْلَى مُرْتَقًى، وَتَأْخُذُ بِنَاصِيَةِ الْقَانِتِ إِلَى أَجْمَلِ حَيَاةٍ فِي كَنَفِ رَبِّهِ الْعَلِيِّ الْأَعْلَى.

وَأَمَّا ثَانِيًا: فَهِيَ السُّورَةُ الْوَحِيدَةُ الَّتِي نَزَلَتْ كَامِلَةً فِي وَقْتٍ مُبَكِّرٍ لِتُقَدِّمَ - بِصُورَةٍ مُتَمَيِّزَةٍ بَيْنَ سُوَرِ الْقُرْآنِ- لِلْعَالَمِ التَّعْرِيفَ الْمُكَثَّفَ الْوَاضِحَ لِلْإِسْلَامِ، وَهُوَ تَعْرِيفٌ يَفْهَمُهُ كُلُّ أَهْلِ الْأَرْضِ فِي كَلِمَاتٍ مَعْدُودَاتٍ، كَأَنَّ اللهَ يُخَاطِبُ الْعَالَمَ مِنْ خِلَالِهَا، فَيَقُولُ: أَتُرِيدُ أَنْ تَعْرِفَ الْإِسْلَامَ؟ إِلَيْكَ الْإِسْلَامَ فِي سَبْعِ آيَاتٍ ذَاتِ كَلِمَاتٍ مَعْدُودَاتٍ، وَسَتَرَى مِنْ خِلَالِهَا كَيْفَ يَتِمُّ تَشْكِيلُ الْبِنَاءِ الْإِسْلَامِيِّ الْعَظِيمِ، سَتُحِبُّهُ، وَسَتَنْجَذِبُ لِلْمَنْطِقِ الْمُدْهِشِ الَّذِي يَتَّسِمُ بِهِ.

جَاءَ تَرْتِيبُ كَلِمَاتِ الْفَاتِحَةِ عَلَى أَفْضَلِ نَمَطٍ وَأَجْمَلِ نَسَقٍ، فَهِيَ تَجْذِبُ الْعُقُولَ وَتَمْلَؤُهَا بِالْمَعْرِفَةِ الْمُبْصِرَةِ لِلْحَقِّ، وَتُزَيِّنُ الْحَيَاةَ بِالْجَمَالِ وَالْجَلَالِ وَالْأَلَقِ وَالْعَبَقِ.

هَذَا يَدْفَعُنَا إِلَى التَّسَاؤُلِ عَنْ مَكَانَةِ الْفَاتِحَةِ مِنَ السُّوَرِ الْأُخْرَى، فَهِيَ سُورَةٌ قَصِيرَةٌ لَكِنَّهَا أُمُّ الْقُرْآنِ، كَيْفَ نَنْظُرُ إِلَى بَقِيَّةِ السُّوَرِ بِنَاءً عَلَى ذَلِكَ؟

الْأُنْمُوذَجُ الثَّالِثُ: (الْفَاتِحَةُ) تُمَثِّلُ اللِّسَانَ الصَّادِقَ لِلْبَشَرِيَّةِ الْمُؤْمِنَةِ فِي الصِّلَةِ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ وَالْمُنَاجَاةِ الْمُتَلَذِّذَةِ:

تَنْدَهِشُ عِنْدَمَا تَجِدُ أَنَّ (لِلْفَاتِحَةِ) الْمُبَارَكَةِ مَزِيَّةً لَا نَظِيرَ لَهَا فِي الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ، فَهِيَ «السُّورَةُ الْوَحِيدَةُ الَّتِي وُضِعَتْ أَوَّلَ الْأَمْرِ لَا عَلَى الصُّدُورِ عَنْ كَلَامِ الرُّبُوبِيَّةِ الْعُلْيَا، وَلَكِنْ عَلَى لِسَانِ الْبَشَرِيَّةِ الْمُؤْمِنَةِ، تَعْبِيرًا عَنْ حَرَكَةٍ نَفْسِيَّةٍ جَمَاعِيَّةٍ مُتَطَلِّعَةٍ إِلَى السَّمَاءِ، بَيْنَمَا سَائِرُ السُّوَرِ تُعَبِّرُ عَنِ الْحَرَكَةِ الْمُقَابِلَةِ: حَرَكَةِ الرَّحْمَةِ الْمُرْسَلَةِ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ، وَهَكَذَا حِينَ نَنْظُرُ إِلَى الْقُرْآنِ فِي جُمْلَتِهِ نَرَاهُ يَتَمَثَّلُ أَمَامَنَا فِي صُورَةِ مُنَاجَاةٍ ثُنَائِيَّةٍ، الْفَاتِحَةُ أَحَدُ طَرَفَيْهَا، وَسَائِرُ الْقُرْآنِ طَرَفُهَا الْآخَرُ، الْفَاتِحَةُ سُؤَالٌ، وَبَاقِي الْقُرْآنِ جَوَابٌ، الْفَاتِحَةُ هِيَ طَلَبُ الْهُدَى، وَالْبَاقِي هُوَ الْهُدَى الْمَطْلُوبُ»[1].

إِنَّهَا (الْفَاتِحَةُ) تُمَثِّلُ الْبَيِّنَةَ الْوَاضِحَةَ. تَأَمَّلْ فِي عُطُورِهَا الْفَائِحَةِ؛ لِتَرَى جَمَالَهَا، وَجَلَالَهَا، وَعَظَمَتَهَا، وَكَمَالَهَا، وَتَرَى مُعَالَجَتَهَا الْفَذَّةَ الْعَظِيمَةَ لِمَوْضُوعَاتِ الْحَيَاةِ.

---

(١) كَلَامٍ يُكْتَبُ بِمَاءِ الذَّهَبِ لِفَضِيلَةِ الدُّكْتُورِ مُحَمَّد عَبْد الله دَرَاز نَقَلَهُ عَنْهُ رَجَب عَبْد الْمُنْصِف فِي مَقَالٍ لَهُ فِي تَرْجَمَتِهِ نُشِرَ فِي أَكْثَرَ مِنْ مَوْقِعٍ، كَمَا أَوْرَدَهُ عَنْهُ مُصْطَفَى مُسْلِم فِي كِتَابِهِ (التَّفْسِيرِ الْمَوْضُوعِيِّ).

إِنَّ الْمُتَأَمِّلَ فِي الْفَاتِحَةِ يَجِدُهَا مَنْبَعَ مَعْرِفَةٍ لِتَنْوِيرِ الْفِكْرِ وَالْبَصَائِرِ، وَعَظَمَةٍ فِي تَنْمِيَةِ الْعُقُولِ وَالْمَشَاعِرِ، وَرَوْعَةٍ فِي إِعَادَةِ تَشْكِيلِ الْعَقْلِ الْإِنْسَانِيِّ الْحَائِرِ. فَكَيْفَ تَضِلُّ أُمَّةٌ عِنْدَهَا مِثْلُ هَذِهِ السُّورَةِ؟!

يَا عَجَبًا! سُورَةٌ تُرَدِّدُهَا الْأُمَّةُ الْإِسْلَامِيَّةُ فِي يَوْمِهَا وَلَيْلَتِهَا سَبْعَ عَشْرَةَ مَرَّةً عَلَى الْأَقَلِّ، فَلِمَ لَا تَجْعَلُهَا الْمُحَرِّكَ الْأَسَاسِيَّ لِبَرَامِجِهَا وَسَوَاعِدِهَا وَنَوَاصِيهَا؟ لِمَ لَا تَجْعَلُهَا الْيَنْبُوعَ الَّذِي تَسْتَقِي مِنْهُ كَيْفِيَّةَ بِنَاءِ جَوَانِبِ الْحَيَاةِ الْمُخْتَلِفَةِ؟ لِمَ لَا تَنْطَلِقُ مِنْهَا فِي إِدَارَةِ مِلَفَّاتِهَا الْخَارِجِيَّةِ وَالدَّاخِلِيَّةِ؟ لِمَ لَا تَكُونُ أَهَمَّ الْأُسُسِ الَّتِي تُعِينُهَا عَلَى مُوَاجَهَةِ الْمُشْكِلَاتِ وَالتَّحَدِّيَاتِ، وَالتَّعَامُلِ مَعَ النَّوَازِلِ وَالنَّكَبَاتِ؟

لِمَ لَا تَجْعَلُهَا الْأُمَّةُ طَوْقَ النَّجَاةِ لِلْخُرُوجِ مِنَ الضَّلَالِ الْمُبِينِ ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون:٦٨].

لِهَذَا لَا بُدَّ مِنَ الْعَوْدَةِ إِلَى الْفَهْمِ وَالتَّدَبُّرِ، فَتَدَبُّرُ الْفَاتِحَةِ الْمُبَارَكَةِ يُعْطِيكَ نَمُوذَجًا مُشْرِقًا لِمَاهِيَّةِ الْإِعْجَازِ الْقُرْآنِيِّ فِي الْمَعَانِي وَالْمَبَانِي، وَمِنْ خِلَالِ التَّأَمُّلِ، وَالتَّدَبُّرِ سَتُرْسَمُ مَعَالِمُ الْحَيَاةِ الْمُسَدَّدَةِ الرَّشِيدَةِ، وَتَظْهَرُ بَصَائِرُ الْقُرْآنِ الَّتِي تُؤَسِّسُ أَجْمَلَ حَيَاةٍ سَعِيدَةٍ، فَتَدَبَّرْ بَصَائِرَ الْقُرْآنِ؛ لِتَجِدَ نُورَ اللهِ يُحِيطُ بِنَفْسِكَ، وَيُعَمِّرُ حَيَاتَكَ؛ لِتَجِدَ نُورَ الْقُرْآنِ يَسْمُو بِكَ إِلَى الرَّفِيقِ الْأَعْلَى الْأَسْعَدِ. وَهُنَا دَعْنَا نُسَافِرْ فِي لَآلِئِ كَلِمَاتِهَا، وَلْنَسْتَنِرْ بِأَنْوَارِ مَعَانِيهَا وَفَيْضِ بَرَكَاتِهَا.

نَعَمْ! دَعْنَا نَبْحَثُ فِي الدُّرُوبِ عَنْ إِشْرَاقَاتِ (الْفَاتِحَةِ) الَّتِي أَنَارَتِ الْأَفْكَارَ وَالْقُلُوبَ..

دَعْنَا نُسَافِرْ فِي دُرُوبِ إِبَائِنَا ... وَلَنَا مِنَ الهِمَمِ العَظِيمَةِ زَادُ

❊❊❊

النُّورُ الثَّانِي

عَمُودُ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ (مَوْضُوعُهَا الْكُلِّيُّ)

لَقَدْ أَبْلَى السَّابِقُونَ فِي تَحْدِيدِ مَعَالِمِ مَقَاصِدِيَّةِ الْفَاتِحَةِ الْمُبَارَكَةِ كَمَا سَيَأْتِي، وَإِنَّ مِنْ أَهَمِّ مُهِمَّاتِ غَرَضِنَا وَمِنْ عَظِيمِ قَصْدِنَا، وَمَعَالِمِ مَنْهَجِيَّتِنَا فِي تَحْرِيرِ هَذِهِ الْمَوْسُوعَةِ التَّفْسِيرِيَّةِ (بَصَائِرِ الْمَعْرِفَةِ الْقُرْآنِيَّةِ) أَنْ نَذْكُرَ (عَمُودَ السُّورَةِ الْقُرْآنِيَّةِ) أَوْ (مَوْضُوعَهَا الْكُلِّيَّ)، وَنَعْتَقِدُ أَنَّ الْكَشْفَ عَنْهُ وَالْوُصُولَ إِلَيْهِ عَلَى وَجْهِ الدِّقَّةِ أَوِ التَّقْرِيبِ مِنْ أَعْظَمِ وَأَكْبَرِ الْمُعِينَاتِ عَلَى فَهْمِ مَقَاصِدِهَا الْفَرْعِيَّةِ وَمُرَادَاتِ اللهِ مِنْ خَلْقِهِ فِي آيَاتِهَا وَبَصَائِرِهَا الْمُكْتَنَزَةِ فِيهَا.

لَقَدِ اكْتَنَزَتْ آيَاتُ الْفَاتِحَةِ السَّبْعُ -عَلَى وَجَازَتِهَا- جَمِيعَ الْمَقَاصِدِ الْقُرْآنِيَّةِ بِصُورَةٍ مُدْهِشَةٍ، فَأَنَّى تَجَلَّى لَكَ لَمْحُ مَقْصِدٍ فِي أَيِّ مَوْضِعٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ سَتَجِدُهُ مَزْمُومًا مَشْدُودًا إِلَى عُرْوَةِ الْمَقَاصِدِ الْكُلِّيَّةِ الَّتِي جَاءَتْ بِهَا الْفَاتِحَةُ، وَلِأَنَّ الْقُرْآنَ هُوَ مَادَّةُ شِرْعَةِ الْإِسْلَامِ الْعَظِيمِ، وَأَصْلُ دِينِ اللهِ الْقَوِيمِ، وَأَسَاسُ بِنَائِهِ الْمُحْكَمِ الْحَكِيمِ، وَلَاحِبُ صِرَاطِهِ الْمُسْتَقِيمِ؛ فَإِنَّ هَذِهِ الْمَقَاصِدَ الْكُلِّيَّةَ لِلْفَاتِحَةِ أَعْطَتْ لِلْعَالَمِينَ خُلَاصَةً مُرَكَّزَةً فِي التَّعْرِيفِ بِالْإِسْلَامِ.

وَسَيَأْتِي ذِكْرُ عِبَارَاتِ بَعْضِ حُذَّاقِ أَئِمَّتِنَا فِي حَصْرِ مَقَاصِدِ كِتَابِ اللهِ الَّتِي تَؤُولُ طَوْعًا لِتَكُونَ مَقَاصِدَ لِأُمِّ الْكِتَابِ وَفَاتِحَتِهِ، وَنَحْنُ نُحَاوِلُ جَهْدَنَا أَنْ نَضَعَ عُنْوَانًا عَرِيضًا جَامِعًا لِجَمِيعِ الْمَقَاصِدِ الْكُلِّيَّةِ الَّتِي جَاءَتْ بِهَا الْفَاتِحَةُ، وَنُطْلِقُ عَلَى الْعُنْوَانِ الْعَرِيضِ الْجَامِعِ (عَمُودَ السُّورَةِ) أَوْ (مَوْضُوعَهَا الْكُلِّيَّ).

فَمَا عَمُودُ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ الْمُبَارَكَةِ؟

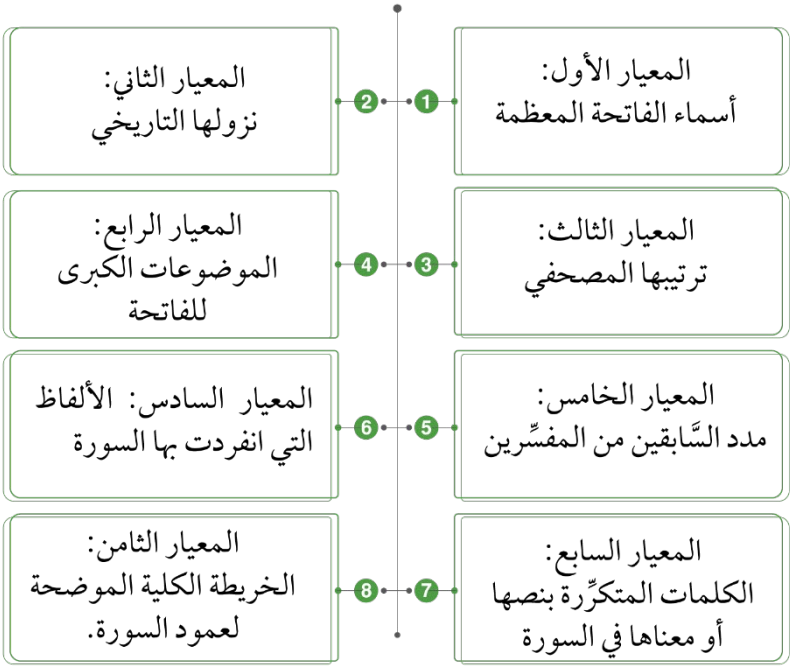
وَالْجَوَابُ: بَعْدَ طُولِ تَدَبُّرٍ، وَعُكُوفٍ وَاصْطِبَارٍ لِاسْتِكْشَافِ بَصَائِرِ هَذِهِ السُّورَةِ الْمُعَظَّمَةِ، تَوَصَّلْتُ إِلَى أَنَّ عَمُودَهَا الْكُلِّيَّ هُوَ:

(الْإِسْلَامُ فِي سَبْعِ آيَاتٍ، فَالْفَاتِحَةُ تُعَرِّفُ الْعَالَمَ بِالْإِسْلَامِ وَتَرْسُمُ آيَاتُهَا السَّبْعُ الْخَرِيطَةَ الْكُلِّيَّةَ لِمَقَاصِدِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَمَعَارِفِهِ الْكُبْرَى فِي عَشَرَةِ مَقَاصِدَ).

هَذَا الْعُنْوَانُ الْعَرِيضُ **"الْإِسْلَامُ فِي سَبْعِ آيَاتٍ"** الَّذِي يُمَثِّلُ (عَمُودَ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ) هُوَ تَوْصِيفٌ دَقِيقٌ لِمَكَانَتِهَا وَمُحْتَوَاهَا. فَهِيَ لَيْسَتْ مُجَرَّدَ مُقَدِّمَةٍ لِلْقُرْآنِ، بَلْ هِيَ خُلَاصَةٌ مُرَكَّزَةٌ لِمَقَاصِدِهِ الْكُبْرَى، وَدُسْتُورٌ مُوجَزٌ لِلْحَيَاةِ الْإِسْلَامِيَّةِ. وَكَأَنَّ بَقِيَّةَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ يَأْتِي تَفْصِيلًا لِمَا أُجْمِلَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ الْعَظِيمَةِ.

النور الثالث

المعايير الثمانية لتحديد عمود سورة الفاتحة (موضوعها الكلي)



النُّورُ الثَّالثُ

الْمَعَايِيرُ الثَّمَانِيَةُ لِتَحْدِيدِ عَمُودِ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ

(مَوْضُوعِهَا الْكُلِّيِّ)

الْمِعْيَارُ الْأَوَّلُ: أَسْمَاءُ الْفَاتِحَةِ الْمُعَظَّمَةِ:

أَوْرَدَ السُّيُوطِيُّ ﵀ فِي الْإِتْقَانِ لِلْفَاتِحَةِ أَسْمَاءً كَثِيرَةً أَوْصَلَهَا إِلَى أَكْثَرَ مِنْ عِشْرِينَ اسْمًا، قَالَ ﵀: "قَدْ يَكُونُ لِلسُّورَةِ اسْمٌ وَاحِدٌ وَهُوَ كَثِيرٌ، وَقَدْ يَكُونُ لَهُمَا اسْمَانِ فَأَكْثَرُ. مِنْ ذَلِكَ الْفَاتِحَةُ: وَقَدْ وَقَفْتُ لَهَا عَلَى نَيِّفٍ وَعِشْرِينَ اسْمًا، وَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى شَرَفِهَا، فَإِنَّ كَثْرَةَ الْأَسْمَاءِ دَالَّةٌ عَلَى شَرَفِ الْمُسَمَّى"(١).

وَمِنْ أَشْهَرِ أَسْمَائِهَا:

١) **فَاتِحَةُ الْكِتَابِ**، وَسُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ يُفْتَتَحُ بِهَا فِي الْمَصَاحِفِ وَفِي التَّعْلِيمِ وَفِي الْقِرَاءَةِ فِي الصَّلَاةِ، وَإِنَّمَا يُفْتَتَحُ بِهَا لِتَضَمُّنِهَا خُلَاصَةَ الذِّكْرِ الْحَكِيمِ، فَهِيَ كَبَرَاعَةِ الِاسْتِهْلَالِ بَيْنَ يَدَيْ تِلَاوَتِهِ، وَالْوُقُوفِ عَلَى مَقَاصِدِهِ وَعَظِيمِ بَصَائِرِهِ.

٢) **فَاتِحَةُ الْقُرْآنِ**.

٣) **أُمُّ الْكِتَابِ**.

٤) **أُمُّ الْقُرْآنِ**، وَأُمُّ الشَّيْءِ أَصْلُهُ، وَهِيَ أَصْلُ الْقُرْآنِ لِانْطِوَائِهَا عَلَى جَمِيعِ أَغْرَاضِ الْقُرْآنِ وَمَا فِيهِ مِنَ الْعُلُومِ وَالْحِكَمِ، وَبِهَذَا يَتَبَيَّنُ مَا لِأَسْمَائِهَا مِنْ أَثَرٍ فِي تَحْدِيدِ عَمُودِهَا الْكُلِّيِّ.

إِنَّ مَا حَظِيَتْ بِهِ الْفَاتِحَةُ الْمُبَارَكَةُ مِنْ أَسْمَاءٍ مُعَظَّمَةٍ وَأَلْقَابٍ مُفَخَّمَةٍ، لَيُؤَكِّدُ بِجَلَاءٍ مَا سَبَقَ تَقْرِيرُهُ مِنْ أَنَّ مَدَارَهَا الْأَوْحَدَ، وَعَمُودَهَا الْكُلِّيَّ هُوَ **"الْإِسْلَامُ فِي سَبْعِ آيَاتٍ"**.

---

(١) ينظر: الإتقان في علوم القرآن، (١/ ١٨٧).

فَتَصَدُّرُهَا لِلْقُرْآنِ، وَكَوْنُهَا "أُمَّهُ"، شَاهِدَا عَدْلٍ عَلَى كِفَايَتِهَا فِي بَيَانِ حَقِيقَةِ الْإِسْلَامِ الْقَوِيمِ دُونَ زِيَادَةٍ أَوْ نُقْصَانٍ.

الْمِعْيَارُ الثَّانِي: نُزُولُهَا التَّارِيخِيُّ:

الْأَكْثَرُونَ عَلَى أَنَّهَا مَكِّيَّةٌ، وَلَكِنَّهَا لَيْسَتْ أَوَّلَ مَا نَزَلَ، وَذَكَرُوا عَنْ مُجَاهِدٍ الْقَوْلَ: إِنَّهَا مَدَنِيَّةٌ[1]، وَالصَّوَابُ قَوْلُ الْجُمْهُورِ مِنَ الْقَوْلِ بِمَكِّيَّتِهَا؛ وَيَظْهَرُ لِي أَنَّهَا الرَّابِعَةُ فِي تَرْتِيبِ نُزُولِهَا بَعْدَ الْعَلَقِ وَالْمُدَّثِّرِ وَالْمُزَّمِّلِ؛ إِذْ هِيَ الْمُفْتَتَحُ لِلذِّكْرِ الْحَكِيمِ الْمُلَخِّصَةُ لِأَغْرَاضِهِ، الْجَامِعَةُ لِمَقَاصِدِهِ، الْمُكْتَنِزَةُ لِبَصَائِرِهِ، وَتَكَفَّلَتْ كَلِمَاتُ الْفَاتِحَةِ بِالْإِرْشَادِ إِلَى مُجْمَلَاتِهِ، وَمَعَالِمِ هِدَاهُ الْكُبْرَى، وَأُسُسِ الْخُطَّةِ الْإِلَهِيَّةِ لِنَجَاحِ وَفَلَاحِ الْبَشَرِيَّةِ فِي الدَّارَيْنِ، فَنَزَلَتْ فِي مَكَّةَ لِتَكُونَ تِلَاوَتُهَا رُكْنَ الصَّلَاةِ الَّتِي هِيَ عَمُودُ الدِّينِ الْأَعْظَمُ.

وَقَدْ قِيلَ بِأَنَّ الْفَاتِحَةَ تَكَرَّرَ نُزُولُهَا مَرَّةً أُخْرَى فِي الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ، كَمَا قِيلَ بِأَنَّ بَعْضَهَا مِمَّا نَزَلَ بِمَكَّةَ وَبَعْضَهَا بِالْمَدِينَةِ، وَلَكِنْ كِلَا الْقَوْلَيْنِ لَا دَلِيلَ نَاهِضَ لَهُمَا[2].

---

(١) ينظر: الإتقان في علوم القرآن، (١/ ٤٦).

(٢) ينظر: البرهان للزركشي، (١/ ٢٩)، الإتقان (١/ ٤٦).

الْمِعْيَارُ الثَّالِثُ: تَرْتِيبُهَا الْمُصْحَفِيُّ:

الْفَاتِحَةُ الْمُبَارَكَةُ مُفْتَتَحُ الْكِتَابِ وَمُبْتَدَؤُهُ، وَزُبْدَةُ مَقَاصِدِهِ وَمُنْتَهَاهُ، قَدِ اكْتَنَزَتْ فِي آيَاتِهَا السَّبْعِ أُصُولَ الْمِلَّةِ، وَأَرْكَانَ الشِّرْعَةِ، وَعَرَّفَتْ بِمَعَالِمِ الْإِسْلَامِ الْكُبْرَى، وَمَجِيئُهَا فِي أَوَّلِ الْكِتَابِ وَصَدَارَتِهِ، يُؤَهِّلُهَا لِتَكُونَ بِحَقِّ التَّعْرِيفَ الْجَامِعَ بِمَكْنُونِهِ، وَالشِّعَارَ الْعَرِيضَ الْوَاسِعَ لِمَضْمُونِهِ، فَاسْتَحَقَّتْ بِذَلِكَ أَنْ يَكُونَ عَمُودُهَا وَمَوْضُوعُهَا الْكُلِّيُّ: (**الْإِسْلَامُ فِي سَبْعِ آيَاتٍ**).

مَرْكَزِيَّةُ الْفَاتِحَةِ (الْمَصْدَرِ الْأَوَّلِ لِلْمَعْرِفَةِ) فِي النَّسَقِ الْقُرْآنِيِّ

تَتَرَبَّعُ الْفَاتِحَةُ عَلَى عَرْشِ الصَّدَارَةِ فِي كِتَابِ اللهِ، فَهِيَ الْقَلْبُ النَّابِضُ الَّذِي يُغَذِّي سَائِرَ السُّوَرِ، وَإِلَيْهَا تَعُودُ خُلَاصَةُ مَقَاصِدِ الْقُرْآنِ وَجَوَامِعُ هِدَايَاتِهِ، الْأَمْرُ الَّذِي يُرَسِّخُ لَهَا الْمَكَانَةَ الْمَرْكَزِيَّةَ، وَيَجْعَلُ السُّوَرَ تَتَّصِلُ بِهَا بِعَلَاقَةٍ مُحْكَمَةٍ عُضْوِيَّةٍ، وَوَشِيجَةٍ مَتِينَةٍ قَوِيَّةٍ.

وَالْفَاتِحَةُ هِيَ بَوَّابَةُ الْقُرْآنِ الْكُبْرَى وَمُسْتَوْدَعُ مَقَاصِدِهِ، فَكُلُّ هِدَايَاتِ الْكِتَابِ الْمُبِينِ إِلَيْهَا تَعُودُ وَمِنْهَا تَنْطَلِقُ، مَا يُؤَكِّدُ صِلَتَهَا الْوُثْقَى وَمَكَانَتَهَا الْفَرِيدَةَ بَيْنَ سَائِرِ السُّوَرِ.

لَا بُدَّ أَنْ نَتَسَاءَلَ هُنَا: هَلْ هَذِهِ الْمَرْكَزِيَّةُ الْعَظِيمَةُ لِـ(أُمِّ الْكِتَابِ، وَأُمِّ الْقُرْآنِ) تَعْنِي أَنَّ بَقِيَّةَ السُّوَرِ الْقُرْآنِيَّةِ مُسْتَغْنًى عَنْهَا؟

الْجَوَابُ: لَا، وَلَا يُمْكِنُ فَهْمُ ذَلِكَ. إِنَّ الْقُرْآنَ كُلَّهُ -وَلَيْسَ الْفَاتِحَةَ فَقَطْ- هُوَ الَّذِي تَتَحَقَّقُ بِهِ الْكِفَايَةُ لِلِاحْتِيَاجَاتِ الْبَشَرِيَّةِ فِي إِقَامَةِ الْحُجَّةِ، وَفِي فَهْمِ الْحَيَاةِ، وَفِي التَّشْرِيعِ التَّنْظِيمِيِّ لِلْوَاقِعِ؛ فَاللهُ -عَزَّ جَارُهُ- يَقُولُ: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت:٥١].

فَالْقُرْآنُ يَمْنَحُكَ الْبَصَائِرَ الْمَجِيدَةَ الَّتِي تُحَدِّدُ لَكَ الرُّؤْيَةَ الْوَاضِحَةَ الْحَقِيقِيَّةَ لِلْحَيَاةِ السَّعِيدَةِ، وَالْمَنْهَجِيَّةَ الْقَوِيَّةَ الْقَوِيمَةَ الرَّشِيدَةَ قَالَ تَعَالَى: ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:٢٠٣]، وَلَكِنَّ هَذِهِ الْمَرْكَزِيَّةَ الْعَظِيمَةَ لِلْفَاتِحَةِ تَعْنِي أَنَّهَا:

فَاتِحَةُ الِانْطِلَاقِ لِفَهْمِ الْمَنْهَجِ الْمَعْرِفِيِّ الْقُرْآنِيِّ التَّفْصِيلِيِّ، وأَنَّهَا كَلِمَةُ السِّرِّ فِي فَهْمِ الْخُطَّةِ الْقُرْآنِيَّةِ فِي بِنَاءِ الْحَيَاةِ؛ لِأَنَّهَا حَوَتِ الْخُلَاصَةَ الْأَوَّلِيَّةَ لِلْكَلِمَاتِ الْإِلَهِيَّةِ، فَضَمَّتْ أَهَمَّ الْمُحْكَمَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ، وَالْمَقَاصِدَ الْكُلِّيَّةَ الْقَطْعِيَّةَ الْإِسْلَامِيَّةَ، وَالْقَوَاعِدَ الدُّسْتُورِيَّةَ الْجَامِعَةَ.

فَلَوْ قُلْنَا لِلْمَعَانِي الْمَبْثُوثَةِ فِي مُعْظَمِ الْكَلِمَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ اذْهَبِي إِلَى حَيْثُ شِئْتِ لَرَجَعَتْ إِلَى الْفَاتِحَةِ الْمُبَارَكَةِ، وَبِذَا تَنْطَلِقُ مِنْهَا الْأُمَّةُ لِتَتَبَوَّأَ مَكَانَ الْقِيَادَةِ وَالرِّيَادَةِ (الْخَيْرِيَّةِ الْعَالَمِيَّةِ) كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران:١١٠].

إِنَّهَا الرِّيَادَةُ وَالسِّيَادَةُ وَالْقِيَادَةُ عَلَى أَسَاسِ الْخَيْرِ الَّذِي سَتَنَالُهُ الْبَشَرِيَّةُ مِنْ أُمَّةِ الْخَيْرِيَّةِ.

فَهِيَ الْمَنَارَةُ الَّتِي تَحْتَاجُ الْمَحَافِلُ الدَّوْلِيَّةُ إِلَى الِاسْتِرْشَادِ بِنُورِهَا، وَتَعَلُّمِ مَعَانِيهَا، وَهِيَ مُقَدِّمَةُ الْمِيثَاقِ الْأُمَمِيِّ الصَّادِقِ الَّذِي تَفْتَقِرُ الْمُؤَسَّسَاتُ الْعَالَمِيَّةُ إِلَى اسْتِلْهَامِ مَقَاصِدِهِ وَمَرَامِيهِ.

وَ(الْفَاتِحَةُ) فَاتِحَةٌ لِلسُّوَرِ، وَلَيْسَتْ هِيَ السُّوَرَ! فَلَا تُغْنِي عَنْهَا؛ لِأَنَّ بَقِيَّةَ السُّوَرِ الْقُرْآنِيَّةِ تَحْتَوِي عَلَى مَعَالِمَ (تَفْصِيلِيَّةٍ) وَ(تَأْكِيدِيَّةٍ) لِمَا فِي (الْفَاتِحَةِ)، كَمَا أَنَّهَا تُنْشِئُ (قَوَاعِدَ جَدِيدَةً) فِي الْمَعْرِفَةِ الْقُرْآنِيَّةِ، وَتَحْتَوِي فِي الْوَقْتِ ذَاتِهِ عَلَى كَمٍّ مَعْرِفِيٍّ عَظِيمٍ يُشَكِّلُ مَبَادِئَ قُرْآنِيَّةً (تَأْسِيسِيَّةً) تَتَأَلَّفُ مِنْهَا الْخُطَّةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِلْبِنَاءِ الْحَيَاتِيِّ مِمَّا لَمْ يَرِدْ فِي (الْفَاتِحَةِ)، وَقَدْ وَصَفَ اللهُ ﷻ الْخَرِيطَةَ الْقُرْآنِيَّةَ كُلَّهَا، فَجَعَلَهَا فِي جَمِيعِ السُّوَرِ مُحْتَوِيَةً عَلَى أَرْبَعَةِ مَعَالِمَ أَسَاسِيَّةٍ، فَقَالَ: ﴿تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف:١١١].

فَالْفَاتِحَةُ الْمُبَارَكَةُ وَإِنْ كَانَتْ (أُمَّ الْقُرْآنِ) إِلَّا أَنَّهَا لَا تُغْنِي عَنْ بَقِيَّةِ الْقُرْآنِ؛ إِذِ الْقُرْآنُ بِمَجْمُوعِ سُوَرِهِ يُشَكِّلُ مَصْدَرَ الْمَعْرِفَةِ الْأَوَّلَ الَّذِي يَمُدُّ الْعَالَمَ بِمَعْلُومَاتٍ لَيْسَ فِي وُسْعِهِمْ أَنْ يَجِدُوهَا مِنْ تِلْقَاءِ أَنْفُسِهِمْ كَمَا قَرَّرَ اللهُ ﷻ ذَلِكَ قَائِلًا: ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٥١].

إِنَّ مَنْ يَسْتَمِعُ بِفَهْمٍ وَاعٍ وَمَحَبَّةٍ صَادِقَةٍ إِلَى الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ سَيَجِدُهُ أَسَاسَ الِانْبِعَاثِ لِلْعَقْلِ الْإِنْسَانِيِّ، فَأَكْمَلُ الْعُقُولِ هِيَ الَّتِي تَصْدُرُ عَنِ الْمَعْرِفَةِ الْقُرْآنِيَّةِ.

قَالَ ﷻ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [ق: ٣٧].

إِنَّ الْخُطَّةَ الْحَيَوِيَّةَ الَّتِي تَرْسُمُهَا الْفَاتِحَةُ سَتُدْهِشُكَ، وَتَأْخُذُ أَنْفَاسَكَ إِعْجَابًا عِنْدَمَا تَتَعَمَّقُ فِي تَدَبُّرِكَ لِتَفَاصِيلِهَا، وَتَذَكَّرْ أَنَّ ذَلِكَ لَا يَتَأَتَّى إِلَّا بِتَدَبُّرِ الْأُذُنِ الْوَاعِيَةِ الْمُلْقِيَةِ لِلسَّمْعِ مَعَ شَهَادَةِ الْقُلُوبِ الْحَاضِرَةِ، وَخُذْ نَمُوذَجًا لِهَذَا الْإِدْهَاشِ فِي الْبَصَائِرِ الْإِسْتِرَاتِيجِيَّةِ الَّتِي تُوَفِّرُهَا آيَتَا (الصِّرَاطِ)..

سَتَرَى أَنَّهَا تَضَعُ لَنَا -فِي تَرْكِيزٍ مُذْهِلٍ- حُلُولًا لِلْوَقَائِعِ الَّتِي حَيَّرَتْ مَرَاكِزَ صُنْعِ الْقَرَارِ فِي الدُّوَلِ الْإِسْلَامِيَّةِ، فِي كَيْفِيَّةِ التَّعَامُلِ مَعَ الْوَاقِعِ الْمُتَشَابِكِ لِلْفِتَنِ السِّيَاسِيَّةِ وَالِاجْتِمَاعِيَّةِ الْمُتَلَاطِمَةِ الْأَمْوَاجِ. عِنْدَهَا سَتَرَى حَقًّا الْمَجْدَ الَّذِي تَبْنِيهِ الْمَفَاهِيمُ الْحَضَارِيَّةُ الْقُرْآنِيَّةُ فِي بِنَاءِ حَيَاةِ الْمُسْلِمِينَ ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء:١٠].

الْمِعْيَارُ الرَّابِعُ: الْمَوْضُوعَاتُ الْكُبْرَى لِلْفَاتِحَةِ:

تَجَلَّتْ فِي سُورَةِ الْفَاتِحَةِ مَوْضُوعَاتٌ كُبْرَى شَكَّلَتْ بِنَاءَهَا الْمَشِيدَ، وَأَبْرَزَتْ هَيْكَلَهَا الْفَرِيدَ، وَكَانَتْ أَبْرَزَ تِلْكَ الْمَوْضُوعَاتِ هِيَ:

الْمَوْضُوعُ الْأَوَّلُ: التَّعْرِيفُ بِاللهِ وَاسْمِهِ الْأَعْظَمِ، وَأَسَاسُ صِفَاتِهِ (الرَّحْمَةُ):

جَاءَتِ الْفَاتِحَةُ مُعَرِّفَةَ الْعِبَادِ بِخَالِقِهِمُ الْحَقِّ، وَمُوَضِّحَةً لِأَسَاسِ صِفَاتِهِ (الرَّحْمَةِ)، وَنَجِدُ ذَلِكَ فِي مَطْلَعِ السُّورَةِ ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١) الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣)﴾ [الفاتحة: ١ - ٣].

الْمَوْضُوعُ الثَّانِي: الثَّنَاءُ عَلَى اللهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، وَإِخْلَاصُ الْقَصْدِ وَالْعِبَادَةِ لَهُ، وَالِاسْتِعَانَةُ بِهِ:

فَقَدْ أَخَذَ هَذَا الْمَوْضُوعُ مِسَاحَةً كَبِيرَةً مِنْ الْفَاتِحَةِ عَلَى قِصَرِ آيَاتِهَا وَقِلَّةِ عَدَدِ أَلْفَاظِهَا، وَأَوَّلُ مَا يَطْرُقُ السَّمْعَ وَالْقَلْبَ مِنَ الثَّنَاءِ عَلَى اللهِ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ فِيهَا: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١)﴾، ثُمَّ يُلْحِقُ بِالتَّصْرِيحِ بِإِسْدَاءِ الشُّكْرِ الْعَظِيمِ وَالثَّنَاءِ الْكَرِيمِ عَلَيْهِ سُبْحَانَهُ بِأَسَاسِ صِفَاتِهِ وَمَعْقِدِهَا فِي قَوْلِهِ: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ثُمَّ يَخْتِمُ الثَّنَاءَ بِالْمَجِيدِ الْكَرِيمِ لِلْمَالِكِ الْمُتَصَرِّفِ فِي أَمْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾.

وَأَثَرُ هَذَا الْمَوْضُوعِ فِي تَحْدِيدِ عَمُودِ السُّورَةِ بَيِّنٌ جَلِيٌّ؛ إِذْ خُطَّةُ الْفَلَاحِ وَالنَّجَاحِ الْكُلِّيَّةُ الَّتِي ضَمَّنَهَا اللهُ ﷻ فِي مُحْكَمِ كِتَابِهِ، وَجَاءَتِ الْفَاتِحَةُ مُلَخِّصَةً لَهَا بِصُورَةٍ مُرَكَّزَةٍ، إِنَّمَا يَنْتَفِعُ بِهَا مَنْ أَخْلَصَ لِلهِ قَلْبَهُ، وَتَجَرَّدَ لِلْحَقِّ عُبُودِيَّةً وَاسْتِعَانَةً، وَأَدَامَ الثَّنَاءَ عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ جَلَّ مَجْدُهُ.

الْمَوْضُوعُ الثَّالِثُ: الْهِدَايَةُ لِلصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ وَاجْتِنَابُ سُبُلِ الضَّلَالِ الْأُخْرَى أَهَمُّ مَطْلَبٍ لِلْعِبَادِ:

وَيُمْكِنُنَا الْقَوْلُ بِأَنَّ هَذَا الْمَوْضُوعَ أَخَذَ الْجُزْءَ الثَّانِيَ الْمُتَبَقِّيَ مِنْ آيَاتِ الْفَاتِحَةِ ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧]، وَهُوَ عِنْدَ التَّأَمُّلِ الْمَقْصِدُ الَّذِي يَتَطَلَّعُ لِلْفَوْزِ بِهِ وَنَيْلِهِ مَنْ يَبْذُلُ الْحَمْدَ لِلهِ، وَيَتَقَدَّمُ بِالثَّنَاءِ عَلَيْهِ فِي الْآيَاتِ الْأُوَلِ السَّابِقَةِ.

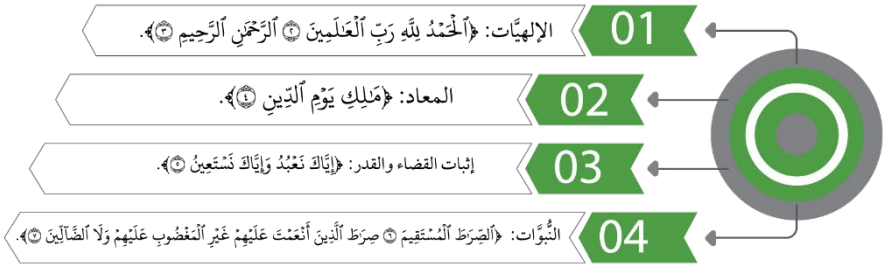
وَعَلَاقَةُ هَذَا الْمَوْضُوعِ بِالْعَمُودِ الْكُلِّيِّ لِلْفَاتِحَةِ وَاضِحَةٌ وَأَجْلَى مِنْ أَنْ تَحْتَاجَ إِلَى تَقْرِيرٍ وَتَبْيِينٍ؛ فَهَلِ الْخَرِيطَةُ الْكُلِّيَّةُ لِدِينِ اللهِ ﷻ وَخُطَّتُهُ الَّتِي اخْتَطَّهَا لِلْعِبَادِ إِلَّا الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ الَّذِي يُلْهَجُ بِطَلَبِ الْهِدَايَةِ إِلَيْهِ وَالتَّوْفِيقِ لِسُلُوكِهِ صَبَاحَ مَسَاءَ.

وَهَذِهِ الْمَوْضُوعَاتُ الْكُبْرَى لِلْفَاتِحَةِ هِيَ الَّتِي ذَكَرَهَا بَعْضُ الْعُلَمَاءِ عِنْدَ مُحَاوَلَتِهِمْ حَصْرَ مَقَاصِدِ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ، وَهُنَا تَجْدُرُ الْإِشَارَةُ إِلَى نَمَاذِجَ مِنْ جُهُودِهِمْ فِي هَذَا الْمَجَالِ، ثُمَّ نَخْتِمُ بِذِكْرِ التَّقْسِيمِ النَّبَوِيِّ الْمَقَاصِدِيِّ لِسُورَةِ الْفَاتِحَةِ.

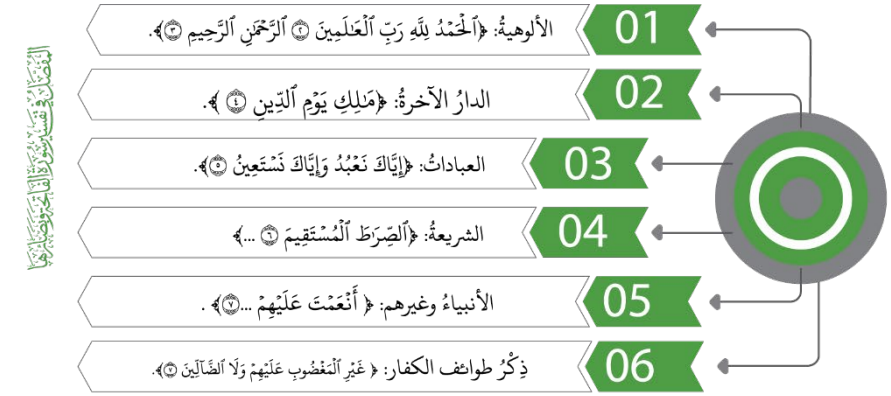
مقاصد سورة الفاتحة

أولًا: نماذج لجهود العلماء في تحديد المقاصد الكلية لسورة الفاتحة المباركة

الأنموذج الأول: ذكر الرازي (ت٦٠٦هـ) أن مقاصد القرآن أربعةٌ اجتمعت في الفاتحة هي:



الأنموذج الثاني: ذكر ابن جزي (ت٧٤١هـ) أن سورة الفاتحة جمعت ستة مقاصد كلية:



الأنموذج الثالث: ابن عاشور (ت١٣٩٣هـ): قرر أن مقاصدَ القرآن الكلية ثلاثة مقاصد:



مَقَاصِدُ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ

وَهُنَا نَسْأَلُ: هَلْ سَبَقَ لِلْعُلَمَاءِ أَنْ حَاوَلُوا مَعْرِفَةَ الْمَقَاصِدِ الْكُلِّيَّةِ الَّتِي اشْتَمَلَتْ عَلَيْهَا سُورَةُ الْفَاتِحَةِ الْمُبَارَكَةُ؟

الْجَوَابُ: نَعَمْ، وَيَتَّضِحُ ذَلِكَ فِيمَا يَأْتِي:

أَوَّلًا: نَمَاذِجُ لِجُهُودِ الْعُلَمَاءِ فِي تَحْدِيدِ الْمَقَاصِدِ الْكُلِّيَّةِ لِسُورَةِ الْفَاتِحَةِ الْمُبَارَكَةِ:

هَلُمَّ نَرْتَشِفِ الضِّيَاءَ الْحَقِيقِيَّ مِنْ خِلَالِ التَّدَبُّرِ الْمُشْرِقِ (لِلْفَاتِحَةِ) الْمُبَارَكَةِ سَنَجِدُ أَنَّهَا تُرْسِلُ لَمْحَةً مُضِيئَةً، وَتُبْرِقُ سِرَاجًا لَامِعًا لِلْعَالَمِ يَدُلُّهُ عَلَى حَقِيقَةِ الْإِسْلَامِ وَأَهْدَافِهِ، وَهِيَ الْمَقَاصِدُ الَّتِي تَحْتَاجُ الْبَشَرِيَّةُ إِلَى مَعْرِفَتِهَا لِإِدْرَاكِ سِرِّ الْحَيَاةِ، فَإِذَا أَرَادَ إِنْسَانٌ مَعْرِفَةَ حَقِيقَةِ الْحَيَاةِ، وَحِكْمَةَ الْوُجُودِ، فَسَيَجِدُهَا بِسُهُولَةٍ عِنْدَمَا يُدْرِكُ الْأَهْدَافَ الْعُلْيَا لِلْإِسْلَامِ، وَسَيَرَاهَا بِكُلِّ وُضُوحٍ عِنْدَمَا يَتَعَرَّفُ إِلَى الْمَقَاصِدِ الْكُلِّيَّةِ الَّتِي تَدُورُ حَوْلَهَا الْمَعَارِفُ الْقُرْآنِيَّةُ، وَأَيْسَرُ طَرِيقٍ إِلَى ذَلِكَ أَنْ يَتَأَمَّلَ آيَاتِ سُورَةِ (الْفَاتِحَةِ) وَيَتَدَبَّرَهَا، لِمَاذَا؟

لِأَنَّهَا (الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ)، وَهَذَا اللَّقَبُ الْفَخْمُ نَجِدُهُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَنَجِدُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَقَّبَهَا بِهِ، فَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ [الحجر:٨٧]، وَفَسَّرَ ذَلِكَ النَّبِيُّ ﷺ بِمَا يُشْبِهُ النَّصَّ فِي قَوْلِهِ: «أُمُّ الْقُرْآنِ هِيَ: السَّبْعُ الْمَثَانِي، وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ»[1]، **فَقُلْ لِي -أَعَزَّكَ اللهُ- مَاذَا يَعْنِي أَنْ تَكُونَ الْفَاتِحَةُ هِيَ (الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ)؟**

إِنَّ ذَلِكَ يَعْنِي بِسُهُولَةٍ وَيُسْرٍ أَنَّهَا خُلَاصَةُ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ وَسِرُّهُ، وَيَعْنِي أَنَّهَا اسْتَوْعَبَتِ الْمَقَاصِدَ الْكُلِّيَّةَ لِلتَّنْزِيلِ الْقُرْآنِيِّ.

---

(١) البخاري (٦/ ١٠٢).

وَلِأَنَّ (الْفَاتِحَةَ) أُتْرِعَتْ بِالْمَقَاصِدِ الْقُرْآنِيَّةِ الْكُلِّيَّةِ فَقَدْ حَاوَلَ أَهْلُ الْعِلْمِ أَنْ يُحَدِّدُوا مَقَاصِدَ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ، وَإِنِ اخْتَلَفَتْ عِبَارَاتُهُمْ فِي ذَلِكَ إِلَّا أَنَّهُمْ مُتَّفِقُونَ فِي الْمَضْمُونِ غَالِبًا، فَبَعْضُهُمْ جَعَلَهَا ثَلَاثَةَ مَقَاصِدَ، وَبَعْضُهُمْ عَدَّهَا أَرْبَعَةً، وَبَعْضُهُمْ زَادَ عَلَى ذَلِكَ.

وَمِمَّنْ تَعَرَّضَ لِذَلِكَ بِإِسْهَابٍ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ حَيْثُ فَصَّلَ نَظَرَاتِهِ الثَّاقِبَةَ، وَنَتَائِجَ تَدَبُّرِهِ الْفَذِّ الْآسِرِ فِي كِتَابِهِ: (مَدَارِجِ السَّالِكِينَ بَيْنَ مَنَازِلِ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)، وَالْعَيْشُ فِي كَنَفِ النَّتَائِجِ الَّتِي تَوَصَّلَ إِلَيْهَا يَأْخُذُ الْعَقْلَ إِلَى أَفْنَانٍ نَدِيَّةٍ، وَحَدَائِقَ ذَاتِ بَهْجَةٍ، إِلَّا أَنَّنَا سَنَذْكُرُ هَهُنَا نَمَاذِجَ أُخْرَى لِلْجُهُودِ الرَّائِعَةِ مِنْ أُولِي الْأَبْصَارِ السَّابِقِينَ يَسْتَبِينُ لَنَا مِنْ خِلَالِهَا كَيْفَ اكْتَنَزَتِ الْفَاتِحَةُ مَقَاصِدَ التَّنْزِيلِ الْقُرْآنِيِّ الْمُبِينِ؛ لِتَخْتَصِرَ لِلْعَالَمِ مَعَالِمَ الْإِسْلَامِ الْعِظَامَ الَّتِي بِهَا يَعْرِفُونَ هُوِيَّتَهُمُ الْوُجُودِيَّةَ، وَحَقِيقَتَهُمُ الْأَزَلِيَّةَ، وَهَذِهِ بَعْضُ النَّمَاذِجِ لِتِلْكَ الْجُهُودِ:

۞ **فَأَمَّا الْأُنْمُوذَجُ الْأَوَّلُ: فَلِلْفَخْرِ الرَّازِيِّ** رَحِمَهُ اللَّهُ (ت٦٠٦هـ) حَيْثُ ذَكَرَ أَنَّ مَقَاصِدَ الْقُرْآنِ أَرْبَعَةٌ هِيَ: الْإِلَهِيَّاتُ، وَالْمَعَادُ، وَالنُّبُوَّاتُ، وَإِثْبَاتُ الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ لِلَّهِ تَعَالَى، وَكُلُّهَا اجْتَمَعَتْ فِي الْفَاتِحَةِ:

فَقَوْلُهُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾ **يَدُلُّ عَلَى الْإِلَهِيَّاتِ.**

وَقَوْلُهُ: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ يَدُلُّ عَلَى الْمَعَادِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ إِلَى آخِرِهَا يَدُلُّ عَلَى تَفَاصِيلِ عَقِيدَةِ الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ الَّتِي تَتَلَخَّصُ فِي نَفْيِ الْجَبْرِ وَإِثْبَاتِ الِاخْتِيَارِ مِنْ جِهَةٍ، وَفِي عَدَمِ خُرُوجِ ذَلِكَ عَنِ الْإِرَادَةِ الْإِلَهِيَّةِ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى، حَيْثُ يَقُولُ الْأَبْرَارُ: (نَعْبُدُ-نَسْتَعِينُ)، مَعَ الْخُضُوعِ لِمَشِيئَةِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ الَّتِي نَسْتَمِدُّ مِنْهَا الْمِنَّةَ وَالنِّعْمَةَ، وَلِذَا قَالَ اللهُ عَنْ دُعَاءِ الصَّالِحِينَ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ

﴿٧﴾، وَتَدُلُّ هَذِهِ الْكَلِمَاتُ أَيْضًا عَلَى النُّبُوَّاتِ، وَمَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهَا مِنْ مَوَاقِفِ الْمُتَّبِعِينَ وَالصَّادِّينَ الْمُجْرِمِينَ (١).

عَرِّفْنَا الْمَقَاصِدَ الْكُلِّيَّةَ الَّتِي اسْتَخْرَجَهَا الرَّازِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ مِنَ الْفَاتِحَةِ، وَنَتَسَاءَلُ عَمَّنْ تَلَا الرَّازِيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي مُحَاوَلَةِ اسْتِخْرَاجِ الْمَقَاصِدِ الْكُلِّيَّةِ لِلْفَاتِحَةِ؟

الْجَوَابُ: نَعَمْ، إِلَيْكَ:

۞ **الْأُنْمُوذَجُ الثَّانِي: فَهُوَ ابْنُ جُزَيٍّ الْكَلْبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ** (ت٧٤١هـ)، وَكَأَنَّهُ اسْتَفَادَ مِنَ الرَّازِيِّ، وَطَوَّرَ رَأْيَهُ، فَرَأَى أَنَّ سُورَةَ الْفَاتِحَةِ جَمَعَتْ مَعَانِيَ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ كُلَّهُ، لِتُكَوِّنَ نُسْخَةً مُخْتَصَرَةً مِنْهُ، وَهَذِهِ الْمَعَانِي الْكُلِّيَّةُ عِنْدَهُ سِتَّةٌ هِيَ:

الْأُلُوهِيَّةُ فِي قَوْلِهِ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾.

وَالدَّارُ الْآخِرَةُ فِي قَوْلِهِ: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾.

وَالْعِبَادَاتُ كُلُّهَا مِنَ الِاعْتِقَادَاتِ وَالْأَحْكَامِ الَّتِي تَقْتَضِيهَا الْأَوَامِرُ وَالنَّوَاهِي فِي قَوْلِهِ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ ...۝٥﴾.

وَالشَّرِيعَةُ كُلُّهَا فِي قَوْلِهِ: ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ...۝٦﴾.

وَالْأَنْبِيَاءُ وَغَيْرُهُمْ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ...۝٧﴾.

وَذِكْرُ طَوَائِفِ الْكُفَّارِ فِي قَوْلِهِ: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ (٢).

---

(١) تفسير الرازي (١/ ١٥٦)، وقريبٌ من هذا نجد مقاصد القرآن عند محمد رشيد رضا ﷺ حيث ذكر أنها خمسة مقاصد كلية، وهي: التَّوْحِيدُ، والوعد والوعيد، والْعِبَادَةُ، وبَيَانُ سَبِيلِ السَّعَادَةِ وَكَيْفِيَّةِ السَّيْرِ فِيهِ، وقَصَصُ السعداء والأشقياء وصفاتهم. انظر تفسير المنار (١/ ٣٠).

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي (ص: ٣).

وَلَكَ أَنْ تُنَاقِشَ هَذَا الْعَلَمَ الْجَهْبَذَ، فَتَتَسَاءَلَ عَنْ تَفْصِيلِ الْفَرْقِ بَيْنَ الْعِبَادَاتِ وَالشَّرِيعَةِ فِيمَا ذَكَرَهُ ﷺ؛ إِذْ يُمْكِنُ دَمْجُهُمَا مَعًا.

۞ **وَأَمَّا الْأُنْمُوذَجُ الثَّالِثُ: فَأُنْمُوذَجُ الطَّاهِرِ بْنِ عَاشُورٍ** رَحِمَهُ اللَّهُ (ت١٣٩٣هـ)، حَيْثُ قَرَّرَ أَنَّ مَقَاصِدَ الْقُرْآنِ الْكُلِّيَّةَ ثَلَاثَةُ مَقَاصِدَ، وَغَيْرُهَا تَكْمِلَاتٌ لَهَا.

وَالْمَقَاصِدُ الثَّلَاثَةُ هِيَ: **الثَّنَاءُ عَلَى اللهِ، وَالْأَوَامِرُ وَالنَّوَاهِي، وَالْوَعْدُ وَالْوَعِيدُ.**

وَأَشَارَ بِعَقْلِيَّتِهِ الْمَقَاصِدِيَّةِ إِلَى أَنَّ سَبَبَ حَصْرِ الْمَقَاصِدِ الْقُرْآنِيَّةِ فِيهَا: أَنَّ الْأَهْدَافَ الْغَائِيَّةَ الْكُبْرَى تَرْجِعُ إِلَى صَلَاحِ الدَّارَيْنِ، وَذَلِكَ يَحْصُلُ بِالْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي، وَاسْتَفَدْنَا ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾، وَهَذَا هُوَ الْمَقْصِدُ الثَّانِي، وَلَمَّا تَوَقَّفَتِ الْأَوَامِرُ وَالنَّوَاهِي عَلَى مَعْرِفَةِ الْآمِرِ، وَأَنَّهُ اللهُ الْوَاجِبُ الْوُجُودِ خَالِقُ الْخَلْقِ لَزِمَ تَحْقِيقُ مَعْنَى الصِّفَاتِ، وَهَذَا هُوَ الْمَقْصِدُ الْأَوَّلُ، وَاسْتَفَدْنَا ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝١ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝٣ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾، وَلَمَّا تَوَقَّفَ تَمَامُ الِامْتِثَالِ عَلَى الرَّجَاءِ فِي الثَّوَابِ، وَالْخَوْفِ مِنَ الْعِقَابِ لَزِمَ تَحَقُّقُ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ، وَهَذَا هُوَ الْمَقْصِدُ الثَّالِثُ، وَنَجِدُ هَذَا الْمَقْصِدَ وَاضِحًا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ۝٧﴾.

وَقَدْ يُؤَيِّدُ هَذَا الْوَجْهُ بِمَا وَرَدَ فِي الصَّحِيحِ فِي: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:١] أَنَّهَا تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ؛ لِأَنَّهَا تُمَثِّلُ الْمَقْصِدَ الْأَوَّلَ مِنْ هَذِهِ الْمَقَاصِدِ(١).

(١) التحرير والتنوير (١/ ١٣٣).

وَلَكِنَّ ابْنَ عَاشُورٍ رَحِمَهُ اللَّهُ تَوَسَّعَ فَذَكَرَ فِي مُقَدِّمَتِهِ أَنَّ مَقَاصِدَ الْقُرْآنِ مَحْصُورَةٌ فِي ثَمَانِيَةِ أُمُورٍ[1]:

الْأَوَّلُ: إِصْلَاحُ الِاعْتِقَادِ، **الثَّانِي**: تَهْذِيبُ الْأَخْلَاقِ، **الثَّالِثُ**: التَّشْرِيعُ، **الرَّابِعُ**: سِيَاسَةُ الْأُمَّةِ، **الْخَامِسُ**: الْقَصَصُ وَأَخْبَارُ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ، **السَّادِسُ**: التَّعْلِيمُ، **السَّابِعُ**: الْمَوَاعِظُ وَالْإِنْذَارُ وَالتَّحْذِيرُ وَالتَّبْشِيرُ، **الثَّامِنُ**: الْإِعْجَازُ.

فَإِنْ قَلَّبْتَ تَفْسِيرَهُ النَّافِعَ الْمَاتِعَ الْمُتْرَعَ بِالْفَوَائِدِ الْجَاذِبَةِ الْآسِرَةِ فَسَتَجِدُهُ لَخَّصَ مَقَاصِدَ الْقُرْآنِ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ فِي مَقْصِدَيْنِ اثْنَيْنِ هُمَا: الْمَوْعِظَةُ وَالتَّشْرِيعُ[2]، وَلَيْسَ الْأَمْرُ عِنْدَهُ عَلَى الِاخْتِلَافِ الْمُضْطَرِبِ، بَلْ عَلَى التَّنْوِيعِ فِي الْعِبَارَةِ وَالتَّفْصِيلِ، حَسَبَ مُقْتَضَى الْمَقَامِ، وَالتَّوَسُّعِ فِي مَعْنَى الْمَقَاصِدِ.

وَنُلَاحِظُ أَنَّ مَنْ ذَكَرْنَاهُمْ مِنَ النَّمَاذِجِ ابْتِدَاءً مِنَ الرَّازِيِّ وَابْنِ جُزَيٍّ، وَانْتِهَاءً بِابْنِ عَاشُورٍ قَدِ اتَّفَقُوا عَلَى أَنَّ مَقْصِدَ مَعْرِفَةِ اللهِ هُوَ الْمَقْصِدُ الْأَوَّلُ مِنْ مَقَاصِدِ الْقُرْآنِ عُمُومًا، وَالْفَاتِحَةِ عَلَى وَجْهِ الْخُصُوصِ.

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٤٠).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٤٠).

ثانيا- أنموذج التقسيم النبوي المقاصدي للفاتحة المباركة

قَسَّم النبي صلى الله عليه وسلم مقاصد الفاتحة إلى ثلاثة مقاصد حقوقية:

01

حق الله الملك الحق:

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾﴾
[الفاتحة: ١-٤]

02

حق الخلق:

﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾﴾
[الفاتحة: ٦-٧]

03

حقوق مشتركة بين الله الملك الحق والخلق:

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾
[الفاتحة: ٥]

قال النبي صلى الله عليه وسلم: «قَالَ اللهُ تَعَالَى: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، قَالَ اللهُ تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة:٣]، قَالَ اللهُ تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة:٤]، قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي - وَقَالَ مَرَّةً فَوَّضَ إِلَيَّ عَبْدِي - فَإِذَا قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥]، قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦-٧] قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ» (مسلم:395).

ثَانِيًا: أُنْمُوذَجُ التَّقْسِيمِ النَّبَوِيِّ الْمَقَاصِدِيِّ لِلْفَاتِحَةِ الْمُبَارَكَةِ:

هُنَا لَا بُدَّ أَنْ نَسْأَلَ: أَلَا يَكْفِينَا فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ الْمُبَارَكَةِ وَسَائِرِ السُّوَرِ أَنْ نَعْرِفَ تَفْسِيرَ الْكَلِمَاتِ وَالْآيَاتِ؟

هَلْ هُنَاكَ مَنْ عَلَّمَنَا أَنْ نُفَسِّرَ الْآيَاتِ تَفْسِيرًا مَقَاصِدِيًّا؟ وَبِصُورَةٍ أَوْضَحَ؟

هَلْ هَذَا الْمَنْهَجُ فِي التَّفْسِيرِ (التَّفْسِيرُ الْمَقَاصِدِيُّ) أَوِ الْمَنْهَجُ التَّسْوِيرِيُّ فَعَلَهُ النَّبِيُّ ﷺ فِي تَعْلِيمِهِ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ لِلنَّاسِ؟

الْجَوَابُ: سَبَقَ مَعَنَا آنِفًا عَرْضُ نَمَاذِجَ مُشْرِقَةٍ لِبَعْضِ حُذَّاقِ الْمُحَقِّقِينَ فِي تَحْدِيدِ (التَّقْسِيمِ الْمَقَاصِدِيِّ) لِلْفَاتِحَةِ، وَلَكِنْ هَلْ يَكُونُ مُفَاجِئًا لَكَ إِذَا عَلِمْتَ أَنَّ نَبِيَّنَا الْكَرِيمَ ﷺ قَدْ سَبَقَ إِلَى تَقْدِيمِ التَّقْسِيمِ الْمَقَاصِدِيِّ لِلْفَاتِحَةِ فِيمَا يَرْوِيهِ عَنِ اللهِ سُبْحَانَهُ كَمَا سَيَرِدُ مَعَنَا بَعْدَ قَلِيلٍ، وَمَا مَثَلُ الْأَئِمَّةِ السَّابِقِينَ مِمَّنْ عَرَضْنَا لِآرَائِهِمْ بِهَذَا الشَّأْنِ إِلَّا كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ [1]:

وَكُلُّهُمْ مِنْ رَسُولِ اللهِ مُلْتَمِسٌ ... غَرْفًا مِنَ الْبَحْرِ أَوْ رَشْفًا مِنَ الدِّيَمِ

نَعَمْ، إِنَّ أَوَّلَ مَنْ عَلَّمَنَا التَّدَبُّرَ الْكُلِّيَّ لِآيَاتِ السُّوَرِ هُوَ النَّبِيُّ ﷺ، بَلِ اللهُ جَلَّ مَجْدُهُ عَلَّمَنَا ذَلِكَ.

فَهَلُمَّ -أَيَّدَكَ اللهُ تَعَالَى بِالتَّوْفِيقِ- نَقِفُ عَلَى الْمَنْهَجِ النَّبَوِيِّ فِي تَحْدِيدِ مَقَاصِدِ التَّنْزِيلِ الْقُرْآنِيِّ الَّتِي أَجْمَلَتْهَا سُورَةُ الْفَاتِحَةِ، وَلْنَفْتَحِ الْعَقْلِيَّةَ الْمَقَاصِدِيَّةَ الْقُرْآنِيَّةَ فِي تَدَبُّرِنَا لِلْفَاتِحَةِ مِنْ خِلَالِ الْبَيَانِ النَّبَوِيِّ الدَّالِّ عَلَى تَحْدِيدِ هَذِهِ الْمَقَاصِدِ بِصُورَةٍ مُسْتَقْصِيَةٍ تَجْذِبُ التَّدَبُّرَ،

---

(١) البيت للبوصيري من بردته المشهورة، (العمدة في إعراب البردة، ص: ٤٠).

وَتُحَرِّكُ نَشَاطَ التَّفَكُّرِ، إِذْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «قَالَ اللهُ تَعَالَى: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، [فَنِصْفُهَا لِي وَنِصْفُهَا لِعَبْدِي]، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ:

فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ قَالَ اللهُ تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي.

وَإِذَا قَالَ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾، قَالَ اللهُ تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي.

وَإِذَا قَالَ: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾، قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي، وَقَالَ مَرَّةً: فَوَّضَ إِلَيَّ عَبْدِي.

فَإِذَا قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾، قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ.

فَإِذَا قَالَ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾، قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ»[1].

لَا أَظُنُّكَ -أَيَّدَكَ اللهُ- تَحْتَاجُ إِلَى كَبِيرِ عَنَاءٍ بَعْدَ هَذَا الْبَيَانِ النَّبَوِيِّ لِتَرَى أَنَّهُ يُمْكِنُنَا أَنْ نَجِدَ مَرْتَبَتَيْنِ تَنْبَعِثُ مِنْهُمَا الْمَقَاصِدُ الْكُلِّيَّةُ لِلْفَاتِحَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ النَّاحِيَةِ الْإِجْمَالِيَّةِ وَالتَّفْصِيلِيَّةِ:

فَهَذَا هُوَ التَّقْسِيمُ الرَّبَّانِيُّ النَّبَوِيُّ لِمَقَاصِدِ الْفَاتِحَةِ الْمُبَارَكَةِ:

إِذْ ذَكَرَ أَنَّ اللهَ -تَعَالَى ذِكْرُهُ- قَسَمَ الْفَاتِحَةَ قِسْمَيْنِ، وَنَلْمَحُ الثَّالِثَ بَيْنَهُمَا، وَهَذِهِ الْأَقْسَامُ الثَّلَاثَةُ جَاءَتْ مُرَتَّبَةً تَرْتِيبًا مَنْطِقِيًّا أَضْفَى الْجَمَالَ الْبَيَانِيَّ وَالْوَاقِعِيَّ بِصُورَةٍ مُدْهِشَةٍ:

فَأَمَّا الْقِسْمُ الْأَوَّلُ: فَلِبَيَانِ صِفَاتِ الْحَقِّ -تَعَالَى ذِكْرُهُ- وَيَتَرَتَّبُ عَلَيْهَا مَعْرِفَةُ حُقُوقِهِ: وَهِيَ تَتَلَخَّصُ فِي الثَّنَاءِ عَلَى اللهِ الَّذِي يَرْجِعُ إِلَيْهِ التَّوْحِيدُ وَالتَّمْجِيدُ، وَالتَّرْبِيَةُ، وَالرَّحْمَةُ، وَالْعَدْلُ، وَالْفَضْلُ، وَهَذَا مَعْنَى (مَعْرِفَةِ الْحَقِّ لِتَقْدِيسِهِ وَتَعْظِيمِهِ)، وَنَجِدُ ذَلِكَ فِي الْآيَاتِ الْأَرْبَعِ الْأُوَلِ

(١) مسلم (٢/ ٩).

مِنَ السُّورَةِ، وَلِذَا يُجِيبُ اللهُ عَلَى مَنْ يَقْرَؤُهَا: (حَمِدَنِي عَبْدِي، أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، مَجَّدَنِي عَبْدِي، أَوْ فَوَّضَ إِلَيَّ عَبْدِي).

وَأَمَّا الْقِسْمُ الثَّانِي: فَلِبَيَانِ حُقُوقِ الْخَلْقِ: وَكُلُّهَا تَرْجِعُ إِلَى الْحُقُوقِ الْإِنْسَانِيَّةِ الْمُكْتَسَبَةِ بِالْمِنَحِ الْإِلَهِيَّةِ حَيْثُ يَجِدُونَ التَّرْبِيَةَ الْإِلَهِيَّةَ، وَيَطْلُبُونَ الْهِدَايَةَ إِلَى صِرَاطِ السَّعَادَةِ الْأَبَدِيَّةِ، وَيَدُلُّ عَلَى هَذَا الْقِسْمِ الْآيَتَانِ الْأَخِيرَتَانِ ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾، وَفِي ضَوْءِ الشُّمُولِ التَّامِّ لِلْمَجَالَاتِ الْحَيَوِيَّةِ الَّتِي ذَكَرَهَا الْقُرْآنُ زَمَانًا وَمَكَانًا وَأُسْلُوبًا تَتَفَرَّعُ هَذِهِ الْحُقُوقُ إِلَى غَايَتَيْنِ:

الْغَايَةُ الْأُولَى: إِصْلَاحُ الْحَالِ أَيِ الْوَاقِعِ الْحَاضِرِ، أَيْ إِصْلَاحُ الْأَوْضَاعِ الْحَيَوِيَّةِ الَّتِي فِيهَا مَعَاشُ الْخَلْقِ بِالْعُمْرَانِ الْفَرْدِيِّ وَالْجَمَاعِيِّ، وَهَذَا الْإِصْلَاحُ يُقِيمُهُ مِنْهَاجُ الْعِبَادَةِ التَّوْحِيدِيُّ بِمَا تَضَمَّنَهُ مِنْ نُظُمٍ تَشْرِيعِيَّةٍ ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾، فَهُوَ يُوَضِّحُ الْبِنَاءَ الْعَمَلِيَّ الْقَائِمَ عَلَى الْأَسَاسِ الْفِكْرِيِّ الصَّادِقِ لِلْحَيَاةِ، وَيُسْتَكْمَلُ مِنْ خِلَالِ مَعْرِفَةِ أَحْوَالِ السُّعَدَاءِ وَالْأَشْقِيَاءِ وَقَصَصِهِمْ.

الْغَايَةُ الثَّانِيَةُ: إِصْلَاحُ الْمَآلِ أَيِ الْمُسْتَقْبَلِ الْقَادِمِ، وَهُوَ الْمَعَادُ (يَوْمُ الدِّينِ) الَّذِي يَكْتَمِلُ فِيهِ الِاسْتِقْرَارُ الْحَيَاتِيُّ النِّهَائِيُّ لِلْمَخْلُوقِينَ، وَتُحَقَّقُ فِيهِ الْعَدَالَةُ الْكَامِلَةُ غَيْرُ الْمَنْقُوصَةِ حَيْثُ ﴿تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٨١].

وَهُنَا نَتَسَاءَلُ: لَاحَظْنَا بِصُورَةٍ مُبْهِرَةٍ كَيْفَ قَسَّمَ اللهُ تَعَالَى فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ الْفَاتِحَةَ إِلَى قِسْمَيْنِ كَبِيرَيْنِ هُمَا: حَقُّ اللهِ، وَحَقُّ الْخَلْقِ، فَكَيْفَ ظَهَرَ لَنَا أَثْنَاءَ ذَلِكَ قِسْمٌ ثَالِثٌ بَيْنَهُمَا؟

الْجَوَابُ:

هُنَا يَأْتِي الْقِسْمُ الثَّالِثُ الَّذِي يُبَيِّنُ الْحُقُوقَ الْمُشْتَرَكَةَ بَيْنَ الْخَالِقِ -جَلَّ مَجْدُهُ- وَبَيْنَ الْخَلْقِ، وَيُعَبِّرُ عَنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾، فَالْإِصْلَاحُ لِلْوَاقِعَيْنِ (الْحَاضِرِ وَالْمُسْتَقْبَلِ) يَتِمُّ بِالْعِبَادَةِ الَّتِي تَعْنِي التَّطْهِيرَ لِلنُّفُوسِ الْإِنْسَانِيَّةِ مِنَ السَّيِّئَاتِ، وَالتَّنْمِيَةَ لَهَا بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَاتِ الْعِلْمِيَّةِ وَالْعَمَلِيَّةِ مِنْ خِلَالِ مَعْرِفَةِ الْخَيْرِ لِلْعَمَلِ بِهِ، وَهِيَ وَظِيفَةٌ ذَاتِيَّةٌ يَقُومُ بِهَا الْإِنْسَانُ لِنَفْسِهِ يَرْسِمُ تَفَاصِيلَهَا الْقُرْآنُ الْمَجِيدُ، وَهَذِهِ الْوَظِيفَةُ هِيَ وَظِيفَةُ التَّزْكِيَةِ الَّتِي إِحْدَى الْوَظَائِفِ النَّبَوِيَّةِ الثَّلَاثِ.

فَتَوَسَّطَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الدُّسْتُورِيَّةُ سُورَةَ الْفَاتِحَةِ لِتَكْشِفَ إِعْجَازَ التَّرْتِيبِ الْبَيَانِيِّ الْقُرْآنِيِّ، فَهِيَ بَيْنَ اللهِ وَبَيْنَ عَبْدِهِ، لِذَا قَالَ اللهُ ﷻ فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ: «هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ»، فَمِنَ الْعَبْدِ الْعِبَادَةُ، وَمِنَ اللهِ الْإِعَانَةُ، فَتَكُونُ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ مِيزَانًا لِلْحُقُوقِ الْعَامَّةِ فِي الْكَوْنِ: حُقُوقُ الْخَالِقِ، وَحُقُوقُ الْخَلْقِ[1].

---

(١) قولنا: (حقوق الخلق) تسامحٌ في العبارة سوغه تعليم الله تعالى لنا أن نستخدم هذه الكلمة حيث ذكرها فيما أحقه على نفسه، كقوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، وقول نبيه ﷺ لمعاذ ﷺ -فيما رواه البخاري(٤/ ٣٥)، مسلم(١/ ٤٣)-: «**يا معاذ، أتدري ما حق الله على عباده؟**»، قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «**حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا. أتدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟**» قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «**حقهم عليه أن لا يعذبهم**»، وفي شرح الطحاوية ص٢٣٦: "فهذا حق وجب بكلماته التامة ووعده الصادق، لا أن العبد نفسه مستحق على الله شيئا كما يكون للمخلوق على المخلوق، فإن الله هو المنعم على العباد"، كما قيل:

ما للعباد عليه حق واجب ... كلا، ولا سعي لديه ضائع
إن عذبوا فبعدله، أو نعموا ... فبفضله، وهو الكريم السامع

وَلَعَلَّ اسْتِشْعَارَ ضَخَامَةِ الْمَعَانِي فِي هَذِهِ الْآيَةِ حَمَلَ سُفْيَانَ الثَّوْرِيَّ ﷺ عَلَى الْبُكَاءِ عِنْدَهَا، فَعَنْ مُزَاحِمِ بْنِ زُفَرَ، قَالَ: صَلَّى بِنَا سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ الْمَغْرِبَ، فَقَرَأَ حَتَّى بَلَغَ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ بَكَى حَتَّى انْقَطَعَتْ قِرَاءَتُهُ، ثُمَّ عَادَ فَقَرَأَ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾[1].

إِنَّ اسْتِشْعَارَ تِلْكَ الْمَعَانِي الثَّرِيَّةِ لِلْفَاتِحَةِ حَرَّكَ الْمَشَاعِرَ الصَّادِقَةَ، فَأَحْرَقَ هَمُّهَا وَهِمَمُهَا أَوْقَاتَهُمْ فِيمَا يَرْفَعُهُمْ فِي دَرَجَاتِ الْفِرْدَوْسِ، وَيَمْنَحُهُمْ مَرَاتِبَ الْقُرْبِ كَمَا قِيلَ:

مَنَعَ الْقُرَانُ بِوَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ ... مُقَلَ الْعُيُونِ بِلَيْلِهَا لَا تَهْجَعُ

فَهِمُوا عَنِ الْمَلِكِ الْجَلِيلِ كَلَامَهُ ... فَهْمًا تَذِلُّ لَهُ الرِّقَابُ وَتَخْضَعُ[2]

وَهُنَا نَتَأَمَّلُ مُتَدَبِّرِينَ: هَذَا التَّقْسِيمُ الْإِلَهِيُّ لِلْفَاتِحَةِ يُظْهِرُ لَنَا الصِّلَةَ الْعَظِيمَةَ بَيْنَ الْخَالِقِ وَالْمَخْلُوقِ، بَيْنَ الْكَوْنِ الْمَوْجُودِ وَمُوجِدِ الْوُجُودِ، وَهَذَا يَعْنِي أَنَّ الْفَاتِحَةَ تَجْعَلُ النَّاسَ يَرْتَبِطُونَ بِالْقُرْآنِ ارْتِبَاطًا قَوِيًّا مُحْكَمًا لَا يَنْفَكُّ.

نَعَمْ! مَا أَعْظَمَ ذَلِكَ، فَقَدْ ظَهَرَ أَنَّ الْفَاتِحَةَ دَائِرَةٌ بَيْنَ حُقُوقِ الْخَالِقِ -تَعَالَى جَدُّهُ-، وَحُقُوقِ الْخَلْقِ، فَالْخِطَابُ الْقُرْآنِيُّ:

لَهُ مَصْدَرٌ هُوَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فَذَلِكَ طَرَفُهُ الْأَوَّلُ، وَطَرَفُهُ الثَّانِي هُوَ الْإِنْسَانُ الْمُوَجَّهُ لَهُ هَذَا الْخِطَابُ، وَمَيْدَانُ تَنْفِيذِ هَذَا الْخِطَابِ الْكَوْنِيِّ وَالشَّرْعِيِّ هُوَ الْكَوْنُ الْمَخْلُوقُ، وَالْكَوْنُ الْمَخْلُوقُ جُزْءٌ مِنْهُ مَعْمُورٌ يُخْتَبَرُ الْإِنْسَانُ فِي صَلَاحِهِ وَإِصْلَاحِهِ، وَجُزْءٌ مِنْهُ غَيْرُ مَعْمُورٍ، يُخْتَبَرُ الْإِنْسَانُ فِي عُمْرَانِهِ.

---

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٧/ ١٧).

(٢) الأبيات تنسب لذي النون المصري، انظر: حلية الأولياء (٩/ ٣٦٩).

وَالْفَاتِحَةُ بِذَلِكَ تُحَقِّقُ لِلْبَشَرِ التَّزْكِيَةَ وَالْعُمْرَانَ الْحَاضِرَ وَالْمُسْتَقْبَلِيَّ، وَالْوُصُولَ إِلَى أَقْصَى دَرَجَاتِ السَّعَادَةِ لِلْأَفْرَادِ وَالْمُجْتَمَعَاتِ، وَالسَّعَادَةُ هِيَ أَمَلُكَ وَأَمَلِي.

وَهَذَا التَّقْسِيمُ لِطَرَفَيِ الْخِطَابِ الْقُرْآنِيِّ هُوَ الَّذِي أَشَارَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ فِي حَدِيثِ أَبِي شُرَيْحٍ الْخُزَاعِيِّ قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «أَبْشِرُوا وَأَبْشِرُوا، أَلَيْسَ تَشْهَدُونَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ؟» قَالُوا: بَلَى. قَالَ: «فَإِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ سَبَبٌ طَرَفُهُ بِيَدِ اللهِ وَطَرَفُهُ الْآخَرُ بِأَيْدِيكُمْ، فَتَمَسَّكُوا بِهِ، فَإِنَّكُمْ لَنْ تَضِلُّوا وَلَنْ تَهْلِكُوا بَعْدَهُ أَبَدًا»(١).

وَبِهَذَا التَّقْسِيمِ النَّبَوِيِّ الْحُقُوقِيِّ لِلْفَاتِحَةِ الْمُبَارَكَةِ؛ يُشْرِقُ لِلْقَلْبِ حَقِيقَةُ أَنَّهَا مِنْحَةٌ إِلَهِيَّةٌ تُظْهِرُ عَظَمَةَ الرُّبُوبِيَّةِ، وَأَنَّ الْقُرْآنَ الْمَجِيدَ نَزَلَ لِرِعَايَةِ الْبَشَرِيَّةِ، وَبَيَانِ حُقُوقِهَا، وَتَوْضِيحِ وَاجِبَاتِهَا.

فَالتَّوْحِيدُ، وَالْأَحْكَامُ الْعِبَادِيَّةُ الشَّامِلَةُ لِأَرْكَانِ الْإِسْلَامِ، وَالْأَخْلَاقُ الشَّرْعِيَّةُ، وَالْمُعَامَلَاتُ الْإِسْلَامِيَّةُ، وَالتَّشْرِيعَاتُ الْجِنَائِيَّةُ، وَالْأَحْكَامُ الِاجْتِمَاعِيَّةُ، وَالنُّظُمُ الِاقْتِصَادِيَّةُ كُلُّهَا حُقُوقٌ إِلَهِيَّةٌ، وَهِيَ فِي الْحَقِيقَةِ تُمَثِّلُ الْأَنْظِمَةَ الْوَحِيدَةَ الْكَفِيلَةَ بِتَحْقِيقِ الْمَصَالِحِ الْإِنْسَانِيَّةِ، وَهَذَا مَا جَلَّاهُ اللهُ مِرَارًا، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء:٧].

---

(١) الرواية بـ(بلى) في معجم الطبراني(١٦/ ٦١)، وهو عند ابن حبان(١/ ٣٢٩) بـ(نعم)، وقال شعيب الأرناؤوط: "إسناده حسن على شرط مسلم". "و(نعم) كلمة تصديقٍ وموافقةٍ على ما قبلها بالنفي أو الإثبات، بخلاف (بلى) فإنها للإثبات خاصة". انظر: التسهيل لابن جزي(١/ ٤٣).

تُرَى مَاذَا يَكُونُ الرَّأْيُ فِيمَنْ يُحَاوِلُ الْحَيْلُولَةَ بَيْنَ الْإِنْسَانِيَّةِ، وَبَيْنَ حُقُوقِهِمُ الْحَقِيقِيَّةِ بِالتَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ تَارَةً، وَبِالتَّزْيِيفِ وَالتَّعْنِيفِ أُخْرَى؟ فَلِمَاذَا عَنْ مَصَالِحِهِمُ الْحَقِيقِيَّةِ يَفِرُّونَ؟ ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [التكوير:٢٦،٢٧].

وَبِذَا نَرَى أَنَّ الصِّيَاغَةَ الْقُرْآنِيَّةَ فِي الْفَاتِحَةِ الْمُبَارَكَةِ لَا يُمْكِنُ أَنْ تُقَارَنَ بِهَا كُلُّ الصِّيَاغَاتِ الدُّسْتُورِيَّةِ الْأَرْضِيَّةِ؛ إِذْ أَبَانَتِ التَّقْنِينَ الْحُقُوقِيَّ فِي قَالَبِ الِابْتِهَالِ، وَأَوْضَحَتْ طَبِيعَةَ الْوُجُودِ الْعَالَمِيِّ فِي هَيْئَةِ كَلَامٍ مَتْلُوٍّ يَمْلَأُ النَّفْسَ بِالْجَمَالِ وَالْجَلَالِ، فَلِلَّهِ! كَمْ دَرَّتْ هَذِهِ الْآيَاتُ فِي النُّفُوسِ مِنْ نَفَحَاتِ الْأَشْوَاقِ، وَكَمْ بَثَّتْ فِي الْأَرْوَاحِ مِنْ مَعَانِي الْإِشْرَاقِ، وَكَمْ نَشَرَتْ فِي الْقُلُوبِ الطُّمَأْنِينَةَ حَتَّى مَلَأَتِ الْآفَاقَ، فَقَدْ أَدْرَجَتْ فِي طَيَّاتِهَا مِنَ الْمَوَادِّ الْقَانُونِيَّةِ وَالْقِيَمِ الْأَخْلَاقِيَّةِ الَّتِي تُنَظِّمُ الْحَيَاةَ الْأَرْضِيَّةَ، وَتَغْمُرُ الْحَيَاةَ الْبَشَرِيَّةَ بِالْأَنْوَارِ الْإِلَهِيَّةِ.

بِهَذَا التَّقْرِيرِ الْبَهِيِّ الْجَمِيلِ: عَرَفْنَا كَيْفَ عَلَّمَنَا النَّبِيُّ ﷺ أَنْ نَتَدَبَّرَ الْفَاتِحَةَ وَسَائِرَ سُوَرِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَفْقَ مَنْهَجِ التَّسْوِيرِ بِالتَّدَبُّرِ الْكُلِّيِّ لِلْآيَاتِ فِي كُلِّ سُورَةٍ.. كُلُّ ذَلِكَ ظَهَرَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ الْعَظِيمِ: «قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ..»، وَهَذَا يَهْدِينَا إِلَى أَنْ نَتَدَبَّرَ سُوَرَ الْقُرْآنِ وَنُحَاوِلَ أَنْ نَسْتَخْرِجَ مَقَاصِدَ كُلِّ سُورَةٍ وَمَحَاوِرَهَا.

الْمِعْيَارُ الْخَامِسُ: مَدَدُ السَّابِقِينَ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ فِي تَحْدِيدِ الْمَوْضُوعِ الْكُلِّيِّ لِلْفَاتِحَةِ:

اجْتَهَدَ الْمُحَقِّقُونَ مِنْ أَئِمَّتِنَا السَّابِقِينَ فِي إِبْرَازِ الْغَرَضِ الْكُلِّيِّ لِسُورَةِ الْفَاتِحَةِ، وَقَدِ الْتَزَمْنَا فِي مَنْهَجِيَّةِ تَحْرِيرِ الْبَصَائِرِ الْمُبَارَكَةِ أَنْ نَقْتَفِيَ أَثَرَهُمْ، وَنَبْنِيَ عَلَى مَا شَادُوهُ وَأَسَّسُوهُ، كَمَا يَقُولُ الْمُتَوَكِّلُ اللَّيْثِيُّ فِي الِاقْتِدَاءِ فِي الْخَيْرِ:

نَبْنِي كَمَا كَانَتْ أَوَائِلُنَا ... تَبْنِي، وَنَفْعَلُ مِثْلَ مَا فَعَلُوا[1]

أَوَّلًا: يَقُولُ الْبِقَاعِيُّ ﵀: "الْغَرَضُ الَّذِي سِيقَتْ لَهُ الْفَاتِحَةُ وَهُوَ إِثْبَاتُ اسْتِحْقَاقِ اللهِ تَعَالَى لِجَمِيعِ الْمَحَامِدِ وَصِفَاتِ الْكَمَالِ، وَاخْتِصَاصُهُ بِمُلْكِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَبِاسْتِحْقَاقِ الْعِبَادَةِ وَالِاسْتِعَانَةِ، بِالسُّؤَالِ فِي الْمَنِّ بِإِلْزَامِ صِرَاطِ الْفَائِزِينَ وَالْإِنْقَاذِ مِنْ طَرِيقِ الْهَالِكِينَ مُخْتَصًّا بِذَلِكَ كُلِّهِ، وَمَدَارُ ذَلِكَ كُلِّهِ مُرَاقَبَةُ الْعِبَادِ لِرَبِّهِمْ؛ لِإِفْرَادِهِ بِالْعِبَادَةِ، فَهُوَ مَقْصُودُ الْفَاتِحَةِ بِالذَّاتِ وَغَيْرُهُ وَسَائِلُ إِلَيْهِ"[2].

ثَانِيًا: يَذْهَبُ السُّيُوطِيُّ ﵀ إِلَى أَنَّ جِمَاعَ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ وَمَوْضُوعَهَا الْكُلِّيَّ انْطِوَاؤُهَا عَلَى جَمِيعِ أَغْرَاضِ الْقُرْآنِ وَمَا فِيهِ مِنَ الْعُلُومِ وَالْحِكَمِ[3].

ثَالِثًا: يَقُولُ ابْنُ عَاشُورٍ ﵀ مُبَيِّنًا الْغَرَضَ الْجَامِعَ لِلْفَاتِحَةِ: "مَعَانِي الْقُرْآنِ: إِمَّا عُلُومٌ تُقْصَدُ مَعْرِفَتُهَا، وَإِمَّا أَحْكَامٌ يُقْصَدُ مِنْهَا الْعَمَلُ بِهَا، فَالْعُلُومُ كَالتَّوْحِيدِ وَالصِّفَاتِ وَالنُّبُوءَاتِ وَالْمَوَاعِظِ وَالْأَمْثَالِ وَالْحِكَمِ وَالْقَصَصِ، وَالْأَحْكَامُ: إِمَّا عَمَلُ الْجَوَارِحِ وَهُوَ الْعِبَادَاتُ

---

(١) وينسبه البعض لعبد الله بن معاوية، العقد الفريد، ابن عبد ربه، (٢/ ١٤٨).

(٢) نظم الدرر، (١/ ٢٠).

(٣) ينظر: الإتقان في علوم القرآن، (١/ ١٨٧).

وَالْمُعَامَلَاتُ، وَإِمَّا عَمَلُ الْقُلُوبِ أَيِ الْعُقُولِ وَهُوَ تَهْذِيبُ الْأَخْلَاقِ وَآدَابُ الشَّرِيعَةِ، وَكُلُّهَا تَشْتَمِلُ عَلَيْهَا مَعَانِي الْفَاتِحَةِ بِدَلَالَةِ الْمُطَابَقَةِ أَوِ التَّضَمُّنِ أَوِ الِالْتِزَامِ"[(١)].

رَابِعًا: وَقَرِيبًا مِنْ ذَلِكَ مَا يُقَرِّرُهُ بَعْضُ مُحَقِّقِي الْمُتَدَبِّرِينَ الْمُخْبِتِينَ مِنْ أَنَّ "فِي هَذِهِ السُّورَةِ مِنْ كُلِّيَّاتِ الْعَقِيدَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَكُلِّيَّاتِ التَّصَوُّرِ الْإِسْلَامِيِّ، وَكُلِّيَّاتِ الْمَشَاعِرِ وَالتَّوَجُّهَاتِ، مَا يُشِيرُ إِلَى طَرَفٍ مِنْ حِكْمَةِ اخْتِيَارِهَا لِلتَّكْرَارِ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ، وَحِكْمَةِ بُطْلَانِ كُلِّ صَلَاةٍ لَا تُذْكَرُ فِيهَا."

وَأَنْتَ إِنْ تَأَمَّلْتَ جَمِيعَ هَذِهِ الْإِمْدَادَاتِ الرَّحْمَانِيَّةِ، وَالتَّدَبُّرَاتِ السَّنِيَّةِ لِأُولَئِكَ الْمُحَقِّقِينَ الْمُبَارَكِينَ تَجِدْهَا تُعَزِّزُ مَا عَبَّرْنَا عَنْهُ فِي تَحْدِيدِ عَمُودِ السُّورَةِ وَمَوْضُوعِهَا الْكُلِّيِّ مِنْ قَوْلِنَا: (**الْإِسْلَامُ فِي سَبْعِ آيَاتٍ**).

الْمِعْيَارُ السَّادِسُ: الْأَلْفَاظُ الَّتِي انْفَرَدَتْ بِهَا السُّورَةُ:

مِنَ الْأَلْفَاظِ الَّتِي انْفَرَدَتْ بِهَا الْفَاتِحَةُ الْمُعَظَّمَةُ:

أَوَّلًا: ﴿نَسْتَعِينُ﴾ [الْفَاتِحَة: ٥]، وَهِيَ تُقَرِّرُ أَلَّا غِنَى لِلْخَلْقِ عَنْ رَبِّهِمْ سُبْحَانَهُ، وَحَاجَتَهُمْ لِلِاسْتِعَانَةِ بِهِ وَالِاعْتِمَادِ عَلَيْهِ، وَأَوَّلُ مَا تَشْتَدُّ حَاجَتُهُمْ إِلَيْهِ فِيهِ بَيَانُ الْخُطَّةِ الْحَيَاتِيَّةِ، وَخَرِيطَةِ السَّيْرِ الَّتِي تَؤُولُ بِهِمْ إِلَى الْفَوْزِ بِالنَّعِيمِ، وَتَجَنُّبِ سِيرَةِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَالضَّالِّينَ مِنْ أَهْلِ الْجَحِيمِ.

لَفْظَةُ ﴿نَسْتَعِينُ﴾ تَخْتَزِلُ الْمَعَالِمَ الْكُبْرَى لِلْمَعْرِفَةِ الْقُرْآنِيَّةِ، وَأَبْرَزُ تِلْكَ الْمَعَالِمِ:

١) الْإِقْرَارُ بِأَنَّهُ لَا ثَمَّةَ إِلَّا خَالِقٌ وَمَخْلُوقٌ.. خَالِقٌ لَهُ الْكَمَالُ وَالْجَمَالُ الْمُطْلَقُ وَالْقُدْرَةُ الْمُطْلَقَةُ، وَعَبْدٌ ضَعِيفٌ مُحْتَاجٌ لِإِعَانَةِ الْخَالِقِ.

٢) أَنَّ هَذَا الْعَبْدَ الضَّعِيفَ فِي حَاجَةٍ لِعَوْنِ رَبِّهِ الْكَرِيمِ فِي مَعْرِفَةِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ كُلِّيَّاتِهِ وَجُزْئِيَّاتِهِ، كَمَا فِي حَاجَتِهِ لِلتَّوْفِيقِ إِلَى سُلُوكِهِ وَالْعَمَلِ بِمُقْتَضَاهُ.

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ١٣٤).

٣) أَنَّ هَذَا الْعَبْدَ الضَّعِيفَ فِي حَاجَةٍ لِمَوْلَاهُ لِنَيْلِ سَعَادَةِ الدَّارَيْنِ، وَالنَّجَاحِ وَالْفَلَاحِ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا وَيَوْمِ الدِّينِ.

٤) أَنَّ هَذَا الْعَبْدَ الضَّعِيفَ فِي حَاجَةٍ لِمَوْلَاهُ وَإِعَانَتِهِ لِيُجَنِّبَهُ سُبُلَ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَالضَّالِّينَ، وَأَنَّهُ لَا طَاقَةَ لَهُ بِمُوَاجَهَتِهِمْ وَالتَّصَدِّي لَهُمْ إِلَّا بِتَسْدِيدِهِ وَتَأْيِيدِهِ.

٥) إِذَا كَانَتِ الْعِبَادَةُ هِيَ الْغَايَةَ الَّتِي خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ أَجْلِهَا؛ فَإِنَّ الِاسْتِعَانَةَ بِاللهِ ﷻ هِيَ الْوَسِيلَةُ لِتَحْقِيقِ هَذِهِ الْغَايَةِ وَلِتَجَاوُزِ صُعُوبَاتِ الْحَيَاةِ وَتَحَدِّيَاتِهَا. فَلَا يُمْكِنُ لِلْعَبْدِ أَنْ يَقُومَ بِحَقِّ الْعِبَادَةِ عَلَى أَكْمَلِ وَجْهٍ إِلَّا بِعَوْنٍ مِنَ اللهِ ﷻ.

٦) لَفْظُ ﴿نَسْتَعِينُ﴾ جَاءَ عَامًّا لِيَشْمَلَ كُلَّ أَنْوَاعِ الِاسْتِعَانَةِ: الِاسْتِعَانَةَ عَلَى أُمُورِ الدِّينِ (كَالْعِبَادَاتِ، وَالثَّبَاتِ عَلَى الْحَقِّ، وَمُجَاهَدَةِ النَّفْسِ وَالشَّيْطَانِ)، وَالِاسْتِعَانَةَ عَلَى أُمُورِ الدُّنْيَا (كَالرِّزْقِ، وَالصِّحَّةِ، وَدَفْعِ الْبَلَاءِ).

٧) صِيغَةُ الْجَمْعِ ﴿نَسْتَعِينُ﴾: تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُؤْمِنَ لَا يَسْتَعِينُ لِنَفْسِهِ فَقَطْ، بَلْ يَسْتَشْعِرُ أَنَّهُ جُزْءٌ مِنْ جَمَاعَةِ الْمُؤْمِنِينَ، فَيَدْعُو بِصِيغَةِ الْجَمْعِ. وَهَذَا يُعَزِّزُ رُوحَ الْأُخُوَّةِ وَالْوَحْدَةِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، وَيُعَزِّزُ مَبْدَأَ الْأُمَّةِ الْوَاحِدَةِ.

وَجَمِيعُ هَذِهِ الْمَعَالِمِ وَالْمَعَانِي السَّنِيَّةِ الَّتِي تُتْحِفُنَا بِهَا لَفْظَةُ ﴿نَسْتَعِينُ﴾ تُعَضِّدُ اخْتِيَارَ عَمُودِ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ وَمَوْضُوعِهَا الْكُلِّيِّ وَصِيَاغَتَهُ عَلَى هَذَا النَّحْوِ: (**الْإِسْلَامُ فِي سَبْعِ آيَاتٍ**).

ثَانِيًا: ﴿الْمَغْضُوبِ﴾ [الْفَاتِحَة: ٧]: إِنَّ خُصُوصِيَّةَ التَّعْبِيرِ بِـ﴿الْمَغْضُوبِ﴾ فِي الْفَاتِحَةِ تَرْتَبِطُ ارْتِبَاطًا وَثِيقًا بِوَظِيفَتِهَا كَدُعَاءٍ عَالَمِيٍّ وَتَأْسِيسِيٍّ.

فَصِيغَةُ اسْمِ الْمَفْعُولِ هُنَا لَا تُعَيِّنُ فِئَةً تَارِيخِيَّةً بِعَيْنِهَا، بَلْ تُؤَسِّسُ لِمَفْهُومٍ وَمَنْهَجٍ: وَهُوَ حَالُ كُلِّ مَنْ عَرَفَ الْهُدَى ثُمَّ حَادَ عَنْهُ عَمْدًا وَاسْتِكْبَارًا، أَيًّا كَانَ انْتِمَاؤُهُ.

وَبِهَذَا الْإِطْلَاقِ، يُصْبِحُ الدُّعَاءُ بِتَجَنُّبِ هَذَا الْمَسْلَكِ الْخَطِيرِ صَالِحًا لِكُلِّ عَبْدٍ فِي كُلِّ عَصْرٍ. وَفِي الْمُقَابِلِ، تَأْتِي صِيَغُ الْفِعْلِ الصَّرِيحِ مِثْلُ: ﴿وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ﴾ [النِّسَاءِ: ٩٣]، فِي سِيَاقَاتِ السُّوَرِ التَّفْصِيلِيَّةِ؛ لِتَكُونَ الشَّاهِدَ التَّارِيخِيَّ وَالْمِثَالَ التَّطْبِيقِيَّ عَلَى ذَلِكَ الْمَفْهُومِ الْكُلِّيِّ، فَتُظْهِرُ مَصِيرَ مَنْ سَلَكُوا ذَلِكَ الدَّرْبَ بِالْفِعْلِ.

وَبِهَذَا التَّكَامُلِ، تَضَعُ الْفَاتِحَةُ الْمَبْدَأَ الْكُلِّيَّ بِلَفْظِهِ الْجَامِعِ الَّذِي نَدْعُو بِهِ، بَيْنَمَا يُقَدِّمُ بَاقِي الْقُرْآنِ الشَّرْحَ وَالتَّفْصِيلَ وَالْأَمْثِلَةَ الْوَاقِعِيَّةَ لِهَذَا الْمَبْدَأِ تَرْسِيخًا لِلْمَعْنَى وَتَحْذِيرًا لِلْعَالَمِينَ.

الْمِعْيَارُ السَّابِعُ: الْكَلِمَاتُ الْمُتَكَرِّرَةُ بِنَصِّهَا أَوْ مَعْنَاهَا فِي السُّورَةِ:

تَكَرَّرَتْ فِي الْفَاتِحَةِ أَلْفَاظٌ بِصِيَغِ اشْتِقَاقٍ مُخْتَلِفَةٍ، وَعِنْدَ التَّأَمُّلِ فِيهَا نَجِدُهَا تُعَزِّزُ تَحْدِيدَ عَمُودِهَا الْكُلِّيِّ، وَهَذِهِ الْأَلْفَاظُ هِيَ: **الرَّحْمَةُ، الصِّرَاطُ، إِيَّاكَ**.

وَهَذِهِ الْأَلْفَاظُ مِحْوَرِيَّةٌ عَظِيمَةُ الْأَثَرِ فِي عَمُودِ الْفَاتِحَةِ؛ إِذِ (الرَّحْمَةُ) هِيَ الْهَدَفُ الْغَائِيُّ مِنْ خَلْقِ الْعِبَادِ، وَبِمُقْتَضَى رَحْمَتِهِ بِهِمْ أَنْزَلَ عَلَيْهِمْ خُطَّةً حَيَاتِيَّةً يَسِيرُونَ عَلَيْهَا وَيَسْلُكُونَهَا ضِمْنَهَا فِي كِتَابِهِ الْمُحْكَمِ، وَلَخَّصَ مَعَالِمَهَا.

(الصِّرَاطُ) يُشِيرُ إِلَى أَنَّ الطَّرِيقَ الْحَقِيقِيَّ الْمَضْمُونَ الْمُوَصِّلَ إِلَى رِضْوَانِ اللهِ الَّذِي يَفُوزُ بِالنَّعِيمِ سَالِكُوهُ وَمُتَّبِعُوهُ هُوَ (الْخُطَّةُ الرَّبَّانِيَّةُ) فِي الْفَاتِحَةِ الْمُبَارَكَةِ، وَلِذَا يَتَوَجَّبُ عَلَى مَنْ يَسْلُكُ سَبِيلَهَا أَنْ يُخْلِصَ قَصْدَهُ لِمَوْلَاهُ لِيَفُوزَ بِالْفَلَاحِ فِي دُنْيَاهُ وَأُخْرَاهُ فَلَا يَعْبُدُ إِلَّا (إِيَّاهُ)، وَلَا يَسْتَعِينُ فِي تَحْقِيقِ مَقْصُودِهِ مِنْ سُلُوكِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ وَتَجَنُّبِ سُبُلِ أَهْلِ الْغَضَبِ وَالضَّلَالِ إِلَّا بِحِمَاهُ؛ وَلِذَا فَإِنَّهُ يَعْتَصِمُ بِهِ سُبْحَانَهُ لَا يَعْتَصِمُ بِسِوَاهُ فِي الْحَالَيْنِ فَيَقُولُ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الْفَاتِحَة: ٥].

المعيار الثامن

الخريطة الكلية الموضحة لعمود سورة الفاتحة وموضوعها الكلي، ومقاصدها التعريفية

عَمُودُ السُّورَة (مَوْضُوعُهَا الكُلِّيُّ)

الإسلام في سبع آيات فالفاتحة تعرف العالم بالإسلام

وترسم آياتها السبع الخريطة الكلية لمقاصد القرآن الكريم ومعارفه الكبرى في عشرة مقاصد

جسر ابتداء وبناء: **في بداية سورة الفاتحة المباركة نسأل: ما أول شيء تعرف به نفسك وتعرف به العالم عندما تريد أن تقدم لهم الإسلام؟**

المقصد الأول: **التعريف باسم الإله الحق (الأول والآخر) -جلَّ مجدُه- ، فاسمه: الله، وأساس صفاته، وهي الرحمة ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.**

جسر اتصال: بعد التعرف إلى اسم الإله الملك الحق الأول والآخر، والتعرف إلى أساس صفاته ربما سأل المستمع سواء أكان مسلمًا أم كافرًا: ما الدليل على أن الله هو الإله الحق دون غيره من المعبودات؟

المقصد الثاني: **التعريف بالعالمين، وأن وجودهم لأن الله رباهم، فكلهم من الذرات إلى المجرات براهين لا حصر لها على أن الله هو الإله الحق، ولذا نحمده ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.**

جسر اتصال: وبعد التعرف إلى اسم ربنا، وأساس صفاته، وأنه جعل العالمين أدلة على ربوبيته، فهو الذي رباهم، ولذا وجب أن يحمدوه يأتي السؤال: فلماذا خلق الله العالمين، ورباهم بخلق طبائعهم وإنزال الشرائع عليهم؟

المقصد الثالث: **التعريف بطبيعة العلاقة بين الله وخلقه وأنها قائمة على الرحمة بهم، فالرحمة أساس خلق الطبيعة، وإنزال الشريعة ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.**

جسر اتصال: بعد المقاصد الثلاثة السابقة نكون: قد عَرَفنا اسم رب العالمين، وأساس صفاته، والأدلة على أنه هو الإله الحق، وعرفنا طبيعة العلاقة بين العالمين وخالقهم، فنسأل: ما مصير العالمين؟ هل الموت نهاية الحياة، ولا يوجد بعده شيء؟

المقصد الرابع: **التعريف بقصة نهاية العالم في الحياة الدنيا، وتطبيق العدل الإلهي الكامل يوم القيامة، ففيه يكون الدين أي الجزاء على الدين أي النظام الذي اتبعه الإنسان في الدنيا ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، وبذلك تتحقق الرحمة الكاملة بالمخلوقين عندما ينصف الله المظلومين من الظالمين.**

جسر اتصال: بعد أن اتضحت الخريطة الكاملة للوجود المخلوق زمانًا ومكانًا، حالًا ومآلًا، فعرفنا الجواب عن السؤالين الوجوديين الكبيرين: (من أين جئنا؟)، و(إلى أين نذهب؟)، فالله -جل مجده- سيجازيهم يوم الدين على نظام حياتهم وأعمالهم التي عملوها في الدنيا، وهنا يأتي السؤال الوجودي الثالث: فما المطلوب من أجل تحقيق السعادة والفوز يوم الدين؟ الجواب: هنا يأتي:

المقصد الخامس

التعريف بوظيفة العالمين، وهي الالتزام بأنظمة العبادة الموحّدة لله ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ وذلك لتحقيق السعادة في الحياتين، والعبادة تشمل كل عمل صالح نعمر به الحياة الدنيا، والحياة الآخرة، وهي الشفاء من أمراض الشرك والفساد والرياء، وهي وسيلة التطهر من الأرجاس الثقافية والفكرية والسياسية.

جسر اتصال

هنا يأتي سؤال ضروري: عبادة الله شيء عظيم، فكيف يستطيع المخلوق الذي لا يملك لنفسه ضرًا ولا نفعًا أن يعبد الله حق عبادته؟

المقصد السادس

الاستعانة بالله نظامٌ تعبدي يُظهر الافتقار لقوة القادر القهار ويعين على بناء الحياة وتحقيق النجاح وفق أنظمة العبادة ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

جسر اتصال

علمنا أن المقصد الخامس بصرنا بأن المطلوب من العالمين أن يعبدوا الله موحدين له في العبادة، وأن المقصد السادس أن يستعينوا به ليعينهم على تحقيق العبادة، ولكنهم ربما يسألون: كيف نتأكد من أننا نعبده عبادة صحيحة؟ كيف يتأكد الإنسان أن عبادته ليست خطأ أو بدعة أو ضلالة؟

المقصد السابع

﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: 6] تعرفنا بأن نسأل الله البيان والإرشاد والتوفيق للوصول إلى القرار الصحيح في عبادتنا لتكون كما يرضاه الله لا لتكون وفق أهوائنا، أو رغبات غيرنا، وذلك يعني أن نسأل الله عز وجل أن يدلنا ويوفقنا للقرار الصائب في حياتنا.

جسر اتصال

عرفنا أن طريق العبادة الحقيقية لا تكون إلا بأن نسأل الله أن عبر الصراط المستقيم، فكيف نتأكد من أننا نسير عليه؟ يحدد الله لنا حقيقة الصراط المستقيم بدقة عجيبة في قوله تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ 7﴾ فحوت هذه الآية مقصدين عاصمين من الانحراف عن الصراط المستقيم:

المقصد الثامن

وهو مقصدٌ يتعلق بتحديد ماهية الصراط المستقيم، فهو ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾، أي صراط الذين أنعم عليهم في الماضي وهم من سماهم أو وصفهم في كتابه، وأولهم النبي وأصحابه، ومن اتبعهم بإحسان، وأنعم عليهم في الحاضر، وهم الذين يعظمون كتاب الله تلاوة وعملاً، ويتبعون السنة، ليفهموا بها كتاب الله.

المقصد التاسع

يَجِبُ حِرَاسَةُ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ مِنْ خَطَرِ الْعَدُوَّيْنِ الْأَزَلِيَّيْنِ (الِاسْتِرَاتِيجِيَّيْنِ): خَطَرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ، وَخَطَرِ الضَّالِّينَ سَوَاءٌ أَكَانُوا يَنْتَمُونَ لِلْمُسْلِمِينَ أَمْ يَنْتَمُونَ لِلْكَافِرِينَ، لِحِمَايَةِ الصِّرَاطِ مِنَ الِاخْتِرَاقِ الدَّاخِلِيِّ وَالْخَارِجِيِّ، وَيُبَصِّرُنَا بِذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾

جسر اتصال

بصرتنا سورة الفاتحة بتعريف الإسلام بصورة مدهشة من خلال المقاصد من الأول إلى التاسع، فما السبيل إلى يعرف العالم قيمة هذا الدين العظيم؟

المقصد العاشر

مبدأ الأمة الواحدة هو وسيلة أصحاب الصراط المستقيم الوحيدة لتقديم رسالة الرحمة للعالمين، فالأخوة المصيرية تحقق لهم النصر الجماعي، وتحمي الجميع، ويبصرنا بهذا نون الجماعة في قوله تعالى: (نَعْبُدُ، نَسْتَعِينُ، ٱهْدِنَا)، مع التقسيم الثلاثي للعالم إلى: مُنعَم عليهم، ومغضوبٍ عليهم، وضالين.

الْمِعْيَارُ الثَّامِنُ: الْخَرِيطَةُ الْكُلِّيَّةُ الْمُوَضِّحَةُ لِعَمُودِ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ وَمَوْضُوعِهَا الْكُلِّيِّ، وَمَقَاصِدِهَا التَّعْرِيفِيَّةِ:

هُنَا نُكْمِلُ تَسَاؤُلَاتِنَا: عَرَفْنَا كَيْفَ عَلَّمَنَا النَّبِيُّ أَنْ نَتَدَبَّرَ الْفَاتِحَةَ وَسَائِرَ سُوَرِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَفْقَ مَنْهَجِ التَّسْوِيرِ بِالتَّدَبُّرِ الْكُلِّيِّ لِلْآيَاتِ فِي كُلِّ سُورَةٍ.. كُلُّ ذَلِكَ ظَهَرَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ الْعَظِيمِ: »قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ..«، وَهَذَا يَهْدِينَا إِلَى أَنْ نَتَدَبَّرَ سُوَرَ الْقُرْآنِ وَنُحَاوِلَ أَنْ نَسْتَخْرِجَ مَقَاصِدَ كُلِّ سُورَةٍ وَمَحَاوِرَهَا، فَهَلْ هُنَاكَ تَدَبُّرٌ آخَرُ لِسُورَةِ الْفَاتِحَةِ يَكْشِفُ لَنَا سَبَبَ تَسْوِيرِهَا لِآيَاتِهَا السَّبْعِ؟

الْجَوَابُ: نَعَمْ، وَيُمْكِنُ أَنْ نُسَمِّيَ ذَلِكَ:

الْخَرِيطَةُ الْكُلِّيَّةُ لِسُورَةِ الْفَاتِحَةِ

الْمَقَاصِدُ الْكُلِّيَّةُ الَّتِي تُعَرِّفُ الْعَالَمَ بِالْإِسْلَامِ فِي الْفَاتِحَةِ الْمُبَارَكَةِ

الْفَاتِحَةُ تُقَدِّمُ لِلْعَالَمِ تَعْرِيفًا وَاضِحًا لِلْإِسْلَامِ، وَيَتَمَيَّزُ هَذَا التَّعْرِيفُ بِأَنَّهُ تَعْرِيفٌ مُوجَزٌ وَمُكَثَّفٌ، وَيَخْتَزِلُ مَقَاصِدَ الْفَاتِحَةِ الْعَامَّةَ، فَمَاذَا تَظُنُّ -أَسْبَغَ اللهُ عَلَيْكَ نُورَهُ- فِي سُورَةٍ وُضِعَتْ فِي مُقَدِّمَةِ أَعْظَمِ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ وَخَاتَمِ الْكُتُبِ الْإِلَهِيَّةِ؟! مَاذَا تَظُنُّ فِي سُورَةٍ سُمِّيَتْ أُمَّ الْقُرْآنِ، وَأُمَّ الْكِتَابِ، وَ(الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ)؟! أَلَيْسَتْ أَوْلَى أَنْ تَعْرِضَ أَجْمَلَ تَعْرِيفٍ، وَأَبْهَى تَقْدِيمٍ يُبَيِّنُ حَقِيقَةَ الْإِسْلَامِ، وَيَدُلُّ الْعَالَمَ عَلَيْهِ لِيَسْتَهْدِيَ بِهِ!

وَلَعَلَّ أَوَّلَ مَا تَتَمَيَّزُ بِهِ مَقَاصِدُ الْفَاتِحَةِ التَّعْرِيفِيَّةُ بِالْإِسْلَامِ أَنَّهَا جَمَعَتْ أَرْبَعَةَ أُمُورٍ:



الْمَزِيَّةُ الْأُولَى: تُقَدِّمُ الْإِسْلَامَ لِلْعَالَمِ، فَفِيهَا تَعْرِيفٌ وَاضِحٌ بِقَضَايَا الْإِسْلَامِ الْكُبْرَى.

الْمَزِيَّةُ الثَّانِيَةُ: تَتَضَمَّنُ خَرِيطَةً حَيَاتِيَّةً شَامِلَةً لِحَقَائِقِ الْوُجُودِ الْإِنْسَانِيِّ يَتِمُّ بِهَا تَشْكِيلُ عَقْلِ الْمُسْلِمِ، وَبِنَاءُ آفَاقِهِ وَتَفْكِيرِهِ وَأَوْلَوِيَّاتِهِ.

الْمَزِيَّةُ الثَّالِثَةُ: تَرْسُمُ خُطَّةَ الْإِنْقَاذِ لِلْبَشَرِيَّةِ، وَتُقَرِّرُ الْمَقَاصِدَ الْمَعْرِفِيَّةَ وَالسُّلُوكِيَّةَ الَّتِي تَحْتَاجُهَا الْإِنْسَانِيَّةُ.

الْمَزِيَّةُ الرَّابِعَةُ: تُقَدِّمُ مُلَخَّصًا لِمَقَاصِدِ التَّنْزِيلِ الْقُرْآنِيِّ وَمَحَاوِرِهِ.

فَمَنْ أَدْرَكَ هَذِهِ الْمَقَاصِدَ اتَّضَحَتْ لَهُ الْخُطَّةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِبِنَاءِ الْحَيَاةِ، وَتَعَرَّفَ مِنْ خِلَالِ ذَلِكَ عَلَى الْإِسْلَامِ:

وَتُمَثِّلُ هَذِهِ الْمَقَاصِدُ الْقَوَاعِدَ الدُّسْتُورِيَّةَ الْمُحْكَمَةَ الَّتِي يَنْظُرُ بِهَا الْمُؤْمِنُ الصَّادِقُ الْهُمَامُ إِلَى الْبِنَاءِ الْإِسْلَامِيِّ الْفَذِّ الْعَظِيمِ، وَيَتَيَقَّنُ بِذَلِكَ أَنَّ النِّظَامَ الْإِسْلَامِيَّ يُحَقِّقُ السَّعَادَةَ الْقَلْبِيَّةَ وَالْعَقْلِيَّةَ عَلَى الْمُسْتَوَيَاتِ الْفَرْدِيَّةِ وَالْجَمَاعِيَّةِ وَالْعَالَمِيَّةِ، وَتَنْبَثِقُ عَنْ هَذِهِ الْمَقَاصِدِ الْكُلِّيَّةِ بَصَائِرُ فَرْعِيَّةٌ تُظْهِرُ عَظَمَةَ (فَاتِحَةِ الْكِتَابِ)، وَقُوَّةَ كَلِمَاتِهَا، فَلْنَنْظُرْ فِي الْخَرِيطَةِ الْإِجْمَالِيَّةِ لِهَذِهِ الْمَقَاصِدِ الْعَشَرَةِ الَّتِي تُبَصِّرُنَا بِهَا الْآيَاتُ السَّبْعُ:

جِسْرُ ابْتِدَاءٍ وَبِنَاءٍ: فِي بِدَايَةِ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ الْمُبَارَكَةِ نَسْأَلُ: مَا أَوَّلُ شَيْءٍ تُعَرِّفُ بِهِ نَفْسَكَ وَتُعَرِّفُ بِهِ الْعَالَمَ عِنْدَمَا تُرِيدُ أَنْ تُقَدِّمَ لَهُمُ الْإِسْلَامَ؟

الْجَوَابُ: هُنَا يَأْتِي:

الْمَقْصِدُ الْأَوَّلُ: التَّعْرِيفُ بِاسْمِ الْإِلَهِ الْحَقِّ (الْأَوَّلِ وَالْآخِرِ) -جَلَّ مَجْدُهُ-، فَاسْمُهُ: اللهُ، وَأَسَاسُ صِفَاتِهِ، وَهِيَ الرَّحْمَةُ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝١﴾:

جِسْرُ اتِّصَالٍ: بَعْدَ التَّعَرُّفِ إِلَى اسْمِ الْإِلَهِ الْمَلِكِ الْحَقِّ الْأَوَّلِ وَالْآخِرِ، وَالتَّعَرُّفِ إِلَى أَسَاسِ صِفَاتِهِ رُبَّمَا سَأَلَ القَارِئُ سَوَاءٌ أَكَانَ مُسْلِمًا أَمْ كَافِرًا: مَا الدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ اللهَ هُوَ الْإِلَهُ الْحَقُّ دُونَ غَيْرِهِ مِنَ الْمَعْبُودَاتِ؟

الْجَوَابُ: هُنَا يَأْتِي:

الْمَقْصِدُ الثَّانِي: التَّعْرِيفُ بِالْعَالَمِينَ، وَأَنَّ وُجُودَهُمْ لِأَنَّ اللهَ رَبَّاهُمْ، فَكُلُّهُمْ مِنَ الذَّرَّاتِ إِلَى الْمَجَرَّاتِ بَرَاهِينُ لَا حَصْرَ لَهَا عَلَى أَنَّ اللهَ هُوَ الْإِلَهُ الْحَقُّ، وَلِذَا نَحْمَدُهُ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢﴾.

جِسْرُ اتِّصَالٍ: وَبَعْدَ التَّعَرُّفِ إِلَى اسْمِ رَبِّنَا، وَأَسَاسِ صِفَاتِهِ، وَأَنَّهُ جَعَلَ الْعَالَمِينَ أَدِلَّةً عَلَى رُبُوبِيَّتِهِ، فَهُوَ الَّذِي رَبَّاهُمْ، وَلِذَا وَجَبَ أَنْ يَحْمَدُوهُ يَأْتِي السُّؤَالُ: فَلِمَاذَا خَلَقَ اللهُ الْعَالَمِينَ، وَرَبَّاهُمْ بِخَلْقِ طَبَائِعِهِمْ وَإِنْزَالِ الشَّرَائِعِ عَلَيْهِمْ؟

الْجَوَابُ: هُنَا يَأْتِي فِي الْآيَةِ الثَّالِثَةِ:

الْمَقْصِدُ الثَّالِثُ: التَّعْرِيفُ بِطَبِيعَةِ الْعَلَاقَةِ بَيْنَ اللهِ وَخَلْقِهِ وَأَنَّهَا قَائِمَةٌ عَلَى الرَّحْمَةِ بِهِمْ، فَالرَّحْمَةُ أَسَاسُ خَلْقِ الطَّبِيعَةِ، وَإِنْزَالِ الشَّرِيعَةِ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾.

جِسْرُ اتِّصَالٍ: بَعْدَ الْمَقَاصِدِ الثَّلَاثَةِ السَّابِقَةِ نَكُونُ قَدْ عَرَفْنَا اسْمَ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَأَسَاسَ صِفَاتِهِ، وَالْأَدِلَّةَ عَلَى أَنَّهُ هُوَ الْإِلَهُ الْحَقُّ، وَعَرَفْنَا طَبِيعَةَ الْعَلَاقَةِ بَيْنَ الْعَالَمِينَ وَخَالِقِهِمْ، فَنَسْأَلُ: مَا مَصِيرُ الْعَالَمِينَ؟ هَلِ الْمَوْتُ نِهَايَةُ الْحَيَاةِ، وَلَا يُوجَدُ بَعْدَهُ شَيْءٌ؟

الْجَوَابُ: هُنَا تَأْتِي الْآيَةُ ٤، وَفِيهَا:

الْمَقْصِدُ الرَّابِعُ: التَّعْرِيفُ بِقِصَّةِ نِهَايَةِ الْعَالَمِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَتَطْبِيقُ الْعَدْلِ الْإِلَهِيِّ الْكَامِلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَفِيهِ يَكُونُ الدِّينُ أَيِ الْجَزَاءُ عَلَى الدِّينِ أَيِ النِّظَامِ الَّذِي اتَّبَعَهُ الْإِنْسَانُ فِي الدُّنْيَا ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾، وَبِذَلِكَ تَتَحَقَّقُ الرَّحْمَةُ الْكَامِلَةُ بِالْمَخْلُوقِينَ عِنْدَمَا يُنْصِفُ اللهُ ﷻ الْمَظْلُومِينَ مِنَ الظَّالِمِينَ.

فَجَمَعَتْ هَذِهِ الْكَلِمَاتُ الثَّلَاثُ التَّعْرِيفَ بِنِهَايَةِ الْعَالَمِ الْأَوَّلِ، وَبِدَايَةِ الْعَالَمِ الْجَدِيدِ.

جِسْرُ اتِّصَالٍ: بَعْدَ أَنِ اتَّضَحَتِ الْخَرِيطَةُ الْكَامِلَةُ لِلْوُجُودِ الْمَخْلُوقِ زَمَانًا وَمَكَانًا، حَالًا وَمَآلًا، فَعَرَفْنَا الْجَوَابَ عَنِ السُّؤَالَيْنِ الْوُجُودِيَّيْنِ الْكَبِيرَيْنِ: (مِنْ أَيْنَ جِئْنَا؟)، وَ(إِلَى أَيْنَ نَذْهَبُ؟)، فَاللهُ -جَلَّ مَجْدُهُ- سَيُجَازِيهِمْ يَوْمَ الدِّينِ عَلَى نِظَامِ حَيَاتِهِمْ وَأَعْمَالِهِمُ الَّتِي عَمِلُوهَا فِي الدُّنْيَا، وَهُنَا يَأْتِي السُّؤَالُ الْوُجُودِيُّ الثَّالِثُ: فَمَا الْمَطْلُوبُ مِنْ أَجْلِ تَحْقِيقِ السَّعَادَةِ وَالْفَوْزِ يَوْمَ الدِّينِ؟

الْجَوَابُ: هُنَا يَأْتِي:

الْمَقْصِدُ الْخَامِسُ: التَّعْرِيفُ بِوَظِيفَةِ الْعَالَمِينَ، وَهِيَ الِالْتِزَامُ بِأَنْظِمَةِ الْعِبَادَةِ الْمُوَحِّدَةِ لِلَّهِ ﷻ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، وَذَلِكَ لِتَحْقِيقِ السَّعَادَةِ فِي الْحَيَاتَيْنِ، وَالْعِبَادَةُ تَشْمَلُ كُلَّ عَمَلٍ صَالِحٍ نَعْمُرُ بِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا، وَالْحَيَاةَ الْآخِرَةَ، وَهِيَ الشِّفَاءُ مِنْ أَمْرَاضِ الشِّرْكِ وَالْفَسَادِ وَالرِّيَاءِ، وَهِيَ وَسِيلَةُ التَّطَهُّرِ مِنَ الْأَرْجَاسِ الثَّقَافِيَّةِ وَالْفِكْرِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ.

جِسْرُ اتِّصَالٍ: هُنَا يَأْتِي سُؤَالٌ ضَرُورِيٌّ: عِبَادَةُ اللهِ ﷻ شَيْءٌ عَظِيمٌ، فَكَيْفَ يَسْتَطِيعُ الْمَخْلُوقُ الَّذِي لَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا أَنْ يَعْبُدَ اللهَ ﷻ حَقَّ عِبَادَتِهِ؟

الْجَوَابُ: هُنَا يَأْتِي:

الْمَقْصِدُ السَّادِسُ: الِاسْتِعَانَةُ بِاللهِ ﷻ نِظَامٌ تَعَبُّدِيٌّ، يُظْهِرُ الِافْتِقَارَ لِقُوَّةِ الْقَادِرِ الْقَهَّارِ، وَيُعِينُ عَلَى بِنَاءِ الْحَيَاةِ وَتَحْقِيقِ النَّجَاحِ وَفْقَ أَنْظِمَةِ الْعِبَادَةِ ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

لَسْتَ وَحْدَكَ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ، فَاللهُ ﷻ مَعَكَ يُعِينُكَ فِي كُلِّ شَيْءٍ. أَظْهِرْ فَقْرَكَ لِلْوَاحِدِ الْقَهَّارِ، وَاسْتَمْطِرْ مَدَدَ خَيْرَاتِهِ الْغِزَارِ، عِنْدَهَا سَيَنْهَالُ عَلَيْكَ عَطَاؤُهُ الْمِدْرَارُ، وَالِاسْتِعَانَةُ بِاللهِ ﷻ تَشْفِي مِنْ أَمْرَاضِ الْعُجْبِ وَالْغُرُورِ وَالْكِبْرِيَاءِ.

جِسْرُ اتِّصَالٍ: عَلِمْنَا أَنَّ الْمَقْصِدَ الْخَامِسَ بَصَّرَنَا بِأَنَّ الْمَطْلُوبَ مِنَ الْعَالَمِينَ أَنْ يَعْبُدُوا اللهَ ﷻ مُوَحِّدِينَ لَهُ فِي الْعِبَادَةِ، وَأَنَّ الْمَقْصِدَ السَّادِسَ أَنْ يَسْتَعِينُوا بِهِ لِيُعِينَهُمْ عَلَى تَحْقِيقِ الْعِبَادَةِ، وَلَكِنَّهُمْ رُبَّمَا يَسْأَلُونَ: كَيْفَ نَتَأَكَّدُ مِنْ أَنَّنَا نَعْبُدُهُ عِبَادَةً صَحِيحَةً؟ كَيْفَ يَتَأَكَّدُ الْإِنْسَانُ أَنَّ عِبَادَتَهُ لَيْسَتْ خَطَأً أَوْ بِدْعَةً أَوْ ضَلَالَةً؟

الْجَوَابُ: هُنَا يَأْتِي:

الْمَقْصِدُ السَّابِعُ: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦﴾ تُعَرِّفُنَا بِأَنْ نَسْأَلَ اللهَ ﷻ الْبَيَانَ وَالْإِرْشَادَ وَالتَّوْفِيقَ لِلْوُصُولِ إِلَى الْقَرَارِ الصَّحِيحِ فِي عِبَادَتِنَا لِتَكُونَ كَمَا يَرْضَاهُ اللهُ لَا لِتَكُونَ وَفْقَ أَهْوَائِنَا، أَوْ رَغَبَاتِ غَيْرِنَا، وَذَلِكَ يَعْنِي أَنْ نَسْأَلَ اللهَ ﷻ أَنْ يَدُلَّنَا وَيُوَفِّقَنَا لِلْقَرَارِ الصَّائِبِ فِي حَيَاتِنَا.

وَهَذَا الْمَقْصِدُ يُبَيِّنُ لَنَا قَاعِدَةَ: (حَقُّ الْعِبَادِ فِي مَعْرِفَةِ أَخْصَرِ طُرُقِ السَّعَادَةِ).

الْمُسْتَقِيمِ أَيِ الَّذِي يُوصِلُ إِلَى الْهَدَفِ الْحَقِيقِيِّ دُونَ تَعَرُّجَاتٍ.

جِسْرُ اتِّصَالٍ: عَرَفْنَا أَنَّ طَرِيقَ الْعِبَادَةِ الْحَقِيقِيَّةِ لَا يَكُونُ إِلَّا بِأَنْ نَسْأَلَ اللهَ عَبْرَ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ فَكَيْفَ نَتَأَكَّدُ مِنْ أَنَّنَا نَسِيرُ عَلَيْهِ؟

الْجَوَابُ:

يُحَدِّدُ اللهُ ﷻ لَنَا حَقِيقَةَ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ بِدِقَّةٍ عَجِيبَةٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾.

فَحَوَتْ هَذِهِ الْآيَةُ مَقْصِدَيْنِ عَاصِمَيْنِ مِنَ الِانْحِرَافِ عَنِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ:

الْمَقْصِدُ الثَّامِنُ: وَهُوَ مَقْصِدٌ يَتَعَلَّقُ بِتَحْدِيدِ مَاهِيَّةِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، فَهُوَ ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾، أَيْ صِرَاطُ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ:

- **أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ فِي الْمَاضِي**، وَهُمْ مَنْ سَمَّاهُمْ أَوْ وَصَفَهُمْ فِي كِتَابِهِ، وَأَوَّلُهُمُ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ الَّذِينَ أَثْنَى عَلَيْهِمْ، وَمَنِ اتَّبَعَهُمْ بِإِحْسَانٍ فِي التَّرَضِّي عَنْهُمْ، وَفِي الِاقْتِدَاءِ بِهِمْ.
- **أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ فِي الْحَاضِرِ**، وَهُمُ الَّذِينَ يُعَظِّمُونَ كِتَابَ اللهِ، وَيَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ، فَيَقْرَؤُونَهُ، وَيَعْمَلُونَ بِهِ، وَيَتَّبِعُونَ سُنَّةَ نَبِيِّنَا ﷺ، لِيَفْهَمُوا بِهَا كِتَابَ اللهِ، وَلِيَكُونَ هُوَ الْأُسْوَةَ الْحَسَنَةَ لَهُمْ.

الْمَقْصِدُ التَّاسِعُ: يَجِبُ حِرَاسَةُ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ مِنْ خَطَرِ الْعَدُوَّيْنِ الْأَزَلِيَّيْنِ (الِاسْتِرَاتِيجِيَّيْنِ): خَطَرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ، وَخَطَرِ الضَّالِّينَ سَوَاءٌ أَكَانُوا يَنْتَمُونَ لِلْمُسْلِمِينَ أَمْ يَنْتَمُونَ لِلْكَافِرِينَ، لِحِمَايَةِ الصِّرَاطِ مِنَ الِاخْتِرَاقِ الدَّاخِلِيِّ وَالْخَارِجِيِّ، وَيُبَصِّرُنَا بِذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾.

وَهَذَانِ الْمَقْصِدَانِ (الثَّامِنُ وَالتَّاسِعُ) يُشَكِّلَانِ الْحُدُودَ الْحَقِيقِيَّةَ الَّتِي تَحْمِي مَعَالِمَ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَتُوَضِّحُهُ أَعْظَمَ تَوْضِيحٍ، وَتُحَدِّدُهُ بِأَقْوَى تَصْرِيحٍ حَتَّى تُوَفِّرَ لِأَصْحَابِهِ الْفَلَاحَ الْفَرْدِيَّ وَالْجَمَاعِيَّ، وَتَعْصِمَهُمْ مِنَ الزَّلَلِ وَالْخَلَلِ فِي فَهْمِ طَبِيعَةِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ.

جِسْرُ اتِّصَالٍ: بَصَّرَتْنَا سُورَةُ الْفَاتِحَةِ بِتَعْرِيفِ الْإِسْلَامِ بِصُورَةٍ مُدْهِشَةٍ مِنْ خِلَالِ الْمَقَاصِدِ مِنَ الْأَوَّلِ إِلَى التَّاسِعِ، فَمَا السَّبِيلُ إِلَى أَنْ يَعْرِفَ الْعَالَمُ قِيمَةَ هَذَا الدِّينِ الْعَظِيمِ؟

الْجَوَابُ: هُنَا يَأْتِي:

الْمَقْصِدُ الْعَاشِرُ: مَبْدَأُ الْأُمَّةِ الْوَاحِدَةِ هُوَ وَسِيلَةُ أَصْحَابِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ الْوَحِيدَةُ لِتَقْدِيمِ رِسَالَةِ الرَّحْمَةِ لِلْعَالَمِينَ، فَالْأُخُوَّةُ الْمَصِيرِيَّةُ تُحَقِّقُ لَهُمُ النَّصْرَ الْجَمَاعِيَّ، وَتَحْمِي الْجَمِيعَ، وَيُبَصِّرُنَا بِهَذَا نُونُ الْجَمَاعَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿نَعْبُدُ﴾،﴿نَسْتَعِينُ﴾، ﴿ٱهْدِنَا﴾، مَعَ التَّقْسِيمِ الثُّلَاثِيِّ لِلْعَالَمِ إِلَى: مُنْعَمٍ عَلَيْهِمْ، وَمَغْضُوبٍ عَلَيْهِمْ، وَضَالِّينَ.

تِلْكَ عَشَرَةُ مَقَاصِدَ كَامِلَةٌ[1].

---

(١) مَرَّتْ صِيَاغَةُ هَذِهِ الْمَقَاصِدِ بِمَرَاحِلَ، وَكَانَتِ الْمَرَاحِلُ الْأُولَى لِصِيَاغَتِهَا قَدِ اتَّخَذَتْ طَابَعًا وَعْظِيًّا، وَكَانَتْ سَبْعَةً، هِيَ الْآتِيَةُ:

الْمَقْصِدُ الْأَوَّلُ: (الْفَاتِحَةُ) هِيَ الْبِنَاءُ لِلنَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ، وَالشِّفَاءُ مِنَ الْأَمْرَاضِ وَالْأَدْوَاءِ بِالثَّنَاءِ عَلَى أَرْحَمِ الرُّحَمَاءِ، وَنَجِدُ ذَلِكَ فِي [الْفَاتِحَةِ ١-٤].

الْمَقْصِدُ الثَّانِي: (الْفَاتِحَةُ) هِيَ الْبِنَاءُ لِتَوْحِيدِ رَبِّ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ، وَالشِّفَاءُ مِنَ الشِّرْكِ وَالرِّيَاءِ، وَنَسْتَنْبِطُ هَذَا الْمَقْصِدَ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾.

فَلْتَبْدَأْ سَفِينَةُ النَّجَاةِ بِاسْتِكْشَافِ بَحْرِ بَصَائِرِهَا الْمُدْهِشَةِ مِنْ خِلَالِ تَفْسِيرِنَا لِكَلِمَاتِ آيَاتِهَا الْقُرْآنِيَّةِ ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [هُود: ٤١].

❋❋❋

الْمَقْصِدُ الثَّالِثُ :(الْفَاتِحَةُ) هِيَ الْبِنَاءُ لِلتَّزْكِيَةِ بِالِاسْتِعَانَةِ الْقَوِيَّةِ بِرَبِّ الْبَرِيَّةِ، وَالشِّفَاءُ مِنَ الْعُجْبِ وَالْكِبْرِيَاءِ ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

الْمَقْصِدُ الرَّابِعُ :(الْفَاتِحَةُ) هِيَ الْبِنَاءُ وَالشِّفَاءُ بِسُلُوكِ الصِّرَاطِ الْحَيَاتِيِّ الْقَوِيمِ صِرَاطِ السُّعَدَاءِ ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

الْمَقْصِدُ الْخَامِسُ :(الْفَاتِحَةُ) هِيَ التَّطْبِيقُ الْعَمَلِيُّ الْمُبَاشِرُ لِصِرَاطِ الِاهْتِدَاءِ، وَيَتِمُّ بِالِاقْتِدَاءِ بِالسَّابِقِينَ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِمْ مِنَ السُّعَدَاءِ ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾.

الْمَقْصِدُ السَّادِسُ :(الْفَاتِحَةُ) هِيَ الْبِنَاءُ وَالشِّفَاءُ بِتَرْكِ طَرِيقِ أَهْلِ الْغَضَبِ وَالِاعْتِدَاءِ ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾.

الْمَقْصِدُ السَّابِعُ :(الْفَاتِحَةُ) هِيَ الْبِنَاءُ وَالشِّفَاءُ بِتَرْكِ طَرِيقِ أَهْلِ الْجَهْلِ وَالضَّلَالَةِ الْعَمْيَاءِ ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾.

وَلَا تَتَعَجَّبَنَّ -رَفَعَ اللهُ ذِكْرَكَ- مِنَ الْجَمْعِ بَيْنَ كَلِمَتَيِ (الْبِنَاءِ) وَ(الشِّفَاءِ)؛ فَإِنَّ الْمُرَادَ أَنَّ الْفَاتِحَةَ بِنَاءٌ لِلْوَاقِعِ الصَّحِيحِ ابْتِدَاءً، وَشِفَاءٌ لِلْوَاقِعِ الْقَائِمِ الْمُعْتَلِّ السَّقِيمِ لِتُعِيدَهُ إِلَى هَيْئَتِهِ الصَّحِيحَةِ، إِنْ كَانَ قَدْ قَامَ عَلَى خَلَلٍ وَعِلَلٍ.

جِسْرُ ابْتِدَاءٍ وَبِنَاءٍ: فِي بِدَايَةِ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ الْمُبَارَكَةِ نَسْأَلُ: مَا أَوَّلُ شَيْءٍ تُعَرِّفُ بِهِ نَفْسَكَ وَتُعَرِّفُ بِهِ الْعَالَمَ عِنْدَمَا تُرِيدُ أَنْ تُقَدِّمَ لَهُمُ الإِسْلَامَ؟

الْجَوَابُ: هُنَا يَأْتِي:

الْمَقْصِدُ الأَوَّلُ

التَّعْرِيفُ بِاسْمِ الْإِلَهِ الْحَقِّ (الْأَوَّلِ وَالْآخِرِ) -جَلَّ مَجْدُهُ-، فَاسْمُهُ: اللهُ، وَأَسَاسُ صِفَاتِهِ، وَهِيَ الرَّحْمَةُ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝١﴾

أَلَا تَرَى أَنَّ ذَلِكَ أَعْظَمُ دَلِيلٍ عَلَى جَمَالِ الْإِسْلَامِ؛ إِذْ كَانَتْ أَهَمُّ صِفَاتِ الْإِلَهِ الْحَقِّ الَّذِي نَعْبُدُهُ فِي الْإِسْلَامِ هِيَ صِفَةُ الرَّحْمَةِ؟

فَآيَةُ الْبَسْمَلَةِ تُنِيرُ طَرِيقَ الْبَشَرِيَّةِ بِالْبَصَائِرِ الْخَمْسِ الْآتِيَةِ:

المقصد الأول

التعريف باسم الإله الحق الأول والآخر (الله)-جلَّ مجدُه-، والتعريف بأساس صفاته وهي (الرحمة)، ويبصِّرنا بذلك قوله تعالى: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

[الفاتحة: 1]

بصيرة 01
البسملة تُعَرِّفُ العالم باسم إلهِهم الحق الأول والآخر.

بصيرة 02
(البسملة) مرسومٌ إلهي جعله الله مقدمة لكلامه ليوضح أن الرحمة أساس الصفات الإلهية في التصور الإسلامي

بصيرة 03
البسملة مقررة لحقيقة التوحيد التي هي أعظم الحقائق الكونية

بصيرة 04
(البسملة) أساسٌ يكَمِّلُ الاستعاذة، ويثمر الحماية والرعاية في البدايات

بصيرة 05
قوة التوحيد والتعبد الصادق من العبيد، (فإذا كانت الاستعانة بالاسم تحقق المطلوب، فكيف إذا كان الإنسان في كنف صاحب الاسم علامِ الغيوب)

الْبَصِيرَةُ الْأُولَى

الْبَسْمَلَةُ تُعَرِّفُ الْعَالَمَ بِاسْمِ إِلَهِهِمُ الْحَقِّ الْأَوَّلِ وَالْآخِرِ، وَيُبَصِّرُنَا بِذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾؛ فَلَمْ يَقُلْ: ﴿بِاللهِ﴾، بَلْ أَدْخَلَ كَلِمَةَ ﴿اسْمٍ﴾ بَعْدَ الْبَاءِ لِيُشْعِرَنَا بِضَرُورَةِ التَّرْكِيزِ عَلَيْهِ

أَوَّلُ خُطْوَةٍ تُنِيرُ الْعَقْلَ الْإِنْسَانِيَّ؛ لِفَهْمِ هَذَا الْوُجُودِ هِيَ أَنْ يَتَعَرَّفَ عَلَيْهِ: مَا حَقِيقَتُهُ؟ وَمَنْ صَنَعَهُ؟ وَبِذَا يَكُونُ أَوَّلُ الْعِلْمِ الْحَقِيقِيِّ التَّعَرُّفَ إِلَى الْخَالِقِ الَّذِي خَلَقَ هَذَا الْوُجُودَ، وَلِذَا قِيلَ:

أَوَّلُ وَاجِبٍ عَلَى الْإِنْسَانِ ... مَعْرِفَةُ الْإِلَهِ بِاسْتِيقَانِ[1]

هُنَا تَرَى الْفَاتِحَةَ تَبْدَأُ بِصُورَةٍ مُوجَزَةٍ بِتَعْرِيفِ الْعَالَمِ بِـ(**خَالِقِهِمْ وَمُرَبِّيهِمْ**) - جَلَّ مَجْدُهُ -، فَاسْمُهُ ﴿**اللهُ**﴾.

> **فَالْمَقْصِدُ الْأَوَّلُ مِنْ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ يُبَيِّنُ أَنَّ لَكَ إِلَهًا لَهُ اسْمٌ يَخْتَلِفُ عَنْ أَسْمَاءِ كُلِّ الْآلِهَةِ الَّتِي تُعْبَدُ مِنْ دُونِهِ، فَاسْمُهُ هُوَ ﴿اللهُ﴾، وَبِاسْمِهِ انْبَثَقَ الْكَوْنُ، وَوُجِدَتِ الْكَائِنَاتُ، وَأُنْزِلَتِ الْآيَاتُ، وَبِاسْمِهِ وُجِدْتَ أَنْتَ.**

تَعَالَ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ؛ لِتَتَعَرَّفَ عَلَى مَكَامِنِ الْجَلَالِ وَالْجَمَالِ وَالْكَمَالِ فِي هَذَا الِاسْمِ الْأَعْظَمِ الْأَجَلِّ الْأَكْرَمِ الْمُبَارَكِ الَّذِي وَرَدَ فِي الْآيَةِ الْأُولَى وَالثَّانِيَةِ مِنْ (الْفَاتِحَةِ)، وَتَكَرَّرَ هَذَا الِاسْمُ

---

(١) كما يقول ابن رسلان في أول (زُبَدِه).

فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فِي (٢٧٠٧) مَوْضِعًا تَقْرِيبًا، مِنْهَا (٩٨٠) مَرَّةً فِي حَالَةِ الرَّفْعِ، وَ (٥٩٢) مَرَّةً فِي حَالَةِ النَّصْبِ، وَ (١١٣٥) مَرَّةً فِي حَالَةِ الْجَرِّ.

وَمِمَّا يُبْهِرُكَ فِي الِاسْمِ الْمُبَارَكِ ﴿اللهِ﴾ أَنَّهُ -عِنْدَ بَعْضِ أَهْلِ الْعِلْمِ- يُشِيرُ إِلَى الدَّلِيلِ الْحَقِّ عَلَى أُلُوهِيَّةِ اللهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ، وَهَذَا بِحَدِّ ذَاتِهِ أَمْرٌ مُذْهِلٌ، وَإِذَا تَسَاءَلْتَ: كَيْفَ ذَلِكَ؟

فَالْجَوَابُ: إِنْ بَحَثْنَا عَنْ لَفْظِ الْجَلَالَةِ ﴿اللهِ﴾ سَنَجِدُ بَعْضَ الْعُلَمَاءِ يَجْعَلُهَا كَلِمَةً مُشْتَقَّةً مِنْ (إِلَهٍ) بِمَعْنَى مَعْبُودٍ، ثُمَّ دَخَلَتْ عَلَيْهِ (الْ)، فَصَارَتِ (الْإِلَهُ)، ثُمَّ حُذِفَتْ هَمْزَتُهُ لِكَثْرَةِ اسْتِعْمَالِ هَذَا اللَّفْظِ عِنْدَ الدَّلَالَةِ عَلَيْهِ -تَعَالَى ذِكْرُهُ- كَمَا حَذَفُوا هَمْزَةَ الْأُنَاسِ فَقَالُوا النَّاسُ، وَيَدُلُّكَ عَلَى ذَلِكَ أَنَّهُمْ أَظْهَرُوهَا فِي بَعْضِ الْكَلَامِ، فَقَالَ الْبَعِيثُ بْنُ حُرَيْثٍ:

مَعَاذَ الْإِلَهِ أَنْ تَكُونَ كَظَبْيَةٍ ... وَلَا دُمْيَةٍ، وَلَا عَقِيلَةِ رَبْرَبِ

وَلَكِنَّهَا زَادَتْ عَلَى الْحُسْنِ كُلِّهِ ... كَمَالًا، وَمِنْ طِيبٍ عَلَى كُلِّ طِيبِ[1]

وَبَعْدَ حَذْفِ الْهَمْزَةِ أُدْغِمَ اللَّامَانِ فَصَارَتِ الْكَلِمَةُ ﴿اللهُ﴾، فَلَوِ اعْتَبَرْنَا هَذِهِ الْكَلِمَةَ الْمُعَظَّمَةَ مُشْتَقَّةً فَهِيَ دَالَّةٌ عَلَى الْمَعْبُودِ سُبْحَانَهُ.

إِنَّهُ كَلَامٌ حَسَنٌ كَمَا تَرَى. ائْذَنْ لِي أَنْ أَطْلُبَ مِنْكَ أَنْ تُكَرِّرَ النَّظَرَ فِي جَمَالِهِ وَحُسْنِهِ، فَهُوَ يَنْطَلِقُ مِنْ أَنَّ كَلِمَةَ ﴿اللهِ﴾ تَعُودُ إِلَى كَلِمَةِ (**الْإِلَهِ**)، أَيِ: الْإِلَهِ الْحَقِّ الَّذِي لَا يَسْتَحِقُّ أَنْ يُسَمَّى غَيْرُهُ بِهَذَا الِاسْمِ، إِلَّا أَنَّنِي أَدْعُوكَ لِتَرَى رَأْيًا لَعَلَّهُ يَكُونُ الْأَقْوَى وَالْأَقْوَمَ هُوَ رَأْيُ الْإِمَامِ الْمُسَدَّدِ، وَالْمُصْلِحِ الْعَالَمِيِّ الْمُجْتَهِدِ الْإِمَامِ مُحَمَّدِ بْنِ إِدْرِيسَ الشَّافِعِيِّ رَحِمَهُ اللهُ (ت٢٠٤هـ)،

---

(١) شرح ديوان الحماسة للتبريزي (١/ ١٤٢)، والدمية: الصنم والصورة من العاج ونحوه المنقوشة بالجواهر، وعقيلة كل شيء: أكرمه، والربرب: القطيع من بقر الوحش: شبه محبوبته بالظبية، وبالدمية، وبالعقيلة في نفسه، ثم وجدها أحسن منها فرجع عن ذلك والتجأ إلى الله أن يغفر له أن يشبهها بذلك كأنه أثم، أو المعنى لا أشبهها بذلك وإن وقع من الشعراء.

وَرَأْيُهُ أَنَّ هَذِهِ الْكَلِمَةَ الْمُعَظَّمَةَ ﴿اللهِ﴾ لَيْسَتْ إِلَّا اسْمَ عَلَمٍ لَا اشْتِقَاقَ لَهُ، يُنَادَى بِهِ اللهُ ﷻ، فَـ﴿اللهُ﴾ هُوَ عَلَمُ الْأَعْلَامِ، وَيُنْطَقُ بِاللَّامِ الْمُفَخَّمَةِ مَا لَمْ تَسْبِقْهُ الْكَسْرَةُ أَوِ الْيَاءُ، وَيُذْكَرُ عَادَةً مَقْرُونًا بِأَلْفَاظٍ تَدُلُّ عَلَى الْإِجْلَالِ مِثْلَ (سُبْحَانَهُ، تَعَالَى مَجْدُهُ، تَعَالَى ذِكْرُهُ...).

وَعَلَى نَفْسِ الْمِنْوَالِ يَنْبَرِي عَالِمُ الدُّنْيَا فِي النَّحْوِ سِيبَوَيْهِ ﷺ لِيُقَرِّرَ أَنَّ هَذِهِ الْكَلِمَةَ الْمُبَارَكَةَ تُشِيرُ إِلَى أَعْرَفِ الْمَعَارِفِ[1]، قَالَ الرَّازِيُّ ﷺ: "هُوَ قَوْلُ الْخَلِيلِ وَسِيبَوَيْهِ، وَقَوْلُ أَكْثَرِ الْأُصُولِيِّينَ وَالْفُقَهَاءِ"[2]، وَنَسَبَهُ الزَّرْكَشِيُّ لِلْأَكْثَرِ[3]، **فَمَا الَّذِي يَعْنِيهِ هَذَا؟**

وَالْجَوَابُ: أَنَّ تَقْرِيرَ الْأَمْرِ عَلَى هَذَا النَّحْوِ يُفِيدُنَا بِأَنَّ هَذَا الِاسْمَ الْكَرِيمَ (اللهُ) قَدِ اخْتُصَّ بِهِ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ لَا يُشْرِكُهُ فِيهِ أَحَدٌ، كَمَا قَالَ اللهُ -تَعَالَى ذِكْرُهُ-: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مَرْيَمَ: ٦٥]؛ سُبْحَانَهُ لَا سَمِيَّ لَهُ، وَلَا مَثِيلَ، وَلَا نِدَّ، وَلَا نَظِيرَ، فَهُوَ الْأَوَّلُ الَّذِي لَيْسَ قَبْلَهُ شَيْءٌ، الْآخِرُ الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ شَيْءٌ.

جِسْرُ اتِّصَالٍ: فَهِمْنَا الْبَصِيرَةَ الْأُولَى مِنْ بَصَائِرِ الْبَسْمَلَةِ، وَأَدْرَكْنَا بِتَلَذُّذٍ وَمَحَبَّةٍ كَيْفَ جَاءَ اسْمُ اللهِ الْعَلَمُ ﴿اللهُ﴾، فَمَا الْحَقَائِقُ الَّتِي تَتَرَتَّبُ عَلَى مَعْرِفَتِنَا لِهَذَا الِاسْمِ الْمُعَظَّمِ الْمُبَجَّلِ ﴿اللهِ﴾؟

الْجَوَابُ:

يَتَرَتَّبُ عَلَى ذَلِكَ أَرْبَعُ حَقَائِقَ:

---

(١) الدر المصون، السمين الحلبي (١/ ٢٤).

(٢) مفاتيح الغيب، (١/ ٩٥).

(٣) معنى لا إله إلا الله، الزركشي (ص: ١٠٦).



الْحَقِيقَةُ الْأُولَى: لَا يَجُوزُ أَنْ يَتَسَمَّى بِهَذَا الِاسْمِ الْعَظِيمِ ﴿اللهِ﴾ أَحَدٌ، وَلَمْ يَجْرُؤْ أَحَدٌ عَبْرَ التَّارِيخِ عَلَى فِعْلِ ذَلِكَ بِحَمْدِ اللهِ، حَتَّى طُغَاةُ الْكُفْرِ، وَرُؤَسَاءُ الضَّلَالِ –عَلَى شِدَّةِ عُتُوِّهِمْ وَبَالِغِ تَمَرُّدِهِمْ– لَمْ يُنْقَلْ أَنَّ أَحَدًا مِنْهُمْ تَسَمَّى بِهَذَا الِاسْمِ الْجَلِيلِ.

الْحَقِيقَةُ الثَّانِيَةُ: لَفْظُ الْجَلَالَةِ ﴿اللهِ﴾ عَلَمٌ يُوصَفُ وَلَا يُوصَفُ بِهِ، وَأَسْمَاءُ اللهِ الْحُسْنَى الْأُخْرَى أَسْمَاءٌ تَتَضَمَّنُ صِفَاتٍ تَجْرِي عَلَى هَذَا الِاسْمِ الْعَظِيمِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾ [الأعراف:١٨٠].

الْحَقِيقَةُ الثَّالِثَةُ: تُسْنَدُ إِلَى هَذَا الِاسْمِ الْعَظِيمِ ﴿اللهِ﴾ الْأَفْعَالُ الْمُشْتَقَّةُ مِنْ بَقِيَّةِ الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى، فَيُقَالُ فِيمَا يُشْتَقُّ مِنِ اسْمِ ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ مَثَلًا: رَحِمَ اللهُ فُلَانًا، وَيَرْحَمُهُ الله، وَاللَّهُمَّ ارْحَمْ فُلَانًا، وَتُضَافُ إِلَى هَذَا الِاسْمِ الْعَظِيمِ ﴿اللهِ﴾ مَصَادِرُ الْأَسْمَاءِ الْأُخْرَى، فَيُقَالُ: رَحْمَةُ اللهِ وَرُبُوبِيَّتُهُ وَمَغْفِرَتُهُ ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الْأَعْرَاف: ٥٦].

الْحَقِيقَةُ الرَّابِعَةُ: هَذِهِ الْأَسْمَاءُ الْمُشْتَقَّةُ (كَالرَّحْمَنِ وَالْغَفَّارِ...) كُلٌّ مِنْهَا يَدُلُّ عَلَى ذَاتِ اللهِ تَعَالَى، وَعَلَى الصِّفَةِ الَّتِي اشْتُقَّ مِنْهَا مَعًا بِالْمُطَابَقَةِ، وَعَلَى الْفِعْلِ الصَّادِرِ عَنْهَا بِالتَّضَمُّنِ، فَمَثَلًا: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ يَدُلُّ عَلَى ذَاتِ اللهِ، وَعَلَى رَحْمَتِهِ بِالْمُطَابَقَةِ لِهَذَا الِاسْمِ الْعَظِيمِ ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾، وَلِكُلٍّ مِنْهَا لَوَازِمُ يَدُلُّ عَلَيْهَا بِالِالْتِزَامِ، كَدَلَالَةِ الرَّحْمَنِ عَلَى الْإِحْسَانِ وَالْإِنْعَامِ، وَدَلَالَةِ الْحَكِيمِ عَلَى الْإِتْقَانِ وَالنِّظَامِ[1].

وَهُنَا نَسْأَلُ: مَا أَثَرُ تَرْدِيدِ هَذَا الِاسْمِ الْمُعَظَّمِ الْمُبَجَّلِ اللهِ عَلَى النَّفْسِ؟

الْجَوَابُ:

أَثَرُ تَرْدِيدِ الِاسْمِ الْأَعْظَمِ ﴿اللهِ﴾ عَلَى النَّفْسِ:

إِنَّ مُجَرَّدَ نُطْقِكَ بِهَذَا الِاسْمِ الْمُمَجَّدِ ﴿اللهِ﴾ يَجْعَلُ قَلْبَكَ يَمْتَلِئُ حُبًّا وَإِجْلَالًا وَتَعْظِيمًا وَارْتِيَاحًا، وَاطْمِئْنَانًا وَأُنْسًا وَانْشِرَاحًا، وَلِذَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَدْعُو عِنْدَ الْكَرْبِ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ

(١) تفسير المنار (١/ ٣٨).

الْعَظِيمُ الْحَلِيمُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَرَبُّ الْأَرْضِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ»[(١)].

وَكَانَ يُعَلِّمُ الرِّجَالَ وَالنِّسَاءَ مِنْ أَصْحَابِهِ ﷺ كَيْفَ يَتَلَذَّذُونَ بِذِكْرِ اسْمِ اللهِ الْعَظِيمِ، فَهَا هُوَ يَقُولُ لِأَسْمَاءَ بِنْتِ عُمَيْسٍ ﷺ: «أَلَا أُعَلِّمُكِ كَلِمَاتٍ تَقُولِينَهُنَّ عِنْدَ الْكَرْبِ أَوْ فِي الْكَرْبِ؟ اللهُ اللهُ رَبِّي لَا أُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»[(٢)].

دَعْكَ الْآنَ -عَمَرَ اللهُ أَيَّامَكَ بِالْعِبَادَةِ، وَغَمَرَ قَلْبَكَ بِالسَّعَادَةِ- مِنْ أَعْبَاءِ الْحَيَاةِ حَوْلَكَ، وَتَأَمَّلِ الْأَثَرَ الَّذِي يُحْدِثُهُ تَرْطِيبُ الْأَفْوَاهِ وَتَحْرِيكُ الشِّفَاهِ بِذِكْرِ اسْمِ ﴿اللهِ﴾ عَلَى الْهَيْئَةِ الَّتِي عَلَّمَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ. كَمْ يُثِيرُ عَلَى الْقُلُوبِ مِنْ رَاحَةٍ وَفَرْحَةٍ، وَكَمْ يُزِيلُ مِنْ غُصَّةٍ وَقُرْحَةٍ، وَلَكَمْ تُورِقُ بِنَدَاوَةِ حُرُوفِهِ أَزَاهِيرُ الْفُؤَادِ، وَيَنْبُتُ فِي ظِلَالِ أَفْنَانِهِ كُلُّ غُصْنٍ نَاعِمٍ مَيَّادٍ، فَتُنْشِدُ الرُّوحُ طَرَبًا قَوْلَ نَاصِرٍ الزَّهْرَانِيِّ -بَلَّغَهُ مَوْلَاهُ الْأَمَانِيَ-[(٣)]:

﴿اللهُ﴾ يَا أَعْذَبَ الْأَلْفَاظِ فِي لُغَتِي ... وَيَا أَجَلَّ حُرُوفٍ فِي مَعَانِيهَا

﴿اللهُ﴾ يَا أَمْتَعَ الْأَسْمَاءِ كَمْ سَعِدَتْ ... نَفْسِي، وَفَاضَ سُرُورِي حِينَ أَرْوِيهَا

﴿اللهُ﴾ أُنْسِي وَبُسْتَانِي وَقَافِيَتِي ... ﴿اللهُ﴾ يَا زِينَةَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا

﴿اللهُ﴾ يَرْتَاحُ قَلْبِي حِينَ أَسْمَعُهَا ... وَحِينَ أُبْصِرُهَا نَقْشًا وَأُمْلِيهَا

﴿اللهُ﴾ فِيهَا إِجَابَاتِي وَأَسْئِلَتِي ... وَمِنْ مَعَانِي الرِّضَا وَالْحُبِّ صَافِيهَا

---

(١) البخاري (٨/ ٩٣) برقم٦٣٤٦.

(٢) أحمد٦/ ٣٦٩، برقم ٢٧١٢٧، أبو داود (١ / ٥٦١) برقم ١٥٢٧، وصححه الألباني، وحسنه الأرناؤوط.

(٣) (الله أهل الثناء والمجد)، د. ناصر الزهراني (ص: ٩٢)، والقصيدة مرفوعة كاملة على موقع (بوابة الشعراء)، بتاريخ ١٧/ ١٠/ ٢٠١٠م.

﴿اللهُ﴾ فِيهَا بَيَانِي، بَسْمَتِي، طَرَبِي ... مَشَاعِرِي، حَاضِرُ الْبُشْرَى وَمَاضِيهَا
﴿اللهُ﴾ رُوحِي طُمُوحِي رَاحَتِي سَكَنِي ... لَا أَجْتَنِي الْأُنْسَ إِلَّا مِنْ مَغَانِيهَا
﴿اللهُ﴾ شَهْدُ الْهَوَى وَالْوُدِّ، لَيْسَ لَهَا ... فِي مُهْجَةِ الْمُتَّقِي شَيْءٌ يُسَاوِيهَا

وَهُنَا نَسْأَلُ: هَذَا الِاسْمُ الْمُعَظَّمُ الْمُبَارَكُ ﴿اللهُ﴾ هُوَ اسْمُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالْأَنْبِيَاءُ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ جَاؤُوا بِرِسَالَةٍ عَظِيمَةٍ مِنْهُ ﷻ، وَلَكِنَّنَا لَا نَسْمَعُ هَذَا الِاسْمَ يُرَدَّدُ فِي اللُّغَاتِ الْأُخْرَى الَّتِي يَتَكَلَّمُ بِهَا أَهْلُ الْكِتَابِ مَثَلًا، مَعَ أَنَّهُ اسْمٌ عَلَمُ الْأَعْلَامِ، فَلِمَاذَا لَا نَسْمَعُهُ أَوْ نَسْمَعُ قَرِيبًا مِنْهُ؟

الْجَوَابُ:

التَّعْرِيفُ بِالِاسْمِ الْأَجَلِّ الْأَكْرَمِ لِخَالِقِ الْكَوْنِ يَكْشِفُ تَحْرِيفًا مُفْسِدًا فِي الْأَرْضِ:

لِتَتَّضِحَ الْفِكْرَةُ دَعْنِي أَسْأَلُكَ عَنِ اسْمِ آدَمَ ﷺ عِنْدَنَا وَعِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ الشُّعُوبِ اللَّاتِينِيَّةِ؟

إِنْ عَرَفْتَ عَدَدًا مِنَ اللُّغَاتِ فَإِنَّكَ سَتُخْبِرُنِي بِوُضُوحٍ: إِنَّ اسْمَ آدَمَ ﷺ عِنْدَنَا هُوَ ذَاتُهُ عِنْدَ الْإِنْجِلِيزِ وَكَثِيرٍ مِنْ شُعُوبِ الْأَرْضِ، وَسَتَجِدُ أَنَّ اسْمَ الْمَلَكِ (جِبْرِيلَ) ﷺ هُوَ ذَاتُهُ فِي الْعَرَبِيَّةِ وَالْإِنْجِلِيزِيَّةِ مَثَلًا، وَإِنْ وُجِدَ اخْتِلَافٌ فِي نُطْقِ الْحُرُوفِ، فَهُوَ مَحْدُودٌ.

الْآنَ دَعْنِي أَتَسَاءَلُ: هَلْ يُعْقَلُ أَنْ يَكُونَ الِاسْمُ الْعَلَمُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ غَيْرَ مَعْرُوفٍ؟ هَلْ يُعْقَلُ أَنَّهُ مَعْرُوفٌ بِالْوَصْفِ دُونَ الِاسْمِ؟!

هَرَبَ الْمُحَرِّفُونَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ تَسْمِيَةِ رَبِّ الْعَالَمِينَ بِهَذَا الِاسْمِ الْعَظِيمِ ﴿اللهِ﴾، وَلَمْ يُوجَدْ لَهُ ذِكْرٌ فِي الْكُتُبِ الْمُقَدَّسَةِ عِنْدَهُمْ فِي الطَّبَعَاتِ الْمُتَأَخِّرَةِ مَعَ أَنَّ كُلَّ الْأَنْبِيَاءِ - عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - عِنْدَمَا دَعَوْا أَقْوَامَهُمْ إِنَّمَا كَانَتْ رِسَالَتُهُمْ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وَلَا يُمْكِنُ لَنَا أَنْ نَتَخَيَّلَ أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ يَدْعُونَ قَوْمَهُمْ إِلَى عِبَادَةِ مَنْ لَا اسْمَ لَهُ، وَلَكِنَّ الْمُعْتَدِينَ حَرَّفُوا الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَوَضَعُوا كَلَامَهُمْ وَخُرَافَاتِهِمْ فِي مَوَاقِعِهِ، وَتَرَتَّبَ عَلَى ذَلِكَ تَزْيِيفُ الْوَعْيِ، وَتَغْيِيبُ الْحَقَائِقِ الْكُبْرَى، فَهُمْ لَمْ يَذْكُرُوا اسْمَ ﴿اللهِ﴾ عَلَمًا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ مَعَ أَنَّهُ الِاسْمُ الْأَعْظَمُ لَهُ -جَلَّ فِي عُلَاهُ-، وَاكْتَفَى النَّصَارَى بِالْإِشَارَةِ إِلَيْهِ بِأَنَّهُ (**الْآبُ**)، وَاتَّخَذَ لَهُ الْيَهُودُ أَسْمَاءً أُخْرَى مِثْلَ: (**يَهْوَهْ**) وَ(**أَلُوهِيمْ**)، وَ (**إِيلْ**)، وَالتَّحْقِيقُ أَنَّ اسْمَ (**أَلُوهِيمْ**) يَرْجِعُ إِلَى اسْمِ ﴿اللهِ﴾ كَمَا نَصَّتْ عَلَى ذَلِكَ الْمَوْسُوعَةُ الْيَهُودِيَّةُ، بَلْ وَرَدَ فِيهَا كَلَامٌ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْأَصْلَ فِي تَسْمِيَةِ الرَّبِّ فِي الْيَهُودِيَّةِ هُوَ الِاسْمُ بِطَرِيقَةِ التَّصْوِيتِ الْعَرَبِيِّ[1].

---

(١) أفادني بهذا النص الباحث الألباني المتعدد المواهب (رزرت بيكا)-وفقه الله- ضمن عدة نصوص لم نرد الإطالة بإيرادها، والنص كما هو:

The most common of the originally appellative names of God is Elohim, plural in : Elohim form though commonly construed with a singular verb or adjective. This is, most probably, to be explained as the plural of majesty or excellence, expressing high dignity or greatness… The singular, Eloah (), is comparatively rare, occurring only in poetry and late prose (in Job, ٤١ times). The same divine name is found in Arabic (ilah) and in Aramaic (elah)….The root-meaning of the word is unknown. The most probable theory is that it may be connected with the old Arabic verb "alih" (to be perplexed, afraid; to seek refuge because of fear). Eloah, Elohim, would, therefore, be "He who is the object of fear or reverence," or "He with whom one who is afraid takes refuge" (comp. the name "fear of Isaac" in Gen. xxxi. ٤٢, ٥٣; see also Isa. viii. ١٣; Ps. lxxvi. ١٢). The predominance of this name in the later writings, as compared with the more distinctively Hebrew national name Yhwh, may have been due to the broadening idea of God as the transcendent and universal Lord. J.D. Einsenstein "Names of God" in The Jewish Encyclopedia (New York: Funk and Wagnalls Company) ١٩٠٩, p. ١٦١

فَدُونَكَ هَذِهِ الْفَائِدَةَ الْمُهِمَّةَ أَيُّهَا الْبَاحِثُ عَنِ الْحَقِّ فِي ظُلُمَاتِ التَّلْبِيسِ (**الْيَهُومَسِيحِيِّ**) لِيَظْهَرَ لَكَ مِقْدَارُ الْجَرِيمَةِ التَّحْرِيفِيَّةِ الْعِلْمِيَّةِ، وَخُلَاصَةُ التَّرْجَمَةِ أَنَّ (**أَلُوهِيمْ**): هُوَ الْأَكْثَرُ شُيُوعًا مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ، وَهُوَ بِصِيغَةِ الْجَمْعِ وَيُعْنَى بِهِ الْمُفْرَدُ، وَذَلِكَ مِنْ بَابِ التَّعْظِيمِ [1].

وَنَجِدُ فِي الْمَوْسُوعَةِ الْيَهُودِيَّةِ نَفْسَ الِاسْمِ فِي الْعَرَبِيَّةِ ﴿اللهِ﴾، وَكَذَلِكَ نَجِدُهُ فِي الْآرَامِيَّةِ حَيْثُ أَشَارَ الْمَصْدَرُ أَنَّهُ يُنْطَقُ (إِلَهْ)، وَعِنْدِي أَنَّ النُّطْقَ الْآرَامِيَّ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ ﴿اللهَ﴾، وَهُوَ يُوَافِقُ مَا ذَكَرْنَاهُ حَوْلَ اشْتِقَاقِ اسْمِ ﴿اللهِ﴾، وَلَا أَظُنُّ إِلَّا أَنَّ التَّحْرِيفَ الْمُتَعَمَّدَ قَدْ حَدَثَ كِتْمَانًا لِلْعِلْمِ لِتَتِمَّ عَمَلِيَّةُ الْإِضْلَالِ الْعَالَمِيِّ فِي إِدْرَاكِ الْوَحْدَةِ الْمَصْدَرِيَّةِ لِلْإِسْلَامِ الَّذِي جَاءَ بِهِ كَافَّةُ الْأَنْبِيَاءِ.

وَالْمُحَرِّفُونَ لَا يَسْتَخْدِمُونَ اسْمَ ﴿اللهِ﴾ إِلَّا تَزَلُّفًا إِلَى عَامَّةِ الْمُسْلِمِينَ بُغْيَةَ إِضْلَالِهِمْ، وَقَدِ اسْتَخْدَمُوا فِي الْإِعْلَامِ لَفْظَ الْجَلَالَةِ ﴿اللهَ﴾ مَعَ عَدَمِ وُرُودِهِ بِهَذَا الِاسْمِ فِي كِتَابِهِمُ الْمُقَدَّسِ الْمُتَعَارَفِ عَلَيْهِ بِطَبَعَاتِهِ الْحَدِيثَةِ، وَلَكَمْ حَرَمُوا أَنْفُسَهُمْ مِنَ الْخَيْرِ الْعَظِيمِ ﴿**أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ [المائدة: ٧٤].

❋❋❋

(١) يَقُولُ الْمَسِيرِيُّ: "«إِلُوهِيمْ» كَلِمَةٌ مِنْ أَصْلٍ كَنْعَانِيٍّ. وَهِيَ، حَسَبَ التَّصَوُّرِ الْيَهُودِيِّ، أَحَدُ أَسْمَاءِ الْإِلَهِ. وَهِيَ صِيغَةُ الْجَمْعِ مِنْ كَلِمَةِ «إِيلُوَهْ» أَوْ «إِلَهْ» أَوْ «إِيلْ»، وَهُوَ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْعِبْرَانِيِّينَ كَانُوا فِي مَرَاحِلِ تَطَوُّرِهِمُ الْأُولَى يُؤْمِنُونَ بِالتَّعَدُّدِيَّةِ" (مَوْسُوعَةُ الْيَهُودِ وَالْيَهُودِيَّةِ وَالصِّهْيَوْنِيَّةِ ١٣/ ١٦٠).

وَيَقُولُ أَيْضًا: "، وَبِأَدَاةِ التَّعْرِيفِ «هَا إِلُوهِيمْ». وَلِلْكَلِمَةِ مَعْنَيَانِ، فَهِيَ تَدُلُّ عَلَى الْجَمْعِ فَتَكُونُ بِمَعْنَى الْآلِهَةِ (الْوَثَنِيَّةِ) كَكُلٍّ، أَوْ تَدُلُّ عَلَى الْمُفْرَدِ فَتُعَدُّ اسْمًا مِنْ أَسْمَاءِ الْإِلَهِ"، وَمَا قَرَّرَهُ بِحَاجَةٍ إِلَى تَأَمُّلٍ أَكْثَرَ.

جِسْرُ اتِّصَالٍ: عَرَفْنَا أَنَّ الْبَصِيرَةَ الْأُولَى مِنْ بَصَائِرِ الْبَسْمَلَةِ أَنَّ الْبَسْمَلَةَ تُعَرِّفُ الْعَالَمَ بِاسْمِ إِلَهِهِمُ الْحَقِّ (اللهِ) الْأَوَّلِ وَالْآخِرِ، وَيُبَصِّرُنَا بِذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾، وَهُنَا رُبَّمَا يَسْأَلُ القَارِئُ: فَمَا أَسَاسُ صِفَاتِ هَذَا الْإِلَهِ الْعَظِيمِ؟

الْجَوَابُ: هُنَا تَأْتِي:

الْبَصِيرَةُ الثَّانِيَةُ

(الْبَسْمَلَةُ) مَرْسُومٌ إِلَهِيٌّ جَعَلَهُ اللهُ مُقَدِّمَةً لِكَلَامِهِ لِيُوَضِّحَ أَنَّ الرَّحْمَةَ أَسَاسُ الصِّفَاتِ الْإِلَهِيَّةِ فِي التَّصَوُّرِ الْإِسْلَامِيِّ، وَيُبَصِّرُنَا بِهَذَا تَكَرُّرُ الْمَعْنَى الَّذِي يَدُورُ عَلَيْهِ هَذَانِ الِاسْمَانِ الْمُبَارَكَانِ ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، وَوُجُودُهُمَا فِي آيَةٍ وَاحِدَةٍ فِي سُورَةٍ قَصِيرَةٍ مَعَ أَنَّ الَّذِي يَتَبَادَرُ إِلَى الذِّهْنِ أَنَّ تَنْوِيعَ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ أَوْلَى فِي التَّعْرِيفِ بِاللهِ ﷻ

تَأَمَّلْ فِي الْبَسْمَلَةِ لِتَجِدَهَا تَتَكَرَّرُ فِي حَيَاةِ الْمُسْلِمِينَ تَكَرُّرًا فَرِيدًا، أَلَا تَرَى أَنَّ الْبَسْمَلَةَ تُشْبِهُ الْإِعْلَانَ الْمُتَكَرِّرَ عَلَى أَلْسِنَةِ الْمُسْلِمِينَ فِي حَيَاتِهِمْ؟

إِنَّ الْبَسْمَلَةَ تُمَثِّلُ رِسَالَةً كَوْنِيَّةً لِلْعَالَمِينَ يَتَّضِحُ مِنْ خِلَالِهَا أَنَّ جَمِيعَ أَفْعَالِ اللهِ ﷻ تَرْجِعُ إِلَى الرَّحْمَةِ؛ إِذْ تَكَرَّرَتِ الْبَسْمَلَةُ فِي مُقَدِّمَةِ كُلِّ سُورَةٍ مِنَ السُّوَرِ الْمِائَةِ وَالْأَرْبَعَ عَشْرَةَ، مَا عَدَا سُورَةَ التَّوْبَةِ، وَتَعَالَ نَتَأَمَّلْ ذَلِكَ فِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ:

إِذَا نَطَقَ الْعَبْدُ كَلِمَةَ ﴿بِسْمِ﴾ رُبَّمَا تَسَاءَلَ الْقَارِئُ وَالسَّامِعُ: بِاسْمِ مَنْ؟ فَيَأْتِي عِنْدَ ذَلِكَ التَّعْرِيفُ بِهِ سُبْحَانَهُ. إِنَّهُ ﴿اللهِ﴾ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ، وَهَذَا هُوَ اسْمُهُ الْمُبَارَكُ الْعَلَمُ -تَعَالَى ذِكْرُهُ- فَلَمَّا عَرَّفَنَا نَفْسَهُ بِهَذَا الِاسْمِ الْمُبَارَكِ، وَرَدَ سُؤَالٌ مَنْطِقِيٌّ: مَا صِفَاتُ اللهِ ﷻ؟

هُنَا تَأْتِي الْإِجَابَةُ فِي الْآيَةِ نَفْسِهَا بِالتَّعْرِيفِ بِأَسَاسِ صِفَاتِهِ -تَعَالَى عِزُّهُ- وَهِيَ صِفَةُ الرَّحْمَةِ الشَّامِلَةِ لِمَقَاصِدِ الْأُمُورِ وَوَسَائِلِهَا، وَمَبَادِئِهَا وَنِهَايَاتِهَا، وَأَوَائِلِهَا وَأَوَاخِرِهَا، وَأَحْكَامِهَا

وَنُظُمِهَا، وَهَذَا مَا ظَهَرَ مِنْ آيَةِ الثَّنَاءِ الْأُولَى فِي الْفَاتِحَةِ الْمُبَارَكَةِ ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، وَكُلُّ الصِّفَاتِ الْإِلَهِيَّةِ الْعُلْيَا الْأُخْرَى تَرْجِعُ إِلَى الصِّفَاتِ الْأَرْبَعِ الْمَذْكُورَةِ فِي الْفَاتِحَةِ، وَهِيَ (الرَّحْمَةُ وَالرُّبُوبِيَّةُ وَالْمُلْكُ وَالْمَالِكِيَّةُ).

إِنَّ أَعْظَمَ صِفَاتِ اللهِ وَأَسَاسَهَا هِيَ صِفَةُ الرَّحْمَةِ الْمُتَكَرِّرَةُ فِي بِدَايَاتِ سُوَرِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ، وَمِمَّا يُبَيِّنُ جَمَالَ التَّصَوُّرِ الْإِسْلَامِيِّ لِلرَّحْمَةِ أَنَّهَا قَرِينَةُ التَّوْحِيدِ، وَأَسَاسُ الْخَلْقِ الْكَوْنِيِّ، وَهَدَفُ وُجُودِهِ.

فَالتَّوْحِيدُ يَقْتَرِنُ بِالرَّحْمَةِ لَا بِالِانْتِقَامِ وَالْغَضَبِ، وَيَتَكَرَّرُ هَذَا الْمَعْنَى فِي مَثَانِي الْكِتَابِ الْمُبَارَكِ، فَيَقُولُ اللهُ -تَعَالَى مَجْدُهُ-: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة:١٦٣]، وَمِنَ الْجَمِيلِ الْآسِرِ أَنْ تَرَى فِي الْبَسْمَلَةِ أَنَّ اللهَ -جَلَّ فِي عُلَاهُ- لَمْ يَذْكُرْ مِنْ أَسْمَائِهِ الْحُسْنَى فِي الْبَسْمَلَةِ إِلَّا اسْمَيْنِ يَدُلَّانِ عَلَى الرَّحْمَةِ هُمَا: ﴿**الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**﴾ وَلَمْ يَقُلْ: (**بِسْمِ اللهِ الْمَلِكِ**)، وَمَعَ أَنَّهُ قَدْ وَرَدَ أَنَّ اسْمَ اللهِ الْأَعْظَمَ يَتَضَمَّنُ ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾[1] إِلَّا أَنَّنَا فِي الْبَسْمَلَةِ لَا نَقُولُ (**بِسْمِ اللهِ الْحَيِّ الْقَيُّومِ**)، وَلَمْ يَقُلْ -جَلَّ فِي عُلَاهُ-: بِسْمِ اللهِ الْعَزِيزِ ذِي الِانْتِقَامِ، مَعَ أَنَّهُ وَصَفَ نَفْسَهُ بِالْقُوَّةِ وَالْإِهْلَاكِ لِلظَّالِمِينَ فَقَالَ ﷻ: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾ [الكهف:٥٩]، وقال ﷻ: ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾ [الشمس:١٤،١٥]، وَكَمَا تَرَى فَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ وَصْفِ قُوَّتِهِ وَإِهْلَاكِهِ لِمُفْسِدِي

---

(١) ففي الترمذي(٥/ ٥١٧) وقال: "حسن صحيح" عن أسماء بنت يزيد ﵂ أن النبي ﷺ قال: «اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة:١٦٣]، وفاتحة آل عمران: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾».

الْعَالَمِ إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَخْتَرْ مِنْ أَسْمَائِهِ فِي الْفَاتِحَةِ إِلَّا ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ أَلَا يَدْعُو هَذَا إِلَى التَّفْكِيرِ؟

لَا نَجِدُ حِكْمَةً وَاضِحَةً فِي ذَلِكَ إِلَّا الْإِخْبَارَ أَنَّ الرَّحْمَةَ هِيَ الْأَصْلُ فِي الْفِعْلِ الْإِلَهِيِّ وَقَدْ ذَكَرَ اللهُ ﷻ ذَلِكَ صَرَاحَةً فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأَنعَام: ٥٤]، وَبَيَّنَ النَّبِيُّ ﷺ هَذَا الْمَعْنَى فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ اللهَ لَمَّا قَضَى الْخَلْقَ، كَتَبَ عِنْدَهُ فَوْقَ عَرْشِهِ: إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي**»(١)، وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى: «**لَمَّا خَلَقَ اللهُ الْخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابِهِ، فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي**»(٢).

إِذًا فَهِيَ الرَّحْمَةُ قَرِينَةُ فِعْلِ اللهِ لَا الْغَضَبُ، وَلَا الِانْتِقَامُ، وَلَا الثَّأْرُ وَلَا التَّدْمِيرُ، فَصِفَاتُهُ سُبْحَانَهُ الَّتِي فِيهَا ذِكْرُ الْغَضَبِ، أَوِ الِانْتِقَامِ، أَوِ الْإِهْلَاكِ كُلُّهَا تَرْجِعُ إِلَى الرَّحْمَةِ، فَإِذَا مَا ذُكِرَ الْغَضَبُ، أَوِ الْإِهْلَاكُ فَلِأَنَّ الرَّحْمَةَ الْعَامَّةَ بِالْكَوْنِ تَقْتَضِي ذَلِكَ، أَوْ يَقْتَضِيهِ الْقِيَامُ بِالْقِسْطِ.

هُنَا يَنْقُلُنَا هَذَا الْبَيَانُ الْمَانِعُ إِلَى أَنْ نَسْأَلَ: إِذَنْ هَذَانِ الِاسْمَانِ الْمُعَظَّمَانِ فِي الْبَسْمَلَةِ ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ يَدُورَانِ حَوْلَ مَعْنًى وَاحِدٍ حَتَّى لَوِ اخْتَلَفَتْ صِيغَتُهُمَا، وَهَذَا الْمَعْنَى هُوَ صِفَةُ الرَّحْمَةِ، وَهَذَا يَدْفَعُنَا دَفْعًا إِلَى أَنْ نَضَعَ هَذَا السُّؤَالَ: مَا الْمَعْنَى مِنْ وَرَاءِ تَكْرِيرِ اسْمَيْنِ يَدُورَانِ حَوْلَ مَعْنًى وَاحِدٍ فِي سُورَةٍ قَصِيرَةٍ قَلِيلَةِ الْكَلِمَاتِ تَكَوَّنَتْ مِنْ ٢٩ كَلِمَةً فَحَسْبُ؟

الْجَوَابُ: الَّذِي يَظْهَرُ لِي أَنَّ التَّرْكِيزَ عَلَى هَذَيْنِ الِاسْمَيْنِ الْعَظِيمَيْنِ فِي سُورَةِ الْفَاتِحَةِ الَّتِي تَكَوَّنَتْ مِنْ (٢٩) كَلِمَةً فَحَسْبُ؛ لِأَنَّهُمَا يَدُلَّانِ عَلَى أَسَاسِ صِفَاتِهِ الَّتِي تَرْجِعُ إِلَيْهَا بَقِيَّةُ الْأَسْمَاءِ، وَهِيَ صِفَةُ الرَّحْمَةِ، بَلْ إِنَّ اللهَ -جَلَّ فِي عُلَاهُ- خَلَقَ الْكَوْنَ لِإِظْهَارِ رَحْمَتِهِ، فَلَمْ

---

(١) البخاري (٦٩٨٦)

(٢) مسلم (٢٧٥١)

يَخْلُقْهُ لِلْعَبَثِ، وَلَا لِلَّعِبِ، وَلَا لِلْإِيلَامِ. فَالرَّحْمَةُ أَصْلُ صِفَاتِهِ كَمَا هِيَ أَصْلُ أَفْعَالِهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى ذِكْرُهُ: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود:١١٩].

وَاسْمَعْ إِلَى النَّصِّ الْقَاطِعِ الَّذِي يُقَرِّرُ ذَلِكَ، وَلَنْ تَجِدَ نَصًّا أَقْوَى مِنْهُ أَوْ يَقْدِرُ عَلَى مُضَاهَاتِهِ أَوْ مُنَافَسَتِهِ، حَيْثُ يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام:١٢]، وَهَذَا نَصٌّ عَظِيمٌ مَجِيدٌ مُدْهِشٌ عِنْدَ التَّأَمُّلِ فِيهِ، وَالتَّدَبُّرِ لِمَعْنَاهُ.

كَمَا تَجَلَّى جَمَالُ رَحْمَةِ اللهِ فِي الشَّرِيعَةِ، فَقَدْ تَجَلَّى فِي بَدِيعِ خَلْقِ الطَّبِيعَةِ:

وَإِذَا كَانَتِ الشَّرِيعَةُ رَحْمَةً كُلُّهَا، فَخُذْ أُنْمُوذَجًا تَذْكِيرِيًّا مِنْ رَحْمَتِهِ بِالْعَالَمِينَ فِي الْمَخْلُوقَاتِ مِنْ حَوْلِنَا، يَقُولُ عُلَمَاءُ الطَّبِيعَةِ بَعْدَ طُولِ بَحْثٍ وَتَأَمُّلٍ وَدِرَاسَةٍ: إِنَّ الشَّمْسَ الَّتِي هِيَ مَصْدَرُ كُلِّ حَيَاةٍ، تَبْلُغُ دَرَجَةُ حَرَارَةِ سَطْحِهَا حَوَالَيْ ٥٨٠٠ كِلْفِنْ (٩٩٨٠ دَرَجَةً فِهْرِنْهَايْتْ [٥٥٢٠ دَرَجَةً مِئَوِيَّةً][(١)]، وَكُرَتُنَا الْأَرْضِيَّةُ بَعِيدَةٌ عَنْهَا إِلَى حَدٍّ يَكْفِي لِأَنْ تَمُدَّنَا هَذِهِ النَّارُ الْهَائِلَةُ بِالدِّفْءِ الْكَافِي الَّذِي نَحْتَاجُهُ، وَتِلْكَ الْمَسَافَةُ ثَابِتَةٌ بِشَكْلٍ عَجِيبٍ، وَكَانَ تَغَيُّرُهَا خِلَالَ مَلَايِينِ السِّنِينَ مِنَ الْقِلَّةِ، بِحَيْثُ أَمْكَنَ اسْتِمْرَارُ الْحَيَاةِ كَمَا عَرَفْنَاهَا.

وَلَوْ أَنَّ دَرَجَةَ الْحَرَارَةِ عَلَى الْكُرَةِ الْأَرْضِيَّةِ قَدْ زَادَتْ بِمُعَدَّلِ خَمْسِينَ دَرَجَةً فِي سَنَةٍ وَاحِدَةٍ، فَإِنَّ كُلَّ نَبْتٍ يَمُوتُ، وَيَمُوتُ مَعَهُ الْإِنْسَانُ حَرْقًا أَوْ تَجَمُّدًا، وَالْكُرَةُ الْأَرْضِيَّةُ تَدُورُ حَوْلَ الشَّمْسِ بِمُعَدَّلِ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ مِيلًا فِي الثَّانِيَةِ، وَلَوْ أَنَّ مُعَدَّلَ دَوَرَانِهَا كَانَ مَثَلًا سِتَّةَ أَمْيَالٍ أَوْ أَرْبَعِينَ مِيلًا فِي الثَّانِيَةِ، فَإِنَّ بُعْدَنَا عَنِ الشَّمْسِ أَوْ قُرْبَنَا مِنْهَا يَكُونُ بِحَيْثُ يَمْتَنِعُ مَعَهُ نَوْعُ حَيَاتِنَا، وَالنُّجُومُ تَخْتَلِفُ فِي طِرَازِ إِشْعَاعِهَا، وَكَثِيرٌ مِنْ أَشِعَّتِهَا يُمِيتُ كُلَّ نَوْعٍ مَعْرُوفٍ مِنْ

---

(١) ينظر: https://www.astronomy.com/science/how-is-the-temperature-of-the-suns-surface-measured-through-its-much-hotter-atmosphere-the-corona/

أَنْوَاعِ الْحَيَاةِ، وَتَتَرَاوَحُ كَثَافَةُ هَذَا الْإِشْعَاعِ وَحَجْمُهُ بَيْنَ مَا هُوَ أَقَلُّ مِنْ إِشْعَاعِ شَمْسِنَا وَمَا هُوَ أَكْثَرُ مِنْهُ عَشَرَةَ آلَافِ مَرَّةٍ، وَلَوْ أَنَّ شَمْسَنَا أَعْطَتْ نِصْفَ إِشْعَاعِهَا الْحَالِيِّ فَقَطْ، لَكُنَّا تَجَمَّدْنَا، وَلَوْ أَنَّهَا زَادَتْهَا بِمِقْدَارِ النِّصْفِ، لَأَصْبَحْنَا رَمَادًا مُنْذُ زَمَنٍ بَعِيدٍ. وَمِنْ ذَلِكَ نَجِدُ أَنَّ شَمْسَنَا هِيَ الصَّالِحَةُ لِحَيَاتِنَا مِنْ بَيْنِ مَلَايِينِ الشُّمُوسِ غَيْرِ الصَّالِحَةِ لِهَذِهِ الْحَيَاةِ [1].

انْظُرْ لِهَذِهِ الرَّحْمَةِ الْغَامِرَةِ فِي جُزْئِيَّةٍ حَيَاتِيَّةٍ مَحْدُودَةٍ، فَكَيْفَ بِكَ لَوْ تَحَدَّثْتَ عَنِ الرَّحْمَةِ فِي الْعَوَالِمِ الْمُدْهِشَةِ فِي الْعَيْنِ وَالْوَجْهِ وَالْجِهَازِ الْهَضْمِيِّ، وَالْجِهَازِ التَّنَفُّسِيِّ، وَعَالَمِ الْقَلْبِ، وَعَالَمِ السَّمْعِ، وَالْحِسِّ؛ لَرَأَيْتَ عِنْدَهَا أَنَّ الرَّحْمَةَ تُحِيطُ بِكَ فِي صُوَرٍ لَا يُمْكِنُكَ حَصْرُهَا وَلَا إِحْصَاؤُهَا، بَلْ سَتَتَجَمَّدُ فِي مَكَانِكَ لَا تَسْتَطِيعُ نُطْقًا مِنْ دَهْشَتِكَ، وَسَتَتَذَكَّرُ بِذَلِكَ الْمَثَلَ الَّذِي ضَرَبَهُ النَّبِيُّ ﷺ لِأُمَّتِهِ لِيُقَرِّبَ لَهُمْ صُورَةَ عَظِيمِ رَحْمَةِ اللهِ بِهِمْ فِي حَدِيثِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه حِينَ رَأَى امْرَأَةً أَضَاعَتْ وَلَدَهَا، فَلَمَّا وَجَدَتْ صَبِيًّا أَخَذَتْهُ، فَأَلْصَقَتْهُ بِبَطْنِهَا، وَأَرْضَعَتْهُ، فَقَالَ لَنَا النَّبِيُّ ﷺ: «**أَتَرَوْنَ هَذِهِ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ؟**» قُلْنَا: لَا، وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى أَنْ لَا تَطْرَحَهُ. فَقَالَ: «**اللهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا**» [2].

اللهَ اللهَ! مَا أَعْظَمَ هَذَا الْمَعْنَى: أَفَرَأَيْتَ رَحْمَةَ الْأُمِّ بِرَضِيعِهَا؟ أَيُوَازِيهَا عِنْدَكَ رَحْمَةٌ لِأَيِّ كَانَ؟ إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ أَعْظَمُ مِنْ هَذِهِ الرَّحْمَةِ الَّتِي تُشَكِّلُ جُزْءًا مِنَ الْكِيَانِ الْأُمُومِيِّ.

وَلَنَا فِي قَوْلِ أَهْلِ التَّوْحِيدِ الَّذِينَ اسْتَشْعَرُوا أَنَّ اللهَ ﷻ يُخَاطِبُ عَبْدَهُ الْهَارِبَ:

تَفَرَّدَ عِزُّ وَجْهِي بِالْبَقَاءِ ... فَمَا أَعْدَدْتَ لِي يَوْمَ اللِّقَاءِ
عُبَيْدِي إِنَّنِي مَوْلَى الْمَوَالِي ... أَمَا آنَ اللُّجُوءُ إِلَى حِمَائِي

---

(١) العلم يدعو للإيمان (ص: ٢٢).

(٢) البخاري(٨/ ٩).

إِلَى كَمْ أَنْتَ تُعْرِضُ عَنْ جَنَابِي ... وَلَيْسَ لَدَيْكَ مِنْ مَوْلًى سِوَائِي
أَنَا لِلْعَبْدِ أَرْحَمُ مِنْ أَخِيهِ ... وَمِنْ أَبَوَيْهِ أَجْزَلُ بِالْعَطَاءِ
فَمَنْ أَنْشَاكَ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ... وَأَنْتَ بِظُلْمَةِ الْأَحْشَاءِ نَائِي
وَمَنْ سَوَّاكَ فِي شَكْلٍ بَدِيعٍ ... عَلَى كُلِّ الْخَلَائِقِ بِاسْتِوَاءِ
أَتَذْكُرُ نُطْفَةً أُنْشِئْتَ مِنْهَا ... بِأَطْوَارِ الْقَذَارَةِ وَالْقَذَاءِ؟
وَقُلْتُ لَهَا عَلَى التَّخْصِيصِ كُونِي ... فَكَانَتْ طَوْعَ أَمْرِي بِالنِّدَاءِ
أَتَذْكُرُ حِينَ كُنْتَ بِبَطْنِ أُمٍّ؟ ... أَمَا غَذَّاكَ رِزْقِي فِي الْحَشَاءِ؟
وَهَلْ أَحْسَسْتَ مِنْ حَرَجٍ وَضِيقٍ ... كَمَا أَحْسَسْتَ فِي وِسْعِ الْفَضَاءِ؟
وَمَنْ أَبْدَى لِجِسْمِكَ مِنْ مَضِيقٍ ... وَمَنْ بِالْأُمِّ يَلْطُفُ فِي الْقَضَاءِ؟
وَمَنْ أَجْرَى اللِّبَانَ بِهَا غِذَاءً؟ ... وَمَنْ أَوْلَاكَ أَنْوَاعَ الْغِذَاءِ؟[1]

هَلْ أَحْسَسْتَ عَظَمَةَ التَّصَوُّرِ الْإِسْلَامِيِّ لِلرَّحْمَةِ الْإِلَهِيَّةِ؟

هُنَا تَعْلَمُ أَصَالَةَ الرَّحْمَةِ فِي صِفَاتِ اللهِ تَعَالَى وَأَفْعَالِهِ، انْظُرْ حَوَالَيْكَ لِتَرَى رَحْمَةَ اللهِ الْمَبْثُوثَةَ سَوَاءً أَكَانَ ذَلِكَ فِي خَلْقِ اللهِ تَعَالَى لِلطَّبِيعَةِ، أَمْ فِيمَا وَضَعَهُ مِنْ تَكَالِيفِ الشَّرِيعَةِ، فَفِي التَّعَرُّفِ إِلَى صِفَاتِ اللهِ نَجِدُ أَنَّ صِفَاتِهِ تَرْجِعُ إِلَى (الرَّحْمَةِ، وَالرُّبُوبِيَّةِ، وَالْمُلْكِ، وَالْمَالِكِيَّةِ)، وَكُلُّهَا وَرَدَتْ فِي (الْفَاتِحَةِ) الْمُبَارَكَةِ، إِلَّا أَنَّ الَّذِي تَكَرَّرَ هُوَ الرَّحْمَةُ، وَهَاهُوَ النَّبِيُّ ﷺ يُجَلِّي الْمَسْأَلَةَ، فَيَذْكُرُ أَنَّ رَحْمَةَ اللهِ سَبَقَتْ غَضَبَهُ وَغَلَبَتْهُ، فَالرَّحْمَةُ قَبْلَ الْغَضَبِ فِي الْوُجُودِ، وَإِذَا غَضِبَ اللهُ ﷻ أَمْرٍ يَسْتَدْعِي الْغَضَبَ فَإِنَّ صِفَةَ الرَّحْمَةِ تَغْلِبُ صِفَةَ الْغَضَبِ بَعْدَ الْوُجُودِ.

﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ [المدثر :٤٩]؟! مَا لَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ يَهْرُبُونَ، وَإِيَّاهُ يُحَارِبُونَ؟!

(١) الْأَبْيَاتُ لِلشَّيْخِ عَبْدِ اللَّطِيفِ مُشْتُهْرِي ﷺ، عَالِمٌ مِصْرِيٌّ مَعْرُوفٌ،، تُوُفِّيَ ١٩٩٥م.

جِسْرُ اتِّصَالٍ: عَرَفْنَا الْبَصِيرَةَ الثَّانِيَةَ مِنْ بَصَائِرِ (الْبَسْمَلَةِ)، وَهِيَ:

الْبَسْمَلَةُ مَرْسُومٌ إِلَهِيٌّ جَعَلَهُ اللهُ مُقَدِّمَةً لِكَلَامِهِ يُوَضِّحُ أَنَّ الرَّحْمَةَ أَسَاسُ الصِّفَاتِ الْإِلَهِيَّةِ فِي التَّصَوُّرِ الْإِسْلَامِيِّ، وَلِيُبَصِّرَنَا بِهَذَا تَكَرَّرَ الْمَعْنَى الَّذِي يَدُورُ عَلَيْهِ هَذَانِ الِاسْمَانِ الْمُبَارَكَانِ (الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ)، وَوُجُودُهُمَا فِي آيَةٍ وَاحِدَةٍ فِي سُورَةٍ قَصِيرَةٍ، فَمَا الْبَصِيرَةُ الثَّالِثَةُ الَّتِي تَمُدُّنَا بِهَا الْبَسْمَلَةُ؟

الْجَوَابُ: هُنَا تَأْتِي:

الْبَصِيرَةُ الثَّالِثَةُ

الْبَسْمَلَةُ مُقَرِّرَةٌ لِحَقِيقَةِ التَّوْحِيدِ الَّتِي هِيَ أَعْظَمُ الْحَقَائِقِ الْكَوْنِيَّةِ، وَيُبَصِّرُنَا بِذَلِكَ الْمَعَانِي الَّتِي يَكْتَنِزُهَا حَرْفُ الْبَاءِ فِي قَوْلِهِ: ﴿بِسْمِ﴾

بَعْدَ أَنْ اسْتَبَانَ لَكَ أَنَّ الْبَسْمَلَةَ تُعَرِّفُنَا إِلَى اسْمِ إِلَهِ الْكَوْنِ ﴿ٱللَّهِ﴾، وَدَلِيلِ إِلَهِيَّتِهِ الْكَامِنِ فِي اسْمِهِ، سَنَرْتَقِي مُرْتَقًى أَعْلَى لِنَجِدَ أَنَّهَا أَيْضًا تُقَدِّمُ لِحَقِيقَةِ أَحَدِيَّتِهِ وَمُقَرِّرَةٌ لَهَا، فَإِنْ قُلْتَ: فَأَيْنَ ذَلِكَ؟ فَاقْرَأْ مَعِي ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾، فَكِلْتَا الْآيَتَيْنِ تُشِيرَانِ إِلَى التَّوْحِيدِ تَعْرِيفًا وَبَيَانًا، حَيْثُ بَدَأَ بِاسْمِ اللهِ، وَبَيَّنَ رُبُوبِيَّتَهُ لِلْكَوْنِ، وَلَكِنَّ التَّصْرِيحَ التَّامَّ بِالْوَحْدَانِيَّةِ فِي الْأُلُوهِيَّةِ تَجِدُهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾، فَكَانَتِ الْبَسْمَلَةُ تَقْدِمَةً بَيْنَ يَدَيْ ذَلِكَ.

لَقَدِ اجْتَثَّتْ هَذِهِ الْآيَاتُ جُذُورَ الشِّرْكِ وَالْوَثَنِيَّةِ الَّتِي تَجْتَاحُ الْأُمَمَ قَدِيمًا وَحَدِيثًا، حَيْثُ بَدَأَ تَعَالَى بِاسْمِهِ الْمُبَارَكِ الْعَظِيمِ؛ لِيُعَلِّمَ الْعَالَمَ أَنَّهُ صَاحِبُ السُّلْطَانِ الْأَعْلَى، وَيَرُدَّ بِذَلِكَ عَلَى مَنْ يَتَّخِذُونَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللهِ، وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّ لَهُمُ الْقُوَّةَ وَالتَّصَرُّفَ الْمُطْلَقَ، وَيَخْضَعُونَ لَهُمْ ظَنًّا مِنْهُمْ أَنَّ لَهُمْ شَيْئًا مِنَ السُّلْطَةِ الْغَيْبِيَّةِ الْمُهَيْمِنَةِ عَلَى أَحْدَاثِ الْكَوْنِ، وَيُفَصِّلُ اللهُ ﷻ ذَلِكَ

بِصُورَةٍ عَجِيبَةٍ فَيَقُولُ: ﴿ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۖ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ ﴾ [سبأ: ٢٢].

إِنَّ الْبَسْمَلَةَ تَشْفِي الْقُلُوبَ الْمَرِيضَةَ، وَالْعُقُولَ السَّقِيمَةَ الَّتِي تَظُنُّ أَنَّ لِأَحَدٍ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ تَأْثِيرًا وَتَغْيِيرًا فِي الْأَحْدَاثِ الْكَوْنِيَّةِ، فَيَدْعُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ ﷻ، وَيُسْتَعَانُ بِهِمْ فِي قَضَاءِ الْحَوَائِجِ، وَدَفْعِ الْجَوَائِحِ.

هَا هِيَ (الْفَاتِحَةُ) ابْتِدَاءً مِنَ الْبَسْمَلَةِ تُبَيِّنُ بُطْلَانَ ذَلِكَ، إِذْ تَتَوَجَّهُ إِلَيْهِ -وَحْدَهُ لَا سِوَاهُ- نُفُوسُ ذَوِي الْحَاجَاتِ طَالِبَةً الْحِمَايَةَ وَالْهِدَايَةَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ.



كَمَالُ الْأَدَبِ وَالطَّلَبِ: فَائِدَةُ الْجَمْعِ بَيْنَ الْبَاءِ وَالِاسْمِ فِي ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾:

تَعَالَ نَبْحَرْ فِي الْبَسْمَلَةِ لِنَجِدَهَا تَغْرِسُ جُمْلَةً مِنَ الْمَعَانِي التَّوْحِيدِيَّةِ عِنْدَ النَّظَرِ فِي فَائِدَةِ الْبَاءِ وَكَلِمَةِ اسْمٍ فِي قَوْلِكَ: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾:

الْمَعْنَى الْأَوَّلُ: الْإِذْنُ فِي الْقِرَاءَةِ:

فَمَعْنَى ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ أَيْ: أَقْرَأُ آيَاتِهِ بِعِلْمِهِ، وَإِذْنِهِ، وَتَفْوِيضِهِ، فَمَنْ أَنْتَ أَيُّهَا الْمَخْلُوقُ لِتَتْلُوَ كَلَامَ الْمَلِكِ الْعَظِيمِ لَوْلَا أَنَّهُ أَذِنَ لَكَ بِذَلِكَ، كَقَوْلِهِمْ: أُكَلِّمُكَ بِاسْمِ الْمَلِكِ، أَيْ: بِعِلْمِهِ وَإِذْنِهِ وَتَفْوِيضِهِ، فَبِاسْمِهِ تَعَالَى نَبْدَأُ تِلَاوَةَ كَلَامِهِ -جَلَّ فِي عُلَاهُ- لَا بِاسْمِ غَيْرِهِ، فَمَعْنَى أَبْتَدِئُ عَمَلِي ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ أَيْ: أَعْمَلُهُ بِإِذْنِهِ، وَلَا أَعْمَلُهُ بِاسْمِي مُسْتَقِلًّا بِهِ عَلَى أَنَّنِي فُلَانٌ.

الْمَعْنَى الثَّانِي: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ تُفِيدُ أَنَّ مَا قِيلَتْ عَلَيْهِ حَلَالٌ بِحَسَبِهِ، كَالتَّسْمِيَةِ عَلَى النُّسُكِ تُحِلُّ أَكْلَهُ ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام:١١٨]، ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام:١١٩]، فالبسملة تفيد الحِلِّية والإباحة.

الْمَعْنَى الثَّالِثُ: خَلْقُ الْكَوْنِ وَجَمِيعُ عَوَالِمِهِ الْعُلْوِيَّةِ وَالسُّفْلِيَّةِ بَدَأَ بِـ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ :

> فَحِينَ تَبْدَأُ مِنْ كَلِمَةِ ﴿بِسْمِ﴾ تَرَى فِيهَا قِصَّةَ الْبِدَايَةِ لِلْأَفْعَالِ وَالتَّحَرُّكَاتِ، بَلِ انْطِلَاقَ الْحَيَاةِ الْكَوْنِيَّةِ لِلْمَخْلُوقَاتِ، فَتَفْهَمُ مِنْهَا أَنَّ الْحَيَاةَ وُجِدَتْ ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾، وَانْطِلَاقُ بِنَاءِ الْكَوْنِ الْمَنْظُورِ كَقِرَاءَةِ الْكِتَابِ الْمَسْطُورِ بِاسْمِهِ -تَعَالَى عِزُّهُ-، فَكَيْفَ يَكُونُ هُوَ الْمُوجِدَ لِلْحَيَاةِ وَيَعْبُدُ بَعْضُ الْأَحْيَاءِ غَيْرَهُ؟!

الْمَعْنَى الرَّابِعُ: اسْتِمْدَادُ الْقُوَّةِ وَالْبَرَكَةِ وَالرِّعَايَةِ وَالْحِمَايَةِ ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾:

بَعْدَ مَقَامِ بِدَايَةِ الْحَيَاةِ يَأْتِي مَقَامُ الِاسْتِعَانَةِ بِهِ، وَنَفْهَمُهُ مِنَ الْبَاءِ فِي كَلِمَةِ ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ حَيْثُ تَدُلُّ أَيْضًا عَلَى الِاسْتِعَانَةِ بِاسْمِ الْمَلِكِ الْقَدِيرِ بِأَمْرِهِ، وَعِلْمِهِ، وَتَفْوِيضِهِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مِنَ

الْقِرَاءَةِ إِلَى الْحَرَكَةِ وَسَائِرِ شُؤُونِ الْحَيَاةِ، وَمِنْ ذَلِكَ الِاسْتِعَانَةُ عَلَى مَعْرِفَةِ هَذَا الْكَوْنِ الْغَامِضِ مِنْ حَوْلِنَا.

يَا مَالِكًا هُوَ بِالنَّوَاصِي آخِذُ ... وَقَضَاؤُهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ نَافِذُ
أَنَا عَائِذٌ بِكَ يَا كَرِيمُ وَلَمْ يَخِبْ ... عَبْدٌ بِعِزِّكَ مُسْتَجِيرٌ عَائِذُ
أَرْجُوكَ يَا سُؤْلِي فَتَحْيَا مُهْجَتِي ... وَالْخَوْفُ مِنْ عَمَلِي لِكَبِدِي فَالِذُ
إِنْ لَاذَ غَيْرِي بِالْأَنَامِ وَظُلْمِهِمْ ... فَأَنَا الَّذِي بِظَلِيلِ ظِلِّكَ لَائِذُ [1]

فَمَنْ مَنَحَكَ الْقُدْرَةَ الَّتِي بَسْمَلْتَ بِهَا، وَقَرَأْتَ بِهَا، وَمَنَعَهَا غَيْرَكَ؟ إِنَّهُ اللهُ تَعَالَى، فَلَوْلَا أَنَّ اللهَ ﷻ مَنَحَكَ الْقُدْرَةَ عَلَى الطَّعَامِ أَوْ عَلَى الْكَلَامِ لَمَا اسْتَطَعْتَ شَيْئًا، وَقَدْ بَيَّنَ النَّبِيُّ ﷺ ذَلِكَ لِبَعْضِ أَصْحَابِهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ فَعَنْ أَبِي تَمِيمَةَ الْهُجَيْمِيِّ رضي الله عنه عَمَّنْ كَانَ رَدِيفَ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: كُنْتُ رَدِيفَهُ عَلَى حِمَارٍ فَعَثَرَ الْحِمَارُ فَقُلْتُ: تَعِسَ الشَّيْطَانُ، فَقَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ: «لَا تَقُلْ تَعِسَ الشَّيْطَانُ؛ فَإِنَّكَ إِذَا قُلْتَ: تَعِسَ الشَّيْطَانُ تَعَاظَمَ الشَّيْطَانُ فِي نَفْسِهِ، وَقَالَ: صَرَعْتُهُ بِقُوَّتِي، فَإِذَا قُلْتَ: بِسْمِ اللهِ تَصَاغَرَتْ إِلَيْهِ نَفْسُهُ حَتَّى يَكُونَ أَصْغَرَ مِنْ ذُبَابٍ»[2]، فَلَا تَنْشَغِلْ بِسَبِّ عَدُوِّكَ، وَإِنَّمَا انْشَغِلْ بِاسْتِمْدَادِ الْعَوْنِ مِنْ إِلَهِكَ.

عِنْدَ الْمُدْلَهِمَّاتِ لَا تَنْشَغِلْ بِسَبِّ عَدُوِّكَ، وَإِنَّمَا انْشَغِلْ بِاسْتِمْدَادِ الْعَوْنِ مِنْ إِلَهِكَ.

---

(١) التذكرة في الوعظ، ابن الجوزي (ص: ٢٦).

(٢) أحمد(٥/ ٥٩)، والحاكم(٤/ ٣٢٤)، وصححه الذهبي، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (١٠/ ١٨٦): "رواه أحمد بأسانيد ورجالها كلها رجال الصحيح".

إِذَنْ: بِسْمِ اللهِ ابْتَدَأْنَا بِهَا الْأَفْعَالَ، مِثْلَ فِعْلِ الْقِرَاءَةِ لِلْقُرْآنِ، لَكِنْ: مَنْ يَضْمَنُ لَنَا أَنْ نَسْتَمِرَّ عَلَى ذَلِكَ؟ إِنَّهُ عَوْنُ اللهِ، وَهُنَا نَفْهَمُ أَنَّ (بِسْمِ اللهِ) تَعْنِي أَيْضًا: بِعَوْنِهِ وَبِقُوَّتِهِ نَسْتَمِرُّ، فَبَعْدَ الْقُدْرَةِ الَّتِي أَنْشَأْتَ بِهَا الْفِعْلَ تَبْقَى رِعَايَةُ هَذَا الْفِعْلِ وَحِمَايَتُهُ لِيَسْتَمِرَّ إِلَى نِهَايَتِهِ وَيَسْتَكْمِلَ أَهْدَافَهُ، فَإِنْ بَدَأْتَ بِالْكَلَامِ أَوْ بِالطَّعَامِ، فَمَنْ ذَا يَكْفُلُ لَكَ الِاسْتِمْرَارَ؟ وَمَنْ ذَا -يَا أَخَاهُ- يَضْمَنُ لَكَ بَدَلًا مِنَ الْفَصَاحَةِ أَلَّا تَهْذِيَ فِي الْكَلَامِ؟ مَنْ ذَا يُعْطِيكَ الْعَهْدَ أَلَّا تَخْتَنِقَ بِالطَّعَامِ؟ إِنَّهُ اللهُ الْمَلِكُ الْعَلَّامُ ذِي الطَّوْلِ وَالْإِنْعَامِ، مَنْ يَغْمُرُ بِرَحْمَتِهِ الْأَنَامَ، وَلِذَا تُبْسْمِلُ طَلَبًا لِلرِّعَايَةِ وَالْحِمَايَةِ وَالْبَرَكَةِ وَالْعِنَايَةِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٖىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ [هود:٤١].

فَاطْلُبْ بـ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ الرِّعَايَةَ فِي الْيَقَظَةِ وَالْمَنَامِ، وَفِي الصَّمْتِ وَالْكَلَامِ، فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي دُعَاءِ النَّوْمِ: «بِاسْمِكَ رَبِّي وَضَعْتُ جَنْبِي، وَبِكَ أَرْفَعُهُ، إِنْ أَمْسَكْتَ نَفْسِي فَارْحَمْهَا، وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ»[(١)].

وَفَوْقَ ذَلِكَ تَظْهَرُ الْبَرَكَةُ مِنْ خِلَالِ هَذِهِ الْأَسْمَاءِ الثَّلَاثَةِ (الله، الرَّحْمَن، الرَّحِيم)، وَالْبَرَكَةُ هِيَ الْخَيْرُ الْكَثِيرُ، وَالْعَطَاءُ الْجَزِيلُ الْعَظِيمُ الْكَبِيرُ؛ لِارْتِبَاطِ تِلَاوَتِنَا بِاسْمِهِ -تَعَالَى مَجْدُهُ-.

الْمَعْنَى الْخَامِسُ: الْإِخْلَاصُ لَهُ فِي الْأَعْمَالِ وَالْأَقْوَالِ، وَتَوْحِيدُهُ بِالْقَصْدِ وَالنِّيَّةِ:

فَإِذَا كَانَتِ الْحَيَاةُ قَدِ انْطَلَقَتْ بِاسْمِهِ مُسْتَعِينَةً بِهِ وَجَبَ أَنْ يَكُونَ لَهُ الْإِخْلَاصُ فِي الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ، فَإِذَا قُلْتَ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ فَكَأَنَّكَ تَقُولُ: إِنَّ هَذَا الْعَمَلَ لِلَّهِ، وَبِاللهِ[(٢)]، وَإِنْ كَانَ نَفْعُهُ عَائِدًا لِي.

---

(١) البخاري (٨/ ٨٧) و مسلم (٨/ ٧٩) .

(٢) انظر: تفسير المنار(١/ ٣٦).

وَمِنْ خِلَالِ الْبَسْمَلَةِ يَكُونُ الرَّدُّ عَلَى الْمُشْرِكِينَ وَالْمُثَلِّثَةِ الَّذِينَ قَالُوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة:٧٣]، فَجَمَعَ اللهُ عزو جل فِي الْبَسْمَلَةِ بَيْنَ اسْمِهِ الْعَظِيمِ ﴿ٱللَّهِ﴾ وَبَيْنَ وَصْفِهِ ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ وَوَصْفِهِ ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ لِلرَّدِّ عَلَى الضَّالِّينَ مِنَ النَّصَارَى الَّذِينَ كَانُوا يَبْتَدِئُونَ أَدْعِيَتَهُمْ وَنَحْوَهَا بِاسْمِ الْأَبِ، وَالِابْنِ، وَالرُّوحِ الْقُدُسِ، إِشَارَةً إِلَى الْأَقَانِيمِ الثَّلَاثَةِ عِنْدَهُمْ، فَجَاءَتْ فَاتِحَةُ كِتَابِ الْإِسْلَامِ بِالرَّدِّ عَلَيْهِمْ تُنَبِّهُهُمْ بِأَنَّ الْإِلَهَ الْوَاحِدَ -وَإِنْ تَعَدَّدَتْ أَسْمَاؤُهُ- فَإِنَّمَا ذَلِكَ تَعَدُّدُ الْأَوْصَافِ دُونَ تَعَدُّدِ الْمُسَمَّيَاتِ(١).

الْبَسْمَلَةُ تَرُدُّ عَلَى الضَّالِّينَ مِنَ النَّصَارَى الْمُثَلِّثَةِ (إِشَارَةً إِلَى الْأَقَانِيمِ الثَّلَاثَةِ عِنْدَهُمْ) فَجَاءَتْ فَاتِحَةُ كِتَابِ الْإِسْلَامِ وَفَاتِحَتُهَا (الْبَسْمَلَةُ) بِالرَّدِّ عَلَيْهِمْ تُنَبِّهُهُمْ بِأَنَّ الْإِلَهَ الْوَاحِدَ -وَإِنْ تَعَدَّدَتْ أَسْمَاؤُهُ.

أَلَا تَرَى الْبَسْمَلَةَ قَدْ أَتْحَفَتْنَا دُرَرًا مِنْ رَائِعَاتِ الْمَعَانِي؟ وَشَيَّدَتْ لِلتَّوْحِيدِ فِي قُلُوبِنَا قُصُورَ الْمَبَانِي؟ وَأَنْبَتَتْ فِي نُفُوسِنَا مِنْ كُلِّ غُصْنٍ مِنَ الْيَقِينِ دَانِي؟ وَبِذَا تَظْهَرُ قُوَّةُ الْبَسْمَلَةِ وَعَظَمَتُهَا فِي اكْتِنَازِ الْمَعَانِي الْمُغَيِّرَةِ لِلْحَيَاةِ، وَالْمُؤَسِّسَةِ لِنَهْجِهَا السَّوِيِّ، وَبِنَائِهَا الْمَتِينِ الْقَوِيِّ.

❋❋❋

(١) التحرير والتنوير (١/ ١٥١).

جِسْرُ اتِّصَالٍ: عَرَفْنَا الْبَصِيرَةَ الثَّالِثَةَ مِنْ بَصَائِرِ الْبَسْمَلَةِ، وَهِيَ أَنَّهَا مُقَرِّرَةٌ لِحَقِيقَةِ التَّوْحِيدِ الَّتِي هِيَ أَعْظَمُ الْحَقَائِقِ الْكَوْنِيَّةِ، وَبَصَّرَنَا بِذَلِكَ الْمَعَانِي الَّتِي يَمُدُّنَا بِهَا حَرْفُ الْبَاءِ فِي قَوْلِهِ: ﴿بِسْمِ﴾، فَمَا الْبَصِيرَةُ الرَّابِعَةُ؟

الْجَوَابُ:

الْبَصِيرَةُ الرَّابِعَةُ

(الْبَسْمَلَةُ) أَسَاسٌ يُكَمِّلُ الِاسْتِعَاذَةَ، وَيُنْبِتُ غِرَاسَ الْحِمَايَةِ وَالرِّعَايَةِ فِي الْبِدَايَاتِ، وَيُثْمِرُ أَطَايِبَ الْبَرَكَةِ وَالنَّمَاءِ فِي النِّهَايَاتِ، وَيُبَصِّرُنَا بِذَلِكَ عَلَاقَتُهَا وَاقْتِرَانُهَا بِالِاسْتِعَاذَةِ

الْآنَ تَأَمَّلْ فِي هَاتَيْنِ الْجُمْلَتَيْنِ الْبَدِيعَتَيْنِ: الِاسْتِعَاذَةِ وَالْبَسْمَلَةِ لِتَكْتَشِفَ لَذَّةَ تَتَابُعِهِمَا، فَالْعَلَاقَةُ بَيْنَهُمَا تَكَامُلِيَّةٌ رَائِعَةٌ تُبَيِّنُ لَذَّةَ الْعُبُودِيَّةِ، وَجَمَالَ اللُّجُوءِ إِلَى اللهِ تَعَالَى، وَالْأُنْسَ فِي حِمَى الرُّبُوبِيَّةِ، فَجَعَلَ اللهُ الْبَسْمَلَةَ تَتْمِيمًا لِلِاسْتِعَاذَةِ نُرَدِّدُهَا فِي كُلِّ أَمْرٍ نَسْتَقْبِلُهُ.

فَإِنْ كَانَتِ الِاسْتِعَاذَةُ اعْتِذَارًا أَمَامَ اللهِ ﷻ بِأَنَّكَ ضَعِيفُ الْقُوَّةِ، لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَنْجُوَ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ إِلَّا إِذَا اسْتَعَذْتَ بِالرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، فَإِنَّ الْبَسْمَلَةَ مَدْحٌ لِطَلَبِ التَّوَدُّدِ إِلَى الرَّحْمَنِ؛ لِأَنَّهَا تَرْدِيدٌ لِلصِّفَاتِ الشَّرِيفَةِ الْعُلَى لِبَيَانِ صِدْقِ الْحُبِّ، وَطَلَبِ الْقُرْبِ، وَاسْتِعَانَةٌ بِهِ سُبْحَانَهُ لِيُمِدَّكَ بِالْقُوَّةِ وَالسِّلَاحِ الَّذِي تُوَاجِهُ بِهِ عَدُوَّ الْبَشَرِيَّةِ.

وَإِنْ كَانَتِ الِاسْتِعَاذَةُ تَدُلُّ عَلَى أَجْمَلِ الْفِرَارِ، وَعَلَى التَّخَلِّي عَنِ الشَّوَائِبِ وَالسَّيِّئَاتِ وَالْأَضْرَارِ وَالْأَوْضَارِ[1]، حَيْثُ تَرَى جُمْلَةَ (أَعُوذُ بِاللهِ) تُشِيرُ إِلَى نَفْيِ السَّيِّئِ مِنَ الْعَقَائِدِ

(١) الْأَوْضَارُ: الْأَوْسَاخُ كَوَسَخِ الدَّسَمِ.

وَالْأَعْمَالِ مِمَّا أَحْرَقَ بِهِ الشَّيْطَانُ الْبَشَرِيَّةَ، فَالْبَسْمَلَةُ اعْتِزَازٌ بِالْوَاحِدِ الْقَهَّارِ، وَهِيَ إِثْبَاتٌ لِلْعَقَائِدِ وَالْأَعْمَالِ الصَّحِيحَةِ السَّوِيَّةِ، فَالِاسْتِعَاذَةُ تَخْلِيَةٌ، وَالْبَسْمَلَةُ تَحْلِيَةٌ.

وَإِذَا كَانَتِ الِاسْتِعَاذَةُ تَتِمُّ بِهَا الْحِمَايَةُ وَالتَّحَصُّنُ وَالْأَمْنُ مِنَ الْأَعْدَاءِ، فَإِنَّ الْبَسْمَلَةَ تَتِمُّ بِهَا الرِّعَايَةُ وَالْعِنَايَةُ وَالنَّمَاءُ، وَالتَّمَتُّعُ بِالسَّرَّاءِ[1].

وَكَلِمَةُ (بَسْمَلَ) (نَحْتٌ) مِنْ قَوْلِهِمْ ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾، كَمَا قَالَ عُمَرُ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ:

لَقَدْ بَسْمَلَتْ لَيْلَى غَدَاةَ لَقِيتُهَا ... فَيَا حَبَّذَا ذَاكَ الْحَبِيبُ الْمُبَسْمِلُ[2]

كَمَا أُخِذَ الْفِعْلُ (حَوْقَلَ) مِنْ (لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ)، وَ(سَبْحَلَ) مِنْ: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ﴾.

وَالْبَسْمَلَةُ عَلَامَةٌ عَلَى بِدَايَاتِ السُّوَرِ، وَبِدَايَاتِ الْأَعْمَالِ، وَعَلَامَةٌ عَلَى اسْتِمْرَارِهَا:

فَقَدْ ذَكَرَ ذَلِكَ -تُرْجُمَانُ الْقُرْآنِ، وَحَبْرُ الزَّمَانِ- عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فَقَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ لَا يَعْرِفُ فَصْلَ السُّورَةِ حَتَّى تَنْزِلَ عَلَيْهِ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾[3]، وَكَوْنُهَا عَلَامَةً عَلَى بِدَايَاتِ السُّوَرِ إِلَّا سُورَةَ التَّوْبَةِ أَمْرٌ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ، وَمِنْ ذَلِكَ أَخَذَ بَعْضُ الْمُحَقِّقِينَ مَشْرُوعِيَّةَ الِاقْتِدَاءِ بِالْقُرْآنِ فِي افْتِتَاحِ مُعْظَمِ الْأَعْمَالِ بِالْبَسْمَلَةِ، فَالْقُرْآنُ إِمَامُنَا وَقُدْوَتُنَا، وَافْتِتَاحُهُ بِهَذِهِ

---

(١) تَأَمَّلْ لِتَرَى أَنَّ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ذِكْرٌ يَتَكَوَّنُ مِنْ أَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، وَتِسْعَةَ عَشَرَ حَرْفًا: وَهَذَا يَعْدِلُ مِائَةً وَتِسْعِينَ حَسَنَةً، كَمَا يُسَاوِي عَدَدَ زَبَانِيَةِ النَّارِ سَوَاءٌ أَكَانَ الْعَدَدُ عَدَدَ نُقَبَاءِ الْمَلَائِكَةِ أَمْ صُفُوفِهِمُ الْقَائِمَةِ عَلَى جَهَنَّمَ، فَعَسَى اللهُ -تَعَالَى ذِكْرُهُ- أَنْ يَقِيَ مِنْ بَأْسِهِمْ بِهَذِهِ الْحُرُوفِ التِّسْعَةَ عَشَرَ.

(٢) ديوان عمر بن أبي ربيعة (ص: ٣٠٦).

(٣) أبو داود(١/ ٢٦٩)، وصححه المناوي في التيسير في شرح الجامع الصغير.

الْكَلِمَةِ إِرْشَادٌ لَنَا بِأَنْ نَفْتَتِحَ أَعْمَالَنَا بِهَا[1]، وَهِيَ جُزْءٌ مِنْ آيَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فِي سُورَةِ النَّمْلِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [النمل:٣٠]، فَقَدْ بَدَأَ سُلَيْمَانُ عليه السلام حَدِيثَهُ بِهَا، أَفَلَا نَبْدَأُ أَفْعَالَنَا وَأَحَادِيثَنَا بِهَا؟.

وَهَذَا يَدْفَعُنَا لِلسُّؤَالِ الشَّهِيرِ: هَلِ الْبَسْمَلَةُ آيَةٌ مِنَ الْفَاتِحَةِ؟

الْجَوَابُ:

اخْتَلَفَ أَهْلُ الْعِلْمِ فِي كَوْنِهَا آيَةً مِنَ الْقُرْآنِ، وَفِي كَوْنِهَا آيَةً مِنْ كُلِّ سُورَةٍ عَلَى حِدَةٍ، عَلَى أَنَّنَا نَخْتَارُ أَنَّهَا مِنَ الْفَاتِحَةِ تَبَعًا لِلْمُصْحَفِ الْمَكِّيِّ وَالْمُصْحَفِ الْكُوفِيِّ، وَلِمَا جَاءَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّهُ ﷺ قَالَ: «إِذَا قَرَأْتُمْ فَاتِحَةَ الْكِتَابِ فَاقْرَؤُوا: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ فَإِنَّهَا أُمُّ الْقُرْآنِ وَالسَّبْعُ الْمَثَانِي، و﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ إِحْدَى آيَاتِهَا»[2].

وَقَدِ اتَّفَقَ أَهْلُ الْعِلْمِ عَلَى صِحَّةِ الصَّلَاةِ بِهَا، وَاخْتَلَفُوا فِي بُطْلَانِهَا بِتَرْكِهَا، وَلَا رَيْبَ أَنَّ الْأَوْلَى الِاحْتِيَاطُ لِصِحَّةِ الْعِبَادَةِ، فَتَوَجَّهَ بِذَلِكَ أَحَقِّيَّةُ قِرَاءَتِهَا فِي أَوَّلِ الْفَاتِحَةِ.

---

(١) تَفْسِيرُ الْمَنَارِ (١/ ٣٤)، وَقَدْ أَخَذَ النَّوَوِيُّ فِي شَرْحِهِ عَلَى مُسْلِمٍ (١٢/ ١٠٧) مِنْ تَصْدِيرِ كِتَابِ النَّبِيِّ إِلَى هِرَقْلَ بِالْبَسْمَلَةِ: "اسْتِحْبَابُ تَصْدِيرِ الْكِتَابِ بِبِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وَإِنْ كَانَ الْمَبْعُوثُ إِلَيْهِ كَافِرًا"، وَتَرَى أَنَّنِي احْتَرَزْتُ بِقَوْلِي (مُعْظَمَ الْأَعْمَالِ) إِشَارَةً إِلَى بَعْضِ الْأَعْمَالِ الَّتِي يُبْتَدَأُ فِيهَا بِغَيْرِ الْبَسْمَلَةِ مِثْلَ خُطْبَةِ الْجُمُعَةِ الَّتِي يَبْدَأُ فِيهَا بِالْحَمْدَلَةِ.

(٢) رَوَاهُ الدَّارَقُطْنِيُّ (٢/ ٨٦)، وَالْبَيْهَقِيُّ (٢/ ٤٣٦)، وَصَحَّحَهُ ابْنُ الْمُلَقِّنِ فِي (الْبَدْرِ الْمُنِيرِ) (١/ ١١٩)، وَذَكَرَ ابْنُ حَجَرٍ فِي (التَّلْخِيصِ الْحَبِيرِ) (١/ ٥٧٢) أَنَّهُ مَوْقُوفٌ فِي حُكْمِ الْمَرْفُوعِ، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي صَحِيحِ الْجَامِعِ بِرَقْمِ ٧٢٩، وَلَهُ كَلَامٌ طَوِيلٌ فِي تَخْرِيجِ الْحَدِيثِ وَالْحُكْمِ عَلَيْهِ فِي أَصْلِ صِفَةِ صَلَاةِ النَّبِيِّ ص٢٨٦، إِلَّا أَنَّ جَعْلَ حُكْمِ الرَّفْعِ شَامِلًا لِلْبَسْمَلَةِ مِمَّا جَعَلَهُ فَضِيلَةُ الشَّيْخِ الْمُحَقِّقِ الْمُتْقِنِ عَبْدِ اللهِ يُوسُفَ الْجُدَيْعِ فِيهِ نَظَرٌ مَعَ اطِّمْئِنَانِهِ إِلَى أَنَّ الْبَسْمَلَةَ مِنَ الْفَاتِحَةِ، وَقَدْ ذَكَرَ لِي ذَلِكَ فِي رَسَائِلِهِ الصَّوْتِيَّةِ الْقَيِّمَةِ الَّتِي ذَكَرَ فِيهَا مَلْحُوظَاتِهِ حَوْلَ هَذَا الْكِتَابِ قَبْلَ طَبْعِهِ.

وَيَحْضُرُنِي هُنَا نَظْمٌ جَامِعٌ تَلَقَّيْتُهُ مِنْ شَيْخِنَا أَحْمَدَ الْبَيْلِيِّ الْمَالِكِيِّ[1] رَحِمَهُ اللهُ نَظَمَهُ يُعَاتِبُ إِمَامًا مَالِكِيًّا تَعَجَّلَ فِي قِرَاءَتِهِ فِي صَلَاةِ الْمَغْرِبِ فَلَمْ يَأْتِ فِيهَا بِالْبَسْمَلَةِ سِرًّا وَلَا جَهْرًا، وَأَوَّلُهُ:

أَمَنْ قَامَ يَتْلُو فِي الصَّلَاةِ مُبَسْمِلًا ... يُعَاتَبُ! لَا يَا صَاحِ يُؤْجَرُ فِي قَوْلِي

وَلَكِنَّ بَعْضًا لَا يَرَى الْأَمْرَ هَكَذَا ... وَيَزْعُمُ أَنَّ التَّرْكَ خَيْرٌ مِنَ الْفِعْلِ

وَحَسْبِي مِنَ الْقُرْآنِ نَقْلٌ وَمَنْطِقٌ ... هُمَا حُجَّتِي فِي كُلِّ مُعْتَرَكٍ عَقْلِي

أَلَا إِنَّ بِسْمِ اللهِ بَعْضٌ لِآيَةٍ ... وَذَلِكَ نَصٌّ جَاءَ فِي سُورَةِ النَّمْلِ

فَمَا أَنْتَ مُسْطِيعٌ جُحُودَ نُزُولِهَا ... أَتَحْذِفُ فِي التَّنْزِيلِ نَصًّا؟ أَجِبْ سُؤْلِي

بِهَا صَدَّرَ الرَّحْمَنُ وَحْيًا كِتَابَهُ ... فَصُدِّرَ بِهَا أُمُّ الْكِتَابِ بِلَا عَذْلِ

وَنَقَلَ ابْنُ حَجَرٍ عَنِ الطِّيبِيِّ تَقْرِيرَهُ لِمَشْرُوعِيَّةِ الْبَسْمَلَةِ عِنْدَ كُلِّ قِرَاءَةٍ، فَقَالَ: «وَقَوْلُهُ: ﴿ٱقْرَأْ﴾ أَمْرٌ بِإِيجَادِ الْقِرَاءَةِ مُطْلَقًا، وَقَوْلُهُ: ﴿بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق:١] حَالٌ، أَيِ اقْرَأْ مُفْتَتِحًا بِاسْمِ رَبِّكَ، وَأَصَحُّ تَقَادِيرِهِ قُلْ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾، ثُمَّ اقْرَأْ، فَيُؤْخَذُ مِنْهُ أَنَّ الْبَسْمَلَةَ مَأْمُورٌ بِهَا فِي ابْتِدَاءِ كُلِّ قِرَاءَةٍ»[2].

الْبَسْمَلَةُ مَفْتَتَحٌ لِلْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ:

وَالْبَسْمَلَةُ -ذَلِكَ الذِّكْرُ الْعَذْبُ- تَصْحَبُ أَنْفَاسَكَ فِي الْقِرَاءَةِ حَتَّى لَوْ لَمْ تَقْرَأْ مِنْ أَوَّلِ السُّورَةِ، وَيُبَارِكُ اللهُ ﷻ خُطُوَاتِكَ وَحَرَكَاتِكَ أَيْنَمَا وَجَّهْتَ؛ وَالتَّقْدِيرُ (بِسْمِ اللهِ أَقْرَأُ أَوْ أَتَحَرَّكُ)، كَمَا "تُكْتَبُ الْبَسْمَلَةُ أَوَائِلَ الْكُتُبِ كَمَا كَتَبَهَا سُلَيْمَانُ عليه السلام، وَكَتَبَهَا النَّبِيُّ ﷺ فِي صُلْحِ

(١) هُوَ رَئِيسُ عُلَمَاءِ السُّودَانِ، وَقَدْ نَظَمَهُ فِي سِتَّةَ عَشَرَ بَيْتًا فِي ٢١ ذِي الْحِجَّةِ ١٣٨٩هـ - ٢٩ يَنَايِرَ ١٩٧٠م، وَسَمِعْتُهُ مِنْهُ مُشَافَهَةً فِي حَدِيقَةِ دَارِهِ الْعَامِرَةِ بِالْعِلْمِ.

(٢) فتح الباري لابن حجر(٨/ ٧١٩).

الْحُدَيْبِيَةِ وَإِلَى قَيْصَرَ وَغَيْرِهِ، فَتُذْكَرُ فِي ابْتِدَاءِ جَمِيعِ الْأَفْعَالِ، وَعِنْدَ دُخُولِ الْمَنْزِلِ وَالْخُرُوجِ مِنْهُ لِلْبَرَكَةِ، وَهِيَ تَطْرُدُ الشَّيْطَانَ"؛ فَالْزَمْ هَذَا الْحِصْنَ الْمَكِينَ، وَالرُّكْنَ الرَّكِينَ، وَالْحَبْلَ الْمَتِينَ.

وَهُنَا يَحْضُرُنَا سُؤَالٌ: لِمَاذَا قَدَّمَ اللهُ ﷻ الْفِعْلَ عَلَى الْبَاءِ وَمَجْرُورِهَا فِي قَوْلِهِ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق:١]؟

وَالْجَوَابُ: قَدَّمَ اللهُ -جَلَّ مَجْدُهُ- الْفِعْلَ عَلَى الْبَاءِ وَمَجْرُورِهَا فِي قَوْلِهِ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق:١] لِكَوْنِ الْأَمْرِ بِالْقِرَاءَةِ أَهَمَّ بِالنِّسْبَةِ لِأُمَّةٍ أُمِّيَّةٍ تَنْشُدُ تَعْلِيمَ الْأُمَمِ سُبُلَ الْبِنَاءِ الْحَضَارِيِّ الْعَادِلِ الرَّاقِي مِنْ أَوْجُهِهِ الصَّحِيحَةِ(١).

وَبَعْدَ أَنْ لَاحَ لَنَا الْحِرْزُ الْمَتِينُ، وَالْحِصْنُ الْمَكِينُ مِنَ اللَّهَجِ بِالِاسْتِعَاذَةِ بِاللهِ، وَالِاسْتِعَانَةِ عَلَى الْمُهِمَّاتِ وَقَضَاءِ الْحَوَائِجِ بِالْبَسْمَلَةِ الْمُبَارَكَةِ، أَلَا يَجِبُ عَلَيْنَا عِنْدَ ذَلِكَ أَنْ نَسْتَعِيذَ بِهِ فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَنَلْجَأَ إِلَيْهِ فِي كُلِّ شَيْءٍ؟ عِنْدَمَا تَتَصَوَّرُ ذَلِكَ تَشْعُرُ بِتَلَذُّذِنَا وَنَحْنُ نُرَدِّدُ فِي عُقُولِنَا وَقُلُوبِنَا وَبِأَلْسِنَتِنَا قَوْلَ النَّبِيِّ ﷺ فِي مُنَاجَاةِ اللهِ -جَلَّ فِي عُلَاهُ-: «اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَوَاتِ وَرَبَّ الْأَرْضِ وَرَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَى، وَمُنْزِلَ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ شَيْءٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهِ. اللَّهُمَّ أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ

---

(١) وَقَرَّرَ ذَلِكَ السُّيُوطِيُّ ﷺ فِي قَوْلِهِ:

وَقَدْ يُفِيدُ فِي الْجَمِيعِ الِاهْتِمَامْ ... بِهِ وَمِنْ ثَمَّ الصَّوَابُ فِي الْمَقَامْ
تَقْدِيمُهُ فِي سُورَةِ اقْرَأْ، فَهُنَا ... كَانَ الْقِرَاءَةُ الْأَهَمَّ الْمُعْتَنَى
مُؤَخَّرًا، فَإِنْ يَرِدْ بِسَبَبِهْ ... تَقْدِيرُ مَا عُلِّقَ بِاسْمِ اللهِ بِهْ

يُنْظَرُ: عُقُودُ الْجُمَان فِي عِلْمِ الْمَعَانِي وَالْبَيَان (ص: ٤٩).

قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ اقْضِ عَنَّا الدَّيْنَ وَأَغْنِنَا مِنَ الْفَقْرِ»[1].

لَنَا (اللهُ) إِنْ حَاطَتْ دَوَاهِي الْمَصَائِبِ ... لَنَا (اللهُ) إِنْ حَلَّتْ جُمُوعُ النَّوَائِبِ
وَ(لِلهِ) فَوَّضْنَا جَمِيعَ أُمُورِنَا ... عَلَيْهِ اعْتَمَدْنَا فِي جَمِيعِ الْمَذَاهِبِ
وَ(بِاللهِ) نَمْضِي فِي اعْتِصَامٍ بِدِينِهِ ... هُدَاةً عَلَى دَرْبٍ مِنَ الْحَقِّ لَاحِبِ
مِنَ (اللهِ) نَرْجُو كُلَّ خَيْرٍ وَمِنَّةٍ ... فَأَنْعِمْ بِرَبِّي مِنْ كَرِيمٍ وَوَاهِبِ
وَإِنْ أَقْبَلَتْ جُنْدُ الشَّيَاطِينِ نَحْوَنَا ... فَأَنْعِمْ بِرَبِّي مِنْ عَزِيزٍ وَغَالِبِ
عَسَى (اللهُ) يُنْجِينَا مِنَ الْهَوْلِ إِنَّهُ ... مَنِ (اللهَ) يَرْجُو نَالَ كُلَّ الْمَطَالِبِ
وَمَنْ يَعْتَصِمْ (بِاللهِ) يَوْمًا وَيَرْتَجِي ... فَلَيْسَ بِمَرْدُودٍ وَلَيْسَ بِخَائِبِ[2]

***

جِسْرُ اتِّصَالٍ: عَرَفْنَا الْبَصِيرَةَ الرَّابِعَةَ مِنْ بَصَائِرِ الْبَسْمَلَةِ، وَهِيَ: (الْبَسْمَلَةُ) أَسَاسٌ يُكَمِّلُ الِاسْتِعَاذَةَ، وَيُنْبِتُ غِرَاسَ الْحِمَايَةِ وَالرِّعَايَةِ فِي الْبِدَايَاتِ، وَيُثْمِرُ أَطَايِبَ الْبَرَكَةِ وَالنَّمَاءِ فِي النِّهَايَاتِ، وَيُبَصِّرُنَا بِذَلِكَ اقْتِرَانُهَا وَعَلَاقَتُهَا بِالِاسْتِعَاذَةِ، فَمَا الْبَصِيرَةُ الْخَامِسَةُ؟

الْجَوَابُ:

---

(١) مسلم(٨/ ٧٨) عن أبي هريرة ﷺ.

(٢) الأبيات للدكتور: سعيد بن دحباج –وفقه الله–، ديوان (عتب القوافي، ص: ٥٤).

الْبَصِيرَةُ الْخَامِسَةُ

الْبَسْمَلَةُ تُبَصِّرُنَا بِقُوَّةِ التَّوْحِيدِ وَالتَّعَبُّدِ الصَّادِقِ مِنَ الْعَبِيدِ، وَيُبَصِّرُنَا بِذَلِكَ أَيْضًا دُخُولُ كَلِمَةِ (اسْمٍ) فِي الْبَسْمَلَةِ حَيْثُ قَالَ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ وَلَمْ يَقُلْ: بِاللهِ

فَإِذَا كَانَتِ الِاسْتِعَانَةُ بِالِاسْمِ تُحَقِّقُ الْمَطْلُوبَ، فَكَيْفَ إِذَا كَانَ الْإِنْسَانُ فِي كَنَفِ صَاحِبِ الِاسْمِ عَلَّامِ الْغُيُوبِ.

وهَذِهِ الْبَصِيرَةُ مَبْنِيَّةٌ عَلَى أَسَاسِ الْفَرْقِ بَيْنَ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ و﴿بِٱللَّهِ﴾ [1]:

فـ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ مَقَامُ تَيَمُّنٍ، وَانْتِسَابٍ فِي الْعُبُودِيَّةِ إِلَى اللهِ، وَاعْتِزَازٍ بِهِ، وَاسْتِعَانَةٍ، وَطَلَبٍ لِلْبَرَكَةِ الَّتِي هِيَ الْخَيْرُ الْمُتَكَاثِرُ، بَيْنَمَا ﴿بِٱللَّهِ﴾ مَقَامُ اسْتِعَانَةٍ، أَوْ قَسَمٍ فَقَطْ، فَعِنْدَمَا نَقُولُ: ﴿بِٱللَّهِ﴾ رُبَّمَا الْتَبَسَ ذَلِكَ بِـ(أُقْسِمُ بِاللهِ)، أَمَّا قَائِلُ الْبَسْمَلَةِ فَيَسْتَعِينُ بِاسْمِهِ -تَعَالَى- عَلَى قَضَاءِ كُلِّ مَطْلُوبٍ أَيًّا كَانَ هَذَا الْمَطْلُوبُ عِنْدَ قَوْلِهِ: بِسْمِ ٱللَّهِ؛ سَوَاءٌ أَكَانَ قِرَاءَةً أَمْ حَرَكَةً أَمْ أَكْلًا أَمِ انْتِصَارًا أَمْ غَيْرَ ذَلِكَ.

وَإِذَا كَانَتِ الِاسْتِعَانَةُ بِالِاسْمِ لَهَا هَذَا التَّأْثِيرُ فَكَيْفَ بِقُدْرَةِ صَاحِبِ الِاسْمِ الْقَوِيِّ الْقَدِيرِ؟!

وَأَنْتَ تَرَى أَنَّ كَلِمَةَ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ تَعْنِي بِكُلِّ اسْمٍ لِلهِ؛ لِأَنَّ إِضَافَةَ الْمُفْرَدِ إِلَى الْمَعْرِفَةِ تُثْمِرُ الْعُمُومَ، فَكَأَنَّكَ سَمَّيْتَ بِكُلِّ اسْمٍ لِلهِ لِطَلَبِ قَضَاءِ حَاجَتِكَ.

وَمِنَ الْإِعَانَةِ الْعَظِيمَةِ إِعَانَتُنَا -وَنَحْنُ الْبَشَرُ الضُّعَفَاء- عَلَى قِرَاءَةِ كِتَابِ رَبِّ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ.

---

(١) الْكَلَامُ فِي هَذِهِ الْبَصِيرَةِ أَخَذَ مَنْحًى بَعِيدًا عَنِ النَّاحِيَةِ الْفَلْسَفِيَّةِ الَّتِي يَذْكُرُهَا أَهْلُ الْعِلْمِ ﷺ فِي الْعَلَاقَةِ بَيْنَ الِاسْمِ وَالْمُسَمَّى، فَالْمَقْصُودُ أَنَّ الْبَسْمَلَةَ تَعَلَّقَتْ بِالِاسْمِ لَا بِصَاحِبِهِ -جَلَّ فِي عُلَاهُ- لَفْظًا، وَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ لِذَلِكَ مَدْلُولٌ مَا، عَلَى أَنَّهُ مَعْلُومٌ أَنَّ ذِكْرَ الِاسْمِ يَعْنِي اللُّجُوءَ إِلَى صَاحِبِهِ قَطْعًا.

فَتَأَمَّلِ الْآنَ مَعِي قَوْلَ النَّبِيِّ ﷺ مُعْتَرِفًا بِعَجْزِهِ عَمَّا لَمْ يَتَعَلَّمْهُ: «مَا أَنَا بِقَارِئٍ»، وَعِنْدَ ذَاكَ عَلَّمَ اللهُ تَعَالَى نَبِيَّهُ التِّلَاوَةَ فَقَالَ لَهُ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق:١] أَيِ: اقْرَأْ مَعَ أَنَّكَ الْأُمِّيُّ مُسْتَعِينًا بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ فَسَيُلْهِمُكَ الْقِرَاءَةَ، وَيُوَفِّقُكَ لَهَا، وَيُعِينُكَ عَلَيْهَا، وَكَذَلِكَ الْقَارِئُ الَّذِي يَسْتَشْعِرُ الْخَوْفَ مِنْ عَدَمِ إِحْسَانِ الْقِرَاءَةِ، وَالْتِبَاسِ الْفَهْمِ، وَيَقْلَقُ مِنْ خِذْلَانِ التَّوْفِيقِ، وَعِنْدَهَا يَسْتَعِينُ بِاسْمِ اللهِ تَعَالَى مِنْ خِلَالِ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

فَالبَدْءُ بـ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ مُنْطَلَقُ الْمُسْلِمِ فِي الْأَحْدَاثِ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ، وَيَعْكِسُ مَدَى تَمْجِيدِهِ لِلهِ، كَمَا يَدُلُّ عَلَى تَوْحِيدِهِ الَّذِي فِيهِ سَكِينَتُهُ وَرِيَّاهُ، وَقَدْ عَلَّمَ النَّبِيُّ ﷺ أُمَّتَهُ أَنْ تَكُونَ اسْتِعَاذَتُهُمْ وَاسْتِعَانَتُهُمْ بِاسْمِ اللهِ كَثِيرًا، فَعَنْ أَبَانَ بْنِ عُثْمَانَ قَالَ: سَمِعْتُ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا مِنْ عَبْدٍ يَقُولُ فِي صَبَاحِ كُلِّ يَوْمٍ وَمَسَاءِ كُلِّ لَيْلَةٍ: بِسْمِ اللهِ الَّذِي لَا يَضُرُّ مَعَ اسْمِهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ. ثَلَاثَ مَرَّاتٍ لَمْ يُضَرَّ بِشَيْءٍ»، فَكَانَ أَبَانُ قَدْ أَصَابَهُ الْفَالِجُ، فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَنْظُرُ إِلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ أَبَانُ: مَا تَنْظُرُ؟ أَمَا إِنَّ الْحَدِيثَ كَمَا حَدَّثْتُكَ، وَلَكِنِّي لَمْ أَقُلْهُ يَوْمَئِذٍ لِيُمْضِيَ اللهُ عَلَيَّ قَدَرَهُ»(١).

فَاللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ بِاسْمِكَ وَبِكَلِمَاتِكَ التَّامَّةِ مِنْ خَيْرِ مَا تُسْأَلُ، وَمِنْ خَيْرِ مَا تُعْطِي، وَمِنْ خَيْرِ مَا تُبْدِي، وَمِنْ خَيْرِ مَا تُخْفِي.

وَنَعُوذُ بِاسْمِكَ وَبِكَلِمَاتِكَ التَّامَّةِ مِنْ شَرِّ مَا تَجَلَّى بِهِ النَّهَارُ، وَمِنْ شَرِّ مَا دَجَى بِهِ اللَّيْلُ.

وَيُطْرِبُنِي فِي هَذَا الْمَقَامِ، أَبْيَاتٌ تَحْدُونَا إِلَى دَارِ السَّلَامِ، لِلشَّاعِرِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْعُدَيْنِيِّ - كَانَ اللهُ لَهُ-:

---

(١) الترمذي (٥ / ٤٦٥)، وقال: "هذا حديث حسن صحيح غريب"، وروى أصله أحمد(١/ ٦٢)، وَالْفَالِجُ: شَلَلٌ يُصِيبُ طَرَفًا مِنَ الْإِنْسَانِ..

كَيْفَ أَشْـقَى؟! وَقَدْ أَنَرْتَ سَـبِيلِي ... وَشَـرَحْـتَ الْـفُـؤَادَ بِـالـتَّـنْـزِيـلِ
كَيْفَ أَشْـقَى؟! وَأَنْـتَ مِنِّي قَرِيـبٌ ... تَـتَـجَـلَّـى بِـبِـرِّكَ الْـمَـوْصُـولِ
كَيْفَ أَشْـقَى؟! وَأَنْتَ مَالِكُ أَمْرِي ... أَنْـتَ حَسْـبِي وَرَاحِمِي وَوَكِيلِي
كَيْفَ أَشْـقَى؟! وَقَدْ رَحِمْتَ لُجُوئِي ... وَرَمَـيْـتَ الْـعَـدُوَّ بِـالـتَّـخْـذِيـلِ
كَيْفَ أَشْـقَى؟! وَمُهْجَتِي فِي هَنَـاءٍ ... أَنْـتَ يَـا رَبِّ مُؤْنِسِـي وَخَـلِيـلِي

❊❊❊

جِسْرُ اتِّصَالٍ: بَعْدَ التَّعَرُّفِ إِلَى اسْمِ الْإِلَهِ الْمَلِكِ الْحَقِّ الْأَوَّلِ وَالْآخِرِ، وَالتَّعَرُّفِ إِلَى أَسَاسِ صِفَاتِهِ رُبَّمَا سَأَلَ الْقَارِئُ سَوَاءٌ أَكَانَ مُسْلِمًا أَمْ كَافِرًا: مَا الدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ اللهَ هُوَ الْإِلَهُ الْحَقُّ دُونَ غَيْرِهِ مِنَ الْمَعْبُودَاتِ؟

الْجَوَابُ: هُنَا يَأْتِي:

الْمَقْصَدُ الثَّانِي

التَّعْرِيفُ بِالْعَالَمِينَ، وَأَنَّ وُجُودَهُمْ لِأَنَّ اللهَ ﷻ رَبَّاهُمْ، فَكُلُّهُمْ مِنَ الذَّرَّاتِ إِلَى الْمَجَرَّاتِ بَرَاهِينُ لَا حَصْرَ لَهَا عَلَى أَنَّ اللهَ ﷻ هُوَ الْإِلَهُ الْحَقُّ، وَلِذَا فَهُوَ يَسْتَحِقُّ جَمِيعَ الْمَحَامِدِ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾

تَكَوَّنَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الْمُبَارَكَةُ مِنْ أَرْبَعِ كَلِمَاتٍ مِثْلَ الْبَسْمَلَةِ، وَقَدْ قُسِّمَتْ إِلَى قِسْمَيْنِ: الْأَوَّلُ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، والثَّانِي: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

ابْتَدَأَتِ الْآيَةُ بِالنَّتِيجَةِ وَانْتَقَلَتْ إِلَى السَّبَبِ: فَالسَّبَبُ فِي حَمْدِ الْعِبَادِ أَنَّهُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ، فَهُوَ خَالِقُهُمْ وَمُرَبِّيهِمْ، وَهُوَ بِذَا يَسْتَحِقُّ الْحَمْدَ، فَالْحَمْدُ نَتِيجَةٌ لِكَوْنِهِ رَبَّ الْعَالَمِينَ، وَإِنَّمَا بَدَأَتِ الْآيَةُ بِالنَّتِيجَةِ وَهِيَ ﴿ٱلْحَمْدُ﴾؛ لِأَنَّهَا الْأَمْرُ النَّافِعُ لِلْعِبَادِ الْمَطْلُوبُ مِنْهُمْ لِأَجْلِ مَصْلَحَتِهِمْ، فَنَفْعُ الْحَمْدَلَةِ يَرْجِعُ عَلَيْهِمْ نَفْسِيًّا وَمَادِّيًّا؛ إِذْ حَمْدُ اللهِ وَشُكْرُهُ مِنْ أَهَمِّ أَسْبَابِ النَّمَاءِ وَزِيَادَةِ الْخَيْرَاتِ كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

وَمَعْنًى آخَرُ كَرِيمٌ سَنِيٌّ فِي سِرِّ الِابْتِدَاءِ بِـ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ هُوَ أَنَّ الْفَاتِحَةَ كُلَّهَا مُنَاجَاةٌ بَيْنَ الْعَبِيدِ وَخَالِقِهِمْ، وَتَوَسُّلٌ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ بِتَحْقِيقِ أَعْظَمِ الْمَقَاصِدِ، فَنَاسَبَ ذَلِكَ التَّقْدِمَةُ بَيْنَ يَدَيِ الْمُنَاجَاةِ وَالِالْتِمَاسِ مِنَ الْكَرِيمِ بِحَمْدِهِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ.

وَلَرُبَّمَا سَأَلَ سَائِلٌ: مَا دَلَالَةُ تَوَسُّطِ (الْحَمْدَلَةِ) بَيْنَ وَصْفِ اللهِ بِالرَّحْمَةِ فِي الْبَسْمَلَةِ، وَالرُّبُوبِيَّةِ فِي الْآيَةِ التَّالِيَةِ؟

وَالْجَوَابُ -أَيَّدَكَ اللهُ- هُوَ: أَنَّ الْحَمْدَلَةَ فِي مَوْقِعِهَا الْمَنْطِقِيِّ بَيْنَ وَصْفِ اللهِ ﷻ بِأَنَّهُ ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ فِي الْآيَةِ الْأُولَى، فَتَحْمَدُ اللهَ ﷻ عَلَى كَمَالِهِ الذَّاتِيِّ، وَبَيْنَ وَصْفِهِ الْمُتَعَدِّي بِأَنَّهُ ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فِي الْآيَةِ الثَّانِيَةِ، فَتُقَدِّمُ الْحَمْدَلَةَ لِتَحْصُلَ عَلَى الْإِحْسَانِ الْمُتَعَدِّي. وَفِي الْوَقْتِ ذَاتِهِ لَا تَنْسَ أَنَّ تَرْبِيَتَهُ لَكَ لَمْ تَتَوَقَّفْ عَلَى أَنْ تَحْمَدَهُ، فَاللهُ ﷻ يُرَبِّيكَ قَبْلَ أَنْ تَحْمَدَهُ -جَلَّ فِي عُلَاهُ-.

وَبِذَا أَطْلُبُ أَنْ تَسْمَحَ لِي أَنْ أَبْدَأَ بِالسَّبَبِ لِأَصِلَ إِلَى النَّتِيجَةِ بِخِلَافِ تَرْتِيبِ الْآيَةِ اتِّبَاعًا لِلتَّرْتِيبِ الْعَقْلِيِّ الْإِيضَاحِيِّ، وَإِلَّا فَالتَّرْتِيبُ مِنْ حَيْثُ الْأَهَمِّيَّةِ لِلْمَصْلَحَةِ الْبَشَرِيَّةِ هُوَ مَا جَاءَ فِي تَرْتِيبِ الْآيَةِ.

وَيَنْبَثِقُ عَنْ هَذَيْنِ الْقِسْمَيْنِ (النَّتِيجَةِ: الْحَمْدُ لِلهِ، وَالسَّبَبِ: رَبِّ الْعَالَمِينَ) مَعْرِفَتُنَا بِحُقُوقِ اللهِ الْمَلِكِ الْحَقِّ الْمُبِينِ -جَلَّ مَجْدُهُ- وَبِحُقُوقِ الْخَلْقِ.

فَنَسْتَنْبِطُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ الْمُبَارَكَةِ بَصَائِرَ قُرْآنِيَّةً كُلِّيَّةً مُتَعَدِّدَةً، وَفِي ضَوْئِهَا، وَعَلَى أَنْوَارِ هَدْيِهَا نَفْهَمُ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةَ الْوَارِدَةَ فِي السُّوَرِ الْأُخْرَى.

فَمِنَ الْبَصَائِرِ الْكُلِّيَّةِ الْمُسْتَنْبَطَةِ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ:

المقصد الثاني

التعريف بالعالمين، وأن وجودهم لأن الله عز وجل رباهم، فكلهم من الذرات إلى المجرات براهين لا حصر لها على أن الله هو الإله الحق، ولذا نحمده، ويبصِّرنا بذلك قوله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾

[الفاتحة: 2]

بصيرة 01 ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ معراج الوصول إلى الله، ومرقاة السعادة والسكينة

بصيرة 02 ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ أجمل ما تتزين به الأفواه، ويردِّده القانت الأواه

بصيرة 03 ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ اسم يبين حق الربوبية لله، وبراهين هذا الحق

بصيرة 04 ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ يبين حقوق الخلق، فيفيض تعطفًا ورعاية، وتتلخص في الإنعام المقترن بالتربية

بصيرة 05 ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ دليلٌ على أن الله ليس كمثله شيء فهو ربُّ الخلق أجمعين

بصيرة 06 ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ يُرَبِّي تربية كاملة تضعف عندها تربية النظم البشرية الآفلة

الْبَصِيرَةُ الْأُولَى

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ شِعَارُ الشَّاكِرِينَ، وَنَبْضُ قُلُوبِ الْمُوَحِّدِينَ وَمِعْرَاجُ السَّعَادَةِ وَالسَّكِينَةِ وَالْيَقِينِ بِكَرَمِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

فـ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ تُوَضِّحُ عَلَاقَةَ الْخَلْقِ بِالْخَالِقِ، وَهِيَ عَلَاقَةٌ قَائِمَةٌ عَلَى تَحْقِيقِ التَّوْحِيدِ بِالِاسْتِمْتَاعِ بِجَمَالِ حَمْدِ اللهِ رَبِّ الْعَبِيدِ، وَبِنَاءِ الْحَيَاةِ الْإِعْلَامِيَّةِ وَالثَّقَافِيَّةِ وَالتَّعْلِيمِيَّةِ وَالشَّخْصِيَّةِ وَالْعَامَّةِ عَلَى الْحَمْدِ، وَالتَّمَلُّقِ لَهُ بِالثَّنَاءِ عَلَيْهِ، وَذِكْرِ صِفَاتِهِ وَرَحْمَتِهِ، وَجَعْلِ ذَلِكَ مَرْكَزِيًّا فِي الْإِعْلَامِ وَالتَّرْبِيَةِ وَالثَّقَافَةِ، وَالْإِعْدَادِ السِّيَاسِيِّ وَالْعَسْكَرِيِّ، وَبِنَاءِ الْحَيَاةِ عَلَى الدُّعَاءِ مَعَ الثَّنَاءِ، وَاللُّجُوءِ إِلَى أَرْحَمِ الرُّحَمَاءِ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالصَّغِيرِ وَالْكَبِيرِ مِنَ الْأُمُورِ الْفَرْدِيَّةِ وَالْمَعَاشِيَّةِ.

تَعْرِيفُ الْحَمْدِ، وَسَبَبُ اسْتِحْقَاقِ اللهِ لَهُ:

و﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ قَوْلٌ يُمَثِّلُ شِعَارَ الْعَابِدِينَ، وَالدُّعَاةِ الْعَامِلِينَ؛ لِإِخْرَاجِ النَّاسِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ، وَهِيَ هُتَافُهُمْ أَمَامَ النِّعَمِ الْمُنْهَمِرَةِ، وَشِعَارُهُمْ عِنْدَ خُطُوَاتِهِمُ الْمُتَعَثِّرَةِ، وَأَخْطَائِهِمُ الْمُتَكَرِّرَةِ، لَا لِيُصِرُّوا عَلَيْهَا بَلْ لِيُرَاجِعُوهَا، وَيُحِيلُوا ظُلْمَةَ حَيَاتِهِمْ نُورًا، وَبُؤْسَهَا سَعَادَةً. وَرُبَّمَا سَأَلْتَ: فَمَا تَعْرِيفُ الْحَمْدِ؟

الْحَمْدُ هُوَ الثَّنَاءُ الْكَامِلُ عَلَى الْمَحْمُودِ -وَهُوَ اللهُ جَلَّ فِي عُلَاهُ- بِذِكْرِ نُعُوتِهِ الْجَلِيلَةِ، وَأَفْعَالِهِ الْجَمِيلَةِ مَعَ حُبِّهِ وَإِجْلَالِهِ وَتَعْظِيمِهِ[1]، فَهُوَ الْمُسْتَحِقُّ لِلْحَمْدِ، وَمُجْمَلُ هَذَا الِاسْتِحْقَاقِ يَعُودُ إِلَى أَمْرَيْنِ[2]:

الْأَمْرُ الْأَوَّلُ: حَمْدٌ لِمَا لَهُ مِنْ صِفَاتِ كَمَالِهِ الذَّاتِيِّ، فَهُوَ الْمَلِكُ الْعَظِيمُ الْقَدِيرُ الْحَيُّ الْقَيُّومُ.

الْأَمْرُ الثَّانِي: حَمْدٌ لَهُ سُبْحَانَهُ عَلَى إِحْسَانِهِ الْمُتَعَدِّي إِلَى عِبَادِهِ مِنْ:

نَفْعِهِ وَدَفْعِهِ: نَفْعِهِ بِإِغْدَاقِ الْخَيْرِ، وَدَفْعِهِ الْآفَاتِ وَالشَّرَّ وَالضَّيْرَ.

وَإِزَاحَتِهِ وَإِتَاحَتِهِ: إِزَاحَتِهِ الْبُؤْسَ وَالشَّقَاءَ وَالْمَأْسَاةَ، وَإِتَاحَتِهِ لِلِاسْتِمْتَاعِ بِالْحَيَاةِ.

وَنَوَالِهِ وَإِفْضَالِهِ: نَوَالِهِ أُصُولَ النِّعَمِ، وَإِفْضَالِهِ بِالْمَزِيدِ مِنَ الْكَرَمِ.

إِنَّهُ اللهُ الْإِلَهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ﷻ وَحَقُّهُ أَنْ يَحْمَدَهُ خَلْقُهُ، وَأَوَّلُ الْحَمْدِ الِاعْتِرَافُ بِالتَّوْحِيدِ، وَالْمُبَادَرَةُ إِلَى الثَّنَاءِ وَالتَّمْجِيدِ؛ إِذْ يُحْمَدُ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ لِإِنْزَالِهِ عَلَى عِبَادِهِ سَوَابِغَ النِّعَمِ؛ وَلِإِفْضَالِهِ عَلَى خَلْقِهِ مِنْ عَظِيمِ الْكَرَمِ، وَلِمَا اتَّصَفَ بِهِ مِنْ جَمِيلِ الصِّفَاتِ فِي الْأَزَلِ وَالْقِدَمِ، فَهُوَ أَهْلُ الشُّكْرِ وَالثَّنَاءِ وَالْمَجْدِ، بِمَا أَنْعَمَهُ مِنَ النِّعَمِ الَّتِي لَا يُحْصِيهَا عَدٌّ، وَلَا يَقْدِرُ عَلَى حَصْرِهَا غَيْرُهُ أَحَدٌ.

قَالَ بَعْضُ الصَّادِقِينَ:

لَكَ الْحَمْدُ.. مَا أَوْلَاكَ بِالْحَمْدِ وَالثَّنَا ... عَلَى نِعَمٍ أَتْبَعْتَهَا نِعَمًا تَتْرَى

---

(١) لطائف الإشارات = تفسير القشيري (١/ ٤٥).

(٢) فِي رِسَالَةِ: تَفْصِيلِ الْإِجْمَالِ فِيمَا يَجِبُ لِلهِ تَعَالَى مِنْ صِفَاتِ الْكَمَالِ.

لَكَ الْحَمْدُ.. حَمْدًا أَنْتَ وَفَّقْتَنَا لَهُ ... وَعَلَّمْتَنَا مِنْ حَمْدِكَ النَّظْمَ وَالنَّثْرَا
لَكَ الْحَمْدُ.. حَمْدًا نَبْتَغِيهِ وَسِيلَةً ... إِلَيْكَ لِتَجْدِيدِ اللَّطَائِفِ وَالْبُشْرَى
لَكَ الْحَمْدُ.. كَمْ قَلَّدْتَنَا مِنْ صَنِيعَةٍ ... وَأَبْدَلْتَنَا بِالْعُسْرِ -يَا خَالِقِي- يُسْرَا
لَكَ الْحَمْدُ.. كَمْ مِنْ عَثْرَةٍ قَدْ أَقَلْتَنَا ... وَمِنْ زَلَّةٍ أَلْبَسْتَنَا مَعَهَا سِتْرَا

الْآيَةُ إِخْبَارٌ وَطَلَبٌ:

وَإِنْ تَعْجَبْ لِجَمَالِ التَّعْبِيرِ الْقُرْآنِيِّ فَاعْجَبْ لِهَذِهِ الْجُمْلَةِ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، وَقَلِّبِ الطَّرْفَ فِيهَا، وَأَعْمِلْ فِيهَا أَسَالِيبَ عِلْمِ الْمَعَانِي، هَلِ الْمُرَادُ مِنْهَا: الْإِخْبَارُ عَنْ حَمْدِ اللهِ لِنَفْسِهِ الْعَلِيَّةِ؟ أَمِ الْمُرَادُ مِنْهَا الطَّلَبُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ يَحْمَدُوهُ؟ أَمْ أَنَّ مَعْنَاهَا: وَصْفُ حَالَةِ الْعِبَادِ الصَّالِحِينَ فِي شُكْرِ رَبِّ الْعَالَمِينَ؟

الْجَوَابُ:

كُلُّ ذَلِكَ مُرَادٌ مِنْ هَذِهِ الْجُمْلَةِ الْمُبَارَكَةِ، فَهِيَ إِخْبَارٌ مِنَ اللهِ عَنْ حَمْدِ الْكَوْنِ لَهُ -تَقَدَّسَ ذِكْرُهُ-، وَهِيَ فِي الْوَقْتِ ذَاتِهِ طَلَبٌ مِنْ عِبَادِهِ لِحَمْدِهِ وَشُكْرِهِ، فَأَرَادَ -عَزَّ شَأْنُهُ- أَنْ يُعَلِّمَ عِبَادَهُ كَيْفَ يَشْكُرُونَهُ، فَالْمَعْنَى: قُولُوا الْحَمْدُ لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَهَذَا أُسْلُوبٌ عَرَبِيٌّ مَعْرُوفٌ، وَمِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ:

وَأَعْلَمُ أَنَّنِي سَأَكُونُ رَمْسًا ... إِذَا سَارَ النَّوَاعِجُ لَا يَسِيرُ
فَقَالَ السَّائِلُونَ: لِمَنْ حَفَرْتُمْ؟ ... فَقَالَ الْمُخْبِرُونَ لَهُمْ: وَزِيرُ[1]

أَيْ: فَقَالَ الْمُخْبِرُونَ لَهُمْ: الْمَيِّتُ وَزِيرٌ، فَأَسْقَطَ كَلِمَةَ الْمَيِّتِ، إِذْ كَانَ قَدْ أَتَى مِنَ الْكَلَامِ بِمَا دَلَّ عَلَى ذَلِكَ، يَقُولُ الْإِمَامُ الطَّبَرِيُّ ﷺ: «بَلْ ذَلِكَ كُلُّهُ كَلَامُ اللهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ، وَلَكِنَّهُ جَلَّ

(١) نَسَبَ الْفَرَّاءُ الْبَيْتَيْنِ فِي كِتَابِهِ "مَعَانِي الْقُرْآنِ" لِبَعْضِ بَنِي عَامِرٍ، (ص: ١٧٠)، وَالرَّمْسُ: الْقَبْرُ، وَالنَّوَاعِجُ: الْخِفَافُ مِنَ الْإِبِلِ..

ذِكْرُهُ حَمِدَ نَفْسَهُ وَأَثْنَى عَلَيْهَا بِمَا هُوَ لَهُ أَهْلٌ، ثُمَّ عَلَّمَ ذَلِكَ عِبَادَهُ، وَفَرَضَ عَلَيْهِمْ تِلَاوَتَهُ، اخْتِبَارًا مِنْهُ لَهُمْ وَابْتِلَاءً، فَقَالَ لَهُمْ قُولُوا: (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)، وَقُولُوا: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ). فَقَوْلُهُ: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ) مِمَّا عَلَّمَهُمْ -جَلَّ ذِكْرُهُ- أَنْ يَقُولُوهُ وَيَدِينُوا لَهُ بِمَعْنَاهُ، وَذَلِكَ مَوْصُولٌ بِقَوْلِهِ: (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)، وَكَأَنَّهُ قَالَ: قُولُوا هَذَا وَهَذَا»[1].

فَبَيَّنَ الطَّبَرِيُّ أَنَّ قَوْلَ اللهِ تَعَالَى ذِكْرُهُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ حُذِفَ مِنْهُ كَلِمَةُ (قُولُوا)، وَاسْتَدَلَّ عَلَى هَذَا الْمَحْذُوفِ بِقَوْلِهِ -جَلَّ وَعَزَّ-: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، وَهَذَا يُفِيدُ أَنَّ مَا سَبَقَ مِنَ الْآيَاتِ كَانَتْ تَعْلِيمًا مِنَ اللهِ ﷻ لِعِبَادِهِ، لِيَقُولُوا: الْحَمْدُ لِلهِ، وَلِيَقُولُوا: إِيَّاكَ نَعْبُدُ.

فَالْحَمْدُ لِلهِ الَّذِي تَتَوَالَى آلَاؤُهُ فَيَعْجَزُ اللِّسَانُ عَنْ شُكْرِهَا، وَتَتَتَابَعُ مِنَنُهُ فَيَقْصُرُ الْبَيَانُ عَنْ حَصْرِهَا؛ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ دَائِمًا وَأَبَدًا، وَلَهُ الثَّنَاءُ الْحَسَنُ خَالِدًا بَاقِيًا سَرْمَدًا.

(١) تفسير الطبري (١/ ١٣٩).

الفرق بين الحمد والشكر

من حيث السبب:

الحمد أعم:
لأنه ثناء على الله لصفاته الكاملة (مثل العلم والقدرة)، ولعطائه ونعمه.

الشكر أخص:
لأنه يكون مقابل الإحسان والنعم فقط.

من حيث المتعلق:

الشكر أعم:
لأنه يكون بالقلب (الاعتقاد والاعتراف بالنعمة)، وباللسان (النطق بها)، وبالجوارح (استعمال النعم في طاعة الله).

الحمد أخص:
لأنه يكون باللسان والقول غالبًا.

الْفَرْقُ بَيْنَ الْحَمْدِ وَالشُّكْرِ:

حَاوَلَ فُقَهَاءُ اللُّغَةِ أَنْ يُبَيِّنُوا الْعَلَاقَةَ بَيْنَ الْحَمْدِ وَالشُّكْرِ، وَذَكَرُوا أَنَّ بَيْنَهُمَا عُمُومًا وَخُصُوصًا وَجْهِيًّا:

فَالْحَمْدُ أَعَمُّ مِنَ الشُّكْرِ؛ إِذْ إِنَّ الْحَمْدَ هُوَ الثَّنَاءُ عَلَى اللهِ لِأَمْرَيْنِ: لِكَمَالِهِ الذَّاتِيِّ، فَهُوَ اللهُ الْكَامِلُ الْعِلْمِ، الْكَامِلُ الْحَيَاةِ، الْكَامِلُ الْقُدْرَةِ، الْكَامِلُ الْخِبْرَةِ، الْكَامِلُ الرَّحْمَةِ...

وَلِإِحْسَانِهِ الْمُتَعَدِّي: فَهُوَ اللهُ الَّذِي وَهَبَنَا كُلَّ هَذِهِ النِّعَمِ، وَصَرَفَ عَنَّا أَسْوَأَ الْمَصَائِبِ وَالنِّقَمِ.

أَمَّا الشُّكْرُ فَهُوَ الثَّنَاءُ عَلَى أَحَدٍ لِلسَّبَبِ الثَّانِي فَقَطْ: وَهُوَ الْإِحْسَانُ كَمَا قَالَ النَّاظِمُ:

الشُّكْرُ صَرْفُ الْعَبْدِ مَا أَوْلَاهُ ... مَوْلَاهُ مِنْ نُعْمَاهُ فِي رِضَاهُ

وَالشُّكْرُ أَعَمُّ مِنَ الْحَمْدِ مِنْ جِهَةِ الْمُتَعَلَّقِ، فَالْحَمْدُ يَكُونُ بِالْقَوْلِ غَالِبًا ﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓۗ﴾ [النمل:٥٩]، أَمَّا الشُّكْرُ فَهُوَ فِعْلٌ يُشْعِرُ بِتَعْظِيمِ الْمُنْعِمِ بِسَبَبِ الْإِنْعَامِ وَالْإِكْرَامِ، وَذَلِكَ الْفِعْلُ يَكُونُ بِالْجَنَانِ، وَقَدْ يَكُونُ بِاللِّسَانِ، وَقَدْ يَكُونُ بِالْجَوَارِحِ وَالْأَرْكَانِ:

فَبِالْجَنَانِ يَكُونُ فِعْلُ الْقَلْبِ، وَذَلِكَ بِاعْتِقَادِ وَاسْتِحْضَارِ الْمِنَّةِ لِلهِ ﷻ بِمَا تَفَضَّلَ وَأَنْعَمَ، فَتَفِيضُ الرُّوحُ حَمْدًا وَتَمْتَلِئُ شُكْرًا لِوَاهِبِ الْحَيَاةِ وَمُسْبِغِ النِّعَمِ.

وَبِاللِّسَانِ بِأَنْ يَلْهَجَ بِشُكْرِهِ لَفْظًا وَنُطْقًا لِمَا جَادَ بِهِ وَأَكْرَمَ، وَتَتَضَاءَلُ كَلِمَاتُنَا أَمَامَ فَيْضِ نَعْمَائِهِ، وَيَتَلَاشَى بَيَانُنَا إِزَاءَ بَحْرِ آلَائِهِ، فَلَهُ الْحَمْدُ كُلُّهُ، وَلَهُ الشُّكْرُ أَجْمَعُهُ، ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، سِرًّا وَعَلَانِيَةً..

وَبِالْأَرْكَانِ بِأَنْ يُذَلِّلَ جَوَارِحَهُ عُبُودِيَّةً وَشُكْرًا لِلْوَاحِدِ الْفَرْدِ الْمُعَظَّمِ، وَتَنْطِقُ كُلُّ ذَرَّةٍ فِينَا بِالثَّنَاءِ عَلَى بَدِيعِ صُنْعِهِ وَكَرِيمِ عَطَائِهِ، حَمْدًا لَا يَنْقَطِعُ وَلَا يَزُولُ..

وَعَرَّفَ ابْنُ الْقَيِّمِ رحمه الله الشُّكْرَ بِأَنَّهُ: «ظُهُورُ أَثَرِ نِعْمَةِ اللهِ عَلَى لِسَانِ عَبْدِهِ: ثَنَاءً، وَاعْتِرَافًا، وَعَلَى قَلْبِهِ: شُهُودًا، وَمَحَبَّةً، وَعَلَى جَوَارِحِهِ: انْقِيَادًا، وَطَاعَةً»[1]، ولذا قيل:

أَفَادَتْكُمُ النَّعْمَاءُ مِنِّي ثَلَاثَةً ... يَدِي وَلِسَانِي وَالضَّمِيرَ الْمُحَجَّبَا

وَمَا كَانَ شُكْرِي وَافِيًا بِنَوَالِكُمْ ... وَلَكِنَّنِي حَاوَلْتُ فِي الْجُهْدِ مَذْهَبَا[2]

❊❊❊

(١) مدارج السالكين: ٢/ ٢٣٤.

(٢) الفائق في غريب الحديث والأثر، الزمخشري، (١/ ٣١٤).

جِسْرُ اتِّصَالٍ: عَرَفْنَا الْبَصِيرَةَ الْأُولَى مِنْ بَصَائِرِ الْمَقْصَدِ الثَّانِي مِنْ مَقَاصِدِ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ، وَهِيَ أَنَّ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ مِعْرَاجُ الْوُصُولِ إِلَى اللهِ، وَمِرْقَاةُ السَّعَادَةِ وَالسَّكِينَةِ، فَمَا الْبَصِيرَةُ الثَّانِيَةُ؟

الْجَوَابُ:

البصيرة الثانية

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أجمل ما تتزين به الأفواه، ويردِّده القانت الأواه

01 جمال الحمد وأثره:

يعكس كمال المحمود (الله) ويمنح السعادة للحامد.

02 رحيق الرضا وبساتين القناعة:

ينشر الرضا في القلب ويزرع القناعة في الروح.

03 إطلاق الحمد وسعته:

حمدٌ مطلق غير محدود، لا يحصيه عدٌّ ولا يحده أمد.

04 بلاغة "الحمد لله" على "أحمدُ الله":

صيغة "الحمدُ لله" (الاسمية) أبلغ لأنها تفيد ثبوت الحمد لله أزلًا وأبدًا، قبل حمد الحامدين.

05 (الحمدُ لله) إقرارٌ أفضل من الإخبار (أحمدُ الله):

"الحمد لله" إقرار باستحقاق الله للحمد فتكون صادقًا دائمًا، حتى مع الغفلة. أما بـ "أحمدُ الله" فإنك تُخبر عن حالك، وقد تكون كاذبًا إن غفل قلبك.

الْبَصِيرَةُ الثَّانِيَةُ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أَجْمَلُ مَا تَتَزَيَّنُ بِهِ الْأَفْوَاهُ وَيُرَدِّدُهُ الْقَانِتُ الْأَوَّاهُ

أَوْجُهُ الْجَمَالِ فِي ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾:

أَتُرِيدُ إِعْلَامَ الْإِنْسَانِيَّةِ بِجَمَالِ الْحَمْدَلَةِ؟

اسْمَعْ إِلَى هَذِهِ الْوُجُوهِ الَّتِي تُبَيِّنُ آفَاقَهَا النُّورَانِيَّةَ:

فَأَمَّا الْوَجْهُ الْأَوَّلُ: فَالْحَمْدَلَةُ تَعْكِسُ الْجَمَالَ وَالْكَمَالَ فِي الْمَحْمُودِ، وَالسَّعَادَةَ وَرَاحَةَ الْبَالِ فِي الْحَامِدِ؛ فَإِنَّ مَا يَنْبَثِقُ مِنْ هَذِهِ الْكَلِمَةِ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ مِنْ نُورِ الْعِلْمِ لَيَضْمَنُ لَكَ تَبْدِيدَ السُّحُبِ الْمُخِيفَةِ الْمُرْعِبَةِ مِنْ ظُلُمَاتِ الْحَيَاةِ، فَيَا لَقُوَّةِ هَذِهِ الْجُمْلَةِ وَعَظَمَتِهَا ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾!

أَرَأَيْتَ مَا تَعْنِي كَلِمَةُ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾؟

إِنَّهَا تَعْنِي أَنَّ كُلَّ صِفَةٍ مِنْ صِفَاتِ الْكَمَالِ -تَسْتَحِقُّ الثَّنَاءَ وَالْمَدْحَ، تَخْتَصُّ بِاللهِ تَعَالَى الَّذِي تَجَلَّتْ آيَاتُهُ فِي الْكَوْنِ، فَمَا نَالَ نَائِلٌ شَيْئًا إِلَّا مِمَّنْ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ، وَبِهِ كُلُّ شَيْءٍ، فَمِنْهُ الْحَيَاةُ وَبِهِ الْعِلْمُ، وَمِنْهُ الْقُدْرَةُ، وَبِهِ الْإِرَادَةُ، وَمِنْهُ الرَّحْمَةُ وَالرَّأْفَةُ.

أَرَأَيْتَ الْمَخْلُوقَ الَّذِي يَعْلَمُ أَنَّهُ خُلِقَ بِأَمْرِ رَبِّهِ الْمُسْتَحِقِّ لِلْحَمْدِ هَلْ يَنُوبُهُ شَيْءٌ مِنْ نَوَائِبِ الْيَأْسِ وَالْقُنُوطِ؟ وَهَلْ يَعْتَرِيهِ شَيْءٌ مِنْ وَسَاوِسِ الْحِرْمَانِ؟ عَلَى عَكْسِ مَنْ يَرَى أَنَّهُ خَرَجَ إِلَى الدُّنْيَا مِنَ «اللَّا شَيْءٍ»، وَأَنَّهُ يَعُودُ لَا شَيْئًا بَعْدَ مَا فَارَقَ دُنْيَاهُ.

أَرَأَيْتَ كَمْ تُخَبِّئُ هَذِهِ الْجُمْلَةُ الْفَرِيدَةُ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾مِنَ الْمَعَانِي النَّضِرَةِ، وَالْحِكْمَةِ الْعَمِيقَةِ؟

وَأَنْتَ عِنْدَمَا تَقْرَأُ الْقُرْآنَ الْمَجِيدَ وَفْقَ تَرْتِيبِ سُوَرِهِ سَتَجِدُ أَنَّ الْحَمْدَلَةَ أُولَى الْبَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ ذِكْرًا فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، فَلِمَاذَا قُدِّمَتْ عَلَيْهَا جَمِيعًا؟

الْجَوَابُ: لِأَنَّهَا أَصْلُ الْأَذْكَارِ، فَالْحَمْدُ دَالٌّ عَلَى الثَّنَاءِ، وَالثَّنَاءُ يَكُونُ:

تَارَةً بِإِثْبَاتِ الْكَمَالِ الْمُطْلَقِ لِلَّهِ ﷻ، وَهَذَا هُوَ مَعْنَى: (اللهُ أَكْبَرُ).

وَتَارَةً يَكُونُ بِالِاعْتِرَافِ بِالْعَجْزِ عَنِ الْإِدْرَاكِ وَالْحِرَاكِ، وَهَذَا هُوَ مَعْنَى: (لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ).

وَتَارَةً يَكُونُ بِالتَّعْظِيمِ، وَنَفْيِ النَّقْصِ، وَهَذَا هُوَ مَعْنَى: (سُبْحَانَ اللهِ)، فَـ(سُبْحَانَ اللهِ) تَدُلُّ عَلَى كَوْنِهِ تَامًّا كَامِلًا فِي ذَاتِهِ، وَ﴿لِلَّهِ﴾ تَدُلُّ عَلَى كَوْنِهِ مُكَمِّلًا مُتَمِّمًا لِغَيْرِهِ.

وَتَارَةً يَكُونُ بِإِثْبَاتِ اسْتِحْقَاقِهِ لِلْعِبَادَةِ دُونَ سِوَاهُ، وَهَذَا مَعْنَى: (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ).

فَالْكَلِمَاتُ الْأَرْبَعُ (سُبْحَانَ اللهِ، وَاللهُ أَكْبَرُ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ) كُلُّهَا تَرْجِعُ إِلَى ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، وَلِذَلِكَ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «وَالْحَمْدُ لِلهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ»[1].

وَإِنَّ مِنْ أَجَلِّ نِعَمِ اللهِ عَلَى عَبْدِهِ أَنْ يَكْفِيَهُ مَا يُهِمُّهُ مِنْ أَمْرِ دُنْيَاهُ، وَيُلْهِمَهُ مَا يَكُونُ بِهِ صَلَاحُهُ وَفَلَاحُهُ فِي أُخْرَاهُ؛ فَإِنَّ فَرَاغَ الْقَلْبِ مِنَ الْأَشْغَالِ نِعْمَةٌ عَظِيمَةٌ لِمَنْ وَفَّقَهُ ﷻ اللهُ إِلَى اغْتِنَامِهَا فَصَرَفَهَا فِي الْبَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ، وَالْوَيْلُ لِمَنْ كَفَرَ هَذِهِ النِّعْمَةَ بِأَنْ فَتَحَ عَلَى نَفْسِهِ بَابَ الْهَوَى وَانْجَرَّ فِي قِيَادِ الشَّهَوَاتِ.

فَلَوْ أَنَّ الْمُفَرِّطَ وَهُوَ حَيٌّ ... تَوَخَّى الْبَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ

لَفَازَ بِغِبْطَةٍ وَأَصَابَ حَظًّا ... وَلَمْ يَغْشَ الْأُمُورَ الْمُوبِقَاتِ[2]

وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ أَحَدُ أَعْظَمِ الْكُنُوزِ الَّتِي قُدِّمَتْ لِلْبَشَرِيَّةِ فِي دُنْيَاهَا، وَقَدْ عَلَّمَهَا النَّبِيُّ ﷺ أُمَّتَهُ، وَحَثَّهَا عَلَى تَرْدِيدِهَا، فَهِيَ مَلْجَأُ الْمَرْءِ وَمَلَاذُهُ إِذَا ضَاقَ أَمْرُهُ، فَقَدْ جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى

---

(١) مسلم١/ ١٤٠.

(٢) التبصرة، ابن الجوزي، (ص: ٣٤٢).

النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، عَلِّمْنِي خَيْرًا، فَأَخَذَ النَّبِيُّ ﷺ بِيَدِهِ فَقَالَ: «قُلْ سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ لِلهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ». قَالَ: فَعَقَدَ الْأَعْرَابِيُّ عَلَى يَدِهِ وَمَضَى، فَتَفَكَّرَ ثُمَّ رَجَعَ، فَتَبَسَّمَ النَّبِيُّ ﷺ قَالَ: «تَفَكَّرَ الْبَائِسُ»، فَجَاءَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، (سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ لِلهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ) هَذَا لِلهِ فَمَا لِي؟ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «يَا أَعْرَابِيُّ إِذَا قُلْتَ: سُبْحَانَ اللهِ، قَالَ اللهُ: صَدَقْتَ، وَإِذَا قُلْتَ: الْحَمْدُ لِلهِ، قَالَ اللهُ: صَدَقْتَ، وَإِذَا قُلْتَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، قَالَ اللهُ: صَدَقْتَ، وَإِذَا قُلْتَ: اللهُ أَكْبَرُ، قَالَ اللهُ: صَدَقْتَ، وَإِذَا قُلْتَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، قَالَ اللهُ: فَعَلْتُ، وَإِذَا قُلْتَ: اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي، قَالَ اللهُ: فَعَلْتُ، وَإِذَا قُلْتَ: اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي، قَالَ اللهُ: قَدْ فَعَلْتُ»، قَالَ: فَعَقَدَ الْأَعْرَابِيُّ عَلَى سَبْعٍ فِي يَدِهِ ثُمَّ وَلَّى[1].

وَعَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «الَّذِينَ يَذْكُرُونَ مِنْ جَلَالِ اللهِ مِنْ تَسْبِيحِهِ وَتَحْمِيدِهِ وَتَكْبِيرِهِ وَتَهْلِيلِهِ يَتَعَاطَفْنَ حَوْلَ الْعَرْشِ لَهُنَّ دَوِيٌّ كَدَوِيِّ النَّحْلِ يُذَكِّرْنَ بِصَاحِبِهِنَّ. أَلَا يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ لَا يَزَالَ لَهُ عِنْدَ اللهِ شَيْءٌ يُذْكَرُ بِهِ؟»[2].

وَأَمَّا الْوَجْهُ الثَّانِي: فَمِنْ جَمَالِ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أَنَّهَا تَنْسَابُ رَحِيقَ رِضًا فِي قَلْبِ الْحَامِدِ، وَتُزْهِرُ بَسَاتِينَ قَنَاعَةٍ فِي رُوحِ الشَّاكِرِ السَّاجِدِ، لِلهِ الْكَرِيمِ الْوَاحِدِ.

فَاكْتَشِفْ يَا وَلِيَّ اللهِ كَنْزَ 'الْحَمْدُ لِلهِ' لِتَجِدَ أَنَّهَا كَلِمَةٌ تُذِيبُ هُمُومَ الْقَلْبِ وَتُبْدِلُهَا رِضًا، وَتَرْوِي ظَمَأَ النَّفْسِ فَتَزْهِرُ فِيهَا الْقَنَاعَةُ.

---

(١) البيهقي في الشعب٢/ ١٣٣، الضياء المقدسي في الأحاديث المختارة (٥/ ١٢) عن أنسٍ ﷺ، وذكره الألباني في الصحيحة برقم٣٣٣٦، وفي صحيح الترغيب والترهيب على أنه حسن لغيره.

(٢) مسند أحمد بن حنبل(٤ / ٢٦٨)، وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الصحيح غير موسى بن مسلم الطحان فمن رجال أصحاب السنن عدا الترمذي وهو ثقة.

إِنَّ فِي 'الْحَمْدُ لِلهِ' سِرًّا عَجِيبًا؛ يَسْكُبُ فِي الْفُؤَادِ خَمْرًا مِنَ الرِّضَا لَا يُسْكِرُ، وَيَنْثُرُ فِي حَنَايَا النَّفْسِ بُذُورَ الْقَنَاعَةِ فَتُورِقُ سَكِينَةً.

يَا لَهُ مِنْ جَمَالٍ أَخَّاذٍ فِي 'الْحَمْدُ لِلهِ'! تِرْيَاقٌ يَمْسَحُ عَنِ الْقَلْبِ غُبَارَ السَّخَطِ، فَيَسْتَقِرُّ فِيهِ الرِّضَا، وَيُلْبِسُ النَّفْسَ حُلَّةَ الْقَنَاعَةِ فَتَزْدَادُ بَهَاءً.

هَلْ لَمَسْتَ يَوْمًا كَيْفَ لِـ 'الْحَمْدُ لِلهِ' أَنْ تُحَوِّلَ جَفَافَ الْقَلْبِ إِلَى وَاحَةِ رِضًا، وَقَلَقَ النَّفْسِ إِلَى بَحْرٍ مِنَ الْقَنَاعَةِ الْهَادِئَةِ؟! ذَاكَ هُوَ سِحْرُهَا.

لَكَ الْحَمْدُ يَا مُسْتَوْجِبَ الْحَمْدِ دَائِمًا ... عَلَى كُلِّ حَالٍ حَمْدَ فَانٍ لِدَائِمِ
وَسُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ تَسْبِيحَ شَاكِرٍ ... لِمَعْرُوفِكَ الْمَعْرُوفِ يَا ذَا الْمَرَاحِمِ
فَكَمْ لَكَ مِنْ سِتْرٍ عَلَى كُلِّ خَاطِئٍ ... وَكَمْ لَكَ مِنْ بِرٍّ عَلَى كُلِّ ظَالِمِ
وُجُودُكَ مَوْجُودٌ، وَفَضْلُكَ فَائِضٌ ... وَأَنْتَ الَّذِي تُرْجَى لِكَشْفِ الْعَظَائِمِ
وَبَابُكَ مَفْتُوحٌ لِكُلِّ مُؤَمِّلٍ ... وَبِرُّكَ مَمْنُوحٌ لِكُلِّ مُصَارِمِ[1]

إِنَّهَا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ تَمْلَؤُكَ بِأَعْظَمِ السَّكِينَةِ، وَتَمْنَحُكَ أَجْمَلَ الْمَشَاعِرِ، وَتُحَلِّيكَ بِأَبْهَى زِينَةٍ، وَتُمِدُّكَ بِالْفَضْلِ الْعَظِيمِ الْغَامِرِ.

إِنَّهَا الْكَلِمَةُ الَّتِي يَفِيضُ قَائِلُهَا بِالرِّضَا، وَتَنْقُلُهُ لِيَتَّصِلَ بِمَخْلُوقَاتِ اللهِ فِي السَّهْلِ وَالْبَحْرِ وَالْجِبَالِ وَالْغَابَاتِ وَالْفَضَاءِ؛ لِيَسْتَشْعِرَ أَنَّهُ جُزْءٌ مِنْ عَوَالِمَ كُلُّهَا لِلهِ حَامِدَةٌ، وَلِآلَائِهِ شَاكِرَةٌ دُونَ انْقِضَى.

(١) ديوان البرعي، (ص: ٢٦).

هُنَاكَ تُحِسُّ بِمَجْدِ اللهِ ﷻ فَتَقُولُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، وَتَشْعُرُ بِفَضْلِ اللهِ فَتَقُولُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، وَتَتَنَعَّمُ بِنِعَمِ اللهِ فَتَقُولُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، وَتَأْنَسُ بِحِكْمَةِ اللهِ، وَرَحْمَةِ اللهِ، وَعَفْوِ اللهِ، وَقُدْرَةِ اللهِ الْمُقْتَرِنَةِ بِوُدِّهِ وَحُبِّهِ وَذِكْرِهِ لِمَنْ يَذْكُرُهُ، فَلَا تَمْلِكُ إِلَّا أَنْ تَقُولَ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

إِلَيْكَ، عَظِيمَ الْعَفْوِ، أَشْكُو مَوَاجِعِي ... بِدَمْعٍ عَلَى مَرْأَى الْخَلَائِقِ لَا يَجْرِي

تَرَحَّلَ إِخْوَانِي.. فَأَصْبَحْتُ بَعْدَهُمْ ... غَرِيبًا.. يَتِيمَ الرُّوحِ وَالْقَلْبِ وَالْفِكْرِ

لَكَ الْحَمْدُ.. وَالْأَحْبَابُ فِي كُلِّ سَامِرٍ ... لَكَ الْحَمْدُ.. وَالْأَحْبَابُ فِي وَحْشَةِ الْقَبْرِ

وَأَمَّا الْوَجْهُ الثَّالِثُ: فَالْحَمْدُ لَا حَصْرَ لِعَدَدِهِ، فَنَحْنُ نَقُولُ: الْحَمْدُ لِلهِ، فَكَمْ مِقْدَارُ هَذَا الْحَمْدِ؟

أَلَا تَرَى -أَيَّدَكَ اللهُ- أَنَّ الْآيَةَ أَطْلَقَتِ الْحَمْدَ دُونَ تَحْدِيدٍ.. ؛ لِيَتَصَوَّرَهُ الْعَبْدُ مَدِيدًا لَا يَنْقَضِي وَلَا يَبِيدُ، فَلَا يُحْصِيهِ الْعَدَدُ، وَلَا يُحِيطُ بِعَدَدِهِ غَيْرُ اللهِ أَحَدٌ.

وَقَدْ تَفَنَّنَ الصَّالِحُونَ فِي حَمْدِ اللهِ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ، وَكَانَتْ عِبَارَةُ سَيِّدِ الْبَشَرِ فِي ذَلِكَ أَبْهَى مِنَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، فَمِنْ ذَلِكَ تَعْلِيمُهُ لِصَحَابَتِهِ الْكِرَامِ جَمَالَ الْمَحَامِدِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فَهَا هُوَ أَبُو أُمَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: رَآنِي النَّبِيُّ ﷺ وَأَنَا أُحَرِّكُ شَفَتَيَّ، فَقَالَ: «مَا تَقُولُ يَا أَبَا أُمَامَةَ؟». قُلْتُ: أَذْكُرُ اللهَ، قَالَ: «أَفَلَا أَدُلُّكَ عَلَى مَا هُوَ أَكْثَرُ مِنْ ذِكْرِكَ اللهَ اللَّيْلَ مَعَ النَّهَارِ؟ تَقُولُ:

الْحَمْدُ لِلهِ عَدَدَ مَا خَلَقَ، وَالْحَمْدُ لِلهِ مِلْءَ مَا خَلَقَ، وَالْحَمْدُ لِلهِ عَدَدَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، [وَالْحَمْدُ لِلهِ مِلْءَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ]، وَالْحَمْدُ لِلهِ عَدَدَ مَا أَحْصَى كِتَابُهُ، وَالْحَمْدُ لِلهِ مِلْءَ مَا أَحْصَى كِتَابُهُ، وَالْحَمْدُ لِلهِ عَدَدَ كُلِّ شَيْءٍ، وَالْحَمْدُ لِلهِ مِلْءَ كُلِّ شَيْءٍ» . وَتُسَبِّحُ اللهَ مِثْلَهُنَّ.

ثُمَّ قَالَ: «تَعَلَّمْهُنَّ عَقِبَكَ مِنْ بَعْدِكَ»[1].

وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ فِي تَلَذُّذِهِ وَتَفَنُّنِهِ فِي حَمْدِهِ لِرَبِّهِ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ: «رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ مِلْءَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَمِلْءَ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ، أَهْلَ الثَّنَاءِ وَالْمَجْدِ، أَحَقُّ مَا قَالَ الْعَبْدُ، وَكُلُّنَا لَكَ عَبْدٌ. اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ»[2].

وَأَقَرَّ النَّبِيُّ الْخَاتَمُ أَصْحَابَهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عَلَى التَّفَنُّنِ فِي الْحَمْدِ، فَعَنْ رِفَاعَةَ بْنِ رَافِعٍ الزُّرَقِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنَّا يَوْمًا نُصَلِّي وَرَاءَ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرَّكْعَةِ، قَالَ: سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، قَالَ رَجُلٌ وَرَاءَهُ: رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ، حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ [كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى]، فَلَمَّا انْصَرَفَ، قَالَ: «مَنِ الْمُتَكَلِّمُ؟» قَالَ: أَنَا، قَالَ: «رَأَيْتُ بِضْعَةً وَثَلَاثِينَ مَلَكًا يَبْتَدِرُونَهَا، أَيُّهُمْ يَكْتُبُهَا أَوَّلًا»[3]، وَهَذَا الِاتِّفَاقُ فِي الصِّيغَةِ بَيْنَ حَمْدِ الصَّحَابِيِّ، وَحَمْدِ النَّبِيِّ ﷺ مِنَ التَّوْفِيقِ الْعَزِيزِ الَّذِي يَخْتَصُّ اللهُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ.

وَأَمَّا الْوَجْهُ الرَّابِعُ: فَقَدْ عَلَّمَنَا اللهُ أَنْ نَقُولَ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ وَهِيَ أَبْلَغُ مِنْ قَوْلِ: أَحْمَدُ اللهَ؛ لِأَنَّ اللهَ حَمِدَ بِذَلِكَ نَفْسَهُ قَبْلَ حَمْدِ الْحَامِدِينَ لَهُ، فَلَوْ قَالَ: أَحْمَدُ اللهَ أَفَادَ كَوْنَ ذَلِكَ الْقَائِلِ قَادِرًا عَلَى حَمْدِهِ، أَمَّا لَمَّا أَتَى بِالْجُمْلَةِ الِاسْمِيَّةِ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ دَلَّتْ عَلَى الدَّوَامِ وَالثَّبَاتِ فِي

---

(١) ابن خزيمة١/ ٣٧١، وحسنه الأعظمي، ابن حبان٣/ ١١١، وحسن إسناده الأرناؤوط، المعجم الكبير للطبراني (٧/ ٢٧٣)، وذكره الألباني في الصحيحة برقم٢٥٧٨.

(٢) مسلم٢ / ١٨٥ عن علي بن أبي طالب ﷺ، ورواه عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ ٢/ ٤٧، والجَدُّ: الغنى، أي لا ينفع الغنيَّ غناه، بل طاعته مولاه.

(٣) البخاري١ / ٢٠٢، والزيادة عند الترمذي٢/ ٢٥٤، وجمع ابن حجر ﷺ بين الروايات بأن ذلك كان بعد الركوع حيث وقع للصحابي عطاسٌ، والقيد هنا ليس بلازمٍ، فيقولها الإنسان مطلقًا في مواضع الحمد، فهي كلماتٌ يُحبها مَن في السماء.

اسْتِحْقَاقِ الْحَمْدِ، وَأَفَادَتْ أَنَّهُ كَانَ مَحْمُودًا قَبْلَ حَمْدِ الْحَامِدِينَ، وَقَبْلَ شُكْرِ الشَّاكِرِينَ، فَهَؤُلَاءِ سَوَاءٌ أَحَمِدُوا أَمْ لَمْ يَحْمَدُوا، وَسَوَاءٌ شَكَرُوا أَمْ لَمْ يَشْكُرُوا، فَهُوَ تَعَالَى مَحْمُودٌ مِنَ الْأَزَلِ إِلَى الْأَبَدِ.

وَيَزِيدُ ذَلِكَ وُضُوحًا أَنَّ (الْ) فِي ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ تَأْتِي لِثَلَاثَةِ مَعَانٍ:

الْمَعْنَى الْأَوَّلُ: الِاخْتِصَاصُ اللَّائِقُ حَيْثُ لَا يَلِيقُ الْحَمْدُ الْحَقِيقِيُّ إِلَّا لِلهِ، وَيُعَبِّرُ عَنْ ذَلِكَ بَعْضُهُمْ بِالْعَهْدِ أَيْ إِنَّ الْحَمْدَ الْمَعْرُوفَ الْمَعْهُودَ بَيْنَكُمْ لَا يَكُونُ إِلَّا لِلَّهِ ﷻ.

الْمَعْنَى الثَّانِي: الْمِلْكُ فَحَمْدُهُمْ مِلْكٌ لَهُ، فَهُوَ الَّذِي أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ بِحَمْدِهِ وَوَفَّقَهُمْ لَهُ.

الْمَعْنَى الثَّالِثُ: الِاسْتِحْقَاقُ، وَسَأُنَبِّئُكَ بِوَجْهِ ذَلِكَ فِي هَذِهِ الصِّيغَةِ الْخَبَرِيَّةِ (الْحَمْدُ لِلهِ)؛ إِذْ تَقْتَضِي أَنَّ الْحَمْدَ وَالثَّنَاءَ حَقٌّ لِلهِ، فَهُوَ تَعَالَى الْمُسْتَحِقُّ لِلْحَمْدِ، وَغَيْرُهُ لَا يَسْتَحِقُّ الْحَمْدَ إِلَّا تَبَعًا لَهُ.

أَمَّا لَوْ قِيلَ: أَحْمَدُ اللهَ، فَلَا يَدُلُّ ذَلِكَ عَلَى كَوْنِهِ مُسْتَحِقًّا لِلْحَمْدِ لِذَاتِهِ، كَمَا أَنَّ صِيغَةَ (أَحْمَدُ اللهَ) تَتَصَاغَرُ أَمَامَ قَوْلِنَا ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾؛ لِأَنَّ الْحَامِدَ بِالْجُمْلَةِ الِاسْمِيَّةِ ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ كَأَنَّهُ يَقُولُ بِلِسَانِ الْحَالِ وَالْمَقَالِ: مَنْ أَنَا حَتَّى أَحْمَدَهُ سُبْحَانَهُ؟ فَهُوَ مَحْمُودٌ بِجَمِيعِ حَمْدِ الْحَامِدِينَ.

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾: تَدُلُّ عَلَى الدَّوَامِ وَالثَّبَاتِ فِي كَوْنِهِ مُسْتَحِقًّا لِلْحَمْدِ، فَهُوَ مَحْمُودٌ قَبْلَ حَمْدِ الْحَامِدِينَ، وَقَبْلَ شُكْرِ الشَّاكِرِينَ، وَسَوَاءٌ أَحَمِدُوا أَمْ لَمْ يَحْمَدُوا، وَسَوَاءٌ شَكَرُوا أَمْ لَمْ يَشْكُرُوا، فَهُوَ تَعَالَى مَحْمُودٌ مِنَ الْأَزَلِ إِلَى الْأَبَدِ.

كَمَا أَنَّ اللَّامَ تَدُلُّ عَلَى سَعَةِ وَشُمُولِ اسْتِغْرَاقِ الْجِنْسِ:

فَالْجِنْسُ يَعْنِي أَنَّ جِنْسَ الْحَمْدِ مِلْكٌ لِلهِ، فَهُوَ تَعَالَى مَحْمُودٌ بِكُلِّ حَمْدٍ صَدَرَ أَوْ ظَهَرَ، وَالِاسْتِغْرَاقُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ جَمِيعَ الْمَحَامِدِ لِلهِ سُبْحَانَهُ، فَلَهُ الْحَمْدُ لِظُهُورِ سُلْطَانِهِ، وَلَهُ الشُّكْرُ لِوُفُورِ إِحْسَانِهِ[1]، وَجَلَّى فَضِيلَةُ الشَّيْخِ مُحَمَّذُنْ فَالْ بْنُ مَتَّالِي الشِّنْقِيطِيِّ ﷺ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ:

وَ(الْ) بِحَمْدِ رَبِّنَا الرَّزَّاقِ ... مُحْتَمَلُ الْعَهْدِ وَالِاسْتِغْرَاقِ
فَالْعَهْدُ أَنَّ اللهَ لَمَّا عَلِمَا ... بِعَجْزِنَا عَنْ حَمْدِهِ الَّذِي سَمَا
حَمِدَ نَفْسَهُ تَعَالَى فِي الْأَزَلِ ... ثُمَّ دَعَا لِحَمْدِهِ عَزَّ وَجَلَّ
وَمَعْنَى الِاسْتِغْرَاقِ عِنْدَ الْعُلَمَا ... أَنَّ جَمِيعَ الْحَمْدِ لِلَّهِ انْتَمَى
مَعْنَى جَمِيعِهِ: الذُّرُوبُ الْأَرْبَعَةُ ... أَيْ: حَادِثَاهُ وَقَدِيمَاهُ مَعَهُ
أَمَّا الْقَدِيمَانِ: فَحَمْدُ الْحَقِّ ... لِنَفْسِهِ، وَلِصِفَاتِ الْخَلْقِ
وَالْحَادِثَانِ: حَمْدُنَا لِلْوَالِي ... وَحَمْدُ بَعْضِنَا لِبَعْضٍ تَالِي

وَلِبَيَانِ سَعَةِ الِاسْتِغْرَاقِ لِلْحَمْدِ الْإِلَهِيِّ تَجِدُ أَنَّ اللهَ ﷻ افْتَتَحَ ذِكْرَ خَلْقِ الْكَوْنِ بِالْحَمْدَلَةِ فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْأَنْعَامِ فَقَالَ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١]، وَافْتَتَحَ كِتَابَهُ بِالْحَمْدِ فَقَالَ فِي الْفَاتِحَةِ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، وَافْتَتَحَ إِنْزَالَ الْقُرْآنِ بِهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ﴾ [الكهف:١]، وَاخْتَتَمَ مِيزَانَ الْعَدْلِ الْإِلَهِيِّ فِي الْآخِرَةِ بِهِ، فَقَالَ: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

(١) لطائف الإشارات = تفسير القشيري (١/ ٤٥).

[الزمر: ٧٥]، وقال سبحانه بَيْنَ هذا وذَاكَ: ﴿وَهُوَ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٧٠].

فَالْحَمْدُ لِلْمَحْمُودِ قَبْلَ خَلْقِ الْوُجُودِ، وَعِنْدَ رِعَايَتِهِ بِإِنْزَالِ شَرِيعَةِ الْوَدُودِ، وَحَمْدُهُ لَازِمٌ عِنْدَ الْفَصْلِ بَيْنَ الْخَلَائِقِ بِالْحَقِّ الْمَوْعُودِ، وَالْحَمْدُ قَائِمٌ يَمْلَأُ الْأَرْضَ وَالسَّمَاءَ بِلَا حُدُودٍ.

وَلِهَذَا الِافْتِتَاحِ وَالِاخْتِتَامِ بِالْحَمْدِ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «وَسُبْحَانَ اللهِ وَالْحَمْدُ لِلهِ تَمْلَآنِ - أَوْ تَمْلَأُ - مَا بَيْنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ»[1]، فَكَوْنُهَا تَمْلَأُ يَعْنِي أَنَّهَا تَتَعَلَّقُ بِبِدَايَةِ الْأَمْرِ وَخَاتِمَتِهِ وَأَثْنَائِهِ. وَانْظُرْ كَيْفَ أَظْهَرَ فِي مَقَامِ الْإِضْمَارِ فَقَالَ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ بَعْدَ الْبَسْمَلَةِ فَصَرَّحَ مَرَّةً أُخْرَى بِاسْمِهِ الْعَلَمِ الْأَجَلِّ الْأَكْرَمِ، وَهُوَ اللهُ، وَلَمْ يَقُلْ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ إِلَّا لِيَلْفِتَ النَّظَرَ إِلَى جَمَالِ اللَّفْظِ، وَجَلَالِ الْمَعْنَى، وَتَرْبِيَةِ الْمَهَابَةِ وَالتَّعْظِيمِ وَالْمَحَبَّةِ لِلْحَقِّ سُبْحَانَهُ بِتَرْسِيخِ ذِكْرِ الِاسْمِ الْجَلِيلِ فِي الْقَلْبِ بَعْدَ أَنْ تَعَرَّفَ إِلَيْهِ مِنْ خِلَالِ الْبَسْمَلَةِ سَابِقًا.

وَتَأَمَّلْ كَيْفَ يُبَيِّنُ النَّبِيُّ ﷺ رُجُوعَ الْمَحَامِدِ لِلهِ ﷻ، وَتَنَوُّعَ أَفْعَالِهِ الشَّامِلَةِ لِلْحَيَاةِ بِمَا يَجْعَلُ الْخَلَائِقَ يَحْمَدُونَهُ فِي كُلِّ اتِّجَاهٍ، فَقَدْ رَوَى عُبَيْدُ بْنُ رِفَاعَةَ الزُّرَقِيُّ عَنْ أَبِيهِ رضي الله عنه قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ وَانْكَفَأَ الْمُشْرِكُونَ، قَالَ: رَسُولُ اللهِ ﷺ: «اسْتَوُوا حَتَّى أُثْنِيَ عَلَى رَبِّي»، فَصَارُوا خَلْفَهُ صُفُوفًا، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ كُلُّهُ، اللَّهُمَّ لَا قَابِضَ لِمَا بَسَطْتَ، وَلَا بَاسِطَ لِمَا قَبَضْتَ، وَلَا

(١) مسلم: ١/ ١٤٠.

هَادِيَ لِمَا أَضْلَلْتَ، وَلَا مُضِلَّ لِمَنْ هَدَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُقَرِّبَ لِمَا بَاعَدْتَ، وَلَا مُبَاعِدَ لِمَا قَرَّبْتَ...»[1].

وَأَمَّا الْوَجْهُ الْخَامِسُ: الْإِقْرَارُ أَفْضَلُ مِنَ الْإِخْبَارِ فَالْحَمْدُ عِبَارَةٌ عَنْ صِفَةِ الْقَلْبِ، مَا مَعْنَى أَنْ يَكُونَ الْحَامِدُ مُقِرًّا بِحَقِّ رَبِّهِ فِي الثَّنَاءِ، وَلَيْسَ مُخْبِرًا عَنْ حَالِهِ؟

مَعْنَاهُ: أَنَّكَ عِنْدَ تُحَمِّدُ اللهَ بِصِيغَةِ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ لَاهِجًا بِلِسَانِكَ، فَأَنْتَ تُقِرُّ وَتَعْتَقِدُ أَنَّ اللهَ الْمَحْمُودَ كَانَ وَلَمْ يَزَلْ مُتَفَضِّلًا مُنْعِمًا مُسْتَحِقًّا لِلتَّعْظِيمِ وَالْإِجْلَالِ؛ أَمَّا إِذَا حَمِدَ الْإِنْسَانُ رَبَّهُ بِصِيغَةِ (أَحْمَدُ اللهَ) مَعَ أَنَّ قَلْبَهُ غَافِلٌ عَنْ مَعْنَى التَّعْظِيمِ اللَّائِقِ بِجَلَالِ اللهِ فَهُوَ مُقَصِّرٌ وَيُخْشَى أَنْ يَكُونَ كَاذِبًا؛ لِأَنَّهُ عِنْدَمَا حَمِدَ -وَهُوَ غَافِلٌ- يُخْبِرُ عَنْ نَفْسِهِ أَنَّهُ حَامِدٌ، وَهُوَ لَمْ يَقُمْ بِمَا يَنْبَغِي أَنْ يَقُومَ بِهِ مِنَ الْحَمْدِ اللَّائِقِ بِجَلَالِ اللهِ، وَهُنَا يُعَلِّمُنَا اللهُ ﷻ الْمَخْرَجَ مِنْ ذَلِكَ بِأَنْ نَقُولَ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، فَيَكُونُ مَعْنَاهَا: الْحَمْدُ لِلهِ ثَابِتٌ دَائِمٌ، فَسَوَاءٌ كَانَ الْحَامِدُ غَافِلًا أَمْ مُسْتَحْضِرًا لِمَعْنَى التَّعْظِيمِ فَإِنَّهُ يَكُونُ صَادِقًا؛ لِأَنَّ مَعْنَاهُ أَنَّ الْحَمْدَ حَقٌّ لِلهِ، وَمِلْكٌ لَهُ[2].

مُقْتَضَيَاتُ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ فِي سُورَةِ الْفَاتِحَةِ:

وَالْحَمْدَلَةُ بِصِيغَتِهَا الَّتِي فِي الْفَاتِحَةِ تَقْتَضِي ثَلَاثَةَ مُقْتَضَيَاتٍ:

الْمُقْتَضَى الْأَوَّلُ: الْفَضْلُ:

فَهِيَ تَدُلُّ عَلَى فَضْلِ اللهِ ﷻ عَلَى الْعَالَمِ؛ فَقَدْ تَفَضَّلَ اللهُ ﷻ فَخَلَقَ الْعَالَمَ، وَكَرَّمَ بَنِي آدَمَ: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ

(١) أحمد (٣/ ٤٢٤)، وقال الهيثمي في المجمع: "رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح (٦/ ١٢٢)".

(٢) تفسير الرازي١/ ١٩١، التحرير والتنوير (١/ ١٥٧).

خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٠]، ثُمَّ هُوَ سُبْحَانَهُ مَا أَرَادَ بِخَلْقِ الْكَوْنِ إِلَّا الْخَيْرَ لَهُ، وَهَذَا تَفَضُّلٌ آخَرُ، فَالْحَمْدُ إِقْرَارٌ بِفَضْلِهِ الْعَظِيمِ، وَعَطَائِهِ الْعَمِيمِ، وَإِحْسَانِهِ الدَّائِمِ، الْقَائِمِ مِنْهُ وَالْمُتَقَادِمِ.

لَكَ الْحَمْدُ مَا أَغْنَاكَ رَبِّي وَأَكْرَمَا ... لَكَ الْحَمْدُ مَا أَوْلَيْتَ رَبَّاهُ أَنْعُمَا
لَكَ الْحَمْدُ مَا طَافَ الْحَجِيجُ وَكَبَّرُوا ... لَكَ الْحَمْدُ مَا لَبَّى الْمُهِلُّ وَأَحْرَمَا
لَكَ الْحَمْدُ مَا نَاجَى الْمُحِبُّونَ رَبَّهُمْ ... وَبَاتُوا لِمَوْلَاهُمْ سُجُودًا وَقُوَّمَا
لَكَ الْحَمْدُ مَا الرُّكْبَانُ سَارَتْ بِظُعْنِهَا ... لَكَ الْحَمْدُ مَا حَادٍ لِمَكَّةَ يَمَّمَا
لَكَ الْحَمْدُ مَا صَبٌّ لِطَيْبَةَ قَدْ سَعَى ... وَصَلَّى عَلَى طَهَ النَّبِيِّ وَسَلَّمَا
لَكَ الْحَمْدُ مَا رَعْدٌ يُسَبِّحُ رَبَّهُ ... لَكَ الْحَمْدُ مَا بَرْقٌ تَهَلَّلَ فِي السَّمَا
لَكَ الْحَمْدُ مَا مُزْنٌ أَفَاضَتْ فَأَسْبَلَتْ ... لَكَ الْحَمْدُ مَا غَيْثٌ تَحَدَّرَ أَوْ هَمَى[1]

الْمُقْتَضَى الثَّانِي: إِقْرَارُ الْحَامِدِ بِأَنَّ الْمَحْمُودَ هُوَ الْإِلَهُ الْحَقُّ الَّذِي لَهُ

صِفَاتُ الْعَظَمَةِ، وَمَعَانِي الْجَلَالِ، كَالْمَشِيئَةِ وَالْإِرَادَةِ وَالرَّحْمَةِ وَالْكَرَمِ؛ فَالْحَمْدَلَةُ إِقْرَارٌ بِالْأُلُوهِيَّةِ، وَإِقْرَارٌ بِاسْتِحْقَاقِ الْمَحْمُودِ صِفَاتِ الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ، وَاعْتِرَافٌ لَهُ بِالْفَضْلِ وَالْإِنْعَامِ. وَالْحَدِيثُ الَّذِي يُبَيِّنُ جَوَابَ اللهِ لِعَبْدِهِ عِنْدَ قِرَاءَتِهِ الْفَاتِحَةَ عَلَى ثَلَاثِ مَرَاتِبَ فِي تَعْظِيمِ اللهِ تَعَالَى: الْحَمْدُ، وَالثَّنَاءُ، وَالتَّمْجِيدُ:

فَالْحَمْدُ يُوصِلُ إِلَى مَقَامِ الْقُرْبِ مِنَ اللهِ تَعَالَى بِالثَّنَاءِ عَلَيْهِ ﷻ بِقَوْلِ الْعَبْدِ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾، وَالثَّنَاءُ يُوصِلُ مَقَامَ التَّمْجِيدِ بِقَوْلِ الْعَبْدِ: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾، وَقَدْ ذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ: أَنَّ سُورَةَ الْفَاتِحَةِ تَحْتَوِي عَلَى هَذِهِ الْمَرَاتِبِ الثَّلَاثِ؛ حَيْثُ قَالَ: «فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ

(١) الأبيات للدكتور: سعيد بن دحباج وفقه الله.

رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ قال الله: حَمِدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ قَالَ اللهُ: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ قَالَ اللهُ: مَجَّدَنِي عَبْدِي».

الْمُقْتَضَى الثَّالِثُ: الطُّمَأْنِينَةُ وَالرَّاحَةُ وَالسَّكِينَةُ:

فَإِنَّهَا إِحْدَى الْوَسَائِلِ الْعَظِيمَةِ الْمُرِيحَةِ لِلنَّفْسِ عِنْدَ تَكْرَارِهَا؛ لِتُعَبِّرَ عَنْ شُكْرِ الْعَبْدِ لِرَبِّهِ ﷻ؛ حَيْثُ يُرَدِّدُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ فِي كُلِّ حَالٍ، فَهُوَ بِتَرْدِيدِهِ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ يَشْعُرُ أَنَّ اللهَ ﷻ هُوَ مَصْدَرُ الْمَحَامِدِ وَالْمَحَاسِنِ كَافَّةً، وَهُوَ صَاحِبُ الصِّفَاتِ الْعُلْيَا وَالْكَمَالَاتِ الْمُثْلَى، كَمَا قِيلَ:

لَكَ الْحَمْدُ وَالْأَحْلَامُ ضَاحِكَةُ الثَّغْرِ ... لَكَ الْحَمْدُ وَالْأَيَّامُ دَامِيَةُ الظُّفْرِ
لَكَ الْحَمْدُ وَالْأَفْرَاحُ تَرْقُصُ فِي دَمِي ... لَكَ الْحَمْدُ وَالْأَتْرَاحُ تَعْصِفُ فِي صَدْرِي[1]

وَلِلَّهِ مَا قَالَهُ بَعْضُ الْمُتَعَبِّدِينَ فِي الشُّعُورِ بِجَمَالِ حَمْدِ الْحَامِدِينَ:

رَبِّي لَكَ الْحَمْدُ لَا أُحْصِي الْجَمِيلَ إِذَا ... نَفَثْتُ يَوْمًا شَكَاةَ الْقَلْبِ فِي كُرَبِ!
فَلَا تُؤَاخِذْ إِذَا زَلَّ اللِّسَانُ، وَمَا ... شَيْءٌ سِوَى الْحَمْدِ فِي الضَّرَّاءِ يَجْمُلُ بِي
لَكَ الْحَيَاةُ كَمَا تَرْضَى بَشَاشَتُهَا ... فِيمَا تُحِبُّ، وَإِنْ بَاتَتْ عَلَى غَضَبِ
رَضِيتُ فِي حُبِّكَ الْأَيَّامَ جَائِرَةً ... فَعَلْقَمُ الدَّهْرِ إِنْ أَرْضَاكَ كَالْعَذِبِ

(١) لغازي القصيبي ﷺ.

سُوَرُ الحمد (المُحَمَّدَات): من الإجمال إلـــى التفصيل في معنى الربوبيـــــــة

01 سورة الفاتحة:

ربوبية التعريف والإجمال: تُؤسس المبدأ الجامع لربوبية الله الشاملة على كل العوالم، وتكون أصلاً لما بعدها من تفصيل.

02 سورة الأنعام:

ربوبية الخلق والإيجاد: تُبيِّن ربوبيته في خلق الكون المنظور (السموات والأرض) وتعاهده بالحفظ والنظام.

03 سورة الكهف:

ربوبية التشريع والهداية: تُبيِّن ربوبيته بإنزال الكتاب المسطور (القرآن) كدستور لتربية الإنسان وهداية الكون.

04 سورة سبأ:

ربوبية المُلك والسيادة: تُبيِّن ربوبيته في ملكه للحضارات؛ فيسخرها لمن يشاء (داود وسليمان) ويمنعها عمن تمرد (سبأ).

05 سورة فاطر:

ربوبية الفَطر والإبداع: تُبيِّن ربوبيته في الخلق على غير مثال سابق؛ من الذرات والخلايا إلى أعظم المخلوقات كالملائكة.

سُورُ الْحَمْدِ (الْمُحَمِّدَاتُ): وَهِيَ السُّوَرُ الَّتِي افْتُتِحَتْ بِلَفْظِ (الْحَمْدِ لِلَّهِ) تُفَصِّلُ فِي افْتِتَاحِيَّاتِهَا مَعْنَى ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وَتُبَيِّنُ رُبُوبِيَّتَهُ لِلْكَوْنِ.

وَهُنَا قَدْ تَطْرَحُ سُؤَالًا: مَا السُّوَرُ الَّتِي افْتُتِحَتْ بِالْحَمْدِ لِلَّهِ؟ وَهَلْ كُلُّهَا تُوَضِّحُ نَفْسَ الْمَعْنَى الْمَوْجُودِ فِي سُورَةِ الْفَاتِحَةِ؟ وَكَيْفَ كَانَتْ هَذِهِ السُّوَرُ شَارِحَةً وَمُوَضِّحَةً لِسُورَةِ الْفَاتِحَةِ الَّتِي هِيَ مَفْتَتَحُ هَذِهِ السُّوَرِ؟

الْجَوَابُ:

تَحَوَّلْ مَعِي مِنَ الْآيَاتِ الْكَوْنِيَّةِ إِلَى الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ؛ لِتَرَى هَذَا الِانْسِجَامَ الرَّائِعَ، وَالْإِحْكَامَ الْعَظِيمَ فِي الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ؛ فَقَدِ افْتَتَحَ اللهُ -تَعَالَى ذِكْرُهُ- خَمْسَ سُوَرٍ بِالْحَمْدِ أَوَّلاهُنَّ: الْفَاتِحَةُ، وَالْأَرْبَعُ الْبَاقِيَاتُ تُفَصِّلُ مَعْنَى ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، فَهِيَ تُفَصِّلُ افْتِتَاحِيَّةَ الْفَاتِحَةِ.

السُّورَةُ الْأُولَى: سُورَةُ الْأَنْعَامِ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الْأَنْعَام: ١]:

فَذَكَرَ اللهُ تَعَالَى مِنْ أَقْسَامِ الْعَالَمِينَ فِي افْتِتَاحِيَّةِ هَذِهِ السُّورَةِ: خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَجَعْلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورِ.

وَالْخَلْقُ وَالْجَعْلُ قِسْمٌ مِنْ أَقْسَامِ التَّرْبِيَةِ الْمُسْتَفَادَةِ مِنْ لَفْظِ (رَبِّ)؛ فَإِنَّهَا تَشْمَلُ: الْخَلْقَ ابْتِدَاءً، وَالتَّرْبِيَةَ تَعَاهُدًا. وَمِنَ التَّرْبِيَةِ لِلْكَوْنِ تَعَاهُدُهُ بِبَقَائِهِ فِي عَظَمَتِهِ وَنِظَامِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ [الحَج : ٦٥]، وَكَذَلِكَ تَكَفُّلُهُ بِحِفْظِهِ وَعَدَمِ فَسَادِهِ، أَوِ الْعَبَثِ بِهِ، أَوْ تَغْيِيرِهِ.

السُّورَةُ الثَّانِيَةُ: سُورَةُ الْكَهْفِ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الكهف:١]:

فَذَكَرَ فِي الْأَنْعَامِ الْكَوْنَ الْمَنْظُورَ، وَذَكَرَ فِي الْكَهْفِ الْكِتَابَ الَّذِي هُوَ الدُّسْتُورُ الْمَسْطُورُ لِهَذَا الْكَوْنِ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْكَوْنَ يَحْتَاجُ إِلَى الْمِيثَاقِ الدَّائِمِ وَالْمِنْهَاجِ الْعَظِيمِ الْمُلَازِمِ لِبِنَاءِ الشَّخْصِيَّةِ الْمُسْلِمَةِ وَرِعَايَتِهَا؛ مِمَّا يُؤَدِّي إِلَى تَشْيِيدِ الْمُجْتَمَعِ بِالصَّالِحَاتِ، وَالْأَفْعَالِ الْخَيِّرَاتِ، وَمُرَاقَبَتِهِ بِالْهَيْمَنَةِ عَلَى أَنْظِمَتِهِ حَتَّى لَا يَنْحَرِفَ أَوْ يَنْجَرِفَ أَوْ يَزِيغَ.

وَهَذَا جُزْءٌ مِنْ مَعْنَى التَّرْبِيَةِ الْوَارِدَةِ فِي كَلِمَةِ ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ فَالتَّرْبِيَةُ إِمَّا أَنْ تَكُونَ تَرْبِيَةَ الطَّبِيعَةِ بِأَنْ خَلَقَ اللهُ ﷻ الْإِنْسَانَ عَلَى طَبِيعَةٍ مُحَدَّدَةٍ، وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ تَرْبِيَةً بِإِنْزَالِ الشَّرِيعَةِ الَّتِي تُدَبِّرُ وَتُقَدِّرُ وَتُبَيِّنُ كَيْفَ يَتَصَرَّفُ هَذَا الْجَسَدُ أَوْ هَذَا الْمَخْلُوقُ.

السُّورَةُ الثَّالِثَةُ: سُورَةُ سَبَإٍ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [سبأ: ١]:

خُذْ هَذَا الْإِشْرَاقَ الْقُرْآنِيَّ الْمُدْهِشَ! إِنَّ ذِكْرَ الْحَمْدَلَةِ فِي أَوَّلِ سُورَةِ سَبَإٍ لَفْتٌ لِلْأَنْظَارِ عَلَى هَيْئَةٍ فَرِيدَةٍ؛ فَسُورَةُ الْأَنْعَامِ ذَكَرَتِ الْخَلْقَ لِلْمَخْلُوقَاتِ الْعُظْمَى وَهِيَ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَسُورَةُ الْكَهْفِ ذَكَرَتْ سِيَاسَةَ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ بِالْكِتَابِ، وَسُورَةُ سَبَإٍ بَيَّنَتْ عِزَّةَ الْأُلُوهِيَّةِ وَالْمَالِكِيَّةِ؛ مِمَّا يَقْتَضِي أَنْ تُذْعِنَ الْحَضَارَاتُ لِنِظَامِهِ، وَتَسِيرَ وَفْقَ مُرَادِهِ وَكَلَامِهِ. فَذَكَرَ اللهُ ﷻ الْحَضَارَةَ الرَّبَّانِيَّةَ الشَّامِخَةَ الَّتِي أَقَامَهَا دَاوُدُ وَسُلَيْمَانُ ﷺ، وَفِي الْمُقَابِلِ ذَكَرَ اللهُ ﷻ فِي سَبَإٍ حَضَارَةً إِنْسَانِيَّةً هِيَ حَضَارَةُ سَبَإٍ الَّتِي تَمَرَّدَتْ عَلَى النِّظَامِ الْإِلَهِيِّ، وَظَنَّتْ أَنَّ لَهَا الْحَقَّ فِي التَّحَكُّمِ بِحَيَاتِهَا وَفْقَ نِظَامٍ عَبَثِيٍّ اخْتَرَعَتْهُ، وَأَظْهَرَتِ التَّبَخْتُرَ الثَّقَافِيَّ حَتَّى طَالَبَ قَوْمُ سَبَإٍ بِمَا يَدُلُّ عَلَى الْغُرُورِ الْحَضَارِيِّ، فَقَالُوا بَطِرِينَ أَشِرِينَ: ﴿رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ [سبأ: ١٩]، فَنَاسَبَ أَنْ يَبْدَأَهَا اللهُ ﷻ بِذِكْرِ أَنَّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يُسَخِّرُهَا لِمَنْ يَشَاءُ، وَيَمْنَعُ مِنْهَا أَصْحَابَ الْآرَاءِ الْعَبَثِيَّةِ الَّتِي تَتَلَاعَبُ بِهَا الْأَمْزِجَةُ وَالْأَهْوَاءُ.

وَهَذَا جُزْءٌ مِنْ مَعَانِي التَّرْبِيَةِ فِي ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

السُّورَةُ الرَّابِعَةُ: سُورَةُ فَاطِرٍ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر:١]:

أَمَّا هَذِهِ السُّورَةُ فَتَعْرِيفٌ مُتَجَدِّدٌ بِعَظَمَةِ الْخَالِقِ بِأُسْلُوبٍ آخَرَ؛ فَقَدْ فَطَرَ اللهُ ﷻ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، فَأَوْجَدَ الذَّرَّاتِ وَالْخَلَايَا الْمُشَارَ إِلَيْهَا بِخَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فِي سُورَةِ (الْأَنْعَامِ)، وَذَكَرَ فِي فَاطِرٍ أَنَّهُ فَطَرَهَا؛ أَيْ: ابْتَدَأَهَا عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ سَابِقٍ، كَمَا فَطَرَ جَمِيعَ الْمَخْلُوقَاتِ الْحَيَّةِ وَغَيْرِهَا، حَتَّى أَوْجَدَ مِنْهَا أَعَاظِمَ الْمَخْلُوقَاتِ كَالْمَلَائِكَةِ أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ، وَأَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ. وَقَدْ أَخْبَرَ النَّبِيُّ -ﷺ- أَنَّ جِبْرِيلَ لَهُ (٦٠٠) جَنَاحٍ ﴿يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فاطر:١].

وَقَدْ رَوَى جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مِنْ أَمْثِلَةِ هَذَا الْفَطْرِ لِلذَّرَّاتِ وَالْخَلَايَا لِتُكَوِّنَ مَخْلُوقَاتٍ عَظِيمَةً شَيْئًا مُذْهِلًا، حَيْثُ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَةِ اللهِ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ: إِنَّ مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَى عَاتِقِهِ مَسِيرَةُ سَبْعِمِائَةِ عَامٍ»(١)، وَبَيْنَ هَذَا الْخَلْقِ الْعَظِيمِ لِلْمَلَائِكَةِ، وَبَيْنَ فَطْرِ الذَّرَّاتِ وَالْخَلَايَا لِتَكْوِينِ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ الْعَظِيمَةِ تَتَّضِحُ لَنَا صُورَةٌ مِنْ صُوَرِ التَّرْبِيَةِ لِلْأَجْسَادِ مِمَّا وَرَدَ فِي قَوْلِهِ: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

وَمِنْ أَمْثِلَةِ الْفَطْرِ: الْخَلِيَّةُ الَّتِي تَتَكَوَّنُ مِنْ مَنَوِيِّ الْتَقَى بِالْبُوَيْضَةِ الْمَوْجُودَةِ فِي الْأُنْثَى، فَتَكَوَّنَتْ مِنْهُمَا خَلِيَّةٌ هِيَ الْمَشِيجُ، وَيُسَمِّيهِ الْعُلَمَاءُ الْمُعَاصِرُونَ: الزِّيجُوتَ، فَتَنْفَطِرُ هَذِهِ الْخَلِيَّةُ، لِتُصْبِحَ خَلِيَّتَيْنِ، ثُمَّ تَنْفَطِرُ كُلٌّ مِنْهُمَا، إِلَى أَرْبَعٍ، إِلَى (١٦) وَهَكَذَا، حَتَّى تُصْبِحَ تريليونات مِنَ الْخَلَايَا، تُكَوِّنُ هَذَا الْجَسَدَ الْإِنْسَانِيَّ الْمَوْجُودَ.

---

(١) أبو داود (٢ / ٦٤٥)، وإسناده جيد، كما قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٢٣٩، وصححه الحافظ ابن حجر في «الفتح» ٨/ ٦٦٥، ونحو ذلك ما رواه أحمد بن حنبل (١ / ٤٦٠)، قال رسول الله ﷺ: «**رَأَيْتُ جِبْرِيلَ وَلَهُ سِتُّمِائَةِ جَنَاحٍ يَنْتِرُ مِنْ رِيشِهِ التَّهَاوِيلُ الدُّرُّ وَالْيَاقُوتُ**»، قال ابن كثير في تفسيره – ط. طيبة – ٧/ ٤٥١: «وهذا إسناد جيد قوي».

الْمَوْضُوعَاتُ الَّتِي تَنَاوَلَتْهَا سُوَرُ الْحَمْدِ:

وَمِنَ الْعَلَاقَاتِ الْوَارِدَةِ بَيْنَ سُوَرِ الْحَمْدِ (الْمُحَمِّدَاتِ) الْأَرْبَعِ الْمُفَصِّلَةِ لِلْحَمْدَلَةِ فِي الْفَاتِحَةِ مَا أَشَارَ إِلَيْهِ بَدِيعُ الزَّمَانِ النُّورْسِيُّ ﵀ مِنْ أَنَّ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا نَاظِرَةٌ إِلَى نِعْمَةٍ مِنَ النِّعَمِ الْأَسَاسِيَّةِ الَّتِي هِيَ:

النَّشْأَةُ الْأُولَى فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ؛ إِذْ قَالَ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ...﴾ [الأنعام: ١] ومَا بَعْدَها.

وَطَبِيعَةُ الْبَقَاءِ فِي هَذِهِ النَّشْأَةِ فِي سُورَةِ الْكَهْفِ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ۝١﴾ [الكهف:١] ؛ إذ نَحْتَاجُ إِلَى الْقُرْآنِ الَّذِي يُدِيرُ وَيُدَبِّرُ وَنَسِيرُ وَفْقَ تَشْرِيعَاتِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف:٧] وَالْقَصَصُ الْمَذْكُورَةُ فِيهَا.

وَالنَّشْأَةُ الْأُخْرَى فِي سُورَةِ سَبَأٍ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝١﴾، [سبأ:١] حيث قال ﷻ في هذه السورة: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ [سبأ:٣].

وَطَبِيعَةُ الْبَقَاءِ بَعْدَهَا فِي سُورَةِ فَاطِرٍ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١﴾ [فاطر:١]، حَيْثُ ذَكَرَ لِلْمُؤْمِنِينَ دَارَ الْمُقَامَةِ، وَقَالَ عَنِ الْكَافِرِينَ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر:٣٦].

السور المختتمة بالحمد: دلالات الختام

01 سورة الإسراء:

يأتي الحمد في ختامها تقريراً لوحدانية الله المطلقة ونفياً قاطعاً لأي شريك له في الملك.

02 سورة النمل:

يأتي الحمد مقترناً بالوعد بإظهار الآيات التي تقيم الحجة الدامغة على الخلق وتعرفهم بخالقهم.

03 سورة الصافات:

يأتي الحمد تتويجاً لتنزيه الله عن كل وصف لا يليق به، وسلامه على المرسلين الذين بلغوا الحق.

04 سورة الزمر:

يأتي الحمد ككلمة فصل تُقال بعد أن يقضي الله بين الخلائق بالحق وتتجلى عدالته المطلقة في نهاية المطاف.

05 سورة النصر:

يأتي الأمر بالحمد عند تحقق النصر ودخول الناس في دين الله، كشكر على تمام النعمة وبشارة بمستقبل الإسلام.

السُّورَةُ الَّتِي اخْتُتِمَتْ بِالْحَمْدِ:

وَهُنَا يَتَسَاءَلُ مُتَعَجِّبٌ مِنْ حُسْنِ الرَّبْطِ الْقُرْآنِيِّ بَيْنَ سُوَرِ الْحَمْدِ، فَيَقُولُ: وَهَلْ هُنَاكَ سُوَرٌ اخْتُتِمَتْ بِالْحَمْدِ؟ وَمَا دَلَالَاتُهَا؟

الْجَوَابُ: نَعَمْ، لَا تَقْطَعْ عَجَبَكَ وَتَسْبِيحَكَ فِي تَأَمُّلَاتِكَ الْقُرْآنِيَّةِ! فَهَاهُنَا أَمْرٌ مُتَمِّمٌ لِمَا سَبَقَ؛ فَكَمَا افْتَتَحَ خَمْسَ سُوَرٍ بِالْحَمْدِ فَقَدِ اخْتَتَمَ خَمْسَ سُوَرٍ بِالْحَمْدِ:

السُّورَةُ الْأُولَى: سُورَةُ الْإِسْرَاءِ، حَيْثُ قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء:١١١].

وَيَلْفِتُكَ هُنَا اقْتِرَانُ الْحَمْدِ لِلَّهِ، بِنَفْيِ الشَّرِيكِ لَهُ فِي الْمُلْكِ، وَهَلْ ذَلِكَ إِلَّا تَقْرِيرٌ لِوَحْدَانِيَّةِ رُبُوبِيَّتِهِ الْمُطْلَقَةِ عَلَى الْعَالَمِينَ وَعَلَى جَمِيعِ مَا فِي الْكَوْنِ؟

السُّورَةُ الثَّانِيَةُ: سُورَةُ النَّمْلِ، حَيْثُ قَالَ -جَلَّ مَجْدُهُ-: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [النمل:٩٣]، وَهُنَا اقْتِرَانٌ بَيْنَ الْحَمْدِ لِلَّهِ، وَآيَاتِهِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي يُقِيمُ بِهَا الْحُجَّةَ عَلَى عِبَادِهِ.

السُّورَةُ الثَّالِثَةُ: سُورَةُ الصَّافَّاتِ، حَيْثُ قَالَ -تَعَالَى ذِكْرُهُ-: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات:١٨٠- ١٨٢].

السُّورَةُ الرَّابِعَةُ: سُورَةُ الزُّمَرِ، حَيْثُ قَالَ -تَقَدَّسَ فِي عُلَاهُ-: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۚ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الزمر:٧٥]، وَالْحَمْدُ يَأْتِي ذِكْرُهُ هُنَا مُقْتَرِنًا بِذِكْرِ قِصَّةِ نِهَايَةِ الْحَيَاةِ وَقِيَامِ الْقِيَامَةِ، وَالْفَصْلِ بَيْنَ الْخَلَائِقِ بِالْحَقِّ.

السُّورَةُ الْخَامِسَةُ: سُورَةُ النَّصْرِ، حَيْثُ قَالَ -تَعَالَى جَدُّهُ-: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر:١-٣].

أَلَا تَرَى أَنَّ آخِرَ سُورَةٍ مُسَبِّحَةٍ بِالْحَمْدِ هِيَ سُورَةُ النَّصْرِ؟ وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى مُسْتَقْبَلِ هَذَا الدِّينِ، وَأَنَّهُ مَنْصُورٌ مَهْمَا تَكَالَبَ عَلَيْهِ أَعْدَاؤُهُ، وَكَثُرَ خُصُومُهُ، فَالنَّصْرُ حَلِيفُهُ.

اللَّهُمَّ اقْسِمْ لَنَا مِنْهُ أَوْفَرَ الْحَظِّ وَالنَّصِيبِ يَا قَرِيبُ يَا مُجِيبُ.

جِسْرُ اتِّصَالٍ: عَرَّفْنَا الْبَصِيرَةَ الثَّانِيَةَ مِنْ بَصَائِرِ الْمَقْصِدِ الثَّانِي مِنْ مَقَاصِدِ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ، وَهِيَ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أَجْمَلُ مَا تَتَزَيَّنُ بِهِ الْأَفْوَاهُ وَيُرَدِّدُهُ الْقَانِتُ الْأَوَّاهُ، فَمَا الْبَصِيرَةُ الثَّالِثَةُ؟

الْجَوَابُ:

الْبَصِيرَةُ الثَّالِثَةُ

﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ اسْمٌ يُبَيِّنُ حَقَّ الرُّبُوبِيَّةِ لِلَّهِ، وَبَرَاهِينَهُ

الْمُنَاسَبَةُ وَالِاتِّصَالُ: هَذِهِ الْآيَةُ تَصِفُ لَكَ الدَّلِيلَ الْوَاضِحَ الْوَاسِعَ عَلَى اسْتِحْقَاقِ اللهِ لِأَنْ يَكُونَ الْإِلَهَ الْحَقَّ. أَرَأَيْتَ كَيْفَ عَرَّفَ اللهُ بِنَفْسِهِ -تَعَالَى ذِكْرُهُ- فِي الْبَسْمَلَةِ؟ أَلَمْ تَجِدْ فِي الْبَسْمَلَةِ تَعْرِيفَهُ بِأَعْظَمِ صِفَاتِهِ؟ وَهُنَا رُبَّمَا تَسَاءَلْتَ عَنِ الدَّلِيلِ عَلَى اسْتِحْقَاقِ اللهِ لِأَنْ يَكُونَ الْإِلَهَ الْحَقَّ الْأَوَّلَ وَالْآخِرَ... سَيَكُونُ الْجَوَابُ دُونَ تَرَدُّدٍ؛ لِأَنَّهُ ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

> **تَرَى فِي ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ جَمَالَ الِانْتِقَالِ الْمَنْطِقِيِّ مِنْ تَعْرِيفِ اللهِ بِنَفْسِهِ وَالتَّعْرِيفِ بِأَسَاسِ صِفَاتِهِ فِي الْبَسْمَلَةِ إِلَى تَعْرِيفِ الْعَالَمِ بِأَنْفُسِهِمْ وَكَوْنِهِمْ، فَالْعَالَمُونَ وُجِدُوا لِأَنَّ اللهَ ﷻ رَبَّاهُمْ.**

وَثَمَّ مَلْمَحٌ آخَرُ فِي الصِّلَةِ بَيْنَ هَذِهِ الْآيَةِ وَمَا قَبْلَهَا، فَبَعْدَ أَنْ عَرَفْتَ فِي الْبَسْمَلَةِ أَنَّ أَعْظَمَ الْحَقَائِقِ، وَهِيَ حَقِيقَةُ التَّعَرُّفِ إِلَى اللهِ الَّذِي أَعْظَمُ صِفَاتِهِ صِفَةُ الرَّحْمَةِ، جَاءَتْ فِي هَذِهِ الْآيَةِ تَجَلِّيَاتُ تِلْكَ الرَّحْمَةِ، وَهِيَ تَتَلَخَّصُ فِي أَنَّ اللهَ خَلَقَ (الْعَالَمَ)، وَأَصْلَحَهُ شَيْئًا فَشَيْئًا، وَهَذَا مَعْنَى أَنَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ.

أَفَلَا تَرَى أَنَّهُ بِذَلِكَ يَكُونُ أَهْلًا لِأَنْ يُشْكَرَ -جَلَّ مَجْدُهُ-؟ وَرُبَّمَا تَسَاءَلْتَ: فَكَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ نَشْكُرَهُ؟

هُنَا يَأْتِيكَ الْجَوَابُ بِلَا تَأَخُّرٍ وَلَا اضْطِرَابٍ: قُلْ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

المعاني الثرية لكلمة (رب)

01 السيد المُطاع، كما قال تعالى:

﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ [يوسف:23].

02 المربي والمصلح للشيء

أي المربي للخلق حالًا فحالًا، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم﴾ [النساء:23].

03 المالك المتصرف

ومنه قوله تعالى: ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ [يوسف:50].

04 الخالق المُوجد

(معنى لازم لـ "رب العالمين")، لأن تربية كل العوالم تقتضي بالضرورة أنه خالقها.

وَهُنَا سَتَتَسَاءَلُ: مَا مَعْنَى كَلِمَةِ (رَبّ)؟ وَكَيْفَ فَهِمْنَا قِصَّةَ الْحَيَاةِ، وَأَدِلَّةَ أُلُوهِيَّةِ اللهِ الْخَالِقِ وَحُقُوقِ الْخَلْقِ مِنْ خِلَالِ هَذَا الِاسْمِ الْعَظِيمِ ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؟

وَلِلْجَوَابِ عَلَى ذَلِكَ هَلُمَّ بِنَا إِلَى التَّأَمُّلِ الْمَاتِعِ، وَالتَّدَبُّرِ الْمُسْتَلَذِّ الَّذِي يَنْبَعِثُ مِنْ خِلَالِ هَذَا الِاسْمِ الْمُبَارَكِ، فَالرَّبُّ مَصْدَرٌ أَوْ صِفَةٌ مُشَبَّهَةٌ عَلَى وَزْنِ (فَعْلٍ)، وَهِيَ كَلِمَةٌ تَدُلُّ عَلَى ثَلَاثِ مَعَانٍ، وَبِاعْتِبَارِ إِضَافَتِهَا إِلَى (الْعَالَمِينَ) تَسْتَلْزِمُ مَعْنًى رَابِعًا:

الْمَعْنَى الْأَوَّلُ: الْمُرَبِّي الْمُصْلِحُ لِلشَّيْءِ حَالًا فَحَالًا لِيَكُونَ فِي أَحْسَنِ أَحْوَالِهِ:

وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم﴾ [النساء:٢٣]، فَالرَّبَائِبُ جَمْعُ رَبِيبَةٍ، وَهِيَ بِنْتُ الزَّوْجَةِ الَّتِي يُرَبِّيهَا الْمَرْءُ فِي حِجْرِهِ يَحْمِيهَا، وَيَحْفَظُهَا، وَيَحْرُسُهَا، وَيُدَبِّرُ أُمُورَهَا، فَكَلِمَةُ (رَبّ) مَأْخُوذَةٌ مِنْ رَبَّهَ يَرُبُّهُ بِمَعْنَى رَبَّاهُ، وَهُوَ رَبٌّ بِمَعْنَى مُرَبٍّ وَسَائِسٍ، وَاللهُ -جَلَّ فِي عُلَاهُ- يَسُوسُ عِبَادَهُ بِأَفْضَلِ مَا يَرْفَعُهُمْ وَيَنْفَعُهُمْ وَيُمْتِعُهُمْ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يونس:٦٠].

فَرَبُّ الْعَالَمِينَ: خَلَقَ الْكَوْنَ، ثُمَّ تَعَاهَدَهُ بِتَرْبِيَتِهِ، وَصَبَغَهُ بِأَحْسَنِ صِبْغَةٍ فِي الْأُمُورِ الطَّبِيعِيَّةِ، وَالتَّكَالِيفِ الشَّرْعِيَّةِ، الَّتِي تُمَثِّلُ أَفْضَلَ الْقَوَانِينِ التَّدْبِيرِيَّةِ لَهُ لِتَنْسَجِمَ أَجْزَاؤُهُ، وَتَتَنَاسَقَ مَخْلُوقَاتُهُ، فَقَدْ جَعَلَ أَنْظِمَةَ الشَّرِيعَةِ مُتَنَاغِمَةً مُنْسَجِمَةً مَعَ مَخْلُوقَاتِ الطَّبِيعَةِ ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾ [البقرة:١٣٨].

فَالصِّيَامُ وَالصَّلَاةُ وَسَائِرُ الْعِبَادَاتِ، وَهَكَذَا تَرْكُ الْمُحَرَّمَاتِ وَالْآثَامِ كُلُّهَا تَرْجِعُ لِتَرْبِيَةِ نَفْسِ الْإِنْسَانِ، وَلِمَصْلَحَتِهِ، فَرَبُّنَا الَّذِي خَلَقَهُ غَنِيٌّ عَنْهُ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ وَآنٍ.

وَكَلِمَةُ ﴿رَبِّ﴾ تَمْنَحُنَا الْمَعْنَى الْعَظِيمَ لِتَرْبِيَةِ اللهِ ﷻ لِعِبَادِهِ فِي خَلْقِ طَبَائِعِهِمْ، وَفِي تَرْبِيَةِ أَرْوَاحِهِمْ وَإِدَارَةِ حَيَاتِهِمْ.

الْمَعْنَى الثَّانِي: فَالرَّبُّ هُوَ السَّيِّدُ الْمُطَاعُ:

كَمَا قَالَ تَعَالَى يُوسُفُ عليه السلام: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَ﴾ [يوسف:٢٣] أَيْ: سَيِّدِي فِي أَحَدِ التَّفْسِيرَيْنِ، وَكَمَا قَالَ لَبِيدُ بْنُ رَبِيعَةَ:

وَأَهْلَكْنَ يَوْمًا رَبَّ كِنْدَةَ وَابْنَهُ ... وَرَبَّ مَعَدٍّ، بَيْنَ خَبْتٍ وَعَرْعَرِ[1]

يَعْنِي: سَيِّدَ كِنْدَةَ، وَسَيِّدَ مَعَدٍّ.

الْمَعْنَى الثَّالِثُ: الرَّبُّ هُوَ الْمَلِكُ الْمَالِكُ لِلشَّيْءِ:

وَيَدُلُّ عَلَى هَذَا أَيْضًا قَوْلُ يُوسُفَ عليه السلام لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْ صَاحِبَيْهِ فِي السِّجْنِ: ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ [يُوسُف: ٤٢] وَقَالَ أَيْضًا لِلرَّسُولِ: ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ [يُوسُف: ٥٠] يَعْنِي إِلَى مَلِكِكَ، وَقَدْ قَالَ صَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ مُبَيِّنًا أَنَّ الرَّبَّ يَأْتِي بِمَعْنَى الْمَالِكِ: لَأَنْ يَرُبَّنِي رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يَرُبَّنِي رَجُلٌ مِنْ هَوَازِنَ[2]، أَيْ: لَأَنْ يَمْلِكَنِي.

فَتَأَمَّلْ -أَعَزَّكَ اللهُ تَعَالَى بِطَاعَتِهِ- تَجِدْ أَنَّ هَذِهِ الْمَعَانِيَ اللُّغَوِيَّةَ الثَّلَاثَ (السَّيِّدَ، وَالْمُصْلِحَ، وَالْمَالِكَ) قَدِ اجْتَمَعَتْ فِي صُورَتِهَا الْمُطْلَقَةِ فِي هَذَا الِاسْمِ الْمُبَارَكِ (رَبُّ الْعَالَمِينَ)، وَلَكِنَّكَ تُضِيفُ لَهَا مَعْنًى رَابِعًا لَا يَتَّصِفُ بِهِ إِلَّا رَبُّ الْعَالَمِينَ.

فَرَبُّ الْعَالَمِينَ تَعْنِي خَالِقَهُمْ، إِذْ كَوْنُهُ مُرَبِّيَ الْعَالَمِ يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ هُوَ خَالِقَهُمْ، وَإِلَّا فَمِنْ أَيْنَ أَتَوْا؟

وَبِذَلِكَ وَضَحَ لَنَا مَعْنَى كَلِمَةِ ﴿رَبِّ﴾، وَتَبَيَّنَ لَنَا أَنَّ جَمِيعَ مَعَانِيهَا ثَابِتَةٌ لِلَّهِ تَعَالَى.

---

(١) ديوان لبيد بن ربيعة، (ص: ٤٦).

(٢) أبو يعلى (٣/ ٣٨٨)، وذكر المحقق أن إسناده حسن.

كَمَا تَظْهَرُ الْمُنَاسَبَةُ الرَّائِعَةُ وَالِاتِّصَالُ الْمُحْكَمُ الْحَكِيمُ بَيْنَ قِسْمَيِ الْآيَةِ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ و﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، إِذَا قَالَ الْعَبْدُ الَّذِي تَعَرَّفَ إِلَى اللهِ وَاقْتَنَعَ بِعَظَمَتِهِ دُونَ النَّظَرِ إِلَى دَلِيلٍ يَدُلُّهُ عَلَيْهِ سِوَاهُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، فَعِنْدَ ذَلِكَ رُبَّمَا سَأَلَهُ سَائِلٌ مِنَ الَّذِينَ لَمْ يَقَعْ فِي قُلُوبِهِمْ حُبُّ اللهِ أَوْ مَعْرِفَتُهُ جَهْلًا أَوْ عِنَادًا: لِمَاذَا نَحْمَدُهُ؟ أَلِمُجَرَّدِ أَنَّهُ اللهُ؟ فَمَا دَلِيلُ أُلُوهِيَّتِهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ؟ مَا الَّذِي مَيَّزَهُ عَنِ الْآلِهَةِ الْمُدَّعَاةِ (كَاللَّاتِ، وَالْعُزَّى، وَفِرْعَوْنَ، وَالْمَادَّةِ)، فَكَمَا أَنَّ لَهُ اسْمًا فَلِغَيْرِهِ مِنَ الْآلِهَةِ الْمُدَّعَاةِ أَسْمَاءٌ؟ فَلِمَاذَا هُوَ وَحْدَهُ يَسْتَحِقُّ الْحَمْدَ؟

فَيُجِيبُ مَنْ آمَنَ بِاللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ: نَحْمَدُهُ لِأَنَّهُ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ. فَيُرَاجِعُهُ الْآخَرُ، وَيَقُولُ: الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ صِفَتَانِ ذَاتِيَّتَانِ، فَأَيْنَ فِعْلُهُ فِي وَاقِعِ الْحَيَاةِ حَتَّى يَظْهَرَ ضَلَالُ مَنْ يُشْرِكُ مَعَ اللهِ تِلْكَ الْآلِهَةَ الْمُزَيَّفَةَ؟

فَيَأْتِيهِ الْجَوَابُ: أَحْمَدُهُ لِأَنَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ الَّذِي بِاسْمِهِ انْطَلَقَتِ الْحَيَاةُ، فَتَضَمَّنَ هَذَا الِاسْمُ (رَبُّ الْعَالَمِينَ) أَسَاسَ الْبَرَاهِينِ عَلَى صِدْقِ الرُّبُوبِيَّةِ، وَخُرَافَةِ الشِّرْكِ وَالْإِلْحَادِ، فَأَعْظَمُ أَدِلَّةِ أُلُوهِيَّتِهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ وَاسْتِحْقَاقِهِ الْحَمْدَ أَنَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ أَيْ: مُرَبِّي الْكَوْنِ، وَكُلُّ مَا ذُكِرَ مِنْ أَدِلَّةِ رُبُوبِيَّتِهِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فَهُوَ تَفْصِيلٌ لِهَذَا الدَّلِيلِ، كَالْأَدِلَّةِ الَّتِي سَاقَهَا إِبْرَاهِيمُ ﷺ عَلَى النُّمْرُودِ.

وَلَعَلَّكَ تَسْأَلُ: مِنْ أَيْنَ نَفْهَمُ أَنَّ كَلِمَةَ الْعَالَمِينَ تُدَمِّرُ مَعَانِيَ الْإِلْحَادِ وَالشِّرْكِ الْمُنْتَشِرِ فِي الْوُجُودِ، وَالْمُسْتَشْرِي بَيْنَ النُّفُوسِ؟

الْجَوَابُ: كَلِمَةُ (الْعَالَمِينَ) تَضْرِبُ الْإِلْحَادَ فِي الصَّمِيمِ؛ لِأَنَّهَا تُمَثِّلُ الْعَدَدَ الْهَائِلَ الْمُدْهِشَ الَّذِي يُشَكِّلُ كُلُّ جُزْءٍ فِيهِ دَلِيلًا مُبْهِرًا عَلَى وُجُودِ اللهِ.

مَعْنَى كَلِمَةِ الْعَالَمِينَ:

هَذَا الِاسْمُ الْمُبَارَكُ (رَبُّ الْعَالَمِينَ) يُعَرِّفُكَ بِاللهِ مِنْ خِلَالِ مَخْلُوقَاتِهِ، بَعْدَ أَنْ عَرَّفَكَ اللهُ نَفْسَهُ بِاسْمِهِ وَبِأَعْظَمِ صِفَاتِهِ فِي الْبَسْمَلَةِ وَالْحَمْدَلَةِ، **وَسَتَسْأَلُ: مَا مَعْنَى ﴿الْعَالَمِينَ﴾؟**

الْجَوَابُ:

﴿الْعَالَمِينَ﴾ جَمْعُ الْعَالَمِ، وَهُوَ جَمْعٌ لَا وَاحِدَ لَهُ مِنْ لَفْظِهِ، وَهُوَ اسْمٌ لِأَصْنَافِ الْأُمَمِ، فَالْعَالَمُ كُلُّ مَوْجُودٍ سِوَى اللهِ ﷻ، فَهُوَ (مُوجِدُهُمْ وَخَالِقُهُمْ)، وَالْأَلِفُ وَاللَّامُ فِي الْعَالَمِينَ لِاسْتِغْرَاقِ الْأَجْنَاسِ، وَكُلُّ صِنْفٍ مِنْهَا عَالَمٌ، وَأَهْلُ كُلِّ قَرْنٍ مِنْ كُلِّ صِنْفٍ مِنْهَا عَالَمُ ذَلِكَ الْقَرْنِ وَذَلِكَ الزَّمَانِ، فَالْإِنْسُ عَالَمٌ، وَكُلُّ أَهْلِ زَمَانٍ مِنْهُمْ عَالَمُ ذَلِكَ الزَّمَانِ، وَالْجِنُّ عَالَمٌ، وَكَذَلِكَ سَائِرُ أَجْنَاسِ الْخَلْقِ، كُلُّ جِنْسٍ مِنْهَا عَالَمُ زَمَانِهِ، عِنْدَمَا نَقُولُ: "عَالَمٌ" تَشْعُرُ

بِأَنَّهُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ مُفْرَدًا، وَهُوَ يَحْتَوِي عَلَى عَدَدٍ لَا نِهَائِيٍّ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ، فَمَثَلًا نَقُولُ: عَالَمُ الْجَسَدِ الْبَشَرِيِّ انْظُرْ كَمْ عَدَدُ الْمَخْلُوقَاتِ فِيهِ، فَلَوْ حَسَبْتَ كُرَيَّاتِ الدَّمِ الْبَيْضَاءِ، وَهِيَ عَالَمٌ، وَكُرَيَّاتِ الدَّمِ الْحَمْرَاءِ وَهِيَ عَالَمٌ آخَرُ، فَأَنْتَ أَمَامَ عَوَالِمَ لَا عَالَمًا وَاحِدًا، فَكَمْ يُمْكِنُكَ أَنْ تَعُدَّ أَوْ تَحْسُبَ؟

فَالدَّمُ عَالَمٌ مُسْتَقِلٌّ، وَدَاخِلَهُ تُوجَدُ عَوَالِمُ مُسْتَقِلَّةٌ، وَالْخَلِيَّةُ عَالَمٌ مُسْتَقِلٌّ، وَدَاخِلَهَا تُوجَدُ عَوَالِمُ مُسْتَقِلَّةٌ، وَالْجِلْدُ عَالَمٌ مُسْتَقِلٌّ، وَكَمْ عَدَدُ الْعُرُوقِ وَالشَّرَايِينِ؟ وَهَذِهِ الرِّمَالُ الْمَوْجُودَةُ عَلَى الْأَرْضِ هَلْ يُمْكِنُ أَنْ تُحْصِيَ حُبَيْبَاتِهَا، وَالْعُلَمَاءُ يَقُولُونَ: النُّجُومُ الْمَوْجُودَةُ فِي السَّمَاءِ أَعْظَمُ عَدَدًا مِنْ حَبَّاتِ الرِّمَالِ الْمَوْجُودَةِ عَلَى الْأَرْضِ. سُبْحَانَ اللهِ، هَذَا شَيْءٌ هَائِلٌ.

وَهَذِهِ بَعْضُ الْعَوَالِمِ الْمَنْظُورَةِ أَوِ الْمَعْرُوفَةِ، فَكَمْ يُوجَدُ مِنْ عَوَالِمَ فِي هَذَا الْوُجُودِ غَيْرِ مَنْظُورَةٍ؟ وَإِذَا أَضَفْتَ إِلَيْهَا غَيْرَ الْمَعْرُوفَةِ فَكَمْ تُصْبِحُ عَدَدُ الْعَوَالِمِ؟

هَلْ شَعَرْتَ بِعُمْقٍ بِمِقْدَارِ هَذِهِ الْكَلِمَةِ وَفَخَامَتِهَا ﴿الْعَالَمِينَ﴾؟

تَصَوَّرْ أَنَّ الْخَلِيَّةَ الصَّغِيرَةَ عَالَمٌ بَلْ عَوَالِمُ، وَأَنَّ الذَّرَّةَ عَالَمٌ بَلْ عَوَالِمُ، فَمَا بَالُكَ بِمَا هُوَ أَكْبَرُ مِنْ هَذِهِ الْعَوَالِمِ؟!

هُنَا تُدْرِكُ قُوَّةَ وَعُمْقَ الْإِقْنَاعِ الَّذِي أُوتِيَهُ مُوسَى -عَلَيْهِ وَعَلَى نَبِيِّنَا أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ- عِنْدَمَا بَيَّنَ مَنْ رَبُّ الْعَالَمِينَ عِنْدَمَا سُئِلَ عَنْهُ، فَقَدْ فَصَّلَ بَعْضَ كِبَارِ الْمَخْلُوقَاتِ الَّتِي تَدْخُلُ فِي الْعَالَمِينَ مِمَّا حَكَاهُ اللهُ فِي قَوْلِهِ -تَعَالَى مَجْدُهُ-: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الشعراء: ٢٣ - ٢٨].

لَمْ يَقُلْ: (وَمَنْ رَبُّ الْعَالَمِينَ)، وَذَلِكَ لِأَنَّ السُّؤَالَ هُنَا دَقِيقٌ، لِأَنَّهُ يَسْأَلُ عَنْ حَقِيقَةِ رَبِّ الْعَالَمِينَ؟

فَأَخْبَرَهُ مُوسَى عليه السلام بِمَا يُفِيدُ أَنَّكَ يَنْبَغِي أَنْ تَتَعَرَّفَ عَلَى اللهِ بِصِفَاتِهِ وَمَخْلُوقَاتِهِ، فَقَالَ: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢٤].

فَأَحْرَجَ فِرْعَوْنَ الَّذِي يَقُولُ: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤]، وَيَقُولُ: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]، فَلَا يُمْكِنُ أَنْ يُقَارِنَ نَفْسَهُ بِاللهِ الَّذِي هُوَ ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾.

فَمَاذَا قَالَ؟ شَوَّشَ عَلَى هَذِهِ الْإِجَابَةِ الْعَظِيمَةِ، فَقَالَ: ﴿لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ [الشعراء: ٢٥].

فَأَعْرَضَ مُوسَى عليه السلام عَنْهُ، وَمَضَى يُعَرِّفُ بِاللهِ مِنْ خِلَالِ مَخْلُوقَاتِهِ، فَقَالَ: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ٢٥].

فَأَحْرَجَ فِرْعَوْنَ مُجَدَّدًا، فَكَيْفَ يُقَارِنُ نَفْسَهُ مَعَ اللهِ، وَهُوَ رَبُّ كُلِّ الْعَوَالِمِ فِي كُلِّ مَكَانٍ وَزَمَانٍ، فَعَادَ فِرْعَوْنُ لِلتَّشْوِيشِ ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧]،

وَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهِ مُوسَى عليه السلام، ﴿قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٨]، فَكَأَنَّهُ يَقُولُ: يَظْهَرُ أَنَّ الْجُنُونَ عِنْدَكُمْ، فَكَيْفَ لَا تَعْبُدُونَ رَبَّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ. فَاعْجَبْ مِنْ قُوَّةِ هَذَا الْمَعْنَى!

فَكُلُّ فَرْدٍ فِي الْعَالَمِينَ دَلِيلٌ عَلَى رُبُوبِيَّتِهِ وَإِلَهِيَّتِهِ سبحانه وتعالى، فَالْعَالَمُونَ -كَمَا يَقُولُ التَّفْتَازَانِيُّ فِي «حَاشِيَةِ الْكَشَّافِ»-: اسْمٌ «لِكُلِّ جِنْسٍ يُعْلَمُ بِهِ الْخَالِقُ» (التَّحْرِيرُ وَالتَّنْوِيرُ ١/١٦٨) فَالْعَالَمُ عَلَامَةٌ عَلَى الْخَالِقِ -جَلَّ فِي عُلَاهُ-.

عَوَالِمُ لَا تُرَى:

كُلُّ ذَرَّةٍ مَخْلُوقَةٍ فِي الْكَوْنِ دَلِيلٌ قَائِمٌ بِذَاتِهِ عَلَى اللهِ تَعَالَى.

وَلِيَظْهَرَ لَكَ ذَلِكَ تَعَالَ مَعِيَ فِي رِحْلَةٍ قَصِيرَةٍ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ الْمُثِيرَةِ:

إِنَّهَا قِصَّةُ عَالَمٍ كَامِلٍ مُذْهِلٍ يَخْتَبِئُ فِي جُزْءٍ غَيْرِ مَنْظُورٍ فِي جِسْمِ الْإِنْسَانِ، إِنَّهَا قِصَّةُ عَالَمِ الشَّرِيطِ النَّوَوِيِّ الْوِرَاثِيِّ (DNA)، وَلِتَتَخَيَّلَ ذَلِكَ خُذِ الْمَعْلُومَاتِ الْأَوَّلِيَّةَ الْآتِيَةَ:

يَتَكَوَّنُ جِسْمُ الْإِنْسَانِ مِنْ (١٠٠) تريليون خَلِيَّةٍ حَيَّةٍ تَقْرِيبًا، وَالتِّرِيلْيُونُ يُسَاوِي (مِلْيُونَ مِلْيُونٍ) وَكُلُّ خَلِيَّةٍ مِنْهَا تَحْتَوِي عَلَى نَوَاةٍ تَتَحَكَّمُ بِالْخَلِيَّةِ، وَمَرْكَزُ تَحَكُّمِ النَّوَاةِ عِبَارَةٌ عَنْ (٤٦) كُرُومُسُومٍ، يَتَكَوَّنُ كُلُّ كُرُومُسُومٍ مِنْهَا مِنْ شَرِيطَيْنِ مَجْدُولَيْنِ مِنَ الْمُرَكَّبَاتِ الْكِيمْيَائِيَّةِ يُسَمَّيَانِ: الْحَمْضَ النَّوَوِيَّ الْوِرَاثِيَّ (DNA).

تَأَمَّلِ الْمُفَاجَأَةَ الْمُدْهِشَةَ لَوْ تَمَّ فَرْدُ هَذِهِ الشَّرَائِطِ لِلْخَلِيَّةِ الْوَاحِدَةِ لَبَلَغَتْ مِتْرَيْنِ، وَلَوْ تَمَّ فَرْدُ شَرَائِطِ (DNA) الْمَوْجُودَةِ فِي كُلِّ خَلِيَّةٍ مِنْ خَلَايَا إِنْسَانٍ وَاحِدٍ فَقَطْ وَتَوْصِيلِهَا مَعًا، لَصَارَتْ

كَافِيَةً لِلتَّوْصِيلِ بَيْنَ الْأَرْضِ وَالشَّمْسِ (١٣٣) مَرَّةً، عِلْمًا بِأَنَّ الْمَسَافَةَ بَيْنَهُمَا تُسَاوِي (١٤٧,٦) مِلْيُونَ كِيلُومِتْرٍ تَقْرِيبًا!

هَذَا التَّصْمِيمُ الَّذِي يَأْخُذُ الْأَنْفَاسَ أَخَذَ أَنْفَاسَ أَحَدِ أَشْهَرِ الْمُلْحِدِينَ الْمُعَاصِرِينَ هُوَ (أَنْتُونِي فْلُو) بُرُوفِيسُورُ الْفَلْسَفَةِ الْبِرِيطَانِيُّ الَّذِي كَانَ مِنْ أَشْهَرِ الْمُدَافِعِينَ عَنِ الْإِلْحَادِ أَكْثَرَ مِنْ نِصْفِ قَرْنٍ تَقْرِيبًا، إِذْ بَدَأَ يَكْتُبُ مُؤَصِّلًا لِلْإِلْحَادِ مُنْذُ عَامِ (١٩٥٠م)، فَفَكَّرَ وَقَدَّرَ ثُمَّ قَرَّرَ أَمْرًا يُحَارِبُ فِيهِ الْفِطْرَةَ الضَّرُورِيَّةَ الْمَوْجُودَةَ فِي كُلِّ إِنْسَانٍ بِوُجُودِ الْإِلَهِ، لَقَدْ قَرَّرَ أَنَّ الْإِلْحَادَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ هُوَ الْمَوْقِفَ الِافْتِرَاضِيَّ لِلْإِنْسَانِ، وَلَيْسَ الْإِيمَانَ! وَأَنَّ الَّذِي يَدَّعِي وُجُودَ إِلَهٍ عَلَيْهِ أَنْ يَأْتِيَ بِالْبَيِّنَةِ!

الْمُدْهِشُ أَنَّ بَحْثَهُ الصَّادِقَ قَادَهُ إِلَى الْحَقِيقَةِ الَّتِي لَا يُنْكِرُهَا إِلَّا الْمُعَانِدُ؛ لَقَدْ قَادَتْهُ أَبْحَاثُهُ إِلَى الْإِيمَانِ بِوُجُودِ إِلَهٍ فِي عَامِ (٢٠٠٤م)، حَيْثُ بَلَغَ عُمْرُهُ (٨١) عَامًا، وَفِي عَامِ (٢٠٠٧م) كَتَبَ كِتَابَهُ الْمُحَطِّمَ لِلْإِلْحَادِ وَسَطَ دَهْشَةِ الْمُلْحِدِينَ: هُنَاكَ إِلَهٌ (كَيْفَ غَيَّرَ أَشْهَرُ مُلْحِدٍ رَأْيَهُ).

There is a God)
How the World's Most Notorious)
(Atheist Changed His Mind

وَكَانَ مِنْ أَهَمِّ عَوَامِلِ هَذَا التَّغَيُّرِ مَبْدَأُ (الْعَالَمِينَ) الَّذِي يُشِيرُ دُونَ تَرَدُّدٍ إِلَى ضَرُورَةِ وُجُودِ رَبٍّ لَهُمْ، فَقَدْ رَاعَهُ هَذَا التَّصْمِيمُ الْمُدْهِشُ لِجُزْءٍ صَغِيرٍ غَيْرِ مَرْئِيٍّ فِي كُلِّ فَرْدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ هُوَ الشَّرِيطُ النَّوَوِيُّ الْوِرَاثِيُّ الْمُسَمَّى (DNA)، وَمِنْ أَقْوَالِهِ: «لَقَدْ أَثْبَتَتْ أَبْحَاثُ عُلَمَاءِ الْأَحْيَاءِ فِي مَجَالِ الْحَمْضِ النَّوَوِيِّ الْوِرَاثِيِّ، وَمَعَ التَّعْقِيدَاتِ شِبْهِ الْمُسْتَحِيلَةِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالتَّرْتِيبَاتِ اللَّازِمَةِ لِإِيجَادِ (الْحَيَاةِ)؛ أَثْبَتَتْ أَنَّهُ لَا بُدَّ حَتْمًا مِنْ وُجُودِ قُوَّةٍ خَارِقَةٍ وَرَاءَهَا»، كَمَا تَعَجَّبَ (أَنْتُونِي فْلُو) مِنْ صِدْقِ حَقَائِقِ مَا قَالَهُ (لِيدْ أَدْلَمَانْ) مِنْ جَامِعَةِ (سَاوِثْ كَالِيفُورِينَا فِي لُوسْ

أَنْجِلُوسْ): «بِأَنَّ جِرَامًا وَاحِدًا مِنَ الْحَمْضِ النَّوَوِيِّ يُمْكِنُ أَنْ يُخَزَّنَ مِنْ وَرَائِهِ قَدْرًا مِنَ الْمَعْلُومَاتِ يَكْفِي لِـ تريليون مِنَ الدِّيسْكَاتِ الْمَضْغُوطَةِ الَّتِي نَعْرِفُهَا»[1].

انْظُرْ لِلْعَدَدِ الْهَائِلِ مِنَ الْمَعْلُومَاتِ الَّتِي يُكَوِّنُهَا هَذَا الْقَدْرُ الضَّئِيلُ مِنْ هَذَا الْمَخْلُوقِ الَّذِي لَا يُرَى، بَلْ هِيَ عَوَالِمُ مُتَعَدِّدَةٌ فِي نَوَاةٍ لِخَلِيَّةٍ وَاحِدَةٍ ضِمْنَ (١٠٠) مِلْيُونِ مِلْيُونٍ (تريليون) خَلِيَّةٍ تُكَوِّنُ جِسْمَ الْإِنْسَانِ فَمَنْ أَبْدَعَهَا؟ وَمَنْ سَوَّاهَا؟ وَمَنْ بَرْمَجَهَا؟ إِنَّهُمْ جَمِيعًا أَدِلَّةٌ مَحْسُوسَةٌ عَلَى ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

إِنَّ هَذَا الشَّرِيطَ النَّوَوِيَّ الْوِرَاثِيَّ الْمُسَمَّى (DNA) يَحْمِلُ تَوْقِيعًا مُؤَكَّدًا عَلَى أَنَّ لَهُ مُصَمِّمًا عَالِمًا قَادِرًا خَبِيرًا سَمِيعًا بَصِيرًا هُوَ رَبُّ الْعَالَمِينَ،.. وَهَذَا الِاسْتِنْتَاجُ لَيْسَ مِنْ عِنْدِنَا مَعَ اعْتِزَازِنَا بِهِ بَلْ هُوَ ثَمَرَةُ كِتَابِ (تَوْقِيعٍ فِي الْخَلِيَّةِ) لِلدُّكْتُورِ (سْتِيفِنْ مَايَرْ)[2].

وَمَا أَصْدَقَ مَا قَالَهُ لَبِيدٌ:

فَوَاعَجَبًا كَيْفَ يُعْصَى الْإِلَهُ ... أَمْ كَيْفَ يَجْحَدُهُ الْجَاحِدُ
وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ ... تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدُ
وَلِلَّهِ فِي كُلِّ تَحْرِيكَةٍ ... وَتَسْكِينَةٍ أَبَدًا شَاهِدُ[3]

---

(١) صَحِيحٌ أَنَّ الرَّجُلَ آمَنَ بِالْإِلَهِ الْإِرِسْطُوطَالِيسِيِّ كَمَا يُفْهَمُ مِنْ كَلَامِهِ، وَصَحِيحٌ أَنَّ مَوْقِفَهُ مِنَ الْإِسْلَامِ كَانَ قَرِيبًا مِنَ مَوْقِفِهِ مِنَ الْمَسِيحِيَّةِ لَكِنَّ مَحَلَّ الِاسْتِشْهَادِ هُوَ بَحْثُهُ عَنْ حَقِيقَةِ الْوُجُودِ وَعَنْ ضَرُورَةِ وُجُودِ إِلَهٍ، وَكُفْرُهُ بِهُرَاءِ الْإِلْحَادِ.

(٢) انظر: توقيع في الخلية (الدنا وأدلة التصميم الذكي) للدكتور ستيفن ماير، ترجمة د.آلاء حسكي وآخرون، نشر مركز براهين ط١، ٢٠١٧م.

(٣) محاضرات الأدباء، (٢/ ٤١٠)، وينسبها بعضهم لأبي العتاهية.

قِصَّةُ وَزِيرٍ مُسْلِمٍ مَعَ يَابَانِيٍّ يَتَسَاءَلُ عَنْ دَلِيلِ الرُّبُوبِيَّةِ، وَمِفْتَاحُ الْجَوَابِ ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾:

ذَكَرَ لِي أَحَدُ الْوُزَرَاءِ مَرَّةً أَنَّهُ كَانَ مُشَارِكًا فِي مُؤْتَمَرٍ، وَعَلَى هَامِشِ الْمُؤْتَمَرِ قَابَلَ أَحَدَ أَعْضَاءِ الْوَفْدِ الْيَابَانِيِّ، فَأَخْبَرَهُ أَنَّهُمْ يَعْبُدُونَ فِي الْيَابَانِ ثَمَانِيَةَ آلَافِ إِلَهٍ، فَأَجَابَهُ الْوَزِيرُ الْمُسْلِمُ: لَكِنَّنَا نَعْبُدُ إِلَهًا وَاحِدًا. فَسَأَلَهُ الْيَابَانِيُّ سُؤَالًا حَاسِمًا: مَا دَلِيلُ الْوَحْدَانِيَّةِ؟ قَالَ لِيَ الْوَزِيرُ: فَبُهِتُّ لِأَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ أُقَدِّمَ لَهُ دَلِيلًا وَاضِحًا قَاطِعًا، فَاسْتَعْرَضْتُ دِرَاسَتِي الشَّرْقِيَّةَ، وَدِرَاسَتِي فِي الْوِلَايَاتِ الْمُتَّحِدَةِ لِأُقَدِّمَ إِجَابَةً سَرِيعَةً تَقْطَعُ قَوْلَ كُلِّ خَطِيبٍ، فَارْتَبَكْتُ.

قُلْتُ لَهُ: يَظْهَرُ لِي أَنَّ سُورَةَ الْفَاتِحَةِ تُقَدِّمُ لَنَا إِجَابَةً حَاسِمَةً: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إِنَّهَا الْكَلِمَةُ الَّتِي تَخْتَصِرُ لَكَ كُلَّ الْبَرَاهِينِ وَالدَّلَائِلِ، وَتَقْطَعُ كَلَامَ كُلِّ مُتَطَاوِلٍ، إِنَّهَا تَحْسِمُ الْقَضِيَّةَ مَعَ كُلِّ مُتَفَاخِرٍ بِالْإِلْحَادِ الْخُرَافِيِّ، فَمَهْمَا قَالَ مَنْ يَعْبُدُ عَمَّا يَعْبُدُهُ، تَقُولُ لَهُ: أَنَا أَعْبُدُ رَبَّ مَنْ تَعْبُدُهُ أَنْتَ.

فَإِنْ سَأَلَ سَائِلٌ: لِمَاذَا لَا يَكُونُ الْإِلَهُ الْحَقُّ فِرْعَوْنَ كَمَا ادَّعَى حِينَ قَالَ: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤]؟

فَأَجِبْهُمْ: لِأَنَّ الْإِلَهَ الْحَقَّ لَيْسَ فِرْعَوْنَ بَلْ رَبُّ الْعَالَمِينَ، إِنَّهُ رَبُّ فِرْعَوْنَ.

لِمَاذَا لَا يَكُونُ الْإِلَهُ الْحَقُّ (هُبَلَ) مَعْبُودَ الْجَاهِلِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ الْأُولَى؟

فَأَجِبْهُمْ: لِأَنَّ الْإِلَهَ الْحَقَّ رَبُّ هُبَلَ الَّذِي خَلَقَ الْحِجَارَةَ الَّتِي تَكَوَّنَ مِنْهَا هُبَلُ.

لِمَاذَا لَا يَكُونُ الْإِلَهُ الْحَقُّ (الشَّمْسَ) الْمَعْبُودَ الْأُمَمِيَّ لِلْجَاهِلِيَّاتِ الْعَالَمِيَّةِ الْقَدِيمَةِ؟

لِمَاذَا لَا نَعْبُدُ الْبَقَرَ وَالشَّجَرَ وَالْحَجَرَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَغَيْرَهَا مِنْ مَعْبُودَاتِ الْخَلْقِ؟

فَأَجِبْهُمْ: لِأَنَّنَا نَعْبُدُ رَبَّهَا جَمِيعًا، إِنَّهُ اللهُ (رَبُّ الْعَالَمِينَ) الَّذِي سَخَّرَهَا لَنَا ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت:٣٧].

وَاعْلَمْ -يَا رَعَاكَ اللهُ- أَنَّكَ عِنْدَمَا تُقِيمُ الْحُجَّةَ عَلَيْهِمْ بِهَذَا، إِنَّمَا تُقِيمُهَا بِمَا اسْتَقَرَّ فِي بَوَاطِنِهِمْ، وَأَقَرَّتْ بِهِ عُقُولُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ، إِنَّمَا تُقِيمُ الْحُجَّةَ عَلَيْهِمْ بِالْفِطَرِ الْمُسْتَكِنَّةِ فِي أَفْئِدَتِهِمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (٦١) اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٦٢) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٦١ - ٦٣].

وَهُنَا تَعْلَمُ جَمَالَ ذِكْرِ هَذَا الِاسْمِ الْمُبَارَكِ (رَبُّ الْعَالَمِينَ) فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ؛ إِذْ يَقُولُ اللهُ ﷻ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وَخِطَابٌ كَهَذَا لَا يَحْتَاجُ كَبِيرَ عَنَاءٍ فِي مُخَاطَبَةِ النَّاسِ بِهِ، وَلَا إِلَى وَفْرَةٍ مِنْ عِلْمٍ لِتَقْوِيَةِ أَدِلَّتِهِ، وَتَكْثِيرِ حُجَجِهِ وَبَرَاهِينِهِ.

إِنَّ تَقْرِيرَ وَحْدَانِيَّةِ اللهِ وَتَفَرُّدِهِ بِالرُّبُوبِيَّةِ عَلَى الْخَلْقِ مَعْنًى تَتَلَقَّاهُ الْعُقُولُ السَّلِيمَةُ بِالْقَبُولِ عِنْدَ أَوَّلِ سَمَاعِهِ، وَيُسَلِّمُ بِهِ وَلَهُ الْمُتَبَحِّرُ فِي عِلْمٍ أَوْ ثَقَافَةٍ، وَالْبَسِيطُ بَلْ وَالْجَاهِلُ الَّذِي لَمْ يَخُطَّ سَوْدَاءَ فِي بَيْضَاءَ، وَمَا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ بِالشَّهَادَةِ الْعُظْمَى (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ)، الْمُوقِنِينَ بِعُبُودِيَّتِهِمْ لِرَبِّهِمْ (رَبِّ الْعَالَمِينَ) إِلَّا أَنْ يَجْهَرُوا بِهَا فِي الْآفَاقِ، وَيُعْلِنُوهَا فِي أُذُنِ الدُّنْيَا قَوِيَّةً

مُدَوِّيَةً، وَأَنْ يُنَادُوا بِهَا الْأُمَمَ وَالشُّعُوبَ مِنْ أَقْصَى الْأَرْضِ إِلَى أَقْصَاهَا أَنْ آمِنُوا بِاللهِ (رَبِّ الْعَالَمِينَ).

قُلْ لِلتَّائِهِينَ مِنَ الْبَشَرِ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ غَيْرَ اللهِ:

إِنَّهُ رَبُّ كُلِّ فَرْدٍ فِي الْعَالَمِينَ مِمَّنْ تَعْبُدُونَهُمْ. وَهُنَا تَعْلَمُ لِمَاذَا تَكُونُ أَوَّلُ بَيِّنَاتِ نُوحٍ ﷺ قَوْلَهُ: ﴿يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦١]، وَأَوَّلُ بَيِّنَاتِ هُودٍ ﷺ قَوْلَهُ: ﴿يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦٧]، وَأَوَّلُ بَيِّنَاتِ مُوسَى ﷺ قَوْلَهُ: ﴿يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٤].

إِنَّ اللهَ يُبَيِّنُ لَكَ الدَّلِيلَ الَّذِي لَا يُمْكِنُ النِّزَاعُ حَوْلَهُ لِاسْتِحْقَاقِهِ أَنْ يَكُونَ الْإِلَهَ الْحَقَّ، وَسِوَاهُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ لِأَنَّهُ «رَبُّ الْعَالَمِين».

تَرَى الْأَنْبِيَاءَ يُصِرُّونَ عَلَى ذِكْرِ هَذِهِ الصِّفَةِ، لِأَنَّهَا الصِّفَةُ الَّتِي تَقْطَعُ كَلَامَ أَيِّ وَاحِدٍ يُرِيدُ أَنْ يَتَطَاوَلَ، وَأَنْ يَتَنَكَّرَ لِأَوْضَحِ الْوَاضِحَاتِ، وَيَجْحَدَ كُبْرَى الْيَقِينِيَّاتِ، وَيُنَازِعَ فِي مَعْقِدِ الْقَطْعِيَّاتِ.

فَالَّذِي يَقُولُ: هُوَ يَعْبُدُ الشَّمْسَ أَوِ الْحَجَرَ أَوِ الْبَشَرَ قُلْ لَهُ: نَحْنُ نَعْبُدُ رَبَّ هَؤُلَاءِ؛ نَعْبُدُ رَبَّ الْعَالَمِينَ، فَلَا يَمْلِكُ إِلَّا أَنْ يُذْعِنَ لَكَ، أَوْ يُعَانِدَ وَيَسْتَكْبِرَ؟

وَلِذَا قَالَ عُلَمَاؤُنَا عَنِ اللهِ: هُوَ (وَاجِبُ الْوُجُودِ)، وَهَذِهِ عِبَارَةٌ مُحْكَمَةٌ مِنْهُمْ، وَهِيَ تَعْنِي: بِأَنَّهُ عَلَمٌ عَلَى وَاجِبِ الْوُجُودِ، الْجَامِعِ لِصِفَاتِ الْأُلُوهِيَّةِ، وَقَوْلُهُمْ: (وَاجِبُ الْوُجُودِ) أَيْ أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ تَصَوُّرُ الْكَوْنِ الْمَخْلُوقِ مِنْ دُونِهِ، فَكَلِمَةُ ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ عَلَى الْمُلْحِدِينَ، فَمَا لَكُمْ يَا مَنْ يَعِيشُ فِي هَذَا الْعَالَمِ مُعْرِضُونَ غَافِلُونَ عَنْ رَبِّكُمْ؟ ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ١٣﴾ وَقَدْ

﴿خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح:١٤،١٣]، وَمَاذَا يُرِيدُ الْمُلْحِدُونَ؟ مَاذَا يُرِيدُونَ دَلِيلًا عَلَى وُجُودِ اللهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ -جَلَّ فِي عُلَاهُ- أَعْظَمَ مِمَّا يُشَاهِدُونَ أَوْ يَعْرِفُونَ؟

مَاذَا يُرِيدُونَ مِنْ دَلِيلٍ عَلَى إِلَهِيَّةِ اللهِ -جَلَّ فِي عُلَاهُ-؟ أَلَا يَكْفِي أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ لِعَاقِلٍ أَنْ يَتَصَوَّرَ وُجُودَ الْكَوْنِ دُونَ الْخَالِقِ الْعَظِيمِ؟ ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٢٠ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ﴾ [الانشقاق:٢١،٢٠].

إِنَّ كُلَّ ذَرَّةٍ مِنَ الْوُجُودِ تَشْهَدُ بِذَلِكَ.

> قَالَ ابْنُ عَطَاءٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «**كَيْفَ يُعْرَفُ بِالْمَعَارِفِ مَنْ بِهِ عُرِفَتِ الْمَعَارِفُ؟! أَمْ كَيْفَ يُعْرَفُ بِشَيْءٍ مَنْ سَبَقَ وُجُودُهُ وُجُودَ كُلِّ شَيْءٍ؟!**».

فَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَفَكَّرُوا، هَلْ يُمْكِنُ تَصَوُّرُ الْكَوْنِ مِنْ دُونِهِ -عَزَّ جَارُهُ-؟ إِنَّ تَصَوُّرَ الْوُجُودِ دُونَ خَالِقٍ يَدُلُّ عَلَى سَفَهٍ فِي التَّفْكِيرِ، وَخَلَلٍ فِي الْعَقْلِ، وَاسْتِكْبَارٍ فِي النَّفْسِ وَتَعَاظُمٍ بَغِيضٍ فِي الْقَلْبِ، وَقَدْ قَالَ اللهُ عَنْ أَصْحَابِ هَذَا الْمَرَضِ الْعَقْلِيِّ النَّفْسِيِّ الْخُلُقِيِّ: ﴿لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٢١].

إِنَّ الْعُقَلَاءَ لَا يَتَصَوَّرُونَ الْكَوْنَ دُونَ وُجُودِ الْخَالِقِ الَّذِي فَطَرَ الْحَيَاةَ وَالْأَحْيَاءَ، وَأَخْرَجَهُمْ مِنَ الْعَدَمِ إِلَى الْوُجُودِ، فَهُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ، وَوُجُودُهُ ذَاتِيٌّ لَا يُتَصَوَّرُ الْخَلْقُ بِدُونِهِ، وَأَنْتَ تَرَى كَثْرَةَ عَدَدِ الْمَخْلُوقَاتِ وَتَنَوُّعِهَا، وَكُلُّهَا مُفْتَقِرَةٌ إِلَى خَالِقٍ قَطْعًا، كَافْتِقَارِ الْمَصْنُوعَاتِ إِلَى صَانِعٍ، وَلِهَذِهِ الْكَثْرَةِ الْهَائِلَةِ فِي الْعَدَدِ قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس:١٠١]، وَيُرْوَى أَنَّ أَعْرَابِيًّا بَسِيطًا نَظَرَ إِلَى النَّاسِ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَقَالَ: "صُورَةٌ وَاحِدَةٌ

وَخَلْقٌ مُخْتَلِفٌ، مَا هَذَا إِلَّا صُنْعُ رَبِّ الْعَالَمِينَ"[1]، هَذَا صَوْتُ الْفِطْرِيَّةِ السَّوِيَّةِ النَّقِيَّةِ، لَا الْأَهْوَاءُ الْمُدَنَّسَةُ لِلْقُلُوبِ، وَالْعَقْلُ الْمُغَيَّبُ الْمَحْجُوبُ.

وَحَقِيقَةُ مَوْقِفِ الْمُلْحِدِ الْمُنْكِرِ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ أَنَّهُ سَيَنْفِي وُجُودَهُ، وَوُجُودَ الْكَوْنِ مِنْ حَوْلِهِ، وَهَذَا بَاطِلٌ عَقْلًا وَمَرْدُودٌ شَرْعًا.

وَزِيَادَةً فِي الْإِفْحَامِ، وَإِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَى كُلِّ مُلْحِدٍ: تَعَالَ نُقَلِّبُ الطَّاوِلَةَ عَلَى تَفْكِيرِهِ لِنَقِفَ أَمَامَ الْحَقِيقَةِ الصَّارِخَةِ الَّتِي يُصِرُّ عَلَى الْإِعْرَاضِ عَنْهَا، فَنَقُولُ لَهُ -عَلَى أُسْلُوبِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ-:

انْظُرْ هَذِهِ الْكَثْرَةَ الَّتِي تَأْخُذُ الْأَنْفَاسَ لِلْمَخْلُوقَاتِ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، ثُمَّ انْظُرْ ثَانِيَةً إِلَى كَثْرَةِ الْعَوَالِمِ الْمَوْجُودَةِ فِيهَا الَّتِي تُشَكِّلُ أَنْوَاعَهَا، ثُمَّ انْظُرْ كَرَّةً ثَالِثَةً إِلَى الْكَثْرَةِ الْمُدْهِشَةِ فِي جُزْئِيَّاتِ كُلِّ مَخْلُوقٍ، فَإِنَّهَا تَدُلُّ عَلَى الْحِكْمَةِ وَالْخِبْرَةِ الْبَدِيعَةِ عَلَى صُورَةٍ تُشْعِرُ الْعَالِمَ الْمُدَقِّقَ الْمُتَخَصِّصَ فِيهَا بِأَنَّهُ ضَائِعٌ صَغِيرٌ عَاجِزٌ أَمَامَ إِعْجَازِهَا، ثُمَّ انْظُرْ رَابِعَةً إِلَى التَّوَازُنِ الَّذِي يُشَكِّلُهُ خَلْقُ كُلِّ نَوْعٍ مَعَ الْأَنْوَاعِ الْأُخْرَى مِنَ عَوَالِمِ الْمَخْلُوقَاتِ، فَكُلُّ هَذِهِ الْكَثْرَةِ الْمُدْهِشَةِ لِلْأَدِلَّةِ تَدُلُّ عَلَى احْتِيَاجِ الْمَخْلُوقَاتِ الضَّرُورِيِّ إِلَى وُجُودِ خَالِقٍ حَكِيمٍ مُدَبِّرٍ لَطِيفٍ خَبِيرٍ، كُلُّ ذَرَّةٍ فِي الْكَوْنِ، وَكُلُّ تَرْكِيبٍ لِهَذِهِ الذَّرَّاتِ تَدُلُّ عَلَى ضَرُورَةِ وُجُودِ خَالِقٍ وَاحِدٍ مُدَبِّرٍ.

هُنَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَقُولَ لِلْمُلْحِدِ: كَيْفَ تَصْنَعُ أَمَامَ هَذِهِ الْأَدِلَّةِ الْجَارِفَةِ؟

---

(١) محاضرات الأدباء، (٢/ ٤١٠).

إِنَّكَ مَدْعُوٌّ إِلَى تَقْدِيمِ جَوَابٍ صَادِقٍ غَيْرِ مُرَاوِغٍ عَنْ هَذَا السَّيْلِ الْجَرَّارِ مِنَ الْأَدِلَّةِ الْمُدْهِشَةِ، وَهُنَا تُدْرِكُ لِمَاذَا خَتَمَ اللهُ ﷻ تِلْكَ الْآيَةَ فِي سُورَةِ يُونُسَ عليه السلام بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْـَٔايَـٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

أَتُرِيدُ مِثَالًا مَادِيًّا مُشَاهَدًا مَحْسُوسًا مِنَ الْعَالَمِينَ يَدُلُّ عَلَى رَبِّهِمْ ﷻ، فَاسْمَعْ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [غافر: ٦٤].

وَبَعْدَ أَنْ تَرَى أَنَّ أَدِلَّةَ وَحْدَانِيَّةِ اللهِ وَإِلَهِيَّتِهِ بِالْقَدْرِ الَّذِي لَا يُحْصَى، كَيْفَ يُمْكِنُكَ أَنْ تَتَصَوَّرَ أَنَّ عَاقِلًا يَجْعَلُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ -سَوَاءً أَكَانَ بَشَرًا أَمْ حَجَرًا- نِدًّا لِلَّهِ أَوْ شَرِيكًا مَعَهُ -سبحانه وتعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ-؟ إِنَّهُ اللهُ رَبِّي لَا أُرِيدُ سِوَاهُ، هَلْ فِي الْوُجُودِ مُهَيْمِنٌ إِلَّاهُ؟!

إِنَّهُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ:

الشَّمْسُ وَالْبَدْرُ مِنْ آيَاتِ قُدْرَتِهِ ... وَالْبَرُّ وَالْبَحْرُ فَيْضٌ مِنْ عَطَايَاهُ
الطَّيْرُ سَبَّحَهُ، وَالْوَحْشُ مَجَّدَهُ ... وَالْمَوْجُ كَبَّرَهُ، وَالْحُوتُ نَاجَاهُ
وَالنَّمْلُ تَحْتَ الصُّخُورِ الصُّمِّ قَدَّسَهُ ... وَالنَّحْلُ يَهْتِفُ حَمْدًا فِي خَلَايَاهُ
وَالنَّاسُ يَعْصُونَهُ جَهْرًا؛ فَيَسْتُرُهُمْ ... وَالْعَبْدُ يَنْسَى وَرَبِّي لَيْسَ يَنْسَاهُ[1]

الْهَدْيُ النَّبَوِيُّ فِي التَّعْرِيفِ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ:

وَلَمَّا أَرَادَ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يُعَرِّفَ الْبَشَرَ بِرَبِّهِمْ، وَأَرَادَ أَنْ يُبَلِّغَ الْكَوْنَ الْبَلَاغَ الْعَالَمِيَّ؛ لِيُعَرِّفَهُمْ بِرَبِّهِمْ ﷻ قَامَ -كَمَا قَالَ أَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ رضي الله عنه- فَخَطَبَ الْعَالَمَ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ، فَقَالَ ﷺ: «إِنَّ اللهَ ﷻ لَا يَنَامُ، وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ

(١) موسوعة الرقائق والأدب، ياسر الحمداني (ص: ٦٦٥).

اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ، حِجَابُهُ النُّورُ، لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ»[1]، إِنَّهُ اللهُ الَّذِي لَا يُتَصَوَّرُ الْوُجُودُ بِدُونِهِ، فَاسْمَعْ إِلَى فَضِيلَةِ الشَّيْخِ الْجِهْبَذِ مُحَمَّدٍ سَالِمٍ وَلَدِ عَدُّودٍ ﷾ يَنْظِمُ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ:

اللهُ حَقٌّ أَوَّلٌ كَانَ وَلَمْ ... يَكُنْ سِوَاهُ، ثُمَّ مِنْ بَعْدِ الْعَدَمْ

أَنْشَأَ خَلْقَهُ اخْتِيَارًا بِقَدَرْ ... لِحَكَمٍ لَا عَبَثًا، كَمَا ذَكَرْ

بِقَوْلِهِ كُنْ فَيَكُونُ مَا طَلَبْ ... بِلَا عِلَاجٍ أَوْ لُغُوبٍ أَوْ نَصَبْ

قُلْ: صَدَقَ اللهُ، فَمَا فِي اللهِ شَكّ ... مَالِكُ كُلِّ مَالِكٍ وَمَا مَلَكْ

خَالِقُ كُلِّ فَاعِلٍ وَمَا فَعَلْ ... مُسَبِّبُ الْأَسْبَابِ وَاضِعُ الْعِلَلْ

وَتَأَمَّلْ حَسْرَةَ الْمُجْرِمِينَ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهُمْ يَتَذَكَّرُونَ كَيْفَ سَوَّوْا بِاللهِ ﷻ بَعْضَ خَلْقِهِ مُتَحَسِّرِينَ مُتَعَجِّبِينَ مِنْ ضَلَالِهِمْ وَخَبَلِهِمُ الْعَقْلِيِّ حَيْثُ يَقُولُونَ ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ۝٩٧ إِذ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء:٩٧،٩٨]، وَأَمَّا الْعُقَلَاءُ فَإِنَّهُمْ بِمُجَرَّدِ التَّفَكُّرِ وَالنَّظَرِ فِي الْمَخْلُوقَاتِ فِي هَذِهِ الْعَوَالِمِ الَّتِي لَا تُعَدُّ؛ يُذْعِنُونَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ فَيَقُولُونَ: ﴿إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۖ وَأُمِرۡنَا لِنُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام:٧١].

وَلِأَهَمِّيَّةِ ذَلِكَ يُمْكِنُنَا أَنْ نُقَرِّرَ الْبَصِيرَةَ الْقَانُونِيَّةَ الْمَنْطِقِيَّةَ الْمُبَاشِرَةَ فِي دَلَالَةِ الْعَالَمِينَ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ وَأُلُوهِيَّتِهِ سُبْحَانَهُ:

---

(١) مسلم (١ / ١١١).



مَرَاتِبُ تَعْرِيفِ اللهِ ﷻ عِبَادَهُ عَلَيْهِ:

وَهُنَا قَدْ تَجِدُ سَائِلًا يَقُولُ: كَيْفَ عَرَّفَ اللهُ ﷻ نَفْسَهُ إِلَى عُقُولِ الْخَلْقِ؟

> التَّعَرُّفُ عَلَى ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وَهُمُ الْمَخْلُوقَاتُ تُؤَدِّي إِلَى مَعْرِفَةِ أَفْعَالِ الْخَالِقِ، وَمَعْرِفَةُ أَفْعَالِ الْخَالِقِ تُؤَدِّي إِلَى مَعْرِفَةِ صِفَاتِهِ، وَمَعْرِفَةُ صِفَاتِهِ تُؤَدِّي إِلَى مَعْرِفَةِ ذَاتِهِ، أَيْ مَعْرِفَتِهِ سُبْحَانَهُ.

فَهُوَ ﷻ يَتَحَدَّثُ عَنْ نَفْسِهِ إِلَى عُقُولِ الْخَلْقِ عَلَى أَرْبَعِ مَرَاتِبَ:

الْمَرْتَبَةُ الْأُولَى: يَتَجَلَّى ﷻ لِلْخَلْقِ بِآيَاتِهِ وَبَدِيعِ مَخْلُوقَاتِهِ، وَمِنْ آيَاتِهِ الْعَالَمُونَ بِمُخْتَلِفِ أَصْنَافِهِمْ، وَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ تَفْصِيلًا مِثْلُ قَوْلِهِ -عَزَّ مَجْدُهُ-: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِي ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ [الشورى:٣٢]، ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران:١٩٠].

هَلْ يُمْكِنُ لِهَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ أَنْ تَقُومَ وَحْدَهَا؟ هَلْ يُمْكِنُ أَنْ تَسْتَغْنِيَ عَنْ رَبٍّ يُوجِدُهَا وَيَقُومُ عَلَيْهَا حِفْظًا وَرِعَايَةً؟ لَقَدْ حَاوَلَ (جُولِيَانُ هِكْسْلِي) أَنْ يُثْبِتَ ذَلِكَ فَأَلَّفَ كِتَابَهُ: (الْإِنْسَانُ يَقُومُ وَحْدَهُ) (Man Stands Alone) أَيْ: إِنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَحْتَاجُ إِلَى رَبٍّ، فَيُمْكِنُهُ أَنْ يَقُومَ وَحْدَهُ. فَرَدَّ عَلَيْهِ (كْرِيسِي مُورِيسُون) الرَّئِيسُ السَّابِقُ لِأَكَادِيمِيَّةِ الْعُلُومِ بِنِيُورْك، وَرَئِيسُ الْمَعْهَدِ الْأَمْرِيكِيِّ لِمَدِينَةِ نِيُورْك، وَعُضْوُ الْمَجْلِسِ التَّنْفِيذِيِّ لِمَجْلِسِ الْبُحُوثِ الْقَوْمِيِّ بِالْوِلَايَاتِ الْمُتَّحِدَةِ بِكِتَابِهِ: (الْإِنْسَانُ لَا يَقُومُ وَحْدَهُ (Not Does Stand Alone Man) يثبت فيه أن الإنسان لا يُمْكِنُ أَنْ يَقُومَ وَحْدَهُ، بَلْ يَعْتَمِدُ فِي وُجُودِهِ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ.

فَاللهُ يَتَجَلَّى لِلْخَلْقِ مِنْ خِلَالِ الْعَالَمِينَ (الْمَخْلُوقَاتِ) الَّتِي لَا يُمْكِنُهَا الْوُجُودُ وَالِاسْتِمْرَارُ إِلَّا مِنْ خِلَالِ تَرْبِيَةِ رَبِّهَا جَلَّ فِي عُلَاهُ وَتَدْبِيرِهِ لَهَا، وَهُنَا تُدْرِكُ عَظَمَةَ الْحِوَارِ الْمَنْطِقِيِّ الْمُدْهِشِ الَّذِي اكْتَنَزَتْهُ آيَتَا سُورَةِ الطُّورِ لِبَيَانِ افْتِقَارِ الْعَالَمِينَ إِلَى رَبِّهِمْ ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [الطور: ٣٥، ٣٦].

كَمَا قِيلَ:

سَــلِ الْوَاحَةَ الْخَضْــرَاءَ وَالْمَاءَ جَارِيَا ... وَهَذِي الصَّــحَارِي وَالْجِبَالَ الرَّوَاسِــيَا

سَلِ الرَّوْضَ مُزْدَانًا سَلِ الزَّهْرَ وَالنَّدَى ... سَــلِ اللَّيْلَ وَالْإِصْــبَاحَ وَالطَّيْرَ شَــادِيَا

وَسَلْ هَذِهِ الْأَنْسَامَ وَالْأَرْضَ وَالسَّمَا ... وَسَلْ كُلَّ شَيْءٍ تَسْمَعُ الْحَمْدَ سَارِيَا
فَلَوْ جَنَّ هَذَا اللَّيْلُ وَامْتَدَّ سَرْمَدًا ... فَمَنْ غَيْرُ رَبِّي يُرْجِعُ الصُّبْحَ ثَانِيَا
وَلَوْ غَاصَ هَذَا الْمَاءُ فِي الْأَرْضِ هَلْ ... سِوَى اللهِ يُجْرِيهِ كَمَا شَاءَ جَارِيَا[1]

الْمَرْتَبَةُ الثَّانِيَةُ: آيَاتُهُ تُؤَدِّي إِلَى مَعْرِفَةِ أَفْعَالِهِ، فَإِنَّهُ لَا يُمْكِنُ لِأَحَدٍ عِنْدَهُ عَقْلٌ أَنْ يَقُولَ: إِنَّ السَّيَّارَةَ أَوْجَدَتْ نَفْسَهَا، أَوْ إِنَّ الْهَاتِفَ اجْتَمَعَتْ أَجْزَاؤُهُ دُونَ وُجُودِ فَاعِلٍ صَنَعَهُ فِي أَجْمَلِ تَصْنِيعٍ، وَأَكْمَلِ تَجْمِيعٍ، وَكَذَلِكَ الْعَالَمُونَ دَلِيلٌ عَلَى فِعْلٍ لِفَاعِلٍ خَلَقَهُمْ وَأَوْجَدَهُمْ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ [آل عمران:١٩١].

أَرَأَيْتَ عَاقِلًا يَزْعُمُ أَنَّ الْأَعْدَادَ عِبَارَةٌ عَنْ تَرَاكُمِ أَصْفَارٍ؟ وَالصِّفْرُ لَا يُنْتِجُ شَيْئًا! أَرَأَيْتَ عَاقِلًا يَزْعُمُ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ بُنِيَ مِنْ لَا شَيْءٍ؟ سَيَكُونُ الْجَوَابُ الْقَاطِعُ: إِنَّ كُلَّ شَيْءٍ مُفْتَقِرٌ إِلَى مُنْشِئِهِ وَهُوَ اللهُ ﷻ، الْأَوَّلُ بِلَا ابْتِدَاءٍ، الَّذِي أَنْشَأَ الْأَشْيَاءَ، وَلِذَا قَالَ بَعْضُ الْعَارِفِينَ: "كَيْفَ يُسْتَدَلُّ عَلَيْكَ مَنْ هُوَ فِي وُجُودِهِ مُفْتَقِرٌ إِلَيْكَ؟".

إِنَّهَا الْعَلَاقَةُ الِاحْتِيَاجِيَّةُ بَيْنَ الْكَوْنِ الْمُحْتَاجِ لِلْإِنْشَاءِ وَالتَّرْبِيَةِ وَبَيْنَ اللهِ الْقَوِيِّ الْمُقْتَدِرِ...

أَيُّهَا الْمُلْحِدُ، وَاجِهْ الْحَقِيقَةَ! أَلَسْتَ تَجِدُ آيَاتِ اللهِ الشَّاهِدَةَ عَلَى الرُّبُوبِيَّةِ، وَالتَّوْحِيدِ، وَالتَّمْجِيدِ مُشْرِقَةً وَاضِحَةً كَإِشْرَاقِ أَنْوَارِ الْفَاتِحَةِ فِي كُلِّ ذَرَّةٍ مِنْ هَذَا الْكَوْنِ.

وَهَذِهِ الْآيَاتُ الْهَادِيَةُ إِلَى مَعْرِفَةِ أَفْعَالِهِ -جَلَّ فِي عُلَاهُ- تُذَكِّرُ بِأَبِي نُوَاسٍ الْحَسَنِ بْنِ هَانِئٍ؛ إِذْ رُؤِيَ فِي الْمَنَامِ بَعْدَ مَوْتِهِ فَسُئِلَ عَنْ حَالِهِ؟ فَقَالَ: غُفِرَ لِي بِأَبْيَاتٍ قُلْتُهَا فِي النَّرْجِسِ:

تَفَكَّرْ فِي نَبَاتِ الْأَرْضِ وَانْظُرْ ... إِلَى آثَارِ مَا صَنَعَ الْمَلِيكُ
عُيُونٌ مِنْ لُجَيْنٍ شَاخِصَاتٌ ... بِأَحْدَاقٍ هِيَ الذَّهَبُ السَّبِيكُ

(١) أبيات مختارة، (ص: ٣٥).

عَلَى قُضُبِ الزَّبَرْجَدِ شَاهِدَاتٌ بِأَنَّ اللهَ لَيْسَ لَهُ شَرِيكُ[1]

سُبْحَانَ مَنْ سَبَّحَتِ الْمَخْلُوقَاتُ بِحَمْدِهِ فَمَلَأَ الْأَكْوَانَ تَحْمِيدُهُ.

سُبْحَانَ مَنْ أَفْصَحَتِ الْكَائِنَاتُ بِالشَّهَادَةِ بِوَحْدَانِيَّتِهِ فَوَضَحَ تَوْحِيدُهُ.

سُبْحَانَ مَنْ يُسَبِّحُهُ النَّبَاتُ جَمْعُهُ وَفَرِيدُهُ.

سُبْحَانَ مَنْ يُسَبِّحُهُ الشَّجَرُ عَتِيقُهُ وَجَدِيدُهُ.

سُبْحَانَ مَنْ تُمَجِّدُهُ الطُّيُورُ فِي صَوَامِعِ الْأَشْجَارِ فَيُطْرِبُ السَّامِعَ تَمْجِيدُهُ.

سُبْحَانَ مَنْ كُلَّمَا دَرَسَ الْهَزَارُ دَرْسَ شُكْرِهِ، فَالْبُلْبُلُ بِالْحَمْدِ مُعِيدُهُ.

سُبْحَانَ مَنْ كُلَّمَا أَقَامَ خَطِيبُ الْحَمَامِ النَّوْحَ عَلَى الدَّوْحِ هَيَّجَ الْمُسْتَهَامَ نَوْحُهُ وَتَغْرِيدُهُ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ﴾ [العنكبوت:١٩][2].

تَقَدَّسَ رَبُّنَا الْبَرُّ الرَّحِيمُ وَجَلَّ إِلَهُنَا الصَّمَدُ الْكَرِيمُ

يُصَرِّفُ خَلْقَهُ مَا شَاءَ حُكْمًا وَبِالتَّصْرِيفِ مُقْتَدِرٌ حَكِيمُ

بِهِ الْأَفْلَاكُ تَجْرِي فِي فَضَاهَا لَهُ الْأَقْمَارُ تَسْجُدُ وَالنُّجُومُ

تُسَبِّحُهُ الْكَوَاكِبُ فِي الْأَعَالِي تُمَجِّدُهُ السَّحَائِبُ وَالْغُيُومُ

وَكُلُّ الْكَائِنَاتِ لَهُ شُهُودٌ بِأَنَّ اللهَ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمُ

هُوَ اللهُ الْمُهَيْمِنُ لَيْسَ يَخْفَى عَلَيْهِ الْأَمْرُ وَهُوَ بِنَا عَلِيمُ

إِلَيْهِ تُسَافِرُ الْأَرْوَاحُ شَوْقًا وَأَفْئِدَةُ الْأَنَامِ بِهِ تَهِيمُ

---

(١) (النَّرْجِسُ): زَهْرٌ مَعْرُوفٌ، وَ(اللُّجَيْنُ): الْفِضَّةُ، وَ(قُضُبٌ): أَغْصَانٌ، وَ(الزَّبَرْجَدُ): الذَّهَبُ، وَ(الْأَحْدَاقُ): جَمْعُ حَدَقَةٍ، وَهِيَ الْأَجْفَانُ.

(٢) بتصرف من (لطائف المعارف) لابن رجب (ص: ٣١٦)، والهزار: اسم طائر.

لَـهُ يَمَّمْـتُ وَجْهِي فَهُوَ قَصْـدِي ... عَـلَـيْـهِ تَـوَكُّـلِـي وَبِـهِ أَقُـومُ
تَـعَـالَـى اللهُ عَـنْ كُـفْءٍ وَنِـدٍّ ... وَخَـابَ الْـجَاحِدُ الـنَّـغْـلُ الـزَّنِـيـمُ
يَـقُـودُ خُـطَـاهُ لِـلْإِلْـحَـادِ كُـفْـرًا ... وَلِـلـنُّـكْـرَانِ شَـيْـطَـانٌ رَجِـيـمُ[1]

وَهُنَا نَسْأَلُ: ذَكَرْنَا بِأَنَّ الْمَرْتَبَةَ الْأُولَى: أَنَّهُ ﷻ يَتَجَلَّى لِلْخَلْقِ بِآيَاتِهِ، وَالْمَرْتَبَةَ الثَّانِيَةَ: آيَاتُهُ تُؤَدِّي إِلَى مَعْرِفَةِ أَفْعَالِهِ. فَمَا الْمَرْتَبَةُ الثَّالِثَةُ وَالرَّابِعَةُ؟

الْجَوَابُ:

الْمَرْتَبَةُ الثَّالِثَةُ: آيَاتُهُ وَأَفْعَالُهُ تُؤَدِّي إِلَى مَعْرِفَةِ صِفَاتِهِ الَّتِي اتَّصَفَ بِهَا، فَهُوَ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ لِأَنَّ لَهُ الْقُدْرَةَ الْمُطْلَقَةَ وَالْخِبْرَةَ وَالْعِلْمَ ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ [النمل:٨٨].

وَهُنَا سَنَذْكُرُ الْمَثَلَ الَّذِي ذَكَرَهُ (كْرِيسِي مُورِيسُون) فِي مُقَدِّمَةِ كِتَابِهِ: (الْإِنْسَانُ لَا يَقُومُ وَحْدَهُ)؛ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَدُلُّ الْمَخْلُوقَاتُ عَلَى صِفَاتِ الْخَالِقِ -جَلَّ مَجْدُهُ- فَقَدْ حَكَى: أَنَّ رَجُلًا يُقَالُ لَهُ بَالِي (PALEY) ضَرَبَ مَثَلًا مِنْ تَأَثُّرِهِ مِنْ وُجُودِ سَاعَةِ يَدٍ فِي طَرِيقِهِ، وَقَالَ: إِنَّ جِهَازَهَا الدَّقِيقَ أَقَلُّ سَبَبًا لِلْعَجَبِ بِمَرَاحِلَ، مِنْ دَلَائِلَ عَدِيدَةٍ عَلَى دِقَّةِ التَّصْمِيمِ فِي الطَّبِيعَةِ، وَدَعَاهُ ذَلِكَ إِلَى أَنِ اسْتَرْعَى الْأَنْظَارَ إِلَى أَنَّ مِثْلَ هَذِهِ الْأَدَاةِ تُثْبِتُ لِأَكْثَرِ النَّاسِ شَكًّا، بِأَنَّ هُنَاكَ عَمَلِيَّةً ذِهْنِيَّةً طُبِّقَتْ عَلَى الْمِيكَانِيكَا، ثُمَّ قَالَ: إِنَّنَا لَوْ فَرَضْنَا أَنَّ هَذِهِ السَّاعَةَ قَدْ مُنِحَتِ الْقُدْرَةَ عَلَى إِيجَادِ سَاعَاتٍ أُخْرَى، فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَكُونُ مُعْجِزَةً تَفُوقُ مُعْجِزَةَ تَوَالُدِ الْإِنْسَانِ وَالْحَيَوَانِ!

(١) الأبيات لشاعر البصائر د. سعيد بن دحباج وفقه الله.

وَبَلَغَ مِنْ مَدَى هَذَا التَّعْلِيلِ وَالِاقْتِنَاعِ بِهِ أَنْ أَفْرَدَ مَبْلَغَ (٤٨٠٠٠) دُولَارٍ لِلْجَمْعِيَّةِ الْمَلَكِيَّةِ الْبِرِيطَانِيَّةِ لِتَقُومَ بِبُحُوثٍ فِي مُخْتَلِفِ مَيَادِينِ الْعِلْمِ؛ لِتُثْبِتَ بِهَا بِشَكْلٍ قَاطِعٍ، وُجُودَ اللهِ. وَكَانَتِ النَّتِيجَةُ نَحْوَ اثْنَيْ عَشَرَ مُجَلَّدًا كَتَبَهَا أَعْضَاءُ تِلْكَ الْجَمْعِيَّةِ وَآخَرُونَ غَيْرُهُمْ.

وَقَدْ بَيَّنَتْ هَذِهِ الدِّرَاسَاتُ، بِشَكْلٍ حَازِمٍ فِي الظَّاهِرِ، وُجُودَ تَصْمِيمٍ فِي الْخَلْقِ، وَدَلَّتْ فَلَاسِفَةَ ذَلِكَ الْعَهْدِ عَلَى وُجُودِ رَبِّ الْعَالَمِينَ[1].

إِنَّهَا صِفَاتُ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ تَتَجَلَّى لِلنَّاظِرِينَ، وَتَتَجَسَّدُ فِي بَدِيعِ مَصْنُوعَاتِهِ، وَمُحْكَمِ خَلْقِهِ لِلْمُتَأَمِّلِينَ، فَلَا يَمْلِكُونَ إِلَّا الْإِذْعَانَ لِمُطْلَقِ قُدْرَتِهِ وَتَسْيِيرِهِ، وَحَكِيمِ تَدْبِيرِهِ، وَلَطِيفِ عِلْمِهِ وَتَسْخِيرِهِ، وَسِعَةِ رَحْمَتِهِ، وَسَابِغِ مِنْحَتِهِ، وَعَظِيمِ قُوَّتِهِ.

رَبُّنَا اللهُ شَارِعُ الْأَحْكَامِ ... مُحْكِمُ الْخَلْقِ غَايَةَ الْإِحْكَامِ
وَاحِدٌ مَا لَهُ شَرِيكٌ وَلَا فِي ... مُلْكِهِ غَيْرُهُ عَزِيزُ الْمَرَامِ
مُنْعِمٌ بِالْوُجُودِ مِنْهُ عَلَيْنَا ... وَبِإِمْدَادِنَا مَدَى الْأَيَّامِ
كُلُّ طَاعَاتِنَا مِنَ اللهِ أَنْعَا ... مٌ وَمِنَّا شُكْرٌ عَلَى الْأَنْعَامِ
جَلَّ رَبِّي تَبَارَكَ اللهُ مَوْلَى ... قَدْ عَلَا ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ
لَمْ يَزَلْ مُرْشِدًا لَنَا وَمُبِينًا ... لِخَفَايَا الْأُمُورِ بَيْنَ الْأَنَامِ
وَلَهُ الْفَضْلُ حَيْثُ أَهْدَى إِلَيْنَا ... أَحْمَدَ الْمُصْطَفَى الرَّسُولَ التِّهَامِي[2]

الْمَرْتَبَةُ الرَّابِعَةُ: صِفَاتُهُ تَدُلُّ عَلَى ذَاتِهِ -جَلَّ فِي عُلَاهُ-: وَهَكَذَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُعَلِّمُ الْعَالَمَ أَدِلَّةَ وَحْدَانِيَّةِ اللهِ وَأُحَادِيَّتِهِ وَإِلَهِيَّتِهِ بِسُهُولَةٍ وَوُضُوحٍ مُسْتَعْمِلًا الْأَدِلَّةَ الْمَنْطِقِيَّةَ الْمُبَاشِرَةَ فِي

---

(١) العلم يدعو للإيمان (ص: ١٦).

(٢) الأبيات لعبد الغني المقدسي، موسوعة دواوين الشعر العربي، (٦٤/ ٢٩٩).

الْعَالَمِينَ لِلدَّلَالَةِ عَلَى رَبِّهِمْ ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٩-١٠].

أَلَا تَرَى أَنَّهُ مِنَ الطَّبِيعِيِّ -بَعْدَ ذَلِكَ- أَنْ يُخَاطِبَ اللهُ ﷻ الْعُقُولَ الْبَشَرِيَّةَ فَيَقُولُ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت:٣٧].

وَمِنْ أَبْلَغِ الْبَيَانِ عَلَى الْمَرَاتِبِ الْأَرْبَعَةِ مَا جَاءَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الروم:٥٠]، **فَآثَارُ رَحْمَةِ اللهِ هِيَ آيَاتُهُ الْكَوْنِيَّةُ مِنْ حَيَاةِ الْأَرْضِ، وَغَيْثِ النَّاسِ، وَالْمَخْلُوقَاتُ كَالْأَرْضِ وَالنَّاسِ هُمْ مِنَ الْعَالَمِينَ، وَهُمْ نَتَاجُ الْأَفْعَالِ ﴿يُحْىِ ٱلْأَرْضَ﴾** [الروم:٥٠]، **وَهَذِهِ الْآيَاتُ وَتِلْكَ الْأَفْعَالُ عَرَّفَتْ بِصِفَاتِهِ الرَّحْمَةَ وَالْقُدْرَةَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، وَهَذِهِ الصِّفَاتُ عَرَّفَتْ بِالذَّاتِ وَهُوَ (اللهُ)** .ﷻ

يا يَا لَبَرَاعَةِ الْأَدِلَّةِ وَالْبَرَاهِينِ، وَعَظَمَتِهَا! يَا لَجَمَالِ الْقُرْآنِ وَنُورِهِ! هَاتَانِ كَلِمَتَانِ فَقَطْ هُمَا ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ تَخْتَصِرَانِ كُلَّ الْأَدِلَّةِ الْمَطْلُوبَةِ لِإِثْبَاتِ وُجُودِ الْخَالِقِ، وَحَيَاتِهِ وَقَيُّومِيَّتِهِ -جَلَّ فِي عُلَاهُ-؛ إِذْ إِنَّ ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ كُلَّ مَا سِوَاهُ مُفْتَقِرٌ إِلَيْهِ فِي إِنْشَائِهِ، مُحْتَاجٌ فِي وُجُودِهِ إِلَى إِيجَادِهِ وَبِنَائِهِ، مُحْتَاجٌ فِي بَقَائِهِ إِلَى تَعَاهُدِهِ وَإِبْقَائِهِ، مُحْتَاجٌ فِي نُمُوِّهِ إِلَى تَرْبِيَتِهِ وَإِنْمَائِهِ، وَكُلُّ مَخْلُوقٍ مَهْمَا صَغُرَ فَهُوَ بُرْهَانٌ بَاهِرٌ، وَدَلِيلٌ قَوِيمٌ ظَاهِرٌ لِكُلِّ مُتَرَدِّدٍ شَاكٍّ حَائِرٍ فِي وُجُودِ الْإِلَهِ الْحَكِيمِ الْقَادِرِ، وَلِذَا قَالَ اللهُ تَعَالَى فِي بَيَانٍ رَائِعٍ لِآفَاقِ هَذِهِ الْكَلِمَةِ

(رَبُّ الْعَالَمِينَ): ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾ [الرعد:١٦].

❊❊❊

جِسْرُ اتِّصَالٍ: عَرَفْنَا الْبَصِيرَةَ الثَّالِثَةَ مِنْ بَصَائِرِ الْمَقْصِدِ الثَّانِي مِنْ مَقَاصِدِ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ، وَهِيَ: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ اسْمٌ يُبَيِّنُ حَقَّ الرُّبُوبِيَّةِ لِلَّهِ، وَبَرَاهِينَهُ، فَمَا الْبَصِيرَةُ الرَّابِعَةُ لِهَذَا الْمَقْصِدِ؟

الْجَوَابُ:

الْبَصِيرَةُ الرَّابِعَةُ

﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ اسْمٌ يُبَيِّنُ حُقُوقَ الْخَلْقِ فَيَفِيضُ تَعَطُّفًا وَرِعَايَةً، وَتَتَلَخَّصُ فِي الْإِنْعَامِ الْمُقْتَرِنِ بِالتَّرْبِيَةِ

فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْمُبَارَكَةِ تَجِدُ أَنَّ الْقِسْمَ الْأَوَّلَ مِنْهَا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ يُبَيِّنُ حُقُوقَ الْخَالِقِ، فَانْظُرْ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى جَمَالِ الِاتِّصَالِ، وَإِلَى رَحْمَةِ الْكَرِيمِ الْمُتَعَالِ؛ إِذْ يَأْتِي الْقِسْمُ الثَّانِي: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ لِيُبَيِّنَ حُقُوقَ الْخَلْقِ الَّتِي تَتَلَخَّصُ فِي أَنْ يُنْعِمَ اللهُ ﷻ عَلَيْهِمْ إِنْعَامًا يَقْتَرِنُ بِالتَّرْبِيَةِ الَّتِي تَقْتَضِي الرَّحْمَةَ وَالْحَزْمَ وَالرِّفْقَ، وَمِنْ خِلَالِ ذَلِكَ نَعْرِفُ قِصَّةَ وُجُودِ هَذِهِ الْحَيَاةِ، وَقَدْ سَبَقَ فِي الْبَصِيرَةِ السَّابِقَةِ الْمَعَانِي الْأَرْبَعُ لِكَلِمَةِ (رَبٍّ)، وَيُمْكِنُ تَلْخِيصُهَا فِي الْآتِي:

رَبُّ الْعَالَمِينَ هُوَ الْخَالِقُ السَّيِّدُ الْمُطَاعُ الَّذِي لَا شِبْهَ لَهُ، وَلَا مِثْلَ لَهُ فِي سُؤْدَدِهِ، وَهُوَ الْمُصْلِحُ أَمْرَ خَلْقِهِ بِمَا يَنْفَعُهُمْ وَيَرْفَعُهُمْ إِعْطَاءً وَمَنْعًا، وَبَسْطًا وَقَبْضًا، وَإِنْعَامًا وَابْتِلَاءً، وَحِكَمًا وَأَحْكَامًا، وَهُوَ -سُبْحَانَهُ- مَالِكُهُمُ الَّذِي لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ، يَسُوسُهُمْ بِمَا يَنْفَعُهُمْ، فَمَا يَشَاؤُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ.

وَمِنْ خِلَالِ هَذَا الِاجْتِمَاعِ لِلْمَعَانِي الْأَرْبَعَةِ لِكَلِمَةِ (رَبِّ) تَسْتَبِينُ لَنَا نَشْأَةُ الْعَالَمِ، وَطَبِيعَةُ الْحَيَاةِ الْكَوْنِيَّةِ الْقَائِمَةِ، وَنَعْرِفُ بِذَلِكَ أُمَّهَاتِ النِّعَمِ الْكُبْرَى الَّتِي يُرَبِّي اللهُ ﷻ عِبَادَهُ بِهَا، وَهِيَ النِّعَمُ الَّتِي لَا يُمْكِنُ أَنْ يَدَّعِيَهَا أَحَدٌ مِنْ خَلْقِهِ.

أمهاتُ النعم الكبرى التي يربي الله عز وجل عباده بها

01 نعمة الإيجاد

﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا 1﴾ [الإنسان: 1].

02 نعمة الإعداد

﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾ [التين: 4].

03 نعمة الإمداد

﴿وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا﴾ [نوح: 12].

04 نعمة الإيفاد

أي إيفاد الرسل إلى الخلق بالهداية: ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ...﴾ [النساء: 165].

05 نعمة الإرشاد

أي الإرشاد التوفيقي: ﴿قَدۡ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡۖ﴾ [الأنعام: 104].

النِّعَمُ الْكُبْرَى الَّتِي يُرَبِّي اللهُ بِهَا عِبَادَهُ:

وَرُبَّمَا تَتَسَاءَلُ بِاهْتِمَامٍ: مَا النِّعَمُ الْكُبْرَى الَّتِي يُرَبِّي اللهُ بِهَا عِبَادَهُ، وَلَا يَدَّعِيهَا أَحَدٌ مِنْ خَلْقِهِ؟ وَمَا أَمْثِلَتُهَا؟

وَالْجَوَابُ:

نِعَمُ اللهِ ﷻ لَا تُعَدُّ وَلَا تُحْصَى ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [النَّحل: ١٨]، وَلَاحِظْ هُنَا الْمُفْرَدَ (نِعْمَةَ)، فَلَا تُحْصَى النِّعَمُ دَاخِلَ النِّعْمَةِ الْوَاحِدَةِ، فَكَيْفَ بِكُلِّ النِّعَمِ؟! وَسَأَذْكُرُ لِنَفْسِي وَلَكَ أُمَّهَاتِ النِّعَمِ الَّتِي لَا يُمْكِنُ لِأَحَدٍ مِنَ الْخَلْقِ أَنْ يَدَّعِيَهَا، فَلَا تُنْسَبُ إِلَّا إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ:

النِّعْمَةُ الْكُبْرَى الْأُولَى: نِعْمَةُ الْإِيجَادِ:

فَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَهُمْ مِنَ الْعَدَمِ بِالْخَلْقِ وَالْإِيجَادِ، فَاسْمَعْ ذَلِكَ مِنَ اللهِ -تَعَالَى جَدُّهُ- إِذْ يَقُولُ: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم:٩]، وَالنَّاسُ كَانُوا عَدَمًا، وَالْمَعْدُومُ كَالْمَيِّتِ، فَجَعَلَ اللهُ ﷻ فِيهِ الْحَيَاةَ: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ﴾ [البقرة :٢٨]، وقال سبحانه: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا (١) إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ١، ٢].

النِّعْمَةُ الْكُبْرَى الثَّانِيَةُ: نِعْمَةُ الْإِعْدَادِ:

إِذْ جَعَلَ اللهُ هَذَا الْخَلْقَ فِي أَحْسَنِ الْهَيْئَاتِ، وَأَعْطَاهُ أَجْمَلَ الْمَوَاهِبِ وَالْمَلَكَاتِ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين:٤]، فَرَبَّاهُمْ سُبْحَانَهُ بَعْدَ الْإِيجَادِ بِالْإِعْدَادِ بِالْحَوَاسِّ اللَّازِمَةِ لِيَتَعَلَّمُوا، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]، وَبِذَا انْتَقَلَ الْعَبْدُ مِنَ الْعَجْزِ إِلَى الْقُدْرَةِ، وَمِنَ الْجَهْلِ إِلَى الْعِلْمِ مِنْ خِلَالِ أَدَوَاتِ التَّعَلُّمِ الْأَسَاسِيَّةِ الْعُظْمَى وَهِيَ السَّمْعُ

وَالْبَصَرُ وَالْفُؤَادُ، وَاسْمَعْ إِلَى وَصْفِ ذَلِكَ مُبَاشَرَةً مِنَ الْمَصْدَرِ الْمَعْرِفِيِّ الْأَعْظَمِ، فَقَوْلُهُ -تَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ-: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾، فَهَذَا هُوَ الْإِيجَادُ، ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾، وَهَذَا هُوَ الْإِعْدَادُ، وَكِلَاهُمَا يُوجِبَانِ الشُّكْرَ ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

وَهَاهُنَا سَأُتْحِفُكَ بِمَلْحُوظَةٍ مُدْهِشَةٍ فِي الْبَيَانِ الْقُرْآنِيِّ، فَإِنَّ اللهَ ﷻ إِذَا أَرَادَ مِنْ عِبَادِهِ تَكْوِينَ الْمَعْرِفَةِ، فَإِنَّهُ يُقَدِّمُ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ عَلَى الْفُؤَادِ؛ لِأَنَّهُمَا بَوَّابَتَا الْفُؤَادِ اللَّتَانِ يُحَلِّلُ مِنْ خِلَالِهِمَا الْأَمْرَ إِلَى أَجْزَائِهِ الْحَقِيقِيَّةِ، وَأَمَّا إِذَا ذَكَرَ سَلْبَ الْمَعْرِفَةِ، وَعَدَمَ الِاسْتِفَادَةِ مِنْ أَدَوَاتِ التَّعَلُّمِ (السَّمْعِ وَالْأَبْصَارِ) فَإِنَّهُ يُقَدِّمُ ذِكْرَ الْقَلْبِ أَوِ الْفُؤَادِ الْمُصَابِ بِمَرَضِ الْغَفْلَةِ الْقَاتِلِ لِلتَّمَيُّزِ الْإِنْسَانِيِّ، وَتَأَمَّلْ ذَلِكَ بِبَصِيرَةٍ نَافِذَةٍ، وَنَظَرٍ دَقِيقٍ فِي قَوْلِ ذِي الْمَلَكُوتِ وَالْجَبَرُوتِ: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، وَالْمَعْنَى أَنَّ مَنْ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ بِوَسَائِلِ تَحْصِيلِ الْمَعْرِفَةِ، وَحَصَّلَهَا بِالْفِعْلِ لَكِنَّهُ لَمْ يَنْتَفِعْ بِهَا فِي صَلَاحِ بَاطِنِهِ وَظَاهِرِهِ، وَنَيْلِ فَلَاحِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَكَأَنَّهُ لَمْ يَسْتَفِدْ عِلْمًا أَصْلًا، وَلَمْ يُرْزَقْ مَعْرِفَةً، فَهُوَ فِي حُكْمِ الْجَاهِلِ، كَمَا قَالَ أَبُو إِسْحَاقَ الْأَلْبِيرِيُّ:

فَرَأْسُ الْعِلْمِ تَقْوَى اللهِ حَقًّا ... وَلَيْسَ بِأَنْ يُقَالَ لَقَدْ رَأَسْتَا

إِذَا مَا لَمْ يُفِدْكَ الْعِلْمُ خَيْرًا ... فَخَيْرٌ مِنْهُ أَنْ لَوْ قَدْ جَهِلْتَا

وَإِنْ أَلْقَاكَ فَهْمُكَ فِي مَهَاوٍ ... فَلَيْتَكَ ثُمَّ لَيْتَكَ مَا فَهِمْتَا[1]

(١) ديوان أبي إسحاق الألبيري، (ص: ٢٧).

النِّعْمَةُ الْكُبْرَى الثَّالِثَةُ: نِعْمَةُ الْإِمْدَادِ:

فَتَرْبِيَتُهُ لِلْعَالَمِينَ بَعْدَ الْإِيجَادِ وَالْإِعْدَادِ بِالْإِمْدَادِ، فَكَيْفَ يَكُونُ الْإِمْدَادُ؟!

لَقَدْ سَخَّرَ اللهُ ﷻ لَهُمُ الْبِيئَةَ وَالْمَوَادَّ الْكَوْنِيَّةَ، لَعَلَّهُمْ يُعْمِلُونَ الْعُقُولَ الْمُفَكِّرَةَ فِي تَحْوِيلِ التَّسْخِيرِ فِي حَيَاتِهِمْ إِلَى التَّطْوِيرِ وَالتَّعْمِيرِ ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية:١٣]، وَمِنْ هَذِهِ الْمَوَادِّ الْكَوْنِيَّةِ تَرَى النِّعَمَ الَّتِي يَتَغَذَّى بِهَا الْعَالَمُونَ، وَعَلَيْهَا يَعِيشُونَ وَيَنَامُونَ ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ [البقرة:٢٢]، وَمِنْ هَذِهِ النِّعَمِ مَا ذَكَرَهُ ذُو الْمَجْدِ وَالْكَرَمِ، وَهُوَ يُذَكِّرُ الْبَشَرِيَّةَ عَنَاصِرَ الْإِمْدَادِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ [نوح:١٢].

إِنَّهُ اللهُ ﷻ الَّذِي رَبَّى الْإِنْسَانَ بِالْإِيجَادِ مِنَ الْعَدَمِ، وَبِالْحِمَايَةِ مِنَ الْخَلَلِ وَالظُّلْمِ وَالْأَلَمِ، وَحَمَاهُ بِالْعَدْلِ، وَغَذَّاهُ بِالنِّعَمِ، وَأَعَدَّهُ بِالْعَقْلِ لِيُمَيِّزَ الْحَقَّ مِنَ الْبَاطِلِ، وَالشُّكْرَ مِنَ الْكُفْرِ حَتَّى لَا يَقَعَ فِي الْيَأْسِ وَالنَّدَمِ: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۠ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ۝٤ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ [الإنسان:٣- ٥]، وَأَمَدَّهُ بِالْفَضْلِ وَالْكَرَمِ؛ لِيَبْنِيَ بِالتَّفْكِيرِ، وَالتَّعَقُّلِ وَالتَّدْبِيرِ مَا يَجْتَازُ بِهِ الِاخْتِبَارَ الدُّنْيَوِيَّ نَحْوَ النَّعِيمِ الْأُخْرَوِيِّ.

وَإِذَا كَانَ اللهُ ﷻ قَدْ جَعَلَ أَسَاسَ وُجُودِ الْإِنْسَانِ بِلَا اخْتِيَارٍ مِنَ الْإِنْسَانِ، فَقَدْ جَعَلَ لَهُ الِاخْتِيَارَ فِي سُلُوكِ الطَّرِيقِ الصَّحِيحِ بَعْدَ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ الْكَوْنَ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَسْعَدَ إِلَّا إِذَا جَرَى وَفْقَ الْبَرْنَامَجِ الَّذِي فَطَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ.

النِّعْمَةُ الْكُبْرَى الرَّابِعَةُ: نِعْمَةُ الْإِيفَادِ:

أَيْ إِيفَادُ الرُّسُلِ إِلَى الْخَلْقِ بِالْهِدَايَةِ لِلتَّفْرِيقِ بَيْنَ الْغَيِّ وَالرَّشَادِ، وَالتَّرْغِيبِ فِي الِاسْتِعْدَادِ لِدَارِ الْمَعَادِ ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥]، وَالرُّسُلُ جَاؤُوا بِالتَّكَالِيفِ الشَّرْعِيَّةِ لِيَعْرِفَ الْعَالَمُونَ كَيْفَ يُدِيرُونَ حَيَاتَهُمْ وَفْقَ أَمْثَلِ الْبَرَامِجِ، فَكُلُّ أَمْرٍ شَرْعِيٍّ نَزَلَ فَهُوَ لِنَفْعِ الْعِبَادِ رَحْمَةً بِهِمْ، وَرِعَايَةً لِمَصَالِحِهِمْ، وَقَدْ بَيَّنَ اللهُ ﷻ ذَلِكَ تَفْصِيلًا فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ، وَيَجْمَعُ تِلْكَ الْآيَاتِ الْمُتَعَدِّدَةَ الْمَعَانِي هَذِهِ الْآيَةُ الْكُلِّيَّةُ الْمَجِيدَةُ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧].

وَالْآنَ هَلْ أَدْرَكْتَ أَنَّ الرُّبُوبِيَّةَ تَدُلُّ عَلَى قِصَّةِ بِدَايَةِ الْكَوْنِ وَاسْتِمْرَارِهِ؟

نَعَمْ! لِأَنَّ مَعْنَى الرُّبُوبِيَّةِ دَخَلَ فِيهِ الْإِيجَادُ، وَالْإِعْدَادُ، وَالْإِمْدَادُ، وَالْإِيفَادُ، وَهَذَا اللَّفْظُ (الرَّبُّ) يَرْتَبِطُ بِالتَّرْبِيَةِ.

التَّرْبِيَةُ الْإِلَهِيَّةُ تَعْنِي الْخَلْقَ وَالتَّعَاهُدَ، فَاللهُ ﷻ خَلَقَ الْعَالَمَ، ثُمَّ تَعَاهَدَهُ بِتَرْبِيَتِهِ، وَصَبَغَهُ بِأَحْسَنِ صِبْغَةٍ، وَأَوْجَدَ الْإِنْسَانَ وَكَرَّمَهُ، وَجَعَلَهُ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ، وَأَوْفَدَ إِلَيْهِ رُسُلَهُ لِيَهْدُوهُ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ [الانفطار: ٦،٧].

وَهُنَا نُدْرِكُ أَنَّ قِيَادَةَ الطَّبِيعَةِ فِي هَذَا الْكَوْنِ بِغَيْرِ أَنْظِمَةِ الشَّرِيعَةِ إِفْسَادٌ لَهَا، وَتَدْمِيرٌ يُؤَدِّي إِلَى سَفْكِ الدِّمَاءِ؛ لِأَنَّ إِدَارَةَ الْعَالَمِ بَعِيدًا عَنِ الْإِدَارَةِ الشَّرْعِيَّةِ الَّتِي ارْتَضَاهَا خَالِقُ الْكَوْنِ يُؤَدِّي إِلَى الظُّلْمِ الْعَالَمِيِّ الْفَاحِشِ الَّذِي نُشَاهِدُهُ فِي الْوَاقِعِ، وَبِذَا نَكُونُ قَدْ عَرَفْنَا الْإِجَابَةَ عَلَى سُؤَالِ: (مِنْ أَيْنَ جِئْنَا؟)، كَمَا أَنَّكَ تَجِدُ أَنَّ هَذِهِ الْكَلِمَةَ تُعَرِّفُ الْعِبَادَ بِرَبِّهِمْ، لِيُدْرِكُوا أَدِلَّةَ تَوْحِيدِهِ، وَكَيْفِيَّةَ تَمْجِيدِهِ.

وَالْآنَ تَعَالَ إِلَى:

النِّعْمَةُ الْكُبْرَى الْخَامِسَةُ: نِعْمَةُ الْإِرْشَادِ:

أَيِ الْإِرْشَادُ التَّوْفِيقِيُّ، فَالنِّعَمُ السَّابِقَةُ نِعَمٌ عَامَّةٌ تَشْمَلُ جَمِيعَ الْخَلْقِ، فَهُوَ يُرْشِدُهُمْ إِلَى طَرِيقِ الْوُصُولِ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ، سَوَاءٌ كَانَ ذَلِكَ بِالرُّسُلِ الْمُرْشِدِينَ، أَوْ بِآيَاتِهِ الْكَوْنِيَّةِ الْمَبْثُوثَةِ فِي الْكَوْنِ، أَوْ بِمَا يَدُلُّ عَلَى وُجُودِهِ وَتَدْبِيرِهِ لِهَذَا الْوُجُودِ مِنْ تَقْدِيرَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ، فَالدَّلَالَةُ عَلَيْهِ وَإِيضَاحُ طَرِيقِ الْحَقِّ الْمُوصِلِ إِلَيْهِ نِعْمَةٌ عَظِيمَةٌ، وَمِنْحَةٌ جَسِيمَةٌ.

النِّعْمَةُ الْكُبْرَى السَّادِسَةُ: التَّوْفِيقُ وَالْإِلْهَامُ لِلْحَقِّ وَالرَّشَادِ:

وَهِيَ نِعْمَةٌ تَخْتَصُّ بِالْمُؤْمِنِينَ، إِذْ وَفَّقَ الْمُؤْمِنِينَ، وَاخْتَصَّهُمْ بِهَذِهِ النِّعْمَةِ، فَسَبَقَتْ لَهُمْ مِنْهُ الْحُسْنَى، وَأَكْرَمَهُمْ بِسُلُوكِ طَرِيقِ الْعَابِدِينَ، وَأَخْرَجَهُمْ مِنْ طُرُقِ الضَّالِّينَ ﴿وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [البقرة:١٠٥]، وَهَذَا التَّوْفِيقُ الْعَزِيزُ يَرْتَبِطُ بِمَدَى قَبُولِ الْعَبْدِ لِذِكْرَى رُسُلِ رَبِّهِ وَاسْتِعْمَالِهِ لِلْأَدَوَاتِ الَّتِي أَعَدَّهَا اللهُ ﷻ فِيهِ اسْتِعْمَالًا صَحِيحًا: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ﴾ [ق:٣٧]،

وَإِقْبَالِهِ عَلَى ذِكْرِ مَوْلَاهُ: ﴿فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]، وَلِذَا أَوْصَى اللهُ ﷻ النَّبِيَّ ﷺ أُمَّتَهُ أَنْ يَقُولَ الْوَاحِدُ مِنْهُمُ: «اللَّهُمَّ قِنِي شَرَّ نَفْسِي، وَاعْزِمْ لِي عَلَى أَرْشَدِ أَمْرِي»(١).

وَالْعَبْدُ انْتَقَلَ مِنَ الْعَدَمِ إِلَى الْوُجُودِ، وَمِنَ الْمَوْتِ إِلَى الْحَيَاةِ، وَمِنَ الْعَجْزِ إِلَى الْقُدْرَةِ، وَمِنَ الْجَهْلِ إِلَى الْعِلْمِ، وَمِنَ الضَّلَالِ إِلَى الْهِدَايَةِ، لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى هُوَ الْأَوَّلُ الَّذِي لَيْسَ قَبْلَهُ شَيْءٌ، فَبِقُدْرَتِهِ، وَعِلْمِهِ خَلَقَهُ اللهُ ﷻ وَنَقَلَهُ إِلَى هَذِهِ الْأَحْوَالِ، فَأَسْلِمْ لَهُ نَفْسَكَ وَحَيَاتَكَ، وَلْيَكُنْ هِجِّيرَاكَ [أي: عادتك]: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنعام: ٧٩]، وَأَعْلِنْ مَبْدَأَكَ وَشِعَارَكَ ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢].

عَرَفَ ذَلِكَ نُخْبَةُ الْبَشَرِ، وَصَفْوَتُهُمْ كَإِبْرَاهِيمَ عليه السلام حَيْثُ قَالَ: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة:١٣١]، وَبِاخْتِيَارِ الْهِدَايَةِ تَكْتَمِلُ التَّرْبِيَةُ الْعَظِيمَةُ مِنَ اللهِ لِعِبَادِهِ.

وَقَدْ نَظَمَ شَاعِرُ الْبَصَائِرِ د. سَعِيدُ بْنُ دحباج -وَفَّقَهُ اللهُ- هَذِهِ النِّعَمَ الْخَمْسَ الْكُبْرَى فَقَالَ:

الْحَمْدُ لِلرَّحْمَنِ مَنْ فَطَرَ الْوَرَى ... مُتَفَضِّلًا بِالْخَلْقِ **وَالْإِيجَادِ**

بِالسَّمْعِ وَالْأَبْصَارِ أَحْسَنَ خَلْقَهُمْ ... وَلَهُمْ أَفَاضَ بِنِعْمَةِ **الْإِعْدَادِ**

وَحَبَاهُمُ النِّعَمَ الْعَظِيمَةَ مِنَّةً ... وَعَلَيْهِمُ مَا زَالَ ذَا **إِمْدَادِ**

وَإِلَيْهِمُ رُسُلَ الْهِدَايَةِ مُرْسِلًا ... أَكْرِمْ بِوَفْدٍ خُصَّ **بِالْإِيفَادِ**

وَلِعُصْبَةِ الْإِيمَانِ أَسْبَغَ فَضْلَهُ ... وَاخْتَصَّهُمْ بِدَلَالَةِ **الْإِرْشَادِ**

فَلَهُ الْمَحَامِدُ وَالْفَضَائِلُ كُلُّهَا ... مَا نَاحَ قُمْرِيٌّ وَأَنْشَدَ شَادِي

---

(١) أحمد (٤ / ٤٤٤)، برقم ٢٠٠٠٦، وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

وَلَـهُ الـثَّـنَـاءُ مِـنَ الْـبَـرِيَّـةِ سَـــرْمَـدًا مِـنْ رَائِـحٍ مِـنْ خَـلْـقِـهِ أَوْ غَـادِي

اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ هُوَ الَّذِي رَبَّى نُفُوسَ الْعَابِدِينَ بِالتَّأْيِيدِ، وَرَبَّى قُلُوبَ الطَّالِبِينَ بِالتَّسْدِيدِ، وَرَبَّى أَرْوَاحَ الْعَارِفِينَ بِالتَّوْحِيدِ.

وَكُلُّ مَا فِي الْكَوْنِ فَهُوَ قَائِمٌ عَلَى أَسَاسِ التَّرْبِيَةِ، وَلِذَا رُبَّمَا رَأَى الْخَلْقُ بَعْضًا مِنْهُمْ نَقَصَتْ خِلْقَتُهُمْ[1] عَنِ الْخِلْقَةِ السَّوِيَّةِ فِي أَجْسَادِهِمْ أَوْ عُقُولِهِمْ، فَنُرْجِعُ ذَلِكَ إِلَى التَّرْبِيَةِ أَيْضًا، فَمُكْتَمِلُ الْخِلْقَةِ يُرَبَّى عَلَى الشُّكْرِ. فَالْكَوْنُ بِيَدِ اللهِ يَبْسُطُ مَا يَشَاءُ لِمَنْ يَشَاءُ، وَتَرْبِيَةُ نَاقِصِ الْخِلْقَةِ عَلَى الصَّبْرِ؛ إِذْ لَمْ يُهِنْهُ رَبُّهُ ﷻ وَإِنَّمَا ابْتَلَاهُ، وَسَيُعَوِّضُهُ فِي الْيَوْمِ الْحَقِّ عَمَّا حَدَثَ لَهُ إِنْ صَبَرَ وَلَمْ يَجْزَعْ، وَلَمْ يَقُلْ قَوْلَ مَنْ حَكَى اللهُ ﷻ عَنْهُمُ التَّضَجُّرَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ﴾ [الفجر :١٦].

فَهَلْ عَرَفْتَ -أَعَزَّكَ اللهُ- قِيمَةَ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؟

إِنَّ الْحَمْدَلَةَ تُبَيِّنُ عَظَمَةَ الرَّحْمَةِ الْمُنْزَلَةِ، وَالتَّرْبِيَةَ الرَّائِعَةَ الْمُسْبَلَةَ، وَتَدُلُّ عَلَى الْمِقْدَارِ الْهَائِلِ لِمَا يُحِيطُ بِالْخَلْقِ مِنَ النِّعَمِ الْمُسْدَلَةِ الْمُرْسَلَةِ.

❋❋❋

(١) الْخَلْقُ -بِفَتْحِ الْخَاءِ وَسُكُونِ اللَّامِ- وَهُوَ هُنَا صُورَةُ الْبَدَنِ الْإِنْسَانِيِّ، وَنَقْصُهُ يَكُونُ بِالْعَمَى أَوِ الْبَكَمِ أَوِ الصَّمَمِ أَوِ الْعَرَجِ أَوْ نَقْصِ الْقِيَامِ بِبَعْضِ الْوَظَائِفِ.

جِسْرُ اتِّصَالٍ: عَرَفْنَا الْبَصِيرَةَ الرَّابِعَةَ مِنْ بَصَائِرِ الْمَقْصِدِ الثَّانِي مِنْ مَقَاصِدِ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ، وَهِيَ: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ اسْمٌ يُبَيِّنُ حُقُوقَ الْخَلْقِ، وَتَتَلَخَّصُ فِي الْإِنْعَامِ الْمُقْتَرِنِ بِالتَّرْبِيَةِ، فَمَا الْبَصِيرَةُ الْخَامِسَةُ؟

الْجَوَابُ:

الْبَصِيرَةُ الْخَامِسَةُ

﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ اللهَ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ، فَهُوَ رَبُّ الْخَلْقِ أَجْمَعِينَ

عَلَى مَاذَا تَدُلُّ هَذِهِ الْبَصِيرَةُ الرَّائِعَةُ الْمُعَرِّفَةُ بِاللهِ -تَعَالَى فِي عُلَاهُ-؟ إِنَّهَا تَدُلُّكَ عَلَى الْمِقْدَارِ الَّذِي يُمْكِنُكَ مَعْرِفَتُهُ مِنْ مَجْدِ اللهِ. فَبِمَا أَنَّ الْعَالَمِينَ اسْمٌ يَشْمَلُ كُلَّ شَيْءٍ سِوَاهُ -تَبَارَكَ وَعَزَّ- فَهُوَ -جَلَّ وَتَقَدَّسَ- لَا يُشْبِهُهُ شَيْءٌ، وَيَكْفِي الْعَالَمِينَ أَنْ يَعْرِفُوا أَنَّهُ رَبُّهُمْ -تَعَالَى جَدُّهُ، وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ-.

فَإِذَا كُنْتَ لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تُشَبِّهَ مَخْلُوقًا بِمَخْلُوقٍ مَعَ اخْتِلَافِ الْأَجْنَاسِ، فَكَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ تُدْرِكَ رَبَّ النَّاسِ؟ فَإِنْ قُلْتَ رَأْسَ الْجَبَلِ، فَلَا يُمْكِنُ أَنْ تَفْهَمَ مِنْهُ أَنَّهُ مِثْلُ رَأْسِ الْإِنْسَانِ، وَالِاشْتِرَاكُ فِي الْكَلَامِ لَا يَقْتَضِي الْمُشَابَهَةَ فَضْلًا عَنِ الْمُمَاثَلَةِ.

وَيُبَيِّنُ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كَيْفِيَّةَ اسْتِنْبَاطِ هَذِهِ الْبَصِيرَةِ مِنْ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فَيَقُولُ: قَالَ جِبْرِيلُ عليه السلام لِمُحَمَّدٍ ﷺ: «يَا مُحَمَّدُ قُلْ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾»، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: يَقُولُ: قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ الْخَلْقُ كُلُّهُ؛

السَّمَاوَاتُ كُلُّهُنَّ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَالْأَرَضُونَ كُلُّهُنَّ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَمَا بَيْنَهُنَّ، مِمَّا يُعْلَمُ وَمِمَّا لَا يُعْلَمُ. يَقُولُ: اعْلَمْ يَا مُحَمَّدُ أَنَّ رَبَّكَ هَذَا لَا يُشْبِهُهُ شَيْءٌ[1].

وَيَنْبَغِي عَلَى إِدْرَاكِ أَنَّ اللهَ ﷻ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ بَصِيرَةٌ أُخْرَى، وَهِيَ:

﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ اسْمٌ كَافٍ لِلْإِعْلَانِ الْعَالَمِيِّ عَنْ عِبَادَتِهِ بِاعْتِزَازٍ وَافْتِخَارٍ.

دَعْنَا نَتَذَوَّقْ ذَلِكَ مِنْ خِلَالِ الْأَسْئِلَةِ الْآتِيَةِ:

بِمَنْ يَعْتَزُّ عَبَدَةُ الْحَيَوَانَاتِ فِي عُبُودِيَّتِهِمْ؟ بِمَنْ يَعْتَزُّ عَبَدَةُ الْمُلُوكِ وَالشَّجَرِ فِي خُضُوعِهِمْ؟ بِمَنْ يَعْتَزُّ عَبَدَةُ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالْحَجَرِ وَالْبَشَرِ وَالشَّيْطَانِ وَالْهَوَى فِي عُبُودِيَّتِهِمْ؟

عُبُودِيَّةُ اللهِ ﷻ عِزٌّ وَافْتِخَارٌ:

أَمَّا نَحْنُ فَنَعْتَزُّ بِعُبُودِيَّتِنَا لِـ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، فَهُوَ الْإِلَهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ الْمُبِينُ. فَالْمُنْتَسِبُ إِلَى دِينِهِ يُعْلِنُ بِافْتِخَارٍ عَنْ شَرَفِ وَمَكَانَةِ مَعْبُودِهِ، وَتَرَى صَفْوَةَ الْمُجْتَمَعَاتِ مِنْ أَصْحَابِ الْعُقُولِ الْمُسْتَنِيرَةِ، وَالْأَفْهَامِ الرَّاجِحَةِ، وَالْقُلُوبِ الْوَاجِفَةِ الْخَبِيرَةِ يَفْتَخِرُونَ بِالتَّعْرِيفِ بِاللهِ الْعَظِيمِ -عَزَّ وَتَقَدَّسَ- مِنْ خِلَالِ هَذَا الِاسْمِ الْمُبَارَكِ، فَهُوَ نِدَاؤُهُمْ وَحُدَاؤُهُمْ، وَشِعَارُهُمْ وَدِثَارُهُمْ.

مَا لِي وَلِلْفَقْرِ إِلَى عَاجِزٍ ... مِثْلِي لَا يَمْلِكُ إِغْنَائِي
وَإِنَّمَا يَحْسُنُ فَقْرِي إِلَى ... مَالِكِ إِسْعَادِي وَإِشْقَائِي
أَتِيهُ عَجَبًا بِانْتِمَائِي إِلَى ... أَبْوَابِهِ إِذْ قُلْتُ مَوْلَائِي
لَا تَدْعُنِي إِلَّا بِيَا عَبْدَهُ ... فَإِنَّهُ أَشْرَفُ أَسْمَائِي[2]

---

(١) تفسير الطبري (١/ ١٤٣).

(٢) غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب (٢/ ٤٧٤).

وَإِلَيْكَ أُنْمُوذَجًا لِهَذَا الِاعْتِزَازِ يُنِيرُ النُّفُوسَ بِإِشْرَاقِهِ. هَلْ سَمِعْتَ عَنْ مَاشِطَةِ ابْنَةِ فِرْعَوْنَ؟ رَوَى ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لَمَّا كَانَتِ اللَّيْلَةُ الَّتِي أُسْرِيَ بِي فِيهَا أَتَتْ عَلَيَّ رَائِحَةٌ طَيِّبَةٌ فَقُلْتُ: يَا جِبْرِيلُ مَا هَذِهِ الرَّائِحَةُ الطَّيِّبَةُ؟ فَقَالَ: هَذِهِ رَائِحَةُ مَاشِطَةِ ابْنَةِ فِرْعَوْنَ وَأَوْلَادِهَا. قَالَ قُلْتُ: وَمَا شَأْنُهَا؟ قَالَ: بَيْنَا هِيَ تَمْشُطُ ابْنَةَ فِرْعَوْنَ ذَاتَ يَوْمٍ إِذْ سَقَطَتِ الْمِدْرَى[1] مِنْ يَدَيْهَا فَقَالَتْ: بِسْمِ اللهِ. فَقَالَتْ لَهَا ابْنَةُ فِرْعَوْنَ: أَبِي؟ قَالَتْ: لَا! وَلَكِنْ رَبِّي وَرَبُّ أَبِيكِ اللهُ. قَالَتْ: أُخْبِرُهُ بِذَلِكَ؟ قَالَتْ: نَعَمْ! فَأَخْبَرَتْهُ، فَدَعَاهَا، فَقَالَ: يَا فُلَانَةُ، وَإِنَّ لَكِ رَبًّا غَيْرِي؟ قَالَتْ: نَعَمْ! رَبِّي وَرَبُّكَ اللهُ. فَأَمَرَ بِبَقَرَةٍ -أَوْ بِنُقْرَةٍ وَهِيَ قِدْرٌ يُسَخَّنُ فِيهَا الْمَاءُ- مِنْ نُحَاسٍ فَأُحْمِيَتْ، ثُمَّ أَمَرَ بِهَا أَنْ تُلْقَى هِيَ وَأَوْلَادُهَا فِيهَا. قَالَتْ لَهُ: إِنَّ لِي إِلَيْكَ حَاجَةً. قَالَ: وَمَا حَاجَتُكِ؟ قَالَتْ: أُحِبُّ أَنْ تَجْمَعَ عِظَامِي وَعِظَامَ وُلْدِي فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ وَتَدْفِنَنَا. قَالَ: ذَلِكَ لَكِ عَلَيْنَا مِنَ الْحَقِّ. قَالَ: فَأَمَرَ بِأَوْلَادِهَا، فَأُلْقُوا بَيْنَ يَدَيْهَا وَاحِدًا وَاحِدًا إِلَى أَنِ انْتَهَى ذَلِكَ إِلَى صَبِيٍّ لَهَا مُرْضَعٍ، وَكَأَنَّهَا تَقَاعَسَتْ مِنْ أَجْلِهِ قَالَ: يَا أُمَّهْ! اقْتَحِمِي فَإِنَّ عَذَابَ الدُّنْيَا أَهْوَنُ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ. فَاقْتَحَمَتْ»[2].

يَـهُـونُ فِـي اللهِ مَـا نَـلْـقَـاهُ مِـنْ أَلَـمِ ... وَكُـلُّ ضُـرٍّ مِنَ الْأَقْـدَارِ أَوْ سَـقَـمِ
وَكُـلُّ بَـلْـوَى مِـنَ الـرَّحْـمَـنِ نَـازِلَـةٌ ... نَـلُـوذُ بِـاللهِ فِي الْـبَـلْـوَى وَنَـعْـتَـصِـمِ
إِلَيْـهِ نَشْـكُـو وَلَا يَـهْـفُـو الْـفُـؤَادُ إِلَى ... سِـوَاهُ فِي الضُّـرِّ رَبُّ الْحِلِّ وَالْحَرَمِ
وَفِي حِـمَـاهُ أَنَـخْـنَـا رَحْـلَـنَـا غَـلَسًـا ... لِـيَـكْـشِـفَ اللهُ عَـنَّـا حَـالِـكَ الظُّـلَـمِ

---

(١) الْمِدْرَى: عُودٌ تُدْخِلُهُ الْمَرْأَةُ فِي رَأْسِهَا لِتَضُمَّ بَعْضَ شَعْرِهَا إِلَى بَعْضٍ.

(٢) أحمد١/ ٣٠٩، ابن حبان٧/ ١٦٣، وذكر ابن كثير في تفسيره٥/ ٢٩ نحوه بسند البيهقي، ثم قال: "إسناد لا بأس به"، وقد غمز بأن في إسناده من جهة اختلاط عطاء ابن السائب، إلا أن السماع كان قبل الاختلاط.

وَكَمْ لَنَا فِيهِ مِنْ رَجْوَى نُؤَمِّلُهَا سُبْحَانَ رَبِّي عَظِيمِ الْفَضْلِ وَالْكَرَمِ[1]

إِنَّهُ (رَبُّ الْعَالَمِينَ) اسْمٌ يَمْلَأُ جَوَانِحَ الْإِنْسَانِ بِالسَّكِينَةِ وَالْقُوَّةِ وَالِاعْتِزَازِ وَالضِّيَاءِ، كَمَا يَرْدَعُ الْإِنْسَانَ عَنْ أَيِّ تَفْكِيرٍ بِاعْتِدَاءٍ أَوْ إِيذَاءٍ، كَمَا قَالَ الْمُتَّقِي مِنِ ابْنَيْ آدَمَ عليه السلام: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة:٢٨].

❋❋❋

(١) الأبيات لشاعر البصائر د. سعيد بن دحباج وفقه الله.

جِسْرُ اتِّصَالٍ: عَرَفْنَا الْبَصِيرَةَ الْخَامِسَةَ مِنْ بَصَائِرِ الْمَقْصِدِ الثَّانِي مِنْ مَقَاصِدِ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ، وَهِيَ: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ اللهَ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ فَهُوَ رَبُّ الْخَلْقِ أَجْمَعِينَ، فَمَا الْبَصِيرَةُ السَّادِسَةُ؟

الْجَوَابُ:

الْبَصِيرَةُ السَّادِسَةُ

﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يُرَبِّي تَرْبِيَةً كَامِلَةً تَضْعُفُ عِنْدَهَا تَرْبِيَةُ النُّظُمِ الْبَشَرِيَّةِ الْآفِلَةِ.

وجوه التربية الإلهية للعالم

1. تبدأ بالخلق والإيجاد: فأول مراحل تربيته هي إيجادهم من العدم، بينما يربي الخلق ما هو موجود.
2. غايتها مصلحة العباد: فهي تربية عطاءٍ لمصلحة الخلق، لا تربية حاجةٍ لمنفعة الخالق الغني عن العالمين.
3. من خزائن لا تنفد: عطاؤه لا يُنقِص من ملكه شيئًا، على عكس عطاء الخلق المحدود.
4. محبة الإلحاح في السؤال: فهو سبحانه يحب أن يُسأل ويُلَحَّ عليه في السؤال، بخلاف المربين من البشر.
5. على أسس غير مألوفة: تقوم على أسس من الحكمة والرحمة والقدرة لا تشبه أسس تربية البشر.
6. دائمة لا تنقطع: فهي مستمرة في كل لحظة لا يعتريها انقطاع ولا غفلة.
7. عامة لا خاصة: تسع برحمته وعلمه كل شيء، ولا تختص بفئة دون أخرى.

أَتُرِيدُ مِنَ الْمَعْرِفَةِ الْقُرْآنِيَّةِ أَنْ تُزَوِّدَكَ بِالْوُجُوهِ الْوَاضِحَةِ الَّتِي تَخْتَلِفُ بِهَا التَّرْبِيَةُ الْإِلَهِيَّةُ لِلْعَالَمِ عَنْ تَرْبِيَةِ غَيْرِهِ؟[1].

أَوْجُهُ تَرْبِيَةِ اللهِ ﷻ لِعِبَادِهِ:

هُنَاكَ وُجُوهٌ كَثِيرَةٌ تُظْهِرُ الْفَرْقَ بَيْنَ التَّرْبِيَتَيْنِ؛ تَرْبِيَةِ اللهِ تَعَالَى وَتَرْبِيَةِ غَيْرِهِ، وَهَاكَ أَبْرَزَ سَبْعَةِ أَوْجُهٍ:

أَمَّا الْوَجْهُ الْأَوَّلُ: فَهُوَ -تَعَالَى عِزُّهُ- تَبْدَأُ تَرْبِيَتُهُ لِعِبَادِهِ بِإِيجَادِهِمْ مِنَ الْعَدَمِ، فَمَنْ ذَا يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ؟ وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ عِنْدَ جَعْلِهِمْ نُطْفَةً مُنْقَسِمَةً نَامِيَةً، فَمَنْ ذَا يُحِيطُ بِذَلِكَ سِوَاهُ؟ ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ [النجم: ٣٢].

وَأَمَّا الْوَجْهُ الثَّانِي: أَنَّهُ -جَلَّ وَعَزَّ- يُرَبِّي عَبِيدَهُ لَا لِنَفْعِ نَفْسِهِ، وَلَا لِاحْتِيَاجِهِ لَهُمْ، بَلْ لِتَحْقِيقِ مَصَالِحِهِمُ الذَّاتِيَّةِ، وَلِيَقْضِيَ لَهُمْ حَاجَاتِهِمُ الْجَمَاعِيَّةَ، وَلِيَبْنِيَ لَهُمْ مَجْدًا وَسَعَادَةً مَعَ غِنَاهُ عَنْهُمْ ﴿قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ [الأعراف: ١٤٠].

قَارِنْ! إِنَّهَا خَيْبَةٌ عَظِيمَةٌ سَتَرْجِعُ بِهَا؛ لِأَنَّ غَيْرَهُ يُرَبُّونَ لِتَحْقِيقِ مَصَالِحِهِمْ، وَيَسْعَوْنَ لِاحْتِيَاجِهِمْ، وَنَفْعِ أَنْفُسِهِمْ، وَأَهْدَافِهِمُ الْخَاصَّةِ بِهِمْ، وَتَكَثُّرِهِمْ وَتَكَاثُرِهِمْ.

وَأَمَّا الْوَجْهُ الثَّالِثُ: أَنَّ غَيْرَهُ -جَلَّ فِي عُلَاهُ- إِذَا رَبَّى يَظْهَرُ النُّقْصَانُ فِي خَزَائِنِهِ وَفِي مَالِهِ بِقَدْرِ تِلْكَ التَّرْبِيَةِ؛ أَمَّا الْمَلِكُ الْحَقُّ فَهُوَ -تَعَالَى- مُتَعَالٍ عَنِ النُّقْصَانِ وَالضَّرَرِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١].

---

(١) انظر: تفسير الرازي (١/ ١٦١).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قَالَ: « «**يَدُ اللهِ مَلأَى لَا يَغِيضُهَا نَفَقَةٌ، سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ**». **وَقَالَ: «أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ مَا فِي يَدِهِ**». **وَقَالَ: «عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، وَبِيَدِهِ الأُخْرَى الْمِيزَانُ، يَخْفِضُ وَيَرْفَعُ»**[1].

وَأَمَّا الْوَجْهُ الرَّابِعُ: فَهُوَ حُبُّهُ لِلْإِعْطَاءِ، وَحُبُّهُ لِلسَّائِلِينَ مِنْهُ، وَحُبُّهُ لِلْإِلْحَاحِ فِي سُؤَالِهِ حَيْثُ يَصْمُدُ لِعِبَادِهِ.

وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا مُحْتَاجًا مِنَ الْبَشَرِ تَتَجَدَّدُ حَاجَاتُهُ، فَيُنْزِلُهَا عَلَى أَحَدِ الْمُحْسِنِينَ طَالِبًا مَزِيدًا مِنَ الْإِحْسَانِ، ثُمَّ تَتَجَدَّدُ الْحَاجَاتُ، فَإِلَى أَيِّ شَيْءٍ يَؤُولُ أَمْرُهُ فِي آخِرِ الْمَطَافِ؟

الْجَوَابُ مَعْلُومٌ مِنَ التَّجَارِبِ الَّتِي لَا تَكَادُ تَنْتَهِي فِي الْحَيَاةِ: إِنَّهُ الْكَدَرُ وَالضَّجَرُ، أَوِ التَّهَرُّبُ مِنْ قِبَلِ هَذَا الْمُحْسِنِ الَّذِي تَكَاثَرَتْ أَمَامَهُ الْحَاجَاتُ وَالِاحْتِيَاجَاتُ؛ أَمَّا اللهُ -جَلَّ فِي عُلَاهُ- فَيُحِبُّ الْعَبْدَ الْمِلْحَاحَ فِي الْمَسْأَلَةِ، وَيَكُونُ الْمُقْبِلُ عَلَيْهِ أَشَدَّ النَّاسِ سَعَادَةً بِوَافِرِ عَطَايَاهُ وَجَزِيلِ نَعْمَاهُ، وَانْظُرْ مِصْدَاقَ ذَلِكَ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّهُ مَنْ لَمْ يَسْأَلِ اللهَ يَغْضَبْ عَلَيْهِ»[2]، ولِذَا قِيلَ:

لَا تَسْأَلَنَّ بُنَيَّ آدَمَ حَاجَةً ... وَسَلِ الَّذِي أَبْوَابُهُ لَا تُحْجَبُ

فَاللهُ يَغْضَبُ إِنْ تَرَكْتَ سُؤَالَهُ ... وَبُنَيُّ آدَمَ حِينَ يُسْأَلُ يَغْضَبُ[3]

وَأَمَّا الْوَجْهُ الْخَامِسُ: فَإِنَّ تَرْبِيَتَهُ لَنَا قَامَتْ عَلَى أُسُسٍ غَيْرِ مَأْلُوفَةٍ عِنْدَ بَقِيَّةِ الْمُرَبِّينَ.

---

(١) البخاري(٩ / ١٥٠).

(٢) الترمذي (٥ / ٤٥٦)، أحمد (٢/ ٤٧٧)، وقال ابن كثير في تفسيره - ط. دار طيبة (٧ / ١٥٤): «وهذا إسناد لا بأس به».

(٣) تزكية التفوس، أحمد فريد، (ص: ٤٢).

وَإِنْ شِئْتَ فَاقْصُصْ قَصَصَ الْمُرَبِّينَ مِنَ الْبَشَرِ وَهُمْ يُرَبُّونَ عَلَى مَا هُوَ مُعْتَادٌ، وَقَارِنْ ذَلِكَ مَعَ تَرْبِيَةِ اللهِ ﷻ عَبْدَهُ حِينَ رَبَّاهُ نُطْفَةً، ثُمَّ عَلَقَةً، ثُمَّ مُضْغَةً، ثُمَّ عِظَامًا، ثُمَّ كَسَاهُ لَحْمًا فَمَنْ يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ؟ مَنْ يَقْدِرُ عَلَى إِيجَادِ الْأَعْضَاءِ، وَالْأَجْهِزَةِ، وَالْغَضَارِيفِ، وَالْمَفَاصِلِ، وَالرِّبَاطَاتِ، وَالْأَوْتَارِ، وَالْأَوْرِدَةِ، وَالشَّرَايِينِ؟ مَنْ يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يَصِلَ بَعْضَهَا بِبَعْضٍ، ثُمَّ يَضَعَ فِيهَا الْقُوَى الْخَاصَّةَ بِهَا، كَقُوَّةِ الْبَصَرِ وَالرُّؤْيَةِ فِي الْعَيْنِ، وَقُوَّةِ السَّمْعِ وَالِاتِّزَانِ فِي الْأُذُنِ، وَقُوَّةِ النُّطْقِ فِي اللِّسَانِ؟ فَسُبْحَانَ مَنْ أَسْمَعَ بِعَظْمٍ، وَبَصَّرَ بِشَحْمٍ، وَأَنْطَقَ بِلَحْمٍ، وَقَدْ أَحْسَنَ ابْنُ حَزْمٍ ﵀ إِذْ قَالَ:

لَكَ الْحَمْدُ يَا رَبُّ وَالشُّكْرُ ثَمْ ... لَكَ الْحَمْدُ مَا بَاحَ بِالشُّكْرِ فَمْ
لَكَ الْحَمْدُ فِي كُلِّ مَا حَالَةٍ ... فَقَدْ خَصَّنِي مِنْكَ فَضْلٌ وَعَمْ
مِنَ الْمَاءِ أَنْشَأْتَنِي نُطْفَةً ... وَمِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَحْمٌ وَدَمْ
وَأَسْكَنْتَ فِي جَسَدِي رُوحَهُ ... وَأَجْعَلْتَهَا فِي طِبَاقِ الرَّحِمْ
وَأَخْرَجْتَنِي بَعْدُ فِي عَالَمِي ... وَبَلَّغْتَنِي دَرَجَاتِ الْفَهِمْ
فَمِنْكَ لِيَ الْبَصَرُ الْمُقْتَفِي ... وَسَمْعٌ وَذَوْقٌ وَنُطْقٌ وَشَمْ
وَحِسٌّ صَحِيحٌ، وَتَمْيِيزُ مَا ... خَلَقْتَ بِأَنْوَاعِهِ مِنْ أُمَمْ
وَمَكَّنْتَنِي مِنْ فُنُونِ الْعُلُومِ ... بِبَادِي الْكَلَامِ وَخَطِّ الْقَلَمْ[1]

وَأَمَّا الْوَجْهُ السَّادِسُ: فَإِنَّ التَّرْبِيَةَ الْإِلَهِيَّةَ مُسْتَمِرَّةٌ غَيْرُ مُنْقَطِعَةٍ، وَلِذَا يَظَلُّ الِاسْتِمْدَادُ التَّرْبَوِيُّ مِنْهُ -جَلَّ فِي عُلَاهُ- إِلَّا أَنَّ الِاسْتِمْدَادَ التَّرْبَوِيَّ الْجِسْمِيَّ الْمَادِّيَّ يَأْتِي مِنْهُ سُبْحَانَهُ دُونَ سُؤَالٍ غَالِبًا، فَهُوَ الَّذِي يَرْزُقُ الْعَبْدَ كُلَّ نَفَسٍ يَتَنَفَّسُهُ، وَحَرَكَةٍ يَتَحَرَّكُهَا، أَمَّا الِاسْتِمْدَادُ

(١) تاريخ الأدب الأندلسي، إحسان عباس (ص: ٣١٥).

الْعَقْلِيُّ وَالْقَلْبِيُّ فَيَأْتِي عَبْرَ الِاخْتِيَارِ الْبَشَرِيِّ. وَلَقَدِ اخْتَارَ الصَّالِحُونَ رَبَّهُمْ، فَقَالَ سَادَاتُهُمْ: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام: ١٤]، وَلِذَا فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ سَمَّى نَفْسَهُ فِي الْفَاتِحَةِ الْمُبَارَكَةِ ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وَلَمْ يَقُلْ «خَالِقَ الْعَالَمِينَ»؛ إِذْ ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَخْلُقْ فَقَطْ بَلْ خَلَقَ وَرَبَّى سُبْحَانَهُ، فَتَعَاهَدَهُمْ طَبِيعَةً بِتَرْبِيَةِ أَجْسَامِهِمْ خَلْقًا وَإِنْشَاءً وَتَجْدِيدًا، وَتَعَاهَدَهُمْ شَرِيعَةً بِتَرْبِيَةِ أَرْوَاحِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ وَمَبَادِئِهِمْ وَعُقُولِهِمْ وَنُظُمِهِمْ، فَحَاجَةُ الْخَلَائِقِ لَهُ مُسْتَمِرَّةٌ، وَقَدْ أَجْمَعَ الْعُقَلَاءُ عَلَى أَنَّ الْحَوَادِثَ مُفْتَقِرَةٌ إِلَى خَالِقٍ لَهَا.

وَإِنْ تَعْجَبْ، فَعَجَبٌ قَوْلُ قَوْمٍ زَعَمُوا أَنَّهُ -سُبْحَانَهُ- بَعْدَ أَنْ خَلَقَ الْخَلْقَ تَرَكَهُمْ يَصْنَعُونَ مَا يَشَاؤُونَ، فَيَأْتِي هَذَا الِاسْمُ الْمُبِينُ ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ لِيُنَبِّهَهُمْ أَنَّ جَمِيعَ الْعَالَمِينَ يَفْتَقِرُونَ إِلَيْهِ، لَيْسَ إِيجَادًا فَقَطْ، بَلْ إِيجَادًا وَبَقَاءً، كَمَا أَنَّنَا نَلْمَسُ فِي هَذَا الِاسْمِ الْعَظِيمِ (رَبِّ الْعَالَمِينَ) مِنْ صِفَاتِ الرَّحْمَةِ وَالْفَضْلِ وَالْكَمَالِ مَا لَا يَحْوِيهِ وَصْفُ اسْمِ (الْأَبِ)، وَقَدْ تَبَاهَى النَّصَارَى بِوَصْفِ الْإِلَهِ بِالْأَبِ حَتَّى طَعَنَ بِذَلِكَ بَعْضُهُمْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، فَادَّعَى الطَّاعِنُ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ لَمْ يُعَلِّمْهُمْ نَبِيُّهُمْ مِنْ صِفَاتِ الْخَالِقِ إِلَّا أَنَّهُ حَاكِمٌ قَاهِرٌ وَسُلْطَانٌ عَظِيمٌ بَاهِرٌ، وَقَالَ: فَأَيْنَ هَذَا مِنْ تَسْمِيَةِ النَّصَارَى خَالِقَهُمْ بِالْأَبِ الدَّالِّ عَلَى الرَّأْفَةِ وَالْعَطْفِ؟

أَيُّهَا التَّالِي لِقُرْآنٍ مُبِينٍ! أَجِبْ هَذَا الطَّاعِنَ التَّائِهَ الْمِسْكِينَ، وَعَلِّمْهُ: أَنَّ أَوَّلَ وَصْفٍ لِلَّهِ فِي الْقُرْآنِ هُوَ (الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ)، وَأَنَّهُ وَصَفَ نَفْسَهُ بَعْدَ ذَلِكَ بِأَنَّهُ (رَبُّ الْعَالَمِينَ)، وَتَكَرَّرَتْ هَذِهِ الْأَوْصَافُ الثَّلَاثَةُ كَثِيرًا فِي الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ؛ لِتَتَضَمَّنَ مَعَانِي التَّرْبِيَةِ وَالْعَطْفِ وَالْإِصْلَاحِ وَالْمَحَبَّةِ وَفِعْلِ الْأَصْلَحِ وَالْأَنْفَعِ لِلْحَيَاةِ الْأَرْضِيَّةِ وَالْكَوْنِيَّةِ بِمَا لَا يُوجَدُ فِي اسْمِ الْأَبِ الَّذِي يَكُونُ طَلَبُهُ لِلْوَلَدِ بِمُقْتَضَى شَهْوَتِهِ، لَا بِمُقْتَضَى مَحَبَّتِهِ وَنَفْعِهِ الْخَالِصِ لَهُ، مَعَ مَا فِي شُؤُونِ

الْوَالِدِ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي يُنَزَّهُ اللهُ تَعَالَى عَنِ الِاتِّصَافِ بِهَا، وَلَكِنَّ الْمُعَانِدِينَ الطَّاعِنِينَ لَا يَفْقَهُونَ[1].

إِلَهِي:

أَنْتَ الَّذِي صَوَّرْتَنِي وَخَلَقْتَنِي ... وَهَدَيْتَنِي لِشَرَائِعِ الْإِيمَانِ
أَنْتَ الَّذِي أَطْعَمْتَنِي وَسَقَيْتَنِي ... مِنْ غَيْرِ كَسْبِ يَدٍ وَلَا دُكَّانِ
وَجَبَرْتَنِي وَسَتَرْتَنِي وَنَصَرْتَنِي ... وَغَمَرْتَنِي بِالْفَضْلِ وَالْإِحْسَانِ
أَنْتَ الَّذِي آوَيْتَنِي وَحَبَوْتَنِي ... وَهَدَيْتَنِي مِنْ حِيرَةِ الْخِذْلَانِ
وَلَقَدْ مَنَنْتَ عَلَيَّ رَبِّ بِأَنْعُمٍ ... مَا لِي بِشُكْرِ أَقَلِّهِنَّ يَدَانِ[2]

وَأَمَّا الْوَجْهُ السَّابِعُ: فَإِنَّ غَيْرَ رَبِّ الْعَالَمِينَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ يَخْتَصُّ إِحْسَانُهُ بِقَوْمٍ دُونَ قَوْمٍ، وَلَا يُمْكِنُهُ التَّعْمِيمُ، أَمَّا الْحَقُّ -تَعَالَى- فَالْمَلَائِكَةُ يَصِفُونَ تَرْبِيَتَهُ لِلْعَالَمِ فَيَقُولُونَ: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر:٧]، وَانْظُرْ كَيْفَ يُبَيِّنُ اللهُ ﷻ لَنَا قِسْمَةَ عَطَايَاهُ: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء:٢٠].

وَقَدْ ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ الْوُجُوهَ الْعَظِيمَةَ فِي قَوْلِهِ فِي الْحَدِيثِ الْقُدُسِيِّ: «يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ، يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ، يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ

---

(١) انظر: تفسير المنار (١/ ١٢).

(٢) ديوان ابن مشرف (ص: ٢٤٣).

وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ»[1].

الْآنَ فَاسْتَمْتِعْ وَأَنْتَ تُرَدِّدُ هَذَا الِاسْمَ الْمُبَارَكَ (رَبَّ الْعَالَمِينَ)، فَهُوَ اسْمٌ يَجْعَلُكَ تَهْفُو إِلَيْهِ، وَتُرْسِلُ مُنَاجَاتِكَ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَتَقُولُ:

الْفِكْرُ يَا إِنْسَانُ لَوْ أَطْلَقْتَهُ ... مُتَأَمِّلًا فِي قُدْرَةِ الرَّحْمَنِ

لَخَضَعْتَ إِجْلَالًا وَتَسْبِيحًا لَهُ ... سُبْحَانَهُ رَبٌّ عَظِيمُ الشَّانِ

يَعْلُو وَلَا يُعْلَى، وَجَلَّ عُلُوُّهُ ... وَصِفَاتُهُ كَمُلَتْ بِلَا نُقْصَانِ

سُلْطَانُهُ بَاقٍ وَيَبْقَى مُلْكُهُ ... هَذَا وَيَفْنَى كُلُّ ذِي سُلْطَانِ

فِي كُلِّ شَيْءٍ قَدْ تَكَامَلَ صُنْعُهُ ... ذَا مُحْكَمُ التَّنْزِيلِ خَيْرُ بَيَانِ

قَدْ عَمَّ أَرْجَاءَ الْفَضَاءِ بِآيِهِ ... انْظُرْ! تَرَى مَا لَمْ يَصِفْهُ لِسَانِي

***

(١) مسلم (٨ / ١٦).

جِسْرُ اتِّصَالٍ: وَبَعْدَ التَّعَرُّفِ إِلَى اسْمِ رَبِّنَا، وَأَسَاسِ صِفَاتِهِ، وَأَنَّهُ جَعَلَ الْعَالَمِينَ أَدِلَّةً عَلَى رُبُوبِيَّتِهِ، فَهُوَ الَّذِي رَبَّاهُمْ، وَلِذَا وَجَبَ أَنْ يَحْمَدُوهُ يَأْتِي السُّؤَالُ: فَلِمَاذَا خَلَقَ اللهُ الْعَالَمِينَ، وَرَبَّاهُمْ بِخَلْقِ طَبَائِعِهِمْ وَإِنْزَالِ الشَّرَائِعِ عَلَيْهِمْ؟

الْجَوَابُ: هُنَا يَأْتِي فِي الْآيَةِ الثَّالِثَةِ:

الْمَقْصِدُ الثَّالِثُ

التَّعْرِيفُ بِطَبِيعَةِ الْعَلَاقَةِ بَيْنَ اللهِ وَخَلْقِهِ وَأَنَّهَا قَائِمَةٌ عَلَى الرَّحْمَةِ بِهِمْ، فَالرَّحْمَةُ أَسَاسُ خَلْقِ الطَّبِيعَةِ، وَإِنْزَالِ الشَّرِيعَةِ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣﴾

التَّكْرَارُ لِهَاتَيْنِ الصِّفَتَيْنِ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣﴾ يَلْفِتُ النَّظَرَ لِدَرَجَةٍ عَظِيمَةٍ؛ فَمَا سِرُّهُ؟

إِنَّ التَّكْرَارَ يُفْهَمُ مِنْ دَلَالَتِهِ التَّأْكِيدُ فِي الْكَلَامِ الْمُفَصَّلِ، أَمَّا أَنْ يَرِدَ فِي الْكَلَامِ الْمُخْتَصَرِ الْمُخْتَزَلِ فَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ حِكْمَةٍ غَيْرِ حِكْمَةِ التَّأْكِيدِ، خَاصَّةً وَالْقَاعِدَةُ التَّفْسِيرِيَّةُ تَقُولُ: التَّأْسِيسُ أَوْلَى مِنَ التَّأْكِيدِ، وَأُلَخِّصُ دَلَالَةَ التَّكْرَارِ فِي تَدَبُّرِي فِي الْبَصِيرَةِ الْأُولَى:

المقصد الثالث

التعريف بطبيعة العلاقة بين الله وخلقه، وأنها قائمة على الرحمة بهم، فالرحمة أساس خلق الطبيعة، وإنزال الشريعة، ويبصِّرنا بذلك قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: 3]

بصيرة 01
إشاعة الرحمة ونشرها أساس الإرادة الإلهية لخلق الوجود وإرسال الرسل بالرسالة الإسلامية، فهي أهم الأهداف في الرسالة الإسلامية.

بصيرة 02
الرحمة في التَصَوُّر الإسلامي مطلوبةٌ غايةً ووسيلةً، وابتداءً وانتهاءً.

بصيرة 03
حقيقة الخلق والأمر هي الرحمة الإلهية، وإن ظهر من بعض صورها غير ذلك.

الْبَصِيرَةُ الْأُولَى

﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ إِشَاعَةَ الرَّحْمَةِ أَهَمُّ أَهْدَافِ خَلْقِ الطَّبِيعَةِ، وَإِنْزَالِ الشَّرِيعَةِ، وَالْمَقْصُودُ بِالطَّبِيعَةِ مَنْ وَصَفَهُمُ اللهُ ﷻ بِقَوْلِهِ: ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾

حَاوَلَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ أَنْ يَسْتَكْشِفُوا الْحِكْمَةَ لِتَكْرَارِ هَذَيْنِ الْوَصْفَيْنِ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ فِي الْبَسْمَلَةِ وَفِي الْآيَةِ الثَّالِثَةِ مِنْ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ، وَالَّذِي يَظْهَرُ لِي أَنَّ اللهَ ذَكَرَ هَذَيْنِ الْوَصْفَيْنِ فِي الْبَسْمَلَةِ لِلتَّعْرِيفِ بِأَسَاسِ صِفَاتِهِ، ثُمَّ أَعَادَ ذِكْرَهُمَا فِي الْآيَةِ الثَّالِثَةِ بَعْدَ ذِكْرِ تَرْبِيَتِهِ لِلْعَالَمِ

فِي الْآيَةِ الثَّانِيَةِ، وَقَبْلَ ذِكْرِ يَوْمِ الدِّينِ فِي الْآيَةِ الرَّابِعَةِ لِيُبَيِّنَ أَنَّ أَعْظَمَ أَهْدَافِ تَرْبِيَةِ اللهِ لِلْعَالَمِ الرَّحْمَةُ بِهِمْ، وَهُوَ كَذَلِكَ هَدَفُ الْجَزَاءِ يَوْمَ الدِّينِ، وَلِذَلِكَ أَرْسَلَ اللهُ الرُّسُلَ وَأَنْزَلَ الْكُتُبَ. فَرُبَّمَا سَأَلَ سَائِلٌ وَهُوَ يَقْرَأُ (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ): لِمَاذَا يُرَبِّي اللهُ الْعَالَمَ؟ فَيَأْتِي الْجَوَابُ: يُرَبِّيهِمْ لِأَنَّهُ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ، فَذَكَرَ اللهُ هَذَيْنِ الْوَصْفَيْنِ بَعْدَ الْحَمْدَلَةِ وَالتَّرْبِيَةِ فِي الْآيَةِ الثَّانِيَةِ لِيُبَيِّنَ أَنَّ الرَّحْمَةَ أَعْظَمُ أَهْدَافِ الرِّسَالَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ الَّتِي يُرَبِّي بِهَا الْعَالَمَ، وَكَأَنَّ اللهَ تَعَالَى لَمَّا قَالَ مُبَيِّنًا تَرْبِيَتَهُ لِعِبَادِهِ: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ رُبَّمَا تَسَاءَلَ السَّامِعُ فَقَالَ: بِمَا أَنَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ أَيْ خَالِقُ الطَّبِيعَةِ وَبَقِيَّةِ الْمَخْلُوقَاتِ وَمُرَبِّيهَا، وَالتَّرْبِيَةُ تَعْنِي فِعْلَ الْأَصْلَحِ، وَهَذَا يَقْتَضِي الْحَزْمَ وَالشِّدَّةَ أَحْيَانًا، فَمَا الْغَالِبُ فِي صِفَاتِ رَبِّ الْعَالَمِينَ؟

عِنْدَهَا تَسْتَنْشِقُ عَبِيرَ الْجَوَابِ فِي الْفَاتِحَةِ ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، إِنَّهُ يُبَيِّنُ لَكَ أَنَّ مُرَادَهُ مِنَ التَّرْبِيَةِ هُوَ الرَّحْمَةُ. قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رحمه الله: "وَاقْتِرَانُ رُبُوبِيَّتِهِ بِرَحْمَتِهِ كَاقْتِرَانِ اسْتِوَائِهِ عَلَى عَرْشِهِ بِرَحْمَتِهِ، فَـ ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥] مُطَابِقٌ لِقَوْلِهِ: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ٢ - ٣]، فَإِنَّ شُمُولَ الرُّبُوبِيَّةِ وَسَعَتَهَا بِحَيْثُ لَا يَخْرُجُ شَيْءٌ عَنْهَا أَقْصَى شُمُولِ الرَّحْمَةِ وَسَعَتِهَا، فَوَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ بِرَحْمَتِهِ وَرُبُوبِيَّتِهِ، مَعَ أَنَّ فِي كَوْنِهِ رَبًّا لِلْعَالَمِينَ مَا يَدُلُّ عَلَى عُلُوِّهِ عَلَى خَلْقِهِ، وَكَوْنِهِ فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ" (١).

فَإِنْ سَأَلَ سَائِلٌ: لِمَاذَا ذَكَرَ مِلْكَهُ لِيَوْمِ الدِّينِ فِي الْآيَةِ الرَّابِعَةِ بَعْدَ هَذَيْنِ الْوَصْفَيْنِ فِي الْآيَةِ الثَّالِثَةِ؟

(١) مدارج السالكين، (١/ ٥٨).

كَانَ الْجَوَابُ: لِأَنَّهُ (الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ) فِي الْحَيَاةِ الْأُخْرَى كَمَا هُوَ (الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ) فِي الْحَيَاةِ الْأُولَى، فَالْمُرَادُ هُوَ الْإِخْبَارُ عَنْ شُمُولِ رَحْمَتِهِ فِي الدَّارَيْنِ.

إِنَّ التَّكْرَارَ اللَّفْظِيَّ لِهَذَيْنِ الْوَصْفَيْنِ الْعَظِيمَيْنِ يَزِيدُ فِي الشُّعُورِ الْغَامِرِ بِرَحْمَةِ اللهِ فِي قَلْبِ الْمُسْلِمِ بِالتَّكْرَارِ الْفِعْلِيِّ؛ إِذْ يُكَرِّرُ الْمُسْلِمُ قِرَاءَةَ هَذَيْنِ الْوَصْفَيْنِ الْجَلِيلَيْنِ أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ مَرَّةً فِي الْيَوْمِ فِي الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، فَيَمْلَأُ ذَلِكَ عَقْلَهُ وَقَلْبَهُ بِشُعُورٍ مُفْعَمٍ بِعَظَمَةِ التَّصَوُّرِ الْإِسْلَامِيِّ لِلرَّحْمَةِ، فَالرَّحْمَةُ أَسَاسُ التَّشْرِيعَاتِ وَالنُّظُمِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَالْهَدَفُ مِنْ تَطْبِيقِهَا، وَرِسَالَةُ الْمُسْلِمِينَ فِي الْعَالَمِ خُلَاصَتُهَا الرَّحْمَةُ، وَفِي سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ ذَكَرَ اللهُ قِصَصَ الْأَنْبِيَاءِ (إِبْرَاهِيمَ، وَمُوسَى، وَعِيسَى وَغَيْرِهِمْ -عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-)، وَمِنْهُمُ النَّبِيُّ الْخَاتَمُ ﷺ عَلَى وَجْهِ الْخُصُوصِ، فَقَالَ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

سُؤَالٌ: لِمَاذَا قَالَ: ﴿رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ وَلَمْ يَقُلْ: (رَحْمَةً بِالْعَالَمِينَ)؟

وَالْجَوَابُ: أَنَّ الرَّحْمَةَ (لِلْعَالَمِ) أَعْظَمُ مِنَ الرَّحْمَةِ (بِالْعَالَمِ)؛ لِأَنَّ هَذَا التَّعْبِيرَ ﴿رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ يُفِيدُ أَنَّ الرَّحْمَةَ هَدَفٌ لِهَذَا الْعَالَمِ، وَهَذَا الْمَعْنَى أَعْظَمُ مِنْ مَعْنَى الِالْتِصَاقِ بِهَا الَّذِي يُفِيدُهُ دُخُولُ الْبَاءِ عَلَى الْعَالَمِينَ، وَذَلِكَ يَقْتَضِي نَشْرَ الرَّحْمَةِ بَيْنَ أَجْزَاءِ الْعَالَمِ الْمَلِيئَةِ بِالظُّلْمِ وَالْفَسَادِ وَالْقَسْوَةِ، لِتَكُونَ الرَّحْمَةُ ثَقَافَةَ الْعَالَمِ، وَطَبِيعَتَهُ.

الْعَقِيدَةُ الَّتِي تَرْحَمُ الْفِطْرَةَ وَتَحْفَظُ الْحَيَاةَ:

إِنَّ مِنْ أَعْظَمِ مَا تُقَرِّرُهُ الْفَاتِحَةُ الْمُبَارَكَةُ أَنَّ الْعَقِيدَةَ الْإِسْلَامِيَّةَ رَحْمَةٌ؛ رَحْمَةٌ حَقِيقِيَّةٌ لِلْقَلْبِ وَالْعَقْلِ وَالْحَيَاةِ جَمِيعِهَا، رَحْمَةٌ بِمَا فِيهَا مِنْ جَمَالٍ وَبَسَاطَةٍ وَنَدَاوَةٍ، وَوُضُوحٍ وَتَنَاسُقٍ، وَقُرْبٍ وَأُنْسٍ، وَتَجَاوُبٍ مُبَاشِرٍ عَمِيقٍ مَعَ الْفِطْرَةِ، فَالشَّرْعُ إِنَّمَا وُضِعَ لِلْمَصْلَحَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ، وَالرَّحْمَةِ بِعَامَّةِ الْبَشَرِيَّةِ، وَمَا وُجِدَ فِيهِ مِنْ تَكَالِيفَ شَاقَّةٍ -كَالْحُدُودِ- فَهِيَ تَعُودُ فِي أَصْلِهَا إِلَى الرَّحْمَةِ، وَالْحِفَاظِ عَلَى الْحَيَاةِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ﴾ [البقرة: ١٧٩].

وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ الشَّاعِرِ:

فَقَسَـــا لِيَزْدَجِرُوا، وَمَنْ يَكُ رَاحِمًا فَلْيَقْسُ أَحْيَانًا عَلَى مَنْ يُرْحَمُ[1]

وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى؛ إِذْ مِنْ رَحْمَتِهِ بِخَلْقِهِ أَنْ جَعَلَ الْعُقُوبَةَ عَلَى الْمُجْرِمِ لِيَكُفَّ عَنْ إِجْرَامِهِ، وَإِفْسَادِهِ فِي الْأَرْضِ، وَمِنْ رَحْمَتِهِ بِالْبَشَرِيَّةِ أَنْ أَزَالَ عَنَاصِرَ الْإِفْسَادِ بَيْنَهُمْ بِحِكْمَتِهِ. وَدُونَكَ مِثَالًا وَاقِعِيًّا مَلْمُوسًا: تَصَوَّرْ أَنَّ الْوِلَايَاتِ الْمُتَّحِدَةَ الْأَمْرِيكِيَّةَ فِي سَنَةِ (٢٠٢٢) أَعْلَنَتْ إِحْصَائِيَّةً عَنْ عَدَدِ الْقَتْلَى فِي حَوَادِثِ الْقَتْلِ الْجَمَاعِيِّ (٤٨٠٠٠) إِنْسَانٍ، وَنَسَبَتْ هَذِهِ الْجَرَائِمَ إِلَى التَّسَاهُلِ فِي الرَّدْعِ، وَالَّذِي لَا يَكُونُ إِلَّا بِتَطْبِيقِ حُكْمٍ رَادِعٍ وَهُوَ الْقِصَاصُ.

وَبَعْدَ هَذَا نَسْأَلُ بِوُضُوحٍ: لِمَاذَا يُصِرُّ الْمُعَانِدُونَ وَالْجَاهِلُونَ وَأَبْوَاقُ الْإِعْلَامِ الْحَاقِدِ عَلَى التَّخْوِيفِ مِنَ النُّظُمِ التَّشْرِيعِيَّةِ فِي الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَهِيَ لَمْ تَنْزِلْ إِلَّا رَحْمَةً بِالْخَلْقِ، وَحِرْصًا عَلَى مَصَالِحِهِمْ؟ فَلِمَاذَا يَفِرُّ النَّاسُ مِمَّا فِيهِ مَصْلَحَتُهُمْ وَرَاحَتُهُمْ وَسَعَادَتُهُمْ؟ لَا نُبَالِغُ إِنْ قُلْنَا: إِنَّ مَنْ يُنَفِّرُ مِنَ الشَّرِيعَةِ، وَيَسْتَخْدِمُ الْإِرْهَابَ الْإِعْلَامِيَّ لِصَدِّ النَّاسِ عَنْهَا إِنَّمَا يُحَاوِلُ تَدْمِيرَ حُقُوقِ الْإِنْسَانِ وَمَصَالِحِهِ، وَيَسْعَى كَيْ يَبْغِيَ الْحَيَاةَ عِوَجًا، وَيُدَمِّرُ أَجْمَلَ الْفُرَصِ الَّتِي أُتِيحَتْ لِلنَّاسِ لِلْحُصُولِ عَلَى السَّعَادَةِ.

---

(١) مِنْ قَصِيدَةٍ لِأَبِي تَمَّامٍ فِي دِيوَانِهِ (ص: ٢٠٤) مَطْلَعُهَا:

أَرْضٌ مُصَـــرَّدَةٌ وَأُخْرَى تُـنْـجَـمُ مِـنْـهَـا الَّـتِـي رُزِقَـتْ وَأُخْرَى تُـحْرَمُ

وَرِوَايَةُ الْبَيْتِ الْمَذْكُورِ فِي الدِّيوَانِ:

فَقَسَـــا لِـتَـزْدَجِرُوا وَمَـنْ يَـكُ حَـازِمًـا فَـلْـيَـقْـسُ أَحْـيَـانًـا وَحِـيـنًـا يَـرْحَـمُ

إِذَا أَمْعَنْتَ النَّظَرَ فِي هَذِهِ الْبَصَائِرِ، سَتَرَى أَنَّ أَهَمَّ أَهْدَافِ الْمُسْلِمِينَ الْعَالَمِيَّةِ دِينًا وَأُمَّةً وَدَوْلَةً: الرَّحْمَةُ لِلْعَالَمِ وَبِالْعَالَمِ.

إِنَّ الرَّحْمَةَ الْإِسْلَامِيَّةَ لَتَسْرِي فِي نَسِيجِ الْكَوْنِ بِأَسْرِهِ؛ فَهِيَ رَحْمَةٌ فِي الْخَلْقِ وَالتَّكْوِينِ، كَمَا أَنَّهَا رَحْمَةُ الْهِدَايَةِ وَالتَّبْيِينِ لِشَرِيعَةِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَرَحْمَةُ التَّوَاصُلِ وَالتَّآلُفِ بَيْنَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ، وَأَوَّلُ مَنْ يَجِبُ أَنْ يَتَفَيَّأَ ظِلَالَ هَذِهِ الرَّحْمَةِ هُوَ الْمُسْلِمُ.

وَلَا يُعْقَلُ أَنْ يَزْعُمَ الْمُسْلِمُ أَنَّ الْإِسْلَامَ دِينُ الرَّحْمَةِ لِلْعَالَمِينَ، ثُمَّ يَحْرِمَ مِنْهَا أَقْرَبَ النَّاسِ إِلَيْهِ مِنْ إِخْوَانِهِ الْمُسلِمِينَ!

هُنَا تَظْهَرُ لَنَا الرَّحْمَةُ الْعَظِيمَةُ فِي الرُّؤْيَةِ الْقُرْآنِيَّةِ، فَالرُّؤْيَةُ الْقُرْآنِيَّةُ الْمَجِيدَةُ تَأْخُذُ رَوْعَتُهَا الْأَنْفَاسَ، وَتَتَعَالَى عَمَّا تَجِدُهُ مِنْ خُرَافَاتٍ لَدَى الطَّغَامِ مِنَ النَّاسِ، فَالرَّبُّ الْإِلَهُ فِي الْإِسْلَامِ لَا يُطَارِدُ عِبَادَهُ مُطَارَدَةَ الْخُصُومِ وَالْأَعْدَاءِ، كَمَا تَذْكُرُ الْأَسَاطِيرُ وَالْخُرَافَاتُ الْإِغْرِيقِيَّةُ عَنْ آلِهَةِ الأولمب الْوَثَنِيَّةِ فِي نَزَوَاتِهَا وَثَوْرَاتِهَا وَصِرَاعَاتِهَا[1].

فَمِنْ عَقَائِدِهِمْ أَنَّ زوس الْإِلَهَ الْوَثَنِيَّ الَّذِي يَجْعَلُونَهُ إِلَهَ الرَّعْدِ بِزَعْمِهِمْ يُقَاتِلُ ابْنَهُ أريس الَّذِي يَجْعَلُونَهُ إِلَهًا لِلْحَرْبِ عِنْدَهُمْ، وَيُقَاتِلُ بوسايدن الَّذِي يَجْعَلُونَهُ إِلَهًا لِلْبَحْرِ، وَهَكَذَا، بَعْضُهُمْ يُقَاتِلُ بَعْضًا، وَمِنْ عَجَائِبِ تَصَوُّرَاتِهِمُ الْخُرَافِيَّةِ الْغَرِيبَةِ هَذِهِ: أَنَّهُمْ يَتَشَاءَمُونَ بِالرَّقَمِ ١٣، لِمَاذَا؟ لِأَنَّ الْأَسَاطِيرَ وَالْخُرَافَاتِ السلافية السويدية وَالنرويجية، تَقُولُ: اجْتَمَعَ اثْنَا عَشَرَ

---

(١) وَأَمَّا قَوْلُهُ -تَعَالَى مَجْدُهُ-: ﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ [الأعراف: ١٨٣، القلم: ٤٥] وَأَمْثَالُهَا مِنَ الْآيَاتِ فَالْمُرَادُ الْمُشَاكَلَةُ جَزَاءً لَهُمْ عَلَى أَفْعَالِهِمُ الْمُجْرِمَةِ، وَلَيْسَ الْإِيذَاءُ ابْتِدَاءً، وَلِذَا قُلْنَا بِأَنَّ الرَّحْمَةَ هِيَ أَسَاسُ الصِّفَاتِ، فَتُفَسَّرُ سَائِرُ الصِّفَاتِ وَالْأَفْعَالِ الْإِلَهِيَّةِ وَفْقَهَا.

إِلَهًا عَلَى مَائِدَةٍ وَاحِدَةٍ، فَالْآلِهَةُ عِنْدَهُمْ كَالْبَشَرِ، وَلَمَّا وَصَلَ الْإِلَهُ الثَّالِثَ عَشَرَ أَفْسَدَ عَلَيْهِمْ مَجْلِسَهُمْ، وَتَقَاتَلُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَفِي الْوِلَايَاتِ الْمُتَّحِدَةِ الْأَمْرِيكِيَّةِ سَتَجِدُ بَعْضَ الْفَنَادِقِ يَنْتَقِلُ رَقَمُ الدَّوْرِ فِيهَا مِنَ الثَّانِي عَشَرَ إِلَى الدَّوْرِ الرَّابِعَ عَشَرَ بِسَبَبِ هَذِهِ الْخُرَافَةِ.

وَنَحْنُ نَقُولُ لَهُمْ: لَا يُوجَدُ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ، فَهَا هُوَ الْكَوْنُ يَسِيرُ بِانْتِظَامٍ وَانْسِجَامٍ، وَاللهُ يَقُولُ: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، وَيَقُولُ -جَلَّ مَجْدُهُ-: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣].

وَإِذَا كُنَّا قَرَّرْنَا أَنَّ ذِكْرَ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ فِي الْبَسْمَلَةِ لِتَحْدِيدِ أَهَمِّ صِفَاتِ اللهِ ﷻ وَأَسَاسِهَا، وَأَنَّ ذِكْرَ الْوَصْفَيْنِ فِي الْآيَةِ الثَّالِثَةِ لِبَيَانِ أَسَاسِ الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ؛ فَإِنَّنَا يَنْبَغِي أَنْ نُدْرِكَ هُنَا أَمْرًا آخَرَ هُوَ أَنَّ اللهَ جَعَلَ هَذِهِ الْآيَةَ الثَّالِثَةَ آيَةَ الثَّنَاءِ الْأَعْظَمِ فِي السُّورَةِ؛ فَاللهُ -تَعَالَى ذِكْرُهُ- يَقُولُ فِيهَا مُجِيبًا لِعَبْدِهِ عِنْدَ نُطْقِهَا: «أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي»، وَمَعَ أَنَّ كُلَّ الْآيَاتِ الْأَرْبَعِ ثَنَاءٌ عَلَى اللهِ تَعَالَى إِلَّا أَنَّ اللهَ -تَعَالَى ذِكْرُهُ- خَصَّ هَذِهِ الْآيَةَ بِوَصْفِ قَائِلِهَا بِالثَّنَاءِ عَلَيْهِ، وَذَلِكَ لِيُوَضِّحَ جَمَالَ التَّصَوُّرِ الْإِسْلَامِيِّ، وَأَنَّ نِظَامَهُ رَحْمَةٌ كَوْنِيَّةٌ كَمَا سَبَقَ فِي الْبَسْمَلَةِ، فَالرَّحْمَةُ عِبَارَةٌ عَنِ التَّخْلِيصِ مِنْ أَنْوَاعِ الْآفَاتِ، وَإِيصَالِ الْخَيْرَاتِ إِلَى أَصْحَابِ الْحَاجَاتِ.

بَلْ إِنَّ الرَّحْمَةَ تُمَثِّلُ الْعَلَاقَةَ بَيْنَ اللهِ -تَعَالَى ذِكْرُهُ- وَبَيْنَ خَلْقِهِ، فَتَأَمَّلْ ذَلِكَ فِي سُورَةِ الْفَاتِحَةِ؛ سَتَكْتَشِفُ أَنَّ اللهَ أَحَاطَهُمْ بِرَحْمَتِهِ، فَجَعَلَهَا لَهُمْ فِي الِابْتِدَاءِ كَمَا هِيَ مِنْهُ فِي الْجَزَاءِ، فَلَمَّا قَالَ الْعَبْدُ فِي بِدَايَةِ الْأُمُورِ: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ كَانَ ذَاكِرًا لِلَّهِ ﷻ بِذَلِكَ فَاسْتَحَقَّ الرَّحْمَةَ، فَكُوفِئَ بِإِظْهَارِ الْوَصْفِ بِالرَّحْمَةِ فِي الْبَسْمَلَةِ حَيْثُ كَانَتْ تَتِمَّتُهَا ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

وَكَذَلِكَ لَمَّا قَالَ فِي خَوَاتِيمِ الْأُمُورِ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ كَانَ بِذَلِكَ لِلَّهِ شَاكِرًا فَاسْتَحَقَّ رَحْمَةً أُخْرَى، فَتَكَرَّرَ وَصْفُ اللهِ بَعْدَهَا بِالرَّحْمَةِ فَقَالَ اللهُ ﷻ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾.

يَقُولُ ابْنُ الْقَيِّمِ ﷺ: "وَأَمَّا الرَّحْمَةُ فَهِيَ التَّعَلُّقُ، وَالسَّبَبُ الَّذِي بَيْنَ اللهِ وَبَيْنَ عِبَادِهِ، فَالتَّأْلِيهُ مِنْهُمْ لَهُ، وَالرُّبُوبِيَّةُ مِنْهُ لَهُمْ، وَالرَّحْمَةُ سَبَبٌ وَاصِلٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عِبَادِهِ، بِهَا أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ رُسُلَهُ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِمْ كُتُبَهُ، وَبِهَا هَدَاهُمْ، وَبِهَا أَسْكَنَهُمْ دَارَ ثَوَابِهِ، وَبِهَا رَزَقَهُمْ وَعَافَاهُمْ وَأَنْعَمَ عَلَيْهِمْ، فَبَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ سَبَبُ الْعُبُودِيَّةِ، وَبَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ سَبَبُ الرَّحْمَةِ"(١).

فَاللهُ سُبْحَانَهُ هُوَ رَبُّ الْعَالَمِينَ، وَعِبَادُهُ الْمَرْبُوبُونَ ضُعَفَاءُ مُحْتَاجُونَ مُفْتَقِرُونَ إِلَيْهِ، وَهُمْ يَرَوْنَ احْتِيَاجَهُمْ لِلرَّحْمَةِ وَاضِحًا، وَيَجِدُونَ تَلَهُّفَهُمْ لَهَا بَادِيًا لَائِحًا، فَجَاءَهُمْ بِالْآيَةِ الَّتِي أَغَاثَتْ قُلُوبَهُمْ، وَحَقَّقَتْ مَطْلُوبَهُمْ؛ إِذ قَالَ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

قَارِنْ هَذِهِ الرَّحْمَةَ الْوَاسِعَةَ بِمَا وَرَدَ فِي «الْعَهْدِ الْقَدِيمِ» حَوْلَ أُسْطُورَةِ بُرْجِ بَابِلَ فِي الْإِصْحَاحِ الْحَادِي عَشَرَ مِنْ سِفْرِ التَّكْوِينِ:

٦ وَقَالَ الرَّبُّ: هُوَ ذَا شَعْبٌ وَاحِدٌ، وَلِسَانٌ وَاحِدٌ لِجَمِيعِهِمْ، وَهَذَا ابْتِدَاؤُهُمْ بِالْعَمَلِ. وَالْآنَ لَا يَمْتَنِعُ عَلَيْهِمْ كُلُّ مَا يَنْوُونَ أَنْ يَعْمَلُوهُ.

٧ هَلُمَّ نَنْزِلْ وَنُبَلْبِلْ هُنَاكَ لِسَانَهُمْ حَتَّى لَا يَسْمَعَ بَعْضُهُمْ لِسَانَ بَعْضٍ.

---

(١) مدارج السالكين، (١/ ٥٨).

٨ فَبَدَّدَهُمُ الرَّبُّ مِنْ هُنَاكَ عَلَى وَجْهِ كُلِّ الْأَرْضِ، فَكَفُّوا عَنْ بُنْيَانِ الْمَدِينَةِ.

٩ لِذَلِكَ دُعِيَ اسْمُهَا بَابِلَ؛ لِأَنَّ الرَّبَّ هُنَاكَ بَلْبَلَ لِسَانَ كُلِّ الْأَرْضِ، وَمِنْ هُنَاكَ بَدَّدَهُمُ الرَّبُّ عَلَى وَجْهِ كُلِّ الْأَرْضِ.

فَهَلْ تَلِيقُ هَذِهِ الْأَوْصَافُ لِلرَّبِّ جَلَّ وَعَلَا الَّذِي رَبَّى الْعَالَمِينَ، وَأَنْعَمَ عَلَيْهِمْ؟ وَهَلْ يَتَقَبَّلُ الْعَاقِلُ أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ الَّذِي أَوْجَدَ الْوُجُودَ، وَسَخَّرَهُ لِلْإِنْسَانِ يَتَعَامَلُ مَعَ عِبَادِهِ بِصِفَةِ الْقَسْوَةِ، وَالشِّدَّةِ وَالْعَذَابِ؟ وَهَلْ تَسْتَوِي هَذِهِ الْأَوْصَافُ مَعَ مَا جَاءَ فِي كِتَابِ رَبِّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَهُوَ يُعَرِّفُ نَفْسَهُ إِلَى عِبَادِهِ بِصِفَاتِ الرَّحْمَةِ وَاللُّطْفِ وَالتَّكْرِيمِ؟ يَقُولُ ﷻ: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأَنعَام: ٥٤]، وَيَقُولُ جَلَّ شَأْنُهُ: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأَعرَاف: ١٥٦]، ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ۝٧٠﴾ [الإسرَاء: ٧٠]، لَا سَوَاءٌ وَإِنَّمَا هُوَ كَلَامٌ مُحَرَّفٌ، بَاطِلٌ مِنْ أَقَاوِيلِ الْمُبْطِلِينَ نَسَبُوهُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ.

فَظَهَرَ لَنَا الْفَرْقُ بَيْنَ وَصْفَيْ ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ فِي الْبَسْمَلَةِ فِي الْآيَةِ الْأُولَى، وَفِي الْآيَةِ الثَّالِثَةِ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ الْمُعَظَّمَةِ، فَفِي الْبَسْمَلَةِ هُمَا تَعْرِيفٌ بِأَسَاسِ صِفَاتِ اللهِ، وَفِي الْآيَةِ الثَّالِثَةِ ذَكَرَهُمَا اللهُ لِهَدَفَيْنِ:

الْأَوَّلُ: تَعْرِيفٌ بِسَبَبِ تَرْبِيَةِ اللهِ لِلْعَالَمِينَ، وَأَنَّهُ جَعَلَ يَوْمَ الدِّينِ بِدَايَةَ الْعَالَمِ الْآخَرِ، وَنِهَايَةَ الْعَالَمِ الْأَوَّلِ، لِأَنَّهُ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ، وَلِذَلِكَ جَاءَتْ ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ بينهما بين قوله: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وبين قوله: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾.

الثَّانِي: لِتَقْرِيرِ طَبِيعَةِ الْعَلَاقَةِ بَيْنَ اللهِ وَخَلْقِهِ، وَهِيَ عَلَاقَةُ الرَّحْمَةِ السَّابِغَةِ فَرَبَّاهُمُ اللهُ ﷻ فِي الدُّنْيَا، وَمِنْ تَرْبِيَتِهِ لَهُمْ أَنَّهُ سَيَبْعَثُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ لِأَنَّهُ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ.

***

جِسْرُ اتِّصَالٍ: عَرَفْنَا الْبَصِيرَةَ الْأُولَى مِنْ بَصَائِرِ الْمَقْصِدِ الثَّالِثِ مِنْ مَقَاصِدِ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ، وَهِيَ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ إِشَاعَةَ الرَّحْمَةِ أَهَمُّ أَهْدَافِ خَلْقِ الطَّبِيعَةِ ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، وَإِنْزَالِ الشَّرِيعَةِ، فَمَا الْبَصِيرَةُ الثَّانِيَةُ؟

الْجَوَابُ:

الْبَصِيرَةُ الثَّانِيَةُ

الرَّحْمَةُ فِي التَّصَوُّرِ الْإِسْلَامِيِّ مَطْلُوبَةٌ غَايَةً وَوَسِيلَةً، وَابْتِدَاءً وَانْتِهَاءً

قَدْ رَأَيْتَ -أَيَّدَكَ اللهُ- أَنَّا اسْتَنْبَطْنَا الْبَصِيرَةَ السَّابِقَةَ مِنَ التَّكْرَارِ لِهَذَيْنِ الِاسْمَيْنِ الْجَلِيلَيْنِ، وَالْآنَ تَعَالَ بِنَا لِنَسْتَنْبِطَ هَذِهِ الْبَصِيرَةَ مِنْ خِلَالِ عَظَمَةِ مَعْنَى الِاسْمَيْنِ الْجَلِيلَيْنِ: الرَّحْمَنِ وَالرَّحِيمِ.

مَعْنَى اسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ وَاسْمِهِ الرَّحِيمِ:

ذَكَرَ أَهْلُ الْعِلْمِ أَقْوَالًا مُتَعَدِّدَةً فِي الْفَرْقِ بَيْنَ هَذَيْنِ الِاسْمَيْنِ الْعَظِيمَيْنِ، وَمِنْ هَذِهِ الْأَقْوَالِ:

الْقَوْلُ الْأَوَّلُ: الرَّحْمَنُ: هُوَ الْمُنْعِمُ بِمَا لَا يُتَصَوَّرُ صُدُورُ جِنْسِهِ مِنَ الْعِبَادِ، وَالرَّحِيمُ: هُوَ الْمُنْعِمُ بِمَا يُتَصَوَّرُ جِنْسُهُ مِنَ الْعِبَادِ.

الْقَوْلُ الثَّانِي: هُوَ تَعَالَى رَحْمَنٌ؛ لِأَنَّهُ يَخْلُقُ مَا لَا يَقْدِرُ الْعَبْدُ عَلَيْهِ، رَحِيمٌ لِأَنَّهُ يَفْعَلُ مَا لَا يَقْدِرُ الْعَبْدُ عَلَى جِنْسِهِ، فَكَأَنَّهُ تَعَالَى يَقُولُ: أَنَا رَحْمَنٌ لِأَنِّي أَوْجَدْتُكَ نُطْفَةً مَذِرَةً، ثُمَّ جَعَلْتُكَ صُورَةً حَسَنَةً، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ﴾ [غافر:٦٤]، وَأَنَا رَحِيمٌ لِأَنَّكَ تُسَلِّمُ إِلَيَّ طَاعَةً نَاقِصَةً فَأُسَلِّمُ إِلَيْكَ جَنَّةً خَالِصَةً[1].

---

(١) كثير من هذه الفوائد الجليلة في تفسير الرازي (١/ ١٥٤).

الْقَوْلُ الثَّالِثُ: الرَّحْمَنُ رَحْمَانٌ بِالْمُسْلِمِينَ وَالْكَافِرِينَ وَالْخَلْقِ أَجْمَعِينَ، وَالرَّحِيمُ زِيَادَةُ اخْتِصَاصٍ بِإِعْطَاءِ رَحْمَةٍ وَمَزِيَّةٍ لِلْمُؤْمِنِينَ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٣].

الْقَوْلُ الرَّابِعُ: أَنَّ اسْمَ (اللهِ) يُوجِبُ وِلَايَتَهُ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وَاسمَ (الرَّحْمَن) يُوجِبُ مَحَبَّتَهُ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦] وَاسم ﴿الرَّحِيمِ﴾ يُوجِبُ رَحْمَتَهُ ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الْأَحْزَاب: ٤٣].

الْقَوْلُ الْخَامِسُ: قِيلَ: الرَّحِيمُ الَّذِي يُنْعِمُ بِدَقَائِقِ النِّعَمِ، وَتَفَاصِيلِهَا، وَالرَّحْمَنُ يُنْعِمُ بِجَلَائِلِ النِّعَمِ، وَعَظَائِمِهَا.

وَبِمَا أَنَّهُ لَا يُوجَدُ دَلِيلٌ فَصْلٌ يَحْسِمُ بَيْنَ تِلْكَ الْأَقْوَالِ؛ فَيُمْكِنُ الْقَوْلُ بِكُلِّ تِلْكَ الْمَعَانِي؛ لِأَنَّهُ لَا تَعَارُضَ بَيْنَهَا، وَهَذَا التَّنَوُّعُ فِي فَهْمِ الْفَرْقِ بَيْنَ الِاسْمَيْنِ يُبَيِّنُ لَنَا اتِّسَاعَ مَجَالَاتِ الرَّحْمَةِ، فَلَمْ تَتَنَوَّعِ الْأَوْصَافُ لِمَوْصُوفٍ وَاحِدٍ فِي صِفَةٍ وَاحِدَةٍ إِلَّا لِتَدُلَّ عَلَى عَظَمَةِ هَذَا الْوَصْفِ وَغَلَبَتِهِ وَأَصَالَتِهِ، بَلْ وَلِتَدُلَّ عَلَى اتِّسَاعِ مَجَالَاتِهِ:

> **الرَّحْمَةُ تَكُونُ فِي الْوَسَائِلِ كَمَا هِيَ فِي الْغَايَاتِ، وَتَكُونُ فِي الْمَبَادِئِ كَمَا هِيَ فِي الْعَوَاقِبِ، وَتَكُونُ فِي الْمُقَدِّمَاتِ كَمَا هِيَ فِي النَّتَائِجِ، وَتَكُونُ فِي الشَّرَائِعِ وَالنُّظُمِ وَالشَّعَائِرِ وَالْمَسْؤُولِيَّاتِ كَمَا هِيَ فِي الْجَزَاءِ وَالثَّوَابِ وَالْمُكَافَآتِ، وَتَكُونُ فِي الصَّغَائِرِ وَالْخَفِيِّ مِنَ الْمَسَائِلِ، كَمَا هِيَ فِي الْعَظَائِمِ وَالْجَلِيِّ مِنْ أُمُورِ الْحَيَاةِ.**

وَيُلَخِّصُ السُّهَيْلِيُّ ﷺ ذَلِكَ فَيَقُولُ: «وَفَائِدَةُ الْجَمْعِ بَيْنَ الصِّفَتَيْنِ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ الْإِنْبَاءُ عَنْ رَحْمَةٍ عَاجِلَةٍ وَآجِلَةٍ، وَخَاصَّةٍ وَعَامَّةٍ»[1]، وَسُئِلَ أَبُو الْعَبَّاسِ بْنُ عَطَاءٍ: إِلَامَ تَسْكُنُ قُلُوبُ الْعَارِفِينَ؟ قَالَ: «إِلَى قَوْلِهِ: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾؛ لِأَنَّ فِي ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ هَيْبَتُهُ، وَفِي اسْمِهِ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ عَوْنُهُ وَنُصْرَتُهُ، وَفِي اسْمِهِ ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ مَوَدَّتُهُ وَمَحَبَّتُهُ، ثُمَّ قَالَ: سُبْحَانَ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ هَذِهِ الْمَعَانِي فِي لَطَائِفِهَا فِي هَذِهِ الْأَسَامِي فِي غَوَامِضِهَا»[2].

وَهَذَانِ الِاسْمَانِ الْعَظِيمَانِ يَدُلَّانِ عَلَى صِفَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ إِذَا افْتَرَقَتَا اجْتَمَعَتَا، وَإِذَا اجْتَمَعَتَا افْتَرَقَتَا، فَإِذَا ذُكِرَ أَحَدُهُمَا فَقَطْ دَلَّ عَلَى الْمَعْنَى الَّذِي فِي الْآخَرِ، وَإِذَا ذُكِرَا مَعًا دَلَّ كُلٌّ مِنْهُمَا عَلَى مَعْنًى خَاصٍّ بِهِ.

وَهُنَا قَدْ تَسْأَلُ -عَمَّرَ اللهُ أَيَّامَكَ بِالسَّعَادَةِ وَالْعِبَادَةِ- لِمَاذَا قَدَّمَ اللهُ ﷻ اسْمَهُ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ على اسْمِهِ ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾؟

وَلَعَلَّ الْجَوَابَ يَكْمُنُ فِي أَنَّ اللهَ ﷻ حَرَّمَ عَلَى النَّاسِ أَنْ يَتَسَمَّوْا بِبَعْضِ أَسْمَائِهِ كَالرَّحْمَنِ وَالْخَالِقِ بِخِلَافِ غَيْرِهَا مِنَ الْأَسْمَاءِ كَالسَّمِيعِ وَالْبَصِيرِ، فَقَدَّمَ الِاسْمَ الْخَاصَّ بِهِ دُونَ جَمِيعِ خَلْقِهِ، ثُمَّ أَتْبَعَ ذَلِكَ بِأَسْمَائِهِ الَّتِي قَدْ تَسَمَّى بِهَا غَيْرُهُ، وَبِذَا تَشِيعُ الرَّحْمَةُ بَيْنَ الْخَلْقِ، فَكُلُّ مَنْ رَحِمَ انْسَكَبَتْ عَلَيْهِ رَحْمَةٌ تَمْلَأُ حَيَاتَهُ، وَتُبَارِكُ أَوْقَاتَهُ وَأَقْوَاتَهُ.

وَقَدْ أَكَّدَ هَذَا الْمَعْنَى النَّبِيُّ ﷺ فِي الْحَدِيثِ الْمُسَلْسَلِ بِالْأَوَّلِيَّةِ الَّذِي جَعَلَهُ الْعُلَمَاءُ أَوَّلَ مَا يُقْرَأُ مِنَ الْعِلْمِ فِي مَجَالِسِهِمْ، وَهُوَ حَدِيثُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ ﷺ، يَبْلُغُ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ،

---

(١) بدائع الفوائد ص ٢٨.

(٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (١٠/ ٣٠٢).

قَالَ: «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا أَهْلَ الْأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ أَهْلُ السَّمَاءِ، وَالرَّحِمُ شُجْنَةٌ مِنَ الرَّحْمَنِ، مَنْ وَصَلَهَا، وَصَلَتْهُ، وَمَنْ قَطَعَهَا، بَتَّتْهُ»[1].

وقد أنشدَ أبو القاسمِ بن عساكرَ في ذلك فقالَ:

بَـادِرْ إِلَى الْخَيْرِ يَـا ذَا اللُّـبِّ مُغْتَنِمًـا ... وَلَا تَكُنْ مِنْ قَلِيلِ الْعُرْفِ مُحْتَشِـمَا

وَاشْـكُرْ لِمَوْلَاكَ مَـا أَوْلَاكَ مِنْ نِعَمٍ ... فَالشُّكْرُ يَسْتَوْجِبُ الْإِفْضَالَ وَالْكَرَمَا

وَارْحَـمْ بِقَلْبِـكَ خَلْقَ اللهِ وَارْعَـهُـمْ ... فَـإِنَّمَـا يَرْحَمُ الرَّحْمَنُ مَنْ رَحِمَـا[2]

***

(١) أحمد (١١/ ٣٣)، قال شعيب الأرنؤوط: صحيح لغيره.

(٢) شرح صحيح البخاري لشمس الدين السفيري في المجلس السابع والعشرين ص ١١.

جِسْرُ اتِّصَالٍ: عَرَفْنَا الْبَصِيرَةَ الثَّانِيَةَ مِنْ بَصَائِرِ الْمَقْصِدِ الثَّالِثِ مِنْ مَقَاصِدِ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ، وَهِيَ: الرَّحْمَةُ فِي التَّصَوُّرِ الْإِسْلَامِيِّ مَطْلُوبَةٌ غَايَةً وَوَسِيلَةً، وَابْتِدَاءً وَانْتِهَاءً، فَمَا الْبَصِيرَةُ الثَّالِثَةُ؟

الْجَوَابُ:

الْبَصِيرَةُ الثَّالِثَةُ

حَقِيقَةُ الْخَلْقِ وَالْأَمْرِ هِيَ الرَّحْمَةُ الْإِلَهِيَّةُ، وَإِنْ ظَهَرَ مِنْ بَعْضِ صُوَرِهَا غَيْرُ ذَلِكَ

وَعِنْدَمَا نَصِلُ إِلَى هَذَا الْحَدِّ مِنْ تَقْرِيرِ الرَّحْمَةِ رُبَّمَا انْبَعَثَ سَائِلٌ مُعْتَرِضٌ قَائِلًا:

كَيْفَ تَزْعُمُونَ أَنَّ رَحْمَةَ اللهِ عَامَّةٌ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ إِلَى الْحَوَادِثِ الْمُؤْلِمَةِ الَّتِي تُصِيبُ الْبَشَرِيَّةَ، وَتَبْكِي مِنْهَا الْإِنْسَانِيَّةُ، سَوَاءٌ أَكَانَتْ حَوَادِثَ كَوْنِيَّةً، أَمْ حَوَادِثَ بِسَبَبِ رُعُونَةِ الْإِنْسَانِ؟

الْجَوَابُ:

وَالْحَقِيقَةُ أَنَّ هَذَا السُّؤَالَ عَلَى هَذَا النَّحْوِ (عِلَّةُ وُجُودِ الشَّرِّ وَالضَّرَرِ فِي الْحَيَاةِ) مِنْ أَكْبَرِ الْمَدَاخِلِ الَّتِي يَتَوَصَّلُ بِهَا إِبْلِيسُ اللَّعِينُ لِزَعْزَعَةِ الْإِيمَانِ فِي الْقُلُوبِ، وَقَذْفِ نَابِتَةِ الْإِلْحَادِ فِي الْعُقُولِ؛ إِذْ يُحَاوِلُ الْمُلْحِدُ عَنْ طَرِيقِ مُحَاكَمَةِ الْعَدْلِ الْإِلَهِيِّ إِلَى إِنْكَارِ وُجُودِ اللهِ.

وَيَرَى د/ سَامِي عَامِرِي أَنَّ "مُشْكِلَةَ الشَّرِّ" تُعْتَبَرُ فِي الْغَرْبِ –الْيَوْمَ– أَهَمَّ شُبْهَةٍ إِلْحَادِيَّةٍ فِي السِّجَالِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ بِخَالِقٍ وَالدَّهْرِيِّينَ، وَالْعَلَامَاتُ عَلَى ذَلِكَ وَاضِحَةٌ كَثِيرَةٌ، وَلَا يُقَدِّمُ دَارِسٌ مُعَافِسٌ لِلْوَاقِعِ عَلَيْهَا غَيْرَهَا مِنَ الشُّبُهَاتِ إِذَا تَدَافَعَتْ، فَهِيَ ذُؤَابَةُ اللِّسَانِ الْكَافِرِ بِالْخَالِقِ، فَقَدْ صَرَّحَ كَثِيرٌ مِنْ أَئِمَّةِ الْإِلْحَادِ مِثْلَ (أَنْتُونِي فلو) أَنَّ شُبْهَةَ الشَّرِّ هِيَ سَبَبُ إِلْحَادِهِمْ وَجَحْدِهِمْ وُجُودَ الْخَالِقِ[1].

---

(١) مشكلة الشر ووجود الله، الرد على أبرز شبهات الملاحدة، سامي عامري (ص: ١٧).

وَمِنْ مَسَالِكِ الصَّوَابِ أَنْ نَطْلُبَ مِنْ صَاحِبِ السُّؤَالِ أَنْ يَسْتَمِعَ إِلَى الْجَوَابِ، وَلَا يَأْخُذَ نَفْسَهُ بِالضَّجِيجِ الَّذِي يَصْحَبُ هَذَا السُّؤَالَ عَادَةً؛ إِذْ إِنَّ مِثْلَ هَذَا السُّؤَالِ كَانَ مِفْتَاحًا لِعَالِمِ الرِّيَاضِيَّاتِ (جيفري لانغ) (Gwffery Lang) لِلدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ، وَتَأْلِيفِ كِتَابِهِ: (الصِّرَاعُ مِنْ أَجْلِ الْإِيمَانِ) (Struggling to Surrender)، وَذَلِكَ بِنَاءً عَلَى تَجْرِبَتِهِ الَّتِي بِهَا أَبْصَرَ نُورَ الْحَقِيقَةِ فِي الْقُرْآنِ. نَعَمْ لَقَدْ تَسَاءَلَ كَمَا يَتَسَاءَلُ أَيُّ إِنْسَانٍ عَنْ سِرِّ وُجُودِ الْآلَامِ فِي الْحَيَاةِ، وَهَلْ يُنَافِي ذَلِكَ أَنَّ اللهَ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ الَّذِي وَسِعَتْ رَحْمَتُهُ كُلَّ شَيْءٍ؟

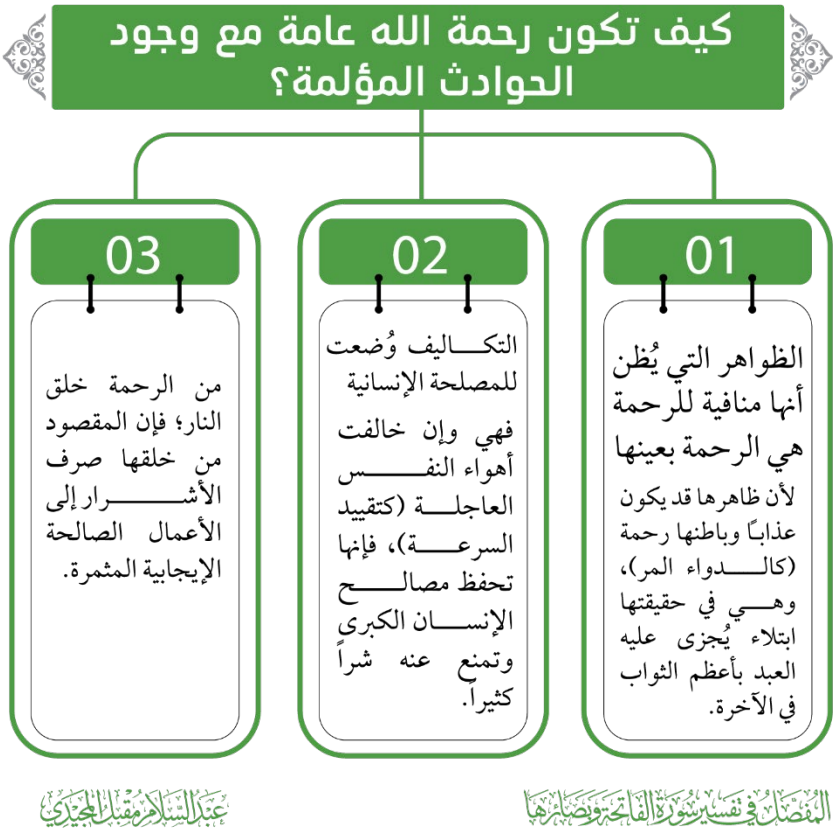
قَرَأَ الْقُرْآنَ، وَبَعْدَ قِصَّةٍ مُدْهِشَةٍ أَسْلَمَ؛ لِأَنَّهُ لَمَّا قَرَأَ قَوْلَ اللهِ ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [البَقَرَة: ٣٠] عَلِمَ حِينَئِذٍ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ أَوَّلَ مَنْ طَرَحَ السُّؤَالَ عَنْ وُجُودِ الشَّرِّ وَالضُّرِّ فِي حَيَاةِ الْبَشَرِ، فَقَدْ سَأَلَتْهُ الْمَلَائِكَةُ مِنْ قَبْلُ: ﴿قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ كَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ: مَا السِّرُّ فِي وُجُودِ مَخْلُوقٍ تُوجَدُ فِي حَيَاتِهِ الْحَوَادِثُ الْمُؤْلِمَةُ؟ فَبَيَّنَ اللهُ أَنَّ لَهُ حِكْمَةً عَظِيمَةً فِيمَا نَرَاهُ وَنُشَاهِدُهُ مِنْ هَذِهِ الْحَوَادِثِ وَالْآلَامِ ﴿قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

مُسَلَّمَةٌ إِيمَانِيَّةٌ يَقِينِيَّةٌ:

يَتَأَسَّسُ الرَّدُّ وَالْجَوَابُ عَنْ هَذَا السُّؤَالِ عَلَى يَقِينِيَّةٍ لَا مِرْيَةَ فِيهَا، وَهِيَ الْإِيمَانُ بِاللهِ ﷻ يَقُومُ عَلَى أَنَّ اللهَ ﷻ هُوَ الْخَالِقُ، وَهُوَ يَتَّصِفُ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ الْمُطْلَقِ، مِنْهَا الْقُدْرَةُ الْمُطْلَقَةُ، وَالْعِلْمُ الْمُطْلَقُ، وَالْحِكْمَةُ الْمُطْلَقَةُ، وَالرَّحْمَةُ الْوَاسِعَةُ، وَالْعَدْلُ التَّامُّ.

فَأَيُّ فِعْلٍ مِنْ أَفْعَالِهِ، وَإِنْ بَدَا لَنَا فِيهِ شَرٌّ أَوْ ضَرَرٌ، فَإِنَّهُ لَا يَخْرُجُ عَنْ هَذِهِ الصِّفَاتِ، وَلَكِنَّهُ قَدْ يَخْفَى عَلَى عُقُولِنَا الْمَحْدُودَةِ حِكْمَتُهُ الْكَامِلَةُ.

إِنَّ الرَّحْمَةَ هِيَ الْهَدَفُ الْحَقِيقِيُّ مِنَ الْأَفْعَالِ الْإِلَهِيَّةِ الْكَوْنِيَّةِ (الْخَلْقِ) وَالتَّكَالِيفِ الشَّرْعِيَّةِ (الْأَمْرِ)، أَمَّا الْإِجَابَةُ الْمُخْتَصَرَةُ عَلَى السُّؤَالِ فَتَتَّضِحُ مِنْ خِلَالِ الْأُمُورِ الْمُرَتَّبَةِ الْآتِيَةِ:



الْأَمْرُ الْأَوَّلُ: الْحَوَادِثُ الَّتِي تَحْدُثُ لِلْعِبَادِ قِسْمَانِ:

الْقِسْمُ الْأَوَّلُ: ظَاهِرُهُ الرَّحْمَةُ وَبَاطِنُهُ الْعَذَابُ، كَالْوَالِدِ إِذَا أَهْمَلَ وَلَدَهُ حَتَّى يَفْعَلَ مَا يَشَاءُ وَلَا يُؤَدِّبُهُ.

الْقِسْمُ الثَّانِي: ظَاهِرُهُ الْعَذَابُ وَبَاطِنُهُ الرَّحْمَةُ، كَالْوَالِدِ إِذَا حَبَسَ وَلَدَهُ لِلْعِلْمِ، وَالْإِنْسَانِ إِذَا وَقَعَ فِي يَدِهِ مَرَضُ الْآكِلَةِ (الَّتِي تُسَبِّبُ تَآكُلَ الْجَسَدِ)، فَإِذَا قُطِعَتْ تِلْكَ الْيَدُ فَهَذَا فِي الظَّاهِرِ عَذَابٌ، وَفِي الْبَاطِنِ رَاحَةٌ وَرَحْمَةٌ.

فَكُلُّ مَا وُجِدَ مِنَ الْمَصَائِبِ فَهُوَ لِصَالِحِ بَنِي الْإِنْسَانِ بِالنَّظَرِ إِلَى اخْتِبَارِ الْعَاجِلَةِ وَنَتَائِجِ الْآجِلَةِ، فَالْغَافِلُ يَغْتَرُّ بِالظَّوَاهِرِ، وَالْعَاقِلُ يَنْظُرُ إِلَى الْحَقَائِقِ وَلَوْ كَانَتْ مِنَ السَّرَائِرِ، وَيَنْظُرُ لَهَا بِعَيْنِ بَصِيرَتِهِ، فَالظَّوَاهِرُ الَّتِي يُظَنُّ أَنَّهَا مُنَافِيَةٌ لِلرَّحْمَةِ هِيَ الرَّحْمَةُ بِعَيْنِهَا عِنْدَ سَبْرِ أَغْوَارِهَا، وَمَعْرِفَةِ حِكَمِهَا وَأَسْرَارِهَا، هَلْ تُرِيدُ مِثَالًا؟

وَأَمْرٌ آخَرُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَغِيبَ عَنِ الْعَاقِلِ وَهُوَ أَنَّهُ لَا تَظْهَرُ قِيمَةُ الْخَيْرِ إِلَّا بِوُجُودِ مُقَابِلِهِ (الشَّرِّ)، وَلَا تُعْرَفُ قُوَّةُ الصَّبْرِ إِلَّا بِوُجُودِ الْبَلَاءِ، وَلَا يُعْرَفُ فَضْلُ الْعَافِيَةِ إِلَّا بِمَرَارَةِ الْمَرَضِ. وَالْحَيَاةُ الدُّنْيَا دَارُ اخْتِبَارٍ وَابْتِلَاءٍ، وَلَيْسَتْ دَارَ جَزَاءٍ وَقَرَارٍ.

وهَذَا الِاخْتِبَارُ ضَرُورِيٌّ لِتَمْيِيزِ الْخَبِيثِ مِنَ الطَّيِّبِ، وَلِإِظْهَارِ مَعَادِنِ النَّاسِ، وَلِتَفَاضُلِهِمْ فِي الدَّرَجَاتِ عِنْدَ اللهِ. وَلَوْ كَانَتِ الْحَيَاةُ كُلُّهَا خَيْرًا مَحْضًا وَسَعَادَةً دَائِمَةً، لَمَا كَانَ هُنَاكَ مَعْنًى لِلِاخْتِيَارِ، وَلَا لِلْجِهَادِ، وَلَا لِلصَّبْرِ، وَلَا لِلشُّكْرِ عَلَى النِّعَمِ بَعْدَ زَوَالِ النِّقَمِ.

أَقْرَبُ مِثَالٍ لِهَذَا الْبَابِ قِصَّةُ مُوسَى وَالْخَضِرِ عليهما السلام، فَإِنَّ مُوسَى كَانَ يَبْنِي الْحُكْمَ عَلَى ظَوَاهِرِ الْأُمُورِ، وَأَمَّا الْخَضِرُ فَإِنَّهُ كَانَ يَبْنِي أَحْكَامَهُ عَلَى الْحَقَائِقِ وَالْأَسْرَارِ، وَلِذَا قَالَ الْخَضِرُ عليه السلام لَمَّا أَبَانَ الْحَقَّ، وَأَظْهَرَ الْحِكَمَ وَالْأَسْرَارَ: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ [الكهف: ٨٢]، وَاللَّافِتُ لِلنَّظَرِ أَنَّ هَذِهِ الْقِصَّةَ الرَّائِعَةَ تُمَثِّلُ الْقَدَرَ بِحَذَافِيرِهِ[1]؛ إِذْ تَرَى فِيهَا الْخَضِرَ عليه السلام الَّذِي يُمَثِّلُ الْقَدَرَ الْغَيْبِيَّ الَّذِي لَمْ يَسْتَطِعْ عَظِيمٌ مِثْلُ مُوسَى عليه السلام أَنْ يَصْبِرَ عَلَيْهِ، وَقَدْ وَصَفَ اللهُ

(١) أي بأسره، حذافير الشيء: أعاليه ونواحيه. يقال: أعطاه الدنيا بِحَذافِيرِها، أي بأسرها، الواحد: حذفار. الصحاح (٢/ ٦٢٦).

الْخَضِرَ بِمَا يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ وَصْفًا لِلْقَدَرِ ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥]، فَكَلِمَةُ: ﴿عَبْدًا﴾ تَدُلُّ عَلَى مُلْكِ اللهِ، وَكَلِمَةُ: ﴿رَحْمَةً﴾ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهَا الْأَصْلُ فِي أَفْعَالِ اللهِ، وَكَلِمَةُ: ﴿عِلْمًا﴾ تَدُلُّ عَلَى الْعِلْمِ الَّذِي يَغِيبُ عَنِ الْمُشَاهَدَةِ.

إِنَّ كُلَّ مَا فِي الْعَالَمِ مِنْ مِحْنَةٍ وَبَلِيَّةٍ وَأَلَمٍ وَمَشَقَّةٍ وَرَاءَهُ حِكْمَةٌ وَرَحْمَةٌ فِي الْحَقِيقَةِ -وَإِنْ كَانَ عَذَابًا فِي الظَّاهِرِ-، فَوُجُودُ الْمَصَائِبِ وَالْحَوَادِثِ يَكُونُ لِحِكْمَةٍ خَاصَّةٍ تَعُودُ فِي حَقِيقَتِهَا إِلَى الرَّحْمَةِ.

الإنسان -بعقله المحدود وإدراكه القاصر- لا يمكنه أن يحيط بحكمة الله المطلقة في كل أفعاله وتقديراته. ما نراه شرًّا قد يكون جزءًا من خطة إلهية أكبر تتجاوز فهمنا، لها غايات نبيلة وحكم عظيمة لا تظهر لنا في الحال أو قد لا تظهر لنا في الدنيا أصلًا.

وَيَكْفِي لِبَيَانِ ذَلِكَ ذِكْرُ هَذِهِ النَّمَاذِجِ مِنَ الْأَحَادِيثِ الْعَظِيمَةِ الْمُبَيِّنَةِ لِبَعْضِ الْحِكَمِ مِنَ الْمَصَائِبِ الدُّنْيَوِيَّةِ، فَعَنِ الْأَسْوَدِ بْنِ يَزِيدَ النَّخَعِيِّ قَالَ: دَخَلَ شَبَابٌ مِنْ قُرَيْشٍ عَلَى عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وَهِيَ بِمِنًى، وَهُمْ يَضْحَكُونَ، فَقَالَتْ: مَا يُضْحِكُكُمْ؟ قَالُوا: فُلَانٌ خَرَّ عَلَى طُنُبِ فُسْطَاطٍ [(١)]، فَكَادَتْ عُنُقُهُ أَوْ عَيْنُهُ أَنْ تَذْهَبَ. فَقَالَتْ: لَا تَضْحَكُوا؛ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُشَاكُ شَوْكَةً فَمَا فَوْقَهَا إِلَّا كُتِبَتْ لَهُ بِهَا دَرَجَةٌ، وَمُحِيَتْ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةٌ»[(٢)]، وَعَنْهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «مَا ضُرِبَ عَلَى مُؤْمِنٍ عِرْقٌ

(١) الطنب: حبل الخِباء أو السرادق، والفسطاط: الخيمة العظيمة أو البناء العظيم، والمراد أنه تعثر بحبل الخيمة، فسقط.

(٢) مسلم ٨/ ١٤.

قَطُّ إِلَّا حَطَّ اللهُ عَنْهُ خَطِيئَةً، وَكَتَبَ لَهُ حَسَنَةً، وَرَفَعَ لَهُ دَرَجَةً»[1]، وَعَنْ جَابِرٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يَوَدُّ أَهْلُ الْعَافِيَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ -حِينَ يُعْطَى أَهْلُ الْبَلَاءِ الثَّوَابَ- لَوْ أَنَّ جُلُودَهُمْ كَانَتْ قُرِضَتْ فِي الدُّنْيَا بِالْمَقَارِيضِ»[2].

هَذَا الشَّابُّ الْقَطَرِيُّ غَانِمُ الْمِفْتَاحِ عَلَى الْإِصَابَةِ الَّتِي عِنْدَهُ إِلَّا أَنَّ اللهَ أَعْطَاهُ مِنَ الْإِيمَانِ وَجَمَالِ الْمَنْطِقِ وَالْفَهْمِ وَالذَّكَاءِ وَجَوْدَةِ التَّدْبِيرِ وَالتَّقْدِيرِ مَا نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يُثَبِّتَهُ عَلَيْهِ.

وَقَدْ رَأَيْنَا أَنَّ عَدَدًا مِنْ أَكَابِرِ النُّبَلَاءِ وَالشُّرَفَاءِ عَلَى مَدَى التَّارِيخِ ابْتُلُوا، فَمَا حَجَبَهُمُ الِابْتِلَاءُ عَنِ الْفَوْقِ فِي الْحَيَاةِ، وَلَا عَنْ شُكْرِ اللهِ، فَعَبْدُ اللهِ بْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ نَزَلَ الثَّنَاءُ الْبَالِغُ عَلَيْهِ فِي إِيمَانِهِ فِي سُورَةِ عَبَسَ، وَنِهَايَةُ أَمْرِهِ كَانَ بِالشَّهَادَةِ فِي سَبِيلِ اللهِ؛ إِذْ طَلَبَ أَنْ يَكُونَ حَامِلَ اللِّوَاءِ يَوْمَ الْقَادِسِيَّةِ، وَقَالَ: أَنَا أَعْمَى وَلَا أَفِرُّ، وَجَعَلَ مِنْ عَمَاهُ مُؤَهِّلًا لِأَجْلِ أَنْ يَثْبُتَ، فَبَعْضُهُمْ يَصْبِرُ عَلَى الْبَلَاءِ، وَيَتَعَامَلُ مَعَهُ، وَبَعْضُهُمْ يَتَضَجَّرُ وَيَتَسَخَّطُ عَلَى رَبِّ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ كَـ(سْتِيفَن هوكينغ) ابْتُلِيَ بِمَرَضِهِ، وَبَدَلًا مِنْ أَنْ يَشْعُرَ بِنِعْمَةِ اللهِ ﷻ عَلَيْهِ حِينَمَا مَنَحَهُ اللهُ ﷻ مُقَابِلَ ذَلِكَ الذَّكَاءَ الْمُفْرِطَ، وَالْجَوَّ الَّذِي يُسَاعِدُهُ عَلَى التَّغَلُّبِ عَلَى تَبِعَاتِ مَرَضِهِ نَقَمَ عَلَى رَبِّهِ ﷻ، وَظَلَّ يُحَارِبُ اللهَ ﷻ إِلَى آخِرِ لَحَظَاتِهِ قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٢١].

---

(١) المعجم الأوسط٣/ ٥٦، وحسنه الهيثمي في مجمع الزوائد٣/ ٣٤، وجوَّد إسناده ابن حجر في فتح الباري١٠/ ١٠٥.

(٢) الترمذي٤/ ٦٠٣، وقال: "غريب لا نعرفه إلا بهذا الإسناد"، وعلى القول بضعفه يغني عنه أو يشير إليه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]، والمقاريض جمع مقراض، وهو آلة القطع كالمقص المعروف الآن. انظر: مختار الصحاح (ص: ٢٥١).

وَمَلْمَحٌ آخَرُ يُفَسِّرُ لَنَا وُجُودَ النَّقِيضَيْنِ فِي خَلْقِ الْإِنْسَانِ وَأَحْوَالِ الدُّنْيَا هُوَ أَنَّ مِنْ كَمَالِ خَلْقِ اللهِ ﷻ لِلْإِنْسَانِ أَنْ مَنَحَهُ حُرِّيَّةَ الِاخْتِيَارِ (الْإِرَادَةِ).

هَذِهِ الْحُرِّيَّةُ هِيَ أَسَاسُ التَّكْلِيفِ وَالْمَسْؤُولِيَّةِ. وَلَوْ أَنَّ اللهَ ﷻ مَنَعَ كُلَّ شَرٍّ يَنْوِيهِ الْإِنْسَانُ، لَكَانَ الْإِنْسَانُ مَسْلُوبَ الْإِرَادَةِ، أَشْبَهَ بِالْجَمَادِ أَوِ الْمَلَائِكَةِ (الْمَجْبُولِينَ عَلَى الطَّاعَةِ). جُزْءٌ كَبِيرٌ مِنَ الشُّرُورِ الْمَوْجُودَةِ فِي الْعَالَمِ هِيَ نَتِيجَةٌ مُبَاشِرَةٌ لِسُوءِ اسْتِخْدَامِ الْإِنْسَانِ لِهَذِهِ الْحُرِّيَّةِ (الظُّلْمِ، الْقَتْلِ، الْفَسَادِ).

الْأَمْرُ الثَّانِي: التَّكَالِيفُ وُضِعَتْ لِلْمَصْلَحَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَإِنْ كَانَتْ خِلَافَ الْأَهْوَاءِ وَالشَّهَوَاتِ:

فَهِيَ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ [الإسراء: ٧]، وَتَرْكُ الْخَيْرِ الْكَثِيرِ لِأَجْلِ الشَّرِّ الْقَلِيلِ إِنَّمَا هُوَ شَرٌّ كَثِيرٌ، فَتَرْكُ التَّكَالِيفِ لِأَنَّهَا تُقَيِّدُ الرَّغَبَاتِ وَالْأَهْوَاءَ يُؤَدِّي إِلَى شُرُورِ الضِّيقِ وَالْبُؤْسِ وَالْعَنَاءِ، وَانْظُرْ إِلَى حَالِ النَّاسِ لَوْ تَرَكُوا التَّقَيُّدَ بِنِظَامِ الْمُرُورِ لِمُوَافَقَةِ أَهْوَائِهِمْ فِي السُّرْعَةِ كَيْفَ يَكُونُ حَالُهُمْ، وَكَذَلِكَ الِالْتِزَامُ بِالتَّكَالِيفِ الشَّرْعِيَّةِ الَّتِي تَكُونُ أَنْظِمَةُ الْمُرُورِ مَثَلًا أَحَدَ أَصْغَرِ مَلَامِحِهَا.

الْأَمْرُ الثَّالِثُ: مِنَ الرَّحْمَةِ خَلْقُ النَّارِ؛ فَإِنَّ الْمَقْصُودَ مِنْ خَلْقِهَا صَرْفُ الْأَشْرَارِ إِلَى الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ الْإِيجَابِيَّةِ الْمُثْمِرَةِ، وَحَثُّهُمْ عَلَى أَعْمَالِ الْأَبْرَارِ.

إِنَّ وُجُودَ الْعُقُوبَةِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَالْأُخْرَوِيَّةِ تُسَاعِدُ الْعُصَاةَ وَالْفَاسِقِينَ لِيَتْرُكُوا أَعْمَالَهُمُ السَّيِّئَةَ خَوْفَ الْعُقُوبَةِ الْمُتَوَقَّعَةِ، وَبِذَا يَتِمُّ جَذْبُهُمْ أَوْ دَفْعُهُمْ لَا لِيُفَكِّرُوا فِي الْعُقُوبَةِ الْعَاجِلَةِ الزَّائِلَةِ بَلْ فِي الْعُقُوبَةِ الْآجِلَةِ الَّتِي يَدُومُ أَلَمُهَا، وَتَضِيعُ الْآمَالُ فِي جَحِيمِ عَذَابِهَا..

هَاهُنَا تَرَى الْخَلَائِقَ يَفِرُّونَ إِلَى رَبِّهِمْ، وَيُعِيدُونَ صِيَاغَةَ حَيَاتِهِمْ وَفْقَ مَا يُصْلِحُ الْأَرْضَ وَيَنْفَعُ النَّاسَ، لَا وَفْقَ الْأَنَانِيَّاتِ الشَّخْصِيَّةِ، وَالطَّمَعِ الْفَرْدِيِّ، وَلَاحِظْ ذَلِكَ بِصُورَةٍ وَاضِحَةٍ رَائِعَةِ التَّرْتِيبِ، شَائِقَةِ الْأُسْلُوبِ فِي سُورَةِ اللَّيْلِ مِنْ أَوَّلِهَا حَتَّى تَصِلَ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى:

﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ﴾ [الليل: ١٤ - ١٨].

خُلَاصَةٌ:

إِنَّ وُجُودَ الشَّرِّ وَالضَّرَرِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لَا يُنَاقِضُ قُدْرَةَ اللهِ ﷻ أَوْ حِكْمَتَهُ أَوْ رَحْمَتَهُ، بَلْ هُوَ مُقْتَضَى حِكْمَتِهِ فِي خَلْقِ عَالَمٍ لِلِابْتِلَاءِ وَالِاخْتِبَارِ، وَمَنْحِ الْإِنْسَانِ حُرِّيَّةَ الْإِرَادَةِ، وَتَحْقِيقِ غَايَاتٍ عُظْمَى قَدْ تَخْفَى عَلَى الْعُقُولِ الْمَحْدُودَةِ. وَالْإِيمَانُ بِالْعَدْلِ الْإِلَهِيِّ الشَّامِلِ فِي الْآخِرَةِ يُطَمْئِنُ الْقَلْبَ بِأَنَّ كُلَّ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ، وَكُلَّ أَلَمٍ أَوْ مُعَانَاةٍ، سَتَجِدُ حِسَابَهَا وَجَزَاءَهَا الْعَادِلَ. فَاللهُ سُبْحَانَهُ ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣] لِكَمَالِ عِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ وَعَدْلِهِ، وَلِقُصُورِ عِلْمِ الْمَخْلُوقِينَ.

وَهَذِهِ -أَيَّدَكَ اللهُ بِتَوْفِيقِهِ- مَلَامِحُ يَسِيرَةٌ تُبَيِّنُ لَكَ شُمُولَ الرَّحْمَةِ، وَعَظَمَتَهَا فِي التَّصَوُّرِ الْإِسْلَامِيِّ، فَاشْدُدْ يَدَيْكَ بِحَبْلِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، فَقَطْرَةٌ مِنْ رَحْمَتِهِ تُزِيلُ كُلَّ عَنَاءٍ، وَتَجْلُبُ كُلَّ هَنَاءٍ، فَقَدْ وَصَفَ نَفْسَهُ بِكَوْنِهِ رَحْمَانًا رَحِيمًا، ثُمَّ إِنَّهُ أَعْطَى مَرْيَمَ -عليها السلام- رَحْمَةً وَاحِدَةً حَيْثُ قَالَ: ﴿وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٢١]، فَتِلْكَ الرَّحْمَةُ صَارَتْ سَبَبًا لِنَجَاتِهَا مِنَ الْمَكْرُوهَاتِ. أَفَلَا يَصِيرُ ذِكْرُ الرَّحْمَةِ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ مَرَّةً -عَلَى الْأَقَلِّ- طُولَ الْعُمُرِ سَبَبًا لِنَجَاةِ الْمُسْلِمِينَ مِنَ النَّارِ وَالْعَارِ وَالدَّمَارِ إِذَا نَطَقُوهَا بِقَلْبٍ خَالِصٍ وَيَقِينٍ صَادِقٍ؟[1].

***

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (١/ ٢٠٢).

جِسْرُ اتِّصَالٍ: بَعْدَ الْمَقَاصِدِ الثَّلَاثَةِ السَّابِقَةِ نَكُونُ: قَدْ عَرَفْنَا اسْمَ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَأَسَاسَ صِفَاتِهِ، وَالْأَدِلَّةَ عَلَى أَنَّهُ هُوَ الْإِلَهُ الْحَقُّ، وَعَرَفْنَا طَبِيعَةَ الْعَلَاقَةِ بَيْنَ الْعَالَمِينَ وَخَالِقِهِمْ، فَنَسْأَلُ: مَا مَصِيرُ الْعَالَمِينَ؟ هَلِ الْمَوْتُ نِهَايَةُ الْحَيَاةِ، وَلَا يُوجَدُ بَعْدَهُ شَيْءٌ؟

الْجَوَابُ: هُنَا تَأْتِي الْآيَةُ الرَّابِعَةُ، وَفِيهَا:

الْمَقْصِدُ الرَّابِعُ

التَّعْرِيفُ بِقِصَّةِ نِهَايَةِ الْعَالَمِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَتَطْبِيقِ الْعَدْلِ الْإِلَهِيِّ الْكَامِلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَفِيهِ يَكُونُ الدِّينُ أَيِ الْجَزَاءُ عَلَى الدِّينِ أَيِ النِّظَامِ الَّذِي اتَّبَعَهُ الْإِنْسَانُ فِي الدُّنْيَا ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾، وَبِذَلِكَ تَتَحَقَّقُ الرَّحْمَةُ الْكَامِلَةُ بِالْمَخْلُوقِينَ عِنْدَمَا يُنْصِفُ اللهُ ﷻ الْمَظْلُومِينَ مِنَ الظَّالِمِينَ. فَجَمَعَتْ هَذِهِ الْكَلِمَاتُ الثَّلَاثُ التَّعْرِيفَ بِنِهَايَةِ الْعَالَمِ الْأَوَّلِ، وَبِدَايَةِ الْعَالَمِ الْجَدِيدِ

وَتُبَيِّنُ هَذَا الْمَقْصِدَ الْآيَةُ الرَّابِعَةُ، وَهِيَ آيَةُ الْمَلِكِ الْأُخْرَوِيِّ ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾، فَنِهَايَةُ هَذَا الْعَالَمِ هُوَ يَوْمُ الدِّينِ، فَهُوَ قِصَّةُ النِّهَايَةِ لِلْحَيَاةِ الْأُولَى، وَقِصَّةُ الْبِدَايَةِ لِلْحَيَاةِ الْحَقِيقِيَّةِ الْأُخْرَى، وَبَيْنَ الْحَيَاتَيْنِ صِلَةٌ وَاضِحَةٌ، فَالْأُولَى تَبْنِي طَرِيقَ الْأُخْرَى، وَبِذَلِكَ نَعْرِفُ الْجَوَابَ عَنِ السُّؤَالِ الْكَوْنِيِّ الْوُجُودِيِّ: إِلَى أَيْنَ الْمَصِيرُ؟ وَكُلُّ تَفَاصِيلِ ذَلِكَ تَلُوحُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْعَظِيمَةِ ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ إِنَّهَا الْآيَةُ الَّتِي تُثْبِتُ رُكْنَ الْإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتَظْهَرُ فِيهَا الْبَصَائِرُ وَالْأَنْوَارُ الْكُلِّيَّةُ الْآتِيَةُ:

المقصد الرابع

التعريف بقصة نهاية عالم الحياة الدنيا، وتطبيق العدل الإلهي الكامل في الآخرة، ويبصِّرنا بذلك قوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾

[الفاتحة: 4]

بصيرة 01
﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ تختصر قصة نهاية التاريخ في الحياة الدنيا

بصيرة 02
﴿ٱلدِّينِ﴾ هو النظام الذي يدين به الناس في الدنيا، ويدانون وفقه في الآخرة

بصيرة 03
المَلِكُ المالكُ ليومٍ يُحاسَبُ فيه الخلق على نظامهم الدنيوي هو (الله).

بصيرة 04
﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ تمجيدٌ لبيان هيبة العدل، وتفويضٌ لبيان جمال الرحمة والفضل.

بصيرة 05
﴿يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ هو أعظم حلٍّ لإيجاد التنمية الصادقة في المجتمعات.

الْبَصِيرَةُ الْأُولَى

﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ تَخْتَصِرُ قِصَّةَ نِهَايَةِ التَّارِيخِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

تَأَمَّلْ فِي الْمُنَاسَبَةِ وَالِاتِّصَالِ بَيْنَ هَذِهِ الْآيَةِ وَمَا قَبْلَهَا، لِتَرَى هَذِهِ الْآيَةَ تَرْوِي قِصَّةَ النِّهَايَةِ؛ لِأَنَّهَا تَتَكَلَّمُ عَنْ نِهَايَةِ الْكَوْنِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا. فَالْآيَاتُ السَّابِقَةُ ذَكَرَتْ قِصَّةَ الْبِدَايَةِ رَاسِمَةً ثَلَاثَ بَصَائِرَ كُلِّيَّةٍ:

فَالْبَصِيرَةُ الْكُلِّيَّةُ الْأُولَى: رَسَمَتْهَا آيَةُ الْبَسْمَلَةِ، وَهِيَ تَتَكَلَّمُ عَنْ قِصَّةِ الْبِدَايَةِ الْعَالَمِيَّةِ لِلْكَوْنِ مَادَّةً وَنِظَامًا، فَبِاسْمِهِ وَرَحْمَتِهِ وُجِدَ الْكَوْنُ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

وَالْبَصِيرَةُ الْكُلِّيَّةُ الثَّانِيَةُ: رَسَمَتْهَا آيَةُ الْحَمْدَلَةِ، وَهِيَ تَتَكَلَّمُ عَنْ كُلِّيَّةِ التَّرْبِيَةِ لِلْعَالَمِينَ إِيجَادًا، وَإِعْدَادًا، وَإِمْدَادًا، وَإِيفَادًا، وَإِرْشَادًا، وَإِسْعَادًا ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾.

وَالْبَصِيرَةُ الْكُلِّيَّةُ الثَّالِثَةُ: رَسَمَتْهَا آيَةُ الرَّحْمَةِ، وَهِيَ تَتَكَلَّمُ عَنْ كُلِّيَّةِ اقْتِرَانِ الْخَلْقِ وَالتَّرْبِيَةِ بِالرَّحْمَةِ ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

> **فَجَاءَتْ هَذِهِ الْآيَةُ (آيَةُ الْمَلِكِ الْأُخْرَوِيِّ) ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾؛ لِتُبَيِّنَ قِصَّةَ الْحَقِّ فِي الْكَوْنِ كُلِّهِ: حَيْثُ تَرْوِي هَذِهِ الْآيَةُ قِصَّةَ النِّهَايَةِ لِلْكَوْنِ الْمَنْظُورِ، وَبَدْءِ الْحَيَاةِ الْحَقِيقِيَّةِ الَّتِي تَتَرَتَّبُ عَلَى الْبِدَايَةِ الِاخْتِبَارِيَّةِ فِي الدُّنْيَا، فَالْبِدَايَةُ اخْتِبَارٌ عَلَى تَطْبِيقِ مُقْتَضَيَاتِ تَرْبِيَةِ الْعَالَمِينَ، وَنِهَايَةُ هَذَا الْعَالَمِ هُوَ يَوْمُ الدِّينِ.**

فَفِي يَوْمِ الدِّينِ يَظْهَرُ الْعَدْلُ الْكَامِلُ، حَيْثُ ﴿تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١]، وَكَمَا أَنَّ اللهَ رَحْمَنٌ رَحِيمٌ بِهِمْ فِي الطَّبِيعَةِ (الْحَيَاةِ) فَهُوَ رَحْمَنٌ رَحِيمٌ بِهِمْ فِي الْمَآلِ وَالْمَصِيرِ.

إِذَنْ أَصْبَحْنَا نَعْرِفُ الْجَوَابَ عَنِ السُّؤَالِ الْكَوْنِيِّ الْوُجُودِيِّ: إِلَى أَيْنَ نَذْهَبُ، وَإِلَى أَيْنَ الْمَسِيرُ وَالْمَصِيرُ؟ فَانْظُرْ كَيْفَ رَسَمَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ الْمَعْدُودَاتُ مَعَالِمَ الْحَلِّ لِلْمُشْكِلَةِ الْفَلْسَفِيَّةِ الْعَمِيقَةِ الَّتِي يُثِيرُهَا الدَّهْرِيُّونَ وَالْوَثَنِيُّونَ.

أَلَمْ يَقُلْ أَحَدُ الْحَائِرِينَ مِمَّنْ تَاهَ عَنْ هَذِهِ الْمَعَانِي:

جِئْتُ، لَا أَعْلَمُ مِنْ أَيْنَ، وَلَكِنِّي أَتَيْتُ
وَلَقَدْ أَبْصَرْتُ قُدَّامِي طَرِيقًا فَمَشَيْتُ
وَسَأَبْقَى مَاشِيًا إِنْ شِئْتُ هَذَا أَمْ أَبَيْتُ
كَيْفَ جِئْتُ؟ كَيْفَ أَبْصَرْتُ طَرِيقِي؟
لَسْتُ أَدْرِي!
أَتُرَانِي قَبْلَمَا أَصْبَحْتُ إِنْسَانًا سَـــوِيًّا
أَتُرَانِي كُنْتُ مَحْوًا أَمْ تُرَانِي كُنْتُ شَيْئًا
أَلِهَـذَا اللُّغْزِ حَلٌّ أَمْ سَيَبْقَى أَبَـــدِيًّا
لَسْتُ أَدْرِي... وَلِمَاذَا لَـسْتُ أَدْرِي؟
لَسْتُ أَدْرِي!
أَوَرَاءَ الْقَبْرِ بَعْدَ الْمَوْتِ بَعْثٌ وَنُشُورٌ
فَـحَيَاةٌ فَـخُلُودٌ أَمْ فَـنَاءٌ فَـدُثُورٌ
أَكَلَامُ النَّاسِ صِدْقٌ أَمْ كَلَامُ النَّاسِ زُورٌ
أَصَـحِيحٌ أَنَّ بَـعْضَ النَّاسِ يَـــدْرِي

لَسْتُ أَدْرِي[1]

أَيُّهَا الْمُؤْمِنُ: لَا تَتْرُكْ هَذَا الْمِسْكِينَ التَّائِهَ، وَأَخْبِرْهُ أَنَّكَ تَدْرِي الْبِدَايَةَ الْكَوْنِيَّةَ الْأُولَى، وَالنِّهَايَةَ الَّتِي تُؤَسِّسُ لِلْبِدَايَةِ الْحَقِيقِيَّةِ الْأُخْرَى، وَاتْلُ عَلَيْهِ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾، وقل له:

إِنَّنِي أَدْرِي وَأَدْرِي لِمَ يَا هَذَا أَتَيْتُ
جِئْتُ عَبْدًا لِإِلَهِ الْكَوْنِ. وَيْلِي إِنْ عَصَيْتُ
جِئْتُ مَخْلُوقًا بِأَمْرِ اللهِ بِالدُّنْيَا ابْتُلِيتُ
كُلُّ مَا فِي الْكَوْنِ مِثْلِي عَنْ مُرَادِ اللهِ يَدْرِي
جَاهِلٌ مَنْ قَالَ يَوْمًا: لَسْتُ أَدْرِي لَسْتُ أَدْرِي
كُلُّنَا لِلَّهِ مَاضٍ فَشَقِيٌّ وَسَعِيدُ
وَقَرِيبٌ فِي هَنَاءٍ وَقَصِيٌّ وَبَعِيدُ
حِكْمَةٌ لِلَّهِ فِينَا إِنَّهُ الرَّبُّ الْحَمِيدُ
ضَلَّ مَنْ لَمْ يَدْرِ شَيْئًا، وَاهْتَدَى مَنْ كَانَ يَدْرِي
هَذِهِ الدُّنْيَا سَتَمْضِي فَمَمَاتٌ فَنُشُورُ
فَحِسَابٌ فَنَعِيمٌ، أَوْ عَذَابٌ وَسَعِيرُ
لِخُلُودٍ قَدْ خُلِقْنَا هَكَذَا قَالَ الْقَدِيرُ

---

(١) هذا الحائر إيليا أبو ماضي، ومن قبله قال الحائر عمر الخيام:

لَبِسْتُ ثَوْبَ الْعُمْرِ لَمْ أُسْتَشَرْ ... وَحِرْتُ فِيهِ بَيْنَ شَتَّى الْفِكَرْ
وَسَوْفَ أَنْضُو الثَّوْبَ عَنِّي وَلَمْ ... أُدْرِكْ لِمَاذَا جِئْتُ أَيْنَ الْمَقَرْ

فَلَهُ الْحَمْدُ فَلَوْلَا فَضْلُهُ مَا كُنْتُ أَدْرِي
كَيْفَ بَعْدَ الْهُدَى نَهْذِي لَسْتُ أَدْرِي لَسْتُ أَدْرِي[1]

وَيُمْكِنُ الْقَوْلُ: إِنَّ هَذَا الْمَقْصِدَ بِبَصَائِرِهِ يُؤَسِّسُ لِلْبِنَاءِ الْحَيَاتِيِّ الصَّحِيحِ، وَيُبَيِّنُ الشِّفَاءَ مِنَ الْأَمْرَاضِ الْمَادِّيَّةِ، وَالْأَدْوَاءِ الْفِكْرِيَّةِ، وَالثَّقَافِيَّةِ، مِنْ خِلَالِ الثَّنَاءِ عَلَى أَرْحَمِ الرُّحَمَاءِ.

وَتَأَمَّلْ كَرَّةً أُخْرَى فِي الِاتِّصَالِ بَيْنَ هَذِهِ الْآيَةِ وَمَا قَبْلَهَا، فَكَأَنَّكَ تَرَى الْبَشَرِيَّةَ لَمَّا أَيْقَنَتْ بِعَظِيمِ رَحْمَةِ اللهِ الْبَارِزَةِ فِي تَكْرَارِ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ فِي الْآيَةِ الْأُولَى وَالثَّالِثَةِ طَمِعَ فِيهَا الْجَمِيعُ حَتَّى الْكَافِرُونَ.

فَرُبَّمَا تَسَاءَلَ السَّامِعُ أو القارئ: فَهَلِ الرَّحْمَةُ تَقْتَضِي عَدَمَ الْحِسَابِ؟ وَهَلِ الرَّحْمَةُ تَقْتَضِي تَرْكَ الْخَلْقِ يَفْعَلُونَ مَا يَشَاؤُونَ مِنَ الْأَهْوَاءِ وَالرَّغَبَاتِ الَّتِي قَدْ تُؤَدِّي إِلَى الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ؟ عِنْدَهَا يَجِيءُ الْجَوَابُ مُبَيِّنًا قِصَّةَ النِّهَايَةِ: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾.

فَكَمَا أَنَّ الرَّحْمَةَ وَالْحَمْدَلَةَ يَقْتَضِيَانِ الْفَضْلَ، فَإِنَّ الْمُلْكَ وَالْحِسَابَ يَقْتَضِيَانِ الْعَدْلَ، فَذِكْرُ الرَّحْمَةِ قَبْلَ آيَةِ ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ يَدُلُّ عَلَى وُجُودِ الرَّحْمَةِ فِي الْآخِرَةِ كَمَا هِيَ مَوْجُودَةٌ فِي الدُّنْيَا، بَلْ بَيَّنَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّهَا أَعْظَمُ، وَلَكِنَّ وُجُودَ الرَّحْمَةِ لَا يَعْنِي عَدَمَ وُجُودِ الْحِسَابِ الَّذِي يَقْتَضِي الثَّوَابَ أَوِ الْعِقَابَ.

وَتَلَخَّصَ لَنَا مِنْ ذَلِكَ أَنَّ ذِكْرَ الرَّحْمَةِ الْمَأْخُوذَةِ مِنَ الْآيَةِ قَبْلَهَا يَفْتَحُ بَابَ الْآمَالِ فِيمَا عِنْدَ اللهِ مِنَ النَّعِيمِ وَالْإِفْضَالِ، وَذِكْرُ ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ بَعْدَهَا يَقْطَعُ الْأَهْوَاءَ، وَيُحَرِّرُ الْعَبْدَ مِمَّا

---

(١) للدكتور/ عبد الخالق الزهراني.

تُسَبِّبُهُ مُحَرَّمَاتُ الشَّهَوَاتِ مِنَ الْإِذْلَالِ؛ إِذْ قَدْ تَمْتَدُّ إِلَيْهَا النُّفُوسُ مُعْتَمِدَةً عَلَى الرَّحْمَةِ السَّابِقَةِ الْغَالِبَةِ، فَلِذَا ذَكَرَ الدِّينَ بِمَعْنَى الْجَزَاءِ لِيَكُونَ الْعَبْدُ عَلَى حَذَرٍ مِنَ الْعَاقِبَةِ، فَانْظُرْ إِلَى هَذَا الْجَمَالِ فِي كَلَامِ الْمَلِكِ الْمُتَعَالِ.

❊❊❊

جِسْرُ اتِّصَالٍ: عَرَفْنَا الْبَصِيرَةَ الْأُولَى مِنْ بَصَائِرِ الْمَقْصِدِ الرَّابِعِ مِنْ مَقَاصِدِ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ، وَهِيَ: ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ تَخْتَصِرُ قِصَّةَ التَّارِيخِ، فَمَا الْبَصِيرَةُ الثَّانِيَةُ؟

الْجَوَابُ:

الْبَصِيرَةُ الثَّانِيَةُ

﴿ٱلدِّينِ﴾ هُوَ النِّظَامُ الَّذِي يَدِينُ بِهِ النَّاسُ فِي الدُّنْيَا، وَيُدَانُونَ وَفْقَهُ فِي الْآخِرَةِ

هَذِهِ الْآيَةُ الْمُتَلَأْلِئَةُ الْمُبَارَكَةُ ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ تُنَوِّرُ الْعَقْلَ الْعَالَمِيَّ بِمُصْطَلَحٍ إِسْلَامِيٍّ رَائِعٍ ﴿يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾، وَلِبَيَانِ هَذِهِ الْبَصِيرَةِ الْعَظِيمَةِ لَا بُدَّ مِنْ بَيَانِ مَعَانِي كَلِمَةِ ﴿ٱلدِّينِ ﴾ الَّتِي وَرَدَتْ فِي هَذِهِ الْآيَةِ.

مَعَانِي ﴿يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾:

وَهُنَا سَيَتَبَادَرُ إِلَى الذِّهْنِ سُؤَالٌ: مَا مَعْنَى كَلِمَةِ: يَوْمِ الدِّينِ؟

الْجَوَابُ: إِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ عِبَارَةٌ عَنْ ثَلَاثِ كَلِمَاتٍ: اسْمٍ مُضَافٍ هُوَ ﴿ مَٰلِكِ ﴾، وَقَدْ أُضِيفَ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿يَوْمِ﴾، وَهُوَ مُضَافٌ أَيْضًا إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ٱلدِّينِ ﴾[1]، وَسَنَبْدَأُ بِبَيَانِ الْكَلِمَةِ الثَّالِثَةِ وَهِيَ الْمُضَافُ إِلَيْهِ الثَّانِي مَعَ مُضَافِهِ، ثُمَّ نَعُودُ لِبَيَانِ الْكَلِمَةِ الْأُولَى مَعَهُمَا لِتَسْتَبِينَ الصُّورَةُ وَاضِحَةً، فَكَلِمَةُ ﴿ٱلدِّينِ ﴾ تَأْتِي فِي الْعَرَبِيَّةِ عَلَى ثَلَاثَةِ مَعَانٍ:

---

(١) ""مَالِكِ" نَعْتٌ لِلَّهِ تَعَالَى مَجْرُورٌ وَعَلَامَةُ جَرِّهِ الْكَسْرَةُ الظَّاهِرَةُ عَلَى آخِرِهِ، وَهُوَ مُضَافٌ، وَ"يَوْمِ" مُضَافٌ إِلَيْهِ مَجْرُورٌ بِالْإِضَافَةِ وَعَلَامَةُ جَرِّهِ الْكَسْرَةُ الظَّاهِرَةُ عَلَى آخِرِهِ، وَهُوَ مُضَافٌ، "الدِّينِ" مُضَافٌ إِلَيْهِ مَجْرُورٌ بِالْإِضَافَةِ وَعَلَامَةُ جَرِّهِ الْكَسْرَةُ الظَّاهِرَةُ عَلَى آخِرِهِ.

الْمَعْنَى الْأَوَّلُ: دَانَهُ أَيْ مَلَكَهُ وَحَكَمَهُ وَسَاسَهُ، وَدَبَّرَهُ وَقَهَرَهُ، وَحَاسَبَهُ وَجَازَاهُ وَكَافَأَهُ: فَهِيَ تَدُورُ عَلَى الْمُلْكِ وَالتَّصَرُّفِ وَالْمُحَاسَبَةِ، فَيَكُونُ مَعْنَى: ﴿يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ أَيْ يَوْمَ الْمُحَاسَبَةِ وَالْمُجَازَاةِ وَالْإِدَانَةِ، وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ [الصافات:٥٣] أَيْ مُحَاسَبُونَ عَلَى أَعْمَالِنَا، وَظَهَرَ هَذَا الْمَعْنَى فِيمَا رَوَاهُ شَدَّادُ بْنُ أَوْسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ**»، ثُمَّ قَالَ التِّرْمِذِيُّ رحمه الله: وَمَعْنَى قَوْلِهِ: مَنْ دَانَ نَفْسَهُ، أَيْ: حَاسَبَ نَفْسَهُ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ أَنْ يُحَاسَبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ(١)، فَدَانَ نَفْسَهُ أَيْ: حَكَمَهَا وَضَبَطَهَا، وَالدَّيَّانُ الْقَاضِي وَالْحَاكِمُ.

الْمَعْنَى الثَّانِي: دَانَ لَهُ أَيْ: أَطَاعَهُ وَخَضَعَ لَهُ، فَالدِّينُ هُوَ النِّظَامُ الَّذِي يَتِمُّ الْخُضُوعُ لَهُ، وَالْقَانُونُ الَّذِي يَتَّبِعُهُ الْإِنْسَانُ فِي حَيَاتِهِ، وَهَذَا الْمَعْنَى مُلَازِمٌ وَمُطَاوِعٌ لِلْأَوَّلِ، تَقُولُ: دَانَهُ أَيْ: دَبَّرَهُ وَسَاسَهُ، فَدَانَ لَهُ أَيْ: فَخَضَعَ لَهُ وَأَطَاعَ، وَيَدُلُّ لِهَذَا الْمَعْنَى قَوْلُ الْمُثَقِّبِ الْعَبْدِيِّ:

إِذَا مَا قُمْتُ أَرْحَلُهَا بِلَيْلٍ ... تَأَوَّهُ آهَةَ الرَّجُلِ الْحَزِينِ

تَقُولُ إِذَا دَرَأْتُ لَهَا وَضِينِي ... أَهَذَا دِينُهُ أَبَدًا وَدِينِي؟

أَكُلَّ الدَّهْرِ حِلٌّ وَارْتِحَالٌ ... أَمَا يُبْقِي عَلَيَّ وَمَا يَقِينِي!(٢)

الْمَعْنَى الثَّالِثُ: دَانَ بِالشَّيْءِ أَيِ اتَّخَذَهُ دِينًا وَمَذْهَبًا فَاعْتَقَدَهُ أَوِ اعْتَادَهُ، فَالدِّينُ هُنَا بِمَعْنَى: الْمَذْهَبِ وَالطَّرِيقَةِ وَالنِّظَامِ وَالْمَنْهَجِ الْمُتَّبَعِ فِي الدُّنْيَا، وَهَذَا الْمَعْنَى تَابِعٌ لِلْمَعْنَيَيْنِ الْأَوَّلَيْنِ.

تِلْكَ الْمَعَانِي الَّتِي يَدُورُ حَوْلَهَا لَفْظُ (دَانَ)، وَلَكَ أَنْ تَجْمَعَ بَيْنَهَا فَتَقُولَ: دَانَهُ، أَيْ: حَكَمَهُ بِمَنْهَجٍ مُعَيَّنٍ، فَدَانَ لَهُ، أَيْ خَضَعَ وَاتَّبَعَ، فَصَارَ هَذَا دِينَهُ، أَيْ: صَارَ نِظَامًا يَتَّبِعُهُ الْخَاضِعُ، وَهُوَ

---

(١) الترمذي (٤ / ٦٣٨)، وقال: هذا حديث حسن.

(٢) ديوان المثقب العبدي، (ص: ٣٩).

نِظَامُ الْمَخْضُوعِ لَهُ، وَلَا يُوجَدُ أَحَدٌ إِلَّا وَعِنْدَهُ دِينٌ هُوَ مَنْهَجُ حَيَاةٍ لَهُ، وَالْمُلْحِدُونَ يَدِينُونَ بِالْإِلْحَادِ، وَهُوَ دِينٌ اخْتَرَعُوهُ لِنُفُوسِهِمْ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [آل عِمرَان : ٢٤].

فَكَلِمَةُ ﴿ٱلدِّينِ﴾ عِنْدَ الْعَرَبِ تُشِيرُ إِلَى عَلَاقَةٍ بَيْنَ طَرَفَيْنِ يُعَظِّمُ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ، فَإِذَا وُصِفَ بِهَا الْأَوَّلُ كَانَتْ خُضُوعًا وَانْقِيَادًا، وَإِذَا وُصِفَ بِهَا الثَّانِي كَانَتْ أَمْرًا وَسُلْطَانًا، وَحُكْمًا وَإِلْزَامًا، وَإِذَا نَظَرْنَا إِلَى الرِّبَاطِ الْجَامِعِ بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ كَانَتْ هِيَ الدُّسْتُورَ الْمُنَظِّمَ لِتِلْكَ الْعَلَاقَةِ(١)، وَبِذَلِكَ يَتَّضِحُ أَنَّ كَلِمَةَ ﴿ٱلدِّينِ﴾ تَجْمَعُ بَيْنَ مَعْنَيَيْنِ: الْمَنْهَجِ وَالْجَزَاءِ فِي الْوَقْتِ ذَاتِهِ.

فَالدِّينُ: عِبَارَةٌ عَنْ مَنْهَجٍ كَامِلٍ، وَنِظَامٍ مُتَكَامِلٍ يَسُوسُ اللهُ ﷻ بِهِ عِبَادَهُ؛ حَيْثُ أَمَرَ الْأَنْبِيَاءَ بِتَبْلِيغِهِ الْخَلْقَ لِيَدِينُوا لَهُ بِهِ، فَيَجِدُوا سَعَادَتَهُمْ وَانْسِجَامَهُمْ مَعَ الْكَوْنِ مِنْ حَوَالَيْهِمْ.

فَيَكُونُ الْمُرَادُ بِيَوْمِ الدِّينِ: يَوْمَ الْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ عَلَى الدِّينِ وَالْمَنْهَجِ وَالنِّظَامِ الْمُتَّبَعِ فِي الدُّنْيَا، وَنَقَلَتِ الْعَرَبُ هَذَا الْمَعْنَى فَقَالَ يَزِيدُ بْنُ الصَّعِقِ الْكِلَابِيُّ:

وَاعْلَمْ وَأَيْقِنْ أَنَّ مُلْكَكَ زَائِلٌ ... وَاعْلَمْ بِأَنَّكَ مَا تَدِينُ تُدَانُ(٢)

ومِثْلُهُ قَالَ الفِنْدُ الزِّمَّانِيِّ:

---

(١) الدين لدراز، ص: ٢٩.

(٢) جمهرة اللغة ٢/ ٦٨٨.

فَلَمَّا صَرَّحَ الشَّرُّ فَأَمْسَى وَهْوَ عُرْيَانُ
وَلَمْ يَبْقَ سِوَى الْعُدْوَا نِ دِنَّاهُمْ كَمَا دَانُوا[1]

أَيْ جَازَيْنَاهُمْ عَلَى صُنْعِهِمْ كَمَا صَنَعُوا مُشَاكَلَةً، أَوْ كَمَا جَازَوْا مِنْ قَبْلُ إِذْ كَانَ اعْتِدَاؤُهُمْ نَاشِئًا عَنْ ثَأْرٍ أَيْضًا[2].

فَيَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ! إِنَّهُ الْجَزَاءُ بِنَاءً عَلَى الِاخْتِيَارِ الْإِنْسَانِيِّ السَّابِقِ لِلْهِدَايَةِ أَوِ الضَّلَالَةِ الرَّعْنَاءِ فِي دَارِ الِابْتِلَاءِ، فَهَا هُوَ رَبُّكَ -تَعَالَى ذِكْرُهُ- يَمْنَحُكَ حُرِّيَّةَ الِاخْتِيَارِ، وَلَكِنَّهُ يُحَمِّلُكَ عَلَيْهَا مَسْؤُولِيَّةً جَسِيمَةً فَيَقُولُ: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [فصلت:٤٠].

﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [فصلت:٤٠] تَدُلُّ عَلَى أَمْرَيْنِ مُتَرَابِطَيْنِ، فَهِيَ تَتَضَمَّنُ التَّخْيِيرَ، وَالتَّهْدِيدَ وَالتَّحْذِيرَ، أَيْ: لَكُمْ حُرِّيَّةُ الِاخْتِيَارِ فِي الدُّنْيَا، وَلَكِنَّكُمْ سَتُوَاجِهُونَ الْمَصِيرَ الَّذِي يَقْتَضِيهِ هَذَا الِاخْتِيَارُ، فَتَذَكَّرُوا الْمَسْؤُولِيَّةَ الْمُتَرَتِّبَةَ عَلَى اخْتِيَارَاتِكُمْ.

وَبِنَاءً عَلَى اخْتِيَارِ الدِّينِ (الْمَنْهَجِ) فِي الدُّنْيَا يَكُونُ الدِّينُ (الْجَزَاءُ) فِي الْآخِرَةِ، لِيَكُونَ الْإِنْسَانُ إِمَّا مِنَ السُّعَدَاءِ، أَوْ مِنَ الْأَشْقِيَاءِ.

---

(١) اتفاق المباني وافتراق المعاني ص١٩٢.

(٢) التحرير والتنوير (١/ ١٧٦)، وَفِي حَاشِيَتِهِ: الْفِنْدُ لَقَبُهُ، وَأَصْلُ الْفِنْدِ بِكَسْرِ الْفَاءِ الْجَبَلُ، وَاسْمُهُ شَهْلُ بْنُ شَيْبَانَ بِشِينٍ مُعْجَمَةٍ، وَلَيْسَ فِي أَسْمَاءِ الْعَرَبِ شَهْلٌ بِالشِّينِ الْمُعْجَمَةِ غَيْرُهُ، وَهُوَ مِنْ شُعَرَاءِ حَرْبِ الْبَسُوسِ، وَإِنَّمَا لُقِّبَ الْفِنْدَ لِأَنَّهُ لَمَّا جَاءَ لِيَنْصُرَ بَنِي بَكْرِ بْنِ وَائِلٍ قَالُوا: مَا يُغْنِي عَنَّا هَذَا الْهِمُّ- بِكَسْرِ الْهَاءِ- أَيِ الشَّيْخُ، فَقَالَ لَهُمْ: أَمَا تَرْضَوْنَ أَنْ أَكُونَ لَكُمْ فِنْدًا تَأْوُونَ إِلَيْهِ؟ أَيْ مَعْقِلًا وَمَرْجِعًا فِي الرَّأْيِ وَالْحَرْبِ.

جِسْرُ اتِّصَالٍ: عَرَفْنَا الْبَصِيرَةَ الثَّانِيَةَ مِنْ بَصَائِرِ الْمَقْصِدِ الرَّابِعِ مِنْ مَقَاصِدِ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ، وَهِيَ: ﴿الدِّينِ﴾ هُوَ النِّظَامُ الَّذِي يَدِينُ بِهِ النَّاسُ فِي الدُّنْيَا، وَيُدَانُونَ وَفْقَهُ فِي الْآخِرَةِ، فَمَا الْبَصِيرَةُ الثَّالِثَةُ؟

الْجَوَابُ:

الْبَصِيرَةُ الثَّالِثَةُ

(اللهُ) هُوَ الْمَلِكُ الْمَالِكُ لِيَوْمٍ يُحَاسَبُ فِيهِ الْخَلْقُ عَلَى نِظَامِهِمُ الدُّنْيَوِيِّ

يَا أَيُّهَا النَّاسُ! هَذِهِ الْآيَةُ تُحَدِّثُنَا عَنْ صِفَةٍ عَظِيمَةٍ لِلهِ بَعْدَ صِفَةِ الرَّحْمَةِ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ، فَاسْتَمِعُوا لَهَا، فَقَدْ جَمَعَ اللهُ فِيهَا بَيْنَ صِفَةِ الْمُلْكِ (الْمَلَكِيَّةِ)، وَالتَّمَلُّكِ (الْمَالِكِيَّةِ) لِأَحْدَاثِ يَوْمِ الدِّينِ، حَيْثُ يَكُونُ الْحِسَابُ عَلَى الدِّينِ (الْمَنْهَجِ وَالنِّظَامِ) الَّذِي اتَّبَعَهُ الْبَشَرُ فِي الدُّنْيَا.

وَلَكَ أَنْ تَتَسَاءَلَ: مِنْ أَيْنَ جَاءَتِ الصِّفَتَانِ، وَإِنْ هِيَ إِلَّا آيَةٌ وَاحِدَةٌ ذَاتُ كَلِمَاتٍ ثَلَاثٍ ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾؟

نَعَمْ! إِنَّهُ الْإِعْجَازُ الْقُرْآنِيُّ، فَهَاتَانِ الصِّفَتَانِ (الْمُلْكُ (الْمَلَكِيَّةُ)، وَالتَّمَلُّكُ (الْمَالِكِيَّةُ)) تَجْتَمِعَانِ مِنَ الْقِرَاءَتَيْنِ الْعَظِيمَتَيْنِ الْوَارِدَتَيْنِ فِي الْآيَةِ:

فَقَدْ قَرَأَ عَاصِمٌ وَيَعْقُوبُ وَالْكِسَائِيُّ وَخَلَفٌ الْعَاشِرُ -مِنَ الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ-: (مَالِكِ) بِإِثْبَاتِ الْأَلِفِ بَعْدَ الْمِيمِ، وَقَرَأَ السِّتَّةُ الْبَاقُونَ (مَلِكِ) بِمِيمٍ ثُمَّ لَامٍ دُونَ أَلِفٍ بَيْنَهُمَا، وَتُصَوِّرُ كِلْتَا الْقِرَاءَتَيْنِ مَشْهَدًا فَرِيدًا، وَيَتَكَامَلُ الْمَشْهَدَانِ فِي بَيَانِ عَظَمَةِ اللهِ -تَعَالَى ذِكْرُهُ- مَلِكًا وَمَالِكًا:

الْمَشْهَدُ الْأَوَّلُ: هُوَ سُبْحَانَهُ ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾: مِنَ الْمُلْكِ الَّذِي يَعْنِي الْحُكْمَ، فَلَهُ الْمُلْكُ الْكَامِلُ الَّذِي يَعْنِي: أَنَّ لَهُ الْعِلْمَ الْكَامِلَ، وَأَنَّ لَهُ الْقُدْرَةَ الْمُطْلَقَةَ:

فَأَمَّا الْعِلْمُ الْكَامِلُ فَيَعْنِي الْإِحَاطَةَ بِكُلِّ مَا يَصْدُرُ عَنِ الْعِبَادِ وَلَوْ كَانَ أَمْرًا خَفِيًّا نَفْسِيًّا ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧]، فَيَكُونُ عَالِمًا بِكُلِّ صَغِيرَةٍ مِنْ أَفْعَالِ الْعِبَادِ مَهْمَا تَضَاءَلَتْ ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٦﴾ [المُجَادلَة: ٦].

> **إِنَّ يَوْمَ الدِّينِ يَوْمٌ شَدِيدٌ عَلَى الْكَافِرِينَ؛ إِذْ تُفْضَحُ فِيهِ أَعْمَالُهُمْ، وَيَنْكَشِفُ فِيهِ الزَّيْفُ الَّذِي ضَلَّلُوا بِهِ الْعَالَمِينَ فِي الدُّنْيَا، وَيَصِفُ اللهُ ﷻ مُلْكَهُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ وَصْفًا يَأْخُذُ الْأَنْفَاسَ، وَيُنَبِّهُ قُلُوبَ الْغَافِلِينَ مِنَ النَّاسِ، فَيَقُولُ: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٦]، نَعَمْ! إِنَّهُ الْمُلْكُ الْحَقُّ وَلَيْسَ الْمُدَّعَى، وَلَا الزَّائِفُ!**

فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ يَيْأَسُ مِنَ الرَّحْمَنِ جَمِيعُ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَالْفُجَّارِ، وَيَطْمَعُ فِيهَا مَنْ آمَنَ بِالْوَاحِدِ الْقَهَّارِ، وَاتَّبَعَ سُنَّةَ مُحَمَّدٍ الْمُخْتَارِ، عِنْدَ ذَلِكَ تُنْشَرُ الدَّوَاوِينُ، وَتُوضَعُ الْمَوَازِينُ، وَتَتَطَايَرُ الصُّحُفُ فِي كُلِّ طَرَفٍ، فَكُلُّ امْرِئٍ بِمَا اكْتَسَبَ مُعْتَرِفٌ، فَنَدِمَ الظَّالِمُ، وَخَسِرَ الْآثِمُ، وَظَهَرَتْ فِي الصَّحَائِفِ الْفَضَائِحُ، وَكَثُرَ الْخَجَلُ، وَاشْتَدَّ الْوَجَلُ، وَبَدَتِ الْفَضَائِحُ، وَشَهِدَتْ عَلَى كُلِّ امْرِئٍ حَفَظَتُهُ وَالْجَوَارِحُ.

وَبِنَاءً عَلَى هَذَا الْعِلْمِ الدَّقِيقِ يَكُونُ الْحُكْمُ الْعَدْلُ مِنَ الْمُلْكِ، وَاللهُ تَعَالَى يُقَرِّرُ هَذِهِ الْحَقِيقَةَ، فَيَقْرِنُ بَيْنَ الْحُكْمِ وَعِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، فَيَقُولُ: ﴿وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ

عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام:٧٣]، وَلَا يَذْهَبَنَّ تَفْكِيرُكَ إِلَى أَنَّ انْتِسَابَ الْمُؤْمِنِ لِمُجْتَمَعِ الْمُؤْمِنِينَ، وَالْكَافِرِ لِمُجْتَمَعِ الْكَافِرِينَ يُغْنِي عَنْ حَقَائِقِ الْأَفْعَالِ، وَخَفَايَا الْقُلُوبِ، فَإِنَّ اللهَ -بِنَاءً عَلَى هَذَا الْعِلْمِ بِجَلَائِلِ الْأُمُورِ وَخَفَايَاهَا- يُقِيمُ مِيزَانَ الْعَدْلِ فِي مُلْكِهِ الْحَقِّ، حَيْثُ يَرْوِي عَبْدُ اللهِ بْنُ أُنَيْسٍ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «يَحْشُرُ اللهُ الْعِبَادَ فَيُنَادِيهِمْ بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ مَنْ بَعُدَ كَمَا يَسْمَعُهُ مَنْ قَرُبَ: أَنَا الْمَلِكُ، أَنَا الدَّيَّانُ، وَلَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ أَنْ يَدْخُلَ النَّارَ وَلَهُ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَقٌّ حَتَّى أَقُصَّهُ مِنْهُ، وَلَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ وَلِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ عِنْدَهُ حَقٌّ حَتَّى أَقُصَّهُ مِنْهُ حَتَّى اللَّطْمَةَ١». قُلْنَا: كَيْفَ وَإِنَّا إِنَّمَا نَأْتِي اللهَ ﷻ عُرَاةً غُرْلًا بُهْمًا [(١)]؟ - أَيْ: لَا أَمْوَالَ لَنَا يَوْمَئِذٍ- فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ»[(٢)].

وَهُنَا قَدْ يَسْأَلُ سَائِلٌ: هَلْ حِسَابُ اللهِ تَعَالَى لِعِبَادِهِ إِجْمَالِيٌّ أَمْ تَفْصِيلِيٌّ؟ وَهَلْ يُحَاسِبُ عَلَى عَظِيمِ الْأَفْعَالِ أَمْ حَتَّى صِغَارَهَا سَيُحَاسِبُ عَنْهَا؟

الْجَوَابُ: إِنَّ حِسَابَ اللهِ -تَعَالَى ذِكْرُهُ- لِخَلْقِهِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ يَكُونُ عَلَى أَدَقِّ الْأَشْيَاءِ خَيْرًا أَوْ شَرًّا، وَلَمَّا اسْتَشْعَرَ بَعْضُ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ هَذِهِ الدِّقَّةَ الْعَجِيبَةَ فِي الْحِسَابِ أَخَذَهُ إِجْلَالٌ عَظِيمٌ لِلهِ، وَاعْتَرَتْهُ هَيْبَةٌ فَفَزِعَ إِلَى التَّمْجِيدِ لِرَبِّهِ، وَالْعَمَلِ لِيَوْمِ حِسَابِهِ، فَقَدْ قَرَأَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى صَعْصَعَةَ بْنِ مُعَاوِيَةَ ﷺ عَمِّ الْفَرَزْدَقِ قَوْلَهُ تَعَالَى ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧

(١) (غُرْلًا) جَمْعُ أَغْرَلَ، وَهُوَ: غَيْرُ الْمُخْتَتِنِ، أَيْ: تَرْجِعُ قِطْعَةُ الْجِلْدَةِ الَّتِي أُخِذَتْ يَوْمَ الْخِتَانِ، وَأَمَّا (بُهْمًا) فَأَيْ: لَيْسَ مَعَهُمْ شَيْءٌ.

(٢) البخاري معلقًا ٩/ ١٧٢، أحمد ٣/ ٤٩٥.

وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:٧، ٨] فَقَالَ: حَسْبِي، لَا أُبَالِي أَنْ لَا أَسْمَعَ غَيْرَهَا(١).

وَيُوضَعُ فِي يَوْمِ الدِّينِ الْكِتَابُ الَّذِي أُحْصِيَتْ فِيهِ كُلُّ الْأَعْمَالِ وَالْأَحْوَالِ وَالْأَخْبَارِ وَالْأَسْرَارِ، فَيَا لَوْعَةَ النُّفُوسِ، وَهِيَ تَرَى أَعْمَالَهَا مَكْتُوبَةً حَاضِرَةً ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

وَمَا أَبْلَغَ مَا وَعَظَ بِهِ الْأَوْزَاعِيُّ ﷺ أَبَا جَعْفَرٍ الْمَنْصُورَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ حَيْثُ قَالَ لَهُ: «يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ تَدْرِي مَا جَاءَ فِي تَأْوِيلِ هَذِهِ الْآيَةِ عَنْ جَدِّكَ -أَيِ: ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ- ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف: ٤٩] قَالَ: الصَّغِيرَةُ التَّبَسُّمُ، وَالْكَبِيرَةُ الضَّحِكُ، فَكَيْفَ بِمَا عَمِلَتْهُ الْأَيْدِي وَالْأَلْسُنُ»(٢).

وَا لَوْعَتَاهْ!! بَلِ الصَّغِيرَةُ أَوْسَعُ مِنْ ذَلِكَ إِنَّهَا ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩]، فَاللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ.

طَالَ وَاللهِ بِالذُّنُوبِ اشْتِغَالِي ... وَتَمَادَيْتُ فِي قَبِيحِ فِعَالِي

لَيْتَ شِعْرِي إِذَا أَتَيْتُ فَرِيدًا ... وَالْمَوَازِينُ قَدْ نُصِبْنَ حِيَالِي

وَالدَّوَاوِينُ قَدْ نُشِرْنَ وَجِئْنَا ... وَالنَّبِيُّونَ يَشْهَدُونَ سُؤَالِي

مَا اعْتِذَارِي وَمَا أَقُولُ لِرَبِّي ... فِي سُؤَالِي وَمَا يَكُونُ مَقَالِي

أَوْرَثَتْنِي الذُّنُوبُ دَارَ هُمُومٍ ... لَسْتُ أَبْقَى لَهَا وَلَا تَبْقَى لِي

---

(١) أحمد (٥ / ٥٩)، وصححه الأرناؤوط.

(٢) حلية الأولياء٦/ ١٣٧.

يَا عَظِيمَ الْجَلَالِ مَا لِي عُذْرٌ ... بَلْ حَقِيقٌ أَنَا بِنَارِ السَّفَالِ
غَيْرَ أَنَّ الرَّجَاءَ فِيكَ مَكِينٌ ... فَارْحَمِ الْعَبْدَ يَا جَمِيلَ الْفِعَالِ
وَتَفَضَّلْ عَلَيَّ عَبْدٌ مُسِيءٌ ... لَيْسَ يَرْجُو سِوَاكَ يَا ذَا الْجَلَالِ[1]

وَأَمَّا الْقُدْرَةُ الْمُطْلَقَةُ فَتَعْنِي التَّصَرُّفَ الْكَامِلَ، وَنَزْعَ التَّصَرُّفِ مِنَ الْآخَرِينَ:

فَفِي ذَلِكَ الْيَوْمِ الْعَظِيمِ يَنْزِعُ اللهُ تَعَالَى خَاصِّيَّةَ الِاخْتِيَارِ الَّتِي أَعْطَاهَا لِبَعْضِ مَخْلُوقَاتِهِ فِي الدُّنْيَا كَالْبَشَرِ، وَتَرْجِعُ أَجْسَادُهُمْ وَأَعْضَاؤُهُمْ لِتَنْطِقَ عَلَيْهِمْ بِمَا صَنَعُوا أَمَامَ الْمَلِكِ الْحَقِّ، وَلَا يُصْبِحُ لِلْمَخْلُوقَاتِ الْكَبِيرَةِ عَظِيمُ وَزْنٍ فَكَيْفَ بِغَيْرِهَا؟

وَاسْتَمِعْ لِأَبِي هُرَيْرَةَ وَابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ يَذْكُرَانِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ ذَاتَ يَوْمٍ عَلَى الْمِنْبَرِ ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧]، ثُمَّ قَالَ: «يَقْبِضُ اللهُ الْأَرْضَ وَيَطْوِي السَّمَوَاتِ بِيَمِينِهِ». فَهَذِهِ هِيَ الْمَخْلُوقَاتُ الْعَظِيمَةُ يُصَيِّرُهَا اللهُ ﷻ هَبَاءً، فَكَيْفَ يَكُونُ حَالُ الْبَشَرِ؟! وَرَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ هَكَذَا بِيَدِهِ وَيُحَرِّكُهَا يُقْبِلُ بِهَا، وَيُدْبِرُ، ثُمَّ قَالَ: «ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ أَيْنَ مُلُوكُ الْأَرْضِ، [أَيْنَ الْمُلُوكُ؟ أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟]». «يُمَجِّدُ الرَّبُّ نَفْسَهُ [أَنَا الرَّحْمَنُ]، أَنَا الْجَبَّارُ، أَنَا الْمُتَكَبِّرُ، أَنَا الْمَلِكُ، أَنَا الْعَزِيزُ، أَنَا الْكَرِيمُ، [أَنَا الْمُتَعَالِ]». فَرَجَفَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ الْمِنْبَرُ حَتَّى قُلْنَا لَيَخِرَّنَّ بِهِ، حَتَّى نَظَرْتُ إِلَى الْمِنْبَرِ يَتَحَرَّكُ مِنْ أَسْفَلِ شَيْءٍ مِنْهُ حَتَّى إِنِّي لَأَقُولُ: أَسَاقِطٌ هُوَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ][2]

---

(١) بستان الواعظين، (ص: ٤٤).

(٢) البخاري (٦/ ١٥٨) عن أبي هريرة، مسلم (٨ / ١٢٦)، أحمد (٢/ ٧٢) عن ابن عمر ﷺ.

أَيْ: مِنْ شِدَّةِ تَأَثُّرِ النَّبِيِّ ﷺ وَانْفِعَالِهِ وَهُوَ يَحْكِي عَظَمَةَ مُلْكِ اللهِ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَضَعْفَ الْخَلْقِ أَمَامَهُ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، سُبْحَانَهُ.

وَبِنَاءً عَلَى الْعِلْمِ الْكَامِلِ وَالْقُدْرَةِ الْمُطْلَقَةِ يَتِمُّ إِصْدَارُ الْحُكْمِ الْأَخِيرِ الْفَصْلِ الَّذِي لَا مُعَقِّبَ لَهُ، وَلَا اسْتِئْنَافَ بَعْدَهُ ﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ١١ - ١٥]، وَيَجْتَمِعُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ أَمَامَ الْمَلِكِ الْحَقِّ الظَّالِمُونَ وَالْمَظْلُومُونَ، فَمَا أَدْرَاكَ مَا سَيَكُونُ مِنْ أَمْرٍ تَزِيغُ مِنْهُ الْأَبْصَارُ، وَتَرْتَاعُ مِنْهُ جُمُوعُ الْغَاوِينَ، وَتَخَافُ مِنْهُ طَوَائِفُ الْمُكَذِّبِينَ؟ ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ [النور: ٢٥]، وَيُفَصِّلُ اللهُ ﷻ ذَلِكَ فَيَقُولُ: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [الحج: ٥٦، ٥٧].. إِنَّهُ الْحُكْمُ الْفَصْلُ فِيمَا صَنَعَتْ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتُ فِي فَتْرَةِ الِاخْتِبَارِ وَالِاخْتِيَارِ، فَهُوَ الْيَوْمُ الَّذِي يَنْتَظِرُهُ -بِلَهْفَةٍ- الْمَظْلُومُونَ وَالْأَبْرَارُ، وَيَخَافُ مِنْهُ الظَّلَمَةُ وَالْفُجَّارُ ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِا۟ىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٦٩]. وَهُنَاكَ تَرَى جُمُوعَ الْخَاسِرِينَ ذَاهِلَةً ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾ [المعارج: ٤٤].

حَانَ الرَّحِيلُ عَنِ الدِّيَارِ فَعَجِّلُوا ... وَإِلَى لِقَاءِ مَلِيكِكُمْ فَتَرَحَّلُوا

كُلٌّ إِلَى الرَّحْمَنِ يَمْضِي حَامِلًا ... أَوْزَارَهُ فَلَبِئْسَ حِمْلًا حُمِّلُوا

كُلٌّ سَيُقْدِمُ لِلْجَزَاءِ مُحَاسَبًا ... وَعَنِ النَّقِيرِ كَذَا الْحَقِيرِ سَيُسْأَلُ

قَدْ خَابَ مَنْ زَاغَتْ خُطَاهُمْ يَمْنَةً ... أَوْ يَسْرَةً وَعَنِ الصِّرَاطِ تَحَوَّلُوا

هَيْهَاتَ قَدْ طُوِيَ الْكِتَابُ أَلَمْ يَكُنْ فِيكُمْ نَبِيٌّ بِالْهِدَايَةِ مُرْسَلُ[1]

الْمَشْهَدُ الثَّانِي: هُوَ سُبْحَانَهُ (مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ):

مِنَ الْمِلْكِ وَالْمَالِكِيَّةِ، أَيْ هُوَ الْمُتَمَلِّكُ لِلْمَنَافِعِ وَالذَّوَاتِ، وَهُوَ مَالِكُ الْأَشْخَاصِ وَالْمَخْلُوقَاتِ.

فَالْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ، وَاسْتَبَانَ سَبَبُ الْجَمْعِ بَيْنَ الْمَلِكِ وَالْمَالِكِ، فَالْمَلِكُ هُوَ الَّذِي يَحْكُمُ، وَرُبَّمَا لَا يَكُونُ مَالِكًا لِلْأَرْضِ مَثَلًا، وَالْمَالِكُ هُوَ صَاحِبُ الشَّيْءِ، أَوْ صَاحِبُ الذَّاتِ، وَرُبَّمَا لَا يَكُونُ مَلِكًا، وَمِمَّا يُبَيِّنُ ذَلِكَ أَنْ نُقَرِّرَ أَنَّ الْمُلُوكَ وَالْمَالِكِينَ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ لَا يَخْلُونَ مِنَ الْحَالَاتِ الْآتِيَةِ:

الْحَالَةُ الْأُولَى: يَكُونُ الْمَالِكُ مَالِكًا وَلَكِنَّهُ لَا يَكُونُ مَلِكًا، فَأَكْثَرُ النَّاسِ قَدْ يَكُونُونَ مَالِكِينَ لِبَعْضِ الذَّوَاتِ وَالْمَنَافِعِ، فَرُبَّمَا امْتَلَكُوا بُيُوتًا أَوْ عَقَارًا أَوْ أَمْوَالًا، وَلَكِنَّ الْوَاحِدَ مِنْهُمْ -مَعَ كَوْنِهِ مَالِكًا- لَا يَكُونُ بِالضَّرُورَةِ مَلِكًا.

الْحَالَةُ الثَّانِيَةُ: قَدْ يَكُونُ مَلِكًا صُورِيًّا أَيْ بِغَيْرِ مُلْكٍ فَلَيْسَ لَهُ إِلَّا الِاسْمُ، وَلَيْسَ لَهُ الْمَعْنَى وَلَا الْحُكْمُ، كَمُلُوكِ بِرِيطَانِيَا الْمُعَاصِرِينَ، وَكَخُلَفَاءِ بَنِي الْعَبَّاسِ فِي فَتْرَةِ ضَعْفِ الْخِلَافَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ، فَكَانَ قَادَةُ جُيُوشِهِمْ هُمُ الْمُتَحَكِّمِينَ بِهِمْ، كَالْقَائِدِ الْمُسَمَّى (وَصِيفًا) وَالْقَائِدِ الْمُسَمَّى (بَغَا)، وَفِي ذَلِكَ قِيلَ:

خَلِيفَةٌ فِي قَفَصٍ بَيْنَ وَصِيفٍ وَبُغَا

---

(١) الأبيات لشاعر البصائر د. سعيد بن حباج، ما عدا البيت الأخير فللشاعر د. عبد الرحمن العشماوي، من قصيدة "مشاهد من يوم القيامة".

يَـقُـولُ مَـا قَـالَا لَـهُ كَـمَـا تَـقُـولُ الْـبَـبَّـغَـا[1]

الْحَالَةُ الثَّالِثَةُ: قَدْ يَكُونُ مَالِكًا وَمَلِكًا فِي الْوَقْتِ ذَاتِهِ، وَلَهُ الْحُكْمُ الْمُسْتَبِدُّ الْقَوِيُّ الَّذِي يَكَادُ أَنْ يَكْتُمَ الْأَنْفَاسَ، وَلَكِنَّهُ مَهْمَا فَعَلَ لَا يَتَحَكَّمُ بِذَوَاتِ الْبَشَرِ مَثَلًا، وَلَوْ أَرَادَ لَمَا اسْتَطَاعَ؛ لِأَنَّ أَتْبَاعَهُ يُمْكِنُ أَنْ يُخَادِعُوهُ فِي أَيِّ لَحْظَةٍ، فَهُوَ لَا يُسَيْطِرُ عَلَى كَامِلِ أَفْعَالِهِمْ، وَلَا يَتَحَكَّمُ بِمَشَاعِرِهِمْ وَأَفْكَارِهِمْ، وَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَجْعَلَ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ تَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ دُونَ إِرَادَتِهِمْ.

فَبَيَّنَ اللهُ -جَلَّ جَلَالُهُ- أَنَّ لَهُ كِلْتَا الصِّفَتَيْنِ (الْمُلْكَ وَالتَّمَلُّكَ) عَلَى أَكْمَلِ الْوُجُوهِ، فَهُوَ الْمَلِكُ الْحَاكِمُ الْمُسَيْطِرُ، وَهُوَ الْمَالِكُ لِلْمَنَافِعِ، وَالْأَشْخَاصِ، وَالذَّوَاتِ، وَالْمَشَاعِرِ وَالْعَوَاطِفِ، بَلْ تَنْطِقُ لَهُ أَعْضَاءُ الْإِنْسَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَهُوَ الْمَلِكُ الْمَالِكُ الْعَظِيمُ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [فصلت: ٢١-٢٠].

وَبِذَلِكَ يَتَّضِحُ الْكَمَالُ فِي صِفَاتِ ذِي الْكِبْرِيَاءِ وَالْجَلَالِ.

***

(١) البيتان لجنبذ الكاتب. ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، أبو منصور الثعالبي (ص: ٤٨٨).

جِسْرُ اتِّصَالٍ: عَرَفْنَا الْبَصِيرَةَ الثَّالِثَةَ مِنْ بَصَائِرِ الْمَقْصِدِ الرَّابِعِ مِنْ مَقَاصِدِ الْفَاتِحَةِ، وَهِيَ: (اللهُ) هُوَ الْمَلِكُ الْمَالِكُ لِيَوْمٍ يُحَاسَبُ فِيهِ الْخَلْقُ عَلَى نِظَامِهِمُ الدُّنْيَوِيِّ، فَمَا الْبَصِيرَةُ الرَّابِعَةُ؟

الْجَوَابُ:

الْبَصِيرَةُ الرَّابِعَةُ

﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ تَمْجِيدٌ لِبَيَانِ هَيْبَةِ الْعَدْلِ، وَتَفْوِيضٌ لِبَيَانِ جَمَالِ الرَّحْمَةِ وَالْفَضْلِ

نَسْتَنْبِطُ هَذِهِ الْبَصِيرَةَ مِنْ قَوْلِهِ -تَعَالَى ذِكْرُهُ-: ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ لِنَجِدَ فِيهَا الْجَوَابَ عَنِ السُّؤَالِ الَّذِي يَصْطَادُ بِهِ الْمُلْحِدُونَ ضَحَايَاهُمْ، يَقُولُونَ: إِنْ كَانَ اللهُ ﷻ حَقًّا فَلِمَاذَا لَا يَنْصُرُ الْمَظْلُومِينَ؟ لِمَاذَا يَتْرُكُ الْمُجْرِمِينَ وَالْمُسْتَكْبِرِينَ يَعِيثُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا؟

الْجَوَابُ: لِأَنَّهُ مَالِكُ يَوْمِ الدِّينِ يَوْمِ السُّؤَالِ، وَالْجَوَابِ، وَالْحِسَابِ، وَالْجَزَاءِ، أَمَّا الدُّنْيَا فَلِلِاخْتِبَارِ وَالِابْتِلَاءِ.

فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُونَ الْكِتَابَ عَنِ الْأَسْبَابِ الَّتِي مِنْ أَجْلِهَا يَقُولُ اللهُ -تَعَالَى ذِكْرُهُ-: «مَجَّدَنِي عَبْدِي»، وَفِي لَفْظٍ: «فَوَّضَ إِلَيَّ عَبْدِي» عِنْدَمَا يَقْرَأُ الْعَبْدُ ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾.

فَأَمَّا التَّمْجِيدُ فَلِأَنَّ الْقَارِئَ عِنْدَمَا يَقْرَأُ: ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ فَهُوَ يَنْسُبُ إِلَى اللهِ -تَعَالَى ذِكْرُهُ- تَحْقِيقَ الْعَدْلِ التَّامِّ بَيْنَ الْخَلَائِقِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، فَيَوْمُ الدِّينِ هُوَ يَوْمُ الْقِسْطِ الْأَكْبَرِ، وَإِثْبَاتُهُ مِنْ أَعْظَمِ الْأَدِلَّةِ عَلَى تَمْجِيدِ اللهِ.

إِنَّ هَذِهِ الْبَصِيرَةَ الْمُسْتَنْبَطَةَ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ وَقَوْلِ اللهِ: (مَجَّدَنِي عَبْدِي) تَتَضَمَّنُ الْجَوَابَ الْخَطِيرَ عَلَى سُؤَالِ الْمُلْحِدِينَ وَالسَّمَّاعِينَ لَهُمْ، وَالْمُتَعَبِينَ الْمَظْلُومِينَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ عِنْدَمَا يَرَوْنَ مَشَاهِدَ الظُّلْمِ الرَّهِيبَةِ: أَيْنَ اللهُ؟

إِنَّهُ -تَعَالَى ذِكْرُهُ- سَيُقِيمُ الْعَدْلَ التَّامَّ بَعْدَ أَنِ اجْتَرَحَ الْمُعْتَدُونَ الْعُتَاةُ الْعَبَثَ فِي الدُّنْيَا وَإِشَاعَةَ الظُّلْمِ وَالْإِجْرَامِ، وَإِخْفَاءَ كُلِّ حَقٍّ وَخَيْرٍ وَإِحْسَانٍ وَإِنْعَامٍ، وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعُهُمْ ثَرَاؤُهُمْ وَثَرْوَاتُهُمْ وَقُوَّاتُهُمْ وَمُؤَسَّسَاتُهُمْ وَمُخَابَرَاتُهُمْ وَمُؤَامَرَاتُهُمْ مِنْ أَنْ يُحَاسَبُوا عَلَى مَا صَدَرَ مِنْهُمْ مِنْ إِثْمٍ وَعُدْوَانٍ، فَيُفَاجَؤُونَ يَوْمَ الدِّينِ بِمُحَاسَبَتِهِمْ مِنَ الْمَلِكِ الدَّيَّانِ، عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ يُنَادِيهِمُ الْحَقُّ ﷻ: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية:٢٥، ٢٦].

وَيَتِمُّ الْحِسَابُ الدَّقِيقُ إِحْصَاءً وَسُرْعَةً عَلَى كَثْرَةِ الْمَخْلُوقِينَ، يَتَجَلَّى وَعْدُ اللهِ ﷻ: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾ [غَافِر : ١٧].

إِنَّ الْإِيمَانَ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْجَزَاءِ هُوَ جُزْءٌ لَا يَتَجَزَّأُ مِنْ فَهْمِ مُعَادَلَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. فَالدُّنْيَا لَيْسَتْ نِهَايَةَ الْمَطَافِ. وَأَيُّ ظُلْمٍ أَوْ أَلَمٍ أَوْ ضَرَرٍ لَمْ يَجِدْ صَاحِبُهُ جَزَاءً عَادِلًا أَوْ إِنْصَافًا فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّ عَدْلَ اللهِ الْمُطْلَقَ يَقْتَصُّ لَهُ حَقَّهُ فِي الْآخِرَةِ. وَرُبَّمَا كَانَ هَذَا الْأَلَمُ الدُّنْيَوِيُّ سَبَبًا فِي تَكْفِيرِ سَيِّئَاتِهِ أَوْ رِفْعَةِ دَرَجَاتِهِ.

وَلَئِنْ كَانَ شَيْءٌ يَنْبَغِي أَنْ يُزَلْزِلَ نَفْسَكَ وَيَهُزَّهَا وَيُحَرِّكَهَا فَهُوَ الْبَيَانُ الْقُرْآنِيُّ الْمُدْهِشُ الَّذِي يُقَرِّرُ أَنَّ عَرْضَ الْأَعْمَالِ السَّالِفَةِ فِي الدُّنْيَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ بَيِّنًا وَاضِحًا مُسْتَنْسَخًا فِي كُلِّ جُزْئِيَّةٍ، فِي بَيَانٍ يُحَرِّكُ الْمَشَاعِرَ، وَيُقِيمُ النُّفُوسَ عَلَى جِدِّيَّةِ الْعَدْلِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، حَيْثُ يَقُولُ اللهُ -تَعَالَى ذِكْرُهُ- ﴿﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٨، ٢٩].

إِنَّهُ يَوْمُ الْقِسْطِ الْأَكْبَرِ الَّذِي يُمَثِّلُ النَّتِيجَةَ الصَّادِقَةَ لِمَبْدَأِ عَدَمِ عَبَثِيَّةِ الْكَوْنِ ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]، فَالْقِسْطُ دَلِيلٌ عَلَى تَمْجِيدِ اللهِ ﷻ.

وَبِخِلَافِ الْمَوَازِينِ الدُّنْيَوِيَّةِ الظَّالِمَةِ؛ فَلَا يُمْكِنُ أَنْ تُظْلَمَ نَفْسٌ شَيْئًا مَهْمَا صَغُرَ أَوْ قَلَّ أَوْ تَضَاءَلَ ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

فَمَهْمَا ظَلَمَ الظَّالِمُ، وَطَغَى وَاسْتَكْبَرَ الْمُجْرِمُ الْآثِمُ، وَأُمْلِيَ لَهُ فِي الدُّنْيَا، فَلَمْ يَنَلْهُ عَذَابٌ فِيهَا وَلَا مَغَارِمُ، فَلَيْسَ لِأَنَّهُ عَلَى حَقٍّ، وَلَا لِأَنَّ اللهَ ﷻ عَنْهُ غَافِلٌ، بَلْ لِأَنَّ اللهَ -تَعَالَى ذِكْرُهُ- قَدْ أَنْزَلَ لِلنَّاسِ بَلَاغًا يُنْذِرُهُمْ بِأَنَّ هُنَاكَ يَوْمًا سَيَتِمُّ فِيهِ الْعَدْلُ الَّذِي لَا يَفُوتُهُ أَحَدٌ مِنَ الْعَالَمِينَ، وَإِنَّمَا الدُّنْيَا دَارُ ابْتِلَاءٍ مُبِينٍ.

وَلِذَلِكَ يُحَذِّرُ اللهُ ﷻ الصِّغَارَ وَالْكِبَارَ، وَالْأَذْكِيَاءَ وَالْأَغْرَارَ، فَيَقُولُ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [إبراهيم: ٤٢]، فَهَذِهِ وَظِيفَةُ الْيَوْمِ الْآخِرِ، وَغَايَتُهُ: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ١٥].

أَمْ حَسِبَ الْمُجْرِمُونَ أَنَّهُمْ سَيُتْرَكُونَ عَلَى حَالِهِمْ بَعْدَ الْمَوْتِ سُدًى بِئْسَ مَا يَتَصَوَّرُونَ ن ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١، ٢٢].

أَمَا وَاللهِ إِنَّ الظُّلْمَ لُؤْمٌ ... وَمَا زَالَ الْمُسِيءُ هُوَ الظَّلُومُ
إِلَى دَيَّانِ يَوْمِ الدِّينِ نَمْضِي ... وَعِنْدَ اللهِ تَجْتَمِعُ الْخُصُومُ
سَتَعْلَمُ فِي الْحِسَابِ إِذَا الْتَقَيْنَا ... غَدًا عِنْدَ الْإِلَهِ مَنِ الْمَلُومُ[1]

(١) هذه الأبيات لعلي بن أبي طالب ﷺ في ديوانه (ص: ١٥٩)، وتنسب لأبي العتاهية كما في الآداب الشرعية (١/ ١٨١).

فَإِذَا قَرَأْتَ: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ مَجَّدْتَ اللهَ الْمَلِكَ الْقُدُّوسَ السَّلَامَ، وَأَثْنَيْتَ عَلَيْهِ بِالْحَقِّ وَالْعَدْلِ التَّامِّ.

قَدْ يَسْأَلُ سَائِلٌ: إِذَا كَانَ كُلُّ هَذَا مَعْنَى التَّمْجِيدِ لِلهِ، فَمِنْ أَيْنَ أَخَذْنَا مَعْنَى التَّفْوِيضِ لِلهِ؟

وَالْجَوَابُ: التَّفْوِيضُ مُسْتَفَادٌ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾؛ لِأَنَّ الْعَبْدَ يَنْتَظِرُ مِنَ اللهِ ﷻ أَعْظَمَ الرَّحْمَةِ وَالْفَضْلِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ الْعَبُوسِ الْقَمْطَرِيرِ، وَيَظْهَرُ التَّفْوِيضُ بِقِرَاءَةِ هَذِهِ الْآيَةِ عِنْدَمَا نُلَاحِظُ الِاتِّصَالَ الْخَاصَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَ مَا قَبْلَهَا مُبَاشَرَةً، فَالْعَبْدُ قَدَّمَ الثَّنَاءَ عَلَيْهِ ﷻ بِقَوْلِهِ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، ثُمَّ انْتَقَلَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، كَأَنَّهُ فَوَّضَ أَمْرَهُ لِلهِ تَعَالَى، وَاعْتَقَدَ أَنَّهُ رَحْمَنٌ رَحِيمٌ مَعَ مُلْكِهِ لِيَوْمِ الدِّينِ. هُنَا تَعْلَمُ جَمَالَ الدُّعَاءِ الَّذِي عَلَّمَنَاهُ النَّبِيُّ ﷺ عِنْدَ النَّوْمِ حَيْثُ تَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ نَوْمَةً لَا يَقْظَةَ بَعْدَهَا فَتُفَوِّضُ أَمْرَكَ إِلَى اللهِ وَتَقُولُ: «**اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ لَا مَلْجَأَ، وَلَا مَنْجَا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ، اللَّهُمَّ آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ**»[1].

إِنَّ كَمَالَ التَّفْوِيضِ فِي قَوْلِنَا: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ هُوَ رُكُونٌ إِلَى حِكْمَةِ اللهِ الْبَالِغَةِ الْمُطْلَقَةِ، وَتَسْلِيمٌ لَا تَرَدُّدَ فِيهِ وَلَا تَلَكُّؤَ عَنْ رَاسِخِ الْعَقِيدَةِ مِنْ أَنَّ اللهَ ﷻ مُنَزَّهٌ عَنِ الْعَبَثِ وَالظُّلْمِ، "وَعَلَى هَذَا فَكُلُّ مَا فَعَلَهُ عَلِمْنَا أَنَّ لَهُ فِيهِ حِكْمَةً؛ وَهَذَا يَكْفِينَا مِنْ حَيْثُ الْجُمْلَةِ وَإِنْ لَمْ نَعْرِفِ التَّفْصِيلَ... وَكَذَلِكَ نَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّهُ "حَكِيمٌ" فِيمَا يَفْعَلُهُ وَيَأْمُرُ بِهِ، وَعَدَمُ عِلْمِنَا بِالْحِكْمَةِ فِي بَعْضِ الْجُزْئِيَّاتِ لَا يَقْدَحُ فِيمَا عَلِمْنَاهُ مِنْ أَصْلِ حِكْمَتِهِ؛ فَلَا نُكَذِّبُ بِمَا عَلِمْنَاهُ مِنْ حِكْمَتِهِ مَا لَمْ نَعْلَمْهُ مِنْ تَفْصِيلِهِ" [2].

---

(١) البخاري (١ / ٧١).

(٢) مجموع الفتاوى، ابن تيمية، (٦/ ١٢٨).

فَإِذَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ رَأَى رَجُلًا يَتَقَلَّبُ فِي الْجَنَّةِ لِأَنَّهُ أَزَالَ شَجَرَةً مُؤْذِيَةً مِنَ الطَّرِيقِ(١)، فَكَيْفَ بِمَنْ تَلَبَّسَ حَالُهُ بِتَوْحِيدِهِ، وَأَقْبَلَ عَلَى مَحَبَّتِهِ وَطَاعَتِهِ وَتَمْجِيدِهِ، ثُمَّ أَثْنَى عَلَيْهِ فَقَالَ: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ كَأَنَّهُ يُفَوِّضُ أَمْرَهُ إِلَيْهِ؛ لِيُعَامِلَهُ بِفَضْلِهِ، وَكَرَمِهِ، وَجُودِهِ، وَرَحْمَتِهِ الَّتِي أَثْنَى عَلَيْهِ بِهَا فِي الْآيَةِ الَّتِي سَبَقَتْهَا عَسَى أَنْ يُحَقِّقَ رَاحَتَهُ وَشَرَفَهُ وَذِكْرَهُ وَفَخْرَهُ وَرِفْعَتَهُ، وَهَذَا الْمَعْنَى أُشِيرَ إِلَيْهِ فِي عَدَدٍ مِنَ الْأَحَادِيثِ مِنْهَا:

مَا جَاءَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ لِلهِ مِائَةَ رَحْمَةٍ، أَنْزَلَ مِنْهَا رَحْمَةً وَاحِدَةً بَيْنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالْبَهَائِمِ وَالْهَوَامِّ، فَبِهَا يَتَعَاطَفُونَ، وَبِهَا يَتَرَاحَمُونَ، وَبِهَا تَعْطِفُ الْوَحْشُ عَلَى وَلَدِهَا، وَأَخَّرَ اللهُ تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً، يَرْحَمُ بِهَا عِبَادَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»(٢).

وَعَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ: مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ فِي نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، وَصَبِيٌّ فِي الطَّرِيقِ، فَلَمَّا رَأَتْ أُمُّهُ الْقَوْمَ خَشِيَتْ عَلَى وَلَدِهَا أَنْ يُوطَأَ؛ فَأَقْبَلَتْ تَسْعَى وَتَقُولُ: ابْنِي ابْنِي. وَسَعَتْ فَأَخَذَتْهُ، فَقَالَ الْقَوْمُ: يَا رَسُولَ اللهِ مَا كَانَتْ هَذِهِ لِتُلْقِيَ ابْنَهَا فِي النَّارِ. قَالَ: فَخَفَّضَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «**وَاللهُ ﷻ لَا يُلْقِي حَبِيبَهُ فِي النَّارِ**»(٣).

---

(١) في صحيح مسلم (٨ / ٣٤) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَقَدْ رَأَيْتُ رَجُلًا يَتَقَلَّبُ فِي الْجَنَّةِ فِي شَجَرَةٍ قَطَعَهَا مِنْ ظَهْرِ الطَّرِيقِ كَانَتْ تُؤْذِي النَّاسَ»..

(٢) البخاري (٨/ ١٢٣)، و(مسلم٨/ ٩٦)، والهوامُّ: الحيَّاتُ، وكلُّ ذِي سم يقتلُ سمُّه، والمفرد هامَّةٌ، لأنَّها تهمُّ أي تدبُّ، والهميمُ الدَّبيبُ. تهذيب اللغة (٥/ ٢٤٨)، التلخيص في معرفة أسماء الأشياء (ص: ٣٨٩).

(٣) «فَخَفَّضَهُمْ» ضُبِطَ بِالتَّشْدِيدِ، أَيْ: سَكَّنَهُمْ وَهَوَّنَ الْأَمْرَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْخَفْضِ، بِمَعْنَى الدَّعَةِ وَالسُّكُونِ، كَأَنَّهُ عَظَّمَ عَلَيْهِمُ الْإِشْكَالَ، فَخَفَّضَ عَلَيْهِمْ أَمْرَهُمْ بِالْجَوَابِ عَنْهُ. وَالظَّاهِرُ أَنَّ حَاصِلَ الْجَوَابِ أَنَّهُ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ لِأَحْبَائِهِ فَلَا يُلْقِي مِنْهُمْ فِي النَّارِ أَحَدًا. رواه أحمد (٣ / ١٠٤)، وصححه الأرناؤوط على شرط الشيخين.

اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ حُبَّكَ، وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ، وَحُبَّ عَمَلٍ يُقَرِّبُنَا إِلَى حُبِّكَ، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ... لَكَأَنَّ اللهَ ﷻ يَقُولُ:

(عُبَيْدِي) إِنْ تَرِدْ دَرْبَ النَّقَاءِ ... وَأَنْ تُكْفَى مَتَاهَاتِ الشَّقَاءِ
فَكُنْ لِي لَا تَكُنْ عَبْدًا لِغَيْرِي ... تَدُمْ مَا دَامَ عُمْرُكَ فِي ارْتِقَاءِ
وَكُنْ لِي خَالِصًا لَا تَرْجُ غَيْرِي ... وَإِنْ مَلَّكْتُهُ بَعْضَ الْغِنَاءِ
فَإِنِّي بِالْعَطَايَا أَبْتَلِيهِ ... وَأُمْهِلُهُ إِلَى يَوْمِ اللِّقَاءِ
وَإِنِّي لَسْتُ أَكْرَمُ مَنْ عَصَانِي ... مُصِرًّا نَاسِيًا دَارَ الْبَقَاءِ
وَبَابِي لَيْسَ يُغْلَقُ أَيَّ حِينٍ ... فَلُذْ بِالْبَابِ وَالْهَجْ بِالدُّعَاءِ
وَعُدْ يَا عَبْدِي الْعَاصِي سَرِيعًا ... تَجِدْ عِنْدِي مَفَاتِيحَ الْهَنَاءِ
وَإِنْ نَابَتْكَ فِي الدُّنْيَا صُرُوفٌ ... وَهَاجَ الْكَرْبُ حَوْلَكَ بِالْعَنَاءِ
فَلَا تَجْزَعْ فَإِنِّي بِالرَّزَايَا ... أُمَحِّصُ مَنْ يَلِيقُ بِالِانْتِقَاءِ
فَأَسْقِيهِ وَأُعْطِيهِ هِبَاتٍ ... يَحَارُ اللُّبُّ مِنْ طِيبِ الْعَطَاءِ
وَإِنْ أَعْرَضْتَ عَنْ ذِكْرِي (عُبَيْدِي) ... تَعِشْ ضَنْكًا وَتَبْقَى فِي شَقَاءِ
فَهَذَا النَّبْعُ صَافٍ مِنْ كِتَابِي ... فَفِيهِ النُّورُ إِكْسِيرُ الشِّفَاءِ
فَخُذْهُ بِقُوَّةٍ تَحْيَا سَعِيدًا ... وَتَرْقَى فِي الْكَرَامَةِ وَالنَّمَاءِ[1]

***

(١) شعر للأستاذ محمد المثيل وفقه الله.

عَرَفْنَا الْبَصِيرَةَ الرَّابِعَةَ مِنْ بَصَائِرِ الْمَقْصِدِ الرَّابِعِ مِنْ مَقَاصِدِ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ، وَهِيَ: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ تَمْجِيدٌ لِبَيَانِ هَيْبَةِ الْعَدْلِ، وَتَفْوِيضٌ لِبَيَانِ جَمَالِ الرَّحْمَةِ وَالْفَضْلِ، فَمَا الْبَصِيرَةُ الْخَامِسَةُ؟

الْبَصِيرَةُ الْخَامِسَةُ

﴿يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ هُوَ أَعْظَمُ حَلٍّ لِإِيجَادِ التَّنْمِيَةِ الصَّادِقَةِ فِي الْمُجْتَمَعَاتِ

تَصْبُو الْبَشَرِيَّةُ، مُنْذُ بُزُوغِ فَجْرِهَا، إِلَى رُقِيٍّ شَامِلٍ وَتَنْمِيَةٍ لَا تَنْضُبُ، مُكَرِّسَةً جُهُودَهَا لِإِعْلَاءِ شَأْنِ الْحَيَاةِ. وَيُشْرِقُ الْإِسْلَامُ كَضَمَانَةٍ فَرِيدَةٍ لِهَذَا الطُّمُوحِ؛ إِذْ يَجْعَلُ الْمَسْؤُولِيَّةَ الْفَرْدِيَّةَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ هِيَ الْمَحَكَّ. فَكُلُّ إِحْسَانٍ فِي عِبَادَةِ الْخَالِقِ أَوْ إِعَانَةِ الْمَخْلُوقِ، وَكُلُّ إِسْهَامٍ فِي نَهْضَةِ الْحَيَاةِ، يُثْمِرُ جِنَانًا وَرِضْوَانًا. وَبِالْمُقَابِلِ، كُلُّ تَجَاوُزٍ فِي حَقِّ اللهِ، أَوْ عُدْوَانٍ عَلَى مُقَوِّمَاتِ الْحَيَاةِ وَإِعَاقَةٍ لِتَقَدُّمِهَا، يَؤُولُ بِصَاحِبِهِ إِلَى حِسَابٍ دَقِيقٍ وَعِقَابٍ شَدِيدٍ.

مَعَ تَعَقُّدِ الْحَيَاةِ وَتَعَدُّدِ خِيَارَاتِ الْإِصْلَاحِ، وَالتَّجَارِبِ لِإِحْدَاثِ نُهُوضٍ تَنْمَوِيٍّ فِي الْحَيَاةِ الْبَشَرِيَّةِ، وَمَعَ غِيَابِ الْأُنْمُوذَجِ الْكَامِلِ وَالضَّامِنِ الْحَقِيقِيِّ لِتَحْقِيقِ هَذَا الْمَقْصِدِ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْحَلِّ وَالْمَخْرَجِ أَمَامَ انْعِدَامِ الضَّمِيرِ الْإِنْسَانِيِّ وَالْعَالَمِيِّ الَّذِي يُهْدِرُ حَقَّ أُمَمٍ وَشُعُوبٍ فِي الْحَيَاةِ النَّامِيَةِ الْكَرِيمَةِ الْهَانِئَةِ، وَيَأْتِي الْجَوَابُ مِنْ بَصَائِرِ الْفَاتِحَةِ الْمُبَارَكَةِ: الْحَلُّ يَكْمُنُ فِي الْإِيمَانِ الْحَقِّ بِهَذِهِ الْحَقِيقَةِ (يَوْمِ الدِّينِ)، وَهَاهُنَا يَسْهُلُ عَلَيْكَ أَنْ تَعْلَمَ لِمَاذَا جَعَلَ الْإِسْلَامُ الْإِيمَانَ بِهِ ثَانِيَ أَعْظَمِ الْأُسُسِ الْإِيمَانِيَّةِ وَالْأَمْنِيَّةِ.

فَهَذِهِ الْبَصِيرَةُ تَتَرَتَّبُ عَلَى مَا سَبَقَ؛ فَإِنْ أَنْتَ عَرَفْتَ أَنَّ الدِّينَ مَعْنَاهُ الْجَزَاءُ عَلَى النِّظَامِ الْوَاجِبِ الِاتِّبَاعِ، وَعَرَفْتَ أَنَّهُ لَا بُدَّ فِيهِ مِنَ الْعَدْلِ، وَطَلَبْتَ فِيهِ الْفَضْلَ فَعِنْدَ ذَلِكَ تَعْلَمُ أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تُرَاقِبَ مِثْقَالَ الذَّرِّ مِنْ تَصَرُّفَاتِكَ.

وَلِتَحْقِيقِ الْإِيمَانِ بِيَوْمِ الدِّينِ عَلَى الْمُسْتَوَى الْجَمَاعِيِّ، وَلِإِصْلَاحِ الْخَلَلِ فِي التَّسَيُّبِ الْوَظِيفِيِّ، أَوِ الْإِهْمَالِ الِاجْتِمَاعِيِّ؛ يَجِبُ بِنَاءُ الْإِيمَانِ بِيَوْمِ الدِّينِ وَغَرْسُهُ فِي النُّفُوسِ وَالْقُلُوبِ بَعْدَ الْإِيمَانِ بِاللهِ ﷻ.

وَإِذْ تَسْتَقِرُّ هَذِهِ الْحَقِيقَةُ فِي الْوِجْدَانِ، يُشْرِقُ الْإِيمَانُ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ كَأَعْظَمِ بَاعِثٍ عَلَى تَشْيِيدِ صُرُوحِ الْحَضَارَةِ، وَتَنْمِيَةِ مُقَوِّمَاتِ الْحَيَاةِ، وَتَحْقِيقِ النَّهْضَةِ الشَّامِلَةِ لِلْمُجْتَمَعَاتِ، وَالِارْتِقَاءِ بِمَنَاحِي الِاقْتِصَادِ وَالِاجْتِمَاعِ.

وَمِنْ ثَمَّ، فَإِنَّ (الدِّينَ) يُمَثِّلُ نُقْطَةَ الِانْطِلَاقِ نَحْوَ فَضَاءَاتٍ لَا مُتَنَاهِيَةٍ مِنَ السُّمُوِّ وَالرِّفْعَةِ لِلْفَرْدِ وَالْمُجْتَمَعِ عَلَى السَّوَاءِ؛ ذَلِكَ أَنَّ الْمُؤْمِنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ، إِنَّمَا يَنْظُرُ إِلَى كُلِّ بَذْرَةِ خَيْرٍ يَغْرِسُهَا، وَكُلِّ إِتْقَانٍ يُبْدِعُهُ، وَكُلِّ لَمْسَةِ إِيجَابٍ يُضِيفُهَا إِلَى لَوْحَةِ الْحَيَاةِ، كَأَنَّهَا وَدِيعَةٌ ثَمِينَةٌ يَرْجُو بِهَا حَصَادَ الْأَجْرِ الْأَوْفَى يَوْمَ الدِّينِ، وَنَيْلَ رِضْوَانِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

الْإِيمَانُ بِيَوْمِ الدِّينِ أَقْوَى عِلَاجٍ لِمُعْضِلَاتِ الْعَصْرِ:

يَتَرَتَّبُ عَلَى الْإِيمَانِ بِيَوْمِ الدِّينِ، وَالْخَوْفِ مِنْ سُوءِ الْحِسَابِ؛ الِاسْتِقْرَارُ الْأَمْنِيُّ، وَالصِّدْقُ الْوَظِيفِيُّ، وَالسِّلْمُ الِاجْتِمَاعِيُّ، وَالِانْضِبَاطُ الْإِدَارِيُّ، وَالْفَزَعُ الْقَلْبِيُّ مِنَ التَّقْصِيرِ فِي الْوَاجِبِ، فَيَنْمُو الضَّمِيرُ الذَّاتِيُّ، وَالْمُحَاسَبَةُ الشَّخْصِيَّةُ، وَيَتَعَزَّزُ الشُّعُورُ بِالْمُسَاوَاةِ بَيْنَ بَنِي آدَمَ عليهم السلام، وَتَخْتَفِي الْعُنْصُرِيَّةُ وَالتَّمْيِيزُ وَالشُّعُورُ بِالْعُجْبِ وَالْكِبْرِ الْمُدَمِّرِ لِلنَّفْسِيَّةِ الْإِنْسَانِيَّةِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

كُلُّ هَذَا لَا يُمْكِنُ أَنْ يَتِمَّ إِلَّا بِإِحْيَاءِ الْإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَيَتَرَتَّبُ عَلَى الْإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ إِزَالَةُ أَسْوَأِ الْأَمْرَاضِ الْفَرْدِيَّةِ وَالْجَمَاعِيَّةِ، الْمَحَلِّيَّةِ وَالْعَالَمِيَّةِ (مَرَضُ الظُّلْمِ)، فَمَنْ آمَنَ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ كَيْفَ يَحْلُو لَهُ ارْتِكَابُ الظُّلْمِ، وَاغْتِصَابُ الْحُقُوقِ، وَإِنْشَاءُ مِيلِشِيَاتِ الْإِجْرَامِ

وَهُوَ يَسْمَعُ قَوْلَ رَبِّ الْأَنَامِ: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا ۖ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٨، ٢٩].

فَالْإِيمَانُ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ هُوَ السِّلَاحُ الْأَقْوَى أَمَامَ اسْتِعْرَاضِ الْقُوَى الظَّالِمَةِ الْغَاشِمَةِ لِعَضَلَاتِهَا، وَهُوَ مَا أَرَادَ النَّبِيُّ ﷺ تَثْبِيتَهُ فِي لَفْتِ نَظَرِ أَصْحَابِهِ إِلَى الِاعْتِبَارِ بِأَحْوَالِ الْأُمَمِ، فَعَنْ جَابِرٍ ﷺ قَالَ: لَمَّا رَجَعَتْ مُهَاجِرَةُ الْحَبَشَةِ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ: «أَلَا تُحَدِّثُونِي بِأَعْجَبِ مَا رَأَيْتُمْ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ؟»، قَالَ فِتْيَةٌ مِنْهُمْ: يَا رَسُولَ اللهِ، بَيْنَا نَحْنُ جُلُوسٌ مَرَّتْ عَلَيْنَا عَجُوزٌ مِنْ عَجَائِزِهِمْ، تَحْمِلُ عَلَى رَأْسِهَا قُلَّةً (١) مِنْ مَاءٍ، فَمَرَّتْ بِفَتًى مِنْهُمْ، فَجَعَلَ إِحْدَى يَدَيْهِ بَيْنَ كَتِفَيْهَا، ثُمَّ دَفَعَهَا عَلَى رُكْبَتَيْهَا، فَانْكَسَرَتْ قُلَّتُهَا، فَلَمَّا ارْتَفَعَتْ، الْتَفَتَتْ إِلَيْهِ، ثُمَّ قَالَتْ: سَتَعْلَمُ يَا غُدَرُ إِذَا وَضَعَ اللهُ الْكُرْسِيَّ، وَجَمَعَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، وَتَكَلَّمَتِ الْأَيْدِي وَالْأَرْجُلُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ، فَسَوْفَ تَعْلَمُ أَمْرِي وَأَمْرَكَ عِنْدَهُ غَدًا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**صَدَقَتْ، ثُمَّ صَدَقَتْ، كَيْفَ يُقَدِّسُ اللهُ قَوْمًا لَا يُؤْخَذُ لِضَعِيفِهِمْ مِنْ شَدِيدِهِمْ**»(٢).

وَلِذَا لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ هُوَ الْأَسَاسَ الثَّانِي بَعْدَ الْإِيمَانِ بِاللهِ ﷻ فِي مَجَالَاتِ النَّشْرِ التَّعْلِيمِيِّ وَالْإِعْلَامِيِّ وَالتَّرْبَوِيِّ وَالتَّثْقِيفِيِّ، اسْتِعْدَادًا لِمَا سَيَكُونُ فِيهِ، وَإِشَاعَةً لِثَقَافَةِ الْإِيمَانِ بِهِ، وَاعْتِزَازًا بِهَذَا الْإِيمَانِ، وَبِنَاءً لِلْمَوَاقِفِ الْفَرْدِيَّةِ وَالْجَمَاعِيَّةِ عَلَى أَسَاسِ ذَلِكَ، فَهَذِهِ الْكُلِّيَّةُ تُعَدُّ مَفْرِقَ الطَّرِيقِ بَيْنَ الْعُبُودِيَّةِ لِلنَّزَوَاتِ وَالشَّهَوَاتِ، وَبَيْنَ الْأَلَقِ فِي إِثْبَاتِ الْوَجْهِ الْمُشْرِقِ لِإِنْسَانِيَّةِ الْإِنْسَانِ... وَمَفْرِقَ الطَّرِيقِ بَيْنَ الْإِنْسَانِيَّةِ فِي حَقِيقَتِهَا الْعُلْيَا الَّتِي أَرَادَهَا اللهُ الرَّبُّ لِعِبَادِهِ،

---

(١) الْقُلَّةُ: الْجَرَّةُ الَّتِي يُوضَعُ بِهَا الْمَاءُ، وَهِيَ الْمَصْنُوعَةُ مِنَ الْمَدَرِ.

(٢) ابن ماجه برقم (٤٠١٠)، وحسن إسناده البوصيري في زوائد ابن ماجه، وابن حبان في صحيحه (١١ / ٤٤٣)، وقال الأرناؤوط: "حديث قوي بشواهده".

وَالصُّوَرِ الْمُشَوَّهَةِ الْمُنْحَرِفَةِ الَّتِي تَبْغِي الْحَيَاةَ عِوَجًا، وَتُصِرُّ عَلَى مُنَاقَشَةِ الْقَضَايَا عِنَادًا فِي الطَّرْحِ وَعَرَجًا يَوْمَ الدِّينِ هُوَ يَوْمُ الْجَزَاءِ الْكَامِلِ عَلَى الْمَسْؤُولِيَّةِ الْإِنْسَانِيَّةِ فِي الدُّنْيَا، وَاسْتِحْضَارُ ذَلِكَ مُقَدَّمٌ عَلَى اسْتِحْضَارِ مَدَى تَحَقُّقِ الِانْتِصَارِ أَوِ السَّلَامَةِ الدُّنْيَوِيَّةِ عِنْدَ الْمُوَاجَهَاتِ السِّيَاسِيَّةِ وَالثَّقَافِيَّةِ وَالْعَسْكَرِيَّةِ.

فَاسْمَعْ مَثَلًا كَيْفَ وَصَفَ اللهُ ﷻ الْمُؤْمِنِينَ بِالْحِسَابِ، الْقَلِقِينَ مِنْ تَبِعَاتِ الْمَسْؤُولِيَّةِ فِي اخْتِبَارِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا بِأَنَّهُمُ الْبَنَّاؤُونَ الْحَقِيقِيُّونَ لِلْعَالَمِ، فَهُمْ لُبُّ الْمُجْتَمَعَاتِ، وَقَادَةُ الْعِلْمِ الْحَقِيقِيِّ الْحَافِظِ لِأَمْنِهَا فَقَالَ عَنْهُمْ: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾ [الرعد:١٩ - ٢١]، فَالْمُؤْمِنُ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ يَعِيشُ مُشْفِقًا مِنْ حِسَابِ يَوْمِ الدِّينِ، فَيَقْطَعُ هَذَا عَنْهُ الْوَسَاوِسَ الشَّهْوَانِيَّةَ الَّتِي تُسَوِّلُ لَهُ انْتِهَاكَ الْحُرُمَاتِ، أَوْ تَدْمِيرَ الْمُجْتَمَعَاتِ، لِأَجْلِ الْمَنَاصِبِ أَوِ الْأَمْوَالِ أَوِ الرِّئَاسَةِ، وَلِذَا قَالَ عَبْدُ الْأَعْلَى التَّيْمِيُّ ﷺ: «شَيْئَانِ قَطَعَا عَنِّي لَذَاذَةَ الدُّنْيَا: ذِكْرُ الْمَوْتِ، وَالْوُقُوفُ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ ﷻ»(١).

إِنَّهُ يَوْمُ الدِّينِ أَعْظَمُ حَلٍّ حَقِيقِيٍّ لِإِيقَافِ الِاسْتِنْزَافِ الْإِجْرَامِيِّ الَّذِي يَعِيشُهُ الْإِنْسَانُ الْمَادِّيُّ الشَّهْوَانِيُّ الَّذِي يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ عِنْدَمَا تَغِيبُ عَنْهُ أَعْيُنُ الرُّقَبَاءِ ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق: ١٤].

إِنَّهُ يَوْمُ الدِّينِ أَقْوَى طَرِيقَةٍ لِإِيقَافِ الْفَسَادِ الْمَالِيِّ وَالْإِدَارِيِّ الَّذِي تُعَانِي مِنْهُ الْمُجْتَمَعَاتُ بِسَبَبِ الِاحْتِيَالِ عَلَى الْقَوَانِينِ، أَوْ بِسَبَبِ ظَنِّ الْقُوَى الْمُجْرِمَةِ الْمُسْتَكْبِرَةِ أَنَّهَا صَانِعَةُ النُّظُمِ

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٥/ ٨٨، ٨٩).

وَالْقَوَانِينِ، وَأَنَّهَا فَوْقَ الْمُحَاسَبَةِ: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين:٤-٦].

أَيْنَ الْأَفَّاكُونَ الْمُفْتَرُونَ الْقَائِلُونَ: الدِّينُ أَفْيُونُ الشُّعُوبِ؟

وَلَكِنْ مَهْلًا! فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ قد يَتَبَادَرُ السُّؤَالُ إِلَى ذِهْنِكَ -أَيَّدَكَ اللهُ-: لِمَاذَا قَيَّدَ اللهُ الْعَظِيمُ مُلْكَهُ وَمَالِكِيَّتَهُ بِيَوْمِ الدِّينِ مَعَ أَنَّهُ مَلِكُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَالِكُهُمَا؟

وَالْجَوَابُ: لِتَقْرِيرِ حَقِيقَتَيْنِ:

الْحَقِيقَةُ الْأُولَى: لِتَعْظِيمِ يَوْمِ الدِّينِ:

فَهُوَ لَمْ يَذْكُرِ الدُّنْيَا فَكَأَنَّهَا لَا تُسَاوِي شَيْئًا أَمَامَهُ، وَلِذَا جَعَلَهُ اللهُ ثَانِيَ أَهَمِّ الْأُسُسِ فِي الْخِطَابِ الْإِعْلَامِيِّ وَالتَّعْلِيمِيِّ بَعْدَ الْإِيمَانِ بِاللهِ ﷻ، لِتَقُومَ عَلَيْهِ تَرْبِيَةُ الْمُجْتَمَعِ فِي الْخِطَابِ الدَّاخِلِيِّ وَالْخِطَابِ الْعَالَمِيِّ؛ إِذْ يَتَرَتَّبُ عَلَى مَعْرِفَةِ يَوْمِ الدِّينِ الْمُسْتَقْبَلُ الصَّادِقُ، وَالْحَيَاةُ الْحَقِيقِيَّةُ: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤]، فقوله: ﴿لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ أَيْ: لَهِيَ الْحَيَاةُ الْحَقِيقِيَّةُ الَّتِي لَا زَوَالَ فِيهَا وَلَا انْقِطَاعَ، فَاللهُ مَالِكُ الدُّنْيَا وَمَلِكُهَا، إِلَّا أَنَّ الدُّنْيَا لَا تُسَاوِي شَيْئًا مُقَارَنَةً بِالدَّارِ الْآخِرَةِ، وَلِذَا قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ إِسْمَاعِيلُ الْمُقْرِي رحمه الله:

إِلَى كَمْ تَمَادَى فِي غُرُورٍ وَغَفْلَةٍ ... وَكَمْ هَكَذَا نَوْمٌ إِلَى غَيْرِ يَقْظَةِ
لَقَدْ ضَاعَ عُمْرٌ، سَاعَةٌ مِنْهُ تُشْتَرَى ... بِمِلْءِ السَّمَا وَالْأَرْضِ أَيَّةَ ضَيْعَةِ
أَيُنْفَقُ هَذَا فِي هَوَى هَذِهِ الَّتِي ... أَبَى اللهُ أَنْ تُسْوَى جَنَاحَ بَعُوضَةِ
أَتَرْضَى مِنَ الْعَيْشِ الرَّغِيدِ وَعِيشَةٍ ... مَعَ الْمَلَإِ الْأَعْلَى بِعَيْشِ الْبَهِيمَةِ

أَفَانٍ بِبَاقٍ تَشْتَرِيهِ سَفَاهَةً وَسُخْطًا بِرِضْوَانٍ، وَنَارًا بِجَنَّةِ[1]

وَلَيْسَ هَذَا بِمَنأَى عَمَّا أَسْلَفْنَاهُ مِنْ بَيَانٍ لِدَوْرِ الْإِيمَانِ بِيَوْمِ الْجَزَاءِ فِي إِعْلَاءِ شَأْنِ الْحَيَاةِ وَتَزْكِيَةِ مَنَاحِيهَا، وَفِي تَجْسِيدِ الْإِحْسَانِ نَهْجًا لِتَطْوِيرِهَا وَإِنْمَائِهَا. فَمَا انْفَصَلَ فِي شَرِيعَتِنَا قَطُّ دِينٌ عَنْ دُنْيَا، وَلَا آخِرَةٌ عَنْ أُولَى.

إِنْ هِيَ إِلَّا رِحْلَةٌ دُنْيَوِيَّةٌ صَوْبَ أُخْرَوِيَّةٍ خَالِدَةٍ، رِحْلَةٌ تَقْتَضِي مِنْ عَابِرِهَا اسْتِقَامَةَ السَّيْرِ عَلَى هُدَى مَنْ شَرَعَ لَهَا الْآدَابَ وَرَسَمَ لَهَا الْحُدُودَ، فَيُوثِّقُ عُرَى الصِّلَةِ بِخَالِقِهِ، وَيُبْدِعُ فِي عِمَارَةِ الْأَرْضِ اسْتِجَابَةً لِعَهْدِ الِاسْتِخْلَافِ، وَيُزَكِّي تَعَامُلَهُ مَعَ إِخْوَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ جَمْعَاءَ.

الْحَقِيقَةُ الثَّانِيَةُ: لِبَيَانِ الْمَفْهُومِ الْإِسْلَامِيِّ الْعَظِيمِ فِي حُرِّيَّةِ الْإِرَادَةِ وَالِاخْتِيَارِ الْبَشَرِيِّ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ أَعْطَى شَيْئًا مِنَ الْمُلْكِ وَالْمِلْكِ لِلْبَشَرِ قَبْلَ يَوْمِ الدِّينِ اخْتِبَارًا:

وَمِنْ أَهَمِّ مَظَاهِرِ الْمُلْكِ الَّذِي أَعْطَاهُ لِلْبَشَرِ: الْإِرَادَةُ وَالِاخْتِيَارُ، وَالتَّحَكُّمُ بِبَعْضِ الْمَظَاهِرِ مِنْ قِبَلِ الْأَخْيَارِ وَالْأَشْرَارِ، وَلِاسْتِمْتَاعِ الْبَشَرِ بِهِبَةِ الِاخْتِيَارِ صَنَعُوا الْحَيَاةَ الَّتِي أَرَادُوهَا خِلَالَ فَتْرَةِ الِاخْتِبَارِ، فَرَأَيْنَا مِنْهُمْ مَنْ قَامَ، فَقَالَ مُمْتَلِئًا بِالْكِبْرِ وَالْإِثْمِ وَالْإِجْرَامِ: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات:٢٤]، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ مَقَالَةَ الْمُتَبَخْتِرِ الْمُخْتَالِ: ﴿أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص: ٧٨]، وَمِنْهُمْ مَنِ اخْتَارَ سُبُلَ السَّلَامِ، فَأَحْسَنَ وَأَجْمَلَ وَقَالَ مَقَالَةَ الْأَخْيَارِ الْكِرَامِ: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ [طه: ٨٤]، وَمِنْهُمْ مَنْ رَدَّدَ وَهُوَ يَشْعُرُ فِي طَاعَةِ رَبِّهِ ﷻ بِأَنْوَاعِ التَّلَذُّذِ وَالْمُتْعَةِ الَّتِي تَفُوقُ الْحَدَّ:

وَلَسْتُ أُبَالِي حِينَ أُقْتَلُ مُسْلِمًا عَلَى أَيِّ شِقٍّ كَانَ لِلَّهِ مَصْرَعِي

---

(١) ديوان إسماعيل بن أبي بكر المقري (ص ٦٠، ٦١).

وَذَلِكَ فِي ذَاتِ الْإِلَهِ وَإِنْ يَشَأْ يُبَارِكْ عَلَى أَوْصَالِ شِلْوٍ مُمَزَّعِ[1]

أَمَّا يَوْمُ الْقِيَامَةِ فَيُسْلَبُ عَنْهُمْ ذَلِكَ كُلُّهُ، فَلَا مُلْكَ لَهُمْ حَتَّى عَلَى أَعْضَائِهِمْ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ الْحَقِّ: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥]، وَلِذَا لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ شَيْئًا ذَلِكَ الْيَوْمَ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]، فَالْمُلْكُ يَوْمَ الدِّينِ لِلهِ خَالِصًا دُونَ جَمِيعِ خَلْقِهِ حَيْثُ ﴿لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٥، ٣٦]، بِخِلَافِ حَالَتِهِمْ فِي الدُّنْيَا.

وَقَدْ قِيلَ: عَظَمَةُ الْمُلْكِ وَقُوَّتُهُ عَلَى أَرْبَعَةِ أَقْسَامٍ: مُلْكُ الْمُلَّاكِ، وَمُلْكُ الْمُلُوكِ، وَمُلْكُ الْمَلَائِكَةِ، وَمُلْكُ مَلِكِ الْمُلَّاكِ وَالْمُلُوكِ وَالْمَلَائِكَةِ.

فَمُلْكُ الْمُلُوكِ أَقْوَى مِنْ مُلْكِ الْمُلَّاكِ، لِأَنَّهُ لَوِ اجْتَمَعَ عَالَمٌ مِنَ الْمَالِكِينَ فَإِنَّهُمْ لَا يُقَاوِمُونَ مَلِكًا وَاحِدًا، وَمُلْكُ الْمَلَائِكَةِ أَقْوَى مِنْ مُلْكِ الْمُلُوكِ، لِأَنَّ عَالَمًا مِنْ أَكَابِرِ الْمُلُوكِ لَا يُمْكِنُهُمْ دَفْعُ قُوَّةِ مَلَكٍ وَاحِدٍ، وَمُلْكُ مَلِكِ الْمُلُوكِ أَقْوَى مِنْ مُلْكِ الْمَلَائِكَةِ، أَلَمْ تَسْمَعْ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ: ٣٨]، وقَالَ فِي صِفَةِ الْمَلَائِكَةِ: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

فَيَا أَيُّهَا الْمُلُوكُ، لَا تَغْتَرُّوا بِمَا لَكُمْ مِنَ الْمَالِ وَالْمُلْكِ، فَإِنَّكُمْ أَسْرَى فِي قَبْضَةِ قُدْرَةِ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ.

---

(١) البخاري ٤/ ٨٣، ممزع: قِطْعَة من لحْمَة مقطعَة مفرقة. انظر: مشارق الأنوار على صحاح الآثار (١/ ٣٧٨)

وَيَا أَيُّهَا الرَّعِيَّةُ، إِذَا كُنْتُمْ تَخَافُونَ سِيَاسَةَ الْمَلِكِ، أَفَمَا تَخَافُونَ حُكْمَ مَلِكِ الْمُلُوكِ الَّذِي هُوَ ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾؟[1].



(١) تفسير الرازي١/ ٢٠٥.

الْحَقَائِقُ الَّتِي تُبْرِزُهَا الْآيَاتُ الْأَرْبَعُ الْأُولَى مِنْ سُورَةِ (الْفَاتِحَةِ):

إِنَّ «الْفَاتِحَةَ هِيَ الْبِنَاءُ لِلنَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ، وَالشِّفَاءُ مِنَ الْأَمْرَاضِ وَالْأَدْوَاءِ بِالثَّنَاءِ عَلَى أَرْحَمِ الرُّحَمَاءِ»، وَالْمَقَاصِدُ الْأَرْبَعَةُ السَّابِقَةُ تُمَثِّلُ أَقْوَى الْمَقَاصِدِ الْفِكْرِيَّةِ الَّتِي تَبْنِي الْعَقْلِيَّةَ الْإِنْسَانِيَّةَ، فَالْبَشَرِيَّةُ تَحْتَاجُ إِلَيْهَا احْتِيَاجَ الْعَطْشَانِ لِلْمَاءِ، وَتَفْتَقِرُ إِلَيْهَا افْتِقَارَ التَّائِهِ الْخَائِفِ الْحَيْرَانِ الْمُحْتَاجِ لِمَنْ يُعِينُهُ فِي الظَّلْمَاءِ، وَتَحْتَوِي تِلْكَ الْمَقَاصِدُ عَلَى الْحَقَائِقِ الْآتِيَةِ:

الْحَقِيقَةُ الْأُولَى: احْتَوَتْ تِلْكَ الْمَقَاصِدُ عَلَى أَعْظَمِ بَصَائِرِ التَّنْزِيلِ الْقُرْآنِيِّ الَّتِي تَرْسُمُ الْخَرِيطَةَ الْحَقِيقِيَّةَ لِلْحَيَاةِ الْإِنْسَانِيَّةِ:

وَالْبَيَانُ الْوَافِي لَهَا يُوجَدُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ لَا فِي الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ الْمُحَرَّفَةِ، وَلَا فِي الْمَشَارِيعِ الدَّوْلِيَّةِ الْبَشَرِيَّةِ الْوَضْعِيَّةِ الْمُزَيَّفَةِ، وَيُمْكِنُ أَنْ نُلَخِّصَ هَذِهِ الْخَرِيطَةَ الْحَقِيقِيَّةَ فِي الْبَصَائِرِ الْكُلِّيَّةِ الْآتِيَةِ:

الْبَصِيرَةُ الْأُولَى: قَاعِدَةُ (التَّوْحِيدِ الْمُقْتَرِنِ بِأَعْظَمِ التَّمْجِيدِ)، وَنَجِدُ هَذِهِ الْبَصِيرَةَ فِي الْآيَاتِ الْأَرْبَعِ الْأُوَلِ، وَيَتَرَتَّبُ عَلَيْهَا حُقُوقُ الْمَعْبُودِ وَحُقُوقُ الْعَبِيدِ.

الْبَصِيرَةُ الثَّانِيَةُ: تَرْبِيَةُ اللهِ تَعَالَى لِلْعَالَمِ، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

الْبَصِيرَةُ الثَّالِثَةُ: الرَّحْمَةُ الْإِلَهِيَّةُ هِيَ سِرُّ ابْتِدَاءِ الْكَوْنِ وَغَايَةُ انْتِهَائِهِ، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

الْبَصِيرَةُ الرَّابِعَةُ: حَتْمِيَّةُ الْمَصِيرِ الْعَادِلِ الَّذِي يَعْقُبُهُ الْخُلُودُ، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾.

وَمِنْ خِلَالِ هَذَا الْمَقْصِدِ تَظْهَرُ الْإِجَابَةُ الْوَاضِحَةُ عَنِ التَّسَاؤُلَاتِ الْكَوْنِيَّةِ الْكُبْرَى: (مِنْ أَيْنَ؟ وَإِلَى أَيْنَ؟ وَلِمَاذَا؟)، وَهَذِهِ الْأَسْئِلَةُ هِيَ الَّتِي بِسَبَبِ عَدَمِ مَعْرِفَتِهَا يُلْحِدُ الضَّالُّونَ، وَيَضِلُّ التَّائِهُونَ.

الْحَقِيقَةُ الثَّانِيَةُ: احْتَوَتْ هَذِهِ الْمَقَاصِدُ عَلَى أَعْظَمِ الثَّنَاءِ الْإِلَهِيِّ الَّذِي يُمْكِنُ أَنْ يَقُولَهُ الْأَنْبِيَاءُ:

فَاللهُ -تَقَدَّسَ مَجْدُهُ- ذَكَرَ فِي الْحَدِيثِ الْقُدُسِيِّ أَنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ الْأَرْبَعَ تَحْتَوِي عَلَى الثَّنَاءِ عَلَيْهِ: حَيْثُ قَالَ: «إِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قَالَ اللهُ تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قَالَ اللهُ تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي».

وَقَدِ اخْتَارَ اللهُ ﷻ كَلِمَاتِ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ لِتَكُونَ مُقَدِّمَةَ كِتَابِهِ فِي التَّعْرِيفِ بِهِ، وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ -جَلَّ اسْمُهُ-: وَمِنْهَا يَتَعَلَّمُ عَبْدُهُ كَيْفَ يُثْنِي عَلَيْهِ، وَحَسْبُكَ بِذَلِكَ مَكْرُمَةً لِلْإِنْسَانِيَّةِ، فَهَذَا خَطِيبُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، سَيِّدُ الْفُصَحَاءِ، وَإِمَامُ الْبُلَغَاءِ، لَمَّا سَمِعَ حَمْدَهُ -تَعَالَى- لِنَفْسِهِ، وَمَدْحَهُ -سُبْحَانَهُ- لِحَقِّهِ، عَلِمَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ مُنْتَهَى الْعِلْمِ أَنْ يَقُولَ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ: «لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ»[1].

أَسْمَاءُ اللهِ ﷻ فِي سُورَةِ الْفَاتِحَةِ:

وَهُنَا سُؤَالٌ يَضَعُ نَفْسَهُ: إِذَا كَانَ اللهُ ﷻ قَدْ أَثْنَى عَلَى نَفْسِهِ فِي سُورَةِ الْفَاتِحَةِ، فَمَا أَسْمَاؤُهُ الَّتِي أُثْنِيَ عَلَيْهِ بِهَا؟ وَكَيْفَ كَانَتْ هَذِهِ الْأَسْمَاءُ هِيَ أُصُولَ أَسْمَاءِ اللهِ ﷻ كُلِّهَا؟

---

(١) مسلم (٢/ ٥١).

لَقَدْ ذَكَرَ اللهُ -تَعَالَى- فِي نِصْفِ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ الْأَوَّلِ سِتَّةَ أَسْمَاءٍ هِيَ أُصُولُ أَسْمَائِهِ -جَلَّ فِي عُلَاهُ- وَقَابَلَهَا فِي نِصْفِهَا الثَّانِي بِسِتَّةِ أَحْوَالٍ لِلْعَبْدِ:

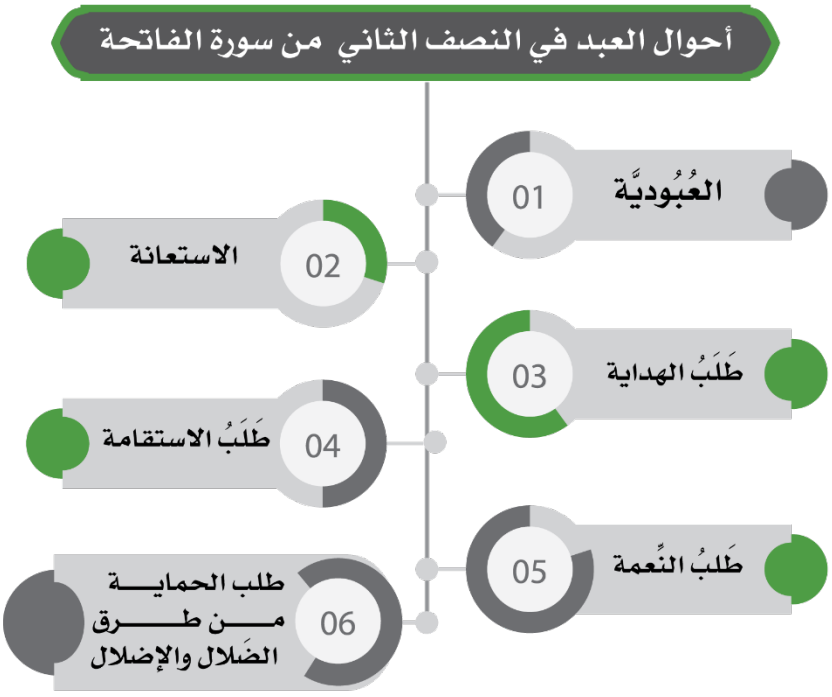
أَمَّا أَسْمَاؤُهُ السِّتَّةُ الْمَذْكُورَةُ فِي الْفَاتِحَةِ فَتَرْجِعُ جَمِيعُ الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى وَالصِّفَاتِ الْعُلَى إِلَيْهَا:

الِاسْمُ الْأَوَّلُ: ﴿ٱللَّهِ﴾: وَرَدَ هَذَا الِاسْمُ فِي الْآيَةِ الْأُولَى (الْبَسْمَلَةِ)، وَفِي الْآيَةِ الثَّانِيَةِ (الْحَمْدَلَةِ)، وَتَرْجِعُ إِلَيْهِ جَمِيعُ الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى، وَمِنْهَا أَسْمَاءُ الْإِلَهِيَّةِ الْحَقَّةِ كَالْوَاحِدِ الْأَحَدِ.

الِاسْمُ الثَّانِي، وَالِاسْمُ الثَّالِثُ: الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ: وَرَدَ هَذَانِ الِاسْمَانِ مَرَّتَيْنِ فِي الْبَسْمَلَةِ وَفِي الْآيَةِ الثَّالِثَةِ، وَتَرْجِعُ إِلَيْهِمَا جَمِيعُ أَسْمَاءِ الرَّحْمَةِ وَاللُّطْفِ: كَاللَّطِيفِ، وَالْحَلِيمِ، وَالْوَدُودِ، وَالرَّؤُوفِ، وَالْوَهَّابِ، وَالرَّزَّاقِ، وَالْغَفَّارِ، وَالْغَفُورِ.

الِاسْمُ الرَّابِعُ: رَبُّ الْعَالَمِينَ (الرَّبُّ): وَرَدَ هَذَا الِاسْمُ الْعَظِيمُ فِي الْآيَةِ الثَّانِيَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وَتَرْجِعُ إِلَيْهِ جَمِيعُ أَسْمَاءِ التَّرْبِيَةِ: رَحْمَةً وَرِفْقًا وَوُدًّا، وَحَزْمًا وَقُوَّةً، وَحِكْمَةً وَخِبْرَةً وَعِلْمًا.

الِاسْمُ الْخَامِسُ وَالسَّادِسُ: (مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ)، وَ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ -على القراءتين-: وَتَرْجِعُ إِلَى هَذَيْنِ الِاسْمَيْنِ جَمِيعُ أَسْمَاءِ الْحُكْمِ وَالْقُوَّةِ وَالْعَدْلِ وَالْقَهْرِ وَالْفَصْلِ وَصِفَاتِهَا كَالْعَظِيمِ، وَالْكَبِيرِ، وَالْمُتَعَالِ، وَالْقَهَّارِ، وَالْجَبَّارِ، وَالْفَعَّالِ لِمَا يُرِيدُ.



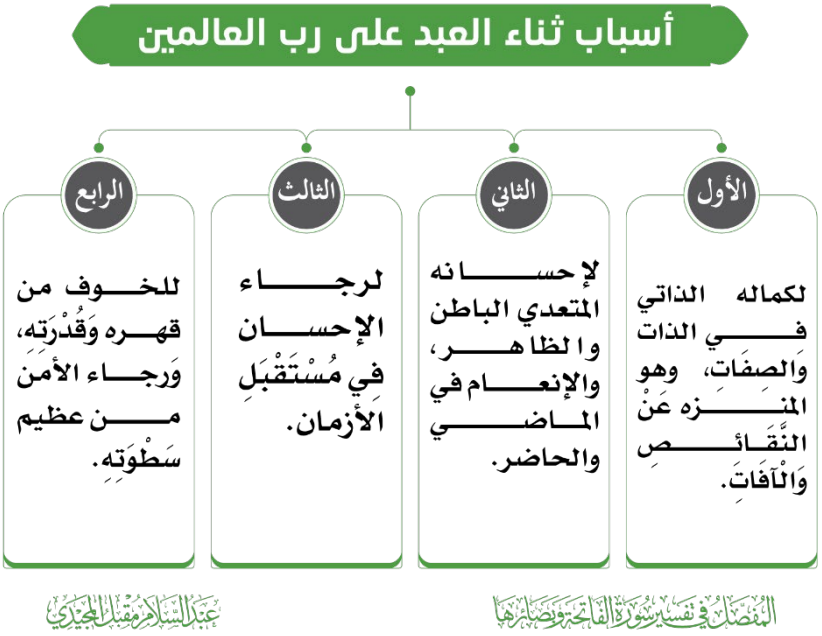
أَحْوَالُ الْعَبْدِ فِي النِّصْفِ الثَّانِي مِنْ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ:

تُقَابِلُ هَذِهِ الْأَسْمَاءُ السِّتَّةُ الْعُلْيَا سِتَّةُ أَحْوَالٍ لِلْعَبْدِ ذَكَرَهَا اللهُ ﷻ فِي النِّصْفِ الثَّانِي مِنْ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ، وَهِيَ: الْعُبُودِيَّةُ، وَالِاسْتِعَانَةُ، وَطَلَبُ الْهِدَايَةِ، وَطَلَبُ الِاسْتِقَامَةِ، وَطَلَبُ النِّعْمَةِ، وَطَلَبُ الْحِمَايَةِ مِنْ طُرُقِ الضَّلَالِ وَالْإِضْلَالِ.

وَمِنْ حِكَمِ تَرْتِيبِ الْأَسْمَاءِ السِّتَّةِ الْوَارِدَةِ فِي سُورَةِ الْفَاتِحَةِ: التَّعَرُّفُ الْكَامِلُ إِلَى اللهِ ﷻ، فَهُوَ -تَعَالَى ذِكْرُهُ- جَعَلَ الِاسْمَ الْأَوَّلَ ﴿ٱللَّهِ﴾ اسْمًا لِنَفْسِهِ، فَهُوَ مُخْتَصٌّ بِهِ مَعَ تَضَمُّنِهِ لِمَعْنَى الْإِلَهِيَّةِ الْحَقَّةِ إِذَا جَعَلْنَا الْكَلِمَةَ مُشْتَقَّةً مِنْ (إِلَهٍ)، وَجَعَلَ الْخَمْسَةَ الَّتِي أَتَتْ بَعْدَهُ أَوْصَافًا لَهُ، وَهِيَ: الرَّبُّ، وَالرَّحْمَنُ، وَالرَّحِيمُ، وَالْمَلِكُ، وَالْمَالِكُ، وَمِنْ هَذِهِ الْأَسْمَاءِ السِّتَّةِ تَنْبُثِقُ سَائِرُ

الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى وَالصِّفَاتِ الْعُلَى، وَيَتَعَرَّفُ الْعَبْدُ إِلَيْهِ تَعَالَى بِهَا، فَمَثَلًا: يُمْكِنُكَ أَنْ تَتَصَوَّرَ أَنَّ اللهَ كَأَنَّهُ يَقُولُ لَكَ: خَلَقْتُكَ أَوَّلًا فَأَنَا إِلَهٌ، وَعَرَّفْتُكَ بِي فَاسْمِي هُوَ ﴿ٱللَّهُ﴾، ثُمَّ رَبَّيْتُكَ بِوُجُوهِ النِّعَمِ فَأَنَا رَبٌّ، ثُمَّ جَعَلْتُ خِلْقَتَكَ وَنِظَامَ شَرِيعَتِكَ الَّذِي تَسِيرُ عَلَيْهِ وَفْقَ مَبْدَأِ الرَّحْمَةِ فَأَنَا رَحْمَنٌ رَحِيمٌ، ثُمَّ عَصَيْتَ فَسَتَرْتُ عَلَيْكَ فَأَنَا رَحْمَنٌ، ثُمَّ تُبْتَ فَغَفَرْتُ لَكَ فَأَنَا رَحِيمٌ، ثُمَّ لَمْ تَخْرُجْ عَنْ مُلْكِي وَسُلْطَانِي وَلَنْ تَخْرُجَ، وَسَأُوصِلُ الْجَزَاءَ إِلَيْكَ؛ فَأَنَا مَلِكُ يَوْمِ الدِّينِ، وَمَالِكُهُ.

الْحَقِيقَةُ الثَّالِثَةُ: جَمَعَتْ هَذِهِ الْمَقَاصِدُ أَسْبَابَ ثَنَاءِ الْعَبْدِ عَلَى أَرْحَمِ الرَّاحِمِينَ فِي أَبْهَى صُوَرِهَا:



وَيَظْهَرُ ذَلِكَ مِنْ خِلَالِ أَسْبَابِ الثَّنَاءِ. فَإِنَّكَ لَا تُثْنِي عَلَى أَحَدٍ فَتَحْمَدُهُ إِلَّا لِأَحَدِ أَسْبَابٍ أَرْبَعَةٍ:

السَّبَبُ الْأَوَّلُ: **تَحْمَدُهُ وَتُثْنِي عَلَيْهِ لِكَمَالِهِ الذَّاتِيِّ فِي الذَّاتِ وَالصِّفَاتِ**، وَهُوَ الْمُنَزَّهُ عَنِ النَّقَائِصِ وَالْآفَاتِ، وَهَذَا السَّبَبُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يُوجَدَ إِلَّا فِي رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَقَدْ أَشَارَ اللهُ ﷻ إِلَيْهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾، فَكُلُّ مَا فِي الْعَالَمِينَ مِنْ كَمَالٍ، فَهُوَ شَيْءٌ لَا يُذْكَرُ أَمَامَ كَمَالِ الْكَبِيرِ الْمُتَعَالِ، وَكُلُّ مَا فِي الْعَالَمِينَ مِنْ نُقْصَانٍ، فَاللهُ مُنَزَّهٌ عَنْهُ فَهُوَ الْعَظِيمُ الشَّانِ، وَلِذَا نَحْمَدُهُ -جَلَّ فِي عُلَاهُ- لِذَاتِهِ، وَنَحْمَدُهُ عَلَى كَمَالِ صِفَاتِهِ.

السَّبَبُ الثَّانِي: **تَحْمَدُهُ وَتُثْنِي عَلَيْهِ لِإِحْسَانِهِ الْمُتَعَدِّي الْبَاطِنِ وَالظَّاهِرِ، وَالْإِنْعَامِ فِي الْمَاضِي وَالْحَاضِرِ**، وَأَعْظَمُ الْإِحْسَانِ فِي الْحَاضِرِ إِنَّمَا تَجِدُهُ مِنَ اللهِ الْمَلِكِ الرَّحْمَنِ، فَكُلُّ ذَرَّةٍ مِنَ النِّعَمِ فَهِيَ مِنْهُ، فَهُوَ ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾، فَنَحْمَدُهُ عَلَى خَلْقِهِ لَنَا مِنَ الْعَدَمِ، وَنَحْمَدُهُ عَلَى عَظِيمِ النِّعَمِ، وَنَحْمَدُهُ عَلَى أَنْ أَعْطَانَا الْآلَاتِ وَالْوَسَائِلَ الَّتِي تُوصِلُنَا إِلَى الْإِيمَانِ بِهِ، فَهُوَ عَظِيمُ الْجُودِ وَالْكَرَمِ، وَنَحْمَدُهُ عَلَى أَنْ دَفَعَ عَنَّا النِّقَمَ، وَحَبَّبَ إِلَيْنَا الْإِيمَانَ، وَكَرَّهَ إِلَيْنَا الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ.

السَّبَبُ الثَّالِثُ: **تَحْمَدُهُ وَتُثْنِي عَلَيْهِ لِرَجَاءِ الْإِحْسَانِ فِي مُسْتَقْبَلِ الْأَزْمَانِ**، فَاللهُ هُوَ الَّذِي يَمُدُّنَا بِكُلِّ إِحْسَانٍ نَطْمَعُ أَنْ يَصِلَنَا فِي الْمُسْتَقْبَلِ الْقَرِيبِ وَالْبَعِيدِ، فَهُوَ ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾، فَنَحْمَدُهُ عَلَى أَنَّهُ دَلَّنَا عَلَى الطَّاعَةِ الَّتِي تُصْلِحُ الْجَسَدَ، وَتُعَمِّرُ الْبَلَدَ، وَتُعَالِجُ مَا فَسَدَ، ثُمَّ أَعْطَانَا الْوَسَائِلَ الْجَسَدِيَّةَ لِلْقِيَامِ بِهَا، ثُمَّ كَافَأَنَا عَلَيْهَا -جَلَّ فِي عُلَاهُ- كَمَا وَعَدَ، وَلِذَا قَالَ الصَّالِحُونَ: «إِذَا أَرَادَ أَنْ يُظْهِرَ فَضْلَهُ عَلَيْكَ، خَلَقَ وَأَعْطَى، وَنَسَبَ إِلَيْكَ»؛ أَيْ يُعْطِيكَ النِّعْمَةَ، وَيَخْلُقُ لَكَ وَسِيلَةَ الِاسْتِفَادَةِ مِنْهَا، وَيُعِينُكَ عَلَى شُكْرِهَا بِالطَّاعَةِ، ثُمَّ يَنْسُبُ إِلَيْكَ هَذِهِ الطَّاعَةَ.

السَّبَبُ الرَّابِعُ: تَحْمَدُهُ وَتُثْنِي عَلَيْهِ لِلْخَوْفِ مِنْ قَهْرِهِ وَقُدْرَتِهِ، وَرَجَاءِ الْأَمْنِ مِنْ عَظِيمِ سَطْوَتِهِ: لِأَنَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ فِي الدُّنْيَا، وَمَالِكُ يَوْمِ الدِّينِ فِي الْآخِرَةِ، فَهَذَا مِمَّا يَجْعَلُ الْإِنْسَانَ يُثْنِي عَلَيْهِ خَوْفًا مِنْ عِقَابِهِ، وَهَرَبًا مِنْ عَذَابِهِ، وَخَجَلًا مِنْ عِتَابِهِ...

اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِنْ أَعْظَمِ الْمُكَرَّمِينَ الْمُقَرَّبِينَ إِلَيْكَ، بِفَضْلِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، وَالْحَمْدُ لِلهِ حَمْدًا يُبَلِّغُنَا رِضَاهُ، وَيُجْزِلُ لَنَا بِهِ أَعْظَمَ عَطَايَاهُ، وَيَجْعَلُنَا بِهِ مَعَ نَبِيِّهِ وَمُصْطَفَاهُ.

سُؤَالٌ: مَاذَا يَعْنِي الثَّنَاءُ لِاحْتِيَاجَاتِ الْإِنْسَانِ؟

هُنَا تَأْتِي الْإِجَابَةُ فِي الْحَقِيقَةِ الرَّابِعَةِ مِنْ حَقَائِقِ هَذَا الْمَقْصِدِ الرَّابِعِ مِنْ مَقَاصِدِ الْفَاتِحَةِ.

الْحَقِيقَةُ الرَّابِعَةُ: الثَّنَاءُ عَلَى اللهِ عَلَامَةُ الِاتِّصَالِ الْأَعْظَمِ أَهَمِّيَّةً فِي حَيَاةِ الْإِنْسَانِيَّةِ:

إِنَّهُ الِاتِّصَالُ بَيْنَ اللهِ وَعِبَادِهِ.. بَيْنَ الْخَالِقِ وَالْكَوْنِ الْمَخْلُوقِ، وَهُوَ مِفْتَاحٌ مِنْ مَفَاتِيحِ إِجَابَةِ الدُّعَاءِ، فَمَنْ أَرَادَ أَنْ تُقْضَى لَهُ الْحَاجَاتُ، وَتُفَرَّجَ عَنْهُ الْكُرُبَاتُ، وَتُدْفَعَ عَنْهُ الْآفَاتُ، فَلْيُثْنِ عَلَى مُدَبِّرِ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ، وَلْيُقَدِّمْ بَيْنَ يَدَيْ طَلَبِهِ جَمِيلَ الثَّنَاءِ، وَطَيِّبَ الْحَمْدِ؛ لِيُجَابَ لَهُ الدُّعَاءُ، فَإِذَا كُنْتَ مَرِيضًا وَقَصَدْتَ طَبِيبًا مُتَخَصِّصًا ذَا سُمْعَةٍ جَيِّدَةٍ، فَإِنَّكَ تُثْنِي عَلَيْهِ، لِيَرْفُقَ بِكَ، وَيَهْتَمَّ بِمُعَالَجَةِ مَرَضِكَ، وَتَقُولُ لَهُ طَالِبًا اهْتِمَامَهُ وَعِنَايَتَهُ: أَتَيْتُكَ لِشُهْرَتِكَ، وَمَعْرِفَتِكَ، وَقَصَدْتُكَ دُونَ بَقِيَّةِ الْأَطِبَّاءِ، فَانْظُرْ إِلَى هَذَا الدَّاءِ.

كُلُّ هَذَا الثَّنَاءِ تُقَدِّمُهُ لِبَشَرٍ، فَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ تُفْتَحَ لَكَ خَزَائِنُ الْخَيْرِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَانْظُرْ إِلَى مَنْ بِيَدِهِ مَقَالِيدُ الْبَشَرِ، وَلَهُ الْأَمْرُ الظَّاهِرُ وَالْمُسْتَتِرُ، وَهُوَ مَالِكُ الْقُوَى وَالْقُدَرِ، فَهُوَ الطَّبِيبُ عَلَى الْحَقِيقَةِ -جَلَّ فِي عُلَاهُ-، فَعَنْ أَبِي رِمْثَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: أَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ مَعَ أَبِي فَرَأَى الَّتِي بِظَهْرِهِ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَلَا أُعَالِجُهَا لَكَ، فَإِنِّي طَبِيبٌ. قَالَ: «أَنْتَ رَفِيقٌ، وَاللهُ

الطَّبِيبُ»[1]، وَعِنْدَ ثَنَائِكَ عَلَيْهِ تَحْظَى بِمَحَبَّتِهِ؛ لِأَنَّ اللهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ الْمُتَمَلِّقَ لَهُ، فَعَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «ثَلَاثَةٌ يُحِبُّهُمُ اللهُ -وَذَكَرَ مِنْهُمْ- وَقَوْمٌ سَارُوا لَيْلَتَهُمْ حَتَّى إِذَا كَانَ النَّوْمُ أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِمَّا يُعْدَلُ بِهِ نَزَلُوا فَوَضَعُوا رُؤُوسَهُمْ، فَقَامَ يَتَمَلَّقُنِي، وَيَتْلُو آيَاتِي»[2]، وعن ابنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «وَلَا أَحَدَ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْمِدْحَةُ مِنَ اللهِ؛ فَلِذَلِكَ مَدَحَ نَفْسَهُ»[3].

فَالثَّنَاءُ عَلَى اللهِ -تَعَالَى ذِكْرُهُ- مِنْ أَهَمِّ مَقَاصِدِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، فَاللهُ سَمَّى بِأَسْمَائِهِ الْمُبَارَكَةِ أَرْبَعَ سُوَرٍ: سُورَةَ فَاطِرٍ، وَسُورَةَ غَافِرٍ، وَسُورَةَ الرَّحْمَنِ، وَسُورَةَ الْأَعْلَى، وَقَرِيبٌ مِنْهَا سُورَةُ الْمُلْكِ (فَالْمُلْكُ مِنْ صِفَاتِهِ سُبْحَانَهُ)، وَأَنْزَلَ سَبْعًا مِنَ السُّوَرِ تُسَمَّى الْمُسَبِّحَاتِ بِدَايَتُهَا التَّسْبِيحُ لِلهِ تَعَالَى، كَمَا جَعَلَ خَمْسًا مِنَ السُّوَرِ بِدَايَاتُهَا الْحَمْدُ هِيَ الْمُحَمَّدَاتُ، وَكُلُّ ذَلِكَ لِبَيَانِ مَنْزِلَةِ الثَّنَاءِ عَلَى رَبِّ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ، فَمِنْهُ يُسْتَمَدُّ كُلُّ عَطَاءٍ، وَتَنْزِلُ كُلُّ نَعْمَاءَ.

وَلِلهِ دَرُّ الْقَائِلِ مَا أَعْذَبَ قَوْلَهُ:

يَا رَبِّ عُدْتُ إِلَى رِحَابِكَ تَائِبًا ... مُسْتَسْلِمًا، مُسْتَمْسِكًا بِعُرَاكَا

---

(١) أحمد (٤/ ١٦٣)، والطبراني في الكبير (٢٢/ ٢٧٩)، وإسناده صحيح لغيره كما قال الأرناؤوط.

(٢) الترمذي٤/ ٦٩٨، وقال: "حديث صحيح"، وأحمد٥/ ١٥٣، وصححه الأرناؤوط.

(٣) البخاري٦/ ٧٤، المِدحة -بكسر الميم-: الثَّناء وَالذكر الْحسن.

مَا لِي وَمَا لِلْأَغْنِيَاءِ، وَأَنْتَ يَا رَبِّي الْغَنِيُّ، وَلَا يُحَدُّ غِنَاكَا
مَا لِي وَمَا لِلْأَقْوِيَاءِ، وَأَنْتَ يَا رَبِّي وَرَبَّ النَّاسِ، مَا أَقْوَاكَا
مَا لِي وَأَبْوَابَ الْمُلُوكِ، وَأَنْتَ مَنْ خَلَقَ الْمُلُوكَ، وَقَسَّمَ الْأَمْلَاكَا
إِنِّي أَوَيْتُ لِكُلِّ مَأْوًى فِي الْحَيَاةِ فَمَا رَأَيْتُ أَعَزَّ مِنْ مَأْوَاكَا
وَتَلَمَّسَتْ نَفْسِي السَّبِيلَ إِلَى النَّجَاةِ فَلَمْ تَجِدْ مَنْجًى سِوَى مَنْجَاكَا
وَبَحَثْتُ عَنْ سِرِّ السَّعَادَةِ جَاهِدًا فَوَجَدْتُ هَذَا السِّرَّ فِي تَقْوَاكَا

***

جِسْرُ اتِّصَالٍ: بَعْدَ أَنِ اتَّضَحَتِ الْخَرِيطَةُ الْكَامِلَةُ لِلْوُجُودِ الْمَخْلُوقِ زَمَانًا وَمَكَانًا، حَالًا وَمَآلًا، فَعَرَفْنَا الْجَوَابَ عَنِ السُّؤَالَيْنِ الْوُجُودِيَّيْنِ الْكَبِيرَيْنِ: (مِنْ أَيْنَ جِئْنَا؟)، وَ(إِلَى أَيْنَ نَذْهَبُ؟)، فَاللهُ -جَلَّ مَجْدُهُ- سَيُجَازِيهِمْ يَوْمَ الدِّينِ عَلَى نِظَامِ حَيَاتِهِمْ وَأَعْمَالِهِمُ الَّتِي عَمِلُوهَا فِي الدُّنْيَا، وَهُنَا يَأْتِي السُّؤَالُ الْوُجُودِيُّ الثَّالِثُ: فَمَا الْمَطْلُوبُ مِنْ أَجْلِ تَحْقِيقِ السَّعَادَةِ وَالْفَوْزِ يَوْمَ الدِّينِ؟

الْجَوَابُ: هُنَا يَأْتِي:

الْمَقْصِدُ الْخَامِسُ

التَّعْرِيفُ بِوَظِيفَةِ الْعَالَمِينَ، وَهِيَ الِالْتِزَامُ بِأَنْظِمَةِ الْعِبَادَةِ الْمُوَحِّدَةِ لِلهِ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، وَذَلِكَ لِتَحْقِيقِ السَّعَادَةِ فِي الْحَيَاتَيْنِ، وَالْعِبَادَةُ تَشْمَلُ كُلَّ عَمَلٍ صَالِحٍ نَعْمُرُ بِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا، وَالْحَيَاةَ الْآخِرَةَ، وَهِيَ الشِّفَاءُ مِنْ أَمْرَاضِ الشِّرْكِ وَالْفَسَادِ وَالرِّيَاءِ، وَهِيَ وَسِيلَةُ التَّطَهُّرِ مِنَ الْأَرْجَاسِ الثَّقَافِيَّةِ وَالْفِكْرِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ

بَعْدَ أَنِ اتَّضَحَتِ الْخَرِيطَةُ الْوُجُودِيَّةُ الْكَامِلَةُ لِلْوُجُودِ الْمَخْلُوقِ زَمَانًا وَمَكَانًا، يَأْتِي الْكَلَامُ عَنِ الْخَرِيطَةِ الْوَظِيفِيَّةِ؛ جَوَابًا عَنْ سُؤَالِ: مَا الْمَطْلُوبُ لِلْفَوْزِ بِالْجَزَاءِ الْحَسَنِ يَوْمَ الدِّينِ، وَاكْتِسَابِ الْخُلُودِ الْعَظِيمِ عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَ؟ فَيَصِفُ اللهُ ﷻ ذَلِكَ مِنْ خِلَالِ الْمَقْصِدِ الْخَامِسِ الَّذِي يَظْهَرُ فِي الْآيَةِ الْخَامِسَةِ، وَيُمْكِنُ اخْتِصَارُ ذَلِكَ الْمَطْلُوبِ لِتَحْقِيقِ الْفَوْزِ وَالْفَلَاحِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي: الِاسْتِقَامَةِ عَلَى أَنْظِمَةِ الْعِبَادَةِ لِتَحْقِيقِ السَّعَادَةِ، وَنَسْتَنْبِطُ ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، فَهِيَ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْوَظِيفَةَ الْوُجُودِيَّةَ لِلْبَشَرِيَّةِ مُكْتَنَزَةٌ فِي الْمِنْهَاجِ الْعِبَادِيِّ، وَيَنْتَمِي لِهَذَا الْمَقْصِدِ الْبَصَائِرُ الْكُلِّيَّةُ الْآتِيَةُ:

المقصد الخامس

التعريف بوظيفة العالمين، وهي: الالتزام بأنظمة العبادة الخالصة لله عز وجل؛ وذلك لتحقيق السعادة في الحياتين، ويبصِّرنا بذلك قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: 5]

بصيرة 01

(العبادة) هي البرنامج الحياتي العملي الذي يدل على صدق التوحيد.

بصيرة 02

نظام العبادة: تشريعٌ إلهيٌّ ينظِّمُ الحياة، ويجلب السعادةَ للإنسانية.

بصيرة 03

(العبادة) هي طريق البشرية الوحيد للتحرر الحقيقي، وتحقيق السيادة والريادة المسترشدة بنور الهداية.

الْبَصِيرَةُ الْأُولَى

الْعِبَادَةُ هِيَ الْبَرْنَامَجُ الْحَيَاتِيُّ الْعَمَلِيُّ الَّذِي يَدُلُّ عَلَى صِدْقِ التَّوْحِيدِ

وَهُنَا نَبْتَدِئُ هَذِهِ الْبَصِيرَةَ بِسُؤَالٍ: لِمَاذَا قَدَّمَ اللهُ ﷻ الْمَفْعُولَ عَلَى الْفِعْلِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ؟

لَقَدْ حَصَرَ اللهُ ﷻ الْعِبَادَةَ الْقَائِمَةَ عَلَى التَّوْحِيدِ بِهِ حَيْثُ قَدَّمَ الْمَفْعُولَ ﴿إِيَّاكَ﴾ عَلَى الفِعْلِ ﴿نَعْبُدُ﴾؛ لِإِفَادَةِ انْحِصَارِ الْعِبَادَةِ فِيهِ وَلَهُ -جَلَّ مَجْدُهُ-، وَأَمَّا الِاتِّصَالُ بِمَا قَبْلَهُ فَبِمَا أَنَّنَا عَرَفْنَا الْجَوَابَ عَنِ السُّؤَالَيْنِ الْوُجُودِيَّيْنِ الْكَبِيرَيْنِ: مِنْ أَيْنَ جِئْنَا؟، وَإِلَى أَيْنَ نَذْهَبُ؟، يَبْقَى الْجَوَابُ عَلَى السُّؤَالِ الثَّالِثِ: لِمَاذَا؟ لِنَجِدَ أَنَّ اللهَ ﷻ فَرَضَ بَرْنَامَجًا يُبَيِّنُ وَظِيفَةَ الْحَيَاةِ الْوُجُودِيَّةِ، وَيُؤَدِّي إِلَى إِصْلَاحِ النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ، وَاسْتِقَامَةِ الْحَيَاةِ وَعَدَمِ اعْوِجَاجِهَا، وَتَحْقِيقِ الِانْسِجَامِ مَعَ بَقِيَّةِ مَخْلُوقَاتِ الْكَوْنِ وَأَنْظِمَتِهِ، وَيَتَلَخَّصُ هَذَا الْبَرْنَامَجُ فِي الْمِنْهَاجِ الْعِبَادِيِّ الْقَائِمِ عَلَى تَوْحِيدِ الْأُلُوهِيَّةِ، وَيَتِمُّ الْجَزَاءُ ﴿يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ بِنَاءً عَلَى الْقِيَامِ بِهَذَا الْبَرْنَامَجِ وَالِالْتِزَامِ بِتَفَاصِيلِهِ، فَمَنْ عَرَفَ تَوْحِيدَ الرُّبُوبِيَّةِ فِي آيَةِ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ لَا بُدَّ أَنْ يُقِرَّ بِتَوْحِيدِ الْأُلُوهِيَّةِ فَيَقُولُ -إِنْ كَانَ يَعْقِلُ-: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

وَهَلْ هَذَا الَّذِي تُقَرِّرُهُ سُورَةُ الْفَاتِحَةِ بِدْعٌ مِنَ الْقَوْلِ؟ كَلَّا، بَلْ هِيَ تُقَرِّرُ الطَّرِيقَ الْمُسْتَقِيمَ مُنْذُ أَنْ وُجِدَتِ الْبَشَرِيَّةُ، وَهُوَ شِعَارُ الرُّسُلِ وَالرِّسَالَاتِ مُنْذُ بَدْءِ الْخَلِيقَةِ كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللهَ﴾ [النحل: ٣٦]، وهاهو ربُّنا -جَلَّ جَلَالُهُ- يقولُ لموسى عليه السلام: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى﴾ [طه: ١٤].

فَأَمَرَ اللهُ ﷻ عِبَادَهُ بِالتَّوْحِيدِ، ثُمَّ بَعْدَ التَّوْحِيدِ أَمَرَ بِالْعُبُودِيَّةِ؛ لِأَنَّ التَّوْحِيدَ أَصْلٌ، وَالْعُبُودِيَّةَ فَرْعٌ، وَالتَّوْحِيدُ شَجَرَةٌ، وَالْعُبُودِيَّةُ ثَمَرَةٌ.

فَمَعْنَى الْآيَةِ: إِيَّاكَ -رَبَّنَا- نَعْبُدُ، وَلَا نَعْبُدُ غَيْرَكَ، فَلَا نَعْبُدُ اللَّاتَ، وَلَا الْعُزَّى، وَلَا مَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى، وَلَا نَعْبُدُ هُبَلَ الْحَجَرِ، وَلَا هُبَلَ الْبَشَرِ، وَلَا فِرْعَوْنَ الْعَصْرِ الْقَدِيمِ، وَلَا فَرَاعِنَةَ الْعَصْرِ الْحَدِيثِ، وَلَا طَوَاغِيتَ الْبُيُوتِ الْحُمْرِ، وَلَا طَوَاغِيتَ الْبُيُوتِ السُّودِ، وَلَا أَوْثَانَ الْعُجُولِ الصُّفْرِ، وَلَا نَعْبُدُ الْأَمْوَالَ، وَلَا أَحَدًا مِنَ النِّسَاءِ وَالرِّجَالِ.

وَبَعْدَ الْحَصْرِ وَالْقَصْرِ فِي ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ نَجِدُ أَنَّ الْخِطَابَ مُتَوَجِّهٌ مِنَ الْعَبْدِ إِلَى رَبِّهِ حُبًّا وَتَذَلُّلًا، وَهَذَا يُعْطِينَا بُعْدًا تَوْحِيدِيًّا جَدِيدًا هُوَ عَدَمُ وُجُودِ وَاسِطَةٍ بَيْنَ اللهِ وَبَيْنَ خَلْقِهِ، فَأَنْتَ تَدْعُوهُ مُبَاشَرَةً دُونَ أَنْدَادٍ فَتَقُولُ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، وَكَأَنَّكَ فِي هَذَا الْخِطَابِ تَقُولُ:

اللَّهُمَّ لَكَ نَذِلُّ، وَبِكَ نَعِزُّ، وَإِلَيْكَ نَشْتَاقُ، وَعَلَيْكَ نَعْتَمِدُ، وَرِضَاكَ نَبْتَغِي، وَسَخَطَكَ نَخَافُ، وَعَفْوَكَ نَرْجُو، وَبِذِكْرِكَ نَطْمَئِنُّ، وَإِيَّاكَ نَعْبُدُ، وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ.

أَنَا لَسْتُ إِلَّا مُؤْمِنًا بِاللهِ فِي سِرِّي وَجَهْرِي
أَنَا نُطْفَةٌ أَصْبَحْتُ إِنْسَانًا فَكَيْفَ جَهِلْتُ قَدْرِي
أَنَا نَبْضَةٌ فِي وَسْطِ هَذَا الْكَوْنِ كَيْفَ يَضِيقُ صَدْرِي
إِنِّي لَأَعْجَبُ لِلْفَتَى فِي دَهْرِهِ، أَوَ لَيْسَ يَدْرِي
أَنَّ الْحَيَاةَ قَصِيرَةٌ، وَالْعُمْرَ كَالْأَحْلَامِ يَسْرِي

وَهُنَا نَسْأَلُ:

مَا الْمُنَاسَبَةُ الْخَاصَّةُ بَيْنَ هَذِهِ الْآيَةِ وَمَا قَبْلَهَا؟ بَيْنَ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، و﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾؟

أَنْتَ تَرَى أَنَّ قَارِئَ (الْفَاتِحَةِ) السَّعِيدَ صَرَّحَ بِمَا لِلهِ مِنَ التَّوْحِيدِ وَالتَّمْجِيدِ فِي الْآيَاتِ الْأَرْبَعِ السَّابِقَةِ: الْبَسْمَلَةِ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾، والحَمْدَلَةِ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، وَآيَةِ الرَّحْمَةِ ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾، وَآيَةِ الْمَالِكِيَّةِ وَالْمَلَكِيَّةِ ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، فَكَأَنَّهُ طُلِبَ مِنْهُ إِثْبَاتُ صِدْقِ مَا ادَّعَاهُ مِنَ التَّوْحِيدِ وَالثَّنَاءِ وَالتَّمْجِيدِ فَذَكَرَ الدَّلِيلَ الْعَمَلِيَّ عَلَى ذَلِكَ، وَهُوَ تَرْتِيبُ حَيَاتِهِ وَفْقَ مَبْدَأِ الْعُبُودِيَّةِ الْحَقَّةِ؛ لِيَنْسَجِمَ مَعَ عِبَادَةِ الْكَوْنِ لِلهِ تَعَالَى، فَهَذِهِ الْمُنَاسَبَةُ الْعَامَّةُ بَيْنَ الْآيَةِ وَمَا قَبْلَهَا.

وَأَمَّا الْمُنَاسَبَةُ الْخَاصَّةُ بِالْآيَةِ السَّابِقَةِ، فَتَذَوَّقْهَا حِينَ تَرَى الْعَبْدَ يَسْمَعُ قِصَّةَ نِهَايَةِ الْكَوْنِ الْحَاضِرِ بِقَوْلِ اللهِ -تَعَالَى ذِكْرُهُ-: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، فَيَفْهَمُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ مُنْتَقِلٌ مِنْ دَارِ الدُّنْيَا إِلَى دَارِ الْآخِرَةِ، وَمِنْ دَارِ الشُّرُورِ إِلَى دَارِ السُّرُورِ، فَيَشْعُرُ عِنْدَهَا بِالْحَذَرِ وَيَخَافُ مِنْ تَبِعَاتِ قِصَّةِ النِّهَايَةِ.

وَيَسْأَلُ: كَيْفَ يُمْكِنُهُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ يَوْمَ الدِّينِ، وَمَا الْوَاجِبُ لِلنَّجَاةِ يَوْمَ الْحِسَابِ؟ وَمَا هُوَ الزَّادُ؟ وَكَيْفَ الِاسْتِعْدَادُ؟

فَيَأْتِي الْجَوَابُ بِذِكْرِ الزَّادِ، وَكَيْفِيَّةِ الْإِعَانَةِ عَلَى الِاسْتِعْدَادِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْمِحْوَرِيَّةِ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾.

أَنْوَاعُ الرِّيَاءِ:

وَبِذَا فَإِنَّ نِظَامَ الْعِبَادَةِ فِي الْإِسْلَامِ يُمَثِّلُ الْبِنَاءَ الْحَقِيقِيَّ الْعَمَلِيَّ لِتَوْحِيدِ رَبِّ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ، وَيُشَكِّلُ الْحِصْنَ الْوَاقِيَ مِنَ الشِّرْكِ وَالرِّيَاءِ.

وَالرِّيَاءُ الَّذِي تَنْسِفُهُ هَذِهِ الْآيَةُ وَتُدَمِّرُهُ بِبُرْهَانِ الْعِبَادَةِ نَوْعَانِ:

رِيَاءُ النِّفَاقِ: وَهُوَ الْعَمَلُ لِأَجْلِ رُؤْيَةِ النَّاسِ، فَتَأْتِي هَذِهِ الْآيَةُ الْمُبَارَكَةُ مُذَكِّرَةً بِالتَّوْحِيدِ الْمُنَافِي لِلرِّيَاءِ.

وَرِيَاءُ الْعَادَةِ: وَهُوَ الْعَمَلُ بِحُكْمِهَا مِنْ غَيْرِ مُلَاحَظَةِ التَّحَقُّقِ بِمَعَانِي الْعُبُودِيَّةِ لِلهِ، وَالتَّوَجُّهِ إِلَيْهِ بِالْبَاطِنِ، وَطَلَبِ رِضَاهُ، وَنَيْلِ مَحَبَّتِهِ[1]، فَتَأْتِي هَذِهِ الْآيَةُ مُذَكِّرَةً بِالتَّوْحِيدِ الْمُنَافِي لِلْعَادَةِ الَّتِي لَا يَكُونُ مِنْهَا إِلَّا الِادِّعَاءُ بِأَنَّ الْإِنْسَانَ عَابِدٌ لِلهِ، وَهُوَ يَتَصَنَّعُ حَرَكَاتِ الْعِبَادَةِ دُونَ تَمْجِيدٍ صَادِقٍ، أَوْ اسْتِسْلَامٍ كَامِلٍ، وَإِخْلَاصٍ خَالِصٍ.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: تَبْنِي هَذِهِ الْآيَةُ قِيمَةَ الِاعْتِزَازِ بِاللهِ مِنْ خِلَالِ بِنَاءِ حِسِّ الْعُبُودِيَّةِ، فَكُلُّ مَنْ كَانَ لِلهِ أَعْبَدَ وَأَذَلَّ كَانَ عِنْدَ اللهِ أَعَزَّ وَأَجَلَّ.

وَكَمَا قِيلَ:

قَوْمٌ تَخَلَّلَهُمْ زَهْوٌ بِسَيِّدِهِمْ ... وَالْعَبْدُ يَزْهُو عَلَى مِقْدَارِ مَوْلَاهُ

تَاهُوا بِرُؤْيَتِهِ عَمَّنْ سِوَاهُ لَهُ ... يَا حُسْنَ رُؤْيَتِهِمْ فِي حُسْنِ مَا تَاهُوا

وَقَالَ الْآخَرُ:

وَمِمَّا زَادَنِي شَرَفًا وَتِيهًا ... وَأَسْكَرَنِي، وَلَمْ أَحْسُ الْحُمَيَّا

فَدُسْتُ عَلَى الْأَثِيرِ وَمَا حَوَاهُ ... وَكِدْتُ بِأَخْمُصِي أَطَأُ الثُّرَيَّا

دُخُولِي تَحْتَ قَوْلِكَ يَا عِبَادِي ... وَتَقْرِيبِي، وَإِنْ كُنْتُ الْقَصِيَّا

وَأَنْ سَوَّرْتَ بِالتَّوْحِيدِ قَلْبِي ... وَأَنْ صَيَّرْتَ أَحْمَدَ لِي نَبِيَّا

***

(١) تفسير المنار (١/ ٤٨).

جِسْرُ اتِّصَالٍ: عَرَفْنَا الْبَصِيرَةَ الْأُولَى مِنْ بَصَائِرِ الْمَقْصَدِ الْخَامِسِ مِنْ مَقَاصِدِ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ، وَهِيَ: الْعِبَادَةُ هِيَ الْبَرْنَامَجُ الْحَيَاتِيُّ الْعَمَلِيُّ الَّذِي يَدُلُّ عَلَى صِدْقِ التَّوْحِيدِ، فَمَا الْبَصِيرَةُ الثَّانِيَةُ؟

الجَوَابُ:

الْبَصِيرَةُ الثَّانِيَةُ

نِظَامُ العِبَادَةِ: تشريعٌ إلهيٌّ يُنَظِّمُ الْحَيَاةَ، ويَجْلِبُ السَّعَادَةَ لِلْإِنْسَانِيَّةِ

نَعَمْ! هَلْ هِيَ مُفَاجَأَةٌ تَطْرُقُ الْآذَانَ عِنْدَمَا نَقُولُ: إِنَّ الْحَلَّ لِصَلَاحِ أَحْوَالِ الْعَالَمِ يَقُومُ عَلَى أَسَاسِ فَهْمِهِمْ لِلنِّظَامِ الْعِبَادِيِّ فِي الْإِسْلَامِ وَتَطْبِيقِهِ؟

إِنَّ النِّظَامَ الْعِبَادِيَّ فِي الْإِسْلَامِ هُوَ النِّظَامُ الْأَنْجَحُ لِقِيَادَةِ الْحَيَاةِ الْإِنْسَانِيَّةِ، فَهُوَ النِّظَامُ الشَّامِلُ لِكُلِّ الْمَجَالَاتِ الْحَيَاتِيَّةِ، الْمُبْرِمِجُ لَهَا وَفْقًا لِمَا وَضَعَهُ خَالِقُهَا، وَأَرَادَهُ صَانِعُهَا، أَجَلْ!

اعْتِرَاضٌ وَرَدُّهُ:

قَدْ يَنْدَهِشُ الْبَعْضُ مِمَّا نَذْكُرُ، وَيُنْكِرُ مُتَعَجِّبًا مِنْ أَنْ نَجْعَلَ نِظَامًا تَقْلِيدِيًّا حَلًّا لِلْمَشَاكِلِ الْعَالَمِيَّةِ الْمُعَقَّدَةِ وَالْمُتَجَدِّدَةِ، فَنَقُولُ لَهُ: رُوَيْدًا! لَا تُنْكِرْ عَلَيْنَا، وَاسْتَمِعْ لِبَيَانِ حُجَّتِنَا النَّاصِعَةِ فِي أَنَّ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ مِفْتَاحٌ لِحَلِّ الْمُشْكِلَاتِ الْعَالَمِيَّةِ الْفَرْدِيَّةِ وَالْمُجْتَمَعِيَّةِ وَالْإِنْسَانِيَّةِ.

إِنَّ حَجَرَ الزَّاوِيَةِ فِي الرَّدِّ عَلَى هَذِهِ الْفِرْيَةِ، وَالْأَسَاسَ الْمَتِينَ لِدَحْضِ تِلْكَ الشُّبْهَةِ، يَقُومُ عَلَى مَبْدَأٍ رَاسِخٍ لَا يَخْتَلِفُ فِيهِ عَاقِلَانِ: وَهُوَ أَنَّ صَانِعَ أَيِّ شَيْءٍ هُوَ الْأَعْرَفُ بِدَقَائِقِهِ وَخَفَايَاهُ، وَالْأَعْلَمُ بِمَا يُوَافِقُهُ وَمَا يَضْمَنُ لَهُ السَّلَامَةَ وَالتَّمَامَ.

وَهَذَا الْمَبْدَأُ الْجَلِيُّ يَنْطَبِقُ بِوُضُوحِ الشَّمْسِ عَلَى الْبَشَرِيَّةِ؛ فَهِيَ خَلِيقَةُ اللهِ الْبَدِيعِ، وَهُوَ ﷻ الْأَقْدَرُ، بَلِ الْمُنْفَرِدُ، بِرَسْمِ طَرِيقِهَا الْقَوِيمِ، وَتَحْدِيدِ نِظَامِ حَيَاتِهَا الْأَمْثَلِ الَّذِي يُحَقِّقُ غَايَتَهَا ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

تَعْرِيفُ نِظَامِ الْعِبَادَةِ الْفَرِيدِ فِي الْإِسْلَامِ:

حَتَّى تَظْهَرَ تِلْكَ الْحُجَّةُ الْبَيِّنَةُ بِصُورَةٍ أَجْلَى يَنْبَغِي أَنْ نَتَعَرَّفَ إِلَى مَعْنَى هَذَا النِّظَامِ الرَّائِعِ الَّذِي سَمَّاهُ الشَّارِعُ (الْعِبَادَةَ)؛ لِإِدْرَاكِ قِيمَتِهِ الْعَظِيمَةِ فِي إِصْلَاحِ الْإِنْسَانِيَّةِ:

فَإِنْ جِئْتَ لِلنَّظَرِ إِلَيْهَا مِنَ النَّاحِيَةِ اللُّغَوِيَّةِ سَتَجِدُهَا كَنْزًا رَائِعًا لِلْبَشَرِيَّةِ، فَهِيَ مَأْخُوذَةٌ مِنْ تَعْبِيدِ الطَّرِيقِ، أَيْ تَذْلِيلِهَا، وَتَمْهِيدِهَا لِتُصْبِحَ سَهْلَةً، وَلِذَلِكَ قَالَ الرَّاغِبُ الْأَصْفَهَانِيُّ ﵀ فِي "الْمُفْرَدَاتِ": «**الْعُبُودِيَّةُ: إِظْهَارُ التَّذَلُّلِ، وَالْعِبَادَةُ أَبْلَغُ مِنْهَا؛ لِأَنَّهَا غَايَةُ التَّذَلُّلِ**»[1]، فَسُمِّيَ الْمَمْلُوكُ عَبْدًا لِتَذَلُّلِهِ لِمَوْلَاهُ، وإظهار تواضعه للخلق حوله، كما قَالَ طَرَفَةُ:

إِلَى أَنْ تَحَامَتْنِي الْعَشِيرَةُ كُلُّهَا ... وَأُفْرِدْتُ إِفْرَادَ الْبَعِيرِ الْمُعَبَّدِ

أَيِ الْمُذَلَّلِ، وَالذُّلُّ هُنَا هُوَ الذُّلُّ الْإِيجَابِيُّ.

الذُّلُّ لِلهِ سُبْحَانَهُ مَطْلُوبٌ؛ لِأَنَّهُ يَكُونُ مِنَ الضَّعِيفِ أَمَامَ الْقَوِيِّ الْحَقِّ جَلَّ شَأْنُهُ، وَمِنَ الْفَقِيرِ أَمَامَ الْغَنِيِّ الْكَامِلِ ﷻ، وَمِنَ الْكَسِيرِ أَمَامَ جَابِرِ الْمُنْكَسِرِينَ عَظُمَ نَوَالُهُ، وَمِنَ الْخَائِفِ أَمَامَ مَنْ يُؤَمِّنُ الْخَائِفِينَ عَزَّ سُلْطَانُهُ.

(١) تفسير المنار (١/ ٤٨).

وَفِي الْحِكَمِ لِابْنِ عَطَاءٍ ﷺ: تَحَقَّقْ بِأَوْصَافِكَ يَمُدَّكَ بِأَوْصَافِهِ، فَإِذَا جَلَسْتَ عَلَى بِسَاطِ الذُّلِّ وَقُلْتَ: يَا عَزِيزُ، مَنْ لِلذَّلِيلِ سِوَاكَ؟! أَعَزَّكَ. وَإِذَا جَلَسْتَ عَلَى بِسَاطِ الْعَجْزِ وَقُلْتَ: يَا قَدِيرُ، مَنْ لِلْعَاجِزِ سِوَاكَ؟! قَدَّرَكَ. وَإِذَا جَلَسْتَ عَلَى بِسَاطِ الضَّعْفِ وَقُلْتَ: يَا قَوِيُّ، مَنْ لِلضَّعِيفِ سِوَاكَ؟! قَوَّاكَ. وَإِذَا جَلَسْتَ عَلَى بِسَاطِ الْفَقْرِ وَالْحَاجَةِ وَقُلْتَ: يَا غَنِيُّ، مَنْ لِلْفَقِيرِ سِوَاكَ؟! أَغْنَاكَ. وَعِنْدَهَا تَسْعَى الْإِجَابَةُ بَيْنَ يَدَيْكَ؛ فَتَصِيرُ عَزِيزًا وَقَادِرًا وَقَوِيًّا وَغَنِيًّا بِاللهِ، فَقَدْ أَمَدَّكَ بِأَوْصَافِ الرُّبُوبِيَّةِ بَعْدَ أَنْ تَحَقَّقْتَ بِأَوْصَافِ الْعُبُودِيَّةِ[1].

إِنَّ التَّذَلُّلَ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ ﷻ بِالْعِبَادَةِ يَنْعَكِسُ إِيجَابًا فِي التَّعَامُلِ مَعَ الْخَلْقِ، وَلِذَا عَرَّفُوا الْعِبَادَةَ بِأَنَّهَا: «مَحَبَّةُ الْحَقِّ، وَبَذْلُ الْخَيْرِ لِلْخَلْقِ»، فَالنِّظَامُ الْعِبَادِيُّ قَائِمٌ عَلَى الْحُبِّ لِلْخَالِقِ وَمُتَرْجَمٌ بِإِيصَالِ الْخَيْرِ لِلْمَخْلُوقِ، وَالْحُبُّ جُزْءٌ مِنْ تَعْرِيفِ النِّظَامِ الْعِبَادِيِّ! نَعَمْ، إِنَّهُ الْحُبُّ الَّذِي وَصَفَهُ ابْنُ الْقَيِّمِ ﷺ بِأَنَّهُ: «الْحَيَاةُ الَّتِي مَنْ حُرِمَهَا فَهُوَ مِنْ جُمْلَةِ الْأَمْوَاتِ، وَهُوَ النُّورُ الَّذِي مَنْ فَقَدَهُ فَهُوَ فِي بِحَارِ الظُّلُمَاتِ، وَهُوَ الشِّفَاءُ الَّذِي مَنْ عَدِمَهُ حَلَّتْ بِقَلْبِهِ جَمِيعُ الْأَسْقَامِ، وَهُوَ اللَّذَّةُ الَّتِي مَنْ لَمْ يَظْفَرْ بِهَا فَعَيْشُهُ كُلُّهُ هُمُومٌ وَآلَامٌ»[2].

وَأَشَارَ الْمُحَقِّقُونَ إِلَى الْعِبَادَةِ بِوَجْهٍ آخَرَ فَقَالُوا هِيَ: «اسْمٌ جَامِعٌ لِكُلِّ مَا يُحِبُّهُ اللهُ وَيَرْضَاهُ مِنَ الْأَقْوَالِ، وَالْأَعْمَالِ الْبَاطِنَةِ، وَالظَّاهِرَةِ»[3]، فَشَمِلَتِ الْعِبَادَةُ كُلَّ فِعْلٍ نَافِعٍ، وَعَمَلٍ صَالِحٍ، وَقَوْلٍ طَيِّبٍ، وَحَرَكَةٍ إِيجَابِيَّةٍ لِلنَّفْسِ أَوِ لِلْمُجْتَمَعِ، بِشَرْطِ أَنْ يَنْوِيَ بِهِ الْمَرْءُ وَجْهَ اللهِ، وَيُرِيدَ بِهِ اكْتِسَابَ مَحَبَّتِهِ، فَالنِّظَامُ الْعِبَادِيُّ الْإِسْلَامِيُّ يَشْمَلُ التَّصَوُّرَاتِ الِاعْتِقَادِيَّةَ، وَالِانْفِعَالَاتِ الْقَلْبِيَّةَ، وَالتَّصَرُّفَاتِ الْعَمَلِيَّةَ فِي الْمَجَالَاتِ الْحَيَاتِيَّةِ الْمُخْتَلِفَةِ، وَلَعَلَّ ذَلِكَ يَكُونُ كَافِيًا لِنُدْرِكَ

---

(١) شرح الحكم العطائية لعبد المجيد الشرنوبي ص١٢٦.

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٣/ ٨).

(٣) مجموع الفتاوى١٠/ ١٤٩.

عَظَمَةَ النِّظَامِ الْعِبَادِيِّ، وَحَقِيقَتَهُ فِي الْإِسْلَامِ، وَأَنَّهُ يُمَثِّلُ طَرِيقَ الْبَشَرِيَّةِ نَحْوَ الْحُرِّيَّةِ الْحَقِيقِيَّةِ، وَالسَّعَادَةِ الْخَالِدَةِ.



رُبَاعِيَّةُ الْجَمَالِ فِي النِّظَامِ الْعِبَادِيِّ:

وَمِنْ جِهَةٍ أُخْرَى فَإِنَّ الْمُنْهَمِكَ فِي هٰذَا النِّظَامِ الرَّائِعِ (الْعِبَادَةِ) هُوَ الَّذِي جَمَعَ أَرْبَعَةَ أَرْكَانٍ: **غَايَةَ الْحُبِّ، فِي غَايَةِ الذُّلِّ، مَعَ غَايَةِ الْخَوْفِ، فِي غَايَةِ الرَّجَاءِ**. فَهٰذِهِ أَرْبَعَةُ أَرْكَانٍ لِلْعِبَادَةِ تُمَثِّلُ مَشَاعِرَ فَيَّاضَةً تَعْكِسُ أَفْعَالًا إِيجَابِيَّةً عَالِيَةً فِي بِنَاءِ النَّفْسِ الْمُسْلِمَةِ.

وَقَدْ وَصَفَ اللهُ ﷻ الْعَابِدِينَ بِأَنَّهُمْ ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [السجدة: ١٦]، فَجَمَعَتِ الْآيَةُ أَرْكَانَ الْعِبَادَةِ الْأَرْبَعَةَ فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾ يَدُلُّ عَلَى غَايَةِ الْحُبِّ مِنْهُمْ لِرَبِّهِمْ ﷻ، وَلِذَلِكَ هَجَرُوا الْمَضَاجِعَ؛ إِيثَارًا لِحُبِّهِ وَلَذَّةِ مُنَاجَاتِهِ، وَعَبَّرَ بِالْمُجَافَاةِ لِيُبَيِّنَ أَنَّ عَلَاقَتَهُمْ بِهَا انْتَهَتْ وَانْقَطَعَتْ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ يَدُلُّ عَلَى غَايَةِ الذُّلِّ لِرَبِّهِمْ فَهُمْ يَدْعُونَهُ وَيَسْأَلُونَهُ وَيُعْلِنُونَ عَجْزَهُمْ وَفَقْرَهُمْ وَحَاجَتَهُمْ لِرَبِّهِمْ فَذَلُّوا لَهُ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ يَدُلُّ عَلَى خَوْفِهِمْ مِنْهُ، وَرَجَائِهِمْ لَهُ، فَالْخَوْفُ يُوَلِّدُ الرَّغْبَةَ فِي بَذْلِ الْأَسْبَابِ لِتَجَاوُزِ الْمَخَاوِفِ، وَالرَّجَاءُ يُبْقِي شُعْلَةَ الْأَمَلِ مُتَّقِدَةً، وَيُبْعِدُ شَبَحَ الْيَأْسِ وَالْبُؤْسِ. ثُمَّ ذَكَرَ أَثَرَ هٰذِهِ الْعِبَادَةِ عَلَى الْخَلْقِ فَقَالَ: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾.

> **لَنْ يُدْرِكَ مَقَامَ الْعُبُودِيَّةِ الْحَقَّةِ إِلَّا مَنْ جَمَعَ أَرْبَعَةَ أَرْكَانٍ: غَايَةَ الْحُبِّ، فِي غَايَةِ الذُّلِّ، مَعَ غَايَةِ الْخَوْفِ، فِي غَايَةِ الرَّجَاءِ.**

وَهَاهُوَ ابْنُ الْقَيِّمِ ﵀ يَعْلُو بِجَنَاحِهِ فِي فَهْمِهِ لِلْعِبَادَةِ بِذِكْرِ الرُّكْنَيْنِ الْعَظِيمَيْنِ لَهَا فَيَقُولُ:

وَعِبَادَةُ الرَّحْمٰنِ غَايَةُ حُبِّهِ ... مَعَ ذُلِّ عَابِدِهِ، هُمَا قُطْبَانِ

وَعَلَيْهِمَا فَلَكُ الْعِبَادَةِ دَائِرٌ مَا دَارَ حَتَّى قَامَتِ الْقُطْبَانِ[1]

وَالَّذِينَ اجْتَمَعَتْ فِيهِمُ الْأَرْكَانُ الْأَرْبَعَةُ هُمُ الَّذِينَ هَطَلَتْ عَلَيْهِمْ سَحَائِبُ الْأَشْجَانِ، وَنَصَبُوا رُكَبَهُمْ وَالْأَبْدَانَ، وَتَسَرْبَلُوا بِالْخَوْفِ وَالْأَحْزَانِ، وَشَرِبُوا بِكَأْسِ الْيَقِينِ، وَرَاضُوا أَنْفُسَهُمْ رِيَاضَةَ الْمُتَّقِينَ، وَكَحَّلُوا أَبْصَارَهُمْ بِالسَّهَرِ، وَغَضُّوهَا عَنِ النَّظَرِ، فَقَامُوا لَيْلَهُمْ أَرَقًا، وَتَبَادَرَتْ دُمُوعُهُمْ فَرَقًا، حَتَّى ضَنِيَتْ مِنْهُمُ الْأَبْدَانُ، وَتَغَيَّرَتْ مِنْهُمُ الْأَلْوَانُ، صَحِبُوا الْقُرْآنَ بِأَبْدَانٍ نَاحِلَةٍ، وَشِفَاهٍ ذَابِلَةٍ، وَدُمُوعٍ وَابِلَةٍ، وَزَفَرَاتٍ قَاتِلَةٍ، فَحَالَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ نَعِيمِ الْمُتَنَعِّمِينَ، وَشَغَلَهُمْ عَنْ مَطَامِعِ الرَّاغِبِينَ، فَاضَتْ عَبَرَاتُهُمْ مِنْ وَعِيدِهِ، وَشَابَتْ ذَوَائِبُهُمْ مِنْ تَحْذِيرِهِ وَتَشْدِيدِهِ، سَمِعُوا إِعْلَانَ (سَارِعُوا) فَكَسَلَهُمْ مَانَعُوا، وَشَهَوَاتِهِمْ دَافَعُوا، وَرَحْمَةَ رَبِّهِمْ طَالَعُوا؛ فَسَارَعُوا، وَسَارَعُوا وَسَارَعُوا؛ يَبْتَغُونَ رِضَا الْمَلِكِ الْوَهَّابِ ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ١٨].

وَعَبَّرَ الْفَخْرُ الرَّازِيُّ ﷺ فِي تَفْسِيرِهِ عَنْ تَعْرِيفِ الْعِبَادَةِ بِصُورَةٍ يَجْمَعُ فِيهَا بَيْنَ السَّكِينَةِ الَّتِي يَجِدُهَا الْمَرْءُ فِي مُتَابَعَةِ خَالِقِهِ، وَالتَّنْفِيذِ لِنِظَامِهِ فِي إِعَانَةِ الْمَخْلُوقِينَ فَقَالَ: الْعِبَادَةُ هِيَ: الْإِتْيَانُ بِالْفِعْلِ الْمَأْمُورِ بِهِ عَلَى سَبِيلِ التَّعْظِيمِ لِلْآمِرِ ﷻ[2].

وَإِذَا كَانَتِ الْعِبَادَةُ هِيَ أَسَاسَ السَّعَادَةِ، وَمُرْتَكَزَ السِّيَادَةِ وَالرِّيَادَةِ فِي بِنَاءِ النَّفْسِ وَالْحَيَاةِ فَيَنْبَغِي أَنْ يُقَدَّمَ هَذَا الْمَفْهُومُ الرَّائِعُ بِاعْتِبَارِهِ قِيمَةً عَالَمِيَّةً يَحْتَاجُهَا الْعَالَمُ كُلُّهُ دُونَ خَوْفٍ فِي هَذَا التَّقْدِيمِ وَلَا رَهْبَةٍ وَلَا تَرَدُّدٍ وَلَا اسْتِحْيَاءٍ.

---

(١) الكافية الشافية (١/ ١٧٩، ١٨٠).

(٢) تفسير الرازي (١/ ٢٥).

وَمِنْ عَجِيبِ مَا تَرَى عَيْنَاكَ أَنَّ هُنَاكَ مَنْ يَتَجَرَّأُ عَلَى تَقْدِيمِ مَفَاهِيمَ أُخْرَى تَحْتَوِي عَلَى حَقٍّ وَبَاطِلٍ، وَيُسَوِّقُونَ لِمَفَاهِيمَ هِيَ الْبَاطِلُ كُلُّهُ، كَمَفَاهِيمِ الْإِلْحَادِ، وَخُرَافَاتِ الْمُسَاوَاةِ الْمُطْلَقَةِ، وَجَرَائِمِ الرِّبَا، وَعَفَنِ الْحُرِّيَّةِ الْجِنْسِيَّةِ، وَيَتَفَاخَرُونَ بِهَا وَبِالْكَلَامِ عَنْهَا، وَيَتَلَجْلَجُ بَعْضُنَا فِي تَقْدِيمِ هَذَا الْمَفْهُومِ الرَّائِعِ (الْعِبَادَةِ) لِلْعَالَمِ مِنْ خِلَالِ بَيَانِ إِيجَابِيَّاتِهِ الْعَالِيَةِ فِي النَّفْسِيَّةِ الَّتِي تَعْتَنِقُهُ، وَتَأْثِيرَاتِهِ الْعَمِيقَةِ فِي حَيَاةِ الْفَرْدِ وَالْمُجْتَمَعِ.

الْعِبَادَةُ قِوَامُ صَلَاحِ الْبَشَرِيَّةِ وَسِرُّ فَلَاحِهَا:

دَعْوَةُ النَّاسِ إِلَى الْعِبَادَةِ لَيْسَ لِإِظْهَارِ الْخُضُوعِ وَالْخُشُوعِ وَالِاسْتِسْلَامِ لِخَالِقِ الْكَوْنِ فَقَطْ، فَاللهُ كَمَا قَالَ عَنْ نَفْسِهِ -جَلَّ فِي عُلَاهُ-: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧]، بَلْ لِأَنَّ أَسَاسَ السَّعَادَةِ الْكَوْنِيَّةِ قَائِمٌ عَلَى الْعِبَادَةِ، وَلِذَا قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧].

تَأَمَّلْ مَوْقِعَ كَلِمَةِ (لَكُمْ) هُنَا، فَإِنَّهَا تَدُلُّ عَلَى أَنَّ نَفْعَ الْعِبَادَةِ عَائِدٌ إِلَيْنَا وَخَالِصٌ لَنَا.

كَيْفَ يَقُومُ الْمُغْفَلُونَ أَوِ الْمُجْرِمُونَ بِمُحَارَبَةِ هَذَا الْمَفْهُومِ أَوِ التَّنَقُّصِ مِنْهُ؟ كَيْفَ يَبْحَثُونَ عَنْ وَسَائِلَ يَجْلِبُونَ بِهَا الشَّقَاءَ لِهَذَا الْعَالَمِ، سَوَاءً أَكَانَ ذَلِكَ عَبْرَ الِاسْتِهْزَاءِ وَالتَّنَقُّصِ الْفَرْدِيِّ، أَمْ كَانَ عَبْرَ الْمُؤَسَّسَاتِ وَالْمَحَافِلِ الْمُتَآمِرَةِ؟

إِنَّهُمْ يَتَآمَرُونَ عَلَى سَحْبِ أَلَقِ الْعِبَادَةِ وَجَمَالِهَا مِنْ حَيَاةِ الْإِنْسَانِ، فَلَا تَلْتَفِتْ لِاسْتِهْزَائِهِمْ بِالْعِبَادَاتِ، فَالصَّلَاةُ وَالزَّكَاةُ وَالصِّيَامُ وَالْحَجُّ؛ لِمَصَالِحِنَا وَأَنْفُسِنَا وَسَعَادَتِنَا، وَالْحِجَابُ؛ لِأَمْنِنَا وَرَاحَتِنَا، وَتَحْرِيمُ الرِّبَا؛ لِحُرِّيَّتِنَا الْحَقِيقِيَّةِ وَأَمْنِنَا الِاقْتِصَادِيِّ، وَالْعَدْلُ؛ لِإِشَاعَةِ الْمُسَاوَاةِ الْقَانُونِيَّةِ فِي مَحَالِّهَا الصَّادِقَةِ، وَإِعْطَاءِ كُلِّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، وَالْقِصَاصُ؛ لِلْأَمْنِ الْحَيَاتِيِّ، وَتَقْسِيمُ الْمَوَارِيثِ؛ لِلْعَدْلِ الِاجْتِمَاعِيِّ، وَالْجِهَادُ؛ لِحِمَايَةِ الْمُجْتَمَعَاتِ وَتَحْصِينِ الْمَشْرُوعِ الْإِسْلَامِيِّ الرَّائِدِ.

إِنَّ أَعْظَمَ فَائِدَةٍ لِلْعِبَادَةِ تَعُودُ لِلْعَابِدِ، وَلِلْبَشَرِيَّةِ مِنْ حَوْلِهِ:

فَالنِّظَامُ الْعِبَادِيُّ يُؤَدِّي إِلَى حِفْظِ الْعَابِدِ وَنَفْعِهِ، وَالْقِيَامِ عَلَى مَصَالِحِهِ، وَالْعِبَادَةُ لَيْسَتْ تَسْخِيرًا لِلنَّفْسِ بَلْ حَقِيقَتُهَا خِدْمَةُ النَّفْسِ، وَلِذَا قَالَ عُلَمَاؤُنَا: «أَتَظُنُّ أَنَّهُ -تَعَالَى ذِكْرُهُ- دَعَاكَ لِعِبَادَتِهِ، وَإِنَّمَا دَعَاكَ لِنِعْمَتِهِ وَدُخُولِ جَنَّتِهِ».

إِنَّ الْعِبَادَةَ: مِفْتَاحُ الْخَيْرَاتِ، وَعُنْوَانُ السَّعَادَاتِ، وَمَهْبِطُ الْبَرَكَاتِ، وَمَطْلَعُ الدَّرَجَاتِ، وَهِيَ أَهَمُّ أُسُسِ إِصْلَاحِ الْمُجْتَمَعَاتِ، وَدَلِيلُ الصِّدْقِ فِي الْمُعَامَلَاتِ، وَيَنْبُوعُ الْكَرَامَاتِ.

وَالْعِبَادَةُ بِذَلِكَ: هِيَ الْوَظِيفَةُ الْإِنْسَانِيَّةُ، وَالْبَرْنَامَجُ الْحَيَاتِيُّ الْعَمَلِيُّ لِلْإِدَارَةِ الْحَقِيقِيَّةِ النَّاجِحَةِ لِحَيَاةِ الْإِنْسَانِيَّةِ، وَهِيَ الْأَسَاسُ لِبِنَاءِ الْأَوْضَاعِ الْمَدَنِيَّةِ، وَلِصَلَاحِ الْأَحْوَالِ الْعُمْرَانِيَّةِ.

وَهِيَ النِّظَامُ الَّذِي يَنْسَجِمُ مَعَ خَلْقِ الْإِنْسَانِ، فَالتَّكْلِيفَاتُ الْعِبَادِيَّةُ تُكَوِّنُ الْبَرْنَامَجَ الطَّبِيعِيَّ الْفِطْرِيَّ لِلْإِنْسَانِ (الْبَرْنَامَجَ الَّذِي يُصْلِحُ لَهُ دِينَهُ وَدُنْيَاهُ وَيَجْلِبُ لَهُ السَّعَادَةَ).

هَلْ أَدْرَكْتَ مَعِي شُمُولَ هَذَا الْمَفْهُومِ الرَّائِعِ (الْمِنْهَاجِ الْعِبَادِيِّ) لِلْحَيَاةِ كُلِّهَا؟ إِنَّهُ يَتَأَلَّفُ مِنْ نُظُمٍ مُتَعَدِّدَةٍ تَشْمَلُ مَجَالَاتِ الْحَيَاةِ الْمُخْتَلِفَةِ، وَيَنْتَمِي إِلَى هَذَا الْمِنْهَاجِ كُلُّ مَا يَتَعَلَّقُ بِإِعْمَارِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَالْحَيَاةِ الْآخِرَةِ، وَيَنْبَثِقُ عَنْ هَذَا الْمِنْهَاجِ التَّشْرِيعَاتُ الْعَقَدِيَّةُ (أَرْكَانُ الْإِيمَانِ، وَأَرْكَانُ الْإِسْلَامِ)، وَالتَّشْرِيعَاتُ السِّيَاسِيَّةُ وَالِاقْتِصَادِيَّةُ وَالِاجْتِمَاعِيَّةُ، وَهُوَ الَّذِي نُسَمِّيهِ (الشَّرِيعَةَ)، فَصَارَتِ الشَّرِيعَةُ أَوِ الْعِبَادَةُ الْقَائِمَةُ عَلَى التَّوْحِيدِ، وَالشِّفَاءُ مِنْ أَمْرَاضِ الشِّرْكِ وَالرِّيَاءِ، وَالتَّطَهُّرُ مِنَ الْأَرْجَاسِ الثَّقَافِيَّةِ وَالْفِكْرِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ أَحَدَ أَهَمِّ الْحُقُوقِ الْعَالَمِيَّةِ الَّتِي تَحْتَاجُهَا الْإِنْسَانِيَّةُ لِبِنَاءِ السَّعَادَةِ الْحَيَاتِيَّةِ.

فَوَجَبَ أَنْ تَكُونَ الْعِبَادَةُ فِي الْمَرْتَبَةِ الْأُولَى فِي سُلَّمِ الْأَوْلِيَّاتِ وَالْأَوْلَوِيَّاتِ الْحَيَاتِيَّةِ عِنْدَ كُلِّ إِنْسَانٍ يُرِيدُ السَّعَادَةَ؛ إِذْ لَا طَرِيقَ لِلسَّعَادَةِ سِوَى صَحِيحِ الْعِبَادَةِ.

فَالْعِبَادَةُ الصَّحِيحَةُ تَبْنِي النَّفْسَ الصَّادِقَةَ الطَّمُوحَةَ فِي أَنْ تَصِلَ إِلَى أَعْلَى الْمَرَاتِبِ، وَعَدَمُ مَعْرِفَةِ الْعِبَادَةِ الصَّحِيحَةِ تُسَبِّبُ الْجَرَائِمَ الْخَبِيثَةَ الَّتِي لَا يَتَصَوَّرُهَا إِنْسَانٌ؛ فَقَدْ ذَكَرُوا أَنَّهُ وَقَعَتْ جَرِيمَةٌ هَزَّتِ النَّمْسَا، مَا هٰذِهِ الْجَرِيمَةُ؟

رَجُلٌ رَأَى فِي ابْنَتِهِ فَرِيسَةً لِنَزَوَاتِهِ وَشَهَوَاتِهِ، فَعِنْدَمَا بَلَغَتْ سِنَّ الثَّامِنَةَ عَشْرَةَ دَعَاهَا إِلَى الطَّابَقِ الْأَسْفَلِ الَّذِي كَانَ مُغْلَقًا دَائِمًا بَعْدَ أَنْ جَهَّزَهُ بِبِنَاءِ غُرْفَةٍ إِسْمَنْتِيَّةٍ مُحَدَّدَةٍ مُعَيَّنَةٍ، حَتَّى إِذَا مَا أَدْخَلَهَا غَدَرَ بِهَا وَرَبَطَهَا، ثُمَّ أَغْلَقَ عَلَيْهَا بِبَابٍ حَدِيدِيٍّ ضَخْمٍ لَا يُمْكِنُ مِنْ خِلَالِهِ أَنْ يُسْمَعَ أَيُّ صَوْتٍ فِي الدَّاخِلِ، وَجَهَّزَ لَهَا مَا تَحْتَاجُهُ مِنْ مُؤَنٍ، ثُمَّ كَانَ يَغْتَصِبُهَا بِصُورَةٍ مُسْتَمِرَّةٍ لِأَكْثَرَ مِنْ ٢٤ عَامًا، وَأَنْجَبَ مِنْهَا سَبْعَةَ أَبْنَاءٍ، وَاكْتَشَفَتِ الشُّرْطَةُ الْأَمْرَ بَعْدَ أَنْ بَلَغَتِ الْفَتَاةُ نَحْوَ ٤٢ سَنَةً.

مَا الَّذِي يَجْعَلُ هٰذَا الَّذِي يُفْتَرَضُ أَنْ يَكُونَ أَحَنَّ النَّاسِ عَلَى ابْنَتِهِ، يَجْعَلُهُ يَصْنَعُ ذَلِكَ؟

إِنَّهُ غِيَابُ مَفْهُومِ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ الَّذِي يَعْنِي الْفَلَاحَ أَمَامَ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ.

هَلْ رَأَيْتَ كَمْ خَسِرَ الْعَالَمُ بِسَبَبِ عَدَمِ تَقْدِيمِنَا لِأَنْوَارِ الْفَاتِحَةِ فِي الْعَالَمِ؟

***

جِسْرُ اتِّصَالٍ: مَا زِلْنَا فِي الْمَقْصَدِ الْخَامِسِ مِنْ مَقَاصِدِ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ، وَعَرَفْنَا بِأَنَّ لَهُ ثَلَاثَ بَصَائِرَ، قَدْ تَحَدَّثْنَا بِأَنَّ الْبَصِيرَةَ الْأُولَى هِيَ أَنَّ الْعِبَادَةَ الْبَرْنَامَجُ الْحَيَاتِيُّ الْعَمَلِيُّ الَّذِي يَدُلُّ عَلَى صِدْقِ التَّوْحِيدِ، وَأَنَّ الْبَصِيرَةَ الثَّانِيَةَ هُوَ النِّظَامُ الْإِلٰهِيُّ الْمُنَظِّمُ لِلْحَيَاةِ الْجَالِبُ لِلْإِنْسَانِيَّةِ السَّعَادَةَ، فَمَا الْبَصِيرَةُ الثَّالِثَةُ فِي هٰذَا الْمَقْصَدِ؟

الْجَوَابُ:

الْبَصِيرَةُ الثَّالِثَةُ

(الْعِبَادَةُ) هِيَ طَرِيقُ الْبَشَرِيَّةِ الْوَحِيدُ لِلتَّحَرُّرِ الْحَقِيقِيِّ، وَتَحْقِيقِ السِّيَادَةِ وَالرِّيَادَةِ الْمُسْتَرْشِدَةِ بِنُورِ الْهِدَايَةِ

إِنَّ نِظَامَ الْعِبَادَةِ هُوَ النِّظَامُ الْإِلٰهِيُّ الْعَجِيبُ لِلْإِنْسَانِيَّةِ: فَهُوَ الَّذِي يُوصِلُ إِلَى أَشْرَفِ الْمَقَامَاتِ الْبَشَرِيَّةِ؛ إِذِ الْعِبَادَةُ تَعْنِي بِبَسَاطَةٍ تَمْهِيدَ السَّبِيلِ لِهٰذِهِ الْإِنْسَانِيَّةِ الَّتِي أَتْعَبَهَا التَّلَاعُبُ بِحُقُوقِهَا؛ لِتَنَالَ الْحُرِّيَّةَ الْحَقِيقِيَّةَ، وَهَلْ هُنَاكَ حُرِّيَّةٌ حَقِيقِيَّةٌ إِلَّا عِنْدَمَا يَسْتَقِلُّ الْإِنْسَانُ عَنْ عُبُودِيَّةِ الْمَخْلُوقَاتِ؛ لِيَكُونَ فَقَطْ عَبْدًا لِلهِ الَّذِي خَلَقَهُ فَسَوَّاهُ فَعَدَلَهُ.

تَأَمَّلْ فِي كَلَامِ اللهِ لِتَرَى أَنَّ الْقُرْآنَ لَمْ يَسْتَخْدِمْ كَلِمَةَ (حُرِّيَّةٍ) إِلَّا فِي مَوْطِنِ تَحْرِيرِ الْعَبِيدِ مِنْ رِقِّهِمْ، أَمَّا بَعْدَ ذَلِكَ فَكَمَالُ حُرِّيَّتِهِمْ أَنْ يَكُونُوا عِبَادًا لِلهِ، أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنَّهُ سَيَجِدُ رَاحَتَهُ وَهُوَ شَارِدٌ عَنِ النِّظَامِ الَّذِي أَعَدَّهُ لَهُ خَالِقُهُ لِيَنَالَ السَّعَادَةَ وَالسِّيَادَةَ؟

يَا لَشَرَفِ الْعُبُودِيَّةِ لِلهِ وَجَلَالِهَا! عِنْدَمَا تَرَى الْمَرْءَ يَفِيءُ إِلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَيَجِدُ جَمَالَ حُرِّيَّتِهِ بَعِيدًا عَنْ تَحَكُّمِ الْمَخْلُوقِينَ.

وَبِالْعُبُودِيَّةِ لِلهِ تَعْظُمُ قِيمَةُ الْعَبْدِ، وَتَرْتَفِعُ مَنْزِلَتُهُ يَقُولُ النَّصْرَابَاذِيُّ: "قِيمَةُ الْعَابِدِ بِمَعْبُودِهِ، كَمَا أَنَّ شَرَفَ الْعَارِفِ بِمَعْرُوفِهِ"[1]، وَهِيَ خَيْرُ مَا يَتَزَيَّنُ بِهِ الْمَرْءُ مِنْ لِبَاسٍ، وَأَجْمَلُ مَا يَرْتَدِيهِ الْخِيَارُ مِنَ النَّاسِ؛ ذَلِكَ أَنَّ "الْعُبُودِيَّةَ زِينَةُ الْعَبْدِ فَمَنْ تَرَكَهَا تَعَطَّلَ مِنَ الزِّينَةِ".

---

(١) الرسالة القشيرية (٢/ ٣٤٩).

الْعُبَّادُ هُمْ سَادَةُ الْأَحْرَارِ:

مَنِ الَّذِي حَازَ أَعْظَمَ مَنَازِلِ التَّقَدُّمِ وَأَعْلَى دَرَجَاتِ الرُّقِيِّ وَالطُّمُوحِ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ؟ إِنَّهُمُ الْعَابِدُونَ. اسْتَمِعْ مَثَلًا إِلَى الثَّنَاءِ عَلَى أَبِي الْأَنْبِيَاءِ إِبْرَاهِيمَ وَبَنِيهِ -عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٣].

إِنَّهَا عِبَادَتُهُمُ الَّتِي أَمَدَّتْهُمْ بِمُؤَهِّلَاتِ الْقِيَادَةِ الْعَالَمِيَّةِ الْحَقِيقِيَّةِ الْهَادِيَةِ فَصَارُوا أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِ اللهِ، انْظُرْ إِلَى عِبَادَتِهِمْ كَيْفَ جَعَلَتْهُمْ يَحْرِصُونَ عَلَى فِعْلِ الْخَيْرَاتِ، وَعَمَلِ الصَّالِحَاتِ.

وَهُنَا لَا بُدَّ أَنْ تُسَجِّلَ تَعَجُّبَكَ مِنْ بَعْضِ النَّاسِ الَّذِينَ رُبَّمَا سَجَدُوا لِلْبَشَرِ، أَوْ عَبَدُوا الْحَجَرَ، أَوْ رُبَّمَا رَأَيْتَهُمْ يُعَظِّمُونَ الْغَنَمَ وَالْبَقَرَ، أَوْ يَخْضَعُونَ لِلشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، أَوْ يُبَجِّلُونَ سَحَرَةَ الْإِعْلَامِ، وَطُغَاةَ الْإِجْرَامِ، أَوْ يُهَلِّلُونَ لِمُسْتَكْبِرِي الْحُكَّامِ، وَيَمْنَحُونَهُمُ الْأَلْقَابَ الْفِخَامَ وَالْأَوْصَافَ الْعِظَامَ، وَهُمْ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ لَا يُعَظِّمُونَ اللهَ الْمَلِكَ الْقُدُّوسَ السَّلَامَ ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ، ثُمَّ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ دُعَاةُ السَّلَامِ، وَمَنْ يَحْفَظُ لِلْعَالَمِ أَمْنَهُ الْعَامَّ! ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ٥]، إِنَّهُ لَكَذِبٌ صُرَاحٌ، وَبُهْتَانٌ وَاضِحٌ تُسَوِّغُهُ وَسَائِلُ الْإِعْلَامِ لِإِفْسَادِ الْكَوْنِ وَالْخَلَائِقِ،وتَزْوِيزٌ لِأَشْرَفِ الْحَقَائِقِ.

وَهُنَا يَبْرُزُ أَهْلُ الْعُقُولِ وَصَفْوَةُ الْمُجْتَمَعَاتِ لِيَقُولُوا أَمَامَ هَذَا التَّزْوِيرِ الَّذِي يُصِيبُ الْعُبَّادَ بِالتَّحْقِيرِ: ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ﴾ [يس: ٢٢، ٢٣]، وَمَنْ يُجَادِلُ فِي هَذِهِ الْحَقِيقَةِ يُقَالُ لَهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ [يونس: ١٠٤].

اذْهَبْ لِتَأْخُذَ مِنْ أَنْوَارِ الْفَاتِحَةِ وَبَصَائِرِهَا قَبَسًا لِإِعَادَةِ الْأُمُورِ إِلَى نِصَابِهَا وَمَقَايِيسِهَا وَمَوَازِينِهَا الْحَقِيقِيَّةِ، وَتَأَمَّلْ حَوَالَيْكَ لِتَجِدَ لَقَبَ (عَبْدِ اللهِ) قَدْ تَشَرَّفَ بِهِ سَادَاتُ الْبَشَرِ مِنَ الْمُفْلِحِينَ الَّذِينَ حَقَّقُوا أَعْظَمَ الْإِنْجَازَاتِ.

مَنْ هُمُ الَّذِينَ نَالُوا شَرَفَ الِانْتِسَابِ إِلَى اللهِ، فَكَانُوا عَبِيدًا لِلهِ؟

أَمَّا أَوَّلًا: فَقَدْ جَعَلَ اللهُ ﷻ مَنْزِلَةَ الْعُبُودِيَّةِ أَعْظَمَ مَنَازِلِ الْمَخْلُوقِينَ مِنَ الرُّسُلِ، وَالْمَلَائِكَةِ، وَغَيْرِهِمْ، فَقَالَ: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٧٢].

وَأَمَّا ثَانِيًا: فَلَمَّا نَطَقَ عِيسَى عليه السلام فِي الْمَهْدِ كَانَ أَوَّلَ شَيْءٍ قَالَهُ: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ﴾ [مَرْيَمَ: ٣٠]، وَصَارَ ذِكْرُهُ لِهَذِهِ الْكَلِمَةِ سَبَبًا لِطَهَارَةِ أُمِّهِ، وَلِبَرَاءَةِ وُجُودِهِ عَنِ الطَّعْنِ، وَمِفْتَاحًا لِكُلِّ الْخَيْرَاتِ، وَدَافِعًا لِكُلِّ الْآفَاتِ.

وَأَمَّا ثَالِثًا: فَقَدْ جَعَلَ اللهُ أَهَمَّ صِفَاتِ الْمُقَرَّبِينَ أَنَّهُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ فِي الدُّنْيَا، فَقَالَ: ﴿عِبَدُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الزخرف: ١٩]، وفِي الآخِرَةِ فَقَالَ: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإنسان: ٦].

وَأَمَّا رَابِعًا: فَقَدْ وَصَفَ اللهُ -تَعَالَى ذِكْرُهُ- سَيِّدَ الْأَنْبِيَاءِ ﷺ فِي أَشْرَفِ مَقَامَاتِهِ بِالْعُبُودِيَّةِ.

مقامات عبودية سيد البشر محمد صلى الله عليه وسلم



مَقَامَاتُ عُبُودِيَّةِ سَيِّدِ الْبَشَرِ مُحَمَّدٍ ﷺ:

وَهُنَا قَدْ تَسْأَلُ: مَا مَقَامَاتُ الْعُبُودِيَّةِ الَّتِي نَالَ شَرَفَهَا، وَتَقَلَّدَ وِسَامَهَا مُحَمَّدٌ ﷺ؟

وَالْجَوَابُ:

لَقَدْ شَرَّفَ اللهُ ﷻ نَبِيَّنَا ﷺ بِخِطَابِ الْعُبُودِيَّةِ لَهُ وَحْدَهُ فِي الْمَقَامَاتِ الْأَرْبَعَةِ الْآتِيَةِ:

الْمَقَامُ الْأَوَّلُ: مَقَامُ تَحَدِّي الْمُشْرِكِينَ الْمُعَانِدِينَ، حَيْثُ يَقُولُ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣]، وَلَمْ يَقُلْ عَلَى رَسُولِنَا.

الْمَقَامُ الثَّانِي: مَقَامُ تَشْرِيفِهِ بِالْإِسْرَاءِ السَّابِقِ لِلْمِعْرَاجِ إِلَى السَّمَاوَاتِ الْعُلَى، حَيْثُ قَالَ عَنْهُ: ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِيٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ [الإسراء: ١].

الْمَقَامُ الثَّالِثُ: مَقَامُ إِنْزَالِ الْكِتَابِ الْحَقِّ الَّذِي يُنَظِّمُ لِلدُّنْيَا حَيَاتَهَا، حَيْثُ قَالَ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ﴾ [الكهف: ١].

الْمَقَامُ الرَّابِعُ: مَقَامُ الدَّعْوَةِ إِلَى أَشْرَفِ الْحَقَائِقِ وَأَعْظَمِهَا، وَهِيَ حَقِيقَةُ التَّوْحِيدِ الْمُقْتَرِنِ بِالرَّحْمَةِ، حَيْثُ يَقُولُ اللهُ ﷻ: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩].

لَمَّا كَانَتِ الْعِبَادَةُ أَشْرَفَ الْخِصَالِ، وَالتَّحَلِّي بِهَا أَجْمَلَ الْفِعَالِ، وَأَعْظَمَ الْآمَالِ، سَمَّى اللهُ -تَعَالَى ذِكْرُهُ- نَبِيَّهُ ﷺ عَبْدًا، وَلِهَذَا اخْتَارَ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَتَجَرَّدَ مِنْ أَلْقَابِ الدُّنْيَا الْفَانِيَةِ بِمُلْكِهَا، وَبَهْرَجِهَا، وَزِينَتِهَا، وَاكْتَفَى بِأَشْرَفِ الْمَقَامَاتِ وَأَجْمَلِ الْأَلْقَابِ وَاخْتَارَ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا رَسُولًا.

وَالْعَجَبُ لَا يَنْقَضِي مِنْ نَشْوَةِ الْمَشَاعِرِ عِنْدَ بَعْضِ الْبَشَرِ بِعُبُودِيَّتِهِمْ لِلْبَشَرِ، وَتَفَاخُرِهِمْ بِذَلِكَ، فَقَدْ قَالَ أَحَدُهُمْ:

يَا قَوْمِ قَلْبِي عِنْدَ زَهْرَاءَ ... يَعْرِفُهُ السَّامِعُ وَالرَّائِي

لَا تَـدْعُـنِـي إِلَّا بِـيَـا عَـبْـدَهَـا ... فَـإِنَّـهُ أَشْـرَفُ أَسْـمَـائِـي[1]

فَهَذَا عَبْدٌ يَزْعُمُ أَنَّ أَشْرَفَ أَسْمَائِهِ التَّلَقُّبُ بِعَبْدٍ لِلْمَخْلُوقَةِ فُلَانَةَ، فَكَيْفَ تَرَى تَكُونُ عَظَمَةُ التَّلَقُّبِ بِالْعُبُودِيَّةِ الْمُضَافَةِ إِلَى اللهِ -جَلَّ فِي عُلَاهُ-؟

أَنَا بِاللهِ عَزِيزٌ، عِزَّتِي فِي سَجَدَاتِي
أَنَا لِلهِ وَلِيٌّ، لَا لِعُزَّى أَوْ مَنَاةِ
أَنَا عَبْدُ اللهِ، لَا عَبْدُ الْهَوَى وَالشَّهَوَاتِ
فَنِيَتْ نَفْسِيَ عَنْ نَفْسِيْ فَسُدْتُ الْكَائِنَاتِ
أَنَا أَغْنَى الْخَلْقِ بِالْحَقِّ بِأَغْلَى الثَّرَوَاتِ
لَا يُدَانِي كُلُّ مُلْكِ الْأَرْضِ إِحْدَى رَكَعَاتِي

وَكُلَّمَا سَمَا الْعَبْدُ فِي مَعَارِجِ الْعُبُودِيَّةِ الْخَالِصَةِ لِمَوْلَاهُ، ازْدَادَ تَأَلُّقًا فِي سَمَاءِ الْحُرِّيَّةِ الْحَقَّةِ، وَتَسَنَّمَ ذُرَى الْكَرَامَةِ وَالْعِزَّةِ. فَبِقَدْرِ مَا يَتَجَرَّدُ الْقَلْبُ لِلهِ، يَتَحَرَّرُ مِنْ أَسْرِ مَا سِوَاهُ؛ وَمَنْ فَرَّطَ فِي هَذَا الْأَصْلِ، وَضَيَّعَ شَيْئًا مِنْ حَقِّ اللهِ عَلَيْهِ، سَقَطَ حَتْمًا فِي أَغْلَالِ الْعُبُودِيَّةِ لِلْمَخْلُوقِ أَوِ الْهَوَى، وَكَانَ النَّقْصُ فِي حُرِّيَّتِهِ وَكَرَامَتِهِ بِمِقْدَارِ ذَلِكَ التَّفْرِيطِ.

مَا الْأَوْلَوِيَّةُ الْقُرْآنِيَّةُ الَّتِي تُقَدِّمُهَا آيَةُ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾؟

لَا يُمْكِنُ أَنْ نَمُرَّ عَلَى الْآيَاتِ الْمُحْكَمَاتِ لِسُورَةِ الْفَاتِحَةِ دُونَ أَنْ نُقَرِّرَ الْأَثَرَ الْوَاقِعِيَّ الَّذِي تَفْرِضُهُ آيَاتُهَا فِي الْخُطَّةِ الْعَامَّةِ الَّتِي يَضَعُهَا الْفَرْدُ لِنَفْسِهِ، أَوْ تَخُطُّهَا الْمَجْمُوعَاتُ الْمُتَرَابِطَةُ لِأَفْرَادِهَا، أَوْ تَضَعُهَا الدَّوْلَةُ لِشُعُوبِهَا.

---

(١) نفح الطيب، (٢/ ١٩٣).

خُذْ مَثَلًا آيَةَ الْعِبَادَةِ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ مَاذَا يَعْنِي أَنْ يَكُونَ النِّظَامُ الْعِبَادِيُّ هُوَ النِّظَامَ الْإِلٰهِيَّ الْمُنَظِّمَ لِلْحَيَاةِ، الْجَالِبَ لِلْإِنْسَانِيَّةِ السَّعَادَةَ، وَهُوَ طَرِيقُ الْبَشَرِيَّةِ لِلتَّحَرُّرِ الْحَقِيقِيِّ وَلِلسِّيَادَةِ وَالرِّيَادَةِ؟

هٰذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْعِبَادَةَ مِنْ أَهَمِّ الْأَوْلَوِيَّاتِ الْقُرْآنِيَّةِ، وَهٰذَا يَقْتَضِي بِبَسَاطَةٍ وَاضِحَةٍ أَنْ تَكُونَ الدَّعْوَةُ إِلَى الْعِبَادَةِ -بِمَا فِيهَا الِاسْتِعَانَةُ- مِنْ أَهَمِّ الْأَوْلَوِيَّاتِ الْحَيَاتِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ الَّتِي يَجِبُ تَقْدِيمُهَا لِلْعَالَمِينَ مُسْلِمِينَ وَغَيْرَ مُسْلِمِينَ، وَيَجِبُ إِدَارَةُ وَسَائِلِ الْإِعْلَامِ وَالتَّرْبِيَةِ وَالتَّوْجِيهِ وَالثَّقَافَةِ وَالتَّعْلِيمِ عَلَى نَشْرِ مَفَاهِيمِ النِّظَامِ الْعِبَادِيِّ فِي الْأَرْضِ، وَيَنْبَغِي إِبْلَاغُ الْعَالَمِ بِضَرُورَةِ هٰذَا النِّظَامِ لِحَيَاتِهِمْ إِبْلَاغًا مُقْتَرِنًا بِحُرِّيَّتِهِمْ فِي أَنْ يَخْتَارُوهُ أَوْ يَخْتَارُوا غَيْرَهُ، مَعَ تَحْذِيرِهِمْ أَنَّهُمْ عِنْدَمَا يَخْتَارُونَ غَيْرَهُ سَيَجْلِبُونَ لِأَنْفُسِهِمُ الشَّقَاءَ وَالْعَنَاءَ وَالتَّجَارِبَ الْمَرِيرَةَ الْعَوْجَاءَ، عَلَى أَنْ يَصْحَبَ هٰذَا الْإِبْلَاغَ الْحِرْصُ عَلَيْهِمْ مِنْ خِلَالِ إِظْهَارِ الشَّفَقَةِ وَالرَّغْبَةِ فِي بَيَانِ الْحَقَائِقِ الْغَائِبَةِ عَنِ الْوَعْيِ الْإِنْسَانِيِّ.

عَلَى أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِحَمَلَةِ النُّورِ الْقُرْآنِيِّ أَنْ يَسْتَسْلِمُوا أَمَامَ الضَّجِيجِ الْإِعْلَامِيِّ وَالتَّغَوُّلِ الْعَسْكَرِيِّ الرَّهِيبِ مِنْ إِظْهَارِ الْحِرْصِ عَلَى الْبَشَرِيَّةِ لِتَتَعَرَّفَ عَلَى جَمَالِ النِّظَامِ الْإِسْلَامِيِّ، فَقَدْ نَعَتَ اللهُ النَّبِيَّ ﷺ بِالْحِرْصِ الْعَظِيمِ عَلَى الْبَشَرِ، فِي آيَةٍ تُسَابِقُ النَّسَائِمَ فِي وَصْفِ صِدْقِ عَاطِفَتِهِ مَعَ الْبَشَرِيَّةِ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

أَلِهٰذَا الْحَدِّ تَحْتَاجُ الْبَشَرِيَّةُ لِلنِّظَامِ الْعِبَادِيِّ الْإِسْلَامِيِّ؟ نَعَمْ، دُونَ رَيْبٍ! فَالْمَفْهُومُ الْمُتَمَيِّزُ لِلْعِبَادَةِ فِي النِّظَامِ الْإِسْلَامِيِّ يَجْعَلُ الْحَيَاةَ الْمَدَنِيَّةَ بِأَمَسِّ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ.

إِنَّ الْحَيَاةَ الْمَدَنِيَّةَ تَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ بَيْنَ النَّاسِ: مُعَامَلَةٌ وَعَدْلٌ، وَالْعَدْلُ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ شَرْعٍ مُمَنْهَجٍ يَحْفَظُهُ، وَهٰذَا الشَّرْعُ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ شَارِعٍ يَفْرِضُهُ، وَهٰذَا الشَّارِعُ يَنْبَغِي أَنْ يَتَمَيَّزَ بِاسْتِحْقَاقِ الطَّاعَةِ، وَالْقُدْرَةِ الْمُطْلَقَةِ؛ لِتَتِمَّ مُرَاقَبَةُ أَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ، وَيَتَرَتَّبَ عَلَى تَنْفِيذِ أَوَامِرِهِ وَاجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ الْجَزَاءُ لِلْمُحْسِنِ، وَالْعِقَابُ لِلْمُسِيءِ. وَمَنْ هٰذَا الشَّارِعُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ؟

فَأَنْزَلَ الشَّارِعُ الْمَعْبُودُ إِلَيْنَا مِنْهَاجًا لِيَعْرِفَ عَابِدُوهُ مِنْ خِلَالِهِ كَيْفَ يَعْبُدُونَهُ، وَلَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ الْعِبَادَةُ شَامِلَةً لِكُلِّ الْوَظَائِفِ الَّتِي تَحْفَظُ الْحَيَاةَ، وَلِذَا فَالْعِبَادَةُ تَتَكَرَّرُ فِي الصُّوَرِ الْمُخْتَلِفَةِ الْمُنَظِّمَةِ لِحَيَاةِ الْإِنْسَانِ مَعَ نَفْسِهِ وَمَنْ حَوَالَيْهِ، وَيَتِمُّ التَّذْكِيرُ بِهَا مِنْ خِلَالِ التَّكْرِيرِ، فَالصَّلَاةُ تُذَكِّرُ بِالْأَمَانَةِ الْمَالِيَّةِ وَأَمَانَةِ الْمَسْؤُولِيَّةِ مَثَلًا؛ لِأَنَّهَا فِي صُورَتِهَا الْحَقِيقِيَّةِ ﴿تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، وَهَكَذَا بَقِيَّةُ الْمَظَاهِرِ الْعِبَادِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ الرَّائِعَةِ.

لَا بَدِيلَ عَنِ النِّظَامِ الْعِبَادِيِّ إِلَّا الْفَوْضَى وَالدَّمَارُ:

لِمَاذَا مُلِئَتِ الْأَبْوَاقُ الْإِعْلَامِيَّةُ بِكُلِّ مَا يُدَمِّرُ الْمُجْتَمَعَ، وَيَجُرُّهُ إِلَى الِانْحِطَاطِ؟ مَتَى سَيُقَدَّمُ نِظَامُ الْعِبَادَةِ الْإِسْلَامِيُّ الرَّائِعُ لِيَمْلَأَ الْحَيَاةَ الِاجْتِمَاعِيَّةَ وَالْإِعْلَامِيَّةَ بِاعْتِبَارِهِ أَهَمَّ قِيمَةٍ عَالَمِيَّةٍ يَحْتَاجُهَا الْعَالَمُ كُلُّهُ؟ لَا نَنْسَى أَنْ نُؤَكِّدَ عَلَى أَنْ يَكُونَ هٰذَا التَّقْدِيمُ قَائِمًا عَلَى إِظْهَارِ الرَّحْمَةِ وَالْمَحَبَّةِ لِلْعَالَمِ دُونَ خَوْفٍ وَلَا رَهْبَةٍ وَلَا تَرَدُّدٍ.

مَا الِانْسِلَاخُ عَنْ عُبُودِيَّةِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا إِلَّا ضَيَاعٌ لِلْمَرْجِعِيَّةِ، وَدَعْوَةٌ صَرِيحَةٌ لِتَقْوِيضِ أُسُسِ الْمُجْتَمَعِ وَاسْتِشْرَاءِ الْفَوْضَى. فَحِينَ يَفْقِدُ النَّاسُ الْبَوْصَلَةَ الْإِلٰهِيَّةَ الْهَادِيَةَ، تَتَفَرَّقُ بِهِمُ الْأَهْوَاءُ

كَالسُّفُنِ بِلَا رُبَّانٍ، فَتَتَعَارَضُ وِجْهَاتُهُمْ، وَتَضْطَرِبُ مَسِيرَتُهُمْ، وَيَحِلُّ الْخَرَابُ مَحَلَّ الْعُمْرَانِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٩].

وَهٰذِهِ الْمَنْزِلَةُ الْعَظِيمَةُ (الْعِبَادَةُ) تَتَضَمَّنُ رَدًّا عَلَى الَّذِينَ يُسَمُّونَ أُمَّةَ الْإِسْلَامِ بِالْمُحَمَّدِيِّينَ[1] بَدَلًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فِي مُقَابِلِ تَسْمِيَةِ النَّصَارَى بِالْمَسِيحِيِّينَ؛ لِتَضْلِيلِ النَّاسِ بِأَنَّ النَّصَارَى كَمَا يَعْبُدُونَ يَسُوعَ عِيسَى عليه السلام، فَكَذَلِكَ الْمُحَمَّدِيُّونَ. وَلَكُمْ زَوَّرَ الْإِعْلَامُ الْكَاذِبُ الْحَقَائِقَ!

اللَّهُمَّ وَفِّقْنَا لِنَيْلِ شَرَفِ عِبَادَتِكَ عَلَى خَيْرِ وَجْهٍ تُحِبُّهُ، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.

❋❋❋

(١) لَا يَعْنِي هٰذَا الْمَنْعَ مِنَ التَّسْمِيَةِ؛ إِذْ تَجُوزُ الْإِضَافَةُ لِأَدْنَى مُلَابَسَةٍ، لَكِنَّ الْمَقْصُودَ الْمَنْعُ عِنْدَمَا تَكُونُ التَّسْمِيَةُ بَدِيلَةً عَنِ اسْمِ (الْمُسْلِمِينَ)، أَوْ يُقْصَدُ بِهَا مَعْنًى بَاطِلٌ، وَهٰذِهِ التَّسْمِيَةُ أَطْلَقَهَا كَثِيرٌ مِنْ خُصُومِ الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ قَدِيمًا وَحَدِيثًا.

جِسْرُ اتِّصَالٍ: هُنَا يَأْتِي سُؤَالٌ ضَرُورِيٌّ: عِبَادَةُ اللهِ شَيْءٌ عَظِيمٌ، فَكَيْفَ يَسْتَطِيعُ الْمَخْلُوقُ الَّذِي لَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا أَنْ يَعْبُدَ اللهَ حَقَّ عِبَادَتِهِ؟

الْجَوَابُ: هُنَا يَأْتِي:

الْمَقْصَدُ السَّادِسُ

الِاسْتِعَانَةُ بِاللهِ ﷻ نِظَامٌ تَعَبُّدِيٌّ يُظْهِرُ الِافْتِقَارَ لِقُوَّةِ الْقَادِرِ الْقَهَّارِ، وَيُعِينُ عَلَى بِنَاءِ الْحَيَاةِ وَتَحْقِيقِ النَّجَاحِ وَفْقَ أَنْظِمَةِ الْعِبَادَةِ ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

لَسْتَ وَحْدَكَ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ، فَاللهُ ﷻ مَعَكَ يُعِينُكَ فِي كُلِّ شَيْءٍ. أَظْهِرْ فَقْرَكَ لِلْوَاحِدِ الْقَهَّارِ، وَاسْتَمْطِرْ مَدَدَ خَيْرَاتِهِ الْغِزَارِ، عِنْدَهَا سَيَنْهَالُ عَلَيْكَ عَطَاؤُهُ الْمِدْرَارُ، وَالِاسْتِعَانَةُ بِاللهِ تَشْفِي مِنْ أَمْرَاضِ الْعُجْبِ وَالْغُرُورِ وَالْكِبْرِيَاءِ.

إِنَّنَا نَحْتَاجُ فِي نِظَامِ الْعِبَادَةِ إِلَى مُعِينٍ عَلَيْهِ، وَمُبَيِّنٍ لِطَرِيقِهِ، فَكَانَ هَذَا الْمَقْصَدُ الَّذِي يُعَرِّفُنَا بِوَسِيلَةِ إِقَامَةِ وَظِيفَةِ الْعِبَادَةِ.

إِنَّ الِاسْتِعَانَةَ تُبَيِّنُ الِافْتِقَارَ الْإِنْسَانِيَّ لِلْقُوَّةِ الْإِلَهِيَّةِ الْقَادِرَةِ الَّتِي تَجْبُرُ الْكَسْرَ، وَتُزِيلُ الضَّعْفَ لِيَسْتَطِيعَ الْإِنْسَانُ الْقِيَامَ بِالْوَظَائِفِ الْحَيَاتِيَّةِ وَفْقَ النِّظَامِ الْعِبَادِيِّ، فَبِالِاسْتِعَانَةِ يُحَقِّقُ الْخَلْقُ الْغَايَةَ مِنْ وُجُودِهِمْ، وَيُلَبُّونَ طُمُوحَاتِهِمْ، وَيَنَالُونَ مُرَادَهُمْ، وَيُحْرِزُونَ انْتِصَارَاتِهِمْ.

بَعْدَ أَنْ عَرَفْنَا الْمَقْصَدَ السَّادِسَ مِنْ مَقَاصِدِ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ، مَا الْبَصَائِرُ الْكُلِّيَّةُ الَّتِي تَنْدَرِجُ تَحْتَ هَذَا الْمَقْصَدِ؟

الْجَوَابُ: فِي هَذَا الْمَقْصَدِ أَرْبَعُ بَصَائِرَ كُلِّيَّةٍ:

المقصد السادس

الاستعانة بالله نظام تعبدي يظهر الافتقار لقوة القادر القهار ليعين على بناء الحياة وتحقيق النجاح وفق أنظمة العبادة، ويبصِّرنا بذلك قوله تعالى: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: 5]

بَصِيرَة 01

﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ تحصر طلبَ العون ليكون من الله لا من غيره؛ تعظيمًا وحمايةً من العجب والكبرياء

بَصِيرَة 02

﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ تبني الاستقلال الذاتي، والتحرر من التبعية للآخرين

بَصِيرَة 03

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ تُصَوِّرُ كمالَ التحقُّق، والتعلُّق، والتخلُّق؛ أي التحقق بعبودية الله الواحد، وعظيم التعلق بالرب الكريم الماجد، وجميل التخلق بالقرآن الكريم الشاهد، وتُصَوِّرُ لذَّةَ المناجاة والحب، وجمال الود والقرب.

بَصِيرَة 04

﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ تعني أن «من علامات النجاح في النهايات اللجوء إلى الله في البدايات».

الْبَصِيرَةُ الْأُولَى

﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ تَحْصُرُ طَلَبَ الْعَوْنِ لِيَكُونَ مِنَ اللهِ لَا مِنْ غَيْرِهِ؛ تَعْظِيمًا وَحِمَايَةً مِنَ الْعُجْبِ وَالْكِبْرِيَاءِ

إن إِنَّ الِافْتِقَارَ الدَّائِمَ سِمَةٌ لَازِمَةٌ لِلْإِنْسَانِيَّةِ فِي الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ وَالنَّفَسِ وَالْحَرَكَةِ وَكُلِّ مُتَطَلَّبَاتِ الْحَيَاةِ، وَهَذَا الِافْتِقَارُ يَحُولُ بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَبَيْنَ الْقِيَامِ بِكَثِيرٍ مِنْ طُمُوحَاتِهِ لِتَحْقِيقِ مُتَطَلَّبَاتِ الْوَظِيفَةِ الْعِبَادِيَّةِ الَّتِي يَنْتَمِي إِلَيْهَا إِعْمَارُ الْحَيَاتَيْنِ: الْأُولَى، وَالْأُخْرَى، فَأَرَاهُ رَبُّهُ وَسِيلَةَ الْإِعَانَةِ لِلْقِيَامِ بِالْوَظِيفَةِ الْحَيَاتِيَّةِ: إِنَّهَا نِظَامٌ تَعَبُّدِيٌّ خَاصٌّ هُوَ الِاسْتِعَانَةُ.

الِاسْتِعَانَةُ ثِقَةٌ وَتَوَكُّلٌ:

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ ﷺ: "الِاسْتِعَانَةُ تَجْمَعُ أَصْلَيْنِ: الثِّقَةَ بِاللهِ، وَالِاعْتِمَادَ عَلَيْهِ، فَإِنَّ الْعَبْدَ قَدْ يَثِقُ بِالْوَاحِدِ مِنَ النَّاسِ، وَلَا يَعْتَمِدُ عَلَيْهِ فِي أُمُورِهِ مَعَ ثِقَتِهِ بِهِ لِاسْتِغْنَائِهِ عَنْهُ، وَقَدْ يَعْتَمِدُ عَلَيْهِ مَعَ عَدَمِ ثِقَتِهِ بِهِ لِحَاجَتِهِ إِلَيْهِ، وَلِعَدَمِ مَنْ يَقُومُ مَقَامَهُ، فَيَحْتَاجُ إِلَى اعْتِمَادِهِ عَلَيْهِ، مَعَ أَنَّهُ غَيْرُ وَاثِقٍ بِهِ"(١).

الِاسْتِعَانَةُ بِاللهِ أَوْثَقُ نِظَامٍ وِقَائِيٍّ مِنْ أَمْرَاضِ الْعُجْبِ وَالْغُرُورِ:

الِاسْتِعَانَةُ بِاللهِ وَحْدَهُ هِيَ وَسِيلَةُ الْإِعَانَةِ لِلنُّفُوسِ الَّتِي افْتَقَرَتْ إِلَيْهِ، وَاسْتَغْنَتْ بِهِ، وَبِذَا يَبْنِي نِظَامُ الِاسْتِعَانَةِ (التَّزْكِيَةَ الذَّاتِيَّةَ فِي الْمَخْلُوقِينَ، وَيُعِينُهُمْ عَلَى الشِّفَاءِ مِنْ أَمْرَاضِ الْعُجْبِ وَالْغُرُورِ وَالْكِبْرِيَاءِ) مِنْ خِلَالِ قَوْلِهِ تَعَالَى:﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (١/ ٩٦)

الِاسْتِعَانَةُ بِاللهِ مِنْ أَعْظَمِ مَظَاهِرِ التَّوْحِيدِ:

مَتِّعْ سَمْعَكَ بِهَذَا التَّعْبِيرِ الَّذِي مَا زَالَ أَئِمَّةُ السُّلُوكِ وَالتَّفْكِيرِ يَجِدُونَ فِيهِ مِنَ الْمَعَانِي مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ؛ فَقَدْ حَصَرَ طَلَبَ الْعَوْنِ فِيهِ ﷻ، وَأَفَادَ الْحَصْرَ وَالِاخْتِصَاصَ عِنْدَمَا قَدَّمَ الْمَفْعُولَ ﴿وَإِيَّاكَ﴾ عَلَى الفِعْلِ ﴿نَعْبُدُ﴾ وعَلَى الفِعْلِ ﴿نَسْتَعِينُ﴾، فَالْحَصْرُ وَالِاخْتِصَاصُ يَعْنِي نَفْيَ الْعِبَادَةِ وَالِاسْتِعَانَةِ عَنْ كُلِّ مَا سِوَى اللهِ تَعَالَى؛ إِذْ مَعْنَى الْجُمْلَتَيْنِ: نَعْبُدُكَ وَحْدَكَ، وَلَا نَعْبُدُ أَحَدًا غَيْرَكَ، وَنَسْتَعِينُ بِكَ وَحْدَكَ، وَلَا نَسْتَعِينُ بِأَحَدٍ سِوَاكَ، وَلَوْ قَالَ: «نَعْبُدُكَ، وَنَسْتَعِينُ بِكَ» لَكَانَ التَّعْبِيرُ غَيْرَ دَالٍّ عَلَى الْمَنْعِ مِنْ عِبَادَةِ غَيْرِهِ، وَمِنَ الِاسْتِعَانَةِ بِسِوَاهُ مِنْ حَيْثِ التَّرْكِيبِ لِهَذِهِ الْجُمْلَةِ، وَإِنْ دَلَّ عَلَى الْمَنْعِ بِأَدِلَّةٍ خَارِجِيَّةٍ.

وَهُنَا تَعْلَمُ عَظَمَةَ الْوَصِيَّةِ النَّبَوِيَّةِ لِابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ حِينَمَا قَالَ لَهُ: «يَا غُلَامُ، إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ: احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ. احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ. إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ. رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ»[1].

أَنْوَاعُ الْعُبَّادِ فِي مَقَامِ الِاسْتِعَانَةِ:

وَهُنَا يَتَبَادَرُ سُؤَالٌ: مَا أَحْوَالُ الْعُبَّادِ فِي مَقَامِ الِاسْتِعَانَةِ بِاللهِ عَلَى عِبَادَتِهِ؟ وَمَا أَنْوَاعُهُمْ بِالنَّظَرِ إِلَى ذَلِكَ؟

وَالْجَوَابُ: انْقَسَمَ الْعُبَّادُ إِلَى أَرْبَعَةِ أَنْوَاعٍ فِي مَقَامِ الِاسْتِعَانَةِ بِاللهِ عَلَى طَاعَتِهِ:

---

(١) الترمذي (٢٥١٦) وقال حديث حسن صحيح.

النَّوْعُ الْأَوَّلُ: عَبْدٌ مُسْتَنْكِفٌ عَنْ عُبُودِيَّةِ رَبِّهِ، مُعْرِضٌ عَنِ الِاسْتِعَانَةِ بِهِ، مُمْتَلِئٌ عُجْبًا بِقُوَّتِهِ، وَغُرُورًا بِمَا عِنْدَهُ، وَهَذَا لَا كَلَامَ مَعَهُ فِي مَقَامِ الْعُبُودِيَّةِ وَلَا الِاسْتِعَانَةِ حَتَّى يُقِرَّ بِرُبُوبِيَّةِ اللهِ ﷻ، وَيُوقِنَ أَنَّهُ لَا قِوَامَ لَهُ وَلِجَمِيعِ الْخَلْقِ إِلَّا بِأَمْرِ اللهِ وَتَدْبِيرِهِ وَتَيْسِيرِهِ.

النَّوْعُ الثَّانِي: عَبْدٌ شَعَرَ بِضَعْفِهِ، وَتَنَازُعِ أَهْوَاءِ نَفْسِهِ، وَاضْطِرَابِهِ، وَتَرَدُّدِهِ، فَتَسَاءَلَ عِنْدَ ذَلِكَ عَنْ كَيْفِيَّةِ الْإِعَانَةِ لِتَحْقِيقِ الْعِبَادَةِ.

النَّوْعُ الثَّالِثُ: عَبْدٌ آخَرُ تَشَرَّفَ بِالْعِبَادَةِ فَأَتَاهُ الشَّيْطَانُ مِنْ بَابِ الْعُجْبِ، وَالْغُرُورِ، فَقَالَ: أَنَا صَلَّيْتُ، وَصُمْتُ، وَأَعَنْتُ الضُّعَفَاءَ، وَقَامَ يُبَاهِي بِأَفْعَالِهِ، فَتَسَاءَلَ كَيْفَ أَطْرُدُ ذَلِكَ؟

النَّوْعُ الرَّابِعُ: عَبْدٌ قَالَ: كُلُّ الَّذِي بَذَلْتُهُ فِي جَنْبِ اللهِ ﷻ قَلِيلٌ لَا يَكْفِينِي فِي الْيَوْمِ الثَّقِيلِ، وَجَمِيعُ عِبَادَاتِي الَّتِي تَقَرَّبْتُ بِهَا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ ﷻ لَا تُؤَهِّلُنِي لِلْفَوْزِ بِجَنَّتِهِ وَنَيْلِ رِضَاهُ؛ فَكَيْفَ أَصْنَعُ؟

فَجَاءَ الْجَوَابُ لَهُمْ:

النَّوْعُ الْأَوَّلُ: جَوَابُ هَذَا الْمَغْرُورِ لَيْسَ فِي نَصٍّ يُقْرَأُ، بَلْ فِي حَقَائِقِ الْكَوْنِ وَالنَّفْسِ الَّتِي تُرَى. فَشُرُوقُ الشَّمْسِ الَّذِي لَا يَمْلِكُهُ، وَنَبْضُ قَلْبِهِ الَّذِي لَا يَأْمُرُهُ، وَضَعْفُهُ حِيَالَ الْمَرَضِ وَالْكِبَرِ، كُلُّهَا شَوَاهِدُ تَكْشِفُ لَهُ عَجْزَهُ الْمُطْلَقَ. فَإِذَا أَدْرَكَ أَنَّ قُوَّتَهُ الْمَزْعُومَةَ مَا هِيَ إِلَّا عَارِيَةٌ مُسْتَرَدَّةٌ، وَأَنَّ الْكَوْنَ كُلَّهُ فَقِيرٌ إِلَى خَالِقِهِ، انْكَسَرَ غُرُورُهُ وَصَارَ مُهَيَّأً لِلْوُقُوفِ بِبَابِ اللهِ طَالِبًا الْعَوْنَ.

النَّوْعُ الثَّانِي: جَاءَتْ جُمْلَةُ ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ عَلَى سَبِيلِ الْإِخْبَارِ لَا عَلَى سَبِيلِ الْأَمْرِ، فَلَمْ يَقُلْ: اسْتَعِينُوا بِي، لِمَاذَا؟ لِبَيَانِ حَالِ الْأَذْكِيَاءِ الْمُتَفَوِّقِينَ بَيْنَ جُمُوعِ الْعَالَمِينَ، فَقَدِ اخْتَصَرُوا طَرِيقَ الْعَنَاءِ، فَاسْتَعَانُوا بِرَحْمَنِ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ، فَاللهُ ﷻ هُوَ الَّذِي يُعِينُ الضَّعِيفَ، وَيُنْجِيهِ مِنْ نَوَازِعِ السُّوءِ فِي نَفْسِهِ، وَيُقِيمُهُ عَلَى جَادَّةِ الْعُبُودِيَّةِ الْحَقَّةِ، فَتَتَحَقَّقُ لَهُ بِالِاسْتِعَانَةِ

الْغَلَبَةُ عَلَى هَوَاهُ وَعَلَى شَيْطَانِهِ وَيَنْتَصِرُ فِي مَعْرَكَتِهِ الْمَصِيرِيَّةِ، لِأَنَّهُ اسْتَنَدَ إِلَى حِصْنٍ حَصِينٍ وَرُكْنٍ رَكِينٍ كَمَا يَقُولُ الشَّاعِرُ:

وَإِذَا الْعِنَايَةُ لَاحَظَتْكَ عُيُونُهَا ... نَمْ فَالْمَخَاوِفُ كُلُّهُنَّ أَمَانُ

وَفِي الْيَوْمِ الَّذِي يَغْفُلُ فِيهِ الْعَبْدُ عَنْ رَبِّهِ وَتَتَخَلَّفُ عَنْهُ مَعُونَتُهُ تَقُودُهُ قَدَمَاهُ إِلَى مَوَاطِنِ الْخِذْلَانِ، وَيَسِيرُ بِنَفْسِهِ إِلَى حَتْفِهِ، كَمَا يَقُولُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ﷺ:

إِذَا لَمْ يَكُنْ عَوْنٌ مِنَ اللهِ لِلْفَتَى ... فَأَوَّلُ مَا يَجْنِي عَلَيْهِ اجْتِهَادُهُ[1]

النَّوْعُ الثَّالِثُ: شِعَارُ ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ يَمْنَعُ الْغُرُورَ مِنْ أَنْ يَتَسَرَّبَ لِلْعَبْدِ الْقَوِيِّ الشَّرِيفِ؛ إِذِ الِاسْتِعَانَةُ إِقْرَارٌ بِالْعَجْزِ وَالضَّعْفِ يَدْفَعُ لِلتَّوَاضُعِ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَالِانْطِرَاحِ عَلَى أَعْتَابِهِ طَالِبًا عَوْنَهُ وَتَوْفِيقَهُ وَتَسْدِيدَهُ، كَمَا أَنَّ الِاسْتِعَانَةَ تُجَرِّدُ الْعَبْدَ تَمَامًا مِنْ حَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ، وَرُكُونٌ كَامِلٌ إِلَى حَوْلِ اللهِ وَقُوَّتِهِ.

وَيُقَرِّرُ الْمُرَبِّي الْعَظِيمُ ابْنُ الْقَيِّمِ ﷺ أَنَّ مِنْ نِعَمِ اللهِ عَلَى الْعَبْدِ أَنْ "يَرْفَعَ عَنْهُ حِجَابَ الدَّعْوَى، وَيَفْتَحَ لَهُ طَرِيقَ الْفَاقَةِ، فَإِنَّهُ لَا حِجَابَ أَغْلَظُ مِنَ الدَّعْوَى، وَلَا طَرِيقَ أَقْرَبُ مِنَ الْعُبُودِيَّةِ، فَإِنَّ دَوَامَ الْفَقْرِ إِلَى اللهِ مَعَ التَّخْلِيطِ خَيْرٌ مِنَ الصَّفَاءِ مَعَ الْعُجْبِ"[2].

النَّوْعُ الرَّابِعُ: بِإِعَانَةِ اللهِ تَعَالَى يُبَارِكُ لِعَبْدِهِ الْقَلِيلَ؛ لِيَقْبَلَهُ فِي الْيَوْمِ الْعَظِيمِ الطَّوِيلِ، وَمِنْ هُنَا تَعْلَمُ مَا لِلنَّوَايَا الصَّالِحَةِ وَالْمَقَاصِدِ الصَّحِيحَةِ، وَالِاسْتِعَانَةِ بِاللهِ مِنْ أَثَرٍ قَوِيٍّ فِي مُبَارَكَةِ الْأَعْمَالِ، وَمُضَاعَفَةِ الْأُجُورِ، وَنَيْلِ رِضَا الْعَزِيزِ الْغَفُورِ، فَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ

---

(١) الفرج بعد الشدة، التنوخي (ص: ١٧٧).

(٢) طريق الهجرتين وباب السعادتين (ص: ١٧١).

ﷺ رَجَعَ مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ فَدَنَا مِنَ الْمَدِينَةِ، فَقَالَ: «إِنَّ بِالْمَدِينَةِ أَقْوَامًا، مَا سِرْتُمْ مَسِيرًا، وَلَا قَطَعْتُمْ وَادِيًا إِلَّا كَانُوا مَعَكُمْ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ؟ قَالَ: «وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ، حَبَسَهُمُ الْعُذْرُ»[1].

وَمِثْلُهُ مَا رُوِيَ مِنْ حَدِيثِ: «نِيَّةُ الْمُؤْمِنِ خَيْرٌ مِنْ عَمَلِهِ»[2]، فَقَدْ قِيلَ فِي مَعْنَاهُ: أَنَّ الْمُؤْمِنَ يَنْوِي مِنَ الْعَمَلِ أَكْثَرَ مِمَّا يُطِيقُ فَيُكْتَبُ أَجْرُ نِيَّتِهِ، يَقُولُ أَبُو بَكْرٍ الدِّينَوَرِيُّ: "وَمَعْنَى هَذَا الْحَدِيثِ حَسَنٌ؛ وَذَلِكَ أَنَّ اللهَ ﷻ يُخَلِّدُ الْمُؤْمِنَ فِي جَنَّتِهِ بِنِيَّتِهِ لَا بِعَمَلِهِ، وَلَوْ جُزِيَ بِعَمَلِهِ؛ لَمْ يَسْتَوْجِبِ التَّخْلِيدَ؛ لِأَنَّهُ عَمِلَ فِي سِنِينَ مَعْدُودَةٍ، وَالْجَزَاءُ يَقَعُ بِمِثْلِهَا وَأَضْعَافِهَا، وَإِنَّمَا يُخَلِّدُهُ اللهُ ﷻ بِنِيَّتِهِ؛ لِأَنَّهُ كَانَ نَاوِيًا أَنْ يُطِيعَ اللهَ ﷻ أَبَدًا لَوْ أَبْقَاهُ أَبَدًا، فَلَمَّا اخْتَرَمَهُ دُونَ نِيَّتِهِ؛ جَزَاهُ عَلَيْهَا التَّخْلِيدَ أَبَدًا، وَكَذَلِكَ الْكَافِرُ نِيَّتُهُ شَرٌّ مِنْ عَمَلِهِ؛ لِأَنَّهُ كَانَ نَاوِيًا أَنْ يُقِيمَ عَلَى كُفْرِهِ أَبَدًا، فَلَمَّا اخْتَرَمَهُ اللهُ ﷻ دُونَ نِيَّتِهِ؛ جَزَاهُ التَّخْلِيدَ فِي جَهَنَّمَ أَبَدًا"[3].

فَاللهُ يُبَلِّغُ عَبْدَهُ الْمُسْتَعِينَ بِهِ الدَّرَجَاتِ الْعُلَى، وَيُنِيلُهُ مِنْ عَطَايَاهُ الْفُضْلَى مَا لَا يَصِلُهُ عَمَلُهُ، وَلَا يَبْلُغُهُ أَمَلُهُ.

وَبَيَّنَ اللهُ ﷻ لَهُمْ جَمِيعًا أَنَّهُ لَا يُعِينُ عَلَى الْعِبَادَةِ سِوَاهُ، وَحَصَرَ الِاسْتِعَانَةَ بِهِ لِتَتِمَّ الرَّغْبَةُ الْكَامِلَةُ فِيمَا عِنْدَهُ، وَلِتَنْزِلَ السَّكِينَةُ عَلَى الْقُلُوبِ بِشُعُورٍ مُفْعَمٍ يُزِيلُ الْكُرُوبَ أَنَّهُ لَا مُعِينَ إِلَّا اللهُ -جَلَّ فِي عُلَاهُ-، وَلِذَا جَاءَ فِي بَعْضِ الْآثَارِ: «إِنَّ مِنْ ضَعْفِ الْيَقِينِ أَنْ تُرْضِيَ النَّاسَ بِسَخَطِ اللهِ، وَأَنْ تَحْمَدَهُمْ عَلَى رِزْقِ اللهِ، وَأَنْ تَذُمَّهُمْ عَلَى مَا لَمْ يُؤْتِكَ اللهُ. إِنَّ رِزْقَ اللهِ لَا يَجُرُّهُ حِرْصُ

---

(١) البخاري (٤٤٢٣).

(٢) الطبراني في الكبير (٥٩٤٢)، وضعفه الألباني، إلا أن معناه صحيح.

(٣) المجالسة وجواهر العلم (٤/ ٢٠٣).

حَرِيصٍ، وَلَا يَرُدُّهُ كُرْهُ كَارِهٍ، إِنَّ اللهَ بِحُكْمِهِ وَجَلَالِهِ جَعَلَ الرَّوْحَ وَالْفَرَحَ فِي الرِّضَا وَالْيَقِينِ، وَجَعَلَ الْغَمَّ وَالْحُزْنَ فِي الشَّكِّ وَالسَّخَطِ»[1].

وَهَاهُوَ الرَّسُولُ يُعَلِّمُنَا أَنْ نَطْلُبَ مِنَ اللهِ مَعُونَتَهُ عَلَى ذِكْرِهِ، فَعَنْ مُعَاذٍ ﷺ قَالَ: لَقِيَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «يَا مُعَاذُ، إِنِّي لَأُحِبُّكَ». فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَأَنَا وَاللهِ أُحِبُّكَ. قَالَ: «فَإِنِّي أُوصِيكَ بِكَلِمَاتٍ تَقُولُهُنَّ فِي كُلِّ صَلَاةٍ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ، وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ»[2]، فَحَالُ الْعَابِدِ لِلَّهِ بَعْدَ صَلَاتِهِ وَعِبَادَتِهِ لِرَبِّهِ أَنْ يَسْتَشْعِرَ حَاجَتَهُ لِإِعَانَتِهِ عَلَى عِبَادَتِهِ وَيَعْلَمَ عَجْزَهُ فَيَقُولَ: رَبِّ أَعِنِّي فَلَا اسْتِطَاعَةَ لِي لَوْلَا عَوْنُكَ. رَبِّ أَعِنِّي عَلَى شُكْرِكَ وَذِكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ، فَأَنَا عَاجِزٌ عَنْ فِعْلِ ذَلِكَ دُونَ مَعُونَتِكَ لِي.

وَمَرَدُّ الِاسْتِعَانَةِ بِاللهِ إِلَى التَّوَكُّلِ عَلَيْهِ، وَالْوَصْلَةُ بَيْنَهُمَا وَثِيقَةٌ، وَمَعْهُودُ الْقُرْآنِ أَنْ يَقْرِنَ بَيْنَ الِاسْتِعَانَةِ (التَّوَكُّلِ) وَالْعِبَادَةِ، وَقَدْ جَاءَ ذَلِكَ فِي مَوَاضِعَ عِدَّةٍ مِنْهَا:

١) قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ فِي الْفَاتِحَةِ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الْفَاتِحَة: ٥].

٢) قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هُود: ٨٨].

٣) قَوْلُ اللهِ تَعَالَى عَلَى لِسَانِ شُعَيْبٍ عليه السلام: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [هُود: ١٢٣].

٤) قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرَّعْد: ٣٠].

٥) قَوْلُهُ- عَزَّ مَنْ قَائِلٍ- حِكَايَةً عَنِ الْمُؤْمِنِينَ: ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [الْمُمْتَحَنَة: ٤].

---

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان (١ / ٣٨٣) عن أبي سعيد الخدري، وأشار إلى ضعف إسناده فقال: "مُحَمَّدُ بْنُ مَرْوَانَ ضَعِيفٌ، وَرُوِي ذَلِكَ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ مِنْ قَوْلِهِ مَرَّةً، وَمَرْفُوعًا أُخْرَى"، ولكن المعنى كالشمس.

(٢) أحمد (٣٦/ ٤٤٣ ط الرسالة)، قال الأرنؤوط إسناده صحيح.

٦) قَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا (٨) رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [الْمُزَّمِّل: ٨، ٩].

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رحمه الله: «هَذِهِ سِتَّةُ مَوَاضِعَ يَجْمَعُ فِيهَا بَيْنَ الْأَصْلَيْنِ، وَهُمَا ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الْفَاتِحَة: ٥]، وَتَقْدِيمُ "الْعِبَادَةِ" عَلَى "الِاسْتِعَانَةِ" فِي الْفَاتِحَةِ مِنْ بَابِ تَقْدِيمِ الْغَايَاتِ عَلَى الْوَسَائِلِ؛ إِذِ "الْعِبَادَةُ" غَايَةُ الْعِبَادِ الَّتِي خُلِقُوا لَهَا، وَ"الِاسْتِعَانَةُ" وَسِيلَةٌ إِلَيْهَا»[(١)].

وَهُنَا قَدْ تَسْأَلُ: كَيْفَ تُؤَثِّرُ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى صَلَاحِ حَالِ الْإِنْسَانِ وَشِفَائِهِ، وَمَنْ حَوْلَهُ مِنَ النَّاسِ مِنَ الْأَمْرَاضِ الْقَلْبِيَّةِ وَالْقَوْلِيَّةِ وَالْفِعْلِيَّةِ؟

الْجَوَابُ: عَجَائِبُ هَذِهِ الْجُمْلَةِ الْمُبَارَكَةِ ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ لَا تَنْقَضِي؛ إِذْ إِنَّهَا تُعَالِجُ مَرَضًا كَامِنًا، وَغَرِيزَةً مُخْتَبِئَةً فِيكَ أَيُّهَا الْعَابِدُ، هِيَ: غَرِيزَةُ الْعُجْبِ؛ إِذِ الْغُرُورُ وَالْعُجْبُ جُزْءٌ مِنَ النَّفْسِيَّةِ الْإِنْسَانِيَّةِ كَمَا قَالَ ابْنُ حَزْمٍ رحمه الله: «قَدْ يَكُونُ الْعُجْبُ كَمِينًا فِي الْمَرْءِ، حَتَّى إِذَا حَصَلَ عَلَى أَدْنَى جَاهٍ وَمَالٍ ظَهَرَ عَلَيْهِ، وَعَجَزَ عَقْلُهُ عَنْ قَمْعِهِ...»[(٢)]، وَإِنَّ الْعُجْبَ لَدَاءٌ دَوِيٌّ، يُورِثُ مَنْ أَسْلَمَ نَفْسَهُ لَهُ وَبَالًا عَظِيمًا، وَيَحْمِلُهُ عَلَى أَنْ يَجْتَرِحَ بِمَنْ حَوْلَهُ ظُلْمًا جَسِيمًا، وَقَدِيمًا قَالَ الْمُتَنَبِّي:

وَالظُّلْمُ مِنْ شِيَمِ النُّفُوسِ فَإِنْ تَجِدْ ذَا عِفَّةٍ فَلِعِلَّةٍ لَا يَظْلِمُ[(٣)]

---

(١) مدارج السالكين، (١/ ٩٧).

(٢) الأخلاق والسير ص١٥٩.

(٣) ديوان المتنبي (ص٥٧١)، في قصيدة رائعة مطلعها: لِهَوَى النُّفُوسِ سَرِيرَةٌ لا تُعْلَمُ *** عَرَضًا نَظَرْتُ وَخِلْتُ أَنِي أَسْلَمُ.

وَأَعْظَمُ الْأَدْوَاءِ الَّتِي تُثِيرُ زَوَابِعَ الْمُشْكِلَاتِ بَيْنَ الْإِخْوَةِ الْمُتَقَارِبِينَ فَضْلًا عَنِ الْأَعْدَاءِ الْمُتَحَارِبِينَ: الْكِبْرُ وَالْغَطْرَسَةُ، وَالِاسْتِجَابَةُ لِدَوَاعِي الْفُجُورِ الْإِنْسَانِيِّ. وَلَا حَلَّ يَجْتَثُّ هَذِهِ الْمَعَانِيَ إِلَّا بِالشُّعُورِ بِالِافْتِقَارِ إِلَى اللهِ، وَالذُّلِّ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَأَنَّ الْإِنْسَانَ لَيْسَ بِشَيْءٍ لَوْلَا تَوْفِيقُ اللهِ وَرَحْمَتُهُ.

الِاسْتِعَانَةُ الْحَقِيقِيَّةُ تَقْضِي عَلَى كَوَامِنِ الْكِبْرِ، وَبَوَاعِثِ الْعُجْبِ الَّتِي هِيَ جُزْءٌ مِنَ الطَّبِيعَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ، فَقَدْ قَرَّرَ أَسَاتِذَةُ التَّرْبِيَةِ الْإِيمَانِيَّةِ أَنَّ لِكُلِّ إِنْسَانٍ حَظَّهُ مِنَ الْكِبْرِ ظَهَرَ أَوِ اسْتَتَرَ، فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيَقْمَعُهُ، وَأَمَّا الْمُنَافِقُ فَيُطْلِعُهُ، وَبَيْنَهُمَا مَرَاتِبُ تَطْرَأُ عَلَى قَلْبِ كُلِّ إِنْسَانٍ حَسَبَ مُجَاهَدَتِهِ لِنَفْسِهِ.

وَإِذَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ قَالَ: «وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا»[1]، فَهَذَا النَّبِيُّ ﷺ الَّذِي بَرَّأَهُ اللهُ مِنْ حَظِّ الشَّيْطَانِ فَكَيْفَ غَيْرُهُ؟

إِنَّ مِفْتَاحَ الْعِلَاجِ لِدَفْعِ الْكِبْرِ وَالظُّلْمِ وَالْعُجْبِ، يَتَمَثَّلُ فِي اتِّهَامِ النَّفْسِ وَمُحَاسَبَتِهَا، وَنُصْرَةِ جَانِبِ التَّقْوَى عَلَى جَانِبِ الْفُجُورِ فِيهَا. وَاتِّهَامُ النَّفْسِ يَعْنِي الشُّعُورَ بِالِافْتِقَارِ لِعَوْنِ الرَّحِيمِ الْغَفَّارِ، وَهُنَا نَعْرِفُ مَعْنَى: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

فَتَأْتِي تِلَاوَتُكَ لِهَذِهِ الْجُمْلَةِ الْمُبَارَكَةِ لِتُبَيِّنَ لَكَ أَنَّ حَاجَتَكَ إِلَى اللهِ دَائِمَةٌ، وَتُبْقِيَكَ عَلَى طَرِيقِهِ الْمُسْتَقِيمِ، فَقَائِلُهَا يَشْعُرُ بِحَاجَتِهِ إِلَى رَبِّهِ لِيُذْهِبَ عَنْهُ هَذَا الشُّعُورَ؛ إِذْ مَا قَدْ يَعْتَرِيهِ مِنْ كِبْرِيَاءَ رُبَّمَا أَصَابَهُ عِنْدَمَا قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، فَأَنْتَ أَيُّهَا الْعَابِدُ لِلَّهِ لَمْ تَعْبُدْهُ بِقُوَّتِكَ بَلْ بِإِعَانَتِهِ،

---

(١) الترمذي (٣/ ٤١٣) برقم١١٠٥، وقال: حديث حسن، وصححه الألباني.

وَاسْمَعْ إِلَى أَبِي الْعَبَّاسِ ابْنِ تَيْمِيَةَ ﷺ حِينَ عَبَّرَ عَنْ هَذَا الِافْتِقَارِ الَّذِي أَثَارَتْهُ جُمْلَةُ ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فِي نَفْسِهِ، فَقَالَ:

أَنَا الْفَقِيرُ إِلَى رَبِّ السَّمَاوَاتِ ... أَنَا الْمُسَيْكِينُ فِي مَجْمُوعِ حَالَاتِي

أَنَا الظَّلُومُ لِنَفْسِي وَهْيَ ظَالِمَتِي ... وَالْخَيْرُ إِنْ جَاءَنَا مِنْ عِنْدِهِ يَاتِي

وَلَيْسَ لِي دُونَهُ مَوْلًى يُدَبِّرُنِي ... وَلَا شَفِيعٌ إِلَى رَبِّ الْبَرِيَّاتِ

إِلَّا بِإِذْنٍ مِنَ الرَّحْمَنِ خَالِقِنَا ... رَبِّ السَّمَاءِ كَمَا قَدْ جَا فِي الْآيَاتِ

وَلَسْتُ أَمْلِكُ شَيْئًا دُونَهُ أَبَدًا ... وَلَا شَرِيكٌ أَنَا فِي بَعْضِ ذَرَّاتِي

وَلَا ظَهِيرٌ لَهُ كَيْ يَسْتَعِينَ بِهِ ... كَمَا يَكُونُ لِأَرْبَابِ الْوِلَايَاتِ

وَالْفَقْرُ لِي وَصْفُ ذَاتٍ لَازِمٍ أَبَدًا ... كَمَا الْغِنَى أَبَدًا وَصْفٌ لَهُ ذَاتِي[1]

***

(١) العقود الدرية ص٣٩١.

جِسْرُ اتِّصَالٍ: عَرَفْنَا الْبَصِيرَةَ الْأُولَى مِنْ بَصَائِرِ الْمَقْصَدِ السَّادِسِ مِنْ مَقَاصِدِ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ، وَهِيَ: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ تَحْضُرُ طَلَبَ الْعَوْنِ فِي اللهِ تَعْظِيمًا وَحِمَايَةً مِنَ الْعُجْبِ وَالْكِبْرِيَاءِ، فَمَا الْبَصِيرَةُ الثَّانِيَةُ؟

الْجَوَابُ: هُنَا تَأْتِي:

الْبَصِيرَةُ الثَّانِيَةُ

﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ تَبْنِي الِاسْتِقْلَالَ الذَّاتِيَّ، وَالتَّحَرُّرَ مِنَ التَّبَعِيَّةِ لِلْآخَرِينَ

مَاذَا يَعْنِي أَنْ تَقُولَ: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾؟

الْجَوَابُ: إِنَّ مَعْنَى هَذِهِ الْجُمْلَةِ أَنْ تَفْزَعَ الْقُلُوبُ إِلَى التَّعَلُّقِ الْمُتَلَهِّفِ بِعَلَّامِ الْغُيُوبِ، لِنَيْلِ كُلِّ مَرْغُوبٍ وَمَطْلُوبٍ، وَدَفْعِ كُلِّ مَكْرُوهٍ وَمَرْهُوبٍ.

إِنَّ هَذَا التَّعَلُّقَ يَا أَخِي -أَيَّدَكَ اللهُ- يَعْنِي الِاسْتِعَانَةَ الْحَقِيقِيَّةَ بِمَنْ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَذَلِكَ يَعْنِي التَّحَرُّرَ عَنْ أَنْ تَذِلَّ نَفْسَكَ لِمَخْلُوقٍ مِثْلِكَ، كَمَا قَالَ عَبْدُ الصَّمَدِ بْنُ الْمُعَذَّلِ فِي امْرَأَةٍ تَطْلُبُ مِنْهُ الِاسْتِعَانَةَ بِالْمَخْلُوقِينَ:

تُكَلِّفُنِي إِذْلَالَ نَفْسِي لِعِزِّهَا ... وَهَانَ عَلَيْهَا أَنْ أُهَانَ وَتُكْرَمَا

تَقُولُ: سَلِ الْمَعْرُوفَ يَحْيَى بْنَ أَكْثَمٍ ... فَقُلْتُ: سَلِيهِ رَبَّ يَحْيَى بْنِ أَكْثَمَا[1]

إِنَّ ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ تَعْنِي تَحْقِيقَ الِاسْتِقْلَالِ الْحَقِيقِيِّ عَنِ الِاسْتِعَانَةِ بِأَيِّ مَخْلُوقٍ أَوْ فَرْدٍ سِوَى اللهِ، انْظُرْ -وَفَّقَكَ اللهُ وَأَيَّدَكَ- كَيْفَ يُفَصِّلُ اللهُ هَذَا الْمَعْنَى الْجَلِيلَ تَفْصِيلًا يَسْتَوْعِبُ

(١) عيون الأخبار، ابن قتيبة (٣/ ٢٠٩).

الْكَثِيرَ وَالْقَلِيلَ، إِلَّا أَنَّ ذَلِكَ يَتِمُّ -يَا لَلْعَظَمَةِ- مِنْ خِلَالِ كَلِمَتَيْنِ فَقَطْ ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، بَلْ تَأَمَّلْ كَيْفَ يَجْمَعُ حَصْرُ الِاسْتِعَانَةِ إِلَى مَعْنًى آخَرَ -يُنْبِتُ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ- هُوَ تَعْظِيمُ مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ سُبْحَانَهُ؛ إِذْ تَقَدَّمَ الضَّمِيرُ ﴿وَإِيَّاكَ﴾ الَّذِي يَرْجِعُ إِلَى اللهِ تَعَالَى عَلَى فِعْلِ الْعِبَادِ ﴿نَسْتَعِينُ﴾، وَهَذَا التَّقْدِيمُ لَيْسَ لِلْحَصْرِ فَقَطْ بَلْ لِلتَّعْظِيمِ، فَفِيهِ تَعْظِيمُ ﴿اللَّهَ﴾ -جَلَّ فِي عُلَاهُ- عِنْدَ الْكَلَامِ عَنْهُ أَوِ الْخِطَابِ بِبَعْضِ مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ، وَالتَّعْظِيمُ لِلْمَلِكِ الْكَبِيرِ لَهُ أَثَرُهُ النَّفْسِيُّ وَالْفِعْلِيُّ عَلَى الْعَبْدِ، كَمَا أَنَّ لَهُ جَمَالَهُ عِنْدَ التَّلَذُّذِ بِتَرْدِيدِهِ، فَكَأَنَّ اللهَ تَعَالَى يُعَوِّدُ الْعِبَادَ عَلَى تَقْدِيمِ مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ؛ لِتَطْمَئِنَّ بِهِ النُّفُوسُ، وَتَنْفَرِجَ بِهِ أَحْوَالُ الْيَوْمِ الْعَبُوسِ.

فَشَرَائِعُ الْإِسْلَامِ تَتَعَلَّقُ بِثَلَاثَةِ أُمُورٍ: بِالْآمِرِ وَالْمَأْمُورِ وَالْأَثَرِ:

فَالْآمِرُ هُوَ اللهُ، فَإِذَا عَرَفْنَا أَنَّهُ هُوَ الْآمِرُ زِدْنَا مَحَبَّةً لَهُ، بِعَكْسِ مَا إِذَا كَانَ الْآمِرُ مَخْلُوقًا فَقَدْ تَلْتَزِمُ، وَلَكِنْ كُرْهًا، وَلِحُبِّنَا لِلْآمِرِ، نُقْبِلُ عَلَى تَطْبِيقِ الْأَوَامِرِ، وَالْأَوَامِرُ تَنْدَرِجُ فِي قَوْلِهِ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وَتَنْفِيذُ الْأَوَامِرِ يُحَقِّقُ الْأَثَرَ، أَيِ النَّتِيجَةَ، وَهِيَ هِدَايَةُ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ.

الِاسْتِعَانَةُ الْخَالِصَةُ الشَّامِلَةُ تُورِثُ الْمَعُونَةَ التَّامَّةَ الْكَامِلَةَ:

وَهُنَا قَدْ تَتَسَاءَلُ عَنْ هَذَا التَّرْكِيبِ ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، فَكَلِمَةُ ﴿نَسْتَعِينُ﴾ تَتَعَدَّى بِـ(عَلَى) فَلِمَاذَا حَذَفَهَا هُنَا؟

إِنَّهُ الْإِعْجَازُ الْبَيَانِيُّ التَّرْبَوِيُّ، فَقَدْ حَذَفَهَا لِيُبَيِّنَ الشُّعُورَ بِعُمُومِ الِاسْتِعَانَةِ بِاللهِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَنَحْنُ نَسْتَعِينُ بِهِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ابْتِدَاءً مِنْ تَصْحِيحِ التَّصَوُّرَاتِ وَالْفُهُومِ وَالْمَعَارِفِ وَالْعُلُومِ، وَوُصُولًا إِلَى صَوَابِ الْأَعْمَالِ وَالتَّنْفِيذِ فِي الْكُلِّيَّاتِ وَالْجُزْئِيَّاتِ؛ نَسْتَعِينُ بِهِ -جَلَّ مَجْدُهُ- فِي الْوَسَائِلِ وَالْأَهْدَافِ وَالْغَايَاتِ، وَفِي الْعُمُومِ وَالتَّفَاصِيلِ؛ نَسْتَعِينُ بِهِ -جَلَّ مَجْدُهُ- فِي النِّيَّاتِ وَالْأَفْعَالِ وَالْأَقَاوِيلِ، فَأَطْلَقَ الِاسْتِعَانَةَ وَلَمْ يُقَيِّدْهَا بِشَيْءٍ مُعَيَّنٍ لِيَكُونَ الْمَعْنَى:

نَسْتَعِينُ بِكَ فِي كُلِّ شَيْءٍ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ. وَالِاسْتِعَانَةُ تُصَوِّرُ أَجْمَلَ مَظَاهِرِ الْعِبَادَةِ، فَهِيَ إِظْهَارُ الْعَبْدِ الضَّعِيفِ افْتِقَارَهُ لِرَحْمَةِ الْمَلِكِ الْعَظِيمِ الْخَبِيرِ اللَّطِيفِ، وَقَدْ قَالَ عُلَمَاءُ التَّرْبِيَةِ الْقَلْبِيَّةِ: "إِنْ أَرَدْتَ وُرُودَ الْمَوَاهِبِ عَلَيْكَ، صَحِّحِ الْفَقْرَ وَالْحَاجَةَ لَدَيْكَ ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠]"[(١)]، فَالْعِبَادَةُ تَقَرُّبٌ لِلْخَالِقِ تَعَالَى، فَهِيَ أَجْدَرُ بِالتَّقْدِيمِ فِي الْمُنَاجَاةِ، وَأَمَّا الِاسْتِعَانَةُ فَهِيَ لِنَفْعِ الْمَخْلُوقِ لِلتَّيْسِيرِ عَلَيْهِ[(٢)].

﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهَا:

١) اسْتِعَانَةٌ قَلْبِيَّةٌ بِطَلَبِ الْإِعَانَةِ وَالْمُسَاعَدَةِ مِنْهُ.

٢) وَاسْتِعَانَةٌ تَشْرِيعِيَّةٌ بِالرُّجُوعِ إِلَى شَرْعِهِ فِي حَيَاتِنَا.

٣) وَاسْتِعَانَةٌ شُعُورِيَّةٌ بِأَنْ تَكُونَ الِاسْتِعَانَةُ بِاللِّسَانِ مُوَافِقَةً لِعَوَاطِفِ الْإِنْسَانِ وَنَبَضَاتِ الْجَنَانِ.

﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ تَعْنِي التَّبَرُّؤَ فِي الْمَجَالَاتِ الِاقْتِصَادِيَّةِ مِنَ الِاسْتِعَانَةِ بِالشَّرِكَاتِ الِاسْتِثْمَارِيَّةِ عَابِرَةِ الْقَارَّاتِ الَّتِي تَمُصُّ دِمَاءَ الشُّعُوبِ وَتَشْفُطُ الثَّرَوَاتِ.

﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ تَعْنِي التَّبَرُّؤَ فِي الْمَجَالَاتِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ مِنَ الْحُلُولِ الْبَشَرِيَّةِ، وَالْعُبُودِيَّةِ لِأَصْحَابِ الْجَاهِ.

﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ تَعْنِي التَّبَرُّؤَ فِي الْمَجَالَاتِ الْعَقَدِيَّةِ مِنَ الِاسْتِعَانَةِ بِالْحَجَرِ وَالْبَشَرِ - الْأَحْيَاءِ مِنْهُمْ وَالْأَمْوَاتِ- فِيمَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا رَبُّ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ،

---

(١) الحكم العطائية، ابن عطاء الله السكندري (ص: ١٧).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ١٨٦).

قَالَ ابْنُ رَجَبٍ رحمه الله: "الْعَبْدُ مُحْتَاجٌ إِلَى الِاسْتِعَانَةِ بِاللهِ فِي فِعْلِ الْمَأْمُورَاتِ وَتَرْكِ الْمَحْظُورَاتِ، وَالصَّبْرِ عَلَى الْمَقْدُورَاتِ كُلِّهَا فِي الدُّنْيَا وَعِنْدَ الْمَوْتِ وَبَعْدَهُ مِنْ أَهْوَالِ الْبَرْزَخِ وَيَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَلَا يَقْدِرُ عَلَى الْإِعَانَةِ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا اللهُ عز وجل.

فَمَنْ حَقَّقَ الِاسْتِعَانَةَ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ أَعَانَهُ اللهُ، وَمَنْ تَرَكَ الِاسْتِعَانَةَ بِاللهِ وَاسْتَعَانَ بِغَيْرِهِ وَكَلَهُ اللهُ إِلَى مَنِ اسْتَعَانَ بِهِ، فَصَارَ مَخْذُولًا وَهُوَ كَذَلِكَ فِي أُمُورِ الدُّنْيَا لِأَنَّهُ عَاجِزٌ عَنِ الِاسْتِقْلَالِ بِجَلْبِ مَصَالِحِهِ وَدَفْعِ مَضَارِّهِ، وَلَا مُعِينَ لَهُ عَلَى مَصَالِحِ دِينِهِ وَدُنْيَاهُ جَمِيعًا إِلَّا اللهُ عز وجل فَمَنْ أَعَانَهُ اللهُ فَهُوَ الْمُعَانُ وَمَنْ خَذَلَهُ اللهُ فَهُوَ الْمَخْذُولُ"(١).

وَبِذَا تَكُونُ مُسْتَعِينًا بِاللهِ عز وجل فِي كُلِّ شُؤُونِ حَيَاتِكَ:

مَعَ اللهِ فِي الْقَلْبِ لَمَّا انْكَسَرْ ... مَعَ اللهِ فِي الدَّمْعِ لَمَّا انْهَمَرْ
مَعَ اللهِ فِي التَّوْبِ رَغْمَ الْهَوَى ... مَعَ اللهِ فِي الذَّنْبِ لَمَّا اسْتَتَرْ
مَعَ اللهِ فِي الرُّوحِ فَوْقَ السَّمَا ... مَعَ اللهِ فِي الْجِسْمِ لَمَّا عَثَرْ
يُنَادِي يُنَاجِي: أَيَا خَالِقِي ... عَثَرْتُ.. زَلَلْتُ.. فَأَيْنَ الْمَفَرْ؟!
مَعَ اللهِ فِي نَسَمَاتِ الصَّبَاحِ ... وَعِنْدَ الْمَسَا فِي ظِلَالِ الْقَمَرْ
مَعَ اللهِ فِي يَقَظَةٍ فِي الْبُكُورِ ... مَعَ اللهِ فِي النَّوْمِ بَعْدَ السَّهَرْ
مَعَ اللهِ فَجْرًا.. مَعَ اللهِ ظُهْرًا ... مَعَ اللهِ عَصْرًا.. وَعِنْدَ السَّحَرْ
مَعَ اللهِ سِرًّا.. مَعَ اللهِ جَهْرًا ... وَحِينَ نَجِدُّ، وَحِينَ السَّمَرْ
مَعَ اللهِ فِي جَارِيَاتِ الرِّيَاحِ ... تُثِيرُ السَّحَابَ فَيَهْمِي الْمَطَرْ

(١) جامع العلوم والحكم، ابن رجب، (٢/ ٣٧٥) -بتصرف-.

فَتَصْحُو الْحَيَاةُ.. وَيَرْبُو النَّبَاتُ ... وَتَزْهُو الزُّهُورُ.. وَيَحْلُو الثَّمَرْ
مَعَ اللهِ حِينَ يَثُورُ الضَّمِيرُ ... وَتَصْحُو الْبَصِيرَةُ.. يَصْحُو الْبَصَرْ
وَعِنْدَ الرُّكُوعِ.. وَعِنْدَ الْخُشُوعِ ... وَعِنْدَ الصَّفَا حِينَ تُتْلَى السُّوَرْ
مَعَ اللهِ قَبْلَ انْبِثَاقِ الْحَيَاةِ ... وَبَعْدَ الْمَمَاتِ.. وَتَحْتَ الْحُفَرْ
مَعَ اللهِ حِينَ نَجُوزُ الصِّرَاطَ ... نَلُوذُ.. نَعُوذُ بِهِ مِنْ سَقَرْ
مَعَ اللهِ فِي سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ... مَعَ اللهِ حِينَ يَطِيبُ النَّظَرْ[1]

إِنَّها ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أَحَدُ كُنُوزِ الدُّنْيَا الَّتِي أَنْزَلَهَا اللهُ مِنْ تَحْتِ الْعَرْشِ؛ لِتُنِيرَ لِلْبَشَرِ طُرُقَهُمُ الْمُظْلِمَةَ. فَالِاسْتِعَانَةُ طَلَبُ الْعَوْنِ، وَالْعَوْنُ وَالْإِعَانَةُ تَسْهِيلُ فِعْلِ شَيْءٍ يَشُقُّ وَيَعْسُرُ عَلَى الْمُسْتَعِينِ وَحْدَهُ.

أَهْلُ الِاسْتِعَانَةِ بِاللهِ قَوْمٌ سَمَتْ نُفُوسُهُمْ، وَتَسَامَتْ هِمَمُهُمْ؛ فَكَانُوا أَشَدَّ النَّاسِ إِبَاءً، وَأَعْظَمَهُمْ تَرَفُّعًا، وَأَزْهَدَ مَنْ فِي الْأَرْضِ مِمَّا فِي أَيْدِي أَهْلِهَا. كَيْفَ لَا، وَقَدِ اسْتَغْنَوْا بِالْوَاهِبِ الْمَنَّانِ عَنْ كُلِّ عَطَاءٍ فَانٍ، وَاسْتَعَانُوا بِالْقَادِرِ الْقَهَّارِ عَلَى كُلِّ خَطْبٍ دَاهِمٍ، وَفَوَّضُوا أُمُورَهُمْ كُلَّهَا إِلَى مُدَبِّرِ الْأَكْوَانِ؟ أُولَئِكَ هُمُ الْأَثْرِيَاءُ بِحَقٍّ، لَيْسَ غِنَاهُمْ دِرْهَمًا يُحْصَى أَوْ دِينَارًا يُقْتَنَى، بَلْ غِنَى الْقَلْبِ بِاللهِ الْعَظِيمِ الْمُتَعَالِ، وَالْجَبَّارِ الَّذِي لَا يُرَامُ جَنَابُهُ.

وَيُمْكِنُ لِسَائِلٍ أَنْ يَسْأَلَ: كَيْفَ يُمْكِنُ بِنَاءُ الِاسْتِقْلَالِ الذَّاتِيِّ وَالْجَمَاعِيِّ فِي الْأُمَّةِ مَعَ أَنَّ اللهَ ﷻ أَمَرَنَا بِالتَّعَاوُنِ مَعَ الْمَخْلُوقِينَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٢]؟

(١) للدكتور عبد المعطي الدالاتي وفقه الله.

مَجَالاتُ الِاسْتِعَانَةِ الْخَاصَّةِ:

وَهُنَا يَنْبَغِي أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ الِاسْتِعَانَةَ الْخَاصَّةَ الَّتِي تَبْنِي الِاسْتِقْلَالَ الذَّاتِيَّ وَالْجَمَاعِيَّ تَنْحَصِرُ فِي مَجَالَيْنِ:

الْمَجَالُ الْأَوَّلُ: مَا لَا قِبَلَ لِلْبَشَرِ بِالْإِعَانَةِ عَلَيْهِ، وَلَا قِبَلَ لِلْمُسْتَعِينِ بِتَحْصِيلِهِ بِمُفْرَدِهِ، فَأَمَّا عَلَى مُسْتَوَى الْأَفْرَادِ فَتَكُونُ -مَثَلًا- بِالْإِعَانَةِ عَلَى التَّحَرُّرِ مِنْ عُبُودِيَّةِ الشَّهَوَاتِ، أَوِ التَّأَثُّرِ بِالشُّبُهَاتِ، وَأَمَّا عَلَى الْمُسْتَوَى الْجَمَاعِيِّ فَمِثْلُ الْإِعَانَةِ عَلَى التَّحَرُّرِ مِنَ التَّبَعِيَّةِ لِمَصَّاصِي دِمَاءِ الْعَالَمِ مِنَ الشَّرِكَاتِ عَابِرَاتِ الْقَارَّاتِ وَالْمُؤَسَّسَاتِ الَّتِي تَعْمَلُ عَلَى الِاحْتِكَارِ، وَالِافْتِكَاكِ مِنْ تَسَلُّطِهِمْ وَالْخُرُوجِ مِنْ مَنْظُومَةِ تَحَكُّمِهِمْ.

﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ تَعْنِي الْحُرِّيَّةَ عَنِ التَّذَلُّلِ لِشَيَاطِينِ الْعَبَثِ الِاقْتِصَادِيِّ الدُّوَلِيِّ، وَالتَّحَرُّرَ مِنَ الْخُضُوعِ لِشُرُوطِ التَّعَامُلِ مَعَ طَوَاغِيتِ الْحُكُومَاتِ الْفَاسِدَةِ وَالْعِصَابَاتِ الْمُجْرِمَةِ، وَبِنَاءِ الرِّقِّ الْجَدِيدِ لِلدُّوَلِ وَالشُّعُوبِ، فَالِاسْتِعَانَةُ بِدَايَةُ التَّحَوُّلِ وَالتَّغَيُّرِ الْإِيجَابِيِّ الْمُتَعَلِّقِ بِالْقُوَّةِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي تَمُدُّ بِعَوْنِ اللهِ تَعَالَى وَتَوْفِيقِهِ.

وَالِاسْتِعَانَةُ بَابُهَا الْحَوْقَلَةُ، وَهِيَ قَوْلُ: "لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ"، فَلَا حَوْلَ عَنْ مَعْصِيَةِ اللهِ إِلَّا بِعِصْمَةِ اللهِ، وَلَا قُوَّةَ عَلَى طَاعَةِ اللهِ إِلَّا بِتَوْفِيقِ اللهِ، وَلَا تَحَوُّلَ مِنْ حَالَةِ الْكَسَلِ إِلَى الْعَمَلِ، وَمِنْ حَالَةِ الْخُمُولِ إِلَى الْحَرَكَةِ وَتَرْكِ الْخَلَلِ، وَمِنْ حَالَةِ الْبُؤْسِ إِلَى السَّعَادَةِ، وَمِنْ حَالَةِ السَّلْبِيَّةِ إِلَى الْإِيجَابِيَّةِ، وَمِنْ حَالَةِ الْجُمُودِ إِلَى التَّغْيِيرِ الْمُثْمِرِ إِلَّا بِقُوَّةٍ، وَهَذِهِ الْقُوَّةُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَجِدَهَا الْمَرْءُ إِلَّا عِنْدَ اللهِ تَعَالَى يُعِينُهُ بِهَا، وَيَمُدُّهُ بِإِيقَادِ شُعْلَتِهَا فِي نَفْسِهِ، وَلِذَا كَانَتْ: "لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ" مِنْ أَعْظَمِ كُنُوزِ الْجَنَّةِ، فَهِيَ مِنْ أَهَمِّ الْأَدِلَّةِ الشُّعُورِيَّةِ وَالْقَوْلِيَّةِ لِلِاسْتِعَانَةِ، فَعَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ ﷺ قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي سَفَرٍ... وَأَنَا خَلْفَهُ، وَأَنَا

أَقُولُ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ. فَقَالَ: «يَا عَبْدَ اللهِ بْنَ قَيْسٍ، أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى كَنْزٍ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ؟». فَقُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ: «قُلْ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ»(١).

وَقَدْ تَلَذَّذَ أَسْلَافُنَا الصَّالِحُونَ وَلَهِجُوا بِهَذَا الْكَنْزِ الْعَظِيمِ، وَأَبْرَزُوا لَنَا مِنْ دَلَالَاتِهِ وَأَسْرَارِهِ كُلَّ مَعْنًى كَرِيمٍ، فَهَذَا الْحَبْرُ ابْنُ عَبَّاسٍ ﷺ قَالَ فِي مَعْنَى (لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ): "لَا حَوْلَ بِنَا عَلَى الْعَمَلِ بِالطَّاعَةِ إِلَّا بِاللهِ وَلَا قُوَّةَ لَنَا عَلَى تَرْكِ الْمَعْصِيَةِ إِلَّا بِاللهِ"(٢)، وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ ﷺ: "لَا حَوْلَ عَنْ مَعْصِيَةِ اللهِ إِلَّا بِعِصْمَتِهِ، وَلَا قُوَّةَ عَلَى طَاعَتِهِ إِلَّا بِمَعُونَتِهِ"(٣).

وَسُئِلَ أَبُو الْهَيْثَمِ الرَّازِيُّ -وَهُوَ إِمَامٌ فِي اللُّغَةِ- عَنْ تَفْسِيرِ (لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ) فَقَالَ: "الْحَوْلُ: الْحَرَكَةُ، يُقَالُ حَالَ الشَّخْصُ إِذَا تَحَرَّكَ، فَكَأَنَّ الْقَائِلَ إِذَا قَالَ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ، يَقُولُ: لَا حَرَكَةَ وَلَا اسْتِطَاعَةَ إِلَّا بِمَشِيئَةِ اللهِ"(٤).

الْمَجَالُ الثَّانِي: مَا يَسْتَطِيعُهُ الْبَشَرُ، وَلَكِنَّهُمْ قَدْ يَتَعَثَّرُونَ فِي إِقَامَتِهِ، أَوْ يَتَرَاجَعُونَ فِي تَكْمِيلِهِ، أَوْ يَتَزَلْزَلُونَ فِي تَحْصِيلِهِ، أَوْ يَحُولُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ حَائِلٌ مِنْ عَجْزٍ أَوْ كَسَلٍ، أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ، فَأَمَرَ اللهُ بِالتَّعَاوُنِ الْبَشَرِيِّ فِيهِ ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰ﴾ [الْمَائِدَة: ٢]، وَلَكِنْ مَعَ حَصْرِ التَّوَجُّهِ إِلَى اللهِ ﷻ فِي إِقَامَتِهِ وَاسْتِمْرَارِهِ، فَقَدْ يَسْتَعِينُ أَحَدُهُمْ بِغَيْرِهِ، فَيَأْبَى قَلْبُ الْآخَرِ أَنْ يُجِيبَهُ إِلَّا أَنْ يُسَخِّرَهُ اللهُ تَعَالَى لِذَلِكَ، ثُمَّ قَدْ يُعِينُ وَلَا تَتَرَتَّبُ الثَّمَرَةُ إِلَّا بِإِعَانَةِ اللهِ -تَعَالَى ذِكْرُهُ-، وَلِذَا لَا بُدَّ مِنْ ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ ابْتِدَاءً وَانْتِهَاءً.

---

(١) مسلم (٨/ ٧٣) (٢٧٠٤).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم، والسيوطي في الدر المنثور، (٥/ ٣٩٣).

(٣) ذكره النووي في شرح مسلم، (٤/ ٨٧).

(٤) تهذيب اللغة، الأزهري (٥/ ١٥٧).

وَهُنَا تَعْلَمُ لِمَاذَا أُعِيدَ لَفْظُ ﴿وَإِيَّاكَ﴾ فِي الِاسْتِعَانَةِ دُونَ أَنْ يَعْطِفَ فِعْلَ ﴿نَسْتَعِينُ﴾ عَلَى ﴿نَعْبُدُ﴾، فَلَمْ يَقُلْ: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَنَسْتَعِينُ)؛ لِأَنَّ بَيْنَ الْحَصْرَيْنِ فَرْقًا، فَالْحَصْرُ فِي ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ حقيقيٌّ، والحَصْرُ فِي ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ادِّعَائِيٌّ، فَالْمُسْلِمُ قَدْ يَسْتَعِينُ بِغَيْرِ اللهِ -تَعَالَى ذِكْرُهُ- كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [الْمَائِدَة: ٢]، وَلَكِنَّهُ لَا يَسْتَعِينُ بِهِ فِي غَيْرِ الْمَنْهَجِ الَّذِي أَرَادَهُ اللهُ ﷻ، وَعِنْدَ اسْتِعَانَتِهِ بِهِ فَإِنَّهُ يَظَلُّ مُتَعَلِّقًا بِاللهِ ﷻ لِيُعِينَهُ عَلَى إِكْمَالِ الْمُرَادِ.

فَفِي كِلَا الْمَجَالَيْنِ يَفْزَعُ الْقَلْبُ طَلَبًا لِإِغَاثَةِ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ، فَلَوْلَا إِعَانَةُ اللهِ -تَعَالَى ذِكْرُهُ- لَكَ لَمَا تَمَكَّنْتَ مِنْ قَضَاءِ حَاجَاتِكَ الدِّينِيَّةِ وَالدُّنْيَوِيَّةِ، وَلَوْلَا إِعَانَتُهُ -جَلَّ فِي عُلَاهُ- لَمَا وَصَلْتَ لِلْمَرَاتِبِ الشَّرِيفَةِ الْعَلِيَّةِ، فَهُوَ صَاحِبُ السُّلْطَةِ الْغَيْبِيَّةِ الَّتِي تَتَحَكَّمُ بِكُلِّ الْأَسْبَابِ وَالْأَشْخَاصِ وَالْقُلُوبِ وَالْأَفْكَارِ، وَهُوَ الَّذِي يُحَوِّلُ إِلَى جَنَّةٍ خَضْرَاءَ عَوَاصِفَ الْآلَامِ، وَزَوَابِعَ الرِّيَاحِ السَّمُومِ، وَشَرَرَ النَّارِ، وَشُعُورُكَ بِذَلِكَ يَمْنَعُ عَنْكَ خَوَاطِرَ الِاسْتِغْنَاءِ عَنْهُ بِالتَّبَرِّي مِنَ الْحَوْلِ وَالْقُوَّةِ، وَيُزِيلُ عَنْكَ الْعُجْبَ وَالْفَخْرَ الْبَاطِلَ وَالْكِبْرِيَاءَ، فَحَرَكَتُكَ كَانَتْ بِعَوْنِهِ وَالتَّغْيِيرُ فِي حَيَاتِكَ إِنَّمَا يَتِمُّ بِإِغَاثَتِهِ وَإِحْسَانِهِ وَتَوْفِيقِهِ وَحِفْظِهِ وَصَوْنِهِ، وَلِذَا فَإِنَّ مَا يُعِينُ فِيهِ الْبَشَرُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا لَا يَكُونُ لَوْلَا أَنَّ اللهَ أَوْجَدَ لَهُمْ أُصُولَ آلَاتِهِ بِعَوْنِهِ وَقُوَّتِهِ، فَقَالَ -تَعَالَى ذِكْرُهُ- مُبَيِّنًا ذَلِكَ: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد:٨ - ١٠].

فَالْعَيْنَانِ إِيمَاءٌ إِلَى طَرِيقِ الْمَعَارِفِ، وَأَصْلُهَا الْمَحْسُوسَاتُ، وَأَعْلَى أَنْوَاعِهَا الْمُبْصَرَاتُ. وَاللِّسَانُ وَالشَّفَتَانِ إِيمَاءٌ إِلَى النُّطْقِ وَالْبَيَانِ لِلتَّعْلِيمِ، وَإِلَى الِاسْتِفَادَةِ مِنَ الْمَسْمُوعَاتِ فِي تَكْوِينِ الْمَعْلُومَاتِ. وَهِدَايَةُ النَّجْدَيْنِ إِيمَاءٌ إِلَى الشَّرَائِعِ وَاسْتِيفَاءِ الْمَعْلُومَاتِ؛ لِتَكْوِينِ الصَّحِيحِ مِنَ الْأَفْكَارِ وَالتَّصَوُّرَاتِ[1].

فَلَا يَسْتَطِيعُ الْبَشَرُ أَنْ يُعِينَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا لَوْلَا أَصْلُ الْعَوْنِ مِنَ اللهِ ﷻ لَهُمْ.

ثِقَةٌ فِي مُدَبِّرِ الْأَمْرِ.. قِصَّةُ إِسْحَاقَ بْنِ عَبَّادٍ وَالْخَوَّاصِ:

مِنْ عَجِيبِ مَا ذَكَرَهُ ابْنُ الْجَوْزِيِّ ﵀ فِي كِتَابِهِ "الْبِرُّ وَالصِّلَةُ" أَنَّ إِسْحَاقَ بْنَ عَبَّادٍ الْبَصْرِيَّ ﵀، قَالَ: "رَأَيْتُ فِي مَنَامِي ذَاتَ لَيْلَةٍ قَائِلًا، يَقُولُ: أَغِثِ الْمَلْهُوفَ، فَانْتَبَهْتُ، فَقُلْتُ: انْظُرُوا، هَلْ فِي جِيرَانِنَا مُحْتَاجٌ؟ فَقَالُوا: مَا نَدْرِي؟ فَنِمْتُ ثَانِيًا، فَعَادَ إِلَيَّ، فَقَالَ: تَنَامُ وَلَمْ تُغِثِ الْمَلْهُوفَ! قَالَ: فَانْتَبَهْتُ، وَأَحْسَبُهُ قَالَ: نِمْتُ الثَّالِثَةَ، فَعَادَ إِلَيَّ، فَقُمْتُ، فَقُلْتُ لِلْغُلَامِ: أَسْرِجِ الْبَغْلَ، وَأَخَذْتُ مَعِي ثَلَاثَ مِائَةِ دِرْهَمٍ، ثُمَّ رَكِبْتُ الْبَغْلَ، وَأَطْلَقْتُ عِنَانَهُ، فَمَرَّ، فَأَخَذَ عَلَى مَسْجِدِ الْجَامِعِ، ثُمَّ مَضَى فِي سِكَّةِ الْمِرْبَدِ، حَتَّى خَرَجَ مِنَ الدُّرُوبِ إِلَى الْجَبَّانَةِ، فَصَارَ إِلَى الْمَقَابِرِ، ثُمَّ عَطَفَ يَمْنَةً إِلَى مَسْجِدٍ يُصَلَّى فِيهِ عَلَى الْجَنَائِزِ، فَوَقَفَ الْبَغْلُ هُنَاكَ، فَنَظَرْتُ، فَإِذَا رَجُلٌ يُصَلِّي، فَلَمَّا أَحَسَّ بِي انْصَرَفَ، فَدَنَوْتُ مِنْهُ، فَقُلْتُ: يَا عَبْدَ اللهِ، فِي هَذَا الْوَقْتِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ، مَا أَخْرَجَكَ؟ فَقَالَ: أَنَا رَجُلٌ خَوَّاصٌ، كَانَ رَأْسُ مَالِي مِائَةَ دِرْهَمٍ، فَذَهَبَتْ مِنْ يَدِي، وَلَزِمَنِي دَيْنٌ مِائَتَا دِرْهَمٍ، قَالَ: فَأَخْرَجْتُ الدَّرَاهِمَ، فَقُلْتُ: هَذِهِ ثَلَاثُ مِائَةِ دِرْهَمٍ، خُذْهَا، فَأَخَذَهَا، فَقُلْتُ: تَعْرِفُنِي؟ قَالَ: لَا. قُلْتُ: أَنَا إِسْحَاقُ بْنُ عَبَّادٍ، فَإِنْ نَابَتْكَ نَائِبَةٌ، فَأْتِنِي فَإِنَّ مَنْزِلِي

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ١٨٤).

فِي مَوْضِعِ كَذَا، فَقَالَ: رَحِمَكَ اللهُ، بَلْ إِنْ تَأْتِنَا نَائِبَةٌ، فَزِعْنَا إِلَى مَنْ أَخْرَجَكَ فِي هَذَا الْوَقْتِ حَتَّى جَاءَ بِكَ إِلَيْنَا"[1].

الِاسْتِعَانَةُ بِاللهِ ﷻ -لَا بِسِوَاهُ- أَسَاسٌ لِتَحْقِيقِ الْإِنْجَازَاتِ وَالِانْتِصَارَاتِ الشَّخْصِيَّةِ وَالْجَمَاعِيَّةِ، فَلَا يَعْتَمِدُ الْمَرْءُ عَلَى عَقْلِهِ، أَوْ تَفْكِيرِهِ، أَوْ خُطَطِهِ الْمُسْتَقْبَلِيَّةِ، أَوْ حِزْبِهِ، أَوْ ثَرَوَاتِهِ، أَوْ جَمَاعَتِهِ، أَوْ قَبِيلَتِهِ، أَوْ دَوْلَتِهِ، بَلْ يَجْعَلُ الْأَسْبَابَ أَدَوَاتٍ مَسْلُوكَةً دُونَ أَنْ يَنْهَمِكَ فِيهَا، أَوْ يَغْرَقَ فِي الْبَحْثِ عَنْهَا حَتَّى يَصْرِفَهُ ذَلِكَ عَنْ طَلَبِ الْإِعَانَةِ مِنَ الْمَلِكِ الْعَظِيمِ الْوَهَّابِ، وَهَذَا يُقَيِّدُ شَهْوَةَ الْأَخْذِ بِالْأَسْبَابِ الْمَادِّيَّةِ لِدَرَجَةِ أَنْ يَذُوبَ الْمَرْءُ فِيهَا حَتَّى يَكَادَ يَعْتَمِدَ عَلَيْهَا كُلَّ الِاعْتِمَادِ.

وَرُبَّمَا تَبَادَرَ إِلَى السُّؤَالِ حَوْلَ قَوْلِهِ -تَعَالَى ذِكْرُهُ-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣]: **مَا الْعَلَاقَةُ بَيْنَ الِاسْتِعَانَةِ بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَالِاسْتِعَانَةِ التَّوْحِيدِيَّةِ الْخَالِصَةِ الْمَذْكُورَةِ فِي الْفَاتِحَةِ؟**

وَالْجَوَابُ بَيِّنٌ: فَالِاسْتِعَانَةُ بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ تَعْنِي الِاسْتِعَانَةَ بِالْأَدَوَاتِ الَّتِي تُحَقِّقُ الِاسْتِعَانَةَ بِاللهِ، فَالصَّبْرُ: حَبْسُ النَّفْسِ رِضًا بِقَضَاءِ اللهِ، وَطَلَبًا لِلْفَرَجِ مِنْ نَوَائِبِ الِابْتِلَاءِ، وَحِفْظًا لِلنَّفْسِ مِنْ نَوَازِعِ السُّوءِ. وَالصَّلَاةُ: أَدَاةُ الِاسْتِعَانَةِ الْمُبَاشِرَةِ لِتَحْقِيقِ التَّوْحِيدِ الْحَقِيقِيِّ الْخَالِصِ.

---

(١) البر والصلة، لابن الجوزي (ص: ٢٥٦).

الصَّلَاةُ.. هَمْسَةُ نَجْوَى وَمِيثَاقُ حُبٍّ بَيْنَ الْعَبْدِ وَرَبِّهِ. وَإِعْلَانُ رُكُونٍ تَامٍّ، وَاسْتِعَانَةٍ دَائِمَةٍ بِالرَّبِّ الْوَدُودِ.. فِي رِحَابِهَا، يَجِدُ الْقَلْبُ سَكِينَتَهُ، وَتَسْتَمِدُّ الرُّوحُ قُوَّتَهَا، وَتَنْهَلُ النَّفْسُ زَادًا سَمَاوِيًّا هُوَ أَثْمَنُ مِنْ كُنُوزِ الْأَرْضِ الْفَانِيَةِ وَزَخَارِفِهَا الزَّائِلَةِ.

وَلَقَدْ كَانَ حَبِيبُنَا الْمُصْطَفَى -ﷺ-، وَهُوَ ذُو الْقَلْبِ الْمُتَيَّمِ بِحُبِّ خَالِقِهِ، وَالرُّوحِ الْمُتَّصِلَةِ بِأَنْوَارِ الْوَحْيِ وَالْإِلْهَامِ، إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ أَوْ أَلَمَّ بِهِ خَطْبٌ، هَرَعَ إِلَيْهَا، يَجِدُ فِيهَا الْمَلَاذَ وَالْأَمَانَ.

وَمَا يَزَالُ هَذَا النَّبْعُ الْفَيَّاضُ بِالرَّحْمَةِ وَالنُّورِ، مُتَاحًا لِكُلِّ قَلْبٍ مُؤْمِنٍ يَتُوقُ إِلَى: زَادٍ يُعِينُهُ عَلَى وَعْثَاءِ الطَّرِيقِ، وَرِيٍّ يُطْفِئُ لَهِيبَ الرُّوحِ فِي صَحْرَاءِ الْحَيَاةِ الْقَاحِلَةِ، وَمَدَدٍ لَا يَنْقَطِعُ حِينَ تَنْقَطِعُ الْأَسْبَابُ وَتُغْلَقُ الْأَبْوَابُ، وَرَصِيدٍ لَا يَنْفَدُ مِنَ الْأُنْسِ وَالْيَقِينِ حِينَ تُوشِكُ أَرْصِدَةُ الدُّنْيَا عَلَى النَّفَادِ.

إِنَّهَا الصَّلَاةُ.. مِعْرَاجُ الرُّوحِ إِلَى بَارِئِهَا، وَبَوَّابَةُ السَّعَادَةِ الَّتِي لَا تُوصَدُ فِي وَجْهِ طَارِقٍ، وَهِيَ قَبْلَ هَذَا وَذَاكَ تَرْجَمَانُ الِاسْتِعَانَةِ الْحَقَّةِ بِاللهِ الْوَاحِدِ الْمُقْتَدِرِ.

❊❊❊

جِسْرُ اتِّصَالٍ: عَرَفْنَا الْبَصِيرَةَ الثَّانِيَةَ مِنْ بَصَائِرِ الْمَقْصَدِ السَّادِسِ مِنْ مَقَاصِدِ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ، وَهِيَ: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ تَبْنِي الِاسْتِقْلَالَ الذَّاتِيَّ، وَالتَّحَرُّرَ مِنَ التَّبَعِيَّةِ لِلْآخَرِينَ، فَمَا الْبَصِيرَةُ الثَّالِثَةُ؟

الْجَوَابُ:

الْبَصِيرَةُ الثَّالِثَةُ

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ تُصَوِّرُ كَمَالَ التَّحَقُّقِ، وَالتَّعَلُّقِ، وَالتَّخَلُّقِ؛ أَيِ التَّحَقُّقَ بِعُبُودِيَّةِ اللهِ الْوَاحِدِ، وَعَظِيمَ التَّعَلُّقِ بِالرَّبِّ الْكَرِيمِ الْمَاجِدِ، وَجَمِيلَ التَّخَلُّقِ بِالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ الشَّاهِدِ، وَتُصَوِّرُ لَذَّةَ الْمُنَاجَاةِ وَالْحُبِّ، وَجَمَالَ الْوُدِّ وَالْقُرْبِ

وَالْآنَ، تَعَالَ مَعِي لِنُحَلِّقَ فِي أُفُقٍ آخَرَ مِنْ آفَاقِ الْجَمَالِ الْبَيَانِيِّ فِي سُورَةِ الْفَاتِحَةِ. تَأَمَّلْ كَيْفَ يَسْتَهِلُّ اللهُ سُبْحَانَهُ حَدِيثَهُ بِأُسْلُوبِ الْإِخْبَارِ عَنِ الْغَائِبِ، فَيَقُولُ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝١ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝٣ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، ثُمَّ فِي ارْتِقَاءٍ نُورَانِيٍّ يَأْسِرُ الْأَلْبَابَ، يَنْتَقِلُ بِنَا إِلَى حَمِيمِيَّةِ الْخِطَابِ الْمُبَاشِرِ فَيَقُولُ: ﴿إِيَّاكَ﴾، تُرَى لِمَاذَا هَذَا الِانْتِقَالُ؟

الْجَوَابُ: إِنَّهُ مَبْدَأُ الِالْتِفَاتِ، وَهُوَ أُسْلُوبٌ عَرَبِيٌّ لَفْظِيٌّ لِحِكْمَةٍ مَعْنَوِيَّةٍ، فَالْحِكْمَةُ هُنَا أَنْ تَبْنِيَ الْفَاتِحَةُ الْعَلَاقَةَ بَيْنَ الْعَبْدِ وَرَبِّهِ عَلَى لَذَّةِ الْمُنَاجَاةِ، وَأُنْسِ الْقُرْبِ، فَبَعْدَ أَنْ أَثْنَيْتَ عَلَيْهِ – جَلَّ مَجْدُهُ– ثَنَاءَ الْمُشْفِقِ الْقَلِقِ الْوَجِلِ الْمُسْتَحِي بِصِيغَةِ الْغَائِبِ، مُسْتَشْعِرًا عَظَمَتَهُ وَصِغَرَكَ، وَغِنَاهُ وَفَقْرَكَ اقْتَرَبْتَ مِنْهُ بِالثَّنَاءِ، وَشَعَرْتَ بِلَذَّةِ مُنَاجَاتِهِ، فَبَلَغَتْ بِكَ الْفِكْرَةُ مُنْتَهَاهَا، وَأَزْهَرَتْ وُرُودُهَا فِي رُبَاهَا، فَخَاطَبْتَ رَبَّكَ بِالْإِقْبَالِ، فَقُلْتَ: إِيَّاكَ، وَلَمْ تَقُلْ: إِيَّاهُ، فَكَأَنَّهُ أَمَامَكَ تُخَاطِبُهُ ﷻ مُخَاطَبَةَ الْمَاثِلِ أَمَامَهُ مُبَاشَرَةً، بَعْدَ أَنْ تَجَلَّتِ الْقُرْبَى وَالْأُلْفَةُ، وَغَمَرَكَ مِنْ مَلِيكِكَ وَابِلُ الرَّحْمَةِ وَالرَّأْفَةِ، وَبِعَكْسِ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ

يَيْئَسُوا مِن رَّحْمَتِي ﴾ [العنكبوت: ٢٣]، حَيْثُ شَنَّعَ كُفْرَهُمْ أَمَامَ الْعَالَمِ، ثُمَّ انْتَقَلَ إِلَى أُسْلُوبِ ضَمِيرِ الْمُتَكَلِّمِ لِيُصْدِرَ حُكْمَ عِزِّ الرُّبُوبِيَّةِ فِيهِمْ.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ انْتِقَالٌ سَاحِرٌ مِنْ حَدِيثٍ مَهِيبٍ عَنِ الْغَائِبِ -جَلَّ وَعَلَا- إِلَى مُخَاطَبَةٍ تَفِيضُ قُرْبًا وَأُنْسًا، حَيْثُ تَتَلَاشَى الْحُجُبُ.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ لُؤْلُؤَةٌ تَتَلَأْلَأُ فِي عِقْدِ أُسْلُوبِ الْفَاتِحَةِ الْفَرِيدِ. انْظُرْ كَيْفَ يَبْدَأُ نَغَمُ الْمُنَاجَاةِ الشَّجِيُّ بِصِيغَةِ الْغَائِبِ، ثُمَّ فِي تَحَوُّلٍ بَدِيعٍ وَمُدْهِشٍ، يَأْخُذُ بِأَيْدِينَا نَحْوَ دِفْءِ الْمُنَاجَاةِ وَحَلَاوَةِ الْمُخَاطَبَةِ الْمُبَاشِرَةِ.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ مِرْسَاةُ الْقَلْبِ وَسَكِينَتُهُ، تَتَعَلَّقُ بِكَ أَرْوَاحُنَا فَلَا تَلْتَفِتُ لِغَيْرِكَ، وَتَسْتَكِينُ بِجَنَابِكَ فَلَا تَخْشَى سِوَاكَ، فَأَنْتَ وَحْدَكَ الْمَقْصَدُ وَالْمَلَاذُ.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ أَعْذَبُ نَجْوَى وَأَصْدَقُ هَمْسٍ، فِيهَا يَذُوبُ الْقَلْبُ شَوْقًا، وَتَنْتَشِي الرُّوحُ حُبًّا، فَمُنَاجَاتُكَ هِيَ قُرَّةُ أَعْيُنِ الْمُحِبِّينَ.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ إِنَّهَا تَرْنِيمَةُ الْحُبِّ الْإِلَهِيِّ، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ حُبٌّ يَمْلَأُ الْكِيَانَ، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ثِقَةٌ تَسْتَدْعِي الْمَزِيدَ مِنَ الْحُبِّ، فَكُلَّمَا نَاجَيْنَاكَ بِهَا، ازْدَدْنَا لَكَ حُبًّا وَتَعَلُّقًا.

***

جِسْرُ اتِّصَالٍ: عَرَفْنَا الْبَصِيرَةَ الثَّالِثَةَ مِنْ بَصَائِرِ الْمَقْصَدِ السَّادِسِ مِنْ مَقَاصِدِ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ، وَهِيَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ تَصَوُّرُ التَّحَقُّقِ، وَالتَّعَلُّقِ وَالتَّخَلُّقِ، وَلَذَّةُ الْمُنَاجَاةِ، وَجَمَالُ الْقُرْبِ، فَمَا الْبَصِيرَةُ الرَّابِعَةُ؟

الْجَوَابُ: هُنَا تَأْتِي:

الْبَصِيرَةُ الرَّابِعَةُ

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ تَعْنِي أَنَّ "مِنْ عَلَامَاتِ النَّجَاحِ فِي النِّهَايَاتِ اللُّجُوءَ إِلَى اللهِ ﷻ فِي الْبِدَايَاتِ"

وَالْآنَ تَعَالَ بِنَا إِلَى التَّسَاؤُلِ عَنْ هَذَا التَّرْتِيبِ الْمُحْكَمِ لِهَاتَيْنِ الْجُمْلَتَيْنِ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وَالْعَطْفِ بَيْنَهُمَا بِحَرْفِ الْمُشَارَكَةِ (الْوَاوِ) دُونَ حَرْفِ التَّرْتِيبِ (الْفَاءِ)، فَلِمَاذَا كَانَ ذَلِكَ؟

إِنَّهُ الْقُرْآنُ يُنَمِّي تَفْكِيرَنَا، وَيَبْنِي عُقُولَنَا، وَيُوَسِّعُ مَدَارِكَنَا، وَيُبَيِّنُ لَكَ الْعَلَاقَةَ بَيْنَ الْعِبَادَةِ وَالِاسْتِعَانَةِ:

إِنَّ هَذَا التَّرْتِيبَ يُزَكِّي النَّفْسَ الْمُسْلِمَةَ، وَيَبْنِي حِسَّ الْأَوَّلِيَّاتِ وَالْأَوْلَوِيَّاتِ عِنْدَ الْحُكَّامِ وَالْمَحْكُومِينَ، وَصُنَّاعِ الْقَرَارِ وَعَامَّةِ الْمُسْلِمِينَ:

فَالْعِبَادَةُ أَسَاسُ الِاسْتِعَانَةِ وَهَدَفُهَا، وَلِكَوْنِهَا أَسَاسَ الِاسْتِعَانَةِ تَكُونُ سَابِقَةً، وَكَوْنِهَا هَدَفًا تَكُونُ لَاحِقَةً، وَالِاسْتِعَانَةُ ثَمَرَةُ الْعِبَادَةِ وَوَسِيلَتُهَا، فَكَوْنِهَا ثَمَرَةً تَكُونُ لَاحِقَةً، وَلِكَوْنِهَا وَسِيلَةً تَكُونُ سَابِقَةً، وَمِنْ هَذَا يَتَّضِحُ الْجَوَابُ، فَقَدِ اشْتَرَكَ كُلٌّ مِنْهُمَا فِي أَنْ يَكُونَ سَابِقًا لَاحِقًا، إِلَّا أَنَّهُ قَدَّمَ الْعِبَادَةَ عَلَى لِسَانِ الْعَبْدِ لِيُبَيِّنَ هَذَا الْعَبْدُ الْمُخْبِتُ أَنَّ هَدَفَهُ حَقٌّ وَصِدْقٌ خَالِصٌ، فَحُقَّ لَهُ عِنْدَمَا يَطْلُبُ الْعَوْنَ أَنْ يُعَانَ.

جَمَعَ اللهُ ﷻ بَيْنَ الْعِبَادَةِ وَالِاسْتِعَانَةِ بِحَرْفِ الْوَاوِ لِيَجْمَعَ بَيْنَ مَا يَجِبُ لَهُ، وَمَا يَطْلُبُونَهُ مِنْهُ، فَذَكَرَ اللهُ تَعَالَى الْغَايَةَ وَالْهَدَفَ أَوَّلًا وَهُوَ الْعِبَادَةُ الَّتِي هِيَ الْغَايَةُ وَالْمَقْصُودُ، وَبِهَا مَرَاقِي الطُّمَأْنِينَةِ وَالصُّعُودِ وَالسُّعُودِ، ثُمَّ ذَكَرَ الْوَسِيلَةَ لِإِقَامَةِ الْعِبَادَةِ، وَهِيَ الِاسْتِعَانَةُ بِاللهِ الَّذِي يُعِينُكَ بِالْأَدَوَاتِ الْحِسِّيَّةِ، وَالْهِدَايَةِ الْقَلْبِيَّةِ.

وَقَدْ يُقَالُ: إِنَّ الِاسْتِعَانَةَ عِبَادَةٌ فِي ذَاتِهَا فَكَيْفَ تُعِينُنَا عَلَى إِقَامَةِ الْعِبَادَةِ؟

وَالْجَوَابُ: نَعَمْ! الِاسْتِعَانَةُ مِنْ جِهَةٍ عِبَادَةٌ جُزْئِيَّةٌ، وَلَكِنَّهَا مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى تُعِينُ عَلَى بَقِيَّةِ أَنْوَاعِ الْعِبَادَاتِ، فَقَدَّمَ اللهُ ﷻ الْعَامَّ ثُمَّ ذَكَرَ الْخَاصَّ؛ لِأَهَمِّيَّتِهِ فِي الْقِيَامِ بِالْعَامِّ، فَلَا بُدَّ لِلْعَابِدِ مِنَ الِاسْتِعَانَةِ الْكُلِّيَّةِ، وَلَا بُدَّ لِلْمُسْتَعِينِ مِنْ تَقْدِيمِ الْعِبَادَةِ الْجُزْئِيَّةِ لِتَكُونَ مُنْطَلَقَهُ لِسَائِرِ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ، فَبِاسْتِعَانَتِهِ يَجِدُ أَحْسَنَ الْوِفَادَةِ، فَهِيَ مِفْتَاحُ الْفَضَائِلِ وَالرُّقِيِّ فِي بُلُوغِ الْكَمَالِ، وَبِهَا يَظْهَرُ الْخُضُوعُ وَالتَّوَاضُعُ مِنَ الْإِنْسَانِ، كَمَا يَظْهَرُ بِهَا الِاسْتِغْنَاءُ عَنِ الْأَمْثَالِ؛ إِذْ إِنَّ مُعِينَهُ فِي كُلِّ حَيَاتِهِ هُوَ اللهُ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ، وَبِالِاسْتِعَانَةِ بِهِ يَأْخُذُ الْإِنْسَانُ أَعْظَمَ الطَّاقَةِ وَالِاسْتِعْدَادِ، وَيَتَزَوَّدُ بِأَقْوَى زَادٍ، فَهِيَ أَدَاةٌ لِتَحْقِيقِ بَقِيَّةِ الْأَنْوَاعِ الْعِبَادِيَّةِ كَالصَّلَاةِ، وَالصِّيَامِ، وَالزَّكَاةِ، وَالْحَجِّ، وَمُسَاعَدَةِ الْمُحْتَاجِينَ، وَتَنْمِيَةِ الْمُجْتَمَعَاتِ بِمَا يُؤَدِّي إِلَى سَعَادَةِ الْعَالَمِينَ.

إِنَّ الَّذِي لَا يَمْلِكُ شَيْئًا إِذَا مَدَّ يَدَ الِاسْتِعَانَةِ إِلَى اللهِ الَّذِي بِيَدِهِ كُلُّ شَيْءٍ يَنْصُرُهُ -تَعَالَى- إِذَا كَانَ الْمُسْتَعِينُ بِهِ مَخْذُولًا، وَيُوَاسِيهِ -عَزَّ جَارُهُ- إِذَا كَانَ الْمُسْتَعِينُ بِهِ مَكْرُوبًا، وَيَقْضِي حَاجَتَهُ إِذَا كَانَ الْمُسْتَعِينُ بِهِ مِسْكِينًا، وَيُحَقِّقُ آمَالَهُ، وَيُنِيلُهُ بُغْيَتَهُ.

فَمَا يَصْدُرُ مِمَّنْ يَمْلِكُ كُلَّ شَيْءٍ هِيَ عِبَارَةٌ عَنْ لَفْتَةِ رَحْمَةٍ تَنْزِلُ مِنْ عَظَمَتِهِ إِلَى الَّذِينَ لَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ، فَتَسْمُو بِهِمْ مِنَ الْحَضِيضِ إِلَى الدَّرَجَاتِ الْعُلَى، فَقُلْ لِي: هَلْ هَذِهِ اللَّفْتَةُ يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ -بِشَكْلٍ أَوْ بِآخَرَ- أَمْرًا تَتَلَعْثَمُ الْفِطْرَةُ الْإِنْسَانِيَّةُ فِي قَبُولِهِ وَالِاعْتِرَافِ بِهِ؟![1]

وَلَكِنَّ الْمُسْتَعِينَ طَالِبُ حَاجَةٍ، فَلَا بُدَّ أَنْ يُقَدِّمَ بَيْنَ يَدَيْ طَلَبِهِ شَيْئًا يَجْعَلُ حَاجَتَهُ تُقْضَى، وَأَدْعِيَتَهُ تُسْتَجَابُ، فَقَدَّمَ مَا يَدُلُّ عَلَى صِحَّةِ مَقْصُودِهِ مِنْ ذِكْرِهِ لِلْعِبَادَةِ لِيُحَقِّقَ لَهُ الْعَلِيُّ الْأَعْلَى الْعَوْنَ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «قَالَ اللهُ تَعَالَى: وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ» [2]، فَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَى اللهِ ﷻ بِالْعِبَادَةِ تَمَّتْ إِعَانَةُ اللهِ ﷻ لَهُ.

وَمِثْلُ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]، أَيِ: اسْتَعِينُوا عَلَى قَضَاءِ حَوَائِجِكُمْ بِعِبَادَتَيْنِ: الْأُولَى قَلْبِيَّةٌ عَقْلِيَّةٌ وَهِيَ: الصَّبْرُ، وَالثَّانِيَةُ عَمَلِيَّةٌ جَسَدِيَّةٌ وَهِيَ: الصَّلَاةُ، وَهُمَا جِمَاعُ الْعِبَادَةِ، فَكَأَنَّ الْعَبْدَ الَّذِي شَرَعَ فِي الْعِبَادَةِ يَقُولُ: يَا رَبِّ شَرَعْتُ فِي الْعِبَادَةِ فَأَسْتَعِينُ بِكَ فِي إِتْمَامِهَا، وَأَتَيْتُ بِنَفْسِي إِلَّا أَنَّ لِي قَلْبًا يَفِرُّ مِنِّي، فَأَسْتَعِينُ بِكَ فِي تَثْبِيتِهِ عَلَى طَاعَتِكَ، وَمِنَ الِاسْتِعَانَةِ الْعَظِيمَةِ قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ:«اللَّهُمَّ قِنِي شَرَّ نَفْسِي، وَاعْزِمْ لِي عَلَى أَرْشَدِ أَمْرِي»[3].

---

(١) الفتنة الدجالية ص٣٠.

(٢) البخاري (٨/ ١٣١) .

(٣) مسند أحمد بن حنبل(٤ / ٤٤٤)، وقال الأرناؤوط: إسناده على شرط الشيخين.

وَلِذَا قِيلَ: كَأَنَّ الْعَبْدَ يَقُولُ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ لِأَنَّكَ الصَّانِعُ، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾؛ لِأَنَّ الْمَصْنُوعَ لَا غِنَى لَهُ عَنِ الصَّانِعِ، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ لِأَنَّا عَبِيدٌ، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ لِأَنَّكَ كَرِيمٌ مَجِيدٌ، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ لِأَنَّكَ الْمَعْبُودُ بِالْحَقِيقَةِ، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ لِأَنَّنَا الْعِبَادُ بِالْوَثِيقَةِ[1].

> **جَاءَ التَّرْتِيبُ بَيْنَ الْعِبَادَةِ وَالِاسْتِعَانَةِ عَلَى تَرْتِيبِ ظُهُورِ أَسْمَائِهِ ﷻ فِي الْفَاتِحَةِ، فَعِبَادَةُ اللهِ -تَعَالَى ذِكْرُهُ- هِيَ غَايَةُ الشُّكْرِ لَهُ فِي الْقِيَامِ بِمَا يَجِبُ لِأُلُوهِيَّتِهِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ ﴿اللَّهُ﴾، وَاسْتِعَانَتُهُ هِيَ غَايَةُ الشُّكْرِ لَهُ فِي الْقِيَامِ بِمَا يَجِبُ لِرُبُوبِيَّتِهِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ.** تفسير المنار (١/ ٥٠).

الْبِدَايَةُ الصَّحِيحَةُ هِيَ مِفْتَاحُ النِّهَايَةِ النَّاجِحَةِ:

﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ تُمَثِّلُ تَحْدِيدَ الْوِجْهَةِ وَالْغَايَةِ فِي الْحَيَاةِ.. فَعِنْدَمَا يَبْدَأُ الْمُؤْمِنُ أَيَّ عَمَلٍ، أَيَّ مَشْرُوعٍ، أَيَّ مَسْعًى، وَهُوَ مُسْتَحْضِرٌ أَنَّ عَمَلَهُ جُزْءٌ مِنْ عُبُودِيَّتِهِ لِلَّهِ، وَأَنَّهُ يَبْتَغِي بِهِ وَجْهَ اللهِ فَقَدْ وَضَعَ قَدَمَهُ عَلَى أَوَّلِ طَرِيقِ النَّجَاحِ. هَذَا هُوَ "الرُّجُوعُ إِلَى اللهِ فِي الْبِدَايَاتِ" مِنْ حَيْثُ الْقَصْدُ وَالْهَدَفُ، وَعِنْدَمَا تَكُونُ الْبِدَايَةُ بِهَذِهِ الْمَتَانَةِ الْإِيمَانِيَّةِ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى يَتَوَلَّى أَمْرَ هَذَا الْعَبْدِ. وَمَنْ يَتَوَلَّاهُ اللهُ، فَلَا شَكَّ أَنَّهُ سَيَصِلُ إِلَى النَّجَاحِ وَالتَّوْفِيقِ وَالسَّدَادِ فِي نِهَايَةِ مَطَافِهِ.. مَنْ يَلْتَزِمْ بِهَذَا الْمَنْهَجِ فِي "بِدَايَاتِ" أُمُورِهِ كُلِّهَا، فَإِنَّ "نِهَايَاتِهِ" سَتَكُونُ حَتْمًا مَوْسُومَةً بِالنَّجَاحِ وَالتَّوْفِيقِ وَالْبَرَكَةِ، لِأَنَّ اللهَ وَعَدَ مَنْ أَخْلَصَ لَهُ وَتَوَكَّلَ عَلَيْهِ أَنْ يَكْفِيَهُ وَيَهْدِيَهُ وَيُوَفِّقَهُ.

---

(١) تفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن (١/ ١١٨).

تَرْبِيَةُ الْقِيَادَاتِ الرَّاشِدَةِ.. الِاسْتِعَانَةُ سِرُّ الْبِنَاءِ:

الْآنَ تَعَالَ إِلَى لَمْحَةٍ مِنَ التَّرْبِيَةِ النَّبَوِيَّةِ لِعُظَمَاءِ الْأُمَّةِ وَرُوَّادِهَا وَقَادَتِهَا عَلَى مَبْدَأِ الِاسْتِعَانَةِ، فَابْنُ عَبَّاسٍ L يُفَصِّلُ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ أَنْوَارَ الِاسْتِعَانَةِ، فَيَقُولُ: «إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ»[1].

إِنَّ هَذِهِ التَّرْبِيَةَ الْإِلَهِيَّةَ لِلْعِبَادِ بِالِاسْتِعَانَةِ بِاللهِ تَكَرَّرَتْ فِي الْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ فَقَدْ جَاءَ فِي الْمَزَامِيرِ (٥٤: ٢٣): «أَلْقِ عَلَى الرَّبِّ هَمَّكَ وَهُوَ يَعُولُكَ»، وَقَالَ (١٢٦: ١): «وَإِنْ لَمْ يَبْنِ الرَّبُّ فَبَاطِلًا يَتْعَبُ الْبَنَّاؤُونَ» وَقَرَّرَ ذَلِكَ أَرْبَابُ الْمُرَاقَبَةِ فَقَالُوا:

إِذَا لَمْ يَكُنْ عَوْنٌ مِنَ اللهِ لِلْفَتَى ... أَتَتْهُ الرَّزَايَا مِنْ طَرِيقِ الْفَوَائِدِ[2]

أَمَّا عِنْدَ الْمُسَارَعَةِ إِلَى اقْتِبَاسِ الْعَوْنِ مِنْ مَعِينِهِ الْعَذْبِ فَقَالُوا:

إِذَا صَحَّ عَوْنُ الْخَالِقِ الْمَرْءَ لَمْ يَجِدْ ... عَسِيرًا مِنَ الْآمَالِ إِلَّا مُيَسَّرَا

فَكُلُّ جُمْلَةٍ مِنَ الْجُمْلَتَيْنِ فِي مَكَانِهَا الْمُعْجِزِ، وَتَرْتِيبِهَا التَّرْبَوِيِّ الرَّائِعِ الْمَجِيدِ.

بَقِيَ أَمْرٌ أَخِيرٌ نُشِيرُ إِلَيْهِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْمُبَارَكَةِ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ - وَأَنْوَارُهَا لَا تَنْقَضِي -: لِمَاذَا كَانَ الْكَلَامُ عَنِ الْعِبَادَةِ وَالِاسْتِعَانَةِ عَلَى سَبِيلِ الْإِخْبَارِ؟ فَاللهُ سُبْحَانَهُ لَمْ يَقُلْ: اعْبُدُوا اللهَ، وَلَمْ يَقُلْ: بِاللهِ اسْتَعِينُوا، مَثَلًا وَإِنَّمَا قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

وَالْجَوَابُ عَلَى ذَلِكَ:

---

(١) الترمذي (٤/ ٦٦٧)، وقال: حسن صحيح.

(٢) ولأبي فراس الحمداني: إذا كان غير الله... .

والجواب على ذلك:

اللهُ ﷻ أَرَادَ أَنْ يُبَيِّنَ أَنَّ الْعُقَلَاءَ إِذَا مَا سَمِعُوا فِي الْفَاتِحَةِ تَمْجِيدَ رَبِّ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ، وَظَهَرَ لَهُمْ تَوْحِيدُهُ، وَاسْتَبَانَتْ لَهُمْ صِفَاتُهُ وَرَحْمَتُهُ وَمُلْكُهُ لِيَوْمِ الدِّينِ، أَذْعَنُوا وَاسْتَسْلَمُوا وَقَالُوا: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فَصَارَتِ الْعِبَادَةُ وَاقِعَهُمُ الْحَيَاتِيَّ، وَصَارَتِ الِاسْتِعَانَةُ إِخْبَارًا عَنْ حَالِهِمْ، وَوَصْفًا لِأَفْعَالِهِمْ وَأَقْوَالِهِمْ.

وَهُنَا تَتَعَجَّبُ كَيْفَ أَلْجَأَهُمْ إِلَى أَنْ يَلْتَزِمُوا ذَلِكَ حَتَّى جَعَلَ الْكَلَامَ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ، وَلَمْ يَجْعَلْ ذَلِكَ أَوَامِرَ صَادِرَةً مِنْهُ سُبْحَانَهُ، فَلَمْ يَقُلْ: قُولُوا: إِيَّاكَ نَعْبُدُ، بَلْ جَعَلَهُمْ يَقُولُونَ ذَلِكَ مُبَاشَرَةً -حَتَّى عَلَى الْقَوْلِ بِأَنَّ كَلِمَةَ (قُولُوا) مُقَدَّرَةٌ، وَتَنْدَهِشُ كَيْفَ تَأْخُذُ سُورَةُ الْفَاتِحَةِ بِيَدِ الْعَبْدِ النَّافِرِ عَنِ اللهِ لِيُرَدِّدَ -وَلَوْ عَلَى سَبِيلِ الْقِرَاءَةِ الْمَحْضَةِ-: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

❊❊❊

جِسْرُ اتِّصَالٍ: عَلِمْنَا أَنَّ الْمَقْصَدَ الْخَامِسَ بَصَّرَنَا بِأَنَّ الْمَطْلُوبَ مِنَ الْعَالَمِينَ أَنْ يَعْبُدُوا اللهَ مُوَحِّدِينَ لَهُ فِي الْعِبَادَةِ، وَأَنَّ الْمَقْصَدَ السَّادِسَ أَنْ يَسْتَعِينُوا بِهِ لِيُعِينَهُمْ عَلَى تَحْقِيقِ الْعِبَادَةِ، وَلَكِنَّهُمْ رُبَّمَا يَسْأَلُونَ: كَيْفَ نَتَأَكَّدُ مِنْ أَنَّنَا نَعْبُدُهُ عِبَادَةً صَحِيحَةً؟ كَيْفَ يَتَأَكَّدُ الْإِنْسَانُ أَنَّ عِبَادَتَهُ لَيْسَتْ خَطَأً أَوْ بِدْعَةً أَوْ ضَلَالَةً؟

الْجَوَابُ: هُنَا يَأْتِي:

الْمَقْصَدُ السَّابِعُ

﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ ﴾، تُعَرِّفُنَا بِأَنْ نَسْأَلَ اللهَ ﷻ الْبَيَانَ وَالْإِرْشَادَ وَالتَّوْفِيقَ لِلْوُصُولِ إِلَى الْقَرَارِ الصَّحِيحِ فِي عِبَادَتِنَا لِتَكُونَ كَمَا يَرْضَاهُ اللهُ لَا لِتَكُونَ وَفْقَ أَهْوَائِنَا، أَوْ رَغَبَاتِ غَيْرِنَا، وَذَلِكَ يَعْنِي أَنْ نَسْأَلَ اللهَ ﷻ أَنْ يَدُلَّنَا وَيُوَفِّقَنَا لِلْقَرَارِ الصَّائِبِ فِي حَيَاتِنَا

وَهَذَا الْمَقْصَدُ يُبَيِّنُ لَنَا قَاعِدَةَ: (حَقِّ الْعِبَادِ فِي مَعْرِفَةِ أَخْصَرِ طُرُقِ السَّعَادَةِ)، الْمُسْتَقِيمِ أَيِ الَّذِي يُوصِلُ إِلَى الْهَدَفِ الْحَقِيقِيِّ دُونَ تَعَرُّجَاتٍ.

فَهَذَا مَقْصَدٌ تَعْرِيفِيٌّ بِالطَّرِيقِ الصَّحِيحِ لِإِقَامَةِ نِظَامِ الْعِبَادَةِ فِي الْإِسْلَامِ، وَقَوْلُهُ: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ يَعْنِي: اهْدِنَا رَبَّنَا إِلَى اتِّخَاذِ الْقَرَارَاتِ الصَّائِبَةِ السَّلِيمَةِ الْمُسْتَقِيمَةِ فِي جَوَانِبِ حَيَاتِنَا الْمُخْتَلِفَةِ؛ لِتَكُونَ كُلُّهَا عِبَادَةً تَرْضَاهَا، وَاسْتَنْبَطْنَا هَذَا الْمَقْصَدَ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾، فَبِنَاءُ النُّظُمِ الْعِبَادِيَّةِ الْحَيَاتِيَّةِ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ مَحْكُومًا بِالتَّحَقُّقِ مِنَ السَّيْرِ فِي الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَالتَّخَلُّقِ بِصِفَاتِ أَصْحَابِهِ، وَهَذَا الْمَقْصَدُ يُبَيِّنُ لَنَا قَاعِدَةَ (حَقِّ الْعِبَادِ فِي مَعْرِفَةِ أَخْصَرِ طُرُقِ السَّعَادَةِ)، وَيُبَيِّنُ هَذَا الْمَقْصَدُ الْبَصَائِرَ الْكُلِّيَّةَ الْآتِيَةَ:

المقصد السابع

﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ تعرفنا بأن نسأل الله عز وجل البيان والإرشاد والتوفيق للوصول إلى القرار الصحيح في عبادتنا لتكون كما يرضاه الله لا لتكون وفق أهوائنا، أو رغبات غيرنا، وذلك يعني أن نسأل الله عز وجل أن يدلنا ويوفقنا للقرار الصائب في حياتنا

[الفاتحة: 6]

بصيرة 01 ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ هي الحصن العاصم للعبادة من الانحراف الأثيم.

بصيرة 02 ﴿ٱهۡدِنَا﴾ علامةٌ على أن تحقيق المطالب يتم بتقديم ذكر أعظم المناقب

بصيرة 03 ﴿ٱهۡدِنَا﴾ الاهتداء بداية الحياة الحقيقية للخروج من الأزمات والحَيرة في الظلمات

بصيرة 04 ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ درع الحماية المصطلحية الإسلامية النقية من المخاطر الثقافية

بصيرة 05 الرحمة تقتضي هداية العالَم إلى الصراط وحراستهم من الانحراف أو الانجراف

بصيرة 06 ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ يُقَدِّمُ الحلول للقضايا العالمية المثخنة بالظلم والعوج

بصيرة 07 ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ يعني أن عودة أمة الإسلام إلى الصدارة العالمية يتم عبر القرآن، وهذا يقتضي محو أمية تلاوة القرآن ابتداءً، ووجوب نشر مؤسسات التعلم القرآني

بصيرة 08 ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾يربط بين عالمي الغيب والشهادة، ويصل بين مرحلتي الدنيا والآخرة

الْبَصِيرَةُ الْأُولَى

﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ هِيَ الْحِصْنُ الْعَاصِمُ لِلْعِبَادَةِ مِنَ الِانْحِرَافِ الْأَثِيمِ

نَسْتَنْبِطُ هَذِهِ الْبَصِيرَةَ مِنَ الْمُنَاسَبَةِ وَالِاتِّصَالِ بَيْنَ هَذِهِ الْآيَةِ وَمَا قَبْلَهَا؛ فَالْإِنْسَانُ يَشْعُرُ بِالِاطْمِئْنَانِ وَالْأَمَانِ إِلَى إِعَانَةِ الرَّحْمَنِ عِنْدَ قِرَاءَتِهِ لِقَوْلِهِ -تَعَالَى ذِكْرُهُ-: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾، حَيْثُ بَيَّنَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ لِلْإِنْسَانِ الْمَقَامَ الَّذِي يُؤَدِّي بِهِ وَظِيفَتَهُ الْحَيَاتِيَّةَ، وَهِيَ وَظِيفَةُ الْعِبَادَةِ لِتَحْقِيقِ السِّيَادَةِ وَالسَّعَادَةِ، وَبَيَّنَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ لِهَذَا الْإِنْسَانِ مَقَامَ الْوَسِيلَةِ لِتَحْقِيقِ تِلْكَ الْوَظِيفَةِ النَّبِيلَةِ، وَبَعْدَ أَنْ عَرَفَ وَسِيلَةَ عِبَادَتِهِ بَقِيَ لَهُ أَنْ يَطْمَئِنَّ لِتَكُونَ عِبَادَتُهُ مَقْبُولَةً صَحِيحَةً؛ إِذْ إِنَّكَ تَرَى أَنَّ لِكُلِّ الْأُمَمِ كَالْبُوذِيِّينَ وَالْهِنْدُوسِ وَالْيَهُودِ نِظَامًا عِبَادِيًّا يَخُصُّهُمْ، فَأَيُّهُمْ صَاحِبُ الْعِبَادَةِ الصَّحِيحَةِ؟ وَمَنْ هُوَ الَّذِي يُجَسِّدُ الْحَقَّ فِي نِظَامِهِ الْعِبَادِيِّ؟

تُجِيبُكَ الْفَاتِحَةُ بِأَنْ يَكُونَ ذَلِكَ بِسُلُوكِ السَّبِيلِ السَّوِيِّ الْمُسْتَقِيمِ غَيْرِ الْمُنْحَرِفِ وَلَا الْمَائِلِ، حَيْثُ يَتِمُّ تَحْقِيقُ مَقَامِ الْوَظِيفَةِ الْعِبَادِيَّةِ عَلَى الْوَجْهِ الْأَمْثَلِ، وَهُنَاكَ يَحِقُّ لَهُ أَنْ يَقُولَ لِمَنْ زَاغَ مِنَ الْبَشَرِيَّةِ وَاخْتَرَعَ لِنَفْسِهِ الْعِبَادَاتِ الْمُبْتَدَعَةَ وَغَوَى ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: ١٣٥].

رُبَّمَا اعْتَرَاكَ الْكَثِيرُ مِنَ الْعَجَبِ بِهَذِهِ الْعَوَاصِمِ الَّتِي أَنْزَلَهَا اللهُ -تَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ- لِيَحْمِيَ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الِانْحِرَافِ وَالضَّلَالِ، وَالِانْجِرَافِ وَسَقِيمِ الْخَيَالِ، وَذَلِكَ لِيُحَافِظَ عَلَى الْإِسْلَامِ مِنَ التَّغْيِيرِ وَالِاخْتِرَاعِ الَّذِي تَوَرَّطَ فِيهِ أَتْبَاعُ أَنْبِيَاءَ سَابِقِينَ.

إِنَّ الْإِسْلَامَ يَمْنَعُ أَتْبَاعَهُ مِنْ أَنْ يَخْتَرِعُوا عِبَادَاتٍ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ يَسْتَبْدِلُونَ بِهَا دِينَ اللهِ، فَالْعِبَادَةُ الْمَطْلُوبَةُ هِيَ الَّتِي تَكُونُ عَلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ الَّذِي سَارَ عَلَيْهِ الْمُنْعَمُ عَلَيْهِمْ، لَا وَفْقَ عِبَادَةِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ.

الْوِقَايَةُ مِنْ غَوَائِلِ الْخَارِجِ وَضَلَالَاتِ الدَّاخِلِ: كَيْفَ عَصَمَتْ آيَتَانِ مَسِيرَةَ الْإِسْلَامِ؟

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ إِنَّ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ الْمُعْجِزَتَيْنِ كَيْفَ حَفِظَتَا الْإِسْلَامَ، وَعَصَمَتَا الْمَسِيرَةَ الْعِبَادِيَّةَ مِنَ الْأَدْيَانِ الْمُنْحَرِفَةِ خَارِجَ الْإِسْلَامِ مِنْ جِهَةٍ، وَمِنَ الْبِدَعِ الْمُضِلَّةِ الَّتِي يُمْكِنُ أَنْ تُخْتَرَعَ دَاخِلَ الْإِسْلَامِ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى، فَالْهِدَايَةُ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ تَكُونُ فِي كُلِّ شَأْنٍ مِنْ شُؤُونِ الْحَيَاةِ، وَالصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ هُوَ الْوَسَطُ الْعَدْلُ الْخِيَارُ، وَهُوَ الدِّينُ الْقَيِّمُ، وَالْإِنْسَانُ يَكُونُ مُهْتَدِيًا بِالدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ، وَلَكِنَّهُ مُعَرَّضٌ لِلِانْحِرَافِ إِلَى طَرَفَيِ الْغُلُوِّ وَالْجَفَاءِ بَعِيدًا عَنِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ إِنْ لَمْ يَجِدْ هِدَايَةً مِنْ رَبِّهِ فِي كُلِّ أَفْكَارِهِ وَقَرَارَاتِهِ الدِّينِيَّةِ وَالدُّنْيَوِيَّةِ.

وَعَلَى هَذَا فَالْإِنْسَانُ مُحْتَاجٌ إِلَى هِدَايَةِ الرَّحْمَنِ فِي كُلِّ جُزْئِيَّةٍ مِنْ جُزْئِيَّاتِ الْحَيَاةِ، كَمَا قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رحمه الله: "وَالْعَبْدُ مُفْتَقِرٌ إِلَى الْهِدَايَةِ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ وَنَفَسٍ فِي جَمِيعِ مَا يَأْتِيهِ وَيَذَرُهُ"[1]:

إِنِّي إِلَيْكَ مَدَى الْأَنْفَاسِ مُحْتَاجُ ... لَوْ كَانَ فِي مِفْرَقِي الْإِكْلِيلُ وَالتَّاجُ

افْتِقَارُ الْعَبْدِ الدَّائِمُ إِلَى أَنْوَارِ الْهِدَايَةِ:

إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا وَسَّعَ فَهْمَهُ لِدَلَالَةِ الْهِدَايَةِ وَوُجُوهِهَا سَيَجِدُ أَنَّهُ لَا يَنْفَكُّ عَنْ حَاجَتِهِ لِجَمِيعِهَا أَوْ لِبَعْضِهَا..

---

(١) رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه، (ص: ٨).

فَرُبَّمَا يَكُونُ قَدْ أَتَى أُمُورًا عَلَى غَيْرِ "وَجْهِ الْهِدَايَةِ جَهْلًا، فَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَى أَنْ يَطْلُبَ الْهِدَايَةَ إِلَى الْحَقِّ فِيهَا..

أَوْ يَكُونُ عَارِفًا بِالْهِدَايَةِ فِيهَا فَأَتَاهَا عَلَى غَيْرِ وَجْهِهَا عَمْدًا، فَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَى التَّوْبَةِ مِنْهَا.

أَوْ أُمُورٍ لَمْ يَعْرِفْ وَجْهَ الْهِدَايَةِ فِيهَا عِلْمًا وَلَا عَمَلًا فَفَاتَتْهُ الْهِدَايَةُ إِلَى عِلْمِهَا وَمَعْرِفَتِهَا وَإِلَى قَصْدِهَا وَإِرَادَتِهَا وَعَمَلِهَا.

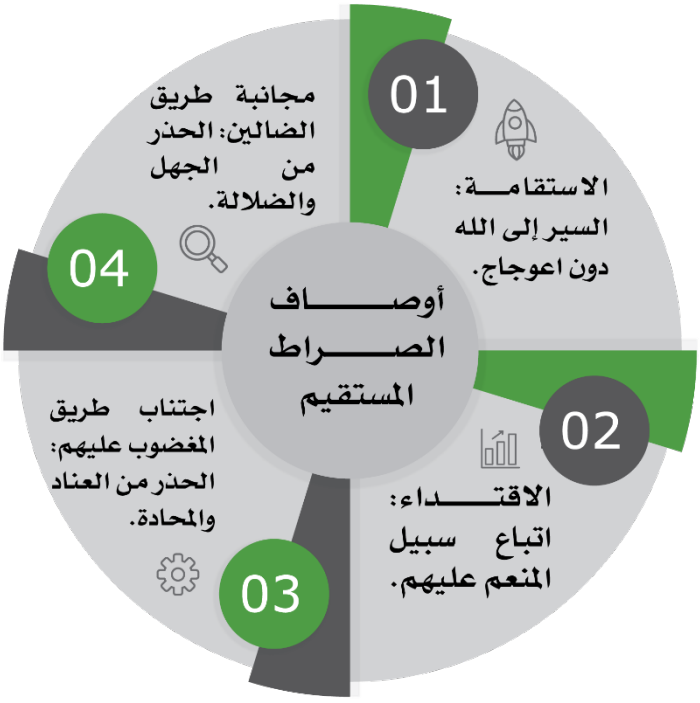
أَوْ أُمُورٍ قَدْ هُدِيَ إِلَيْهَا مِنْ وَجْهٍ دُونَ وَجْهٍ فَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَى تَمَامِ الْهِدَايَةِ فِيهَا.

أَوْ أُمُورٍ قَدْ هُدِيَ إِلَى أَصْلِهَا دُونَ تَفَاصِيلِهَا فَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَى هِدَايَةِ التَّفْصِيلِ.

أَوْ طَرِيقٍ قَدْ هُدِيَ إِلَيْهَا وَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَى هِدَايَةٍ أُخْرَى فِيهَا، فَالْهِدَايَةُ إِلَى الطَّرِيقِ شَيْءٌ وَالْهِدَايَةُ فِي نَفْسِ الطَّرِيقِ شَيْءٌ آخَرُ أَلَا تَرَى أَنَّ الرَّجُلَ يَعْرِفُ أَنَّ طَرِيقَ الْبَلَدِ الْفُلَانِيِّ هُوَ طَرِيقُ كَذَا وَكَذَا وَلَكِنْ لَا يُحْسِنُ أَنْ يَسْلُكَهُ، فَإِنَّ سُلُوكَهُ يَحْتَاجُ إِلَى هِدَايَةٍ خَاصَّةٍ فِي نَفْسِ السُّلُوكِ كَالسَّيْرِ فِي وَقْتِ كَذَا دُونَ وَقْتِ كَذَا، وَأَخْذِ الْمَاءِ فِي مَفَازَةِ كَذَا مِقْدَارِ كَذَا، وَالنُّزُولِ فِي مَوْضِعِ كَذَا دُونَ كَذَا، فَهَذِهِ هِدَايَةٌ فِي نَفْسِ السَّيْرِ قَدْ يُهْمِلُهَا مَنْ هُوَ عَارِفٌ بِأَنَّ الطَّرِيقَ هِيَ هَذِهِ فَيَهْلِكُ وَيَنْقَطِعُ عَنِ الْمَقْصُودِ"[1].

يَقْرَأُ الْقَارِئُ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، فَرُبَّمَا أَثَارَ ذَلِكَ عِنْدَهُ تَسَاؤُلَاتٍ: كَيْفَ نَعْرِفُ الْعِبَادَةَ الْحَقَّةَ، وَمَا سَبِيلُهَا؟ وَهَلْ سَارَ فِيهَا سَائِرٌ مِنْ قَبْلُ؟ وَكَيْفَ نَتَّقِي تَزْيِيفَ الشَّيْطَانِ لِمَا يُسَمَّى عِبَادَةً؟

(١) رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه، (ص: ٩).



صِفَاتُ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ الَّذِي أُمِرْنَا بِاتِّبَاعِهِ:

إِنَّ أَنْوَارَ الْفَاتِحَةِ لَنْ تَتْرُكَ قَارِئَهَا حَائِرًا، وَلَا سَائِرًا بِغَيْرِ هُدًى، وَاللهُ تَعَالَى يُبَيِّنُ لَهُ الْوَجْهَ الْأَمْثَلَ الَّذِي يَكْشِفُ الْعِبَادَةَ الْحَقِيقِيَّةَ، **وَهُوَ الْوَجْهُ الْمُتَّصِفُ بِأَرْبَعِ صِفَاتٍ:**

الصِّفَةُ الْأُولَى: أَنْ يَكُونَ السَّيْرُ إِلَى اللهِ بِاسْتِقَامَةٍ دُونَ اعْوِجَاجٍ ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾.

الصِّفَةُ الثَّانِيَةُ: بِأَنْ يَكُونَ عَلَى الطَّرِيقَةِ ذَاتِهَا الَّتِي سَارَ عَلَيْهَا الْمُنْعَمُ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلُ ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ﴾.

الصِّفَةُ الثَّالِثَةُ: أَنْ يَحْذَرَ أَثْنَاءَ سَيْرِهِ عَلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ مِنْ أَنْ يَنْحَرِفَ إِلَى طَرِيقِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ بِأَنْ يُؤَدِّيَ إِلَى غَضَبِ اللهِ الَّذِي يَكُونُ مَبْعَثُهُ الْعِنَادَ وَاللَّجَاجَ، وَالْمُحَادَّةَ لِلَّهِ ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾.

الصِّفَةُ الرَّابِعَةُ: أَلَّا يَكُونَ عَلَى طَرِيقِ الضَّالِّينَ التَّائِهِينَ بِأَنْ يُؤَدِّيَ إِلَى ضَلَالَةٍ تَجُرُّ صَاحِبَهَا إِلَى السُّقُوطِ وَالْهَلَاكِ وَالشَّقَاءِ، أَوِ الرُّعُونَةِ وَالِاعْتِدَاءِ ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾.

❋❋❋

جِسْرُ اتِّصَالٍ: عَرَفْنَا الْبَصِيرَةَ الْأُولَى مِنْ بَصَائِرِ الْمَقْصَدِ السَّابِعِ مِنْ مَقَاصِدِ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ، أَنَّ ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ هِيَ الْحِصْنُ الْعَاصِمُ لِلْعِبَادَةِ مِنَ الِانْحِرَافِ السَّقِيمِ، فَمَا الْبَصِيرَةُ الثَّانِيَةُ؟

الْجَوَابُ:

الْبَصِيرَةُ الثَّانِيَةُ

﴿ٱهْدِنَا﴾ عَلَامَةٌ عَلَى أَنَّ الثَّنَاءَ عَلَى اللهِ الْكَرِيمِ الْوَاهِبِ كَفِيلٌ بِتَحْقِيقِ أَعْظَمِ الْمَطَالِبِ، وَنَيْلِ أَغْنَى الْمَكَاسِبِ

مَا مَعْنَى هَذِهِ الْبَصِيرَةِ؟

إِنَّهَا تَعْنِي أَنَّ إِجَابَةَ الدُّعَاءِ تَعْتَمِدُ عَلَى حُسْنِ الطَّلَبِ ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥، ٥٦]. وَلَكِنْ مِنْ أَيْنَ اسْتَنْبَطْنَا أَنَّ تَحْقِيقَ الْمَطَالِبِ يَقُومُ عَلَى ذِكْرِ أَعْظَمِ الْمَنَاقِبِ فِي الْفَاتِحَةِ؟

الجَوَابُ: اسْتَنْبَطْنَا هَذَا الْمَبْدَأَ التَّوْجِيهِيَّ فِي كَيْفِيَّةِ الْوُصُولِ إِلَى تَحْقِيقِ الْأَهْدَافِ عِنْدَ الدُّعَاءِ مِنَ الِاتِّصَالِ بَيْنَ هَذِهِ الْآيَةِ وَبَيْنَ مَا قَبْلَهَا أَيْضًا، فَهَؤُلَاءِ الْعِبَادُ الْمُنِيبُونَ يُرِيدُونَ مِنَ اللهِ تَحْقِيقَ أَهَمِّ الْأَهْدَافِ الْحَيَاتِيَّةِ الْعَظِيمَةِ، وَهُوَ: الْهِدَايَةُ لِلْعِبَادَةِ الْحَقَّةِ، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَسْأَلُوهَا إِلَّا بَعْدَ أَنْ حَمِدُوا اللهَ وَوَصَفُوهُ بِأَجْمَلِ الصِّفَاتِ وَأَعْظَمِ الثَّنَاءِ، وَذَلِكَ فِي الْآيَاتِ الْأَرْبَعِ الْأُوَلِ، ثُمَّ أَتْبَعُوا ذَلِكَ بِتَقْدِيمِ خَالِصِ الْوَلَاءِ عِنْدَمَا قَالُوا: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، فَلَمَّا ظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ تَقَرَّبُوا إِلَى اللهِ بِهَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ الْجَلِيلَيْنِ بَادَرُوا يَطْلُبُونَ مِنَ اللهِ تَحْقِيقَ أَعْظَمِ أَهْدَافِهِمْ، وَهُوَ الْهِدَايَةُ فِي اتِّخَاذِ الْقَرَارَاتِ، وَفِي الْوُصُولِ إِلَى الْأَعْمَالِ الصَّالِحَاتِ عَنْ طَرِيقِ سُلُوكِ

السَّبِيلِ الَّذِي سَارَ فِيهِ السُّعَدَاءُ، وَالْعِصْمَةِ مِنْ سُبُلِ الْأَشْقِيَاءِ، وَإِذَا كَانُوا قَدْ قَدَّمُوا بَيْنَ يَدَيْ سُؤَالِهِمُ: الثَّنَاءَ وَالْوَلَاءَ فَحَرِيٌّ أَنْ يُسْتَجَابَ طَلَبُهُمْ.

وَقَدْ حَثَّ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الثَّنَاءِ لِيَكُونَ وَسِيلَةً لِإِجَابَةِ الدُّعَاءِ، فَقَدْ رَوَى فَضَالَةُ بْنُ عُبَيْدٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سَمِعَ رَجُلًا يَدْعُو فِي صَلَاتِهِ، فَلَمْ يُصَلِّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «عَجِلَ هَذَا» ثُمَّ دَعَاهُ فَقَالَ لَهُ -وَلِغَيْرِهِ-: «إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ فَلْيَبْدَأْ بِتَحْمِيدِ اللهِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ، ثُمَّ لِيُصَلِّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ لِيَدْعُ بَعْدُ بِمَا يَشَاءُ»(١).

الثَّنَاءُ عَلَى اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَبْلَ الدُّعَاءِ طَرِيقَةُ الصَّالِحِينَ:

ذَكَرَ اللهُ ﷻ نَمَاذِجَ لِدُعَاءِ الصَّالِحِينَ فِي كِتَابِهِ الْكَرِيمِ، وَمِنَ اللَّافِتِ أَنْ نَرَاهُمْ يُقَدِّمُونَ بَيْنَ يَدَيْ دَعَوَاتِهِمْ ثَنَاءً عَاطِرًا عَلَى مَوْلَاهُمْ، وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١) رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (١٩٢) رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ (١٩٣) رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [آل عِمْرَانَ: ١٩٠-١٩٤].

قَالَ النَّوَوِيُّ ﷺ: "أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ عَلَى اسْتِحْبَابِ ابْتِدَاءِ الدُّعَاءِ بِالْحَمْدِ لِلَّهِ تَعَالَى وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ، ثُمَّ الصَّلَاةِ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَكَذَلِكَ تُخْتَمُ الدُّعَاءُ بِهِمَا، وَالْآثَارُ فِي هَذَا الْبَابِ كَثِيرَةٌ

(١) الترمذي (٥ / ٥١٧)، وقال: "هذا حديث حسن صحيح".

مَعْرُوفَةٌ"[1]، وَسُئِلَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ عَنْ قَوْلِ مُطَرِّفٍ: فَإِذَا بَدْءُ الْأَمْرِ مِنَ اللهِ، وَتَمَامُهُ بِاللهِ، وَمِلَاكُهُ الدُّعَاءُ؟ قَالَ: أَلَمْ تَسْمَعْ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٥٤) ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الْأَعْرَافِ: ٥٤، ٥٥]"[2].

جِسْرُ اتِّصَالٍ: عَرَفْنَا الْبَصِيرَةَ الثَّانِيَةَ مِنْ بَصَائِرِ الْمَقْصِدِ السَّابِعِ مِنْ مَقَاصِدِ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ، وَهِيَ: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ عَلَامَةٌ عَلَى أَنَّ تَحْقِيقَ الْمَطَالِبِ يَتِمُّ بِتَقْدِيمِ ذِكْرِ أَعْظَمِ الْمَنَاقِبِ، فَمَا الْبَصِيرَةُ الثَّالِثَةُ؟

الْجَوَابُ:

الْبَصِيرَةُ الثَّالِثَةُ

﴿ٱهۡدِنَا﴾ بِدَايَةُ الْحَيَاةِ الْحَقِيقِيَّةِ لِلْخُرُوجِ مِنَ الْأَزَمَاتِ وَالْحَيْرَةِ فِي الظُّلُمَاتِ

بَوَّابَةُ إِقَامَةِ النِّظَامِ الْعِبَادِيِّ الْحَقِّ بَعِيدًا عَنِ الضَّلَالِ وَالتَّحْرِيفِ هِيَ الِاهْتِدَاءُ، فَمَا مَعْنَى كَلِمَةِ اهْدِنَا؟ انْظُرْ هُنَا إِلَى رَوْعَةِ الْأَدَاءِ، وَجَمَالِ الْآلَاءِ، وَنِعْمَةِ الْمَعَانِي الَّتِي تُثِيرُهَا هَذِهِ الْكَلِمَةُ ﴿ٱهۡدِنَا﴾؛ إِذِ الْهِدَايَةُ مَصْدَرٌ مِنْ هَدَى. **وَهَذَا الْفِعْلُ يَدُلُّ عَلَى أَصْلَيْنِ:**

أَحَدُهُمَا: التَّقَدُّمُ لِلْإِرْشَادِ، **وَالْآخَرُ**: بَعْثُهُ بِلُطْفٍ، مِنْ قَوْلِهِمْ: هَدَيْتُهُ الطَّرِيقَ هِدَايَةً، أَيْ تَقَدَّمْتُهُ لِأُرْشِدَهُ، وَكُلُّ مُتَقَدِّمٍ لِذَلِكَ هَادٍ[3]، فَالْهِدَايَةُ عِنْدَ الْعَرَبِ هِيَ الدَّلَالَةُ بِتَلَطُّفٍ، وَلِذَلِكَ خُصَّتْ غَالِبًا بِالدَّلَالَةِ لِمَا فِيهِ خَيْرُ الْمَدْلُولِ؛ لِأَنَّ التَّلَطُّفَ يُنَاسِبُ مَنْ أُرِيدَ بِهِ الْخَيْرُ.

---

(١) الأذكار (ص: ١١٧).

(٢) البصائر والذخائر (٨/ ٧٨).

(٣) معجم مقاييس اللغة٦/ ٤٢.



مَعَانِي الْهِدَايَةِ وَأَقْسَامُهَا فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ:

الْهِدَايَةُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ تَأْتِي عَلَى خَمْسَةِ مَعَانٍ:

الْمَعْنَى الْأَوَّلُ: هِدَايَةُ الْفِطْرَةِ الْجِبِلِّيَّةِ الْغَرِيزِيَّةِ:

وَبِهَذِهِ الْهِدَايَةِ يُمَيِّزُ كُلُّ مَخْلُوقٍ مَا يَضُرُّهُ وَمَا يَنْفَعُهُ مِمَّا غُرِسَ فِي طَبِيعَتِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]، خَلَقَهُ ثُمَّ وَضَعَ فِي خِلْقَتِهِ الْأَصْلِيَّةِ وَظِيفَتَهُ

الَّتِي يَنْبَغِي أَنْ يَقُومَ بِهَا، وَمِثْلُ ذَلِكَ قَوْلُ رَبِّنَا -جَلَّ مَجْدُهُ-: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝١ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ۝٢ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ [الأعلى:١ - ٣]، أَلَا تَرَى أَنَّهُ خَلَقَ النَّحْلَةَ، وَوَضَعَ فِي فِطْرَتِهَا مَاذَا تَصْنَعُ، وَخَلَقَ النَّمْلَةَ، وَهَدَاهَا لِأَنْوَاعٍ مِنَ الْعَمَلِ الْجَمَاعِيِّ، وَخَلَقَ اللهُ الرَّضِيعَ وَهَدَاهُ لِالْتِقَامِ ثَدْيِ أُمِّهِ... وَهَكَذَا، وَهَذِهِ الْهِدَايَةُ لَا تَدْخُلُ فِي: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

الْمَعْنَى الثَّانِي: هِدَايَةُ التَّعْلِيمِ وَالِاكْتِشَافِ لِتَكْوِينِ الْخِبْرَةِ الْمَعْرِفِيَّةِ الْبَسِيطَةِ وَالْمُتَرَاكِمَةِ:

وَنَجِدُهَا فِي الْآيَاتِ الَّتِي تَحُثُّ عَلَى السَّيْرِ فِي الْأَرْضِ وَالْكَوْنِ عَامَّةً، وَاكْتِشَافِ قَوَانِينَ الْخَلْقِ، وَنَوَامِيسِ سَيْرِ الْأَفْلَاكِ الْعُلْوِيَّةِ وَالسُّفْلِيَّةِ، وَالْعَلَاقَاتِ الْمُتَبَادَلَةِ بَيْنَ الْمَخْلُوقَاتِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [العنكبوت: ٢٠]، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ [النحل: ٤٨]، وَقَالَ -عَزَّ مَجْدُهُ-: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ [السجدة: ٢٧].

كَمَا نَجِدُهَا فِي الْآيَاتِ الَّتِي أَشَارَتْ إِلَى شَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْقَوَانِينِ الضَّابِطَةِ، وَالنَّوَامِيسِ الْحَاكِمَةِ لِلْخَلْقِ مِمَّا يَبْحَثُهُ عُلَمَاءُ الْإِعْجَازِ الْعِلْمِيِّ لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، مِثْلَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ (٣٦) وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ (٣٧) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٣٦ - ٤٠].

وَالدَّلَالَةُ وَالْبَيَانُ فِي هَذَا النَّوْعِ عَلَى مَرَاتِبَ:

فَمِنْهَا مَا يَكُونُ بِالْفِكْرِ، وَذَلِكَ بِمُلَاحَظَةِ الْمَعْقُولِ لِتَحْصِيلِ الْمَجْهُولِ، وَهُنَا تَكُونُ الْهِدَايَةُ الْأَوَّلِيَّةُ، وَالْهِدَايَةُ الَّتِي تُكَوِّنُ الْخِبْرَاتِ التَّرَاكُمِيَّةَ، وَيَتِمُّ مِنْ خِلَالِهَا الِاسْتِكْشَافُ، وَبِنَاءُ الْمَعْلُومَاتِ عَلَى الْمَعْلُومَاتِ لِتَكْوِينِ الْخِبْرَةِ الْمُتَرَاكِمَةِ، مَاذَا يَعْنِي هَذَا؟ إِنَّهَا الْهِدَايَةُ إِلَى الْمَعْرِفَةِ الْبَسِيطَةِ، وَالْمَعْرِفَةِ الْمُتَرَاكِمَةِ.

وَقَدْ أَنْشَأَ اللهُ ﷻ الْعُقُولَ الْبَشَرِيَّةَ لِلْحُصُولِ عَلَيْهَا، فَقَالَ -تَعَالَى اسْمُهُ- مُبَيِّنًا إِمْدَادَهُ لِلْعَقْلِ الْبَشَرِيِّ بِهَذِهِ الْهِدَايَةِ لِلنَّظَرِ فِي الْآفَاقِ وَالْأَنْفُسِ وَالتَّارِيخِ ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣]، ﴿وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [النساء: ٢٦].

وَحَدَّثَنِي أَحَدُ أَشْيَاخِي الْأَجِلَّاءِ ﷺ أَنَّ شَخْصًا كَانَ يَمْلِكُ سَيَّارَةً آخِرَ موديل قَبْلَ نَحْوِ ٤٠ سَنَةً، فَتَعَطَّلَتْ لِسَبَبٍ مَا، وَذَهَبَ بِهَا إِلَى الصِّنَاعِيَّةِ، فَلَمْ يَعْرِفُوا الْخَلَلَ، فَدَلُّوهُ عَلَى رَجُلٍ تُرْكِيٍّ، فَذَهَبَ إِلَيْهِ، فَنَظَرَ التُّرْكِيُّ إِلَى مَكَانٍ مَا فِي مَاكِينَةِ السَّيَّارَةِ ثُمَّ أَخَذَ مِطْرَقَةً وَضَرَبَهَا، ثُمَّ طَلَبَ مِنْهُ أَنْ يُشَغِّلَ السَّيَّارَةَ، فَاشْتَغَلَتْ، فَطَلَبَ مِنْهُ سِعْرًا عَالِيًّا، فَتَعَجَّبَ صَاحِبُ السَّيَّارَةِ، وَقَالَ: يَا شَيْخُ تُرِيدُ هَذَا السِّعْرَ عَلَى ضَرْبَةٍ وَاحِدَةٍ؟ فَقَالَ لَهُ: كَمْ عَدَدُ الَّذِينَ مَرَرْتَ بِهِمْ فَلَمْ يُصْلِحُوا لَكَ الْخَلَلَ؟ هَذِهِ الضَّرْبَةُ الْوَاحِدَةُ هِيَ ثَمَنُ الْخِبْرَةِ الْمُتَرَاكِمَةِ الَّتِي هَدَتْ إِلَى هَذِهِ الضَّرْبَةِ.

السُّؤَالُ: هَلْ يُمْكِنُنَا أَنْ نُقَدِّرَ عَظَمَةَ الْعَلِيمِ الْخَبِيرِ الَّذِي بِيَدِهِ مَقَالِيدُ كُلِّ شَيْءٍ، وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَهُ خَزَائِنُهُ؟!

فَهَذَا هُوَ الْمَعْنَى الْأَوَّلُ وَالثَّانِي مِنْ مَعَانِي ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

الْمَعْنَى الثَّالِثُ: هِدَايَةُ الدَّلَالَةِ الْبَيَانِيَّةِ الْإِرْشَادِيَّةِ لِسُلُوكِ السَّبِيلِ السَّوِيَّةِ:

لَـمَّا خَلَقَ اللهُ ﷻ الْبَشَرِيَّةَ لَمْ يَتْرُكْهَا دُونَ أَدِلَّةٍ إِرْشَادِيَّةٍ تَتَعَرَّفُ بِهَا عَلَى وُجُودِهَا، وَعَلَى الْبِيئَةِ حَوْلَهَا، وَلِذَا عَرَّفَهُمْ بِنَجْدَيِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠]، فما النجدان؟

إِنَّهُمَا الْمَوْضِعَانِ الْمُرْتَفِعَانِ اللَّذَانِ مِنْ خِلَالِهِمَا تَعْرِفُ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ.

وَهُنَا سَيَتَبَادَرُ إِلَى ذِهْنِكَ سُؤَالٌ: لِمَاذَا عَبَّرَ اللهُ ﷻ بِالنَّجْدَيْنِ وَلَمْ يُعَبِّرْ بِالسَّبِيلَيْنِ؟

كَانَ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ التَّعْبِيرُ هُنَا بِالسَّبِيلَيْنِ أَوِ الطَّرِيقَيْنِ بَدَلًا مِنَ النَّجْدَيْنِ، وَقَدْ قَالَ اللهُ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣]؟ لَكِنَّهُ عَبَّرَ عَنِ السَّبِيلَيْنِ بِالنَّجْدَيْنِ؛ لِأَنَّ أَهْلَ اللُّغَةِ -وَمِنْهُمُ الْخَلِيلُ- يُمَيِّزُونَ بَيْنَ نَوْعَيْنِ مِنَ الطُّرُقِ: الْغَوْرِ وَالنَّجْدِ، فَالنَّجْدُ كُلُّ شَرَفٍ مِنَ الْأَرْضِ اسْتَوَى ظَهْرُهُ فَهُوَ نَجْدٌ، وَيُجْمَعُ عَلَى أَنْجَادٍ، فَالنَّجْدُ أَرْضٌ فِيهَا ارْتِفَاعٌ وَصَلَابَةٌ، كَمَا قِيلَ:

قَـلَائِـصٌ إِذَا عَـلَـوْنَ فَـدْفَـدَا ... رَمَيْـنَ بِـالطَّرْفِ النِّـجَـادَ الْأَبْـعَـدَا[1]

وَيَتَمَيَّزُ الْوَاقِفُ عَلَى النَّجْدِ بِوُضُوحِ الطَّرِيقِ أَمَامَهُ، وَلِذَا يُسَمَّى الطَّرِيقُ الْوَاضِحُ نَجْدًا، وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ الشَّاعِرِ:

وَقَـدْ جَـاكُـمُ الـنَّـجْـدُ الـنَّـذِيرُ مُـحَـمَّـدٌ ... دَلِـيـلٌ عَلَى طُرْقِ الْهُـدَى لَيْسَ يَهْمُـدُ[2]

فَخُذْ هَذَا الْمَعْنَى الْقُرْآنِيَّ الْفَرِيدَ لِتَعْلَمَ أَنَّ الَّذِي يَعْرِفُ نَجْدَيِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ يَطَّلِعُ عَلَى أُمُورٍ تَخْفَى عَلَى مَنْ كَانَ أَسْفَلَ النَّجْدَيْنِ، فَهُوَ يَدُلُّ التَّائِهِينَ وَيُرْشِدُ الْحَائِرِينَ، وَالْهَادِي قَدْ يَكُونُ اللهَ -جَلَّ فِي عُلَاهُ- كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [القصص: ٢٢].

---

(١) البيت للفرزدق في ديوانه ص ١٥٠.

(٢) العين (٦/ ٨٣)، وينسب البيت لأمية بن أبي الصلت، كما في العين للخليل ٦/ ٨٤.

وَقَدْ يَكُونُ الْهَادِي نَبِيًّا يَدُلُّ عَلَى هُدَى اللهِ، وَقَدْ يَكُونُ مُصْلِحًا يَهْتَدِي بِهُدَى الْأَنْبِيَاءِ، فَاسْمَعْ لِذَلِكَ فِي قَوْلِ اللهِ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ﴾ [الشورى: ٥٢]، أَيْ: إِنَّكَ أَيُّهَا الرَّسُولُ لَتُبَيِّنُ حَقًّا الْبَيَانَ الْوَافِيَ، وَتَدُلُّ النَّاسَ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ فِي أُمُورِ الْحَيَاةِ، وَهُوَ الصِّرَاطُ غَيْرُ الْمُعْوَجِّ الَّذِي يُنْقِذُ مِنَ التَّجَارِبِ الْمُؤْلِمَةِ، وَالْمَتَاهَاتِ الْمُضِلَّةِ، وَلَكِنَّ الْهُدَاةَ قَدْ يَجِدُونَ الصَّدَّ وَالْإِعْرَاضَ مِنَ الْمَدْعُوِّينَ؛ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يَعْرِفُونَ مَصَالِحَهُمُ الْحَقِيقِيَّةَ. أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ ﷻ قَالَ عَنْهُمْ: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧].

الْعَقْلُ وَالْوَحْيُ تَكَامُلٌ لَا اسْتِغْنَاءَ:

وَلَكِنْ لَا تَذْهَبْ بَعِيدًا -يَا رَفِيقَ الدَّرْبِ- فَإِنَّ مِنَ الْمَقْطُوعِ بِهِ أَنَّ مِنَ الْهِدَايَةِ مَا لَا يُمْكِنُ تَحْصِيلُهُ إِلَّا بِمَجِيءِ النَّبِيِّ الْهَادِي، فَالْعَقْلُ وَحْدَهُ لَا يَكْفِي! وَهَذَا هُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ -تَعَالَى جَدُّهُ: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧]، وَقَوْلِهِ -عَزَّ سُلْطَانُهُ-: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةٗ يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [الأنبياء: ٧٣]، فَالْعَقْلُ هَادٍ لِأُمُورٍ دُنْيَوِيَّةٍ مَحْدُودَةٍ، لَكِنَّهُ يَفْتَقِرُ إِلَى النَّبِيِّ الْهَادِي ﷺ فِي الْمَعْرِفَةِ الْكُلِّيَّةِ لِلْوُجُودِ، حَيْثُ تَتِمُّ الْهِدَايَةُ إِلَى أَسْهَلِ السُّبُلِ وَأَسْرَعِهَا نَحْوَ الْغَايَاتِ الْحَيَوِيَّةِ الْمَقْصُودَةِ مِنَ الرَّاحَةِ وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ.

وَلِلْأُمُورِ الشَّرْعِيَّةِ مِنْهَا مَوْقِعٌ خَاصٌّ حَيْثُ تَكُونُ الْهِدَايَةُ فِيهَا لِلْمُؤْمِنِينَ حَقًّا ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣]، ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٖ مِّنْهُ وَفَضْلٖ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطٗا مُّسْتَقِيمٗا﴾ [النساء: ١٧٥].

الْمَعْنَى الرَّابِعُ: هِدَايَةُ الْإِلْهَامِ وَالتَّوْفِيقِ:

فَبَعْدَ مَعْرِفَةِ طَرِيقِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ تَأْتِي خُطْوَةُ الِاخْتِيَارِ وَاتِّخَاذِ أَخْطَرِ قَرَارٍ: هَلْ نَرْتَقِي نَجْدَ الْخَيْرِ أَمْ نَتَقَحَّمُ صُعُودَ نَجْدِ الشَّرِّ؟ وَهُنَا تَكْمُنُ أَهَمِّيَّةُ مُقَاوَمَةِ الْأَهْوَاءِ وَالنَّزَوَاتِ الْمُسْتَكِنَّةِ فِي نُفُوسِنَا وَصُدُورِنَا، كَمَا تَكْمُنُ أَهَمِّيَّةُ سُؤَالِ اللهِ تَعَالَى أَنْ يُلْهِمَنَا وَيَعْزِمَ لَنَا عَلَى أَرْشَدِ أُمُورِنَا[1] لِارْتِقَاءِ نَجْدِ الْخَيْرِ وَمُقَاوَمَةِ جَوَاذِبِ الشَّرِّ، وَهَذَا هُوَ الْمَعْنَى الرَّابِعُ، وَهُوَ الْإِلْهَامُ لِسُلُوكِ طَرِيقِ السَّلَامِ.

وَهَذِهِ الْهِدَايَةُ بِيَدِ اللهِ ﷻ الْقَائِلِ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦]، وَلَكِنَّ الَّذِي يَسْتَحِقُّ الْإِلْهَامَ وَالتَّوْفِيقَ هُوَ مَنْ يَنْأَى بِنَفْسِهِ عَنْ جَوَاذِبِ الشَّرِّ، وَيَرْدَعُ أَهْوَاءَ النَّفْسِ الْأَمَّارَةِ بِالسُّوءِ، وَلَيْسَ هُوَ مَنْ يَتَمَنَّى الْأَمَانِيَّ، وَيَقْعُدُ عَنْ مُتَطَلَّبَاتِ الْمُقَاوَمَةِ لِكَسَلِهِ أَوْ لِأَهْوَائِهِ، وَهُنَا يَبْرُزُ لَنَا الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ لِيَقُولَ: "حَادِثُوا هَذِهِ الْقُلُوبَ بِذِكْرِ اللهِ، فَإِنَّهَا سَرِيعَةُ الدُّثُورِ، وَاقْدَعُوا هَذِهِ الْأَنْفُسَ فَإِنَّهَا طُلَعَةٌ، وَإِنَّمَا تَنْزِعُ إِلَى شَرِّ غَايَةٍ، وَإِنَّكُمْ إِنْ تُطِيعُوهَا فِي كُلِّ مَا تَنْزِعُ إِلَيْهِ ١ لَا تُبْقِي لَكُمْ شَيْئًا"[2]، فَمَنِ اخْتَارَ ذَلِكَ قَرَّبَهُ اللهُ نَجِيًّا[3]، وَجَعَلَهُ مَهْدِيًّا، وَمَنْ أَبَى إِلَّا اتِّبَاعَ نَزَوَاتِ نَفْسِهِ، وَخَرَجَ عَنْ صَالِحِ فِطْرَتِهِ أَضَلَّهُ اللهُ وَأَبْعَدَهُ مَكَانًا قَصِيًّا، وَانْقَلَبَ مَطْرُودًا شَقِيًّا. وَانْظُرْ ذَلِكَ تَجِدْهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ

---

(١) مِنْ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «اللَّهُمَّ قِنِي شَرَّ نَفْسِي، وَاعْزِمْ لِي عَلَى أَرْشَدِ أَمْرِي»، وَقَدْ تَقَدَّمَ قَبْلَ قَلِيلٍ.

(٢) الزهد لابن المبارك (١ / ٩١)، الدُّثُورُ) مِنْ دَثَرَ أَيْ: دَرَسَ وَانْطَمَسَ وَذَهَبَ، وَالْمُرَادُ: أَنَّهَا تُسْرِعُ فِي التَّغَيُّرِ وَالتَّقَلُّبِ، (وَاقْدَعُوا) أَيْ: كُفُّوا وَأَمْسِكُوا، كَأَنَّهَا بِمَعْنَى: اقْمَعُوا، أَيْ أَنَّ النُّفُوسَ تَطَّلِعُ إِلَى هَوَاهَا وَتَشْتَهِيهِ حَتَّى تُرَدِّيَ صَاحِبَهَا، يَقُولُ: فَامْنَعُوهَا عَنْ ذَلِكَ.

(٣) لَيْسَتِ الْمُنَاجَاةُ خَاصَّةً بِالْكَلِيمِ مُوسَى ﷺ وَإِنْ كَانَ لَهُ مَزِيدُ اخْتِصَاصٍ فِي كَيْفِيَّتِهَا-، فَالنَّبِيُّ ﷺ قَالَ -فِيمَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (١ / ١١٢)-: «إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا قَامَ فِي صَلَاتِهِ، فَإِنَّهُ يُنَاجِي رَبَّهُ».

﴿كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٦، ٢٧]، فَمَا عَاقِبَةُ مِثْلِ هَذَا الْعَابِدِ لِهَوَاهُ؟ تَكُونُ عَاقِبَتُهُ الْخَسَارَةَ الْمُحَقَّقَةَ وَالإِخْفَاقَ التَّامَّ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [البقرة: ٢٧]، وَهَذَا التَّخْوِيفُ الْمُشْفِقُ مِنْ عِبَادَةِ الْأَهْوَاءِ مُنْتَشِرٌ فِي الْقُرْآنِ كَقَوْلِهِ -جَلَّ ذِكْرُهُ-: ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: ٨٦].

وَهَذَا النَّوْعُ مِنَ الْهِدَايَةِ هُوَ الْمَقْصُودُ الْأَهَمُّ، وَالْمَطْلُوبُ الْأَعْظَمُ؛ إِذْ هُوَ مَعْقِدُ النَّجَاحِ وَالْخُسْرَانِ، وَمُبَوَّأُ الْفَوْزِ بِالْجِنَانِ، وَالنَّجَاةِ مِنَ النِّيرَانِ، وَهُوَ -عَلَى التَّحْقِيقِ- فَيْصَلُ الْقَضِيَّةِ فِي كَوْنِ الْمَرْءِ مِنْ عِبَادِ الرَّحْمَنِ، أَوْ مِنْ جُنْدِ الشَّيْطَانِ.

رَبَّاهُ أَنْتَ خَلَقْتَنَا وَرَزَقْتَنَا ... وَغَمَرْتَنَا بِفَوَاضِلِ الْإِنْعَامِ
وَمَلَأْتَ مِنْ نُورِ الْيَقِينِ قُلُوبَنَا ... وَهَدَيْتَنَا لِمَعَالِمِ الْإِسْلَامِ
وَخَصَصْتَنَا بِمُحَمَّدٍ خَيْرِ الْوَرَى ... يَهْدِي لِخَيْرِ طَرِيقَةٍ وَنِظَامِ
وَيَدُكُّ رُكْنَ الْكُفْرِ يَهْدِمُ عَرْشَهُ ... وَعَنِ الضَّلَالِ يُزِيحُ كُلَّ لِثَامِ
يَا رَبِّ فَارْزُقْنَا الثَّبَاتَ عَلَى الْهُدَى ... حَتَّى الْمَمَاتِ وَجُدْ بِحُسْنِ خِتَامِ
خُذْ بِالْقُلُوبِ إِلَى رِضَاكَ فَإِنَّهَا ... عَطْشَى وَبَحْرُكَ يَا إِلَهِي طَامِي
خُذْ بِالنُّفُوسِ إِلَى مَعَالِي عِزِّهَا ... يَا ذَا الْجَلَالِ وَبَاذِخِ الْإِكْرَامِ
جُدْ بِالنَّوَالِ لِمَنْ رَجَاكَ فَإِنَّمَا ... يُرْجَى لَدَيْكَ نَوَالُ كُلِّ مَرَامِ
وَفُيُوضُ جُودِكَ لِلْأَنَامِ حَقَائِقٌ ... وَسِوَاكَ أَضْغَاثٌ مِنَ الْأَحْلَامِ

وَهِبَاتُ فَضْلِكَ صَادِقَاتٌ كُلُّهَا ... وَسِوَاكَ يُنْفِقُ كَاذِبَ الْأَوْهَامِ[1]

وَلِهِدَايَةِ الْإِلْهَامِ وَالتَّوْفِيقِ مُقْتَضَيَانِ:

الْمُقْتَضَى الْأَوَّلُ: الثَّبَاتُ عَلَى الْهُدَى:

وَهَذَا الثَّبَاتُ نَجِدُهُ فِي قَوْلِهِ -تَعَالَى ذِكْرُهُ-: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران: ٨]، وَلِذَا قَالَ ابْنُ مَنْظُورٍ ﷺ فِي مَعْنَى ﴿اهْدِنَا﴾ فِي الْفَاتِحَةِ: «قَدْ رَغِبُوا مِنْهُ تَعَالَى التَّثْبِيتَ عَلَى الْهُدَى»[2].



وَمِنْ سُؤَالِ الثَّبَاتِ عَلَى الْهُدَى مَا رَوَاهُ ابْنُ عَبَّاسٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِعِزَّتِكَ -لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ- أَنْ تُضِلَّنِي، أَنْتَ الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ، وَالْجِنُّ وَالْإِنْسُ يَمُوتُونَ»[3].

وَالثَّبَاتُ عَلَى الْهُدَى يُؤَدِّي إِلَى الصَّبْرِ عَلَى الْمَشَاقِّ، كَأَنَّ الْمُصَلِّيَ يَقُولُ: «اهْدِنَا صِرَاطَ الْأَوَّلِينَ فِي تَحَمُّلِ الْمَشَاقِّ الْعَظِيمَةِ لِأَجْلِ مَرْضَاتِكَ سُبْحَانَكَ»، حَتَّى حَكَى ابْنُ مَسْعُودٍ ﷺ:

---

(١) الأبيات لشاعر البصائر د. سعيد بن دحباج وفقه الله.

(٢) لسان العرب (١٥/ ٣٥٥).

(٣) مسلم (٨/ ٨٠) .

كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَحْكِي نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ ضَرَبَهُ قَوْمُهُ، فَأَدْمَوْهُ، فَهُوَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ، وَيَقُولُ: رَبِّ اغْفِرْ لِقَوْمِي، فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ(١).

وَيَنْبَغِي التَّأْكِيدُ هُنَا عَلَى أَنَّ التَّغَيُّرَ الْجُزْئِيَّ لَا يَدُلُّ عَلَى عَدَمِ الثَّبَاتِ، فَقَدْ يَكُونُ الْإِنْسَانُ ثَابِتًا عَلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ وَلَكِنْ زَلَّ فِي بَعْضِ شُعَبِ الْإِيمَانِ، فَتَرَكَهَا، فَلَا يَيْأَسُ الصَّالِحُونَ مِنْهُ، بَلْ يُنَاصِحُونَهُ وَيُعِينُونَهُ عَلَى نَفْسِهِ.

الْمُقْتَضَى الثَّانِي: الِازْدِيَادُ مِنْ أَعْمَالِ الْهُدَى لِتَحْقِيقِ التَّقْوَى طَلَبًا لِأَعْلَى مَرَاتِبِ الرَّشَادِ:

لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى﴾ [محمد: ١٧]، فَكَأَنَّ الطَّلَبَ فِي قَوْلِ الْمُصَلِّينَ: ﴿ٱهۡدِنَا﴾ يَعْنِي الدَّوَامَ عَلَى الْمَطْلُوبِ، وَالِازْدِيَادَ مِنْ خِصَالِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النساء: ١٣٦] أَيِ اثْبُتُوا عَلَى الْإِيمَانِ، أَوْ اعْمَلُوا بِمُقْتَضَيَاتِهِ؛ لِتَزْدَادُوا إِيمَانًا، وَحَتَّى تَتَحَقَّقَ مِنْ وُجُودِ الْإِلْهَامِ وَالتَّوْفِيقِ لَا بُدَّ أَنْ تَشْعُرَ بِالِازْدِيَادِ الْيَوْمِيِّ مِنَ الْهُدَى، وَمِنْ أَبْرَزِ عَلَامَاتِ الثَّبَاتِ عَلَى الْهُدَى، وَالِازْدِيَادِ مِنْهُ: انْشِرَاحُ الصَّدْرِ بِذِكْرِ اللهِ، وَطُمَأْنِينَتُهُ لِمَوْعُودِهِ وَرِضَاهُ، وَالِانْصِرَافُ عَنِ الْخَلْقِ بِقَطْعِ الطَّمَعِ، وَعَدَمِ الْجَزَعِ عِنْدَ حُلُولِ الْفَزَعِ، وَالثِّقَةِ بِمَا عِنْدَ اللهِ، وَالْإِيَاسِ مِمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ.

الْمَعْنَى الْخَامِسُ لِلْهِدَايَةِ: الْهِدَايَةُ بِمَعْنَى الدَّلَالَةِ إِلَى ثَوَابِ الِاهْتِدَاءِ، أَوْ عِقَابِ الضَّلَالِ وَالْإِغْوَاءِ -جَزَاءً وِفَاقًا-:

إِنَّهَا الْهِدَايَةُ الْأُخْرَوِيَّةُ تَكُونُ جَزَاءً عَلَى الْهِدَايَةِ الدُّنْيَوِيَّةِ، فَالْهِدَايَةُ فِي الدُّنْيَا تَقُودُ إِلَى الْهِدَايَةِ فِي الْآخِرَةِ، سَوَاءً كَانَ ذَلِكَ إِلَى الْجَنَّةِ لِلْمُهْتَدِينَ الْمُؤْمِنِينَ أَمْ إِلَى جَهَنَّمَ لِمَنْ رَفَضَ الِاهْتِدَاءَ وَأَصَرَّ عَلَى الْغَوَايَةِ وَالضَّلَالَةِ وَالِاعْتِدَاءِ، فَأَمَّا فِي حَقِّ الْمُؤْمِنِينَ فَيَقُولُ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ: ﴿إِنَّ

(١) البخاري(٩ / ٢٠).

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [يونس: ٩]، وَهَذِهِ الْهِدَايَةُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ تَكُونُ لِمَنَازِلِهِمْ وَقُصُورِهِمْ وَمَمْلَكَتِهِمْ، وَقَدْ بَيَّنَ ذَلِكَ قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ مُخْبِرًا عَنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ: «أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَأَحَدُهُمْ أَهْدَى بِمَنْزِلِهِ فِي الْجَنَّةِ مِنْهُ بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا»(١).

وَأَمَّا هِدَايَةُ الظَّالِمِينَ إِلَى الْجَحِيمِ فَكَأَنَّهُ وَرَدَ عَلَى سَبِيلِ الشَّمَاتَةِ بِهِمْ حَيْثُ يَصِفُ اللهُ مَا يُقَالُ لَهُمْ عِنْدَ الْجَزَاءِ: ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٢٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٢٢، ٢٣]، وَكَأَنَّهُمْ إِذْ لَمْ يَهْتَدُوا فِي الدُّنْيَا أُجْبِرُوا عَلَى الِاهْتِدَاءِ فِي الْآخِرَةِ، وَلَكِنْ إِلَى مَآلِ الْمُجْرِمِينَ، وَجَزَاءِ الْمُكَذِّبِينَ، نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ حَالِ أَهْلِ النَّارِ.

وَالْمَقْصُودُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ مِنْ هَذِهِ الْمَعَانِي الْخَمْسَةِ: الثَّالِثُ وَالرَّابِعُ؛ لِأَنَّ الْأَوَّلَ جُزْءٌ مِنْ خِلْقَتِهِ، وَالْأَخِيرَ مُكَافَأَةٌ عَلَىٰ فِعْلِهِ، فَإِذَا رَدَّدَ ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] فَكَأَنَّهُ يَقُولُ: رَبَّنَا اهْدِنَا، فَبَيِّنْ لَنَا، وَدُلَّنَا، وَأَرْشِدْنَا إِلَىٰ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَأَلْهِمْنَا، وَوَفِّقْنَا إِلَىٰ سُلُوكِهِ، وَثَبِّتْنَا عَلَيْهِ، وَزِدْنَا مِنْ أَعْمَالِهِ وَشُعَبِهِ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، وَلَكَأَنَّ الْعَبْدَ عِنْدَمَا يُرَدِّدُ ﴿ٱهۡدِنَا﴾ يَقُولُ: اللَّهُمَّ اقْطَعْ أَفْكَارَنَا عَنْ شُهُودِ الْأَغْيَارِ، وَامْلَأْ قُلُوبَنَا بِأَصْدَقِ الْأَنْوَارِ، وَنَقِّ مَقَاصِدَنَا عَنْ دَنَسِ دَارِ الْبَوَارِ، وَزِدْنَا ارْتِقَاءً فِي مَنَازِلِ الْأَبْرَارِ، وَخُذْ بِنَوَاصِينَا لِنَكُونَ مِنْ عِبَادِكَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ.

لَا تَبْتَعِدْ عَنِ الْجَمَالِ الْقُرْآنِيِّ! فَهَنَاكَ الْمَزِيدُ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِهَذَا الْفِعْلِ ﴿ٱهۡدِنَا﴾؛ إِذْ هَذَا الْفِعْلُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ هُنَاكَ وَسَائِلَ لِلْحُصُولِ عَلَى الْهِدَايَةِ.

---

(١) البخاري(٨ / ١٣٩).

وَسَائِلُ الْهِدَايَةِ:

وَهُنَا سَتَسْأَلُ: مَا الْوَسَائِلُ الَّتِي تُمَكِّنُنَا مِنْ نَيْلِ هِدَايَةِ رَبِّ الْعَالَمِينَ؟

الْجَوَابُ: هُنَاكَ وَسِيلَتَانِ يُمْكِنُ لِلْعَبْدِ مِنْ خِلَالِهِمَا الْحُصُولُ عَلَى هِدَايَةِ اللهِ لَهُ، وَإِكْرَامِهِ بِهَا عَلَى مَنِ اسْتَحَقَّهَا وَهُمَا:

الْوَسِيلَةُ الْأُولَى: الْعِلْمُ الَّذِي يَقْتَضِيهِ الْمَعْنَى الثَّانِي لِلْهِدَايَةِ:

وَذَلِكَ بِطَلَبِ الْمَعْرِفَةِ الصَّادِقَةِ ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الرعد: ١٩]، أَيْ: أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ لَا يَعْلَمُ؟ لَكِنَّ اللهَ ﷻ لَمْ يَقُلْ: كَمَنْ لَا يَعْلَمُ، إِنَّمَا قَالَ: كَمَنْ هُوَ أَعْمَى، وَهُنَا يَأْتِيكَ الْبَيَانُ الْقُرْآنِيُّ بِجَمَالِهِ الْآخَّاذِ؛ إِذْ يَكُونُ التَّقْدِيرُ: أَفَمَنْ كَانَ مُبْصِرًا يَعْنِي بِقَلْبِهِ، فَعَلِمَ أَنَّ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ لَا يَعْلَمُ بِسَبَبِ عَمَى قَلْبِهِ، إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ.

إِذًا الْمَعْرِفَةُ هِيَ الَّتِي تُنِيرُ الْبَصَائِرَ وَالْأَبْصَارَ، وَأَعْظَمُ الْمَعْرِفَةِ نَجِدُهَا فِي كِتَابِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ، الَّذِي هُوَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ، قَالَ ﷻ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وَهَذَا النُّورُ هُوَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ.

الْوَسِيلَةُ الثَّانِيَةُ: الْعَمَلُ الَّذِي يَقْتَضِيهِ الْمَعْنَى الثَّالِثُ لِلْهِدَايَةِ:

وَذَلِكَ بِالْمُجَاهَدَةِ بِتَصْفِيَةِ الْبَاطِنِ وَتَعْوِيدِ الظَّاهِرِ عَلَى اتِّبَاعِ أَحْسَنِ مَا يَعْلَمُ مِنَ الْمَعْرِفَةِ الصَّادِقَةِ: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ١٧، ١٨].

وَبِهَذِهِ الْمُجَاهَدَةِ تَظَلُّ تَتَرَقَّى حَتَّى تُصْبِحَ مِنَ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِمْ، وَهُمْ أَوْلِيَاءُ اللهِ الَّذِينَ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ. فَمَاذَا تَنْتَظِرُ -أَيَا حَبِيبَاهُ-؟

مَـــنْ نَفْسُـــهُ شَـــرِيفَةٌ أَبِيَّـــهْ ... يَـــرْبَأُ عَنْ أُمُـــورِهِ الدَّنِيَّـــهْ
وَلَـــمْ يَـــزَلْ يَجْنَـــحُ لِلْمَعَالِي ... يَسْـــهَرُ فِي طِلَابِهَا اللَّيَالِي
وَمَـــنْ يَكُـــنْ عَارِفًا بِـــرَبِّـــهْ ... تَصَـــوَّرَ ابْتِعَـــادَهُ مِنْ قُـــرْبِهِ
فَخَافَ وَارْتَجَى وَكَانَ صَـاغِيَا ... لِـمَا يَكُـــونُ آمِـــرًا أَوْ نَـــاهِيَا
فَـكُلُّ مَـــا أَمَـــرَهُ يَرْتَـــكِـــبُ ... وَمَا نَهَى عَنْ فِـــــعْلِهِ يَجْتَنِبُ
فَصَارَ مَحْبُـــوبًا لِخَالِقِ الْبَشَـــرْ ... لَهُ بِهِ سَمْـــعٌ وَبَطْـــشٌ وَبَصَـــرْ
وَكَـــانَ لِلَّهِ وَلِيًّـــا إِنْ طَـلَبْ ... أَعْطَـــاهُ، ثُمَّ زَادَهُ مِمَّـــا أَحَبّْ[1]

***

(١) الزبد في الفقه الشافعي (ص: ٣٣٨). (١) المحكم والمحيط الأعظم (٨/ ٤٣٣).

جِسْرُ اتِّصَالٍ: عَرَفْنَا الْبَصِيرَةَ الثَّالِثَةَ مِنْ بَصَائِرِ الْمَقْصِدِ السَّابِعِ مِنْ مَقَاصِدِ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ، وَهِيَ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ بِدَايَةُ الْحَيَاةِ الْحَقِيقِيَّةِ لِلْخُرُوجِ مِنَ الْأَزَمَاتِ وَالْحَيْرَةِ فِي الظُّلُمَاتِ، فَمَا الْبَصِيرَةُ الرَّابِعَةُ؟

الْجَوَابُ:

الْبَصِيرَةُ الرَّابِعَةُ

الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ دِرْعُ الْحِمَايَةِ الْمُصْطَلَحِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ النَّقِيَّةِ وَحِصْنُهَا مِنَ الْمَخَاطِرِ الثَّقَافِيَّةِ

لَمْ يَذْكُرِ اللهُ ﷻ فِي مُحْكَمَاتِ الْفَاتِحَةِ وَصْفًا لِلْإِسْلَامِ إِلَّا ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ فَلَمْ يَذْكُرْ مُصْطَلَحَاتٍ أُخْرَى مِمَّا دَرَجَ النَّاسُ الْيَوْمَ عَلَى وَصْفِ أَنْفُسِهِمْ بِهِ، مِثْلَ: الْإِسْلَامِ اللِّيبْرَالِيِّ، وَالِاشْتِرَاكِيِّ... وَهَذَا يُحَمِّلُنَا وَاجِبًا مَعْرِفِيًّا وَخُلُقِيًّا لِلنَّظَرِ فِي سَبَبِ هَذَا الِاخْتِيَارِ الْمُصْطَلَحِيِّ، فَمَا الصِّرَاطُ؟

ذَلِكَ يَعُودُ إِلَى الْمَعْنَى الدَّقِيقِ الْمُحَدَّدِ لِكَلِمَةِ ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾، فَهِيَ مُشْتَقَّةٌ مِنْ سَرِطَ الشَّيْءَ، وَاسْتَرَطَهُ: ابْتَلَعَهُ، وَانْسَرَطَ الشَّيْءُ فِي حَلْقِهِ: سَارَ فِيهِ سَيْرًا سَهْلًا، وَالسِّرَاطُ: السَّبِيلُ الْوَاضِحُ، وَتُبْدَلُ السِّينُ صَادًا فَهِيَ أَعْلَى لِتُضَارِعَ التَّفْخِيمَ النَّاشِئَ عَمَّا بَعْدَهَا، وَإِنْ كَانَتِ السِّينُ هِيَ الْأَصْلَ [1].

(١) المحكم والمحيط الأعظم (٨/ ٤٣٣).

صِفَاتُ الصِّرَاطِ الْمُسْتَنْبَطَةُ مِنْ مَعْنَاهُ اللُّغَوِيِّ وَوَصْفِهِ بِالِاسْتِقَامَةِ:

وَهُنَا سَيَعْتَرِضُنَا سُؤَالٌ: مَا الْمُوَاصَفَاتُ الَّتِي نَسْتَنْبِطُهَا لِلصِّرَاطِ مِنَ الْمَعَانِي اللُّغَوِيَّةِ السَّابِقَةِ، أَوْ مِنْ وَصْفِ الصِّرَاطِ بِـ(الْمُسْتَقِيمِ)؟

إِنَّنَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَسْتَنْبِطَ مِنْ هَذِهِ الْمَعَانِي اللُّغَوِيَّةِ وَالتَّرْكِيبِيَّةِ خَمْسَ صِفَاتٍ لِلصِّرَاطِ:

الصِّفَةُ الْأُولَى: أَنْ يَكُونَ مُسْتَقِيمًا لَا مُعْوَجًّا، وَالِاسْتِقَامَةُ إِمَّا أَنْ تَكُونَ وَصْفًا تَأْسِيسِيًّا، وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ جُزْءًا مِنْ مَاهِيَّةِ الصِّرَاطِ ذَكَرَهَا اللهُ ﷻ لِتَكُونَ وَصْفًا إِيضَاحِيًّا زِيَادَةً فِي بَيَانِهِ وَمَدْحِهِ بِحَقَائِقِهِ، وَلِاسْتِحْقَاقِ هَذَا الْمُصْطَلَحِ ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾ لَا بُدَّ أَنْ يُذْكَرَ بِالتَّفْصِيلِ وَالْإِطْنَابِ لَا بِالِاخْتِصَارِ وَالِاقْتِضَابِ، وَبِذَا تَظْهَرُ أَهَمِّيَّةُ الِاسْتِقَامَةِ وَعَدَمِ الِاعْوِجَاجِ وَاللِّجَاجِ، وَلِيَعْتَزَّ الَّذِينَ يَسْلُكُونَ الصِّرَاطَ بِاسْتِقَامَتِهِ وَاسْتِقَامَتِهِمْ تَبَعًا لَهُ، وَفِي ذَلِكَ إِيمَاءٌ إِلَى أَنَّ غَيْرَهُمُ اتَّخَذَ الْحَيَاةَ بِقَوَانِينِهَا وَتَنْظِيمَاتِهَا وَإِعْمَارِهَا عِوَجًا.

الصِّفَةُ الثَّانِيَةُ: أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا، وَهَذِهِ الصِّفَةُ مُتَرَتِّبَةٌ عَلَى الَّتِي قَبْلَهَا؛ إِذِ (الْخَطُّ) وَالصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ أَقْرَبُ طُرُقِ الْوُصُولِ إِلَى الْوِجْهَةِ الْمَقْصُودَةِ.

الصِّفَةُ الثَّالِثَةُ لِلصِّرَاطِ: أَنْ يَكُونَ وَاسِعًا رَحْبًا، فَسُلُوكُ غَيْرِهِ يُسَبِّبُ الضِّيقَ وَالْكَدَرَ.

الصِّفَةُ الرَّابِعَةُ لِلصِّرَاطِ: أَنْ يَكُونَ سَهْلًا مُيَسَّرًا، فَلَيْسَ فِيهِ تَعَرُّجَاتٌ تُعَسِّرُ الْمَسِيرَ.

الصِّفَةُ الْخَامِسَةُ لِلصِّرَاطِ: أَنْ يَكُونَ مُوصِلًا إِلَى الْمَقْصُودِ يَنْتَهِي مَنْ يَسِيرُ فِيهِ إِلَى هَدَفِهِ الْمَنْشُودِ.

فَيَكُونُ مَعْنَى ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾: بَيِّنْ لَنَا وَوَفِّقْنَا وَأَلْهِمْنَا لِسُلُوكِ الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ الْقَرِيبِ الْوَاسِعِ السَّهْلِ الْمُوصِلِ إِلَى تَحْقِيقِ الْأَهْدَافِ السَّوِيَّةِ، وَالْقَرَارَاتِ الصَّائِبَةِ الَّتِي تَضْمَنُ لَنَا الْفَلَاحَ وَالتَّفَوُّقَ وَالْفَوْزَ وَالنَّجَاحَ فِي كُلِّ احْتِيَاجَاتِنَا وَمَطَالِبِنَا الدُّنْيَوِيَّةِ وَالْأُخْرَوِيَّةِ.

فَمَا حَقِيقَةُ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ الَّذِي يُلَبِّي كُلَّ تِلْكَ الْمَعَانِي؟

الْجَوَابُ: هُوَ الصِّرَاطُ الَّذِي أَقَامَهُ اللهُ تَعَالَى حَاوِيًا كُلَّ الصَّالِحَاتِ، فَلَا تَتَطَرَّقُ إِلَيْهِ الْخَبَائِثُ وَالسَّيِّئَاتُ وَالْمُوبِقَاتُ، فَهُوَ الْوَصْفُ الْحَقِيقِيُّ لِلْإِسْلَامِ، وَهُوَ الَّذِي يُبَيِّنُ مَعْنَى الِاسْتِقَامَةِ الْمَنْهَجِيَّةِ عَلَى الْمَبَادِئِ الْقُرْآنِيَّةِ، وَتَنْفِيذِ التَّعْلِيمَاتِ النَّبَوِيَّةِ.

وَاسْتِعْمَالُ هَذَا الْمُصْطَلَحِ فِي وَصْفِ الْمَنْهَجِ الْإِسْلَامِيِّ يَعْصِمُ مِنَ الزَّلَلِ وَالْخَلَلِ وَالْعَبَثِ بِالْمَفَاهِيمِ، فَهَذِهِ أَوَّلِيَّةٌ قُرْآنِيَّةٌ تُلْزِمُنَا بِاسْتِخْدَامِ الْمُصْطَلَحِ الْإِسْلَامِيِّ بَدَلًا مِنْ مُحَاوَلَةِ الْبَحْثِ عَنْ مُصْطَلَحَاتٍ أُخْرَى تَحْمِلُ الْمَخَاطِرَ الثَّقَافِيَّةَ الَّتِي قَدْ تُدَمِّرُ الْمَفْهُومَ الْإِسْلَامِيَّ لِلْمُصْطَلَحِ، فَفِي الْبِنَاءِ الْمُصْطَلَحِيِّ لِلْإِسْلَامِ حَدَّدَ اللهُ ﷻ الْمُصْطَلَحَاتِ الْإِسْلَامِيَّةَ الْكُبْرَى؛ حَتَّى لَا تُوضَعَ مُصْطَلَحَاتٌ أُخْرَى مَحَلَّهَا فَتَكُونَ مَحَلَّ إِلْبَاسٍ أَوْ إِشْكَالٍ، فَلِاخْتِيَارِ هَذَا الْمُصْطَلَحِ الْقَوِيمِ ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾ فِي سُورَةِ الْفَاتِحَةِ الَّتِي تُقَرِّرُ الْكُلِّيَّاتِ الْإِسْلَامِيَّةَ الْعَامَّةَ دُونَ غَيْرِهِ مِنَ الْمُصْطَلَحَاتِ مَزِيَّةٌ خَاصَّةٌ حَافِظَةٌ لِلْمَعَالِمِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَهُنَاكَ بُعْدٌ آخَرُ رَائِعٌ فِي وَصْفِ الْإِسْلَامِ بِالصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ فَهُوَ إِيمَاءٌ إِلَى أَنَّ الْإِسْلَامَ بَالِغُ الْحُجَّةِ، قَوِيمُ الْمَحَجَّةِ، قَوِيُّ الدَّلِيلِ وَالْبُرْهَانِ، جَاءَ عَلَى الْفِطْرَةِ الصَّادِقَةِ فِي خَلْقِ الْإِنْسَانِ فَمِمَّ يَخَافُ أَهْلُهُ؟ وَمَا الَّذِي يَرْهَبُهُ الْمُنْتَسِبُونَ إِلَيْهِ.

وَاللهُ ﷻ يُخَاطِبُ مَنِ انْتَسَبَ إِلَيْهِ قَائِلًا: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [طه:٦٨]؟ وَالِاسْتِقَامَةُ الَّتِي تُضَادُّ الْعِوَجَ -الَّذِي تُدَارُ بِهِ الْأَرْضُ هَذِهِ الْأَيَّامَ- جُزْءٌ مِنْ حَقِيقَةِ الْإِسْلَامِ، وَإِنَّمَا يُحَاوِلُ التَّائِهُونَ مِنَ الْغُلَاةِ وَالْجُفَاةِ أَنْ يَنْسِبُوا إِلَيْهِ مَا لَيْسَ مِنْهُ، أَوْ يَسْلُبُوا مِنْهُ مَا كَانَ مِنْهُ.

اقْرَأْ كِتَابَ اللهِ إِنْ رُمْتَ الْهُدَى ... أَوْ رُمْتَ تَرْقَى ذِرْوَةَ الْإِحْسَانِ

وَاسْأَلْهُ فِي غَسَقِ اللَّيَالِي وَالدُّجَى ... يَا دَائِنَ الْمَعْرُوفِ وَالسُّلْطَانِ

وَانْظُرْ إِلَى مَا قَالَهُ عَلَمُ الْهُدَى ... عِنْدَ ازْدِحَامِ عَسَاكِرِ الشَّيْطَانِ

أَشْـكُـو إِلَيْكَ حَوَادِثًا أَنْزَلْتَهَا ... فَتَرَكْتَنِي مُتَوَاصِلَ الْأَحْزَانِ
مَنْ لِي سِوَاكَ يَكُونُ عِنْدَ شَدَائِدِي ... إِنْ أَنْتَ لَمْ تَكْلَأْ فَمَنْ يَكْلَانِي
لَوْلَا رَجَاؤُكَ وَالَّذِي عَوَّدْتَنِي ... مِنْ حُسْنِ صُنْعِكَ لَاسْتُطِيرَ جَنَانِي[1]

الْإِسْلَامُ رَحْبٌ، يَحْتَضِنُ تَنَوُّعَ الْمَذَاهِبِ، مَا اسْتَقَامَتْ عَلَى هُدَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ:

فَالصِّرَاطُ فِي آيَةِ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ يُصَوِّرُ جَمَالَ الِاسْتِقَامَةِ وَعَظَمَةَ الْإِسْلَامِ، وَتَكْوِينَ شَرَائِعِهِ وَشَعَائِرِهِ لِأَجْمَلِ مَنْهَجٍ وَنِظَامٍ، وَلَا يَمْنَعُ مِنْ وُجُودِ سُبُلٍ مُتَعَدِّدَةٍ تَكُونُ كَالْمَسَارَاتِ ضِمْنَ الصِّرَاطِ الْوَاحِدِ تَأْخُذُ بِأَيْدِي النَّاسِ إِلَى دَارِ السَّلَامِ: ﴿يَهْدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٦].

وَيَتَجَلَّى هَذَا الْمَعْنَى السَّامِي فِي ذَلِكَ التَّمَايُزِ الْمَحْمُودِ بَيْنَ الْمَذَاهِبِ، وَالتَّعَدُّدِ الثَّرِيِّ فِي الِاجْتِهَادَاتِ الْفِقْهِيَّةِ، وَتَبَايُنِ الرُّؤَى فِي تَرْتِيبِ الْأَوْلَوِيَّاتِ الدَّعَوِيَّةِ؛ فَكُلُّ ذَلِكَ لَا يَقْدَحُ فِي جَوْهَرِ الِانْتِمَاءِ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَلَا يَنْفِي عَنْ أَصْحَابِهَا شَرَفَ السَّيْرِ فِي رِكَابِ أَهْلِهِ.

وَعَلَى هَذَا الْمِنْوَالِ، يَتَجَلَّى ثَرَاءُ عُبُودِيَّةِ اللهِ ﷻ فِي تَنَوُّعِ اهْتِمَامَاتِ عِبَادِهِ وَتَبَايُنِ مَسَالِكِهِمْ فِي الْقُرْبَى، شَرِيطَةَ أَنْ يَكُونُوا قَدِ اسْتَوْفَوْا أَرْكَانَ الدِّينِ وَفَرَائِضَهُ، وَاجْتَنَبُوا كَبَائِرَ الذُّنُوبِ وَمُوبِقَاتِهَا. فَهَذَا يُكَرِّسُ حَيَاتَهُ لِلْعِلْمِ نَشْرًا وَتَعْلِيمًا، وَذَاكَ يَنْبَرِي لِلدَّعْوَةِ وَالْإِصْلَاحِ تَرْبِيَةً وَتَوْجِيهًا، وَثَالِثٌ يَنْهَضُ لِدَرْءِ الْعُدْوَانِ وَالذَّوْدِ عَنِ الْحِيَاضِ، وَرَابِعٌ يَتَفَانَى فِي تَفَقُّدِ أَحْوَالِ الْمُحْتَاجِينَ وَسَدِّ عَوَزِ الْمُعْسِرِينَ، وَكُلُّهُمْ عَلَى خَيْرٍ، يَخْدِمُونَ الدِّينَ مِنَ الثَّغْرِ الَّذِي أَقَامَهُمُ اللهُ ﷻ فِيهِ.

---

(١) مجموعة القصائد الزهديات (٢/ ٤٢٢).

فَقَدْ حَكَى الْحَافِظُ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ ﵀ أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْعُمَرِيَّ الْعَابِدَ كَتَبَ إِلَى مَالِكٍ ﵀ يَحُضُّهُ إِلَى الِانْفِرَادِ وَالْعَمَلِ، وَيُرَغِّبُ بِهِ عَنِ الِاجْتِمَاعِ إِلَيْهِ فِي الْعِلْمِ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ مَالِكٌ ﵀: "إِنَّ اللهَ ﷻ قَسَّمَ الْأَعْمَالَ كَمَا قَسَّمَ الْأَرْزَاقَ، فَرُبَّ رَجُلٍ فُتِحَ لَهُ فِي الصَّلَاةِ، وَلَمْ يُفْتَحْ لَهُ فِي الصَّوْمِ، وَآخَرُ فُتِحَ لَهُ فِي الصَّدَقَةِ، وَلَمْ يُفْتَحْ لَهُ فِي الصِّيَامِ، وَآخَرُ فُتِحَ لَهُ فِي الْجِهَادِ، وَلَمْ يُفْتَحْ لَهُ فِي الصَّلَاةِ، وَنَشْرُ الْعِلْمِ وَتَعْلِيمُهُ مِنْ أَفْضَلِ أَعْمَالِ الْبِرِّ، وَقَدْ رَضِيتُ بِمَا فَتَحَ اللهُ لِي فِيهِ مِنْ ذَلِكَ، وَمَا أَظُنُّ مَا أَنَا فِيهِ بِدُونِ مَا أَنْتَ فِيهِ، وَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ كِلَانَا عَلَى خَيْرٍ، وَيَجِبُ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنَّا أَنْ يَرْضَى بِمَا قُسِمَ لَهُ، وَالسَّلَامُ"[1].

***

(١) التمهيد لابن عبد البر (٧/ ١٨٥).

جِسْرُ اتِّصَالٍ: عَرَفْنَا الْبَصِيرَةَ الرَّابِعَةَ مِنْ بَصَائِرِ الْمَقْصِدِ السَّابِعِ مِنْ مَقَاصِدِ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ، وَهِيَ: الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ مِثَالُ الْحِمَايَةِ الْمُصْطَلَحِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ النَّقِيَّةِ مِنَ الْمَخَاطِرِ الثَّقَافِيَّةِ، فَمَا الْبَصِيرَةُ الْخَامِسَةُ؟

الْجَوَابُ:

الْبَصِيرَةُ الْخَامِسَةُ

الرَّحْمَةُ تَقْتَضِي هِدَايَةَ الْعَالَمِ إِلَى الصِّرَاطِ وَحِرَاسَتَهُمْ مِنَ الِانْحِرَافِ أَوِ الِانْجِرَافِ

وَهَذِهِ الْآيَةُ الْمُبَارَكَةُ بِصِيغَتِهَا الدُّعَائِيَّةِ ﴿ ٱهۡدِنَا﴾ تُمَثِّلُ طَلَبًا مِنَ الْعَالَمِ لِلَّهِ ﷻ أَنْ يَهْدِيَهُمْ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَهِيَ فِي الْوَقْتِ ذَاتِهِ تَعْنِي: «أَيُّهَا النَّاسُ، ادْخُلُوا الصِّرَاطَ جَمِيعًا وَلَا تَعْوَجُّوا».

يَا لِهَذَا الْإِعْجَازِ الْمُدْهِشِ فِي الْآيَةِ! يَرْجِعُ الطَّرْفُ عِنْدَ التَّأَمُّلِ مُنْدَهِشًا مُسْتَسْلِمًا، ثُمَّ يُقَلِّبُ النَّظَرَ فِيهَا كَرَّةً أُخْرَى فَيَمْتَلِئُ إِعْجَابًا وَرَوْعَةً!

وَقَدْ تَتَسَاءَلُ: مَا الْأَمْرُ هُنَا؟

الْأَمْرُ -مَلَأَ اللهُ قَلْبَكَ إِيمَانًا- أَنَّ اللهَ تَعَالَى دَلَّ عِبَادَهُ أَنْ يَلْزَمُوا هَذَا الدُّعَاءَ بِهَذِهِ الصِّيغَةِ ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾، فَانْظُرْ -نَضَّرَ اللهُ وَجْهَكَ- فِي هَذَا التَّعْبِيرِ تَجِدْ أَنَّ الْفِعْلَ ﴿ ٱهۡدِنَا﴾ فِي الْفَاتِحَةِ جَاءَ مُتَعَدِّيًا بِنَفْسِهِ، وَلَمْ يَأْتِ مُتَعَدِّيًا بِأَيِّ حَرْفٍ مِنْ حُرُوفِ الْجَرِّ، مِثْلَ: إِلَى الصِّرَاطِ، أَوْ لِلصِّرَاطِ، كَمَا جَاءَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱجۡتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٢١﴾ [النَّحل: ١٢١]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ [الأعراف: ٤٣].

الْحِكْمَةُ مِنْ عَدَمِ تَعْدِيَةِ ﴿ ٱهْدِنَا﴾: دَرَجَاتٌ أَرْبَعٌ لِلِارْتِقَاءِ:

وَهُنَا سَيَقِفُ أَمَامَكَ سُؤَالٌ: مَا الْحِكْمَةُ مِنْ عَدَمِ تَعْدِيَةِ الْفِعْلِ بِحَرْفٍ مِنْ حُرُوفِ الْجَرِّ كَمَا جَاءَ فِي آيَاتٍ أُخْرَى؟

وَالْجَوَابُ: لَعَلَّنَا حِينَمَا نَتَدَبَّرُ ذَلِكَ، نَكْتَشِفُ أَنَّ اللهَ يُرِيدُ مِنَّا أَنْ نَرْتَقِيَ أَرْبَعَ دَرَجَاتٍ -رَحْمَةً بِنَا:

الدَّرَجَةُ الْأُولَى: الِاهْتِدَاءُ إِلَى الصِّرَاطِ بِبَيَانِهِ وَتَوْضِيحِهِ، وَهُنَا نَتَعَرَّفُ عَلَيْهِ وَنَتَبَيَّنُ مَعَالِمَهُ.

الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ: الِاهْتِدَاءُ بِالْوُصُولِ إِلَيْهِ بَعْدَ بَيَانِهِ، وَهَذِهِ دَرَجَةٌ ثَانِيَةٌ بَعْدَ الْأُولَى.

الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ: الدُّخُولُ فِيهِ بَعْدَ الْوُصُولِ إِلَيْهِ، وَلَيْسَ مُجَرَّدَ الْوُقُوفِ عِنْدَهُ.

الدَّرَجَةُ الرَّابِعَةُ: الثَّبَاتُ عَلَى مَا فِيهِ مِنْ سُبُلِ السَّلَامِ، وَمَسَالِكِ الِاسْتِقَامَةِ، وَعَدَمِ الِانْحِرَافِ عَنْهَا، أَوِ الْخُرُوجِ مِنْهَا، وَذَلِكَ يَكُونُ بَعْدَ الدُّخُولِ فِيهِ.

وَصَدِّقْ أَوْ لَا تُصَدِّقْ! لَقَدْ جُمِعَتْ كُلُّ هَذِهِ الْمَعَانِي الرَّائِعَةِ فِي حَذْفِ حَرْفِ الْجَرِّ بَعْدَ فِعْلِ الْهِدَايَةِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾، فَقَدْ تَعَدَّى الفِعْلُ ﴿ ٱهْدِنَا﴾ بِنَفْسِهِ إِلَى مَفْعُولَيْنِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ (هَدَى) يَأْتِي عَلَى ثَلَاثِ حَالَاتٍ: الْحَالَةُ الْأُولَى: يَتَعَدَّى إِلَى الْمَفْعُولِ الثَّانِي، وَهُوَ الْمُهْدَى إِلَيْهِ بِإِلَى، وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [البقرة: ١٤٢]، ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ [النازعات: ١٩]، وَفِي هَذِهِ الْحَالَةِ فَإِنَّ الْمُتَعَدِّيَ بِـ(إِلَى) يُسْتَعْمَلُ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ سَائِرًا فِي الطَّرِيقِ فَدُلَّ عَلَيْهِ فَقَطْ؛ فَالْأَصْلُ أَنَّ (إِلَى) لِانْتِهَاءِ الْغَايَةِ الْمَكَانِيَّةِ وَالزَّمَانِيَّةِ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْأَحْوَالِ، فَهُوَ يَصِلُ إِلَى بَوَّابَةِ الطَّرِيقِ، وَيَحْتَاجُ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى هِدَايَةٍ تَالِيَةٍ بَعْدَ وُصُولِهِ إِلَيْهِ لِيَدْخُلَ وَيَثْبُتَ عَلَيْهِ، وَيَأْخُذَ بِأَحْسَنِ أَجْزَائِهِ، وَأَفْضَلِ نُظُمِهِ وَمَوَاضِعِهِ، وَلِذَلِكَ يَأْتِي فِعْلُ الْهِدَايَةِ مُتَعَدِّيًا بِـ(إِلَى) إِذَا أُرِيدَ التَّعْرِيفُ الْمُجْمَلُ بِصِرَاطِ الْإِسْلَامِ مُقَابِلَ مَنَاهِجِ الشِّرْكِ وَالضَّلَالِ، فَقَوْلُهُ -تَعَالَى ذِكْرُهُ- ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ

﴿مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [الأنعام: ١٦١] أَتَى (هَدَى) مُتَعَدِّيًا بِـ(إِلَى) رَدًّا عَلَى الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ انْحَرَفُوا عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ ﷺ حَتَّى كَأَنَّهُمْ لَمْ يَرَوْهَا، وَلَمْ يَصِلُوا إِلَيْهَا، وَفِي الْوَقْتِ ذَاتِهِ يَعْتَزُّ النَّبِيُّ ﷺ بِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي اهْتَدَى إِلَى ذَلِكَ الصِّرَاطِ.

الْحَالَةُ الثَّانِيَةُ: يَتَعَدَّى إِلَى الْمَفْعُولِ الثَّانِي، وَهُوَ الْمُهْدَى إِلَيْهِ بِاللَّامِ، وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢١٣]، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ [الأعراف: ٤٣]، ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، وَالْمُتَعَدِّي بِاللَّامِ يُسْتَعْمَلُ فِي الْوُصُولِ كَالْمُتَعَدِّي بِإِلَى، مَعَ زِيَادَةٍ فِي الِانْجِذَابِ إِلَى الْمُهْدَى لَهُ، وَلِذَا يَقُولُ أَهْلُ الْجَنَّةِ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣].

الْحَالَةُ الثَّالِثَةُ: يَتَعَدَّى بِنَفْسِهِ إِلَى الْمَفْعُولَيْنِ كَمَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ فَالْمَفْعُولُ الْأَوَّلُ: الضَّمِيرُ (نَا)، وَالثَّانِي: ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾، فَفِي الْحَالَةِ الْأُولَى (الْمُتَعَدِّي بِإِلَى) يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَيُوصِلُ إِلَيْهِ لَكِنَّهُ لَا يَجْذِبُ لَهُ بِالضَّرُورَةِ، وَالْحَالَةُ الثَّانِيَةُ تَعْنِي وُجُودَ أَمْرٍ زَائِدٍ عَلَى الْإِيصَالِ يَتَعَلَّقُ بِالتَّرْغِيبِ فِي الْوُصُولِ، وَالْجَذْبِ لَهُ، وَفِي الْحَالَةِ الثَّالِثَةِ: يَدُلُّ عَلَيْهِ وَيُرَغِّبُ فِيهِ وَيُدْخِلُ فِيهِ، وَلِذَا كَانَ مِنْ مَعَانِي ﴿ٱهْدِنَا﴾ هُنَا الْإِلْهَامُ وَالتَّوْفِيقُ، وَيُشْكِلُ عَلَى هَذَا مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠]، وقوله: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ [الإنسان: ٣] حَيْثُ تَعَدَّى الْفِعْلُ هَدَى هُنَا بِنَفْسِهِ، وَلَمْ يَتَضَمَّنِ التَّوْفِيقَ بَلْ مُجَرَّدَ الْبَيَانِ، وَلَكِنَّكَ عِنْدَ التَّأَمُّلِ سَتَرَى أَنَّ مَا وَرَدَ فِي سُورَتَيِ الْبَلَدِ وَالْإِنْسَانِ مِنَ التَّعَدِّي لِلْفِعْلِ بِنَفْسِهِ إِنَّمَا كَانَ لِيُبَيِّنَ اللهُ ﷻ أَنَّ مِقْدَارَ تَوْضِيحِهِ لِنَجْدَيِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ قَائِمٌ مَقَامَ حَقِّ الْيَقِينِ، فَقَدْ بَلَغَ إِيضَاحُ اللهِ لِسَبِيلَيِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ مَقَامًا عَظِيمًا فِي الْبَيَانِ لَا يَحْتَاجُ فِيهِ إِلَى مَزِيدٍ عَلَيْهِ.

فَاسْتَبَانَ لَنَا أَنَّ الْأَعْلَى رُتْبَةً مِنَ الْحَالَاتِ الثَّلَاثِ هُوَ الْمُتَعَدِّي بِنَفْسِهِ حَيْثُ يُسْتَعْمَلُ فِي الْهِدَايَةِ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ فِي الطَّرِيقِ لِيَحْدُثَ لَهُ الْأُمُورُ الْأَرْبَعَةُ: مَعْرِفَةُ الطَّرِيقِ، الْوُصُولُ إِلَيْهِ، دُخُولُهُ، الثَّبَاتُ عَلَيْهِ، وَالتَّوْفِيقُ لِسُلُوكِ أَفْضَلِ خِصَالِهِ، وَأَجْمَلِ أَجْزَاءِ كَمَالِهِ، وَهُوَ الَّذِي سَعَى إِلَيْهِ الْمُتَنَافِسُونَ فِي الْخَيْرَاتِ، وَاخْتَارَ اللهُ لَهُمْ أَنْ يُرَدِّدُوهُ فِي سُورَةِ الْفَاتِحَةِ لِتَتَحَقَّقَ لَهُمُ الْأُمُورُ الْأَرْبَعَةُ، فَلِذَا لَمْ يُعَدِّهِ بِـ(اللَّام)، وَلَا بِـ(إِلَى)، فَقَالَ ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾.

وَهُنَا نَجِدُ جَمَالَ التَّصْوِيرِ النَّبَوِيِّ لـ﴿ ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ مُقَابِلَ إِغْرَاءَاتِ الْإِجْرَامِ الشَّهْوَانِيِّ وَالْفِكْرِيِّ لِلِانْحِرَافِ عَنِ الصِّرَاطِ، أَوِ الصَّدْفِ وَالِانْجِرَافِ بَعِيدًا عَنْهُ.

وَقَدْ صَوَّرَ النَّبِيُّ ﷺ هَذِهِ الدَّرَجَاتِ الْأَرْبَعَ الْمُتَعَلِّقَةَ بِالصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ تَصْوِيرًا مَحْسُوسًا رَائِعًا بِأَبْلَغِ لَفْظٍ، وَأَبْيَنِ تَمْثِيلٍ يُبَيِّنُ الْجَمَالَ فِي الْمَقَالِ، وَيُقَرِّبُ الْمَعَانِيَ لِلْفِكْرِ وَالْحِسِّ وَالتَّصَوُّرِ وَالْخَيَالِ، وَيُظْهِرُ طَرِيقَ الْإِسْلَامِ وَغَايَتَهُ فِي الرَّحْمَةِ بِالْخَلْقِ، وَدَعْوَتَهُمْ إِلَى الْمَعْبَرِ الْحَقِيقِيِّ لِيَبْنُوا الْحَيَاةَ الطَّيِّبَةَ، وَيَجِدُوا طَعْمَ السَّعَادَةِ، فَرَوَى النَّوَّاسُ بْنُ سِمْعَانَ الْأَنْصَارِيُّ رضي الله عنه عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «**ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا، وَعَلَى جَنْبَتَيِ الصِّرَاطِ سُورَانِ، فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ، وَعَلَى الْأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ، وَعَلَى بَابِ الصِّرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ: أَيُّهَا النَّاسُ، ادْخُلُوا الصِّرَاطَ جَمِيعًا، وَلَا تَتَفَرَّجُوا- أَوْ قَالَ: وَلَا تَعْوَجُّوا-، وَدَاعٍ يَدْعُو مِنْ جَوْفِ الصِّرَاطِ فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَفْتَحَ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ قَالَ: وَيْحَكَ، لَا تَفْتَحْهُ، فَإِنَّكَ إِنْ تَفْتَحْهُ تَلِجْهُ، وَالصِّرَاطُ الْإِسْلَامُ، وَالسُّورَانِ حُدُودُ اللهِ تَعَالَى، وَالْأَبْوَابُ الْمُفَتَّحَةُ مَحَارِمُ اللهِ تَعَالَى، وَذَلِكَ الدَّاعِي عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ كِتَابُ اللهِ ﷻ، وَالدَّاعِي فَوْقَ الصِّرَاطِ وَاعِظُ اللهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ**»[1].

---

(١) أحمد٤/ ١٨٢، وحسن الأرناؤوط إسناده.

فَانْظُرْ -مَلَأَ اللهُ قَلْبَكَ يَقِينًا- كَيْفَ يُصَوِّرُ النَّبِيُّ ﷺ مَاهِيَّةَ الصِّرَاطِ وَحَقِيقَتَهُ، وَكَوْنَهُ نُصِبَ لِإِنْقَاذِ الْبَشَرِيَّةِ، وَإِبْعَادِهِمْ عَنِ الْمَنَاهِجِ الْغَوِيَّةِ، وَالْمَهَالِكِ الرَّدِيَّةِ، وَتَأَمَّلْ كَيْفَ يُظْهِرُ حِرْصَ الْقَائِمِينَ عَلَى الصِّرَاطِ عَلَى مَصَالِحِ الْإِنْسَانِيَّةِ، فَوَاحِدٌ عَلَى بَوَّابَةِ الصِّرَاطِ يَدْعُو إِلَى سُلُوكِ سَبِيلِ السَّلَامَةِ بِالدُّخُولِ فِيهِ، وَالثَّانِي يَحْمِي الدَّاخِلِينَ فِيهِ السَّائِرِينَ عَلَيْهِ مِنَ الزَّلْزَلَةِ الْفِكْرِيَّةِ، أَوِ الِاضْطِرَابِ الشَّهْوَانِيِّ عِنْدَمَا يُحَاوِلُونَ فَتْحَ أَبْوَابِ مَحَارِمِ اللهِ، فَيُحَذِّرُهُمْ أَنْ تَجُرَّهُمْ أَنْفُسُهُمْ لِمُغَادَرَتِهِ، أَوْ تَجَاوُزِ حُدُودِ السَّلَامَةِ فِيهِ، فَتَخْطَفَهُمُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِيَ بِهِمْ رِيَاحُ الْأَهْوَاءِ وَالْمَعَاصِي وَالْبِدَعِ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ.

أَفَلَا تَرَى الدِّعَايَةَ الْعَظِيمَةَ أَمَامَ الصِّرَاطِ لِلْبَشَرِيَّةِ بِدَعْوَتِهِمْ لِلدُّخُولِ؟ أَمَا تَرَى الْحِرَاسَةَ الْقَوِيَّةَ دَاخِلَ الصِّرَاطِ لَهُمْ لِئَلَّا يَنْحَرِفُوا؟ وَتَأَمَّلْ -تَوَلَّاكَ اللهُ- كَيْفَ ذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ الْعَوَاصِمَ مِنَ الِانْحِرَافَاتِ الدَّاخِلِيَّةِ الَّتِي قَدْ تَأْخُذُ بِالْمَرْءِ بَعِيدًا عَنْ جِسْرِ السَّلَامَةِ، وَصِرَاطِ الِاسْتِقَامَةِ.

الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ يَكْشِفُ زَيْفَ "الدِّيَانَةِ الْإِبْرَاهِيمِيَّةِ":

إِنَّ (الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ) أَعْظَمُ ضَامِنٍ لِتَمَيُّزِ سَبِيلِ اللهِ الْحَقِّ عَنْ سُبُلِ الضَّلَالِ وَالْأَهْوَاءِ وَالْغَوَايَةِ الَّتِي يَسْعَى الْمُبْطِلُونَ لِتَسْوِيقِهَا فِي بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ، تَارَةً بِدَعْوَى نَبْذِ الْكَرَاهِيَةِ بَيْنَ أَتْبَاعِ الدِّيَانَاتِ، وَتَارَةً تَحْتَ شِعَارِ تَعْزِيزِ قِيَمِ التَّعَايُشِ تَحْتَ لَافِتَةِ مَا أَسْمَوْهُ -كَذِبًا وَزُورًا- بِالدِّيَانَةِ الْإِبْرَاهِيمِيَّةِ، فَيُقَدِّمُونَ خِلْطَةً عَجِيبَةً مِنَ الْإِسْلَامِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ وَالْيَهُودِيَّةِ يَضْحَكُونَ بِهَا عَلَى الْأَغْرَارِ وَالسُّذَّجِ.

وَقَدْ كَذَبُوا عَلَى اللهِ وَعَلَى إِبْرَاهِيمَ عليه السلام فَإِنَّ اللهَ قَدْ أَخْبَرَنَا فِي كِتَابِهِ عَنْهُ فَقَالَ: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧، ١٢٨]، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَابَنِيَّ إِنَّ اللهَ

اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٢]، وَقَالَ عَزَّ شَأْنُهُ: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [آل عمران: ٦٧].

❊❊❊

جِسْرُ اتِّصَالٍ: عَرَفْنَا الْبَصِيرَةَ الْخَامِسَةَ مِنْ بَصَائِرِ الْمَقْصِدِ السَّابِعِ مِنْ مَقَاصِدِ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ، وَهِيَ: الرَّحْمَةُ تَقْتَضِي هِدَايَةَ الْعَالَمِ إِلَى الصِّرَاطِ وَحِرَاسَتَهُمْ مِنَ الِانْحِرَافِ أَوِ الِانْجِرَافِ، فَمَا الْبَصِيرَةُ السَّادِسَةُ؟

الْجَوَابُ:

الْبَصِيرَةُ السَّادِسَةُ

﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ يُقَدِّمُ الْحُلُولَ الْعَادِلَةَ وَالْعِلَاجَاتِ النَّاجِعَةِ لِلْقَضَايَا الْعَالَمِيَّةِ الْمُثْخَنَةِ بِالظُّلْمِ وَالْعِوَجِ

فَلْنَنْظُرْ فِي الْآيَةِ وَالْأَحَادِيثِ. أَلَمْ تَرَ كَيْفَ وُصِفَ الْإِسْلَامُ بِالصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ دُونَ أَنْ يُوصَفَ بِالطَّرِيقِ؟ وَلَعَلَّ ذَلِكَ لِأَمْرَيْنِ:

الْأَوَّلُ: أَنَّ الِاسْتِقَامَةَ فِي الصِّرَاطِ تَقْتَضِي الْمُسَاوَاةَ بَيْنَ الْمُتَمَاثِلِينَ وَالتَّفْرِقَةَ بَيْنَ الْمُخْتَلِفِينَ، فَإِنْ أَنْتَ عَكَسْتَ، فَسَوَّيْتَ بَيْنَ الْمُخْتَلِفِينَ (الْمُنْعَمِ عَلَيْهِمْ، وَالْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَالضَّالِّينَ)، وَفَرَّقْتَ بَيْنَ الْمُتَمَاثِلِينَ (وَهُمْ أَفْرَادُ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنَ الثَّلَاثِ) تَكُونُ جَعَلْتَ الْحَيَاةَ عِوَجًا، فَالِاسْتِقَامَةُ تَقْتَضِي وُجُودَ خَطٍّ وَاحِدٍ، وَلَيْسَ خَطَّيْنِ مُنْكَسِرَيْنِ؛ لِأَنَّ الطَّرِيقَ يُصْبِحُ مُعْوَجًّا.

الثَّانِي: أَنَّ الصُّورَةَ الْمُنْطَبِعَةَ عَنِ الصِّرَاطِ أَنَّهُ جِسْرٌ خَاصٌّ مَنْصُوبٌ، وَعَلَى جَانِبَيْهِ حَافَّتَانِ إِنْ قَصَدَ السَّائِرُ فِيهِ إِحْدَاهُمَا سَقَطَ إِلَى الْهَاوِيَةِ، فَصَارَ صِرَاطُ الْإِسْلَامِ هُوَ طَرِيقَ الْأَمَانِ مِنَ السُّقُوطِ فِي الْبُؤْسِ وَالشَّقَاءِ، وَلَهُ حُدُودٌ مَعْلُومَةٌ يُمْنَعُ تَجَاوُزُهَا؛ لِئَلَّا تَخْطَفَ الْإِنْسَانَ السَّاقِطَ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِيَ بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ. مَاذَا يَعْنِي هَذَا بِالنِّسْبَةِ لِلْعَالَمِ؟

إِنَّ هَذَا الْمَيْلَ وَالِانْحِرَافَ عَنْ جَادَّةِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ هُوَ الْوَصْفُ الدَّقِيقُ لِتَبَعِيَّةِ الْأُمَّةِ لِلْحُلُولِ الدَّوْلِيَّةِ أَوِ الْمَحَلِّيَّةِ الْبَعِيدَةِ عَنْ نُورِ الِاهْتِدَاءِ بِالصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، فَصَارَ وَصْفُ

الْإِسْلَامِ وَالْقُرْآنِ وَالنَّبِيِّ ﷺ بِالصِّرَاطِ حَقِيقِيًّا رَائِعًا، فَإِنَّكَ تَأْمَنُ مِنَ الْمَهَالِكِ وَالْمَصَائِبِ وَتَصِلُ إِلَى بَرِّ الْأَمَانِ، بِاتِّبَاعِ نِظَامِ الْإِسْلَامِ، وَاتِّبَاعِكَ لِلْقُرْآنِ، وَاقْتِدَائِكَ بِالنَّبِيِّ ﷺ فِي كُلِّ صَغِيرَةٍ وَكَبِيرَةٍ.

وَيُصَوِّرُ النَّبِيُّ ﷺ الْعَدْلَ الذَّاتِيَّ الَّذِي يُوجَدُ فِي الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ تَصْوِيرًا رَائِعًا، مُحَذِّرًا مِنَ الِاعْتِدَاءَاتِ الْخَارِجِيَّةِ الَّتِي تُحَاوِلُ جَذْبَ السَّائِرِينَ عَلَيْهِ إِلَى الطُّرُقِ الْإِجْرَامِيَّةِ، أَوِ الْمَنَاهِجِ الْفِسْقِيَّةِ الْمُدَمِّرَةِ لِلْبَشَرِيَّةِ، فَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: خَطَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ خَطًّا بِيَدِهِ، ثُمَّ قَالَ: «هَذَا سَبِيلُ اللهِ مُسْتَقِيمًا». قَالَ: ثُمَّ خَطَّ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ خُطُوطًا، ثُمَّ قَالَ: «هَذِهِ السُّبُلُ لَيْسَ مِنْهَا سَبِيلٌ إِلَّا عَلَيْهِ شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾ [الأنعام: ١٥٣][(١)].

وَبَيَّنَ ابْنُ الْقَيِّمِ ﷺ أَنَّ هَذَا الْعَدْلَ الَّذِي يَكْتَنِزُهُ صِرَاطُ اللهِ الْمُسْتَقِيمُ دَلِيلٌ عَلَى تَوْحِيدِ اللهِ وَعَظَمَتِهِ يُسَاوِي فِي هَذِهِ الدَّلَالَةِ دَلِيلَ الْخَلْقِ فَقَالَ: «وَضَعَ فِي الْعَقْلِ مِنَ الْإِقْرَارِ بِحُسْنِ شَرْعِهِ وَدِينِهِ الَّذِي هُوَ ظِلُّهُ فِي أَرْضِهِ، وَعَدْلُهُ بَيْنَ عِبَادِهِ، وَنُورُهُ فِي الْعَالَمِ، مَا لَوِ اجْتَمَعَتْ عُقُولُ الْعَالَمِينَ كُلُّهُمْ فَكَانُوا عَلَى عَقْلِ أَعْقَلِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْهُمْ لَمَا أَمْكَنَهُمْ أَنْ يَقْتَرِحُوا شَيْئًا أَحْسَنَ مِنْهُ، وَلَا أَعْدَلَ، وَلَا أَصْلَحَ وَلَا أَنْفَعَ لِلْخَلِيقَةِ فِي مَعَاشِهَا وَمَعَادِهَا، فَهُوَ أَعْظَمُ آيَاتِهِ، وَأَوْضَحُ بَيِّنَاتِهِ، وَأَظْهَرُ حُجَجِهِ عَلَى أَنَّهُ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَأَنَّهُ الْمُتَّصِفُ بِكُلِّ كَمَالٍ، الْمُنَزَّهُ عَنْ كُلِّ عَيْبٍ وَمِثَالٍ»[(٢)].

---

(١) أحمد١/ ٤٦٥، وحسن الأرناؤوط إسناده.

(٢) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (١/ ٢٨١).

وَلِذَا أَكْثِرْ مِنْ قَوْلِ: ﴿ ٱهْدِنَا﴾ شَاعِرًا بِجَمَالِهَا وَظِلَالِهَا وَآفَاقِهَا وَمَا سَتُقَدِّمُهُ لَكَ، وَاشْعُرْ بِأَنَّ هَذَا الدُّعَاءَ يَطْوِي فِي مَعَانِيهِ كُلَّ دُعَاءٍ دَعَا بِهِ الصَّالِحُونَ.

وَقَدْ نَالَ بِهِ الْمُنْطَرِحُونَ أَمَامَ بَابِ اللهِ تَعَالَى أَجْمَلَ الْعَطَاءِ:

مُنْطَرِحًا أَمَامَ بَابِكَ الْكَبِيرِ
أَصْرُخُ فِي الظَّلَامِ أَسْتَجِيرُ
يَا رَاعِيَ النِّمَالِ فِي الرِّمَالِ
وَسَامِعَ الْحَصَاةِ فِي قَرَارَةِ الْغَدِيرِ
أَصِيحُ كَالرُّعُودِ فِي مَغَاوِرِ الْجِبَالِ
كَآهَةِ الْهَجِيرِ[1]

***

(١) لبدر شاكر السياب: أمام باب الله.

جِسْرُ اتِّصَالٍ: عَرَفْنَا الْبَصِيرَةَ السَّادِسَةَ مِنْ بَصَائِرِ الْمَقْصِدِ السَّابِعِ مِنْ مَقَاصِدِ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ، وَهِيَ: ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ يُقَدِّمُ الْحُلُولَ لِلْقَضَايَا الْعَالَمِيَّةِ الْمُثْخَنَةِ بِالظُّلْمِ وَالْعِوَجِ، فَمَا الْبَصِيرَةُ السَّابِعَةُ؟

الْجَوَابُ:

الْبَصِيرَةُ السَّابِعَةُ

﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ يَعْنِي أَنَّ عَوْدَةَ أُمَّةِ الْإِسْلَامِ إِلَى الصَّدَارَةِ الْعَالَمِيَّةِ يَتِمُّ عَبْرَ الْقُرْآنِ، وَهَذَا يَقْتَضِي مَحْوَ أُمِّيَّةِ تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ ابْتِدَاءً، وَوُجُوبَ نَشْرِ مُؤَسَّسَاتِ التَّعْلِيمِ الْقُرْآنِيِّ

تَنْدَهِشُ عِنْدَمَا تَجِدُ الْمُوَفَّقِينَ مِنْ أَهْلِ التَّفْسِيرِ فَسَّرُوا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ بِأَنَّهُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ[1]، وَاسْمَعْ إِلَى ابْنِ مَسْعُودٍ يَصِفُ ذَلِكَ عَلَى هَيْئَةٍ مُصَوَّرَةٍ كَأَنَّكَ تُشَاهِدُهَا فَيَقُولُ: (إِنَّ هَذَا الصِّرَاطَ مُحْتَضَرٌ تَحْضُرُهُ الشَّيَاطِينُ يَقُولُونَ: يَا عِبَادَ اللهِ هَذَا الطَّرِيقُ) أَيْ يُحَاوِلُ شَيَاطِينُ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ أَنْ يُوهِمُوكَ أَنَّ الطَّرِيقَ الَّذِي يُزَيِّنُونَهُ هُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، فَمَاذَا نَصْنَعُ لَهُمْ؟ كَيْفَ نَنْجُو مِنْ قُدْرَتِهِمُ الْفَذَّةِ عَلَى تَقْلِيبِ الْحَقَائِقِ وَخَاصَّةً فِي زَمَنِ السَّنَوَاتِ الْخَدَّاعَاتِ؟ هُنَا يُكْمِلُ ابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه فَيَقُولُ: (فَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ؛ فَإِنَّ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ كِتَابُ اللهِ)[2] كَأَنَّ ابْنَ مَسْعُودٍ شَعَرَ بِالِاسْتِبْصَارِ الْقُرْآنِيِّ أَنَّ شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ سَيُحَاوِلُونَ إِبْعَادَ الْمُسْلِمِينَ عَنِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ.

---

(١) انظر: الطبري١/ ١٧١.

(٢) المعجم الكبير للطبراني (٨ / ١٣٥)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (٦ / ٣٥٨): "رواه الطبراني عن شيخه عبد الله بن محمد بن سعيد بن أبي مريم وهو ضعيف"، وهذا -وإن كان فيه ما ترى-، فيعضده ما رواه الحاكم في المستدرك (٢ / ٢٨٤) وقال: "هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه"، ووافقه الذهبي عن عبد الله بن مسعود في قوله عزوجل: ﴿ٱلٓمٓ﴾ قال: هو كتاب الله.

أَلَا تَرَى كَمْ جَرَّبَتْ أُمَّةُ الْإِسْلَامِ مِنْ مَنَاهِجَ فِي قُرُونِهَا الْمُتَأَخِّرَةِ؟ كَمْ سَلَكَتْ مِنْ طُرُقٍ لِتُحَقِّقَ التَّقَدُّمَ وَالتَّنْمِيَةَ وَالْعَدْلَ وَالرِّيَادَةَ فَكَانَتْ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا؟

وَهُنَا نُقَرِّرُ بِكُلِّ وُضُوحٍ أَنَّ: مِنْهَاجَ عَوْدَةِ أُمَّةِ الْإِسْلَامِ إِلَى الصَّدَارَةِ الْعَالَمِيَّةِ قَائِمٌ عَلَى الرُّجُوعِ إِلَى الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، فَهُوَ السَّبِيلُ الْوَحِيدُ الَّذِي يُحَقِّقُ الِانْتِصَارَ الْفَرْدِيَّ وَالْجَمَاعِيَّ ضِمْنَ سُنَنِ الْمُدَاوَلَةِ وَالْمُدَافَعَةِ؛ فَإِنْ قَلَّبْتَ الطَّرْفَ -أَيَّدَكَ اللهُ- فِي السُّنَنِ الْكَوْنِيَّةِ الَّتِي تَحْكُمُ التَّقَلُّبَاتِ الْعَالَمِيَّةَ فَسَتَرَاهَا قَائِمَةً عَلَى سُنَّةِ الْمُدَاوَلَةِ: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، وَحَتَّى يَعُودَ الْمَجْدُ الْحَضَارِيُّ لِلْأُمَّةِ الْمُسْلِمَةِ فَإِنَّ سُنَّةَ الْمُدَاوَلَةِ تُفَسِّرُهَا سُنَّةٌ أُخْرَى هِيَ سُنَّةُ الدَّفْعِ وَالْمُدَافَعَةِ: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١]، فَالْمُدَاوَلَةُ بَيْنَ النَّاسِ فِي الْحَضَارَةِ وَالسِّيَادَةِ لَا تَتِمُّ إِلَّا وَفْقَ الْمُدَافَعَةِ، وَأَعْظَمُ وَسَائِلِ الدِّفَاعِ وَالْمُدَافَعَةِ تَصْحِيحُ التَّصَوُّرِ وَالْفِكْرِ وَالِاعْتِقَادِ بِالْبَرَاهِينِ الْقُرْآنِيَّةِ، هُنَا تَعْلَمُ الْقِيمَةَ الذَّهَبِيَّةَ لِلدَّعْوَةِ الْإِبْرَاهِيمِيَّةِ الصَّادِقَةِ. اسْمَعْ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ يُبَيِّنَانِ السَّبِيلَ لِإِنْقَاذِ الْبَشَرِيَّةِ مِنْ خِلَالِ دَعْوَتِهِمَا الصَّادِقَةِ فِي قَوْلِهِ -تَعَالَى ذِكْرُهُ-: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩].

إِنَّ السَّبِيلَ الْوَحِيدَ لِتَكْوِينِ أُمَّةِ الْإِنْقَاذِ الَّتِي تُعِينُ الْبَشَرِيَّةَ لِلْخُرُوجِ مِنْ مِحَنِ الظُّلْمِ الْمُتَتَابِعَةِ الْقِيَامُ بِالْوَظِيفَةِ الثُّلَاثِيَّةِ: ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾، وَمِنْ أَجْلِ هَذِهِ الْفِكْرَةِ ذَاتِهَا نَسْمَعُ اللهَ يُجَدِّدُ ذِكْرَ هَذِهِ الْوَظِيفَةِ الثُّلَاثِيَّةِ فِي مَكَانٍ مُتَوَسِّطٍ فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ حَيْثُ كَانَتِ السُّورَةُ تُعَالِجُ أَسْبَابَ الِانْتِكَاسَةِ الْعَسْكَرِيَّةِ الَّتِي عَرَضَتْ لِلْمُسْلِمِينَ فِي أُحُدٍ؛ إِذْ بِالْقَارِئِ يُفَاجَأُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ

بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

فَلِمَ يَذْكُرُ هَذِهِ الْآيَةَ فِي أَثْنَاءِ الْكَلَامِ عَنْ مَعْرَكَةٍ عَسْكَرِيَّةٍ؟

الْجَوَابُ: لِيُبَيِّنَ أَنَّ الْأُمَّةَ لَا يُمْكِنُهَا تَحْقِيقُ انْتِصَارَاتٍ حَقِيقِيَّةٍ فِي مَيَادِينِ الْبِنَاءِ، وَلَا فِي مَيَادِينِ مَنْعِ الِاعْتِدَاءِ، وَلَا يُمْكِنُهَا إِنْقَاذُ نَفْسِهَا وَلَا الْبَشَرِيَّةِ مِنْ طَوَاحِينِ الظُّلْمِ الْمُؤْلِمَةِ إِلَّا بِالرُّجُوعِ إِلَى بَصَائِرِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ فِي تَشْخِيصِ الْوَاقِعِ وَمُعَالَجَتِهِ، أَوَلَمْ يَقُلِ اللهُ -تَعَالَى جَدُّهُ- ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل: ٨٩]؟

وَهُنَا يَأْتِي الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ الَّذِي يُمَثِّلُهُ الْقُرْآنُ لِيُمَثِّلَ جِسْرَ الْعُبُورِ إِلَى الرَّاحَةِ الْحَقِيقِيَّةِ، وَلِيَكُونَ وَسِيلَةَ النَّجَاةِ مِنْ كُلِّ الْآلَامِ وَالشُّرُورِ، وَالْوَظِيفَةُ الثُّلَاثِيَّةُ تَقْتَضِي أَوَّلَ مَا يَقْتَضِي مَحْوَ أُمِّيَّةِ التِّلَاوَةِ عَنِ الْأُمَّةِ الْمُسْلِمَةِ أَوَّلًا؛ إِذْ كَيْفَ تَزْعُمُ أَنَّهَا تَنْتَمِي لِلْقُرْآنِ وَأَكْثَرُ مُثَقَّفِيهَا وَمَسْؤُولِيهَا لَا يُجِيدُ تِلَاوَةَ الْقُرْآنِ، بَلْ لَيْسَ لَهُ حَظٌّ يَوْمِيٌّ مَعَ هَذِهِ التِّلَاوَةِ الْمُبَارَكَةِ.

الْوَظَائِفُ الثَّلَاثُ قُرْآنِيَّةٌ الْمُرْتَكَزِ:

إِنَّكَ إِنْ تَأَمَّلْتَ ثُلَاثِيَّةَ الْوَظَائِفِ تَجِدْهَا آيِلَةً إِلَى كِتَابِ اللهِ الْكَرِيمِ:

﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ ﴾: هَذَا تَعْلِيمٌ لِتِلَاوَةِ آيَاتِهِ وَإِقَامَةِ حُرُوفِهِ.

﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾: وَهَذَا تَعْلِيمٌ لِتَفْسِيرِهِ وَبَيَانِ هِدَايَاتِهِ وَبَصَائِرِهِ، ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾: هِيَ سُنَّةُ النَّبِيِّ ﷺ الشَّارِحَةُ الْمُبَيِّنَةُ لِكِتَابِ اللهِ.

﴿وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ وَقَرْنُ التَّزْكِيَةِ وَإِصْلَاحِ الْبَوَاطِنِ بِتِلَاوَةِ الْكِتَابِ وَتَعَلُّمِ تَفْسِيرِهِ قَبْلَهُ يُشِيرُ إِلَى وُجُوبِ إِقَامَةِ أُسُسِ التَّرْبِيَةِ الْفَرْدِيَّةِ وَالْجَمَاعِيَّةِ عَلَى هُدَى آيَاتِ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ.

يَا أَهْلَ الْقُرْآنِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تَتْلُوا الْقُرْآنَ. إِنَّنَا بِحَاجَةٍ إِلَى نَهْضَةٍ حَقِيقِيَّةٍ لِجَعْلِ التِّلَاوَةِ جُزْءًا مِنْ حَيَاةِ كُلِّ فَرْدٍ فِي الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَخَاصَّةً النُّخَبَ الْمُثَقَّفَةَ مِنْهُمْ، وَيَصْحَبُ ذَلِكَ الْقِيَامُ بِمَحْوِ أُمِّيَّةِ الْمَعْرِفَةِ لِلْمَعَانِي الْقُرْآنِيَّةِ الْعَامَّةِ الَّتِي يَكْتَسِبُ الْمَرْءُ مِنْ خِلَالِهَا الْحِكْمَةَ، وَيَصْحَبُ ذَلِكَ إِقَامَةُ السُّلُوكِ الْقُرْآنِيِّ بِتَزْكِيَةِ النُّفُوسِ، وَتَطْبِيقِ الْقُرْآنِ فِي حَيَاةِ الْإِنْسَانِ لِتَخْضَرَّ الْأَرْضُ الْيَبُوسُ ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [البقرة: ١٢٩].

يَا أَهْلَ الْقُرْآنِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تَتَعَلَّمُوا الْقُرْآنَ، وَتُزَكُّوا بِهِ أَرْوَاحَكُمْ، وَعُقُولَكُمْ، وَمُجْتَمَعَاتِكُمْ.

يَا عُصْبَةَ الْقُرْآنِ أَنْتُمْ فِي الدُّجَى ... نُورٌ يُضِيءُ وَلِلظَّلَامِ يُزِيلُ
إِنْ عَمَّ دَيْجُورُ الضَّلَالِ بِأُمَّتِي ... بِكِتَابِ رَبِّي أَنْتُمُ الْقِنْدِيلُ
مَنْ ظَنَّ هَدْيًا فِي سِوَاهُ وَشِرْعَةً ... فَقَدِ افْتَرَى وَكَلَامُهُ تَضْلِيلُ [1]

***

(١) الأبيات للدكتور: سعيد بن دحباج، ديوان "عتب القوافي" (ص: ٣).

جِسْرُ اتِّصَالٍ: تَعَرَّفْنَا عَلَى الْبَصِيرَةِ السَّابِعَةِ مِنْ بَصَائِرِ الْمَقْصِدِ السَّابِعِ مِنْ مَقَاصِدِ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ، وَهِيَ: ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ يَعْنِي أَنَّ عَوْدَةَ أُمَّةِ الْإِسْلَامِ إِلَى الصَّدَارَةِ الْعَالَمِيَّةِ يَتِمُّ عَبْرَ الْقُرْآنِ، وَهَذَا يَقْتَضِي مَحْوَ أُمِّيَّةِ تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ، وَوُجُوبَ نَشْرِ مُؤَسَّسَاتِ التَّعَلُّمِ الْقُرْآنِيِّ، فَمَا الْبَصِيرَةُ الثَّامِنَةُ؟

الْجَوَابُ:

الْبَصِيرَةُ الثَّامِنَةُ

﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾ يَرْبِطُ بَيْنَ عَالَمَيِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، وَيَصِلُ بَيْنَ مَرْحَلَتَيِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ

أَجَلْ، أَيُّهَا الصِّدِّيقُ -وَفَّقَكَ اللهُ إِلَى أَقْوَمِ نَهْجٍ وَأَحْسَنِ طَرِيقٍ- فَمِنْ ضِمْنِ بِنَاءِ الْوَعْيِ الْحَقِيقِيِّ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَوَفْقَ الْخُطَّةِ الْقُرْآنِيَّةِ يَكْشِفُ لَنَا الْمَنْظُورُ الْقُرْآنِيُّ لِبِنَاءِ الْحَيَاةِ أَنَّ مَفْهُومَ "الصِّرَاطِ" لَا يَقْتَصِرُ حُضُورُهُ عَلَى مَسَالِكِ السَّعْيِ الدُّنْيَوِيِّ، بَلْ يَمْتَدُّ أَثَرُهُ لِيُصْبِحَ الْمَآلَ الَّذِي يُوَاجِهُهُ كُلُّ إِنْسَانٍ سَاعَةَ الْحِسَابِ الْأُخْرَوِيِّ، فَاللهُ سُبْحَانَهُ يَقُولُ عَنِ الصِّرَاطِ الدُّنْيَوِيِّ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وَالنَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ عَنْ صِرَاطِ الْآخِرَةِ: «فَيُضْرَبُ الصِّرَاطُ بَيْنَ ظَهْرَانَيْ جَهَنَّمَ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَجُوزُ مِنَ الرُّسُلِ بِأُمَّتِهِ، وَلاَ يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ إِلاَّ الرُّسُلُ، وَكَلاَمُ الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ، وَفِي جَهَنَّمَ كَلاَلِيبُ مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ. هَلْ رَأَيْتُمْ شَوْكَ السَّعْدَانِ؟ قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: فَإِنَّهَا مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ، غَيْرَ أَنَّهُ لاَ يَعْلَمُ قَدْرَ عِظَمِهَا إِلاَّ اللهُ تَخْطَفُ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ»[1].

---

(١) البخاري (١ / ٢٠٤).

وَلِذَا فُزْ -أَعَزَّكَ اللهُ- فِي مُسَابَقَةِ عُبُورِ صِرَاطِ الْآخِرَةِ بِالْفَوْزِ بِهِدَايَاتِ الصِّرَاطِ الدُّنْيَوِيِّ الْفَاخِرَةِ.

إِنَّهَا مُسَابَقَةٌ مَعْلُومَةُ الْجَوَائِزِ، بَيِّنَةُ الْمَسَافَاتِ وَالتَّحَدِّيَاتِ وَالْمَفَاوِزِ، فَأَمَّا صِرَاطُ الدُّنْيَا فَوَاضِحٌ، فَهُوَ بِاخْتِصَارٍ كَمَا وَصَفَهُ اللهُ ﷻ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥ - ٧]، فَمَا صِرَاطُ الْآخِرَةِ؟ وَأَمَّا صِرَاطُ الْآخِرَةِ فَوَصَفَهُ النَّبِيُّ ﷺ بِأَنَّهُ جِسْرٌ «**يُجْعَلُ بَيْنَ ظَهْرَيْ جَهَنَّمَ... مَدْحَضَةٌ مَزِلَّةٌ، عَلَيْهِ خَطَاطِيفُ وَكَلَالِيبُ، وَحَسَكَةٌ مُفَلْطَحَةٌ لَهَا شَوْكَةٌ عُقَيْفَاءُ تَكُونُ بِنَجْدٍ يُقَالُ لَهَا: السَّعْدَانُ**» فَهُوَ جِسْرٌ مُرْعِبٌ، وَيَسِيرُ الْمُؤْمِنُونَ عَلَيْهِ بِتَفَاوُتٍ -حَسَبَ أَعْمَالِهِمُ الصَّالِحَةِ- «**كَالطَّرْفِ، وَكَالْبَرْقِ، وَكَالرِّيحِ، وَكَأَجَاوِيدِ الْخَيْلِ وَالرِّكَابِ**»، وَالنَّتِيجَةُ كَمَا يَصِفُ النَّبِيُّ ﷺ لَا تَخْلُو مِنْ ثَلَاثَةِ أَحْوَالٍ: «**فَنَاجٍ مُسَلَّمٌ، وَنَاجٍ مَخْدُوشٌ، وَمَكْدُوسٌ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، حَتَّى يَمُرَّ آخِرُهُمْ يُسْحَبُ سَحْبًا**»[1]، فَبِقَدْرِ مَا يُحْكِمُ الْعَبْدُ سَيْرَهُ عَلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ فِي حَيَاتِهِ الدُّنْيَا، مُتَزَوِّدًا بِصَالِحِ الْأَعْمَالِ، يُوَفِّقُهُ اللهُ ثَبَاتًا وَضِيَاءً لِاجْتِيَازِ صِرَاطِ الْآخِرَةِ الْأَدَقِّ مِنَ الشَّعْرَةِ وَالْأَحَدِّ مِنَ السَّيْفِ، الْمَضْرُوبِ عَلَى ظَهْرِ

---

(١) البخاري (٩ / ١٥٩). وَقَوْلُهُ فِي الْحَدِيثِ: مَدْحَضَةٌ: مِنْ دَحَضَتْ رِجْلُهُ دَحْضًا زَلِقَتْ، وَدَحَضَتِ الشَّمْسُ عَنْ كَبِدِ السَّمَاءِ زَالَتْ، وَدَحَضَتْ حُجَّتُهُ بَطَلَتْ. وَقَوْلُهُ: مَزَلَّةٌ مِنْ زَلَّتِ الْأَقْدَامُ سَقَطَتْ. وَقَالَ الْكِرْمَانِيُّ: مَزَلَّةٌ بِكَسْرِ الزَّايِ وَفَتْحِهَا بِمَعْنَى الْمَزْلَقَةِ، أَيْ: مَوْضِعٌ تَزْلَقُ فِيهِ الْأَقْدَامُ، وَهُمَا بِفَتْحِ الْمِيمِ وَمَعْنَاهُمَا مُتَقَارِبَانِ. وَقَوْلُهُ: خَطَاطِيفُ جَمْعُ خُطَّافٍ بِالضَّمِّ، وَهُوَ: الْحَدِيدَةُ الْمُعْوَجَّةُ كَالْكُلُّوبِ يُخْتَطَفُ بِهَا الشَّيْءُ، وَالْكَلَالِيبُ: جَمْعُ كُلُّوبٍ، وَهِيَ: حَدِيدَةٌ مُعْوَجَّةُ الرَّأْسِ، يُعَلَّقُ فِيهَا اللَّحْمُ، وَتُرْسَلُ فِي التَّنُّورِ. وَالْحَسَكَةُ -بِفَتَحَاتٍ-: نَبَاتٌ ذُو شَوْكٍ، يَنْشَبِكُ بِهِ كُلُّ مَنْ مَرَّ بِهِ، وَرُبَّمَا اتُّخِذَ مِثْلُهُ مِنْ حَدِيدٍ، وَهُوَ مِنْ آلَاتِ الْحَرْبِ. وَقَوْلُهُ: مُفَلْطَحَةٌ أَيْ: عَرِيضَةٌ. وَقَوْلُهُ: عُقَيْفَاءُ أَيْ: مُنْعَطِفَةٌ مَعْوَجَّةٌ. وَالسَّعْدَانُ: نَبْتٌ لَهُ شَوْكٌ عَظِيمٌ، وَهُوَ أَفْضَلُ مَرَاعِي الْإِبِلِ، يُضْرَبُ بِهِ الْمَثَلُ فِي طِيبِ مَرْعَاهُ، قَالُوا "مَرْعًى وَلَا كَالسَّعْدَانِ". وَكَالطَّرْفِ أَيْ: كَلَمْحِ الْبَصَرِ. وَالرِّكَابُ: الْإِبِلُ. وَمَخْدُوشٌ: مَخْمُوشٌ مَمْزُوقٌ. وَالْمَكْدُوسُ: الْمَصْرُوعُ، فَالْأَقْسَامُ ثَلَاثَةٌ: قِسْمٌ مُسَلَّمٌ لَا يَنَالُهُ شَيْءٌ أَصْلًا، وَقِسْمٌ يُخْدَشُ ثُمَّ يَسْلَمُ وَيَخْلُصُ، وَقِسْمٌ يَسْقُطُ فِي جَهَنَّمَ. نَسْأَلُ اللهَ السَّلَامَةَ.

جَهَنَّمَ، وَيُحَدِّدُ هَذِهِ الْحَقِيقَةَ الْحَيَوِيَّةَ الْخَالِدَةَ النَّبِيُّ ﷺ، فَيَقُولُ عَنِ النَّاجِينَ عَلَى صِرَاطِ الْآخِرَةِ: «تَجْرِي بِهِمْ أَعْمَالُهُمْ»(١).

أَلَا يَجِبُ أَنْ تُعِدَّ النَّفْسُ الْبَشَرِيَّةُ الْعُدَّةَ الْمُنَاسِبَةَ لِمُسَابَقَةِ الصِّرَاطِ الدُّنْيَوِيِّ، وَالْأُخْرَوِيِّ، وَفِي ذَلِكَ.

يَقُولُ ابْنُ الْقَيِّمِ: «فَمَنْ هُدِيَ فِي هَذِهِ الدَّارِ إِلَى صِرَاطِ اللهِ الْمُسْتَقِيمِ، الَّذِي أَرْسَلَ بِهِ رُسُلَهُ، وَأَنْزَلَ بِهِ كُتُبَهُ، هُدِيَ هُنَاكَ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، الْمُوَصِّلِ إِلَى جَنَّتِهِ، وَدَارِ ثَوَابِهِ، وَعَلَى قَدْرِ ثُبُوتِ قَدَمِ الْعَبْدِ عَلَى هَذَا الصِّرَاطِ، الَّذِي نَصَبَهُ اللهُ لِعِبَادِهِ فِي هَذِهِ الدَّارِ، يَكُونُ ثُبُوتُ قَدَمِهِ عَلَى الصِّرَاطِ الْمَنْصُوبِ عَلَى مَتْنِ جَهَنَّمَ، وَعَلَى قَدْرِ سَيْرِهِ عَلَى هَذِهِ الصِّرَاطِ، يَكُونُ سَيْرُهُ عَلَى ذَاكَ الصِّرَاطِ... ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٩٠]، وَلْيَنْظُرِ الشُّبُهَاتِ وَالشَّهَوَاتِ الَّتِي تَعُوقُهُ عَنْ سَيْرِهِ عَلَى هَذَا الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، فَإِنَّهَا الْكَلَالِيبُ الَّتِي بِجَنْبَتَيْ ذَاكَ الصِّرَاطِ، تَخْطَفُهُ، وَتَعُوقُهُ عَنِ الْمُرُورِ عَلَيْهِ، فَإِنْ كَثُرَتْ هُنَا، وَقَوِيَتْ، فَكَذَلِكَ هِيَ هُنَاكَ ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]»(٢).

وَالْيَوْمَ يَسْعَدُ مُؤْمِنٌ بِيَقِينِهِ ... وَالْيَوْمَ يَشْقَى الْفَاسِقُ الْمُتَحَلِّلُ
وَالْيَوْمَ يَمْتَدُّ الصِّرَاطُ، فَمُسْرِعٌ ... نَحْوَ النَّعِيمِ، وَزَاحِفٌ مُتَمَهِّلُ
وَمُحَمَّلٌ بِالذَّنْبِ زَلَّتْ رِجْلُهُ ... فَهَوَى، وَنَارُ جَهَنَّمٍ تَسْتَقْبِلُ

(١) مسلم (١ / ١٢٩).

(٢) مدارج السالكين ١/ ٣٣.

اللَّهُمَّ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ الَّذِي بِهِ نَسْعَدُ أَعْظَمَ السَّعَادَةِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ الْعَظِيمِ.. رَبَّنَا نَسْأَلُكَ أَعْظَمَ التَّكْرِيمِ.. اجْعَلْنَا بِرَحْمَتِكَ مِمَّنْ يَمُرُّ عَلَى صِرَاطِ الْآخِرَةِ كَأَسْرَعِ الْأَمْرَيْنِ مِنْ مُرُورِ الْبَرْقِ أَوْ كَالطَّرْفِ. آمِينَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.

❊❊❊

الْآيَةُ السَّابِعَةُ مِنْ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ

وَالْآنَ تَعَالَ بِنَا -بَعْدَ تِلْكَ الْمَقَاصِدِ الْأُولَى- لِنَرَى التَّحْدِيدَ الدَّقِيقَ الْعَجِيبَ فِي بَيَانِ صِبْغَةِ اللهِ الَّتِي يُرِيدُ مِنَ الْبَشَرِيَّةِ أَنْ يَصْبُغُوا أَنْفُسَهُمْ بِهَا؛ إِذْ سَتَفْجَؤُكَ الْآيَةُ السَّابِعَةُ الْمُبَارَكَةُ ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِم غَيرِ ٱلمَغضُوبِ عَلَيهِم وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾، فَهِيَ آيَةٌ فَرِيدَةٌ فِي مَوْضِعِهَا وَأَلْفَاظِهَا، فَهِيَ الْآيَةُ الْعَاصِمَةُ لِسَيْرِ الْعَابِدِينَ عَلَى صِرَاطِ الِاهْتِدَاءِ الْمُسْتَقِيمِ، **وَسَتَجِدُ فِيهَا مَقْصِدَيْنِ عَاصِمَيْنِ:**

مَقْصِدٌ يَتَعَلَّقُ بِالْإِثْبَاتِ وَالتَّحْدِيدِ لِمَاهِيَّةِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَهُوَ الْمَقْصِدُ الثَّامِنُ يُبَيِّنُ اللهُ فِيهِ أَنَّ ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلمُستَقِيمَ﴾ الْحَقِيقِيَّ هُوَ الَّذِي سَارَ عَلَيْهِ الْمُنْعَمُ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّابِقِينَ ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِم﴾، فَهَذَا الْمَقْصِدُ يُبَيِّنُ صِلَةَ السَّابِقِينَ بِاللَّاحِقِينَ فِي الْحِفَاظِ عَلَى حَقِيقَةِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ وَعَدَمِ تَغْيِيرِهِ، فَيُعَرِّفُ النَّاسَ بِحُدُودِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ.

وَمَقْصِدٌ يَتَعَلَّقُ بِالنَّفْيِ لِلطُّرُقِ الزَّائِغَةِ الْمُجْرِمَةِ الَّتِي يُحَاوِلُ دُعَاتُهَا خَلْطَهَا بِالصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَهُوَ الْمَقْصِدُ التَّاسِعُ حَيْثُ يُبَيِّنُ اللهُ فِيهِ ضَرُورَةَ حِرَاسَةِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ مِنَ الْخَطَرَيْنِ الِاسْتِرَاتِيجِيَّيْنِ الْمَوْجُودَيْنِ عَلَى جَانِبَيِ الصِّرَاطِ: خَطَرِ الْوُقُوعِ فِي الْغَضَبِ الْإِلَهِيِّ، وَخَطَرِ الضَّلَالَةِ الْمُهْلِكَةِ، وَقَدْ ذُكِرَ هَذَانِ الْخَطَرَانِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿غَيرِ ٱلمَغضُوبِ عَلَيهِم وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، فَهَذَا هُوَ الْمَقْصِدُ التَّعْرِيفِيُّ الْعَاصِمُ لِلصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ مِنِ انْحِرَافَيْنِ وَمِنْ عَدُوَّيْنِ، **وَهَذَانِ الِانْحِرَافَانِ، وَالْعَدُوَّانِ الْإِسْتِرَاتِيجِيَّانِ هُمَا:**

الِانْحِرَافُ الْأَوَّلُ: فِعْلُ مَا يُوجِبُ الْغَضَبَ الْإِلَهِيَّ، وَيُمَثِّلُهُ الْعَدُوُّ الْأَوَّلُ: الْمَغْضُوبُ عَلَيْهِمْ بِصُورَةٍ كُلِّيَّةٍ، وَهُمْ عَدُوٌّ يَعْرِفُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُهُ وَلَكِنَّهُ انْحَرَفَ عَنْهُ وَزَاغَ عَنْ صِرَاطِهِ الْقَوِيمِ،

فَكَأَنَّكَ تَرَى الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ، وَتَرَى الْمَغْضُوبَ عَلَيْهِمْ عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ يَسَارِهِ يُحَاوِلُونَ إِزَاغَةَ أَصْحَابِهِ بِإِسْقَاطِهِمْ فِي الْأَعْمَالِ الَّتِي تُغْضِبُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ.

الِانْحِرَافُ الثَّانِي: فِعْلُ أَهْلِ الضَّلَالَةِ، وَيُمَثِّلُهُ الْعَدُوُّ الثَّانِي: الضَّالُّونَ بِصُورَةٍ كُلِّيَّةٍ، وَهُمْ عَدُوٌّ يُرِيدُونَ الْقِيَادَةَ الْفَرْدِيَّةَ وَالْعَالَمِيَّةَ، وَتَوْجِيهَ الْمُجْتَمَعَاتِ عَبْرَ عَقْلِيَّةٍ جَاهِلَةٍ ضَالَّةٍ عَمْيَاءَ بَعِيدَةٍ عَنِ التَّحْقِيقِ الْعِلْمِيِّ، وَاللهُ يَقُولُ عَنْهُمْ ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾ [الرعد: ١٩]، وَالْفِرَقُ الضَّالَّةُ هِيَ فِئَاتٌ تَاهَتْ عَنِ الْعِلْمِ الْحَقِّ بِسَبَبِ الْجَهْلِ الْبَسِيطِ وَالْمُرَكَّبِ، إِلَّا أَنَّهَا تُصِرُّ عَلَى قِيَادَةِ الْعَالَمِ وَفْقَ ضَلَالِهَا، وَهِيَ تَحْسَبُ أَنَّهَا تُحْسِنُ صُنْعًا، وَهُمْ أَيْدٍ يُحَرِّكُهَا الْمَغْضُوبُ عَلَيْهِمْ.

فَذَكَرَ اللهُ ﷻ فِي هَذَا الْمَقْصِدِ الْعَاصِمِ فِرَقًا وَأَفْرَادًا يَسْتَنْزِلُونَ الْغَضَبَ الْإِلَهِيَّ، وَذَلِكَ بِالْعَمَلِ عَلَى الْإِضْلَالِ الْبَشَرِيِّ، فَأَنْتَ تَرَى الْمَغْضُوبَ عَلَيْهِمْ وَالضَّالِّينَ يَسْعَوْنَ بِإِصْرَارٍ لِتَنْفِيذِ الْخُطَطِ الْآثِمَةِ لِتَزْيِيفِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَإِدْخَالِ الْعَالَمِ فِي الْكُفْرِ وَالْفُسُوقِ وَالْعِصْيَانِ، وَيُحَاوِلُونَ إِشَاعَةَ التَّكْفِيرِ الْعَالَمِيِّ (إِدْخَالَ النَّاسِ فِي الْكُفْرِ)، وَالتَّفْسِيقِ الْعَامِّ، وَإِحْدَاثِ الْعِصْيَانِ وَالْبِدَعِ الْفَاحِشَةِ الَّتِي لَمْ يَعْهَدْهَا السَّابِقُونَ مِنَ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِمْ، وَانْتِهَاجِ سَبِيلِ الْغَيِّ، وَنَبْذِ النَّهْجِ الرُّشْدِ، بَلْ وَمُحَارَبَتِهِ.



وَتَصِلُ هَذِهِ الْفِرَقُ إِلَى ذَلِكَ غَالِبًا عَبْرَ أُسْلُوبَيْنِ:

الْأُسْلُوبُ الْأَوَّلُ: التَّلْبِيسُ الْعِلْمِيُّ بِتَكْوِينِ ثَقَافَةٍ يَتِمُّ فِيهَا لَبْسُ الْحَقِّ بِالْبَاطِلِ، أَوِ التَّلْبِيسُ الْعَمَلِيُّ بِتَعْطِيلِ الْعِلْمِ الْحَقِّ مِنَ الْعَمَلِ.

الْأُسْلُوبُ الثَّانِي: السَّيْطَرَةُ عَلَى وَسَائِلِ تَكْوِينِ الْأَفْكَارِ، وَاللَّعِبُ بِمُحَرِّكَاتِ التَّأْثِيرِ عَلَى الرَّأْيِ الْعَامِّ، وَصُنْعُ الْقِيَادَاتِ الْمُجْتَمَعِيَّةِ الَّتِي تُسْهِمُ فِي تَحْقِيقِ أَهْدَافِهَا الْكُلِّيَّةِ أَوِ الْجُزْئِيَّةِ، وَصِنَاعَةِ الْوَعْيِ الْمُضَلِّلِ الَّذِي يَجْلِبُ الْغَضَبَ الْإِلَهِيَّ بِالْإِفْسَادِ فِي الْأَرْضِ وَسَفْكِ الدِّمَاءِ، بَدَلًا مِنَ السَّلَامِ الْكَوْنِيِّ الَّذِي يَحْدُثُ بِالِاسْتِسْلَامِ لِلْمِنْهَاجِ الْعِبَادِيِّ التَّوْحِيدِيِّ كَمَا قَالَ تَعَالَى:

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣].

وَهَذَانِ الْمَقْصِدَانِ (الثَّامِنُ، وَالتَّاسِعُ) يُشَكِّلَانِ الْحُدُودَ الْحَقِيقِيَّةَ الَّتِي تَحْمِي مَفَاهِيمَ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَتُوَضِّحُ أُسُسَهُ أَعْظَمَ تَوْضِيحٍ، وَتُحَدِّدُ مَعَالِمَهُ بِأَقْوَى تَصْرِيحٍ؛ حَتَّى تُوَفِّرَ لِأَصْحَابِهِ الْفَلَاحَ الْفَرْدِيَّ وَالْجَمَاعِيَّ، وَتَعْصِمَهُمْ مِنَ الزَّلَلِ وَالْخَلَلِ فِي فَهْمِ طَبِيعَةِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَفِي الْوَقْتِ ذَاتِهِ يُوَفِّرُ هَذَانِ الْمَقْصِدَانِ الْحِمَايَةَ وَالْحَصَانَةَ لِلصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ مِنْ الْعَبَثِ وَاللَّعِبِ وَالتَّحْرِيفِ وَالتَّزْيِيفِ، وَيَحْفَظَانِ الْكِيَانَ الْإِسْلَامِيَّ الَّذِي يُمَثِّلُهُ فِي الْحَيَاةِ، وَيَحْمِيَانِهِ مِنِ اخْتِرَاقِ الْقُوَى الْإِجْرَامِيَّةِ الْمُحَرِّفَةِ أَوِ الْمُزَوِّرَةِ أَوِ الْمُعْتَدِيَةِ، حَتَّى لَا يَحْصُلَ الِانْحِرَافُ وَالِانْصِرَافُ عَنْهُ، أَوِ الْغُلُوُّ وَالِانْجِرَافُ فِيهِ.

***

جِسْرُ اتِّصَالٍ: عَرَفْنَا أَنَّ طَرِيقَ الْعِبَادَةِ الْحَقِيقِيَّةِ لَا يَكُونُ إِلَّا بِأَنْ نَسْأَلَ اللهَ عَبْرَ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ فَكَيْفَ نَتَأَكَّدُ مِنْ أَنَّنَا نَسِيرُ عَلَيْهِ؟

الْجَوَابُ: يُحَدِّدُ اللهُ ﷻ لَنَا حَقِيقَةَ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ بِدِقَّةٍ عَجِيبَةٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِم غَيرِ ٱلمَغضُوبِ عَلَيهِم وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾، فَحَوَتْ هَذِهِ الْآيَةُ مَقْصِدَيْنِ عَاصِمَيْنِ مِنَ الِانْحِرَافِ عَنِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ: الثَّامِنَ وَالتَّاسِعَ.

الْمَقْصِدُ الثَّامِنُ

وَهُوَ مَقْصِدٌ يَتَعَلَّقُ بِتَحْدِيدِ مَاهِيَّةِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، فَهُوَ ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِم﴾، أَيْ صِرَاطُ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ:

- **– أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ فِي الْمَاضِي وَهُمْ مَنْ سَمَّاهُمْ أَوْ وَصَفَهُمْ فِي كِتَابِهِ، وَأَوَّلُهُمُ النَّبِيُّ –ﷺ– وَأَصْحَابُهُ الَّذِينَ أَثْنَى عَلَيْهِمْ، وَمَنِ اتَّبَعَهُمْ بِإِحْسَانٍ فِي التَّرَضِّي عَنْهُمْ، وَفِي الِاقْتِدَاءِ بِهِمْ.**
- **وَأَنْعَمَ عَلَيْهِمْ فِي الْحَاضِرِ، وَهُمُ الَّذِينَ يُعَظِّمُونَ كِتَابَ اللهِ، وَيَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ، فَيَقْرَؤُونَهُ، وَيَعْمَلُونَ بِهِ، وَيَتَّبِعُونَ سُنَّةَ نَبِيِّنَا –ﷺ–؛ لِيَفْهَمُوا بِهَا كِتَابَ اللهِ، وَلِيَكُونَ هُوَ الْأُسْوَةَ الْحَسَنَةَ لَهُمْ.**

فَيُفَصِّلُ هَذَا الْمَقْصِدُ فِي إِيجَازٍ مُذْهِلٍ وَدِقَّةٍ مُدْهِشَةٍ طَبِيعَةَ صِرَاطِ الْإِسْلَامِ الَّذِي يَحْمِي الْبَشَرِيَّةَ مِنَ الضَّيَاعِ وَالتِّيهِ، وَمِنَ الْبَصَائِرِ الَّتِي يُمْكِنُنَا اسْتِنْبَاطُهَا مِنْ هَذَا الْمَقْصِدِ:

المقصد الثامن

وهو مقصدٌ يتعلق بتحديد ماهية الصراط المستقيم، فهو ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾، أي صراط الذين أنعم عليهم في الماضي وهم من سماهم أو وصفهم في كتابه، وأولهم النبي وأصحابه، ومن اتبعهم بإحسان، أنعم عليهم في الحاضر، وهم الذين يعظمون كتاب الله تلاوة وعملا، ويتبعون السنة، ليفهموا بها كتاب الله.

[الفاتحة: 7]

بصيرة 01

﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ تحديدٌ لماهية الإسلام الذي يحمي من التحريف والضياع والتزوير والابتداع

بصيرة 02

قيادات المُنعَم عليهم على الصراط المستقيم بعد الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- هم: السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار

بصيرة 03

﴿أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ (الله) مصدر الإنعام الكلي، والاهتداءُ إلى الصراط المستقيم أعظمُ نعمةٍ ينعمُ الله عز وجل بها على الأولين والآخرين.

الْبَصِيرَةُ الْأُولَى

﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ تَحْدِيدٌ لِمَاهِيَّةِ الْإِسْلَامِ يَحْمِي مِنَ التَّحْرِيفِ وَالضَّيَاعِ وَالتَّزْوِيرِ وَالِابْتِدَاعِ

إِنَّهَا الْفَاتِحَةُ الْمُبَارَكَةُ! تُبَيِّنُ أَنَّ الْإِسْلَامَ عَصِيٌّ عَلَى الْمُحَاوَلَاتِ الشَّيْطَانِيَّةِ لِتَغْيِيرِهِ، أَوْ تَحْرِيفِهِ، أَوْ تَزْوِيرِهِ، فَلَا تَعْجَبْ لِهَذِهِ الْقُوَّةِ الْفِكْرِيَّةِ الْمُذْهِلَةِ الَّتِي تُقَدِّمُهَا سُورَةُ الْفَاتِحَةِ؛ لِحِمَايَةِ الْإِسْلَامِ مِنْ تَيَّارَاتِ الْفِكْرِ الْمُنْحَرِفِ وَأَنْظِمَتِهِ الْعَالَمِيَّةِ التي تُرِيدُ أَنْ تُخْرِجَ إِسْلَامًا

صَنَعَهُ أَصْحَابُ الْأَهْوَاءِ عَلَى أَعْيُنِهِمْ، كَمَا حَدَثَ مَعَ أَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِينَ نَبَذُوا كِتَابَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ.

فَمَعْنَى ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ أَنَّ الْإِسْلَامَ الَّذِي يُرِيدُهُ اللهُ يَتَحَقَّقُ بِالسَّيْرِ عَلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ وِفْقَ الْمَنْهَجِ الَّذِي سَارَ عَلَيْهِ الْمُنْعَمُ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلُ، دُونَ اخْتِرَاعٍ أَوْ تَغْيِيرٍ أَوْ تَزْوِيرٍ فِي الْمَصَادِرِ الْأَصْلِيَّةِ لِهَذَا الدِّينِ (الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ)، أَوِ ابْتِدَاعٍ.

وَلَكِنْ مَنْ هُمُ الْمُنْعَمُ عَلَيْهِمُ الَّذِينَ تَطْلُبُ مِنَّا الْفَاتِحَةُ اتِّبَاعَ خُطُوَاتِهِمْ، وَالسَّيْرَ عَلَى صِرَاطِهِمْ؟

الْجَوَابُ: الْمُنْعَمُ عَلَيْهِمْ هُمُ الَّذِينَ سَجَّلُوا أَقْوَى الْإِنْجَازَاتِ الْبَشَرِيَّةِ بِاجْتِيَازِهِمْ لِاخْتِبَارِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا بِالْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَحَصَلُوا عَلَى وِسَامِ الْفَلَاحِ مِنَ اللهِ -تَعَالَى ذِكْرُهُ-، وَعِنْدَمَا تَقْرَأُ لَفْظَةَ ﴿صِرَٰطَ﴾ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فَإِنَّكَ تَسْتَحْضِرُ أَمَامَكَ الْعُظَمَاءَ -سُلُوكًا، وَقُلُوبًا، وَطَرِيقًا- الَّذِينَ حَدَّدَهُمُ اللهُ ﷻ، فَقَالَ عَنْهُمْ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

لَقَدِ اسْتَبَانَ مَنْ هُمُ الْمُنْعَمُ عَلَيْهِمْ، فَأَوَّلُ صِنْفٍ مِنْهُمُ الْأَنْبِيَاءُ؛ - أَخْبِرِ النَّاشِرِينَ لِلْكَرَاهِيَةِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ عَنْ هَذِهِ الْمَزِيَّةِ الْعَظِيمَةِ لِلْإِسْلَامِ!- إِذْ يَأْتِي فِي مُقَدِّمَةِ ﴿ٱلَّذِينَ أَنعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ -عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَجْمَعِينَ-، وَهُمُ الَّذِينَ وَصَلَتِ الْبَشَرِيَّةُ عَنْ طَرِيقِهِمْ إِلَى أَعْظَمِ آفَاقِ السَّعَادَةِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَالْأُخْرَوِيَّةِ، وَلِأَنَّ الْأَنْبِيَاءَ قُدْوَتُنَا عَلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ فِي الْمَقَامِ الْأَوَّلِ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى ذَكَرَ مُصْطَلَحَ (الطَّرِيقِ) دُونَ (الصِّرَاطِ) فِي سُورَةِ الْأَحْقَافِ حَيْثُ قَالَ اللهُ تَعَالَى مُتَحَدِّثًا عَنِ الْجِنِّ: ﴿قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ

بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٣٠]، وَلَكِنْ لِمَاذَا اخْتِيَارُ لَفْظَةِ طَرِيقٍ دُونَ مُصْطَلَحِ ﴿ صِرَٰطَ ﴾ هُنا؟

إِنَّهَا وَحْدَةُ الصِّرَاطِ بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ، فَاللهُ -جَلَّ مَجْدُهُ- ذَكَرَ فِي بِدَايَةِ سُورَةِ الْأَحْقَافِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَأْتِ بِبِدْعٍ مِنَ الْأَمْرِ، بَلْ سَارَ عَلَى طَرِيقَةِ الْأَنْبِيَاءِ، وَاقْتَفَى أَثَرَ أَعْظَمِ الْخَلْقِ مِنَ الرُّسُلِ السُّعَدَاءِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الأحقاف: ٩]، وَكَلِمَةُ (بِدْعًا) تَدُلُّ عَلَى الشَّيْءِ الْجَدِيدِ الْمُغَايِرِ كُلِّيَّةً لِمَا تَقَدَّمَ، أَيْ قُلْ يَا مُحَمَّدُ: لَسْتُ بِالْمُخْتَلِفِ عَنِ الرُّسُلِ فِي الرِّسَالَةِ، وَلَا أَتَيْتُ بِبِدْعَةٍ مُخَالِفَةٍ لِمَا أَتَوْا بِهِ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى التَّوْحِيدِ، وَنُزُولِ جِبْرِيلَ عليه السلام عَلَيَّ بِهِدَايَةِ الْعَبِيدِ.

وَالسُّؤَالُ الَّذِي يَطْرَحُ نَفْسَهُ: إِذَا كَانَ النَّبِيُّ -ﷺ- عَلَى طَرِيقِ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلُ فَلِمَاذَا يُحَارِبُهُ مَنْ يَزْعُمُ أَنَّهُ مِنْ أَتْبَاعِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى -عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؟

الْآنَ انْظُرْ مَعِي إِلَى هَذِهِ اللَّطِيفَةِ التَّعْبِيرِيَّةِ الْقُرْآنِيَّةِ، فَقَدْ فَهِمَتِ الْجِنُّ هَذِهِ الْجُزْئِيَّةَ الَّتِي يَصُمُّ عَنْهَا بَعْضُ الْإِنْسِ، فَقَالُوا فِي آخِرِ سُورَةِ الْأَحْقَافِ: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الأحقاف: ٣٠]، وَنَاسَبَ وَصْفُ الصِّرَاطِ بِالطَّرِيقِ هُنَا لِيُبَيِّنَ أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ قَدْ طَرَقَهُ الْأَنْبِيَاءُ مِنْ قَبْلُ، فَالطَّرِيقُ هُوَ السَّبِيلُ الْمَطْرُوقُ، فَتَوَافَقَتْ هَذِهِ الْكَلِمَةُ مَعَ أَوَّلِ السُّورَةِ عَلَى نَسَقٍ مُعْجِزٍ بَدِيعٍ.

وَلَاحِظْ -وَفَّقَكَ اللهُ- كَيْفَ بَيَّنَ اللهُ ذَلِكَ فِي الْفَاتِحَةِ بِدِقَّةٍ، فَقَدْ كَرَّرَ اللهُ -تَعَالَى ذِكْرُهُ- لَفْظَةَ الصِّرَاطِ مَرَّةً أُخْرَى فِي الْآيَةِ السَّابِعَةِ بَعْدَ الْآيَةِ السَّادِسَةِ فَقَالَ: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ ثم قال: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾، وكَلِمَةُ ﴿ صِرَٰطَ ﴾ الثَّانِيَةُ بَدَلٌ أَوْ عَطْفُ بَيَانٍ مِنْ كَلِمَةِ ﴿ ٱلصِّرَٰطَ ﴾ الْأُولَى.

وَهُنَا قِفْ لِتَرَى الْبَيَانَ الدُّرِّيَّ الْآخَاذَ الْمُتَعَلِّقَ بِتَكْرَارِ كَلِمَةِ الصِّرَاطِ مَعَ أَنَّ الْإِيجَازَ يَقْتَضِي أَنْ يُقَالَ: (اهْدِنَا صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمُ الْمُسْتَقِيمَ)، تُرَى لِمَاذَا؟

عِنْدَ التَّأَمُّلِ سَتَذْبُلُ الْعِبَارَةُ إِنْ لَمْ يُزَيِّنْهَا هَذَا التَّكْرَارُ، وَيَتَسَاقَطُ الْجَمَالُ إِنْ لَمْ يَتَحَلَّ الْكَلَامُ بِمَا فِي هَذِهِ الْكَلِمَاتِ مِنَ الْبَصَرِ وَالذِّكْرِ وَالِاعْتِبَارِ وَالْمَفَاهِيمِ الْفِكْرِيَّةِ.

من بلاغة تكرار كلمة الصراط في سورة الفاتحة

01 الفائدة الأولى:
معرفة الرجال بالحق لا معرفة الحق بالرجال.

02 الفائدة الثانية
تحديد الصراط المستقيم بدقةٍ بذكر أهله، لصيانته من التغيير المبتدَع.

03 الفائدة الثالثة
التلطف في مناجاة الله؛ طلبًا لإجابة الدعاء، وذلك لأهمية المطلوب.

04 الفائدة الرابعة
للجمع بين العلم والتربية، أي بين الإطار النظري والعملي في الدعاء والواقع.

05 الفائدة الخامسة
الجمع بين الطريق والرفيق، فشرف الطريق برفقة أهله المنعَم عليهم.

فَوَائِدُ تَكْرَارِ كَلِمَةِ الصِّرَاطِ فِي سُورَةِ الْفَاتِحَةِ:

هُنَاكَ فَوَائِدُ كَثِيرَةٌ لِذَلِكَ، وَمِنْ أَعْظَمِ فَوَائِدِ ذَلِكَ:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: مَعْرِفَةُ الرِّجَالِ بِالْحَقِّ لَا مَعْرِفَةُ الْحَقِّ بِالرِّجَالِ:

فَلَا بُدَّ مِنَ الْأَمْرَيْنِ مَعًا: الْحَقِّ الَّذِي نَجِدُهُ فِي الْمَنْهَجِ السَّوِيِّ (الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ الْمَقْبُولَةِ)، وَالرِّجَالِ الَّذِينَ طَبَّقُوهُ عَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ، وَالنَّظَرُ إِلَى أَفْعَالِ الرِّجَالِ يَتِمُّ مِنْ خِلَالِ الْمَنْهَجِ، فَهُوَ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ، إِلَّا أَنَّهُمْ عِنْدَمَا يَكُونُونَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ الْمَعْصُومِينَ -إِذْ لَيْسَ فِي الدِّينِ الْحَقِّ مَعْصُومٌ غَيْرُهُمْ- تَكُونُ أَفْعَالُهُمُ الْحَيَاتِيَّةُ تَطْبِيقًا حَقِيقِيًّا لِمَا أَرَادَ اللهُ تَعَالَى أَنْ تُصْبَغَ بِهِ الْحَيَاةُ، فَإِنْ كَانُوا مِنَ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِمْ مِنْ غَيْرِ الْأَنْبِيَاءِ فَبِهُدَاهُمْ يَقْتَدِي مَنْ يَأْتِي بَعْدَهُمْ عَلَى أَنْ تُرَدَّ أَفْعَالُهُمُ الْحَيَاتِيَّةُ، وَأَفْكَارُهُمُ الَّتِي عَمَرُوا بِهَا الدُّنْيَا إِلَى الْمَنْهَجِ السَّوِيِّ، وَهَذَا الَّذِي ذَكَرَهُ اللهُ فِي قَوْلِهِ -عَزَّ وَتَقَدَّسَ-: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: ١٣٥].

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: تَحْدِيدُ ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ بِدِقَّةٍ بِأَنَّهُ الصِّرَاطُ الَّذِي سَارَ عَلَيْهِ الْمُنْعَمُ عَلَيْهِمْ، وَهُمُ النَّبِيُّونَ، وَبَعْدَهُمُ الصَّحَابَةُ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ﷺ، فَلَا يَسْمَحُ هَذَا الْمَقْصِدُ فِي سُورَةِ الْفَاتِحَةِ بِأَمْرٍ يَخْرُجُ عَنْ أُصُولِهِمُ الْهَادِيَةِ، وَبِذَا يَمْنَعُ التَّغْيِيرَ الْمُبْتَدَعَ فِي قَوَاعِدِ الْإِسْلَامِ الدِّينِيَّةِ.

فَانْظُرْ -كَانَ اللهُ بِكَ حَفِيًّا- لِهَذَا الْكَلَامِ الْمُبْهِرِ الْمُعْجِزِ كَيْفَ يَأْخُذُ أَنْفَاسَكَ، وَيُسَيْطِرُ عَلَى عَقْلِكَ حَتَّى لَا تَزِيغَ وَلَا تَضِلَّ، فَلِحِمَايَةِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ مِنْ أَنْ يَقُومَ إِنْسَانٌ أَوْ جَمَاعَةٌ بِاخْتِرَاعِ دِينٍ أَوْ عِبَادَاتٍ أَوْ أُصُولٍ لَهُ، كَرَّرَ اللهُ تَعَالَى كَلِمَةَ الصِّرَاطِ لِيُحَدِّدَ لَهُمْ بِدِقَّةٍ مُتَنَاهِيَةٍ نَوْعَ الصِّرَاطِ الَّذِي أَرَادَهُمْ أَنْ يَسِيرُوا عَلَيْهِ، فَهُوَ صِرَاطٌ مَخْصُوصٌ بِوَصْفٍ مَخْصُوصٍ مُحَدَّدٍ، وَكَذَلِكَ لِحِمَايَةِ صِرَاطِ الْإِسْلَامِ مِنَ التَّغْيِيرِ فِي بِنْيَتِهِ أَوْ أَسَاسِهِ؛ فَالْآيَةُ السَّادِسَةُ دَلَّتْ عَلَى أَنَّ الْمَقْصُودَ مِنَ الطَّلَبِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ ابْتِدَاءً هُوَ كَوْنُ الْمَهْدِيِّ إِلَيْهِ

وَسِيلَةً لِلنَّجَاةِ وَاضِحَةً سَمْحَةً سَهْلَةً، وَأَمَّا الْمَقْصُودُ مِنَ الْآيَةِ السَّابِعَةِ ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ﴾ فَهُوَ كَوْنُ هَذِهِ الْوَسِيلَةِ هِيَ سَبِيلَ السُّعَدَاءِ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِمْ أَيْ: طَرَائِقَ تَفْكِيرِهِمْ وَمَنَاهِجَ حَيَاتِهِمْ، وَهَذَا أَمْرٌ تَفْصِيلِيٌّ إِضَافِيٌّ يَزِيدُ عَلَى مَا قَبْلَهُ، وَلَهُ أَلَقُهُ وَوَقْعُهُ وَلَذَّتُهُ.

إِنَّ كَلِمَةَ ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾ الْأُولَى تَدُلُّ عَلَى الْهَدَفِ وَالْغَايَةِ إِجْمَالًا بِالْوُصُولِ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، فَيَتَشَبَّعُ بِهَذِهِ الْغَايَةِ الْقَلْبُ وَالْعَقْلُ، فَيَهْوَاهَا وَيُفَكِّرُ فِيهَا، وَيَهِيمُ بِهَا طَلَبًا لِلِاسْتِقَامَةِ وَالنَّجَاةِ مِنَ الِاعْوِجَاجِ، ثُمَّ تَأْتِي كَلِمَةُ ﴿ صِرَٰطَ ﴾ الثَّانِيَةُ لِتَزِيدَ الشَّوْقَ إِلَيْهَا؛ إِذْ تُبَيِّنُ أَنَّهُ قَدْ سَارَتْ عَلَى هَذَا الصِّرَاطِ أَجْيَالُ الْمُفْلِحِينَ، وَمَجْمُوعَاتُ الْفَائِزِينَ الَّذِينَ حَقَّقُوا الْإِنْجَازَاتِ الْعُلْيَا فِي الْحَيَاةِ.

وَبِذَا يَسْتَبِينُ الطَّرِيقُ الْوَاضِحُ لِمَفْهُومِ الْعِبَادَةِ الشَّامِلَةِ لِجَمِيعِ مَجَالَاتِ الْحَيَاةِ دُونَ اخْتِرَاعٍ فِيهَا أَوِ ابْتِدَاعٍ:

فَالْعِبَادَةُ الْمَطْلُوبَةُ فِي الْأُمُورِ التَّعَبُّدِيَّةِ الْمَحْضَةِ، أَوْ فِي الْمَجَالَاتِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ، أَوْ فِي الْمَجَالَاتِ الِاقْتِصَادِيَّةِ، أَوْ فِي الْمَجَالَاتِ السِّيَاسِيَّةِ، هِيَ مَا كَانَ دَاخِلًا ضِمْنَ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَهُوَ الصِّرَاطُ ذَاتُهُ الَّذِي سَارَ عَلَيْهِ مَنْ أَنْعَمَ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ مِنَ السُّعَدَاءِ السَّابِقِينَ، وَفِي مُقَدِّمَتِهِمْ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، وَصَحَابَتُهُ -رضي الله عنهم أجمعين-، ابْتِدَاءً بِالْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ.

وَمِنْ هُنَا نَعْلَمُ لِمَاذَا قَرَنَ النَّبِيُّ -ﷺ- بَيْنَ سُنَّتِهِ وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الَّتِي لَا تَخْرُجُ عَنْ سُنَّتِهِ، وَبَيْنَ التَّحْذِيرِ مِنَ الِابْتِدَاعِ، وَبَيَّنَ النَّبِيُّ -ﷺ- وَهُوَ يُخْبِرُ عَنِ الْمُسْتَقْبَلِ الْقَادِمِ بِتَعْلِيمِ اللهِ لَهُ أَنَّ رِيَاحَ الِاخْتِلَافِ الْعَاتِيَةِ سَتَهُبُّ عَلَى الْأُمَّةِ لِصَرْفِهَا عَنِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَأَنَّ نَجَاتَهَا فِيهِ لَا فِي غَيْرِهِ، حَيْثُ يَحْكِي الْعِرْبَاضُ بْنُ سَارِيَةَ، فَيَقُولُ: صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللهِ -ﷺ- ذَاتَ

يَوْمٍ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا، فَوَعَظَنَا مَوْعِظَةً بَلِيغَةً، ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ، وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ كَأَنَّ هَذِهِ مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا؟ فَقَالَ: «أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ كَانَ عَبْدًا حَبَشِيًّا؛ فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ يَرَ بَعْدِي اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ؛ فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»(١).

وَهُنَا يَكُونُ فِي مَقَامِ الْحَقِيقَةِ الَّذِي يُؤَكِّدُ أَنَّ الْعِبَادَةَ الشَّرْعِيَّةَ وَالِاسْتِعَانَةَ الْحَقِيقِيَّةَ هِيَ الَّتِي تَكُونُ عَلَى مَنْهَجِ الصَّوَابِ، فَلَا تُصِيبُ الْخَيْرَ إِلَّا أَنْ تَكُونَ سَائِرَةً عَلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ الَّذِي سَارَ عَلَيْهِ أَرْبَابُ الصَّفَاءِ الَّذِينَ عَلِمْنَا أَنَّ اللهَ ﷻ أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ، فَنَنْظُرُ صَنِيعَهُمْ، وَنَقْتَدِي بِهَدْيِهِمْ، وَنَبْتَعِدُ عَنْ طَرِيقِ أَرْبَابِ الشَّقَاءِ وَالضَّلَالِ وَالْجَفَاءِ، وَبِذَا يَكْمُلُ الرُّقِيُّ الْإِنْسَانِيُّ، وَيُوجَدُ الْكَمَالُ الْبَشَرِيُّ، وَتَحْلُو الْحَيَاةُ الْإِنْسَانِيَّةُ.

هُنَا تَعْلَمُ لِمَاذَا أَدْرَكَ (فِرِيدْرِيك دِنِي Denny) أَنَّ الْقُرْآنَ يُشَكِّلُ عِمَادَ الْمُحَافَظَةِ عَلَى الْإِسْلَامِ بِبِنَاءِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، فَقَالَ: «إِنَّ هَذَا الشُّعُورَ لِلْقُوَّةِ الضِّمْنِيَّةِ لِلْقُرْآنِ كَانَتْ أَحَدَ الْأَسْبَابِ الرَّئِيسَةِ فِي انْتِشَارِ الْإِسْلَامِ، وَفِي تَمَسُّكِ الْمُسْلِمِينَ بِالصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ أَيْضًا، طَالَمَا أَنَّ الْقُرْآنَ نَفْسَهُ هُوَ الَّذِي يُعْطِي لِهَذَا الدِّينِ خَصَائِصَهُ»(٢).

---

(١) أحمد(٤/ ١٢٦) برقم١٧١٨٥، وقال الأرناؤوط: حديث صحيح، ورجاله ثقات.

(٢) نقل ذلك جيفري لانج في كتابه الصراع من أجل الإيمان، ص٨١ عن كتاب فريدريك دني: الإسلام.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: مِنْ فَوَائِدِ تَكْرَارِ الصِّرَاطِ الْمَوْصُوفِ بِأَنَّهُ ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ التَّلَطُّفُ فِي مُنَاجَاةِ اللهِ ﷻ، وَالتَّوَدُّدُ فِي اسْتِمْدَادِ غَوْثِهِ وَرِضَاهُ طَلَبًا لِإِجَابَةِ الدُّعَاءِ، وَذَلِكَ لِأَهَمِّيَّةِ الْمَطْلُوبِ:

فَإِنَّ الْكَرِيمَ إِذَا قُلْتَ لَهُ: أَعْطِنِي كَمَا أَعْطَيْتَ فُلَانًا كَانَ ذَلِكَ أَنْشَطَ لِكَرَمِهِ، فَيَقُولُ السَّائِلُونَ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾، ثُمَّ يُثْنُونَ بِقَوْلِهِمْ: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ إِنَّهُ الصِّرَاطُ الَّذِي هَدَيْتَ إِلَيْهِ عَبِيدَكَ السَّابِقِينَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ، مَعَ مَا فِي ذَلِكَ مِنَ التَّعْرِيضِ بِطَلَبِ أَنْ يَكُونُوا لَاحِقِينَ فِي مَرْتَبَةِ الْهُدَى بِأُولَئِكَ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِمْ، وَتَوْطِئَةً لِلتَّبَرِّي مِنْ أَحْوَالِ الْأَشْقِيَاءِ مِنَ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَالضَّالِّينَ[1]، وَلَاحِظْ أَنَّهُ قَالَ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾. فَكَأَنَّهُ قَالَ بَعْدَهَا: اهْدِنَا صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ، وَبِذَا نَعْلَمُ أَنَّ الْبَلَاغَةَ لَيْسَتْ هِيَ الِاخْتِصَارَ، بَلْ كَمَا قِيلَ: أَنْ تَقُولَ فَلَا تُخْطِئَ، وَتُجِيبَ فَلَا تُبْطِئَ، مَعَ الْإِسْهَابِ فِي مَكَانِهِ، وَالِاخْتِصَارِ فِي بَيَانِهِ، وَلَوْ حُذِفَتْ كَلِمَةُ (صِرَاطَ) الثَّانِيَةُ لَمَا كَانَ لِلْعِبَارَةِ ذَلِكَ الْأَلَقُ وَالرَّوْعَةُ وَالْبَهْجَةُ لَفْظًا وَمَعْنًى، وَمِثْلُ ذَلِكَ تَكْرِيرُ الْفِعْلِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢] وَقَوْلِهِ: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾ [القصص: ٦٣][2].

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ١٩٢).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ١٩٢). قَالَ الْعَلَّامَةُ ابْنُ عَاشُورٍ: وَلِلتَّكْرِيرِ مَوَاقِعُ يَحْسُنُ فِيهَا، وَمَوَاقِعُ لَا يَحْسُنُ فِيهَا، قَالَ الشَّيْخُ عَبْدُ الْقَاهِرِ فِي خَاتِمَةِ "دَلَائِلِ الْإِعْجَازِ": إِنَّ الذَّوْقَ قَدْ يُدْرِكُ أَشْيَاءَ لَا يُهْتَدَى لِأَسْبَابِهَا، وَأَنَّ بَعْضَ الْأَئِمَّةِ قَدْ يَعْرِضُ لَهُ الْخَطَأُ فِي التَّأْوِيلِ. "وَمِنْ ذَلِكَ مَا حُكِيَ عَنِ الصَّاحِبِ أَنَّهُ قَالَ: كَانَ الْأُسْتَاذُ ابْنُ الْعَمِيدِ يَخْتَارُ مِنْ شِعْرِ ابْنِ الرُّومِيِّ، وَيُنَقِّطُ عَلَى مَا يَخْتَارُهُ، قَالَ الصَّاحِبُ فَدَفَعَ إِلَيَّ الْقَصِيدَةَ الَّتِي أَوَّلُهَا:

أَتَحْتَ ضُلُوعِي جَمْرَةٌ تَتَوَقَّدُ ... عَلَى مَا مَضَى أَمْ حَسْرَةٌ تَتَجَدَّدُ

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: لِلْجَمْعِ بَيْنَ الْعِلْمِ وَالتَّرْبِيَةِ، أَيْ لِلْجَمْعِ بَيْنَ الإِطَارِ النَّظَرِيِّ وَالْعَمَلِيِّ فِي الدُّعَاءِ وَالْوَاقِعِ:

الإِطَارُ النَّظَرِيُّ بِسُؤَالِ الِاهْتِدَاءِ فِي قَوْلِ رَاحِمِ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾، وَالإِطَارُ التَّرْبَوِيُّ الْعَمَلِيُّ بِبَيَانِ الْحَقِيقَةِ الْعَمَلِيَّةِ لِلِاهْتِدَاءِ، فَهُوَ الِاهْتِدَاءُ بِصِرَاطِ السَّابِقِينَ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِمْ مِنَ الرُّفَعَاءِ وَالسُّعَدَاءِ ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ﴾، بَدَلًا مِنَ الِاقْتِصَارِ عَلَى النَّظَرِيَّةِ دُونَ التَّطْبِيقِ، كَمَا قَالَ مُحَمَّدٌ الْبَشِيرُ الْإِبْرَاهِيمِيُّ ﷺ: «الْعِلْمُ الْخَالِي مِنَ التَّرْبِيَةِ ضَرَرُهُ أَكْثَرُ مِنْ نَفْعِهِ، وَمَا أُصِيبَ الْمُسْلِمُونَ فِي عِزَّتِهِمْ إِلَّا يَوْمَ فَارَقَتِ التَّرْبِيَةُ الصَّالِحَةُ الْعِلْمَ، وَكَمْ شَقِيَ

وَقَالَ لِي: تَأَمَّلْهَا، فَتَأَمَّلْتُهَا فَوَجَدْتُهُ قَدْ تَرَكَ خَيْرَ بَيْتٍ فِيهَا لَمْ يُنَقِّطْ عَلَيْهِ وَهُوَ قَوْلُهُ:

بِجَهْـــلٍ كَجَهْـــلِ السَّـــيْفِ وَالسَّـــيْفُ وَحِلْـمٍ كَحِلْـمِ السَّـيْفِ وَالسَّـيْفُ مُغْمَـدُ

فَقُلْتُ: لِمَ تَرَكَ الْأُسْتَاذُ هَذَا الْبَيْتَ؟ فَقَالَ: لَعَلَّ الْقَلَمَ تَجَاوَزَهُ، ثُمَّ رَآنِي مِنْ بَعْدُ فَاعْتَذَرَ بِعُذْرٍ كَانَ شَرًّا مِنْ تَرْكِهِ؛ فَقَالَ: إِنَّمَا تَرَكْتُهُ لِأَنَّهُ أَعَادَ السَّيْفَ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ، قَالَ الصَّاحِبُ: لَوْ لَمْ يُعِدْهُ لَفَسَدَ الْبَيْتُ. قَالَ الشَّيْخُ عَبْدُ الْقَاهِرِ: وَالْأَمْرُ كَمَا قَالَ الصَّاحِبُ. ثُمَّ قَالَ مَا قَالَهُ أَبُو يَعْقُوبَ: إِنَّ الْكِنَايَةَ وَالتَّعْرِيضَ لَا يَعْمَلَانِ فِي الْعُقُولِ عَمَلَ الْإِفْصَاحِ وَالتَّكْشِيفِ؛ لِأَجْلِ ذَلِكَ كَانَ لِإِعَادَةِ اللَّفْظِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَ﴾ [الْإِسْرَاء: ١٠٥]، وَقَوْلِهِ: ﴿ قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴾ [الْإِخْلَاص: ١، ٢] عَمَلٌ لَوْلَاهُ لَمْ يَكُنْ. وَقَالَ الرَّاغِبُ: قَدِ اسْتَكْرَهُوا التَّكْرِيرَ فِي قَوْلِهِ: (فَمَا لِلنَّوَى جُذَّ النَّوَى قُطِعَ النَّوَى) حَتَّى قِيلَ: لَوْ سُلِّطَ بَعِيرٌ عَلَى هَذَا الْبَيْتِ لَرَعَى مَا فِيهِ مِنَ النَّوَى. ثُمَّ قَالَ: إِنَّ التَّكْرِيرَ الْمُسْتَحْسَنَ هُوَ تَكْرِيرٌ يَقَعُ عَلَى طَرِيقِ التَّعْظِيمِ، أَوِ التَّحْقِيرِ، فِي جُمَلٍ مُتَوَالِيَاتٍ، كُلُّ جُمْلَةٍ مِنْهَا مُسْتَقِلَّةٌ بِنَفْسِهَا، وَالْمُسْتَقْبَحُ هُوَ أَنْ يَكُونَ التَّكْرِيرُ فِي جُمْلَةٍ وَاحِدَةٍ، أَوْ فِي جُمَلٍ فِي مَعْنًى، وَلَمْ يَكُنْ فِيهِ مَعْنَى التَّعْظِيمِ وَالتَّحْقِيرِ. فَالرَّاغِبُ مُوَافِقٌ لِلْأُسْتَاذِ ابْنِ الْعَمِيدِ، وَعَبْدُ الْقَاهِرِ مُوَافِقٌ لِلصَّاحِبِ بْنِ عَبَّادٍ. قَالَ الْمَرْزُوقِيُّ فِي شَرْحِ الْحَمَاسَةِ عِنْدَ قَوْلِ يَحْيَى بْنِ زِيَادٍ: وَلَمَّا رَأَيْتُ الشَّيْبَ لَاحَ بَيَاضُهُ ... بِمَفْرِقِ رَأْسِي قُلْتُ لِلشَّيْبِ: مَرْحَبًا ...«كَانَ الْوَاجِبُ أَنْ يَقُولَ: قُلْتُ لَهُ: مَرْحَبًا، لِكَنَّهُمْ يُكَرِّرُونَ الْأَعْلَامَ وَأَسْمَاءَ الْأَجْنَاسِ كَثِيرًا، وَالْقَصْدُ بِالتَّكْرِيرِ التَّفْخِيمُ». وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَيْسَ التَّكْرِيرُ بِمَقْصُورٍ عَلَى التَّعْظِيمِ، بَلْ مَقَامُهُ كُلُّ مَقَامٍ يُرَادُ مِنْهُ تَسْجِيلُ انْتِسَابِ الْفِعْلِ إِلَى صَاحِبِ الِاسْمِ الْمُكَرَّرِ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي بَيْتَيِ الْحَمَاسَةِ: «اللُّؤْمُ أَكْرَمُ مِنْ وَبْرٍ» إِلخ. وَقَدْ وَقَعَ التَّكْرِيرُ مُتَعَاقِبًا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ (٧٨): ﴿ وَإِنَّ مِنۡهُمۡ لَفَرِيقٗا يَلۡوُۥنَ أَلۡسِنَتَهُم بِٱلۡكِتَٰبِ لِتَحۡسَبُوهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾ [آل عِمْرَان: ٧٨]». التحرير والتنوير (٣/ ١١٨).

أَصْحَابُ الْعِلْمِ الْمُجَرَّدِ بِالْعِلْمِ وَأَشْقَوْا أُمَمَهُمْ، وَالسَّعَادَةُ غَايَةٌ لَا يُسْلَكُ إِلَيْهَا عَنْ طَرِيقِ الْعِلْمِ وَحْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ تُصَاحِبَهُ التَّرْبِيَةُ، وَأَنَّ الْجَمْعَ بَيْنَ التَّرْبِيَةِ وَالتَّعْلِيمِ هُوَ وَظِيفَةُ النُّبُوَّةِ الَّتِي بَيَّنَهَا الْوَحْيُ فِي آيَةِ: ﴿وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٥١]»[١].

الْفَائِدَةُ الْخَامِسَةُ: أَنَّهُمْ لَمَّا طَلَبُوا أَشْرَفَ طَرِيقٍ وَهُوَ الِاهْتِدَاءُ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الْفَاتِحَةِ: ٦]، سَأَلُوا أَحْسَنَ رَفِيقٍ فَقَالُوا:

وَيَا لَلَّهِ هَذِهِ الرُّفْقَةُ الشَّرِيفَةُ، وَالنِّسْبَةُ الْمُنِيفَةُ! وَهَلْ مِنْ نَسَبٍ أَرْفَعَ، وَمَقَامٍ أَعْلَى وَأَنْفَعَ مِنَ الدُّخُولِ فِي سِلْكِ الْمُهْتَدِينَ مِنْ عِبَادِ اللهِ الْمُفْلِحِينَ، مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ؟

هُنَا تَبْرُزُ عَظَمَةُ الْمُوَالَاةِ وَالْحُبِّ فِي اللهِ ﷻ، وَحِينَهَا يَجْنِي السُّعَدَاءُ ثَمَرَةَ الْإِخَاءِ الصَّادِقِ، فَعَنِ النَّبِيِّ -ﷺ- أَنَّهُ قَالَ: «الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ»[٢].

❊❊❊

(١) الآثار لمحمد البشير الإبراهيمي ٤/ ١٧٣.

(٢) البخاري (٦١٦٨).

جِسْرُ اتِّصَالٍ: عَرَفْنَا الْبَصِيرَةَ الْأُولَى مِنْ بَصَائِرِ الْمَقْصِدِ الثَّامِنِ مِنْ مَقَاصِدِ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ، وَهِيَ: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِم﴾ تَحْدِيدٌ لِكَوْنِ الْإِسْلَامِ يَحْمِي مِنَ التَّحْرِيفِ وَالضَّيَاعِ وَالتَّزْوِيرِ وَالِابْتِدَاعِ، فَمَا الْبَصِيرَةُ الثَّانِيَةُ؟

الْجَوَابُ:

الْبَصِيرَةُ الثَّانِيَةُ

قِيَادَاتُ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِمْ عَلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ بَعْدَ الْأَنْبِيَاءِ -عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- هُمْ: السَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ

تُبَيِّنُ لَنَا آيَةُ الصِّرَاطِ هَذِهِ الْبَصِيرَةَ الْهَادِيَةَ لِلسَّيْرِ فِي الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ دُونَ ضَلَالٍ أَوْ خَلَلٍ، وَتَقُومُ بِوَضْعِ دِرْعٍ عَاصِمٍ لِلْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ مِنَ الِانْحِرَافِ وَالْغُلُوِّ وَالزَّلَلِ، فَيُحَدِّدُ اللهُ لَنَا الْقِيَادَاتِ الَّتِي نَقْتَفِي أَثَرَهَا، وَنَهْتَدِي بِنُورِهَا، بِأَنَّهُمُ الْأَنْبِيَاءُ، وَلَكِنْ مَنِ الَّذِي يَتْلُوهُمْ فِي الْمَنْزِلَةِ الْقِيَادِيَّةِ الْهَادِيَةِ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ؟

إِنَّهُمُ الَّذِينَ يُبَصِّرُونَنَا بِالْمَنْهَجِ النَّبَوِيِّ الَّذِي نَسِيرُ فِيهِ دُونَ انْحِرَافٍ، أَوْ جَفَاءٍ، أَوْ غُلُوٍّ وَاعْتِدَاءٍ، إِنَّهُمْ لَنَا مَصَابِيحُ فِي الظَّلْمَاءِ، تُضِيءُ لَنَا الطَّرِيقَ؛ فَلَا نُخْطِئُ فِي قِرَاءَةِ التَّنْزِيلِ، وَلَا نُحَرِّفُ أَوْ نَضِلُّ فِي التَّأْوِيلِ، وَمِنْهَاجُ النُّبُوَّةِ الَّذِي أَوْصَلَهُ النَّبِيُّ ﷺ لِلْعَالَمِينَ هُوَ الْقُرْآنُ الْمَجِيدُ، حَيْثُ بَلَّغَهُ لَفْظًا لَفْظًا وَحَرْفًا حَرْفًا، وَكَذَلِكَ بَيَّنَ لَنَا مَعَانِيَ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ مِنْ خِلَالِ سُنَّتِهِ وَسِيرَتِهِ فِي فَهْمِهِ وَتَطْبِيقِهِ، وَلَا يُمْكِنُ مَعْرِفَةُ كُلِّ ذَلِكَ إِلَّا مِنْ خِلَالِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

الصَّحَابَةُ رضي الله عنهم نَاقِلُو هَدْيِ النَّبِيِّ ﷺ

الْفِئَةُ الْأُولَى: أَهْلُ الْبَيْتِ مِنْ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَدْ نَقَلْنَ لَنَا سِيرَةَ النَّبِيِّ ﷺ وَسُنَنَهُ فِي التَّعَامُلِ دَاخِلَ الْبَيْتِ، وَفِي الْجَوِّ الْأُسَرِيِّ الزَّوْجِيِّ، وَفِي النَّوَاحِي الِاجْتِمَاعِيَّةِ وَالتَّعْلِيمِيَّةِ

الْبَيْتِيَّةِ لِنَقْتَدِيَ بِهِ، وَنَهْتَدِيَ بِهَدْيِهِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُنَّ: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ [الأحزاب: ٣٤]، مَعَ تَفَاوُتِهِنَّ فِي نَقْلِ أَحْوَالِهِ وَسُنَنِهِ بَيْنَ مُكْثِرَةٍ وَمُقِلَّةٍ.

الْفِئَةُ الثَّانِيَةُ: أَهْلُ الْبَيْتِ مِنْ قَرَابَتِهِ وَأَصْهَارِهِ، فَقَدْ نَقَلُوا لَنَا سِيرَتَهُ ﷺ وَسُنَنَهُ فِي التَّعَامُلِ مَعَ أَوْلَادِهِ وَذَوِي أَرْحَامِهِ وَخَاصَّتِهِ مِنْ أَقْرِبَائِهِ، لِنَقْتَدِيَ بِهِ، وَنَهْتَدِيَ بِهَدْيِهِ.

الْفِئَةُ الثَّالِثَةُ: بَقِيَّةُ الصَّحَابَةِ، وَهُمْ آلُ مُحَمَّدٍ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَنَصَرُوهُ، وَنَقَلُوا لَنَا سِيرَتَهُ ﷺ وَسُنَنَهُ فِي التَّعَامُلِ مَعَ الْعَالَمِ خَارِجَ بَيْتِهِ ﷺ فِي النَّوَاحِي السِّيَاسِيَّةِ وَالِاقْتِصَادِيَّةِ وَالْعَلَاقَاتِ الْمَحَلِّيَّةِ وَالدَّوْلِيَّةِ، لِنَقْتَدِيَ بِهِ، وَنَهْتَدِيَ بِهَدْيِهِ، وَبِذَلِكَ نَسِيرُ عَلَى صِرَاطِ أَعْظَمِ مَنْ أَنْعَمَ اللهُ ﷻ عَلَيْهِمْ، وَهُوَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ خِلَالِ نَقْلِ أَزْوَاجِهِ، وَأَقْرِبَائِهِ، وَسَائِرِ أَصْحَابِهِ ﷺ، وَمِنْ أَعْظَمِ نَمَاذِجِهِمْ: أَهْلُ بَدْرٍ الْمَذْكُورُونَ بِالثَّنَاءِ فِي سُورَةِ الْأَنْفَالِ، وَأَهْلُ بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ الْمَذْكُورُونَ بِالثَّنَاءِ فِي سُورَةِ الْفَتْحِ، يَتَقَدَّمُهُمُ الْأَرْبَعَةُ الرَّاشِدُونَ الَّذِينَ جَمَعُوا بَيْنَ الْقَرَابَةِ وَالْمُصَاهَرَةِ وَالصُّحْبَةِ، الَّذِينَ تَرَكُوا نَعِيمَ الدُّنْيَا لِيَبْنُوا لِلنَّاسِ دُنْيَاهُمْ، وَعَزَفُوا عَنْ تَرَفِ الْقُصُورِ لِيُشَيِّدُوا - مِنَ الْمَعَارِفِ الْحَقَّةِ وَالتَّقَدُّمِ الْإِنْسَانِيِّ- إِلَى اللهِ تَعَالَى الْجُسُورَ، وَهُمْ مَنْ تَرَكَ الرَّاحَةَ الشَّخْصِيَّةَ لِيُؤَسِّسُوا طَرِيقَ النَّجَاحِ لِكُلِّ الْبَشَرِيَّةِ، وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ تَعَرُّضِ ثَلَاثَةٍ مِنْهُمْ لِلِاغْتِيَالِ إِلَّا أَنَّ أَيًّا مِنْهُمْ لَمْ يَتَّخِذْ قُوَّاتٍ خَاصَّةً مُهِمَّتُهَا التَّدْمِيرُ وَالِاقْتِتَالُ مِنْ أَجْلِ سَلَامَتِهِ، وَقَدْ ذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ مَا يَنْتَظِرُهُمْ مِنَ الدَّرَجَاتِ الْعُلَى وَالْفَوْزِ الْعَظِيمِ، فَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ

اللهِ: «إِنَّ أَهْلَ الدَّرَجَاتِ الْعُلَى لَيَرَاهُمْ مَنْ تَحْتَهُمْ كَمَا تَرَوْنَ النَّجْمَ الطَّالِعَ فِي أُفُقِ السَّمَاءِ، وَإِنَّ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ مِنْهُمْ، وَأَنْعِمَا»(١).

أُحِبُّ مُحَمَّدًا وَأَذُوبُ وَجْدًا ... وَكَمْ لِمُحَمَّدٍ فِي الْقَلْبِ عِشْقُ
وَحُبُّ الصَّحْبِ فِي الْإِسْلَامِ دِينٌ ... وَلِلصِّدِّيقِ دُونَ الْقَوْمِ سَبْقُ
وَلِلْفَارُوقِ أَفْضَالٌ عِظَامٌ ... وَذِي النُّورَيْنِ قَدْرٌ مُسْتَحَقُّ
وَلَيْثُ اللهِ فِي الْهَيْجَا عَلِيٌّ ... وكُلُّهُمُ رجالُ اللهِ صُدْقُ(٢)

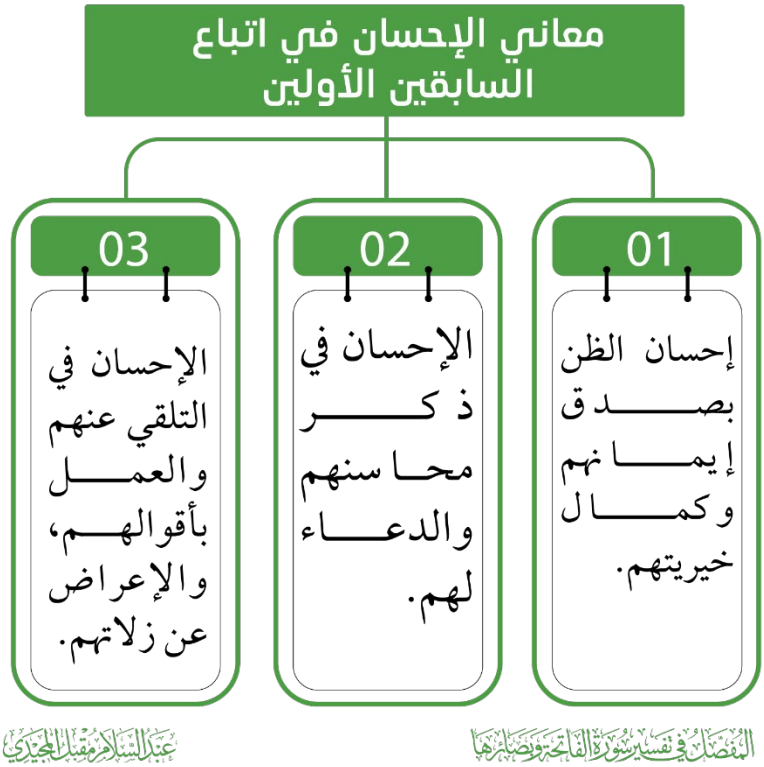
فَهَذَا الِاتِّصَالُ الْفِكْرِيُّ لِلسَّلَفِ بِالْخَلَفِ، وَالْخَلَفِ بِالسَّلَفِ يُسَاعِدُ عَلَى الثَّبَاتِ عَلَى النَّصِّ مَعَ الْمُرُونَةِ فِي تَنْزِيلِهِ عَلَى الْوَقَائِعِ الْمُخْتَلِفَةِ.

وَالْآيَةُ السَّابِعَةُ مِنْ آيَاتِ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ مِنْ أَهَمِّ الْعَوَاصِمِ الثَّقَافِيَّةِ الْحَافِظَةِ لِدِينِ الْأُمَّةِ، وَمِنْ خِلَالِ ذَلِكَ يَتَبَيَّنُ أَهَمُّ سَبَبٍ يَدْفَعُ مُجْرِمِي الْعَالَمِ لِلتَّهَجُّمِ عَلَى الصَّحَابَةِ الْكِرَامِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ؛ وَلِذَا بَيَّنَ اللهُ تَعَالَى مَنْ يَسْتَحِقُّونَ رِضْوَانَهُ، وَأَنَّهُمْ ثَلَاثَةُ أَصْنَافٍ فَقَالَ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، فَشَرَطَ فِي التَّابِعِينَ لِلْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ أَنْ يَتَّبِعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ.

---

(١) الترمذي٥/ ٦٠٧، وقال: «حديث حسن»، ورواه أحمد٣/ ٩٨، وَفِي فَيْضِ الْقَدِيرِ شَرْحِ الْجَامِعِ الصَّغِيرِ (٤ / ٥٣٩): (وَإِنَّ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ مِنْهُمْ، وَأَنْعِمَا) بِكَسْرِ الْعَيْنِ: كَلِمَةُ مُبَالَغَةٍ فِي الْمَدْحِ، وَالْمَعْنَى: لَوْ فُضِّلَ الرِّجَالُ رَجُلًا رَجُلًا فَضَّلَهُمْ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرَ.

(٢) الأبيات للدكتور سعيد بن دحاج، ديوان "عتب القوافي" (ص: ١٨).



مَعَانِي الْإِحْسَانِ فِي اتِّبَاعِ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ:

وَهُنَا نَضَعُ سُؤَالًا: مَا مَعْنَى الْإِحْسَانِ فِي الْآيَةِ؟ وَمَا الَّذِي تَدُلُّ عَلَيْهِ؟

إِنَّ هَذِهِ الْكَلِمَةَ الْعَظِيمَةَ تَضُمُّ عِدَّةَ مَفَاهِيمَ مِنْ أَهَمِّهَا:

الْمَفْهُومُ الْأَوَّلُ: إِحْسَانُ الظَّنِّ بِهِمْ:

فَنَعْتَقِدُ فِيهِمْ صِدْقَ الْإِيمَانِ وَسَبْقَهُمْ فِي مِضْمَارِهِ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ [الْحَشْر: ١٠]، وَنَظُنُّ بِهِمْ صَفَاءَ الْبَوَاطِنِ وَالظَّوَاهِرِ، وَالْخَيْرِيَّةَ التَّامَّةَ، وَحِيَازَتَهُمْ شَرَفَ صُحْبَةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَأَنَّ اللهَ كَمَا اخْتَارَ نَبِيَّهُ عَلَيْهِ صَلَوَاتُ اللهِ لِيَكُونَ خَاتَمَ رُسُلِهِ وَخِيرَتَهُ مِنْ خَلْقِهِ فَإِنَّهُ قَدِ اخْتَارَ مِنْ بَيْنِ النَّاسِ خَيْرَهُمْ صُحْبَةً، وَأَعْظَمَهُمْ أَنْصَارًا،

وَأَزْكَاهُمْ نُفُوسًا كَمَا قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ ﷺ: «مَنْ كَانَ مُسْتَنًّا فَلْيَسْتَنَّ بِمَنْ قَدْ مَاتَ، أُولَئِكَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ، كَانُوا خَيْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ، أَبَرَّهَا قُلُوبًا، وَأَعْمَقَهَا عِلْمًا، وَأَقَلَّهَا تَكَلُّفًا، قَوْمٌ اخْتَارَهُمُ اللهُ ﷻ لِصُحْبَةِ نَبِيِّهِ ﷺ، وَنَقْلِ دِينِهِ، فَتَشَبَّهُوا بِأَخْلَاقِهِمْ وَطَرَائِقِهِمْ، فَهُمْ كَانُوا عَلَى الْهَدْيِ الْمُسْتَقِيمِ»[1].

الْمَفْهُومُ الثَّانِي: الْإِحْسَانُ فِي ذِكْرِهِمْ:

فَجَاءَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ: «يُرِيدُ: يَذْكُرُونَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارَ بِالْجَنَّةِ وَالرَّحْمَةِ وَالدُّعَاءِ لَهُمْ، وَيَذْكُرُونَ مَحَاسِنَهُمْ» أَيْ: بِإِحْسَانِ الْقَوْلِ فِيهِمْ، وَالْحُكْمُ الْمَشْرُوطُ بِشَرْطٍ يَنْتَفِي عِنْدَ انْتِفَاءِ ذَلِكَ الشَّرْطِ، فَوَجَبَ أَنَّ مَنْ لَمْ يُحْسِنِ الْقَوْلَ فِي الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ لَا يَكُونُ مُسْتَحِقًّا لِلرِّضْوَانِ مِنَ اللهِ تَعَالَى[2].

الْمَفْهُومُ الثَّالِثُ: الْإِحْسَانُ فِي التَّلَقِّي عَنْهُمْ وَالْعَمَلِ بِأَقْوَالِهِمْ:

فَهُمْ غَيْرُ مَعْصُومِينَ مِنَ الْخَطَأِ، فَيُحْسِنُ الْمُتَّبِعُ فِي اتِّبَاعِ مَنْهَجِهِمْ، وَيُعْرِضُ عَمَّا وَقَعُوا فِيهِ بِحُكْمِ الطَّبِيعَةِ الْبَشَرِيَّةِ، مَعَ إِمْسَاكِ اللِّسَانِ عَنِ الطَّعْنِ فِيهِمْ وَتَجْرِيحِهِمْ.

وَلَعَلَّنَا أَدْرَكْنَا كَيْفَ تَبْنِي الْفَاتِحَةُ عُقُولَنَا عَلَى مَعْرِفَةِ التَّحَالُفِ الدَّنِسِ بَيْنَ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَالضَّالِّينَ مِنَ الْمُعْتَدِينَ مِنَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَالْمُبْتَدِعِينَ لِتَرْكِيزِ جُهُودِهِمْ ضِدَّ كُلِّ مَنْ يُعَظِّمُ صِرَاطَ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِمْ.

---

(١) حلية الأولياء (١/ ٣٠٥).

(٢) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (١٦/ ١٣٠).

إِنَّ الطَّعْنَ فِي الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ مُحَاوَلَةٌ مُجْرِمَةٌ آثِمَةٌ لِتَدْمِيرِ الْمَنْهَجِ الْإِسْلَامِيِّ، وَتَغْيِيرِ مَعَالِمِهِ الثَّقَافِيَّةِ، وَنُظُمِهِ الْعَقَدِيَّةِ، وَالِاجْتِمَاعِيَّةِ، وَالسِّيَاسِيَّةِ مِنْ خِلَالِ إِيجَادِ الشَّكِّ فِي نَقَلَةِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَحَامِلِيهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وَمِنْ خِلَالِ إِخْفَاءِ كَيْفِيَّةِ تَطْبِيقِ النَّبِيِّ ﷺ لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ.

وَلِذَلِكَ فَهَذِهِ الْآيَةُ الْمُبَارَكَةُ أَعْظَمُ الْآيَاتِ فِي بَيَانِ مَكَانَةِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وَلِلَّهِ دَرُّ إِقْبَالَ رحمه الله حِينَ قَالَ:

كَمْ زُلْزِلَ الصَّخْرُ الْأَشَمُّ فَمَا وَهَى ... مِنْ بَأْسِنَا عَزْمٌ وَلَا إِيمَانُ
لَوْ أَنَّ آسَادَ الْعَرِينِ تَفَزَّعَتْ ... لَمْ يَلْقَ غَيْرَ ثَبَاتِنَا الْمَيْدَانُ
تَوْحِيدُكَ الْأَعْلَى جَعَلْنَا نَقْشَهُ ... نُورًا تُضِيءُ بِصُبْحِهِ الْأَزْمَانُ
فَغَدَتْ صُدُورُ الْمُؤْمِنِينَ مَصَاحِفًا ... فِي الْكَوْنِ مَسْطُورٌ بِهَا الْقُرْآنُ[1]

وُجُوبُ الْبَحْثِ عَنِ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِمْ لِمُصَاحَبَتِهِمْ:

أَقْبِلْ بِقَلْبِكَ لِتَنْعَمَ بِالنَّظَرِ فِي لَفْتَةٍ قُرْآنِيَّةٍ فَرِيدَةٍ أُخْرَى! فَقَدْ أَمَرَ اللهُ تَعَالَى نَبِيَّهُ ﷺ فِي الدُّنْيَا بِصُحْبَةِ الصَّادِقِينَ؛ فَقَالَ -تَعَالَى جَدُّهُ-: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ﴾ [الكهف: ٢٨]، وَيَسْتَوْقِفُنَا هَذَا الْخِطَابُ مِنَ اللهِ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ، وَيُبَصِّرُنَا بِمَعَانٍ كَرِيمَةٍ:

١) ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾: هَذَا أَمْرٌ مُبَاشِرٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ، وَهُوَ أَمْرٌ لِأُمَّتِهِ تَبَعًا. وَالصَّبْرُ هُنَا يَعْنِي "حَبْسَ النَّفْسِ" وَ"إِلْزَامَهَا" بِمُرَافَقَةِ هَؤُلَاءِ الصَّالِحِينَ الْمُنْعَمِ

(١) ديوان محمد إقبال (ص: ٩٥).

عَلَيْهِمْ. وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مُصَاحَبَتَهُمْ لَيْسَتْ خِيَارًا ثَانَوِيًّا، بَلْ هِيَ ضَرُورَةٌ إِيمَانِيَّةٌ تَتَطَلَّبُ جَهْدًا وَمُجَاهَدَةً لِلنَّفْسِ.

٢) ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾: نَهْيٌ صَرِيحٌ عَنْ تَجَاوُزِهِمْ بِالنَّظَرِ إِلَى غَيْرِهِمْ، أَيْ لَا تَلْتَفِتْ عَنْهُمْ رَغْبَةً فِي صُحْبَةِ أَهْلِ الدُّنْيَا وَزُخْرُفِهَا. هَذَا يُؤَكِّدُ عَلَى أَوْلَوِيَّةِ هَذِهِ الصُّحْبَةِ وَقِيمَتِهَا الْعَالِيَةِ الَّتِي لَا يَنْبَغِي أَنْ يُسْتَبْدَلَ بِهَا شَيْءٌ آخَرُ.

٣) إِنَّ الْمَحَبَّةَ الْمُتَبَادَلَةَ بَيْنَ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِمْ نَاشِئَةٌ عَنِ الْإِخْلَاصِ لِلَّهِ ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ هِيَ مَحَبَّةٌ صَادِقَةٌ، نَقِيَّةٌ، لَا تَشُوبُهَا أَغْرَاضٌ دُنْيَوِيَّةٌ.

هَذِهِ الْمَحَبَّةُ فِي اللهِ ﷻ وَهِيَ مِنْ أَسْبَابِ تَذَوُّقِ حَلَاوَةِ الْإِيمَانِ، وَهِيَ الَّتِي تَبْنِي أُخُوَّةً مَتِينَةً يَشْعُرُ فِيهَا الْإِنْسَانُ بِاكْتِمَالِ جَوَانِبَ مِنْ سَعَادَتِهِ الرُّوحِيَّةِ وَالِاجْتِمَاعِيَّةِ.

٤) لَفْظَةُ ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ تُشِيرُ إِلَى أَنَّ الْحَيَاةَ تَتَطَلَّبُ صَبْرًا، وَأَنَّ وُجُودَ هَؤُلَاءِ الصَّالِحِينَ يَجْعَلُ هَذَا الصَّبْرَ أَيْسَرَ.

فَالْمُؤْمِنُ يَقْوَى بِأَخِيهِ الْمُؤْمِنِ، وَفِي مُوَاجَهَةِ مَصَاعِبِ الْحَيَاةِ وَفِتَنِهَا، يَكُونُ الصَّالِحُونَ سَنَدًا وَعَضُدًا، يُذَكِّرُونَكَ بِاللهِ عِنْدَ الْغَفْلَةِ، وَيُثَبِّتُونَكَ عِنْدَ الْجَزَعِ، وَيُشَارِكُونَكَ الْهُمُومَ، وَيَدْعُونَ لَكَ بِظَهْرِ الْغَيْبِ.

٥) إِنَّ مُلَازَمَةَ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْخَيْرِ وَالتَّقْوَى، الَّذِينَ هُمْ دَائِمُو الدُّعَاءِ وَالْعِبَادَةِ ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾، تَخْلُقُ بِيئَةً إِيمَانِيَّةً تُعِينُ عَلَى الثَّبَاتِ. الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ.

تَلَهُّفُ النَّبِيِّ ﷺ لِرِفْقَةِ الْخَيْرِ وَالنُّورِ السَّمَاوِيَّةِ:

وَقَدِ اشْتَاقَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى صُحْبَتِهِمْ فِي الْآخِرَةِ كَمَا أُمِرَ بِصُحْبَتِهِمْ فِي الدُّنْيَا، فَعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ: «أَسْأَلُ اللهَ الرَّفِيقَ الْأَعْلَى الْأَسْعَدَ»[1].

فَيَا لَذَّةَ مَعْرِفَتِهِمْ! وَيَا لَسَعَادَةِ صُحْبَتِهِمْ! وَيَا لَهَنَاءِ قُرْبِهِمْ!

سُـــــرُورِي مِنَ الدَّهْرِ لُقْيَـاكُـمُ ... وَدَارُ سَـــلَامِـيَ مَـغْنَـاكُـمُ
وَأَنْتُمْ مَدَى أَمَلِي مَا حَيِيتُ ... وَمَا طَابَ عَيْشِـــيَ لَـوْلَاكُـمُ
جَنَابُكُمُ الرَّحْبُ مَرْعَى الْكِرَامِ ... فَلَا صَـــوَّحَ الـدَّهْرُ مَرْعَـاكُمُ
إِذَا ازْدَحَمَتْ فِي فُؤَادِي الْهُمُومُ ... أُعَـلِّـلُ قَـلْـبِـي بِـذِكْـرَاكُـمُ
وَأَسْـتَنْشِـقُ الرِّيحَ مِنْ أَرْضِـكُمْ ... لَـعَـلِّـيَ أَحْـظَـى بِـرَيَّـاكُـمُ[2]

***

(١) أحمد٦/ ١٢٠، وصححه الأرناؤوط بطرقه محسنًا هذا الإسناد.

(٢) صَوَّحَ: أَيْ لَا تَشَقَّقَ وَلَا يَبِسَ، وَالْمَقْصُودُ دُعَاءٌ بِالْخِصْبِ. انظر: العين (٣/ ٢٦٩).

جِسْرُ اتِّصَالٍ: عَرَفْنَا الْبَصِيرَةَ الثَّانِيَةَ مِنْ بَصَائِرِ الْمَقْصِدِ الثَّامِنِ مِنْ مَقَاصِدِ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ، وَهِيَ: قِيَادَاتُ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِمْ عَلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ بَعْدَ الْأَنْبِيَاءِ -عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- هُمْ: السَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، فَمَا الْبَصِيرَةُ الثَّالِثَةُ؟

الْجَوَابُ:

الْبَصِيرَةُ الثَّالِثَةُ

﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ اللهُ ﷻ مَصْدَرُ الْإِنْعَامِ الْكُلِّيِّ، وَالِاهْتِدَاءُ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ أَعْظَمُ نِعْمَةٍ يُنْعِمُ اللهُ ﷻ بِهَا عَلَى الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ

نَعَمْ! الْإِنْعَامُ بِأُسُسِ السَّعَادَةِ إِنَّمَا يَكُونُ مِنْ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ، فَقَدْ أَسْنَدَ اللهُ -تَعَالَى مَجْدُهُ- فِعْلَ الْإِنْعَامِ بِالْهِدَايَةِ إِلَيْهِ -جَلَّ فِي عُلَاهُ- فِي قَوْلِهِ: ﴿أَنْعَمْتَ﴾، فَهُوَ الَّذِي أَنْعَمَ عَلَى هَؤُلَاءِ الْأَقْوَامِ الَّذِينَ اهْتَدَوْا بِالسَّيْرِ عَلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، فَلَمْ يَهْتَدُوا بِجَهْدِهِمْ، وَلَا بِأَفْعَالِهِمْ، وَلَا بِقُوَّتِهِمْ، وَلَا بِذَكَائِهِمْ بَلْ بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ، وَآلَاءِ سَيِّدِهِمْ وَمَوْلَاهُمْ وَخَالِقِهِمْ، وَالنِّعْمَةُ هِيَ الْمَنْفَعَةُ الْحَسَنَةُ الَّتِي لَمْ يَشُبْهَا مَا يُكَدِّرُهَا، وَلَا تَكُونُ عَاقِبَتُهَا سُوأَى، وَهِيَ الْمَفْعُولَةُ عَلَى جِهَةِ الْإِحْسَانِ إِلَى الْغَيْرِ، فَهِيَ شَامِلَةٌ لِخَيْرَاتِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، خَالِصَةٌ مِنَ الْعَوَاقِبِ السَّيِّئَةِ [1]، وَكُلُّ مَا يَصِلُ إِلَى الْخَلْقِ مِنَ النَّفْعِ وَدَفْعِ الضَّرَرِ فَهُوَ مِنَ اللهِ كَمَا قَالَ -تَعَالَى ذِكْرُهُ-: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، وَهُنَا أَطْلَقَ الْإِنْعَامَ وَلَمْ يُقَيِّدْهُ بِنِعْمَةٍ مُعَيَّنَةٍ لِيَشْمَلَ كُلَّ إِنْعَامٍ.

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ١٩٢).

وَهُنَا سَتَسْأَلُ: النِّعَمُ كَثِيرَةٌ وَمُتَنَوِّعَةٌ وَلَا حَصْرَ لَهَا ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [النَّحل: ١٨]، وَلَكِنْ هَلْ يُمْكِنُ تَقْسِيمُ النِّعَمِ مِنْ جِهَةِ حُصُولِهَا؟

الْجَوَابُ:

نَعَمْ، فَأَنْوَاعُ الْكُبْرَى لِلنِّعَمِ -مِنْ حَيْثُ جِهَةُ الْوُصُولِ- ثَلَاثَةٌ:

أَحَدُهَا: نِعْمَةٌ تَفَرَّدَ اللهُ بِإِيجَادِهَا:

كَالْخَلْقِ مِنَ الْعَدَمِ، وَالْإِعْدَادِ بِوَسَائِلِ الْإِدْرَاكِ، وَالتَّغْذِيَةِ، وَالْبِيئَةِ السَّكَنِيَّةِ اللَّازِمَةِ لِلْحَيَاةِ، وَهِدَايَةِ الْبَيَانِ، وَهِدَايَةِ التَّوْفِيقِ.

وَثَانِيهَا: نِعْمَةٌ وَصَلَتْ مِنْ جِهَةِ غَيْرِ اللهِ ﷻ فِي ظَاهِرِ الْأَمْرِ، وَحَقِيقَتُهَا أَنَّهَا مِنَ اللهِ ﷻ؛ لِأَنَّهُ تَعَالَى هُوَ الْخَالِقُ لِتِلْكَ النِّعْمَةِ، وَالْخَالِقُ لِذَلِكَ الْمُنْعِمِ، وَهُوَ مَنْ أَلْهَمَ قَلْبَ ذَلِكَ الْمُنْعِمِ لِيُعْطِيَ ذَلِكَ الْإِنْعَامَ، فَيَكُونُ الشُّكْرُ لِلَّهِ ﷻ، وَلِذَلِكَ الْعَبْدِ كَمَا قَالَ -تَعَالَى ذِكْرُهُ-: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤]، فَلِلَّهِ الْحَمْدُ أَوَّلًا وَآخِرًا، فَهُوَ الَّذِي أَلْهَمَ قَلْبَ الْمُنْعِمِ مِنَ الْبَشَرِ لِيُؤَدِّيَ تِلْكَ النِّعْمَةَ، وَأَعْطَاهُ الْقُوَّةَ وَالتَّوْفِيقَ فِي ذَلِكَ الْأَدَاءِ، وَلِذَا رَوَى الدِّينَوَرِيُّ: أَنَّ مُحَمَّدَ بْنَ وَاسِعٍ دَخَلَ عَلَى قُتَيْبَةَ بْنِ مُسْلِمٍ فَقَالَ لَهُ: «أَتَيْتُكَ فِي حَاجَةٍ رَفَعْتُهَا إِلَى اللهِ قَبْلَكَ، فَإِنْ تَقْضِهَا حَمِدْنَا اللهَ وَشَكَرْنَاكَ، وَإِنْ لَمْ تَقْضِهَا حَمِدْنَا اللهَ وَعَذَرْنَاكَ»(١).

وَثَالِثُهَا: نِعَمٌ وَصَلَتْ مِنَ اللهِ إِلَيْنَا بِسَبَبِ طَاعَتِنَا، وَهِيَ أَيْضًا مِنَ اللهِ تَعَالَى، لِأَنَّهُ لَوْلَا أَنَّ اللهَ ﷻ وَفَّقَنَا لِلطَّاعَاتِ لَمَا كَانَتْ تِلْكَ الْمُكَافَآتُ، كَمَا قَالَ ابْنُ رَوَاحَةَ رضي الله عنه:

وَاللهِ لَوْلَا اللهُ مَا اهْتَدَيْنَا ... وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا

(١) المجالسة وجواهر العلم٨/ ١٨.

فَأَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا وَثَبِّتِ الْأَقْدَامَ إِنْ لَاقَيْنَا[1]

إِذًا فَكُلُّ النِّعَمِ مِنَ اللهِ وَإِنْ ظَهَرَ لَنَا أَنَّ مَصَادِرَهَا مُتَعَدِّدَةٌ، وَهَذَا مَا تَحْمِلُهُ كَلِمَةُ ﴿أَنْعَمْتَ﴾، عَلَى أَنَّ كُلَّ النِّعَمِ مَهْمَا بَدَا لَنَا أَنَّهَا مِنَ الْغَيْرِ، فَهِيَ مِنَ اللهِ ﷻ.

وَقَدْ تَتَسَاءَلُ هُنَا: مَا أَعْظَمُ النِّعَمِ؟

الْجَوَابُ:

قَلِّبِ الطَّرْفَ يَمِينًا وَشِمَالًا لِتَرَى بَعْدَ أَنْ تَقُومَ بِكُلِّ الْحِسَابَاتِ بِعَقْلٍ مُتَجَرِّدٍ أَنَّ أَعْظَمَ النِّعَمِ نِعْمَةُ الْهِدَايَةِ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَيَتَجَلَّى فَضْلُ هَذِهِ النِّعْمَةِ فِي قَوْلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حِينَ يَدْخُلُونَهَا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللهُ﴾ [الْأَعْرَاف: ٤٣].

وَتَتَحَقَّقُ هَذِهِ الْهِدَايَةُ بِمَعْرِفَةِ الْحَقِّ لِتَقْدِيسِهِ وَتَعْظِيمِهِ، وَمَعْرِفَةِ الْخَيْرِ لِأَجْلِ الْعَمَلِ بِهِ ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧].

وَيَدْخُلُ فِي هَذِهِ الْهِدَايَةِ:

١) نِعْمَةُ الِامْتِنَانِ بِإِكْمَالِ الدِّينِ وَشَرَائِعِهِ وَأَحْكَامِهِ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ﴾ [الْمَائِدَة: ٣].

٢) نِعْمَةُ التَّأْيِيدِ وَالنَّصْرِ وَالتَّثْبِيتِ فِي مَوَاطِنِ الْحَرْبِ وَمُوَاجَهَةِ أَعْدَاءِ اللهِ ﷻ: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الْأَحْزَاب: ٩].

٣) الْهِدَايَةُ لِلْأُخُوَّةِ وَالِاتِّحَادِ، فَانْظُرْ كَيْفَ أَشَادَ اللهُ ﷻ بِهَا فِي قَوْلِهِ ﷻ: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

---

(١) البخاري ٤/ ٣١.

٤) كَمَا يَدْخُلُ فِي هَذِهِ الْهِدَايَةِ اقْتِرَانُ الْأَقْوَالِ الْخَيِّرَةِ بِالْأَفْعَالِ الْإِيجَابِيَّةِ الْمُصَدِّقَةِ لِلْأَقْوَالِ، وَبِذَا يَظْهَرُ الصِّدْقُ الْحَيَاتِيُّ فِي حَيَاةِ الْإِنْسَانِ مَهْمَا كَانَتِ التَّبِعَاتُ، فَتَتَجَلَّى مِصْدَاقِيَّةُ الْإِنْسَانِ الْحَقَّةُ عِنْدَمَا يُعَانِقُ الْقَوْلُ الْخَيِّرُ الْفِعْلَ الصَّادِقَ، فَيَشِعُّ نُورُهُمَا فِي دُرُوبِ الْحَيَاةِ مَهْمَا ادْلَهَمَّتِ الْخُطُوبُ، وَقَدْ شَعَرَ الصَّادِقُ الْعَالِي الْجَنَابِ مِنْ أُولِي الْأَلْبَابِ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ ﷺ بِذَلِكَ فَقَالَ: «فَوَاللهِ مَا أَنْعَمَ اللهُ عَلَيَّ مِنْ نِعْمَةٍ قَطُّ بَعْدَ أَنْ هَدَانِي لِلْإِسْلَامِ أَعْظَمَ فِي نَفْسِي مِنْ صِدْقِي لِرَسُولِ اللهِ ﷺ أَنْ لَا أَكُونَ كَذَبْتُهُ فَأَهْلِكَ كَمَا هَلَكَ الَّذِينَ كَذَبُوا؛ فَإِنَّ اللهَ قَالَ لِلَّذِينَ كَذَبُوا حِينَ أَنْزَلَ الْوَحْيَ شَرَّ مَا قَالَ لِأَحَدٍ فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَإِنَّ اللهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩٥ - ٩٦]»[1].

إِنَّهَا الظِّلَالُ الْجَمِيلَةُ لِإِسْنَادِ فِعْلِ الْإِنْعَامِ إِلَى اللهِ؛ لِتُذَكِّرَ كُلَّ غَافِلٍ بِأَنَّهُ لَوْلَا اللهُ لَمَا كَانَتْ أَفْعَالٌ خَيِّرَةٌ، وَلَا ذِكْرَيَاتٌ جَمِيلَةٌ، وَلَا كَانَتْ حَيَاةٌ، وَمِنْ نَشِيدِ الصَّالِحِينَ:

لَكَ الْحَمْدُ مَوْلَانَا عَلَى كُلِّ نِعْمَةٍ ... وَمِنْ أَعْظَمِ النَّعْمَاءِ قَوْلِي: لَكَ الْحَمْدُ

فَلَا حَمْدَ إِلَّا أَنْ تَمُنَّ بِنِعْمَةٍ ... تَعَالَيْتَ أَنْ يَقْوَى عَلَى حَمْدِكَ الْعَبْدُ

❊❊❊

(١) البخاري (٤٤١٨).

جِسْرُ اتِّصَالٍ: إِذَا كَانَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ هُوَ الصِّرَاطَ الْحَقِيقِيَّ الَّذِي سَارَ عَلَيْهِ الْمُنْعَمُ عَلَيْهِمْ، فَكَيْفَ يُحْرَسُ هَذَا الصِّرَاطُ مِنَ الْأَخْطَارِ الِاسْتِرَاتِيجِيَّةِ الْمُحْدِقَةِ بِهِ؟ وَكَيْفَ يُحْمَى مِنَ الِاخْتِرَاقِ الدَّاخِلِيِّ وَالْخَارِجِيِّ؟

الْجَوَابُ: هُنَا يَأْتِي:

الْمَقْصِدُ التَّاسِعُ

يَجِبُ حِرَاسَةُ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ مِنْ خَطَرِ الْعَدُوَّيْنِ الْأَزَلِيَّيْنِ (الِاسْتِرَاتِيجِيَّيْنِ): خَطَرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ، وَخَطَرِ الضَّالِّينَ؛ سَوَاءٌ أَكَانُوا يَنْتَمُونَ لِلْمُسْلِمِينَ أَمْ يَنْتَمُونَ لِلْكَافِرِينَ، لِحِمَايَةِ الصِّرَاطِ مِنَ الِاخْتِرَاقِ الدَّاخِلِيِّ وَالْخَارِجِيِّ، وَيُبَصِّرُنَا بِذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾

إِنَّ الْبَلَاغَةَ الْقُرْآنِيَّةَ هُنَا تَصِلُ إِلَى ذِرْوَتِهَا بِجَعْلِ هَذَا الْمَقْصِدِ يَرْسُمُ الْحُدُودَ الْحَصِينَةَ الَّتِي تَحْمِي أَصْحَابَ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ مِنَ السُّقُوطِ عَنْ هَذَا الْجِسْرِ الْمَنْصُوبِ (الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ)؛ إِمَّا إِلَى سُبُلِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ، وَإِمَّا إِلَى سُبُلِ الضَّالِّينَ، وَفِي هَذَا الْمَقْصِدِ الْبَصَائِرُ الْعَظِيمَةُ الْآتِيَةُ:

المقصد التاسع

يجب حراسة الصراط المستقيم من خطر العدوين الأزليين (الاستراتيجيين): خطر المغضوب عليهم، وخطر الضالين سواء أكانوا ينتمون للمسلمين أم ينتمون للكافرين، لحماية الصراط من الاختراق الداخلي والخارجي، ويبصرنا بذلك قوله: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: 7]

بصيرة 01
﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ تشير إلى الصفات الخطيرة التي تستنزل الغضب الإلهي

بصيرة 02
﴿ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ تعني وجوب حماية أصحاب الصراط المستقيم من الوقوع في الخسارة في القرارات المصيرية من خلال معرفة صفات الضالين

بصيرة 03
تغاير النفي في ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ يبين اختلافًا واتفاقًا بين الفئتين، مما يكشف لنا طبيعة التحالفات ضد أهل الصراط المستقيم

بصيرة 04
﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ ليست تزكية للمسلمين بل هي تحذير لهم من أنفسهم قبل غيرهم، فيجب أن يجتنبوا مواقع الغضب والضلالة، فالأوصاف تتحقق بالأعمال والاكتساب لا بالادعاء والانتساب

بصيرة 05
(الصراط) يبين الحلفاءَ والأعداء الإستراتيجيين للأمة المسلمة في الواقع

بصيرة 06
تقترن أفعال قيادات المغضوب عليهم والضالين بالوحشية

بصيرة 07
التناقض بين الأقوال والأعمال ينافي مبدأ الاستقامة في (الصراط المستقيم)

بصيرة 08
آيتا الصراط تمثلان دستورًا كاملًا للمعرفة العليا والعمل الأقْوَم

بصيرة 09
(آيتا الصراط) تبصرنا بتجليات اللطف الرباني الغامر "الإنعام من الله، والشر ليس إليه، تنزيهًا لجلاله".

الْبَصِيرَةُ الْأُولَى

﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ تُشِيرُ إِلَى الصِّفَاتِ الْخَطِيرَةِ الَّتِي تَسْتَنْزِلُ الْغَضَبَ الْإِلَهِيَّ

ذَكَرَ اللهُ ﷻ هَذَا الْعَدُوَّ الْخَطِيرَ لِلصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ وَلِأَصْحَابِهِ؛ لِيَعْصِمَهُمْ مِنَ التَّلْبِيسِ الْعِلْمِيِّ وَالْعَمَلِيِّ، وَكَأَنَّهُ بِذَلِكَ يَبْنِي الْجِدَارَ الْمَشِيدَ عَلَى جَانِبَيِ الصِّرَاطِ مِنَ الْيَمِينِ وَمِنَ الْيَسَارِ لِحِمَايَةِ السَّائِرِينَ فِي الصِّرَاطِ، وَنَسْتَنْبِطُ هَذَا الْمَقْصِدَ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾، فَهَذِهِ الْكَلِمَاتُ الثَّلَاثُ سِيَاقُهَا الذَّمُّ الشَّدِيدُ لِأَشْخَاصٍ وَفِرَقٍ تُنْزِلُ الْغَضَبَ الْإِلَهِيَّ عَلَى الْعَالَمِ الْبَشَرِيِّ بِالتَّلْبِيسِ الْعِلْمِيِّ وَالْعَمَلِيِّ سَوَاءٌ شَعَرُوا بِذَلِكَ أَوْ تَآمَرُوا لِأَجْلِ ذَلِكَ أَوْ لَمْ يَشْعُرُوا، فَتَرَى هَؤُلَاءِ الْمُجْرِمِينَ يُحَارِبُونَ بِقُوَّةٍ لِتَكْوِينِ ثَقَافَةٍ يَتِمُّ فِيهَا لَبْسُ الْحَقِّ بِالْبَاطِلِ، وَإِخْلَاءُ الْعَالَمِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الْعَامِلِ.

وَوُسِمَ أَصْحَابُ هَذِهِ الْأَوْصَافِ بِالْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ؛ لِأَنَّهَا تَسْتَنْزِلُ غَضَبَ اللهِ تَعَالَى بِبَشَاعَةِ جَرَائِمِهَا، وَمُخَالَفَتِهَا لِأَهْدَافِ الِاسْتِخْلَافِ الْبَشَرِيِّ الْقَائِمِ عَلَى إِعْمَارِ النُّفُوسِ وَالْأَرْضِ بِمِنْهَاجِ الْعِبَادَةِ التَّوْحِيدِيِّ، لِتَحْقِيقِ الْحَيَاةِ الطَّيِّبَةِ فِي الدَّارَيْنِ الْأُولَى وَالْأُخْرَى، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ [الكهف: ٧]، وقال: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١]، وَبَدَلًا مِنْ ذَلِكَ قَامَتْ فِرَقٌ ﴿ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ بِمَا تَسَاءَلَتِ الْمَلَائِكَةُ عَنْ وُقُوعِهِ مِنَ الْجِنْسِ الْبَشَرِيِّ، وَهُوَ سَفْكُ الدِّمَاءِ وَالْإِفْسَادُ فِي الْأَرْضِ.

هَذَا الْوَصْفُ لَهُمْ يَدْفَعُنَا دَفْعًا لِمَعْرِفَةٍ سَرِيعَةٍ عَلَى الْأَقَلِّ لِأَهَمِّ الصِّفَاتِ الَّتِي تَسْتَنْزِلُ الْغَضَبَ الْإِلَهِيَّ.

صِفَاتُ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ:

وَقَدْ أَبَانَتْ لَنَا بَصَائِرُ الْقُرْآنِ صِفَاتِ هَذَا الصِّنْفِ، فَلَا تَقِفْ عِنْدَ هَذَا الْوَصْفِ ﴿ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ لِتَظُنَّ أَنَّهُ وَصْفٌ دِينِيٌّ مَحْضٌ، بَلْ هُوَ وَصْفُ حَالٍ وَمَآلٍ، فَوُقُوعُ الْبَشَرِيَّةِ فِي الْأَعْمَالِ الَّتِي تُغْضِبُ الرَّحْمَنَ يَعُودُ عَلَيْهَا بِالدَّمَارِ، وَيَمْلَأُ الْعَالَمَ بِالْجَوْرِ وَالطُّغْيَانِ، وَإِذَا كَانَ الْمَغْضُوبُ عَلَيْهِمْ يُعْرَفُونَ بِصِفَاتِهِمْ وَلَيْسَ بِالْأَسْمَاءِ وَالِانْتِمَاءِ، فَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّهُمْ قَدْ يَنْتَمُونَ إِلَى أَيِّ أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ، سَوَاءٌ أَكَانُوا مُسْلِمِينَ أَمْ كَانُوا كَافِرِينَ.

وَأَهَمُّ صِفَاتِهِمُ الْمُقْتَرِنَةِ بِاسْتِنْزَالِ الْغَضَبِ الْإِلَهِيِّ حَسْبَمَا وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ:

البصيرة الأولى

﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ تشير إلى الصفات الخطيرة التي تستنزل الغضب الإلهي

1. الطغيان: ﴿وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى﴾ [طه: ٨١].
2. الحسد، وصنع برامج الفِسْق التي تصد عن سبيل الله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ... أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النساء: ٥٢-٥٤].
3. الدفاع عن الباطل والقوانين الظالمة: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾ [الشورى: ١٦].
4. نقض العهد، وخلف الوعد: ﴿أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾﴾ [طه: ٨٦].
5. الافتراء: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾﴾ [الأعراف: ١٥٢].
6. سوء الظنِّ بالله سبحانه وتعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [الفتح: ٦].
7. صناعة الحركات السرية العاملة على صناعة برامج الإفساد العالمي: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ... ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾ [محمد: ٢٦-٢٨].

الصِّفَةُ الْأُولَى: الطُّغْيَانُ:

الطُّغْيَانُ تَجَاوُزُ الْحَدِّ، وَتَعَدٍّ عَلَى الضَّوَابِطِ الْحَيَاتِيَّةِ الْقَوِيمَةِ، وَهُوَ يُسَبِّبُ آفَاتِ الْإِسْرَافِ وَالتَّبْذِيرِ، وَيُؤَدِّي إِلَى اسْتِبَاحَةِ الْعُدْوَانِ عَلَى الْمُحَرَّمَاتِ، تَأَمَّلْ ذَلِكَ فِي قَوْلِ مَالِكِ الْمُلْكِ -تَعَالَى جَدُّهُ- مُبَيِّنًا النَّفْسِيَّةَ الْمَرِيضَةَ لِلطُّغَاةِ الَّتِي تُوبِقُهُمْ فِي الْغَضَبِ وَالْهَلَاكِ: ﴿وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ﴾ [طه: ٨١]، وَيَتَرَتَّبُ عَلَى الطُّغْيَانِ:

أَوَّلًا: عَدَمُ الْعَمَلِ بِالْعِلْمِ: فَانْظُرْ إِلَيْهِمْ وَهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ -جَلَّ فِي عُلَاهُ-. أَتَرَاهُمْ يَقُولُونَ: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا؟ أَتَرَاهُمْ يَتَلَقَّوْنَهُ بِالتَّعْظِيمِ وَالْمَحَبَّةِ وَالتَّكْرِيمِ؟ لَا! بَلْ لَا تَرَى مِنْهُمْ إِلَّا التَّوَلِّيَ بِالْجَسَدِ، وَالْإِعْرَاضَ بِالْقَلْبِ، وَالِاغْتِرَارَ بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ التَّفَوُّقِ، أَوِ التَّقَدُّمِ، أَوِ الْمَالِ وَالْوَلَدِ، وَقَدْ وَصَفَ اللهُ إِعْرَاضَهُمْ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ [البقرة: ٨٣]، فَهُمْ يَعْرِفُونَ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ، وَيُمَيِّزُونَ بَيْنَ الْعَدْلِ وَالظُّلْمِ، وَلَكِنَّهَا مَعْرِفَةٌ مُجَرَّدَةٌ دُونَ عَمَلٍ.

وَمِنْ أَشَدِّ النَّاسِ حَسْرَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَالِمٌ لَمْ يَنْفَعْهُ عِلْمُهُ، وَقَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ رحمه الله: "الْعِلْمُ يَضُرُّكَ إِذَا لَمْ يَنْفَعْكَ". وَقَالَ مَنْصُورُ بْنُ زَاذَانَ رحمه الله: "نُبِّئْتُ أَنَّ بَعْضَ مَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ يَتَأَذَّى أَهْلُ النَّارِ بِرِيحِهِ. فَيُقَالُ لَهُ: وَيْحَكَ مَا كُنْتَ تَعْمَلُ؟ أَمَا يَكْفِينَا مَا نَحْنُ فِيهِ مِنَ الشَّرِّ حَتَّى ابْتُلِينَا بِكَ وَبِنَتْنِ رِيحِكَ! فَيَقُولُ: كُنْتُ عَالِمًا وَلَمْ أَنْتَفِعْ بِعِلْمِي".

وَكَتَبَ حَكِيمٌ إِلَى حَكِيمٍ: "يَا أَخِي قَدْ أُوتِيتَ عِلْمًا فَلَا تُدَنِّسْ عِلْمَكَ بِظُلْمَةِ الذُّنُوبِ فَتَبْقَى فِي الظُّلْمَةِ يَوْمَ يَسْعَى أَهْلُ الْعِلْمِ بِنُورِ عِلْمِهِمْ!"[1].

---

(١) التبصرة لابن الجوزي (ص: ٢٧١).

وَقَالَ ابْنُ رَسْلَانَ ﵀ يَحُثُّ عَلَى الْعَمَلِ بِمُقْتَضَى الْعِلْمِ:

فَاعْمَلْ وَلَوْ بِالْعُشْرِ كَالزَّكَاةِ ... تَخْرُجْ بِنُورِ الْعِلْمِ مِنْ ظُلُمَاتِ

فَعَالِمٌ بِعِلْمِهِ لَمْ يَعْمَلَنْ ... مُعَذَّبٌ مِنْ قَبْلِ عُبَّادِ الْوَثَنْ[1]

ثَانِيًا: اتِّبَاعُ الْهَوَى وَالِانْتِقَائِيَّةُ فِي الْأَخْذِ بِالتَّعْلِيمَاتِ وَالتَّشْرِيعَاتِ الْإِلَهِيَّةِ، وَالِاسْتِكْبَارُ عَنِ الِاسْتِسْلَامِ لِلَّهِ: فَدِينُهُمْ قَائِمٌ عَلَى التَّشَهِّي وَالرَّغَبَاتِ، فَيَعْمَلُونَ بِمَا شَاؤُوا، وَيَتْرُكُونَ مَا شَاؤُوا، بَلْ رُبَّمَا عَمِلُوا بِنَقِيضِ مَا أُمِرُوا بِهِ. إِنَّهُمْ عُبَّادُ الذَّاتِ، وَأَتْبَاعُ الشَّهَوَاتِ، وَظَهَرَ عَلَيْهِمُ التَّعَالِي وَالِاسْتِكْبَارُ ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ [البقرة: ٨٧].

الصِّفَةُ الثَّانِيَةُ: الْحَسَدُ، وَهُوَ الدَّافِعُ لِصُنْعِ بَرَامِجِ الْفِسْقِ الَّتِي تَصُدُّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ:

هَؤُلَاءِ الْمَغْضُوبُ عَلَيْهِمْ قَوْمٌ كَشَفَ اللهُ ﷻ دَخَائِلَ سَرَائِرِهِمْ، وَبَيَّنَ رَغْبَتَهُمُ الْعَارِمَةَ فِي أَنْ يَرَوْا الْمُؤْمِنِينَ مُرْتَدِّينَ عَنْ دِينِهِمْ، مُنْحَرِفِينَ عَنِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَهَذَا أَعْظَمُ مَا يُرِيدُونَ تَحْقِيقَهُ، وَأَهَمُّ مُنْجَزٍ يَسْعَوْنَ إِلَيْهِ مِنْ إِنْجَازَاتِ الْحَيَاةِ، وَلِذَا يُنْشِئُونَ الْمُؤَسَّسَاتِ، وَيَصْنَعُونَ الْقِيَادَاتِ الَّتِي تُسْهِمُ وَتَعْمَلُ عَلَى تَكْفِيرِ الْمُسْلِمِينَ وَتَفْسِيقِهِمْ (إِدْخَالِهِمْ فِي الْكُفْرِ وَالْفُسُوقِ): ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩].

لَقَدْ أَشْعَلَ الْحَسَدُ نِيرَانَ قُلُوبِهِمْ، وَبِدَافِعٍ مِنْ هَذَا الْحَسَدِ الَّذِي اسْتَعَرَّ فِي قُلُوبِهِمْ، سَعَوْا جَاهِدِينَ لِإِخْرَاجِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ نُورِ الْإِسْلَامِ إِلَى ظُلُمَاتِ الْكُفْرِ، وَلِنَشْرِ الْفُسُوقِ وَالرَّذِيلَةِ بَيْنَهُمْ، حَتَّى يَتَسَاوَوْا جَمِيعًا فِي الضَّيَاعِ.

---

(١) متن الزبد (ص: ٤).

وَلَكِنَّ التَّعْبِيرَ الْقُرْآنِيَّ دَقِيقٌ فِي وَصْفِ رَغْبَتِهِمْ فِي تَكْفِيرِ الْمُؤْمِنِينَ؛ إِذْ وَصَفَ اللهُ ﷻ ذَلِكَ بِالْوُدِّ فَقَالَ: ﴿ وَدَّ ﴾ أَيْ رَغِبَ وَأَحَبَّ، وَلِذَا تَرَاهُمْ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ، وَيُؤَيِّدُونَ الْحَرَكَاتِ الْوَثَنِيَّةَ، وَلَا يَنْفَعُهُمْ عِلْمُهُمْ بِأَنَّ ذَلِكَ كُفْرٌ صَرِيحٌ ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴾ [النساء: ٥١]، وَهُنَا اسْتَحَقُّوا مَا هُوَ أَسْوَأُ مِنَ الْغَضَبِ وَهُوَ اللَّعْنَةُ، فَقَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ [النساء: ٥٢ -٥٤]، وَتَنْفِيذًا لِهَذَا الْوُدِّ، وَتَطْبِيقًا لِمُقْتَضَيَاتِ الْحَسَدِ سَخَّرُوا لِذَلِكَ مُؤَسَّسَاتِهِمُ الدَّوْلِيَّةَ، وَمَكَاتِبَهُمُ الِاسْتِشَارِيَّةَ، وَاسْتِثْمَارَاتِهِمُ الْخَاصَّةَ، وَجَعَلُوا كُلَّ إِمْكَانِيَّاتِهِمْ لِتَحْقِيقِ تِلْكَ الْغَايَةِ عَلَى أَسَاسِ الْخِدَاعِ وَالْمَكْرِ كَمَا قَالَ تَعَالَى عَنْهُمْ: ﴿ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ ﴾ [آل عمران: ١١٨].

وَلِمَاذَا يَحْسُدُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَرُبَّمَا كَانُوا أَقَلَّ مِنْهُمْ مَالًا وَمَتَاعًا؟ لَا شَكَّ أَنَّهُ حَسَدٌ عَلَى طَهَارَةِ الْمُؤْمِنِينَ، وَتَطْبِيقِهِمْ لِمِيثَاقِ ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٥]. إِنَّهُ حَسَدٌ سَبَبُهُ وُجُودُ دَلِيلٍ مُتَحَرِّكٍ عَلَى أَنَّ الْحَقَّ فِي غَيْرِ مَنْهَجِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَالضَّالِّينَ.

وَمِنَ الْبَرَامِجِ الَّتِي يَتَبَنَّاهَا الْمَغْضُوبُ عَلَيْهِمْ إِشَاعَةً لِلْفِسْقِ وَصَدًّا عَنِ الدِّينِ:

١) تَقْدِيمُ الْبَرَامِجِ الِاقْتِصَادِيَّةِ الَّتِي تُدَمِّرُ الِاقْتِصَادَ، وَتَهْدِمُ النَّسِيجَ الِاجْتِمَاعِيَّ.

٢) تَبَنِّي الْمُلْحِدِينَ وَأَهْلِ الِانْحِرَافِ وَالشُّذُوذِ، وَتَقْدِيمُهُمْ لِشَبَابِ الْأُمَّةِ عَلَى أَنَّهُمُ الْقُدْوَاتُ.

٣) مُسَابَقَاتُ الْجَمَالِ، الَّتِي تُؤَسِّسُ لِنَشْرِ الرَّذِيلَةِ، وَإِشَاعَةِ أَخْلَاقِ الدِّيَاثَةِ.

٤) إِشَاعَةُ الْفَاحِشَةِ عَنْ طَرِيقِ تَشْجِيعِ كُلِّ الْبَرَامِجِ وَالْمَنَاهِجِ الَّتِي تُزِيلُ الْعِفَّةَ وَالْحِشْمَةَ وَالْحَيَاءَ بَيْنَ الْجِنْسَيْنِ، وَمِنْ ذَلِكَ الْعَمَلُ عَلَى تَغْيِيرِ جِنْسِ الذُّكُورِ وَالْإِنَاثِ، وَالتَّلَاعُبُ بِخَلْقِ اللهِ.

٥) جَعْلُ الْجَمْعِيَّاتِ وَالْمُنَظَّمَاتِ النِّسْوِيَّةِ فَخًّا لِإِشَاعَةِ الْفَاحِشَةِ لَا لِلْقِيَامِ عَلَى حُقُوقِ الْأُسْرَةِ.

٦) وَسَائِلُ الْإِعْلَامِ الَّتِي تُسْتَخْدَمُ عَلَى نِطَاقٍ وَاسِعٍ لِإِشَاعَةِ الْفَسَادِ الْخُلُقِيِّ وَالتَّفَاهَةِ وَالتَّمَيُّعِ وَالِانْحِلَالِ فِي كُلِّ بِلَادِ الْأَرْضِ.

الصِّفَةُ الثَّالِثَةُ: شَرْعَنَةُ الْبَاطِلِ وَالظُّلْمِ عَبْرَ قَوَانِينَ وَضْعِيَّةٍ، مَحَلِّيَّةٍ كَانَتْ أَوْ عَالَمِيَّةٍ، يُوَظِّفُهَا وُحُوشُ الْبَشَرِ لِتَمْرِيرِ مُخَطَّطَاتِهِمْ:

كَشَفَ عَنْ ذَلِكَ هُودٌ ﷺ عِنْدَمَا جَادَلَهُ قَوْمُهُ مُسْتَنِدِينَ إِلَى شَرْعِيَّتِهِمُ الْمُجْرِمَةِ، وَقَوَانِينِهِمُ الظَّالِمَةِ، فَقَالَ: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ [الأعراف: ٧١]، فَذَكَرَ أَنَّ الْغَضَبَ وَقَعَ عَلَيْهِمْ بِسَبَبِ الْقَوَانِينِ الَّتِي اخْتَرَعُوهَا لِيُسَوِّغُوا بِهَا كُلَّ إِثْمٍ وَعُدْوَانٍ، وَلَمْ يَكْتَفُوا بِذَلِكَ حَتَّى أَقَامُوا الْمَنَابِرَ الْإِعْلَامِيَّةَ وَالْمُؤَسَّسَاتِ الْحُقُوقِيَّةَ لِلدِّفَاعِ عَنْ هَذِهِ الْقَوَانِينِ الْمُجْرِمَةِ. أَلَمْ تَرَهُمْ يُحَاجُّونَ فِي اللهِ؟ وَيُحَاوِلُونَ أَنْ يَظْهَرُوا بِحُجَجِهِمْ فِي الْعَالَمِ؛ لِيُسَوِّغُوا فِي أَفْعَالِهِمْ كُلَّ مَأْثَمَةٍ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [الشورى: ١٦].

إِنَّهُ لَجُرْمٌ عَظِيمٌ، وَفِعْلٌ أَثِيمٌ أَنْ تُحَكَّمَ قَوَانِينُ الْعَبِيدِ، وَتُتْرَكَ قَوَانِينُ الْإِلَهِ الْمَجِيدِ، وَتُحْرَمَ الْبَشَرِيَّةُ مِنْ عَدَالَةِ السَّمَاءِ لِتَكْتَوِيَ بِنِيرَانِ سَعِيرِ الشَّرَائِعِ الْبَشَرِيَّةِ.

وَمَا أَصْدَقَ مَا قَالَهُ الْقَاضِي الزُّبَيْرِيُّ ﷺ:

يُلَفِّقُـــونَ قَوَانِيـــنَ الْعَبِيـــدِ لَنَـــا ... وَنَحْنُ شَـــعْبٌ أَبِيٌّ مَـارِدٌ شَـــرِسُ
وَالْحُكْمُ بِالْغَصْـــبِ رَجْعِيٌّ نُقَاوِمُهُ ... حَتَّى وَلَوْ لَبِسَ الْحُكَّامُ مَا لَبِسُـوا

وَلِلَّهِ دَرُّ الشَّاعِرِ وَلِيدٍ الْأَعْظَمِيِّ حِينَمَا يَقُولُ:

يَـا مَنْ وَضَـعْتُمْ قَوَانِينًا لِأَنْفُسِـكُمْ ... نَحْنُ اتَّخَذْنَا كِتَابَ اللهِ قَانُونَا
اللهُ أَنْزَلَـــهُ بِالْحَـــقِّ يُرْشِـــدُنَـــا ... إِلَى السَّـــعَـادَةِ فِي شَـــتَّى مَرَامِينَا
آيَاتُـــهُ بِالْهُـــدَى وَالْعَدْلِ قَدْ نَطَقَتْ ... تُضْـفِي عَلَى الْحَقِّ إِيضَـاحًا وَتَبْيِينَا
لَسْنَـــا نُرِيـــدُ دَسَـــاتِيرًا مُرَقَّعَـــةً ... فَشِـرْعَـةُ اللهِ تَكْفِينَـا وَتُرْضِـينَـا[1]

الصِّفَةُ الرَّابِعَةُ: نَقْضُ الْعَهْدِ، وَخُلْفُ الْوَعْدِ:

إِنَّهَا صِفَةٌ مُلَاصِقَةٌ لِأَكَاذِيبِهِمْ، فَقَالَ -تَعَالَى ذِكْرُهُ- مُبَيِّنًا لَهَا عَلَى لِسَانِ مُوسَى عليه السلام: ﴿أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى﴾ [طه: ٨٦]، فَإِخْلَافُ الْمَوْعِدِ مِنْ أَبْرَزِ مَا يُؤَدِّي إِلَى غَضَبِ اللهِ -تَعَالَى وَتَقَدَّسَ- كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [الرَّعْد: ٢٥]، وَلَا يَخْفَاكَ أَنَّ هَذِهِ الصِّفَةَ مُتَأَصِّلَةٌ عِنْدَ بَعْضِ الْيَهُودِ خَاصَّةً قِيَادَاتِهِمْ[2]، ثُمَّ سَرَتْ إِلَى بَعْضِ الْمُسْلِمِينَ ضِمْنَ مَا سَرَى إِلَيْهِمْ مِنْ أَمْرَاضِ الْأُمَمِ.

---

(١) ديوان وليد الأعظمي (ص: ٢١).

(٢) فَإِسْحَاقُ رَابِينُ مَثَلًا كَانَ يَتَهَرَّبُ مِنْ اسْتِحْقَاقَاتِ الِاتِّفَاقَاتِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ طَرَفٍ فِلَسْطِينِيٍّ، وَرَفَعَ شِعَارَهُ الْمَعْرُوفَ بِـ«أَنْ لَا مَوَاعِيدَ مُقَدَّسَةَ لَدَيْهِ»، وَفِي الْمُقَابِلِ يَحْفَظُ لَنَا التَّارِيخُ قِصَّةَ الْيَهُودِيِّ الْجَاهِلِيِّ السَّمَوْأَلِ (شْمُوئِيلَ أَوْ صَمُوئِيلَ) بْنِ عُرَيْضِ بْنِ عَادِيَاءَ الْأَزْدِيِّ الَّذِي يُضْرَبُ بِهِ الْمَثَلُ فِي الْوَفَاءِ، فَيُقَالُ: أَوْفَى مِنَ السَّمَوْأَلِ، حَيْثُ أَسْلَمَ ابْنَهُ لِلْقَتْلِ مُقَابِلَ الْوَفَاءِ لِامْرِئِ الْقَيْسِ بِمَا الْتَزَمَهُ لَهُ فِي قِصَّةٍ مَشْهُورَةٍ، وَقَالَ:

وَبَعْضُ الْمُسْلِمِينَ رُبَّمَا اسْتَسْلَمَ لِتَصَوُّرٍ زَائِفٍ يَتَوَهَّمُ فِيهِ أَنَّ الْمَغْضُوبَ عَلَيْهِمْ فَقَطْ هُمُ الْيَهُودُ، ثُمَّ يَقْتَرِفُ خَطَايَاهُمْ، وَيَأْتِي السَّيِّئَ مِنْ صِفَاتِهِمْ تَارِكًا الْمُجَاهَدَةَ لِطَبِيعَةِ النَّفْسِ الْأَمَّارَةِ بِالسُّوءِ، فَيَحِلُّ عَلَيْهِ مِنَ الْغَضَبِ مَا حَلَّ بِهِمْ، فَيَكُونُ مِنْ جُمْلَتِهِمْ، لِأَنَّ اللهَ ﷻ لَوْ أَرَادَ الْغَضَبَ عَلَى جِنْسٍ بِعَيْنِهِ لَحَدَّدَهُ هُنَا، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَفْعَلْ بَلْ قَالَ: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ لِيَشْمَلَ كُلَّ مَنْ يَقْتَرِفُ ذَلِكَ وَلَوِ ادَّعَى أَنَّهُ مُسْلِمٌ، ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ [المدثر: ٤٩ - ٥٣].

الصِّفَةُ الْخَامِسَةُ: الِافْتِرَاءُ:

فَهُمُ الَّذِينَ يُشِيعُونَ الْكَذِبَ فِي الْعَالَمِ، وَيَجْعَلُونَ الْأَكَاذِيبَ صِنَاعَةً يُضَلِّلُونَ بِهَا الْإِنْسَانِيَّةَ مِنْ خِلَالِ الْإِعْلَامِ وَالثَّقَافَةِ وَالتَّرْبِيَةِ، وَقَدْ بَيَّنَ اللهُ ﷻ أَنَّ غَضَبَهُ سَيَنَالُ الْمُفْتَرِينَ فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٢]، فَانْظُرْ كَيْفَ أَحَالَ الْإِعْلَامُ الْمُعَاصِرُ الِافْتِرَاءَ إِلَى صِنَاعَةٍ مُؤَسَّسِيَّةٍ تُبْرِزُ أَكْثَرَ النَّاسِ هَمَجِيَّةً وَإِجْرَامًا عَلَى أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْحَقِّ الْحَصْرِيِّ فِي الْكَلَامِ عَنْ مَصَائِرِ الشُّعُوبِ، وَتُبْرِزُ أَكْثَرَ النَّاسِ انْحِلَالًا وَإِفْسَادًا عَلَى أَنَّهُمْ نُجُومُ الْعَالَمِ، وَنَمَاذِجُ الِاقْتِدَاءِ ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧١].

وَمِنْ أَبْشَعِ الِافْتِرَاءِ مُحَاوَلَةُ صُنْعِ إِسْلَامٍ يُجَافِي الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ، كَالَّذِي تُرَوِّجُ لَهُ مُؤَسَّسَةُ رَانْد (RAND Corporation) حَيْثُ نَشَرَتْ فِي نِهَايَةِ شَهْرِ مَارِسَ مِنْ عَامِ (٢٠٠٧م)

وَفَيْتُ بِأَدْرُعِ الْكِنْدِيِّ إِنِّي ... إِذَا مَا خَانَ أَقْوَامٌ وَفَيْتُ

الْمُوَافِقِ رَبِيعَ الْأَوَّلِ (١٤٢٨هـ) بِعُنْوَانِ: بِنَاءِ شَبَكَاتٍ مُسْلِمَةٍ مُعْتَدِلَةٍ (Moderrate Muslim Networks Building)، يُقَدِّمُ تَوْصِيَاتٍ مُحَدَّدَةً وَعَمَلِيَّةً لِلْقِيَامِ بِعَمَلِيَّةِ افْتِرَاءِ إِسْلَامٍ يُنَاسِبُهَا، وَلَيْسَ هُوَ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللهُ -تَعَالَى مَجْدُهُ-. وَهُنَا تَبْرُزُ أَهَمِّيَّةُ هَذِهِ الْمَقَاصِدِ الثَّلَاثَةِ الْعَاصِمَةِ الْمُبَيِّنَةِ لِحَقِيقَةِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ.

الصِّفَةُ السَّادِسَةُ: سُوءُ الظَّنِّ بِاللهِ ﷻ:

يَا لَجَمَالِ الْبِنَاءِ الْقُرْآنِيِّ لِلنَّفْسِ الْمُسْلِمَةِ الْوَاثِقَةِ بِنُصْرَةِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ وَبَرَكَتِهِ!

إِنَّ ظَنَّ السُّوءِ بِاللهِ ﷻ يَكُونُ بِعَدَمِ الثِّقَةِ بِنَصْرِهِ لِأَوْلِيَائِهِ، أَوْ بِإِقْرَارِهِ الظُّلْمَ فِي الْعَالَمِ، وَذَلِكَ مَا تَظُنُّهُ أَحْزَابُ الْبَغْيِ الْمُتَحَالِفَةُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَأَوْلِيَائِهِمُ الْمُنْتَمِينَ لِلطَّابُورِ الْخَامِسِ مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ.

وَقَدْ بَيَّنَ اللهُ ﷻ شَأْنَهُمْ، وَفَضَحَ مُؤَامَرَاتِهِمْ، وَخَيَّبَ ظَنَّهُمْ بِأَنَّهُ لَنْ يَنْصُرَ الْمُؤْمِنِينَ اغْتِرَارًا بِقُوَّتِهِمْ، وَشِدَّةِ مَكْرِهِمْ، وَتَنَوُّعِ أَسَالِيبِهِمُ الْعَامِلَةِ عَلَى دَمَارِ الْإِنْسَانِيَّةِ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح: ٦].

الصِّفَةُ السَّابِعَةُ: صِنَاعَةُ الْحَرَكَاتِ السِّرِّيَّةِ الْعَامِلَةِ عَلَى صِنَاعَةِ بَرَامِجِ الْإِفْسَادِ الْعَالَمِيِّ:

ذَكَرَ اللهُ ﷻ مُؤَامَرَاتِهِمْ وَمُؤْتَمَرَاتِهِمُ السِّرِّيَّةَ، فَقَالَ:: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [محمد: ٢٦ - ٢٨].

وَأَوَّلُ مَنِ اتَّسَمَ بِتَدْبِيرِ هَذِهِ الْمَكَائِدِ السِّرِّيَّةِ مِنَ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ أَهْلُ التَّحْرِيفِ مِنَ الْيَهُودِ، فَهُمُ الَّذِينَ وَصَفَهُمُ اللهُ بِالشَّيَاطِينِ ذَاكِرًا اجْتِمَاعَاتِهِمُ الْخَفِيَّةَ مَعَ الْقُوَى الْإِجْرَامِيَّةِ وَالْمُنَافِقَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة: ١٤]، وَوَصَفَ شِدَّةَ تَكَتُّمِهِمُ الْمَعْلُومَاتِيِّ، وَتَشَاوُرَهُمْ عَلَى الْإِضْلَالِ الْخَارِجِيِّ لِلْعِبَادِ فَقَالَ: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ﴾ [البقرة: ٧٦].

الْمَاسُونِيَّةُ أَبْرَزُ الْحَرَكَاتِ السِّرِّيَّةِ الْمُدَمِّرَةِ:

وَهِيَ مِنْ أَقْدَمِ الْمُنَظَّمَاتِ الْعَالَمِيَّةِ، وَلَا يَزَالُ مَنْشَؤُهَا طَيَّ الْكِتْمَانِ، بَلْ لُغْزًا مِنَ الْأَلْغَازِ الْغَامِضَةِ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّ نَبِيَّ اللهِ سُلَيْمَانَ عليه السلام كَانَ الْأُسْتَاذَ الْأَعْظَمَ فِي مَحْفِلِ الْقُدْسِ، وَمَا أَكْثَرَ مَا يَكْذِبُونَ عَلَيْهِ، فَهُمْ لَا يَعُدُّونَهُ نَبِيًّا بَلْ مَلِكًا [(١)]، وَيَقُولُ عَبْدُ الْوَهَّابِ الْمِسِّيرِيُّ: "وَمِنَ الْحَقَائِقِ الْإِحْصَائِيَّةِ أَنَّ نِسْبَةَ أَعْضَاءِ الْجَمَاعَاتِ الْيَهُودِيَّةِ فِي الْجَمْعِيَّاتِ السِّرِّيَّةِ فِي الْعَالَمِ هُوَ نَحْوُ ٣٠٪"[(٢)].

وَهَذِهِ الْجُهُودُ الْمَاكِرَةُ وَالتَّحَرُّكَاتُ السِّرِّيَّةُ الدَّؤُوبَةُ لَهَا تَأْثِيرَاتُهَا الرَّهِيبَةُ عَلَى الْوَاقِعِ الْعَالَمِيِّ؛ إِذْ أَفْرَزَتِ الْعَدِيدَ مِنَ الْحَرَكَاتِ السِّرِّيَّةِ الَّتِي تَتَدَثَّرُ بِدِثَارِ الْبَرَاءَةِ وَهِيَ تَتَّسِمُ بِأَشَدِّ أَنْوَاعِ النِّفَاقِ الْعَالَمِيِّ، وَلَا هَدَفَ لَهَا سِوَى إِشَاعَةِ الْبَرَامِجِ الْإِفْسَادِيَّةِ الْكُفْرِيَّةِ. لَكِنَّ أَنْوَارَ الْمَعْرِفَةِ الْقُرْآنِيَّةِ تَكْشِفُ ذَلِكَ بِدِقَّةٍ تَحْذِيرِيَّةٍ فَائِقَةٍ: ﴿فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟

(١) أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي، علي جريشة (ص: ١٧٩).

(٢) موسوعة اليهود و اليهودية و الصهيونية (١٥/ ٢٨١) بتصرف.

أَتُرِيدُونَ أَن تَهۡدُواْ مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا ٨٨ وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗ ﴾ [النساء: ٨٨، ٨٩].

❊❊❊

جِسْرُ اتِّصَالٍ: عَرَفْنَا الْبَصِيرَةَ الْأُولَى مِنْ بَصَائِرِ الْمَقْصِدِ التَّاسِعِ مِنْ مَقَاصِدِ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ، وَهِيَ: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ تُشِيرُ إِلَى الصِّفَاتِ الْخَطِيرَةِ الَّتِي تَسْتَنْزِلُ الْغَضَبَ الْإِلَهِيَّ، فَمَا الْبَصِيرَةُ الثَّانِيَةُ؟

الْجَوَابُ:

الْبَصِيرَةُ الثَّانِيَةُ

﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ تَعْنِي وُجُوبَ حِمَايَةِ أَصْحَابِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ مِنَ الْوُقُوعِ فِي خَسَارَةِ الْقَرَارَاتِ الْمَصِيرِيَّةِ مِنْ خِلَالِ مَعْرِفَةِ صِفَاتِ الضَّالِّينَ

هَذِهِ الْجُمْلَةُ الْمُبَارَكَةُ ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ تَعْصِمُ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ مِنَ الضَّالِّينَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْقِيَادَةَ الْعَالَمِيَّةَ لِتَوْجِيهِ الْمُجْتَمَعَاتِ عَبْرَ عَقْلِيَّةٍ جَاهِلَةٍ عَمْيَاءَ ضَالَّةٍ بَعِيدَةٍ عَنِ التَّحْقِيقِ الْعِلْمِيِّ، وَكَذَلِكَ الْعِصْمَةُ مِنْ كُلِّ ضَالٍّ شَعَرَ أَمْ لَمْ يَشْعُرْ، وَاللهُ يَقُولُ عَنْهُمْ: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الرعد: ١٩].

مَاذَا يَعْنِي قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾؟

إِنَّهُ يَعْنِي التَّحْذِيرَ التَّامَّ! نَعَمْ، احْذَرْ أَيُّهَا اللَّبِيبُ، احْذَرْ أَيُّهَا الْعَالَمُ الْمِسْكِينُ، فَإِنَّ الضَّالِّينَ قَدْ يَكُونُونَ أَفْرَادًا، وَقَدْ يَكُونُونَ أَصْحَابًا، وَقَدْ يَكُونُونَ أَعْدَاءً، وَقَدْ يَكُونُونَ فِرَقًا، وَقَدْ يَكُونُونَ مَجْمُوعَاتِ عَمَلٍ تُقَدِّمُ الْخِدْمَاتِ الِاسْتِشَارِيَّةَ. احْذَرْ مِنْهُمْ، فَقَدْ تَاهُوا عَنِ الْعِلْمِ الْحَقِّ بِسَبَبِ الْجَهْلِ الْمُرَكَّبِ، لَكِنَّهُمْ يُصِرُّونَ عَلَى أَخْذِ زِمَامِ الْمُبَادَرَةِ، وَيُصِرُّونَ عَلَى قِيَادَةِ الْعَالَمِ وَلَكِنْ وَفْقَ ضَلَالِهِمْ.. وَقَدْ يَعْلَمُونَ بِجَهْلِهِمْ، وَرُبَّمَا لَا يَعْلَمُونَ؛ فَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا، فَهُمْ يَسْعَوْنَ غَالِبًا -بِعِلْمٍ أَوْ بِغَيْرِ عِلْمٍ- لِتَنْفِيذِ الْخُطَطِ الْآثِمَةِ الَّتِي أَعَدَّتْهَا فِرَقُ ﴿الْمَغْضُوبِ

عَلَيْهِمْ﴾؛ لِتَزْيِيفِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَإِدْخَالِ الْعَالَمِ فِي الْكُفْرِ وَالْفُسُوقِ وَالْعِصْيَانِ، وَانْتِهَاجِ سَبِيلِ الْغَيِّ، وَنَبْذِ النَّهْجِ الرَّاشِدِ، بَلْ وَمُحَارَبَتِهِ.

مَعَانِي الضَّلَالِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ:

إِنَّهَا الْفَاتِحَةُ الْعَظِيمَةُ الَّتِي تَحْفَظُ أَهْلَ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ مِنَ الْوُقُوعِ فِي الْوَادِي السَّحِيقِ لِلْكُفْرِ وَالْعِصْيَانِ، وَتَحْمِي الْأُمَّةَ مِنْ أَنْ تَقَعَ فِي الْخَسَائِرِ الْعَظِيمَةِ، وَالْهَزَائِمِ الْمُتَلَاحِقَةِ، فَالضَّلَالُ حَالَةٌ خَطِيرَةٌ تُصِيبُ الْإِنْسَانَ أَوِ الْجَمَاعَاتِ أَوِ الدُّوَلَ تُؤَدِّي إِلَى الْخَسَارِ وَالْهَلَاكِ؛ إِذْ إِنَّ الضَّلَالَ لَهُ مَعْنَيَانِ:

الْمَعْنَى الْأَوَّلُ: التِّيهُ وَسُلُوكُ الطَّرِيقِ الْخَطَأِ، سَوَاءٌ عَلِمَ بِذَلِكَ السَّالِكُ أَمْ لَمْ يَعْلَمْ، قَالَ الرَّاغِبُ ﷺ: "الضَّلَالُ: الْعُدُولُ عَنِ الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ وَيُضَادُّهُ الْهِدَايَةُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ [يُونُس: ١٠٨]"[(١)]، وَهَذَا الْمَعْنَى هُوَ الْمَرْحَلَةُ الْأُولَى مِنَ الضَّلَالِ، حَيْثُ يَحْدُثُ الضَّيَاعُ فِي فَهْمِ الْحَيَاةِ، فَيَكُونُونَ كَمَا قَالَ اللهُ -جَلَّ ذِكْرُهُ- عَنْ قَوْمٍ تَائِهِينَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ أَخْطَأُوا هَدَفَهُمْ: ﴿**فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ**﴾ [القلم: ٢٦]، يَتِيهُ الضَّالُّونَ كَمَا قِيلَ:

مَنْ هَدَاهُ سُبُلَ الْخَيْرِ اهْتَدَى ... نَاعِمَ الْبَالِ وَمَنْ شَاءَ أَضَلّ[(٢)]

وَيَؤُولُ إِلَى هَذَا الْمَعْنَى مَعَانٍ مُقَارِبَةٌ لَهُ جَاءَ الضَّلَالُ عَلَيْهَا فِي كِتَابِ اللهِ كَالنِّسْيَانِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾ [الْبَقَرَة: ٢٨٢]، وَمَعْنَى الْجَهْلِ كَمَا فِي

---

(١) مفردات غريب القرآن للأصفهاني (ص: ٢٩٧).

(٢) البيت للبيد بن ربيعة العامري، ينظر ديوانه (ص: ٩٠).

قَوْلِهِ: ﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ [الشُّعَرَاء: ٢٠]، وَمَعْنَى الْجَهَالَةِ كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الْأَعْرَاف: ١٧٩].

الْمَعْنَى الثَّانِي: الْهَلَاكُ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [السجدة: ١٠] أَيْ: هَلَكْنَا، وَأَكَلَ لُحُومَنَا الدُّودُ، وَمِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ:

أَلَمْ تَسْأَلْ فَتُخْبِرَكَ الدِّيَارُ ... عَنِ الْحَيِّ الْمُضَلَّلِ: أَيْنَ سَارُوا

أَيْ: عَنِ الْحَيِّ الَّذِي غَابَ وَاضْمَحَلَّ، وَمِنْ هُنَا سُمِّيَ الدَّفْنُ إِضْلَالًا؛ لِأَنَّ مَآلَ الْمَيِّتِ الْمَدْفُونِ إِلَى أَنْ تَخْتَلِطَ عِظَامُهُ بِالْأَرْضِ، فَيَضِلَّ فِيهَا كَمَا يَضِلُّ السَّمْنُ فِي الطَّعَامِ(١).

وَمِنْهُ قَوْلُ الْمُخَبَّلِ السَّعْدِيِّ يَرْثِي قَيْسَ بْنَ عَاصِمٍ:

أَضَلَّتْ بَنُو قَيْسِ بْنِ سَعْدٍ عَمِيدَهَا ... وَفَارِسَهَا فِي الدَّهْرِ قَيْسَ بْنَ عَاصِمِ(٢)

فَقَوْلُهُ: أَضَلَّتْ: أَيْ دَفَنَتْ، وَلَا يَكُونُ الدَّفْنُ إِلَّا بَعْدَ الْهَلَاكِ، وَيَؤُولُ إِلَى هَذَا الْمَعْنَى الْمَعَانِي السِّيَاقِيَّةُ الْأُخْرَى الَّتِي جَاءَ الضَّلَالُ عَلَيْهَا فِي لُغَةِ الْقُرْآنِ وَمِنْهَا:

١) الشَّقَاءُ: كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ [الْقَمَر: ٢٤] يَعْنِي شَقَاءً، وَقَالَ: ﴿إِنَّ المجرمين فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ يَعْنِي فِي شَقَاءٍ وَعَنَاءٍ. وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾ [سَبَأ: ٨] يَعْنِي الشَّقَاءَ الطَّوِيلَ.

٢) الْإِبْطَالُ: وَذَلِكَ قَوْلُهُ فِي سُورَةِ مُحَمَّدٍ: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ [مُحَمَّد: ١]، يَعْنِي أَبْطَلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ أَعْمَالَهُمْ. وَقَالَ فِيهَا أَيْضًا: ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي

---

(١) كتاب الأساليب والإطلاقات العربية، محمود المنياوي (ص: ٤٦).

(٢) تهذيب اللغة للأزهري (١١/ ٣١٩).

سَبِيلِ اللهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ [مُحَمَّد: ٤] يَعْنِي لَنْ يُبْطِلَ أَعْمَالَهُمْ. وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الْكَهْف: ١٠٤] يَعْنِي بَطَلَ عَمَلُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

٣) الْخَسَارُ وَالْخَسَارَةُ: وَذَلِكَ مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [غَافِر: ٢٥] يَعْنِي فِي خَسَارٍ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [يس: ٢٤] أي فِي خُسْرَانٍ بَيِّنٍ.

وَهُنَا نَضَعُ سُؤَالًا لا بُدَّ مِنْهُ: مَا الْعَلَاقَةُ بَيْنَ الْمَعْنَيَيْنِ؟ وَهَلْ هُنَاكَ تَدَاخُلٌ بَيْنَهُمَا؟

إِنَّ الْمَعْنَى الثَّانِيَ هُوَ الْمَرْحَلَةُ النِّهَائِيَّةُ، وَهُوَ نَتِيجَةُ الْمَرْحَلَةِ الْأُولَى مِنَ الضَّلَالِ الَّتِي يُعَبِّرُ عَنْهَا الْمَعْنَى الْأَوَّلُ، فَيَنْتُجُ عَنِ الضَّلَالِ الْفِكْرِيِّ التِّيهُ وَالْأَخْطَاءُ الْفَادِحَةُ فِي التَّصَوُّرِ، وَالِاعْتِقَادِ، وَالرَّأْيِ، وَالْحَيَاةِ الْعَمَلِيَّةِ، وَعَدَمُ التَّوَجُّهِ إِلَى الْخَيْرِ جَهْلًا أَوْ عَمْدًا.

فَاجْتِنَابُ الضَّلَالِ هُوَ الْعَاصِمُ الثَّالِثُ مِنَ الِانْحِرَافِ وَالِانْجِرَافِ أَثْنَاءَ السَّيْرِ عَلَى الصِّرَاطِ، وَبِذَا تَرَى أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ يَرْسُمُ لَنَا وَسَائِلَ الْحِمَايَةِ مِنْ أَنْ يَكُونَ الْإِنْسَانُ مِنَ الْقَتَلَةِ الضَّالِّينَ، وَالْحِمَايَةَ مِنْ أَنْ يَنْتَمِيَ إِلَى أَتْبَاعِ الشَّهَوَاتِ الضَّالِّينَ، وَالْحِمَايَةَ مِنْ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْعَاقِّينَ الضَّالِّينَ، وَالْحِمَايَةَ مِنَ الضَّلَالَاتِ الْفِكْرِيَّةِ، وَالضَّلَالَاتِ الْإِعْلَامِيَّةِ، وَالضَّلَالَاتِ الثَّقَافِيَّةِ، وَالْحِمَايَةَ مِنَ الْوَعْيِ الضَّالِّ الزَّائِفِ الَّذِي تُمَارِسُهُ الْمَحَافِلُ الدَّوْلِيَّةُ؛ لِصِنَاعَةِ وَعْيٍ عَالَمِيٍّ غَيْرِ وَعْيِ الْإِسْلَامِ الَّذِي تُؤَسِّسُهُ سُورَةُ الْفَاتِحَةِ.

﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ تَعْنِي الْحِمَايَةَ مِنْ أَنْ يَكُونَ الْإِنْسَانُ مِنَ الْفَاسِدِينَ الضَّالِّينَ الْمُتَلَاعِبِينَ بِالثَّرَوَاتِ الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ، وَالْحِمَايَةَ مِنْ أَنْ يَكُونَ مِنْ تُجَّارِ الْحُرُوبِ الْمُجْرِمِينَ الضَّالِّينَ، وَتَعْنِي الْحِمَايَةَ مِنْ مَصَانِعِ الضَّلَالَةِ فِي الْقُلُوبِ وَالْمَنَاهِجِ وَالدُّرُوبِ.

وَحَالَةُ الضَّلَالِ الْعَالَمِيِّ هِيَ حَالَةُ كَثِيرٍ مِنْ صُنَّاعِ الْقَرَارِ الدِّينِيِّ وَالسِّيَاسِيِّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِينَ يُضَلِّلُونَ الرَّأْيَ الْعَامَّ الْعَالَمِيَّ، فَتَرَى مُقَلِّدِيهِمْ عَلَى آثَارِهِمْ يَعْمَهُونَ، وَمِنْهُمْ قَوْمٌ مِنَ

الْمُسْلِمِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ فَكَانُوا مِنْهُمْ، وَلَكِنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ يَدُلُّ أَيْضًا عَلَى تَحْذِيرِ كُلِّ فَرْدٍ مِنَّا مِنْ صُحْبَةِ هَؤُلَاءِ التَّائِهِينَ الْهَالِكِينَ.

البصيرة الثانية

﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ تعنى وجوب حماية أصحاب الصراط المستقيم من الوقوع فى الخسارة فى القرارات المصيرية من خلال معرفة صفات الضالين

1. عدم الرجوع إلى المصدر الإلهي للأفكار والبناء: ﴿وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [البقرة: ۱۹۸].
2. الكفر والازدياد من الأعمال الكفرية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾ [آل عمران: ۹۰].
3. اليأس والقنوط من الوصول إلى الحلول التي يجدها المرء في رحمة الله الواسعة: ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ۝٥٦﴾ [الحجر: ۵۶].
4. الإصرار على التكذيب الجزئي أو الكلي لآيات الله: ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٠٥ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ﴾ [المؤمنون: ۱۰۵، ۱۰۶].
5. المسارعة إلى النصرة بأسلوب لم تُتدبر نتائجه: ﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ۝٢٠﴾ [الشعراء: ۲۰].
6. المسارعة إلى حياكة المؤامرات، ووصفُ المُنعَم عليهم بالضلالات: ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ۝٣٢﴾ [المطففين: ۳۲].

صِفَاتُ الضَّالِّينَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ:

تَرَى كَيْفَ يَصْنَعُ مَنِ اتَّخَذَ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُ مَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَمَا خَلْفَهُ مِنْ سُوءِ الْعَمَلِ، وَأَنْزَلُوا بِأَفْعَالِهِ وَحَيَاتِهِ الزَّلَلَ، وَتَسَبَّبُوا بِالْخَطَايَا الِاجْتِمَاعِيَّةِ، وَالنَّكَبَاتِ الِاقْتِصَادِيَّةِ؟ وَهَذَا يَسْتَدْعِي مَعْرِفَةَ صِفَاتِ الضَّالِّينَ بِالنَّظَرِ فِي وُرُودِهَا مُقْتَرِنَةً لِهَذِهِ الصِّفَةِ، فَأَهَمُّ صِفَاتِ الْفِرَقِ الضَّالَّةِ النَّفْسِيَّةِ وَالْفِكْرِيَّةِ وَالْعَمَلِيَّةِ:

الصِّفَةُ الْأُولَى: عَدَمُ الرُّجُوعِ إِلَى الْمَصْدَرِ الْإِلَهِيِّ لِلْأَفْكَارِ وَالْبِنَاءِ:

إِذْ إِنَّ هُنَاكَ مَصْدَرَيْنِ لِبِنَاءِ الْأَفْكَارِ:

الْأَوَّلُ: الْمَصْدَرِيَّةُ الْإِلَهِيَّةُ، **الثَّانِي**: مَصْدَرِيَّةُ الْعَقْلِيَّاتِ الضَّالَّةِ التَّائِهَةِ الَّتِي تَتَزَيَّنُ بِزُخْرُفِ الْعِلْمِ وَالتَّفْكِيرِ، وَهِيَ تَأْخُذُ الْبَشَرِيَّةَ بَعِيدًا عَنْ نُورِ الْوَحْيِ.

وَهَلْ يُعْذَرُ مَنْ زَاغَ عَنْ طَرِيقِ النُّورِ، وَبَصَائِرُ الْهِدَايَةِ تَتَلَأْلَأُ أَمَامَ عَيْنَيْهِ كَالنَّجْمِ الثَّاقِبِ فِي غَيَاهِبِ الظَّلَامِ؟

وَمَا عُذْرُ مَنْ ضَـلَّ الْهُدَى وَأَمَامَهُ ... ضِيَاءُ شِهَابٍ فِي دُجَى اللَّيْلِ وَاقِدِ[1]

هَاهُنَا يَنْبَعِثُ نُورُ الْقُرْآنِ الْمُبِينِ فِي وَظِيفَةٍ تَذْكِيرِيَّةٍ لِلْمُؤْمِنِينَ بِمَعْنَى الْإِسْلَامِ فَيَقُولُ اللهُ: ﴿وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [البقرة: ١٩٨]، وَلِذَا طَلَبَ إِبْرَاهِيمُ ﷺ الْهِدَايَةَ ذَاتَ الْمَصْدَرِيَّةِ الْإِلَهِيَّةِ؛ حَتَّى لَا يَقَعَ فِي فَخِّ مَصْدَرِيَّةِ الضَّلَالَةِ، فَقَالَ: ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الأنعام: ٧٧]، وَمَنَّ اللهُ ﷻ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ بِأَنِ اسْتَنْقَذَهُ مِنْ حَيْرَةِ الضَّلَالَةِ، فَقَالَ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٧].

---

(١) البيت لابن الرومي. ينظر ديوانه (ص: ١٦٣٤).

الضَّالُّونَ قَوْمٌ تَائِهُونَ، هَالِكُونَ، سَارُوا عَلَى عَمًى، أَوْ رَأَوُا الْهُدَى فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَيْهِ، وَاخْتَرَعُوا لَهُمْ أَدْيَانًا، وَعِبَادَاتٍ، وَعَقَائِدَ، وَنُظُمًا، وَمُعَامَلَاتٍ، وَقَوَانِينَ، وَدَسَاتِيرَ، وَشَرَائِعَ مَحَلِّيَّةً، وَأَعْرَافًا دَوْلِيَّةً مِنْ تِلْقَاءِ أَنْفُسِهِمْ، عَلَى غَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى، فَهَلَكُوا وَأَهْلَكُوا.

نَادِ هَؤُلَاءِ الْحَيَارَى وَالتَّائِهِينَ السَّكَارَى، وَقُلْ لَهُمْ: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧].

الصِّفَةُ الثَّانِيَةُ: الْكُفْرُ وَالِازْدِيَادُ مِنَ الْأَعْمَالِ الْكُفْرِيَّةِ:

فَقَدْ وَصَفَ اللهُ -تَعَالَى سُلْطَانُهُ- الضَّالِّينَ بِذَلِكَ فَقَالَ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٠].

وَمِنَ الِازْدِيَادِ فِي الْكُفْرِ نُصْرَةُ التَّقَالِيدِ الْمَحَلِّيَّةِ وَالدَّوْلِيَّةِ الْمُجْرِمَةِ الْمُحَارِبَةِ لِلدِّينِ الْقَوِيمِ كَمَا قَالَ تَعَالَى عَنِ الظَّالِمِينَ -وَاصِفًا سُرْعَتَهُمْ فِي اقْتِفَاءِ آثَارِ أَسْلَافِهِمْ مِنَ الْقُوَى الظَّالِمَةِ-: ﴿إِنَّهُمۡ أَلۡفَوۡاْ ءَابَآءَهُمۡ ضَآلِّينَ ٦٩ فَهُمۡ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ يُهۡرَعُونَ ٧٠ وَلَقَدۡ ضَلَّ قَبۡلَهُمۡ أَكۡثَرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [الصافات: ٦٩ - ٧١].

الصِّفَةُ الثَّالِثَةُ: الْيَأْسُ وَالْجَزَعُ مِنَ الْوُصُولِ إِلَى الْحُلُولِ الَّتِي يَجِدُهَا الْمَرْءُ فِي رَحْمَةِ اللهِ الْوَاسِعَةِ:

وَذَكَرَ اللهُ ﷻ هَذِهِ الصِّفَةَ لِلضَّالِّينَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦].

إِنَّ الضَّالِّينَ تَاهُوا عَنْ أَقْرَبِ شَيْءٍ إِلَيْهِمْ! أَلَا هُوَ رَحْمَةُ اللهِ: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف:٥٦].

أَلَا مَا أَخْسَرَ مَنْ ضَلَّتْ بِهِ السُّبُلُ عَنْ رِحَابِ رَحْمَةِ اللهِ الْوَاسِعَةِ!

أَلَا مَا أَتْعَسَ مَنْ عَمِيَتْ عَيْنَاهُ عَنْ إِدْرَاكِ خَفِيِّ لُطْفِ اللهِ، وَلَمْ يَتَذَوَّقْ لَذَّةَ ثِمَارِ فَضْلِهِ الْيَانِعَةِ!

أَلَا مَا أَضَلَّ مَنْ أَظْلَمَتْ بَصِيرَتُهُ فَاسْتَوْحَشَ مِنْ بَرَكَاتِ الْإِيمَانِ، وَتَرَكَ لَذَّةَ الصَّلَاةِ الْخَاشِعَةِ.

الصِّفَةُ الرَّابِعَةُ: الْإِصْرَارُ عَلَى التَّكْذِيبِ الْجُزْئِيِّ أَوِ الْكُلِّيِّ لِآيَاتِ اللهِ:

فَقَدْ خَاطَبَ اللهُ قَوْمًا أَشْقِيَاءَ، فَقَالَ لَهُمْ: ﴿أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٥]، فَقَامُوا يَقُولُونَ: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ [المؤمنون: ١٠٦]، وَلِذَا خَاطَبَ اللهُ أَصْحَابَ الْمَصِيرِ الْمُظْلِمِ بِأَبْرَزِ صِفَةٍ فِيهِمْ وَهِيَ التَّكْذِيبُ الْكُلِّيُّ أَوِ الْجُزْئِيُّ لِآيَاتِهِ فَقَالَ: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٥١].

إِنَّ هَذَا الْبَيَانَ الْقُرْآنِيَّ يُرْسِلُ أَنْوَارَهُ إِلَى كُلِّ الْمُسْلِمِينَ أَفْرَادًا وَجَمَاعَاتٍ؛ لِيَحْذَرُوا فِي تَعَامُلَاتِهِمُ الشَّخْصِيَّةِ وَالدَّوْلِيَّةِ مِنَ الْوُقُوعِ فِي بَرَائِنِ مُصَادَقَةِ الْمُكَذِّبِينَ لِآيَاتِ اللهِ، فَمَاذَا يَرْجُونَ مِنْ مُصَادَقَةِ قَوْمٍ عَمُوا وَصَمُّوا وَكَذَّبُوا بِكَلَامِ اللهِ؟

قَبِيحٌ ضَلَالُ الْمَرْءِ بَعْدَ اهْتِدَائِهِ ... وَإِبْطَالُهُ مَا خَبَّرَتْهُ التَّجَارِبُ[1]

الصِّفَةُ الْخَامِسَةُ: الْمُسَارَعَةُ إِلَى النُّصْرَةِ غَيْرِ الْمُتَّزِنَةِ:

فَقَدْ نَصَرَ مُوسَى -عليه السلام- رَجُلًا مُضْطَهَدًا، وَلَكِنَّهُ اسْتَعْجَلَ فَقَتَلَ الْخَصْمَ، ثُمَّ نَدِمَ، وَبَيَّنَ أَنَّ ذَلِكَ الِاسْتِعْجَالَ كَانَ نَوْعًا مِنَ الضَّلَالَةِ اقْتَرَفَهُ قَبْلَ أَنْ يَعْرِفَ الْحَقَّ، وَيُبْصِرَ النُّورَ، فَقَالَ:

---

(١) البيت لابن حيوس. ينظر ديوانه (ص: ٤٤).

﴿فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الشعراء: ٢٠]، قَالَ الطَّبَرِيُّ ﷺ: "يَقُولُ: وَأَنَا مِنَ الْجَاهِلِينَ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَنِي مِنَ اللهِ وَحْيٌ بِتَحْرِيمِ قَتْلِهِ عَلَيَّ"(١).

الصِّفَةُ السَّادِسَةُ: الْمُسَارَعَةُ إِلَى حِيَاكَةِ الْمُؤَامَرَاتِ، وَوَصْفُ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِمْ بِالضَّلَالَاتِ الْفِكْرِيَّةِ وَالثَّقَافِيَّةِ وَالْعَمَلِيَّةِ:

فَالَّذِينَ أَجْرَمُوا يَتَآمَرُونَ عَلَى الْقُوَى الْخَيِّرَةِ فِي الْمُجْتَمَعِ، ثُمَّ يَقْلِبُونَ فِي وَسَائِلِ إِعْلَامِهِمُ الْمُتَاحَةِ الْمَفَاهِيمَ، فَيَتَّهِمُونَ الْمُؤْمِنِينَ بِالضَّلَالَةِ، وَيَصِفُ اللهُ ﷻ ذَلِكَ، فَيَقُولُ: ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ [المطففين: ٣٢]، وَأَخْبَرَنَا اللهُ ﷻ عَنْ أُمَّةٍ مَخْذُولَةٍ خَاطَبَتْ نَبِيَّهَا ﷺ بِقَوْلِهِ: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأعراف: ٦٠]، وَلِذَا يُسَارِعُونَ إِلَى إِنْشَاءِ الْمُؤَسَّسَاتِ الَّتِي تَعْمَلُ عَلَى النَّشْرِ الْعَالَمِيِّ لِلضَّلَالَةِ الْعَامَّةِ فِي الْأُمَمِ، وَيُغَلِّفُونَ ذَلِكَ بِاسْمِ التَّنْوِيرِ وَالِاعْتِدَالِ، أَوِ الثَّقَافَةِ وَالْفَنِّ؛ فَيُفْشُونَ الضَّلَالَةَ بِاسْمِ مُحَارَبَتِهَا ﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُاْ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ [التوبة: ٤٨].

وَالضَّلَالُ مَرَاتِبُ كَثِيرَةٌ فَلَهُ -كَمَا ابْنُ عَاشُورٍ ﷺ-: «عَرْضٌ عَرِيضٌ، وَحَلْبٌ مَخِيضٌ»، وَخَبَرٌ يُنْبِئُكَ حَالُ صَاحِبِهِ عَنِ الْعَقْلِ التَّائِهِ وَالْقَلْبِ الْمَرِيضِ، فَقَدْ تَرَى الضَّلَالَ فِي تَرْكِ السُّنَنِ وَالْآدَابِ وَالْوَاجِبَاتِ، وَقَدْ تَرَى الضَّلَالَ فِي التَّسَاهُلِ فِي الْعِبَادَاتِ، وَقَدْ تَرَى الضَّلَالَ فِي التَّجَاذُبَاتِ السِّيَاسِيَّةِ، وَقَدْ تَرَى الضَّلَالَ فِي عَزْلِ نُورِ الْقُرْآنِ عَنِ الْأَحْكَامِ الْقَضَائِيَّةِ، وَقَدْ تَرَى الضَّلَالَ فِي الْأَكَاذِيبِ الْفَرْدِيَّةِ، أَوِ التَّلَاعُبَاتِ الْإِعْلَامِيَّةِ، أَوِ الِافْتِرَاءَاتِ الصُّحُفِيَّةِ، وَالِاسْتِمْرَارُ فِي اتِّبَاعِ طَرِيقِ الضَّلَالِ يُؤَدِّي إِلَى حَالَةٍ خَطِيرَةٍ هِيَ حَالَةُ الْخَتْمِ وَالطَّبْعِ وَالْأَكِنَّةِ الَّتِي تُنْذِرُ بِعَدَمِ

(١) الطبري (١٩/ ٣٤٠).

إِمْكَانِيَّةِ تَغْيِيرِ الْفَسَادِ فِي الْقُلُوبِ؛ لِأَنَّ النُّورَ قَدْ حُجِبَ عَنْهَا؛ جَزَاءً وِفَاقًا عَلَى الْإِصْرَارِ عَلَى السَّيْرِ فِي طَرِيقِ الضَّلَالِ وَالذُّنُوبِ.

ضَـــلَّ الْجَمِيعُ وَتَـاهُوا فِي غِوَايَتِهِمْ ... فَمَـا اهْتَـدَى حَـاضِــرٌ مِنْهُمْ وَلَا بَـادِ
وَأَصْـــبَحَ الزُّورُ مَرْفُوعَ اللِّوَاءِ بِهِمْ ... وَقَـائِلُ الْـحَـقِّ مَـوْصُـــوفًا بِـإِلْـحَـادِ
قَـامَ الْخِصَـــامُ بِـمَـا لَا يَـعْـلَـمُـونَ لَـهُ ... كُـنْـهًـا وَلَـمْ تَـرَهُ أَبْصَـــارُ أَشْـــهَـادِ
شَـغَبٌ تَفَاقَمَ فِي الْأَجْيَالِ وَاضْـطَرَمَتْ ... بِـهِ الْـعَـدَاوَةُ دَهْـرًا بَـيْـنَ أَكْـبَـادِ
أَمَـا كَفَـاكُمْ بَنِي الْإِنْسَـــانِ شِـقْوَتُكُمْ ... وَأَنَّـكُـمُ لِـلْـمَـنَـايَـا جِـدُّ وُرَّادِ
(عُودُوا إِلَى الرُّشْدِ مِنْ بَعْدِ الضَّلَالِ فَفِي ... كِتَـابِ رَبِّي سَـبِـيلٌ لِلْوَرَى هَـادِي)
(وَنُـورُهُ بَـهْـجَـةُ الـدُّنْـيَـا وَزِيـنَـتُـهَـا ... وَنَـهْـجُـهُ دَرْبُ إِحْـيَـاءٍ وَإِسْـــعَـادِ[1]

جِسْرُ اتِّصَالٍ: عَرَفْنَا الْبَصِيرَةَ الثَّانِيَةَ مِنْ بَصَائِرِ الْمَقْصِدِ التَّاسِعِ مِنْ مَقَاصِدِ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ، وَهِيَ: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ تَعْنِي وُجُوبَ حِمَايَةِ أَصْحَابِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ مِنَ الْوُقُوعِ فِي خَسَارَةِ الْقَرَارَاتِ الْمَصِيرِيَّةِ مِنْ خِلَالِ مَعْرِفَةِ صِفَاتِ الضَّالِّينَ، فَمَا الْبَصِيرَةُ الثَّالِثَةُ؟

الْجَوَابُ: هُنَا يَأْتِي:

---

(١) الأبيات لإبراهيم اليازجي، ما عدا البيتين الأخيرين فهما لشاعر البصائر د. سعيد بن دحباج. ينظر: ديوان إبراهيم اليازجي (ص: ١٨).



الْبَصِيرَةُ الثَّالِثَةُ

تَغَايُرُ النَّفْيِ فِي ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ يُبَيِّنُ اخْتِلَافًا وَاتِّفَاقًا بَيْنَ الْفِئَتَيْنِ، مِمَّا يَكْشِفُ لَنَا طَبِيعَةَ التَّحَالُفَاتِ ضِدَّ أَهْلِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ

أَلَمْ يَأْتِكَ نَبَأُ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ؛ إِذْ يُظْهِرُ لَكَ الْمَعَانِيَ الْمُتَعَدِّدَةَ مِنْ خِلَالِ حَرْفٍ وَاحِدٍ أَوْ حَرْفَيْنِ؟ تَأَمَّلْ هَذِهِ الْبَصِيرَةَ الَّتِي نَفْهَمُهَا مِنَ الدِّقَّةِ الْعَجِيبَةِ لِلتَّعْبِيرِ الْقُرْآنِيِّ فِي أَدَاتَيِ النَّفْيِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، إِذْ نَلْحَظُ أَنَّ اللهَ تَعَالَى نَفَى طَرِيقَ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ بِأَدَاةِ النَّفْيِ ﴿غَيۡرِ﴾ فِي قَوْلِهِ ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾، وَنَفَى طَرِيقَ الضَّالِّينَ بِأَدَاةٍ أُخْرَى

هِيَ (لَا) فَقَالَ: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، فَلَمْ يَقُلْ: (غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَغَيْرِ الضَّالِّينَ -أَوْ- غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَالضَّالِّينَ).

وَهَذَا التَّغَايُرُ فِي اسْتِخْدَامِ أَدَاةِ النَّفْيِ أَمْرٌ مُدْهِشٌ يَفْتَحُ آفَاقًا فِي اسْتِنْبَاطِ الْفَرْقِ بَيْنَ التَّعْبِيرَيْنِ، فَمِمَّا يُسْتَنْبَطُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ (لَا) تُحَقِّقُ الْوَظِيفَتَيْنِ الْآتِيَتَيْنِ:

الْوَظِيفَةُ الْأُولَى: بَيَانُ عَظَمَةِ الصِّرَاطِ الَّذِي يَسِيرُ عَلَيْهِ الْمُنْعَمُ عَلَيْهِمْ، وَتَمَيُّزُهُ عَنْ سَبِيلَيْ أَهْلِ الْغَضَبِ وَأَهْلِ الضَّلَالَةِ؛ وَلِذَا أَكَّدَ النَّفْيَ بِكَلِمَةِ (لَا):

وَقَدْ تَقُولُ: كَيْفَ ذَلِكَ؟

الْجَوَابُ: يُبَيِّنُ ذَلِكَ قَوْلُ بَعْضِهِمْ: (لَا) زَائِدَةٌ، وَلَيْسَتْ زَائِدَةً بِمَعْنَى أَنَّهُ لَا وَظِيفَةَ لَهَا، بَلْ لَهَا وَظِيفَةٌ رَائِعَةٌ، هِيَ: بَيَانُ إِرَادَةِ شِدَّةِ التَّوْكِيدِ بِإِضَافَتِهَا، فَكَأَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَقُولَ: غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَالضَّالِّينَ، وَلَكِنْ لِغَرَضِ شِدَّةِ التَّوْكِيدِ أَضَافَ (لَا) قَبْلَ الضَّالِّينَ، وَبِذَلِكَ أَيْضًا يَتِمُّ الْمُحَافَظَةُ عَلَى لُغَةٍ عَرَبِيَّةٍ صَحِيحَةٍ، حَيْثُ يُدْخِلُهَا بَعْضُ عَرَبِ الْيَمَنِ عَلَى الْإِثْبَاتِ، لَا لِنَفْيِهِ، بَلْ لِقَصْدِ تَوْكِيدِهِ تَوْكِيدًا مُشْعِرًا بِقُوَّةِ الْمَعْنَى، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: ١٢] يُرِيدُ: أَنْ تَسْجُدَ.

وَيَلْحَيْنَنِي فِي اللَّهْوِ أَنْ لَا أُحِبَّهُ ... وَلِلَّهْوِ دَاعٍ دَائِبٌ غَيْرُ غَافِلِ[1]

يُرِيدُ: وَيَلْحَيْنَنِي فِي اللَّهْوِ أَنْ أُحِبَّهُ.

---

(١) ديوان الأحوص (ص: ١٧٢)، ويلحينني: يَلُمْنَنِي.

الْوَظِيفَةُ الثَّانِيَةُ: لِيُبَيِّنَ الِاخْتِلَافَ وَالِاتِّفَاقَ بَيْنَ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَالضَّالِّينَ:

فَأَمَّا الِاخْتِلَافُ بَيْنَ الْجِهَتَيْنِ فَيَدُلُّ عَلَيْهِ الْإِتْيَانُ بِأَدَاةِ نَفْيٍ مُخْتَلِفَةٍ لِكُلٍّ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ؛ وَهَذَا مِنْ جَوَاهِرِ اللُّغَةِ الْقُرْآنِيَّةِ؛ إِذْ يَسِيرُ الْمَغْضُوبُ عَلَيْهِمْ فِي طَرِيقِهِمْ عَارِفِينَ بِالْإِجْرَامِ الرَّهِيبِ الَّذِي يُسَبِّبُونَهُ لِلْعَالَمِ كَحَالِ إِمَامِهِمْ إِبْلِيسَ، أَمَّا الضَّالُّونَ فَمَا أَكْثَرَ مَنْ يَحْسَبُ مِنْهُمْ أَنَّهُ يُحْسِنُ بِإِجْرَامِهِ صُنْعًا، وَمَا أَكْثَرَ مَا يَعْرِضُونَ عَنِ الْحَقِّ أَمَامَهُمْ ظَانِّينَ أَنَّهُمْ عَلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، فَلَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ.

وَأَمَّا الِاتِّفَاقُ فَلِأَنَّهُ لَوْ كَانَ التَّعْبِيرُ (غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَغَيْرِ الضَّالِّينَ) لَتَوَهَّمَ السَّامِعُ أَنَّ الْمَغْضُوبَ عَلَيْهِمْ وَالضَّالِّينَ أُمَّتَانِ لَا تَلْتَقِيَانِ، وَالْأَمْرُ لَيْسَ كَذَلِكَ، بَلْ هُمَا تَلْتَقِيَانِ فِي أُمُورٍ مُشْتَرَكَةٍ كَثِيرَةٍ، بَلْ يَشْتَرِكَانِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الصِّفَاتِ وَالْمَوَاقِفِ، وَلَكِنْ بِقَدْرٍ يَتَّفِقُ مَعَ مَصَالِحِ كُلٍّ مِنْهُمَا، فَالْمَغْضُوبُ عَلَيْهِمْ ضَالُّونَ، وَالضَّالُّونَ مَغْضُوبٌ عَلَيْهِمْ مَعَ غَلَبَةِ أَحَدِ الْوَصْفَيْنِ أَحْيَانًا، وَهُمَا يَلْتَقِيَانِ عِنْدَ الْعَمَلِ الْجَمَاعِيِّ الْمُشْتَرَكِ بَيْنَهُمَا فِي مُحَاوَلَةِ زَحْزَحَةِ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِمْ مِنْ دَائِرَةِ الْإِنْعَامِ إِلَى دَائِرَةِ الْغَضَبِ وَالضَّلَالَةِ.

وَيَتَجَلَّى التَّشَارُكُ وَالتَّعَاضُدُ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ فِي الْعَقِيدَةِ الِاسْتِرْجَاعِيَّةِ الَّتِي يَدِينُ بِهَا جَمَاعَاتٌ كَثِيرَةٌ مِنَ الْمَسِيحِيِّينَ، وَالْعَقِيدَةُ الِاسْتِرْجَاعِيَّةُ: هِيَ الْفِكْرَةُ الدِّينِيَّةُ الَّتِي تَذْهَبُ إِلَى أَنَّهُ كَيْمَا يَتَحَقَّقَ الْعَصْرُ الْأَلْفِيُّ، وَكَيْمَا تَبْدَأَ الْأَلْفُ السَّعِيدَةُ الَّتِي يَحْكُمُ فِيهَا الْمَسِيحُ (الْمَلِكُ الْأَلْفِيُّ)، لَا بُدَّ أَنْ يَتِمَّ اسْتِرْجَاعُ الْيَهُودِ إِلَى فِلَسْطِينَ تَمْهِيدًا لِمَجِيءِ الْمَسِيحِ.

وَمِنْ رَكَائِزِ هَذِهِ الْعَقِيدَةِ أَنَّ حَيَاةَ الْمَسِيحِ الْأُولَى قَدِ انْتَهَتْ بِإِنْكَارِ الْيَهُودِ لَهُ وَصَلْبِهِ، أَمَّا حَيَاتُهُ الثَّانِيَةُ فَسَتَنْتَهِي بِإِعْلَانِ انْتِصَارِهِ، وَبِالتَّدَخُّلِ فِي آخِرِ لَحْظَةٍ لِإِنْقَاذِ الْبَقِيَّةِ الْبَاقِيَةِ مِنَ الْيَهُودِ (وَإِعَادَتِهِمْ إِلَى أَرْضِهِمْ)، فَيَخِرُّ الْيَهُودُ أَمَامَ الْمَسِيحِ وَيَعْتَرِفُونَ بِأُلُوهِيَّتِهِ، وَيُقَابِلُونَهُ بِاعْتِبَارِهِ الْمَاشِيَّحَ الْمُنْتَظَرَ، وَيَتَحَوَّلُونَ إِلَى دُعَاةِ تَبْشِيرٍ بِالْمَسِيحِيَّةِ يَنْشُرُونَ الْإِنْجِيلَ فِي الْعَالَمِ، أَيْ إِنَّ

الْمَسِيحَ سَيَنْجَحُ فِي إِقْنَاعِ الْيَهُودِ بِمَا فَشِلَ فِي إِقْنَاعِهِمْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ. وَحِينَمَا يَحْدُثُ ذَلِكَ، تَكُونُ الدَّائِرَةُ الْحُلُولِيَّةُ قَدِ اكْتَمَلَتْ وَتَمَّتْ هِدَايَةُ الْعَالَمِ بِأَسْرِهِ(١).

مَآسِي الْعَالَمِ الْمُعَاصِرِ سَبَبُهَا الْخُرَافَاتُ الَّتِي تَحْكُمُ عُقُولَ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَالضَّالِّينَ:

أَنْزَلَ اللهُ ﷻ الْكُتُبَ، وَفِي مُقَدِّمَتِهَا الْقُرْآنُ وَالتَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ، لِيُنَظِّمَ حَيَاةَ النَّاسِ، وَيُزَكِّيَ عُقُولَهُمْ وَقُلُوبَهُمْ وَحَيَاتَهُمْ، وَتَحْرِيفُ كَلَامِهِ يُؤَدِّي إِلَى تَكْوِينِ نَفْسِيَّاتٍ مَرِيضَةٍ تَبْغِي الْحَيَاةَ عِوَجًا، ثُمَّ يُصْبِحُ بَعْضُهَا قِيَادَاتٍ لِلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلِلضَّالِّينَ، فَيَتَلَاعَبُونَ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ ﷻ فِي الْقُرْآنِ وَالتَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَسَائِرِ الْكُتُبِ، وَيَصْنَعُونَ خُرَافَاتٍ يُفْسِدُونَ بِهَا الْأَرْضَ وَالْإِنْسَانَ، وَخُذْ مِثَالَ ذَلِكَ فِي قِصَّةٍ وَرَدَتْ فِي سِفْرِ التَّكْوِينِ تُوهِمُ أَنَّ الْحَسَدَ الْبَاطِلَ مَشْرُوعٌ، وَأَلَّا بَأْسَ بِالِاحْتِيَالِ وَالْخِدَاعِ وَالْكَذِبِ لِلْحُصُولِ عَلَى الْبَرَكَاتِ الْإِلَهِيَّةِ:

«٢٧: ١ وَحَدَثَ لَمَّا شَاخَ إِسْحَاقُ، وَكَلَّتْ عَيْنَاهُ عَنِ النَّظَرِ أَنَّهُ دَعَا عِيسُوَ ابْنَهُ الْأَكْبَرَ وَقَالَ لَهُ: يَا ابْنِي فَقَالَ لَهُ: هأَنَذَا.

٢٧: ٢ فَقَالَ: إِنَّنِي قَدْ شِخْتُ وَلَسْتُ أَعْرِفُ يَوْمَ وَفَاتِي.

٢٧: ٣ فَالْآنَ خُذْ عُدَّتَكَ جَعْبَتَكَ وَقَوْسَكَ وَاخْرُجْ إِلَى الْبَرِّيَّةِ وَتَصَيَّدْ لِي صَيْدًا.

٢٧: ٤ وَاصْنَعْ لِي أَطْعِمَةً كَمَا أُحِبُّ، وَأْتِنِي بِهَا لِآكُلَ حَتَّى تُبَارِكَكَ نَفْسِي قَبْلَ أَنْ أَمُوتَ.

---

(١) موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية (١٦/ ٣٧٨) بتصرف. يقول عبد الوهاب المسيري: "العقيدة الاسترجاعية عقيدة تُحول اليهود تمامًا، أي تُحوِّلهم إلى وسيلة أو أداة نافعة وأساسية لخلاص المسيحيين ولكنها لا قيمة لها في حد ذاتها، فهم يستمدون قيمتهم من مقدار أدائهم لوظيفتهم ومقدار تعجيلهم بعملية الخلاص المسيحية.

فبنية الصيغة الاسترجاعية (شعب عضوي منبوذ يمكن توظيفه) هي نفسها الصيغة الصهيونية الأساسية، وعلى هذا فإن الفكر الصهيوني في شكله الديني والعلماني فكر استرجاعي".

٢٧: ٥ وَكَانَتْ رِفْقَةُ سَامِعَةً إِذْ تَكَلَّمَ إِسْحَاقُ مَعَ عِيسُوَ ابْنِهِ، فَذَهَبَ عِيسُو إِلَى الْبَرِّيَّةِ كَيْ يَصْطَادَ صَيْدًا لِيَأْتِيَ بِهِ.

٢٧: ٦ وَأَمَّا رِفْقَةُ فَكَلَّمَتْ يَعْقُوبَ ابْنَهَا قَائِلَةً: إِنِّي قَدْ سَمِعْتُ أَبَاكَ يُكَلِّمُ عِيسُوَ أَخَاكَ قَائِلًا.

٢٧: ٧ ائْتِنِي بِصَيْدٍ وَاصْنَعْ لِي أَطْعِمَةً لِآكُلَ، وَأُبَارِكَكَ أَمَامَ الرَّبِّ قَبْلَ وَفَاتِي.

٢٧: ٨ فَالْآنَ يَا ابْنِي اسْمَعْ لِقَوْلِي فِي مَا أَنَا آمُرُكَ بِهِ.

٢٧: ٩ اذْهَبْ إِلَى الْغَنَمِ وَخُذْ لِي مِنْ هُنَاكَ جَدْيَيْنِ جَيِّدَيْنِ مِنَ الْمِعْزَى فَأَصْنَعُهُمَا أَطْعِمَةً لِأَبِيكَ كَمَا يُحِبُّ.

٢٧: ١٠ فَتُحْضِرُهَا إِلَى أَبِيكَ لِيَأْكُلَ حَتَّى يُبَارِكَكَ قَبْلَ وَفَاتِهِ.

٢٧: ١١ فَقَالَ يَعْقُوبُ لِرِفْقَةَ أُمِّهِ: هُوَذَا عِيسُو أَخِي رَجُلٌ أَشْعَرُ، وَأَنَا رَجُلٌ أَمْلَسُ.

٢٧: ١٢ رُبَّمَا يَجُسُّنِي أَبِي فَأَكُونُ فِي عَيْنَيْهِ كَمُتَهَاوِنٍ، وَأَجْلِبُ عَلَى نَفْسِي لَعْنَةً لَا بَرَكَةً.

٢٧: ١٣ فَقَالَتْ لَهُ أُمُّهُ: لَعْنَتُكَ عَلَيَّ يَا ابْنِي. اسْمَعْ لِقَوْلِي فَقَطْ وَاذْهَبْ خُذْ لِي.

٢٧: ١٤ فَذَهَبَ وَأَخَذَ، وَأَحْضَرَ لِأُمِّهِ، فَصَنَعَتْ أُمُّهُ أَطْعِمَةً كَمَا كَانَ أَبُوهُ يُحِبُّ.

٢٧: ١٥ وَأَخَذَتْ رِفْقَةُ ثِيَابَ عِيسُوَ ابْنِهَا الْأَكْبَرِ الْفَاخِرَةَ الَّتِي كَانَتْ عِنْدَهَا فِي الْبَيْتِ، وَأَلْبَسَتْ يَعْقُوبَ ابْنَهَا الْأَصْغَرَ.

٢٧: ١٦ وَأَلْبَسَتْ يَدَيْهِ وَمَلَاسَةَ عُنُقِهِ جُلُودَ جَدْيَيِ الْمِعْزَى.

٢٧: ١٧ وَأَعْطَتِ الْأَطْعِمَةَ وَالْخُبْزَ الَّتِي صَنَعَتْ فِي يَدِ يَعْقُوبَ ابْنِهَا.

٢٧: ١٨ فَدَخَلَ إِلَى أَبِيهِ وَقَالَ: يَا أَبِي. فَقَالَ: هأَنَذَا. مَنْ أَنْتَ يَا ابْنِي؟

٢٧: ١٩ فَقَالَ يَعْقُوبُ لِأَبِيهِ: أَنَا عِيسُو بِكْرُكَ، قَدْ فَعَلْتُ كَمَا كَلَّمْتَنِي، قُمِ اجْلِسْ وَكُلْ مِنْ صَيْدِي لِكَيْ تُبَارِكَنِي نَفْسُكَ.

٢٧: ٢٠ فَقَالَ إِسْحَاقُ لِابْنِهِ: مَا هَذَا الَّذِي أَسْرَعْتَ لِتَجِدَ يَا ابْنِي. فَقَالَ: إِنَّ الرَّبَّ إِلَهَكَ قَدْ يَسَّرَ لِي.

٢٧: ٢١ فَقَالَ إِسْحَاقُ لِيَعْقُوبَ: تَقَدَّمْ لِأَجُسَّكَ يَا ابْنِي، أَأَنْتَ هُوَ ابْنِي عِيسُو أَمْ لَا؟

٢٧: ٢٢ فَتَقَدَّمَ يَعْقُوبُ إِلَى إِسْحَاقَ أَبِيهِ فَجَسَّهُ، وَقَالَ: الصَّوْتُ صَوْتُ يَعْقُوبَ، وَلَكِنَّ الْيَدَيْنِ يَدَا عِيسُوَ.

٢٧: ٢٣ وَلَمْ يَعْرِفْهُ لِأَنَّ يَدَيْهِ كَانَتَا مُشْعِرَتَيْنِ كَيَدَيْ عِيسُوَ أَخِيهِ فَبَارَكَهُ.

٢٧: ٢٤ وَقَالَ: هَلْ أَنْتَ هُوَ ابْنِي عِيسُو فَقَالَ: أَنَا هُوَ.

٢٧: ٢٥ فَقَالَ: قَدِّمْ لِي لِآكُلَ مِنْ صَيْدِ ابْنِي حَتَّى تُبَارِكَكَ نَفْسِي، فَقَدَّمَ لَهُ فَأَكَلَ، وَأَحْضَرَ لَهُ خَمْرًا فَشَرِبَ.

٢٧: ٢٦ فَقَالَ لَهُ إِسْحَاقُ أَبُوهُ: تَقَدَّمْ وَقَبِّلْنِي يَا ابْنِي.

٢٧: ٢٧ فَتَقَدَّمَ وَقَبَّلَهُ، فَشَمَّ رَائِحَةَ ثِيَابِهِ، وَبَارَكَهُ، وَقَالَ: انْظُرْ رَائِحَةُ ابْنِي كَرَائِحَةِ حَقْلٍ قَدْ بَارَكَهُ الرَّبُّ.

٢٧: ٢٨ فَلْيُعْطِكَ اللهُ مِنْ نَدَى السَّمَاءِ، وَمِنْ دَسَمِ الْأَرْضِ، وَكَثْرَةَ حِنْطَةٍ وَخَمْرٍ.

٢٧: ٢٩ لِيَسْتَعْبِدْ لَكَ شُعُوبٌ، وَتَسْجُدْ لَكَ قَبَائِلُ. كُنْ سَيِّدًا لِإِخْوَتِكَ، وَلْيَسْجُدْ لَكَ بَنُو أُمِّكَ، لِيَكُنْ لَاعِنُوكَ مَلْعُونِينَ، وَمُبَارِكُوكَ مُبَارَكِينَ.

٢٧: ٣٠ وَحَدَثَ عِنْدَمَا فَرَغَ إِسْحَاقُ مِنْ بَرَكَةِ يَعْقُوبَ، وَيَعْقُوبُ قَدْ خَرَجَ مِنْ لَدُنْ إِسْحَاقَ أَبِيهِ، أَنَّ عِيسُوَ أَخَاهُ أَتَى مِنْ صَيْدِهِ.

٢٧: ٣١ فَصَنَعَ هُوَ أَيْضًا أَطْعِمَةً، وَدَخَلَ بِهَا إِلَى أَبِيهِ وَقَالَ لِأَبِيهِ: لِيَقُمْ أَبِي وَيَأْكُلْ مِنْ صَيْدِ ابْنِهِ حَتَّى تُبَارِكَنِي نَفْسُكَ.

٢٧: ٣٢ فَقَالَ لَهُ إِسْحَاقُ أَبُوهُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَقَالَ: أَنَا ابْنُكَ بِكْرُكَ عِيسُو.

٢٧: ٣٣ فَارْتَعَدَ إِسْحَاقُ ارْتِعَادًا عَظِيمًا جِدًّا وَقَالَ: فَمَنْ هُوَ الَّذِي اصْطَادَ صَيْدًا وَأَتَى بِهِ إِلَيَّ فَأَكَلْتُ مِنَ الْكُلِّ قَبْلَ أَنْ تَجِيءَ، وَبَارَكْتُهُ، نَعَمْ وَيَكُونُ مُبَارَكًا.

٢٧: ٣٤ فَعِنْدَمَا سَمِعَ عِيسُو كَلَامَ أَبِيهِ صَرَخَ صَرْخَةً عَظِيمَةً وَمُرَّةً جِدًّا وَقَالَ لِأَبِيهِ: بَارِكْنِي أَنَا أَيْضًا يَا أَبِي.

٢٧: ٣٥ فَقَالَ: قَدْ جَاءَ أَخُوكَ بِمَكْرٍ، وَأَخَذَ بَرَكَتَكَ...»

الْقِصَّةُ أَطْوَلُ مِنْ ذَلِكَ، وَالِاخْتِلَاقُ وَاضِحٌ فِيهَا..

إِنَّ هَذَا السَّرْدَ، بِأُسْلُوبِهِ الْقَصَصِيِّ الْمَكْذُوبِ، يَغْرِسُ فِي ذِهْنِ الْقَارِئِ صُورَةً لِلْأَنْبِيَاءِ ﷺ لَا تَخْتَلِفُ كَثِيرًا عَنْ فُسَّاقِ الْبَشَرِ بِخَطَايَاهُمْ وَنَزَوَاتِهِمْ وَمَكَائِدِهِمْ، بَلْ رُبَّمَا أَسْوَأَ.

وَهُوَ مَا يَتَنَافَى كُلِّيًّا مَعَ مَفْهُومِ الْعِصْمَةِ وَالنَّقَاءِ الَّذِي يَلِيقُ بِأَنْبِيَاءِ اللهِ وَرُسُلِهِ ﷺ، الَّذِينَ أُرْسِلُوا لِهِدَايَةِ الْبَشَرِيَّةِ وَتَقْدِيمِ الْقُدْوَةِ الْحَسَنَةِ. فَبَدَلًا مِنْ أَنْ تَكُونَ الْبَرَكَةُ عَطَاءً إِلَهِيًّا سَامِيًا، تَتَحَوَّلُ هُنَا إِلَى غَنِيمَةٍ تُنْتَزَعُ بِالْحِيلَةِ وَالْمَكْرِ، وَتُصْبِحُ الْعَلَاقَةُ الْأُسَرِيَّةُ فِي بُيُوتِ النُّبُوَّةِ مَسْرَحًا لِلتَّنَافُسِ غَيْرِ الشَّرِيفِ وَالْخِدَاعِ.

إِنَّ نِسْبَةَ صِفَاتٍ كَالْحَسَدِ وَالْخِدَاعِ لِأَنْبِيَاءِ اللهِ، وَلَوْ ضِمْنِيًّا، يُجَرِّدُهُمْ مِنْ أَبْسَطِ أُسُسِ النُّبُوَّةِ، وَهُوَ أَمْرٌ تَرْفُضُهُ الْعُقُولُ السَّلِيمَةُ وَالشَّرَائِعُ لَدَى مَنْ يُوَقِّرُونَ الْأَنْبِيَاءَ. فَهَذَا التَّصَوُّرُ مَا هُوَ إِلَّا إِسْقَاطٌ لِصِرَاعَاتٍ بَشَرِيَّةٍ دُنْيَوِيَّةٍ عَلَى شَخْصِيَّاتٍ يُفْتَرَضُ فِيهَا السُّمُوُّ الرُّوحِيُّ وَالْأَخْلَاقِيُّ، وَهُوَ افْتِرَاءٌ مَحْضٌ."

قَارِنْ هَذَا الْكَلَامَ الْغَرِيبَ عَلَى مَقَامِ النُّبُوَّةِ مَعَ قَوْلِهِ -تَعَالَى عِزُّهُ-: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ [ص: ٤٥-٤٧]، إِلَّا أَنَّ النَّصَّ التَّوْرَاتِيَّ الْمُفْبَرَكَ يُوَضِّحُ -بِجَلَاءٍ- النَّفْسِيَّاتِ الْمُعَاصِرَةَ لِمُتَطَرِّفِي الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى عِنْدَمَا يَجْمَعُونَ بَيْنَ مَا يُظْهِرُونَهُ تَدَيُّنًا، وَبَيْنَ شَتَّى

صُنُوفِ الْإِجْرَامِ وَالطُّغْيَانِ، وَتُوَضِّحُ لِمَاذَا اسْتَنْزَلُوا الْغَضَبَ الْإِلَهِيَّ، كَمَا تُبَيِّنُ أَسْبَابَ مَا آلَ إِلَيْهِ الْعَالَمُ مِنْ مَآسٍ فِي ظِلِّ الْهَيْمَنَةِ الْقِيَادِيَّةِ لَهُمْ.

❊❊❊

جِسْرُ اتِّصَالٍ: عَرَفْنَا الْبَصِيرَةَ الثَّالِثَةَ مِنْ بَصَائِرِ الْمَقْصِدِ التَّاسِعِ مِنْ مَقَاصِدِ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ، وَهِيَ: تَغَايُرُ النَّفْيِ فِي ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ يُبَيِّنُ اخْتِلَافًا وَاتِّفَاقًا بَيْنَ الْفِئَتَيْنِ، مِمَّا يَكْشِفُ لَنَا طَبِيعَةَ التَّحَالُفَاتِ ضِدَّ أَهْلِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، فَمَا الْبَصِيرَةُ الرَّابِعَةُ؟

الْجَوَابُ:

الْبَصِيرَةُ الرَّابِعَةُ

﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ لَيْسَتْ تَزْكِيَةً لِلْمُسْلِمِينَ بَلْ هُوَ تَحْذِيرٌ لَهُمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ قَبْلَ غَيْرِهِمْ، فَيَجِبُ أَنْ يَجْتَنِبُوا مَوَاقِعَ الْغَضَبِ وَالضَّلَالَةِ، فَالْأَوْصَافُ تَتَحَقَّقُ بِالْأَعْمَالِ وَالِاكْتِسَابِ لَا بِالِادِّعَاءِ وَالِانْتِسَابِ

فَهَذَا الْمَقْصِدُ يَحْمِي حُدُودَ الصِّرَاطِ الْمُستَقِيمِ عَنِ الْيَمِينِ وَالشِّمَالِ مِنَ الِاخْتِرَاقِ الْخَارِجِيِّ، وَالدَّاخِلِيِّ مَعًا. إِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ تَعْنِي أَنَّكَ عَرَفْتَ مِنْ قَبْلُ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ فَدَخَلْتَهُ، وَالْآنَ احْتَرِسْ! هُنَاكَ مَنْ سَيُحَاوِلُ تَضْلِيلَكَ وَإِبْعَادَكَ عَنْهُ؛ لِتَقَعَ فِي الْغَضَبِ الْإِلَهِيِّ، أَوْ فِي الضَّلَالَةِ الْمُهْلِكَةِ، وَلَا تَحْسَبَنَّ الِاخْتِرَاقَ الْخَارِجِيَّ وَالدَّاخِلِيَّ لِصِرَاطِكَ الْمُسْتَقِيمِ الَّذِي تَسِيرُ عَلَيْهِ قَاصِرًا عَلَى أَعْدَائِكَ الَّذِينَ يُحِيطُونَ بِكَ أَوْ بِأُمَّتِكَ، بَلْ قَدْ يَكُونُ الِاخْتِرَاقُ الْخَارِجِيُّ وَالدَّاخِلِيُّ حَاصِلًا بِسَبَبِكَ أَنْتَ دُونَ سِوَاكَ، وَقَدْ يَكُونُ أَقْرَبَ إِلَيْكَ مِمَّا تَظُنُّ؛ لِذَا جَاءَ التَّحْذِيرُ مِنَ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَالضَّالِّينَ بِصِفَاتِهِمْ لَا بِأَجْنَاسِهِمْ، فَقَدْ تَرْتَكِبُ أَنْتَ مَا يُوجِبُ الْغَضَبَ، وَقَدْ تَقْتَرِفُ مَا يُسَبِّبُ الضَّلَالَةَ.

وَسَتَرَى فِي هَذَا الْمَقْصِدِ أَنَّ هَذِهِ الْجُمْلَةَ الْمُبَارَكَةَ ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ تَعْصِمُكَ مِنْ شُرُورِ نَفْسِكَ، وَشُرُورِ مَنْ حَوَالَيْكَ، وَتَحْمِيكَ كَمَا تَحْمِي أُمَّةَ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ مِنْ أَهْلِ الْغَضَبِ وَالضَّلَالِ الَّذِينَ يَوَدُّونَ لَوْ تَسْلُكُ سُبُلَهُمْ وَمَنْهَجَهُمْ.

هَلِ الْمُرَادُ بِـ ﴿ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ و﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى؟

الْجَوَابُ: عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ ﷺ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «الْمَغْضُوبُ عَلَيْهِمْ: الْيَهُودُ وَالضَّالُّونَ: النَّصَارَى»(١)، وَفِي رِوَايَةٍ «فَإِنَّ الْيَهُودَ مَغْضُوبٌ عَلَيْهِمْ، وَإِنَّ النَّصَارَى ضُلَّالٌ»(٢)، وَهَذَا التَّفْسِيرُ النَّبَوِيُّ مِنْ قَبِيلِ التَّمْثِيلِ؛ إِذِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ فِي دَلَالَةِ الْآيَةِ.

فَاقْتَصَرَ جَمَاعَةٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ ﷺ عَلَى التَّمْثِيلِ النَّبَوِيِّ بِمَنْ يَدْخُلُ فِي مَعْنَى الْآيَةِ دُخُولًا أَوَّلِيًّا، وَهَذَا يَجْعَلُ بَعْضًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ الْعَاصِينَ عِنْدَمَا يَقْرَؤُونَهَا كَالْمُزَكِّينَ لِأَفْعَالِهِمْ غَيْرَ عَابِئِينَ بِذُنُوبِهِمْ، فَرُبَّمَا تَرَى بَعْضَ الْمُسْلِمِينَ وَقَعُوا فِي الرِّبَا، وَاقْتَرَفُوا الْفَوَاحِشَ، وَظَلَمُوا حُقُوقَ الْعِبَادِ ثُمَّ هُمْ يَقْرَؤُونَ هَذِهِ الْآيَةَ كَأَنَّهُمْ لَا يَسْمَعُونَ؛ لِأَنَّهُمْ يَظُنُّونَ أَنْفُسَهُمْ لَمْ يَدْخُلُوا فِيهَا، أَهَكَذَا يَكُونُ السَّيْرُ عَلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ؟ كَلَّا، ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٢٣].

فَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْفِرَقِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهَا الَّتِي تَذْكُرُهَا الْفَاتِحَةُ فِي مَعْرِضِ الْإِنْذَارِ وَالتَّحْذِيرِ؟ إِنَّهُمْ أَصْلٌ لِلْفِرَقِ الَّتِي تَعَمَّدَتِ الْإِجْرَامَ، وَاسْتَمْرَأَتِ الْعِصْيَانَ عَنْ عَمْدٍ، أَوْ عَنْ تَأْوِيلٍ بَعِيدٍ جِدًّا، وَأَمَّا الضَّالُّونَ فَجِنْسٌ لِلْفِرَقِ الَّتِي أَخْطَأَتِ الدِّينَ عَنْ سُوءِ فَهْمٍ، وَقِلَّةِ إِصْغَاءٍ(٣).

إِنَّ اللهَ -جَلَّ فِي عُلَاهُ- لَوْ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ مَعْنَى (الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَالضَّالِّينَ) مَحْصُورًا فِي الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى لَكَانَ الْأَكْثَرُ بَيَانًا أَنْ يَقُولَ: غَيْرَ الْيَهُودِ وَلَا النَّصَارَى، لَكِنَّهُ سُبْحَانَهُ أَرَادَ

---

(١) الترمذي٥/ ٢٠٤، وقال: "حسن غريب".

(٢) الترمذي٥/ ٢٠٤، وقال: "حسن غريب".

(٣) التحرير والتنوير (١/ ١٩٦).

أَلَّا يُزَكِّيَ الْمُسْلِمُونَ أَنْفُسَهُمْ، وَأَلَّا يَظُنُّوا أَنَّ الِانْتِسَابَ إِلَى الْإِسْلَامِ كَافٍ عَنْ أَعْمَالِهِمُ الَّتِي تُوجِبُ الْغَضَبَ، أَوْ تُسَبِّبُ الضَّلَالَ.

وَقَدْ ذَكَرَ اللهُ ﷻ الْمُجْرِمِينَ لَا بِالْجِنْسِ بَلْ بِالْوَصْفِ فَقَالَ: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾؛ لِيُحَذِّرَ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَسْتَنْزِلُوا الْغَضَبَ الْإِلَهِيَّ بِفِعْلِ مَا يُوجِبُهُ، أَوْ أَنْ يَقَعُوا فِي الضَّلَالَةِ بِفِعْلِ مَا يَقْتَضِيهَا.

وَهُنَا قَدْ تَتَسَاءَلُ: لِمَاذَا لَمْ يَذْكُرِ الْكَافِرِينَ؟

وَالْجَوَابُ: لِأَنَّهُ لَوْ قَالَ: غَيْرَ الْكَافِرِينَ. لَقَالَ الْمُسْلِمُونَ: إِذًا نَحْنُ مُؤْمِنُونَ مُسْلِمُونَ، فَاطْمَأَنُّوا وَرَكَنُوا إِلَى خُرُوجِهِمْ مِنْ هَذَا الْوَصْفِ، فَأَتَى بِكَلِمَةِ (الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ)؛ لِيَحْذَرُوا مِنْ وُقُوعِهِمْ فِي مُقْتَضَى الْغَضَبِ؛ لِأَنَّ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مَنْ يَفْعَلُ بَعْضَ مَا يُغْضِبُ اللهَ، وَأَتَى بِكَلِمَةِ (الضَّالِّينَ)، لِيَحْذَرُوا أَيْضًا مَهَاوِيَ الضَّلَالِ؛ لِأَنَّ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مَنْ يَفْعَلُ مَا يُوجِبُ الضَّلَالَ، فَأَتَى بِهَذَيْنِ الْوَصْفَيْنِ؛ حَتَّى لَا يُبَرِّئَ الْمُسْلِمُونَ أَنْفُسَهُمْ مِنْ إِمْكَانِيَّةِ الْوُقُوعِ فِي الْغَضَبِ وَالضَّلَالَةِ.

وَالْآنَ، فَلْنَسْتَعْرِضْ أَبْرَزَ شَاهِدَيْنِ وَاقِعِيَّيْنِ يُجَسِّدَانِ حَقِيقَةَ (الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَالضَّالِّينَ):

أَفَادَنَا التَّفْسِيرُ النَّبَوِيُّ أَنَّ أَبْرَزَ النَّمَاذِجِ الْوَاقِعِيَّةِ لِلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَالضَّالِّينَ: "الْيَهُودُ" الَّذِينَ يَتَلَاعَبُونَ بِالتَّوْرَاةِ، وَيُحَرِّفُونَهَا، وَيَصْنَعُونَ لَهُمْ دِينًا يُوَافِقُ أَهْوَاءَهُمْ وَشَهَوَاتِهِمْ.

وَ"النَّصَارَى" الَّذِينَ لَا يُحَكِّمُونَ الْإِنْجِيلَ الْمُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ اللهِ تَعَالَى حَيْثُ قَالَ عَنْهُمُ النَّبِيُّ ﷺ لِعَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ رضي الله عنه: «فَإِنَّ الْيَهُودَ مَغْضُوبٌ عَلَيْهِمْ، وَإِنَّ النَّصَارَى ضُلَّالٌ»(١).

نَعَمْ! إِنَّ الْمُصِرِّينَ عَلَى اتِّبَاعِ مَا حَرَّفَهُ الْأَحْبَارُ وَالرُّهْبَانُ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ الْكِتَابِيَّيْنِ يَدْخُلُونَ فِي الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَالضَّالِّينَ، فَالْيَهُودُ ضَالُّونَ أَيْضًا كَمَا هُمْ مَغْضُوبٌ عَلَيْهِمْ، وَالنَّصَارَى مَغْضُوبٌ عَلَيْهِمْ كَمَا هُمْ ضَالُّونَ، وَهَذَا مَا فَهِمَهُ الطَّبَرِيُّ رحمه الله بِبَصِيرَةٍ نَافِذَةٍ -كَعَادَتِهِ- حَيْثُ قَالَ: «كِلَا الْفَرِيقَيْنِ ضُلَّالٌ مَغْضُوبٌ عَلَيْهِمْ... وَلَمْ يُسَمِّ وَاحِدًا مِنَ الْفَرِيقَيْنِ إِلَّا بِمَا هُوَ لَهُ صِفَةٌ عَلَى حَقِيقَتِهِ، وَإِنْ كَانَ لَهُ مِنْ صِفَاتِ الذَّمِّ زِيَادَاتٌ عَلَيْهِ»(٢)، وَلَكِنَّ اللهَ ﷻ وَصَفَ كُلًّا مِنَ الْفَرِيقَيْنِ بِالصِّفَةِ الْأَبْرَزِ، وَإِنْ وُجِدَتِ الصِّفَةُ الْأُخْرَى فِيهِ.

مِنْ أَفْوَاهِهِمْ يُدَانُونَ...شَهَادَةُ الْمُحَرِّفِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ:

وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ إِقْرَارُ الْمُحَرِّفِينَ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى بِوُجُودِ هَاتَيْنِ الصِّفَتَيْنِ فِيهِمْ بِمَا يُمْكِنُ التَّعْبِيرُ عَنْهُ بِمَا يُسَمِّيهِ النَّصَارَى الْخَطِيئَةَ الْأَصْلِيَّةَ.

فَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّ زَيْدَ بْنَ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ خَرَجَ إِلَى الشَّامِ يَسْأَلُ عَنِ الدِّينِ وَيَتْبَعُهُ، فَلَقِيَ عَالِمًا مِنَ الْيَهُودِ فَسَأَلَهُ عَنْ دِينِهِمْ فَقَالَ: إِنِّي لَعَلِّي أَنْ أَدِينَ دِينَكُمْ؛ فَأَخْبِرْنِي. فَقَالَ: لَا تَكُونُ عَلَى دِينِنَا حَتَّى تَأْخُذَ بِنَصِيبِكَ مِنْ غَضَبِ اللهِ. قَالَ زَيْدٌ: مَا أَفِرُّ إِلَّا مِنْ غَضَبِ اللهِ، وَلَا أَحْمِلُ مِنْ غَضَبِ اللهِ شَيْئًا أَبَدًا، وَأَنَّى أَسْتَطِيعُهُ؟ فَهَلْ تَدُلُّنِي عَلَى غَيْرِهِ. قَالَ: مَا أَعْلَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ حَنِيفًا. قَالَ زَيْدٌ: وَمَا الْحَنِيفُ؟ قَالَ: دِينُ إِبْرَاهِيمَ لَمْ يَكُنْ يَهُودِيًّا، وَلَا نَصْرَانِيًّا، وَلَا يَعْبُدُ إِلَّا اللهَ. فَخَرَجَ زَيْدٌ، فَلَقِيَ عَالِمًا مِنَ النَّصَارَى، فَذَكَرَ مِثْلَهُ، فَقَالَ: لَنْ تَكُونَ عَلَى دِينِنَا حَتَّى تَأْخُذَ

---

(١) الترمذي٥/ ٢٠٤، وقال: "حسن غريب".

(٢) تفسير الطبري١/ ١٩٥.

بِنَصِيبِكَ مِنْ لَعْنَةِ اللهِ. قَالَ: مَا أَفِرُّ إِلَّا مِنْ لَعْنَةِ اللهِ، وَلَا أَحْمِلُ مِنْ لَعْنَةِ اللهِ، وَلَا مِنْ غَضَبِهِ شَيْئًا أَبَدًا. وَأَنَّى أَسْتَطِيعُ؟ فَهَلْ تَدُلُّنِي عَلَى غَيْرِهِ؟ قَالَ: مَا أَعْلَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ حَنِيفًا. قَالَ: وَمَا الْحَنِيفُ؟ قَالَ: دِينُ إِبْرَاهِيمَ لَمْ يَكُنْ يَهُودِيًّا، وَلَا نَصْرَانِيًّا، وَلَا يَعْبُدُ إِلَّا اللهَ. فَلَمَّا رَأَى زَيْدٌ قَوْلَهُمْ فِي إِبْرَاهِيمَ ﷺ خَرَجَ فَلَمَّا بَرَزَ رَفَعَ يَدَيْهِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَشْهَدُ أَنِّي عَلَى دِينِ إِبْرَاهِيمَ[1].

أَتُرِيدُ أَنْ تَتَشَبَّعَ مِنَ الْقُوَّةِ الْإِعْجَازِيَّةِ فِي الْوَصْفِ الْإِلَهِيِّ لِلْغَضَبِ عَلَى الْمُحَرِّفِينَ مِنَ الْيَهُودِ، وَالضُّلَّالِ مِنْ عُمْيَانِ النَّصَارَى؟ اسْمَعِ الْقِصَّةَ الْآتِيَةَ الْوَارِدَةَ فِي سِفْرِ التَّكْوِينِ؛ فَهِيَ سَتُبَيِّنُ لَكَ صُورَةً مِنْ أَشْنَعِ صُوَرِ سُوءِ الظَّنِّ بِاللهِ، حِينَمَا يَظُنُّ الْإِنْسَانُ بِهِ الصِّفَاتِ الْبَشَرِيَّةَ، بَلِ اسْتَمِعْ إِلَى شَيْءٍ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ الْأَبْدَانُ يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ بِنَاءُ طَرِيقَةِ تَفْكِيرٍ فَاسِدَةٍ فِي النَّظْرَةِ لِلْوُجُودِ وَالتَّعَامُلِ مَعَ النَّاسِ:

«٣٢: ٢٤ فَبَقِيَ يَعْقُوبُ وَحْدَهُ، وَصَارَعَهُ إِنْسَانٌ حَتَّى طُلُوعِ الْفَجْرِ.

٣٢: ٢٥ وَلَمَّا رَأَى أَنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ ضَرَبَ حُقَّ فَخِذِهِ، فَانْخَلَعَ حُقُّ فَخِذِ يَعْقُوبَ فِي مُصَارَعَتِهِ مَعَهُ.

٣٢: ٢٦ وَقَالَ: أَطْلِقْنِي لِأَنَّهُ قَدْ طَلَعَ الْفَجْرُ، فَقَالَ: لَا أُطْلِقُكَ إِنْ لَمْ تُبَارِكْنِي.

٣٢: ٢٧ فَقَالَ لَهُ: مَا اسْمُكَ؟ فَقَالَ: يَعْقُوبُ.

٣٢: ٢٨ فَقَالَ: لَا يُدْعَى اسْمُكَ فِي مَا بَعْدُ يَعْقُوبَ، بَلْ إِسْرَائِيلَ لِأَنَّكَ جَاهَدْتَ مَعَ اللهِ وَالنَّاسِ وَقَدَرْتَ»[2].

---

(١) البخاري (٣٨٢٧).

(٢) سفر التكوين (الإصحاح ٣٢)، الآيات ٢٤-٢٨.

هَذِهِ الْقِصَّةُ الْغَرِيبَةُ تَدُلُّ عَلَى صِرَاعِ إِسْرَائِيلَ مَعَ رَبِّ إِسْرَائِيلَ[1] الَّذِي بَعْدَ هَزِيمَتِهِ بَارَكَ إِسْرَائِيلَ! أَلَا تَرَى سُوءَ هَذِهِ الْخُرَافَةِ الْمُوهِمَةِ لِحِيَازَةِ يَعْقُوبَ ﷺ الْبَرَكَةَ لَا بِالِاخْتِيَارِ الْإِلَهِيِّ بَلْ بِالْغَلَبَةِ -وَلِمَنْ-؟ وَالْغِشِّ وَالتَّزْوِيرِ وَالِاحْتِيَالِ -وَعَلَى مَنْ-؟

هُنَا تَعْلَمُ النَّفْسِيَّةَ الْمُتَطَرِّفَةَ لِمَنْ يَبْنِي تَصَرُّفَاتِهِ الْعَالَمِيَّةَ بِنَاءً عَلَى مِثْلِ هَذِهِ الْأَسَاطِيرِ السَّيِّئَةِ؟ رُبَّمَا عَرَفْتَ بِذَلِكَ مَدَى اسْتِحْقَاقِ الْمُحَرِّفِينَ لِلْغَضَبِ، وَأَدْرَكْتَ مَدَى اسْتِحْقَاقِ وَصْفِ الضَّلَالَةِ لِمَنْ يَتْبَعُهُمْ تَبَعِيَّةً عَمْيَاءَ عَلَى إِثْبَاتِ مِثْلِ هَذِهِ الْقِصَّةِ دُونَ أَنْ يُعَقِّبَ أَوْ يُنَاقِشَ، بَلْ يُقِيمُ السِّيَاسَاتِ الْعَالَمِيَّةَ بِنَاءً عَلَى هَذِهِ الْخُرَافَاتِ. وَالْقِصَّةُ تُوَضِّحُ لَكَ تَمَامَ التَّوْضِيحِ لِمَاذَا يُظْهِرُونَ التَّدَيُّنَ وَالِاهْتِمَامَ الْهَائِلَ بِبِنَاءِ الْمَعَابِدِ مِنَ الْكَنَائِسِ وَالْكُنُسِ، وَهُمْ فِي الْوَقْتِ ذَاتِهِ الَّذِينَ يَقُومُونَ بِتَوْفِيرِ الْأَجْوَاءِ اللَّازِمَةِ وَالْغِطَاءِ الدَّوْلِيِّ الْمُنَاسِبِ لِسَفْكِ الدِّمَاءِ وَالْإِفْسَادِ فِي الْأَرْضِ.

مَا هَذَا النَّوْعُ مِنَ التَّدَيُّنِ؟ وَهَلْ هُوَ تَدَيُّنٌ حَقِيقِيٌّ أَمْ هُوَ ضَلَالٌ مَحْضٌ؟ وَلَكِنْ لَيْسَ ذَلِكَ غَرِيبًا عَلَى مَنْ تَلَاعَبَ بِالنُّصُوصِ، وَاخْتَرَعَ لَهُ دِينًا قَابِلًا لِلتَّطَوُّرِ، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۖ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٢٤، ٢٥].

(١) يَقُولُ عَبْدُ الْوَهَّابِ الْمِسِّيرِيُّ: "«إِسْرَائِيل» كَلِمَةٌ عِبْرِيَّةٌ قَدِيمَةٌ غَامِضَةُ الْمَعْنَى، يُمْكِنُ تَقْسِيمُهَا إِلَى «يِسْرَا»، أَيِ الَّذِي يَحْتَرِبُ أَوْ يُصَارِعُ، وَ«إِيل» وَهُوَ الْأَصْلُ السَّامِيُّ لِكَلِمَةِ «إِلَهٍ». وَالْكَلِمَةُ تَعْنِي حَرْفِيًّا «الَّذِي يُصَارِعُ الْإِلَهَ» أَوْ «جُنْدِيُّ الْإِلَهِ إِيل»، وَفِي كُلِّ التَّفْسِيرَاتِ مَعْنَيَانِ أَسَاسِيَّانِ هُمَا مَعْنَى الصِّرَاعِ وَالْحَرْبِ وَمَعْنَى الْقَدَاسَةِ". موسوعة اليهود واليهودية و الصهيونية (٤/ ٨٣).

فَإِنْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ قَدْ ذَكَرَ أَنَّ الْمُحَرِّفِينَ مِنَ الْيَهُودِ مَغْضُوبٌ عَلَيْهِمْ، وَأَنَّ النَّصَارَى الَّذِينَ لَا يُحَكِّمُونَ الْإِنْجِيلَ ضُلَّالٌ، فَهَلْ قَصَدَ النَّبِيُّ ﷺ هُنَا حَصْرَ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَالضَّالِّينَ فِيهِمْ؟ أَلَا يَدْخُلُ فِي ذَلِكَ بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ؟

هَاهُنَا تَأْتِي أُصُولُ التَّفْسِيرِ لِتُبَيِّنَ أَنَّ هَذَا النَّوْعَ مِنَ التَّفْسِيرِ النَّبَوِيِّ إِنَّمَا هُوَ تَفْسِيرٌ بِضَرْبِ أَبْرَزِ مِثَالٍ عَلَى الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ، وَالضُّلَّالِ،

وَالتَّفْسِيرُ بِضَرْبِ الْمِثَالِ لَا يَقْتَضِي الْحَصْرَ فِي الْمَقَالِ.

فَلَيْسَ الْمُرَادُ مِنْ هَذَا الْوَصْفِ دِينَ الْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ؛ إِذْ لَوْ كَانَ الْمُرَادُ دِينَ الْيَهُودِيَّةِ وَدِينَ النَّصْرَانِيَّةِ لَكَانَ الدُّعَاءُ تَحْصِيلًا لِلْحَاصِلِ؛ فَإِنَّ الْإِسْلَامَ جَاءَ نَاسِخًا لَهُمَا، بَلِ الْمُرَادُ مَنْ أَحَلَّ مِنْهُمْ غَضَبَ اللهِ عَلَيْهِ بِأَفْعَالِهِ الْمُجْرِمَةِ، وَاسْتَحَقَّ بِجَدَارَةٍ وَسْمَ الضَّلَالِ بِسُلُوكِيَّاتِهِ الْآثِمَةِ، وَالْحُكْمُ يَدُورُ مَعَ الْوَصْفِ حَيْثُ دَارَ، وَلِذَا يَدْخُلُ فِي الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَالضَّالِّينَ فِئَاتٌ أُخْرَى، وَمِنْهَا: إِبْلِيسُ وَذُرِّيَّتُهُ مِنَ الْغَاوِينَ، حَيْثُ قَالَ اللهُ ﷻ لِكَبِيرِهِمْ: ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الحجر: ٣٤، ٣٥]، وَاللَّعْنَةُ تَتَضَمَّنُ ضَلَالَ الْمَلْعُونِ وَالْغَضَبَ عَلَيْهِ، وَمِنْ فِئَاتِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَالضَّالِّينَ: الْمُشْرِكُونَ الْوَثَنِيُّونَ، وَفِرَقُ الْكُفْرِ وَالْفُسُوقِ وَالْعِصْيَانِ مِنْ سَائِرِ الْأَجْنَاسِ وَالْأَدْيَانِ، وَلَكِنَّنَا نُرِيدُ التَّأْكِيدَ عَلَى دُخُولِ فِئَةٍ خَطِيرَةٍ فِي الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَالضَّالِّينَ.

عِنْدَ التَّأَمُّلِ! نَجِدُ أَنَّ هَذِهِ الْفِئَةَ هِيَ قُوَى النِّفَاقِ الْمُجْرِمَةُ الْخَائِنَةُ الَّتِي تُوَالِي أَعْدَاءَ الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَتَعْمَلُ عَلَى تَدْمِيرِ قُوَّةِ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الدَّاخِلِ، وَهُمُ الْمُتَآمِرُونَ الَّذِينَ أَبَانَ اللهُ حِرْصَهُمُ الشَّدِيدَ عَلَى فِعْلِ مَا يُغْضِبُهُ، فَقَالَ عَنْهُمْ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ

وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ [محمد: ٢٨] إِنَّهُمْ مَنْ شَابَهَ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَمِنْ أَبْرَزِ مَنْ يَنْتَمِي إِلَيْهِمْ قُوَى الضَّلَالِ وَالْفِسْقِ الَّتِي تَسْتَنْزِلُ الْغَضَبَ الْإِلَهِيَّ فِي الْمُجْتَمَعَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ، أَلَا تَرَى أَنَّهُ يَنْطَبِقُ عَلَيْهِمْ بِوُضُوحٍ تَامٍّ قَوْلُ اللهِ -تَعَالَى جَدُّهُ-: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾ [النساء: ٦٠، ٦١]؟

وَرُبَّمَا -تَسَاءَلْتَ مُحِقًّا عَنْ سَبَبِ إِفْرَادِ هَذِهِ الْقُوَى بِالذِّكْرِ؟ وَذَلِكَ لِتَسْتَوْعِبَ الْعَقْلِيَّةُ الْمُسْلِمَةُ أَنَّهُمْ دَخَلُوا فِي الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَالضَّالِّينَ.

وَأَنْصِتْ مَعِي إِلَى الْمُسْتَشْرِقِ الْإِنْجِلِيزِيِّ (تُومَاس سْتِيرْنز إِلْيُوت) (Thomas Stearns Eliot) (ت ١٩٦٥) وَهُوَ يَقُولُ: «أَلَيْسَ مَا نُسَمِّيهِ ثَقَافَةَ شَعْبٍ مَا، وَدِينَ هَذَا الشَّعْبِ مَظْهَرَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ لِشَيْءٍ وَاحِدٍ؟ إِذِ الثَّقَافَةُ فِي جَوْهَرِهَا تَجْسِيدٌ لِدِينِ الشَّعْبِ»[(١)]، وَقَالَ: «وَحِينَ نُدَافِعُ عَنْ دِينِنَا فَلَا بُدَّ لَنَا فِي مُعْظَمِ الْأَمْرِ مِنْ أَنْ نَكُونَ مُدَافِعِينَ عَنْ ثَقَافَتِنَا فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ، فَإِنَّنَا نَكُونُ مُطِيعِينَ لِغَرِيزَتِنَا الْأَسَاسِيَّةِ فِي الْمُحَافَظَةِ عَلَى وُجُودِنَا»[(٢)]، وَقَالَ فِي كَلَامٍ شَدِيدِ الْخُطُورَةِ: «السَّيْرُ إِلَى الْإِيمَانِ الدِّينِيِّ عَنْ طَرِيقِ الِاجْتِذَابِ الثَّقَافِيِّ هِيَ ظَوَاهِرُ طَبِيعِيَّةٌ، كَمَا أَنَّهَا مَقْبُولَةٌ»[(٣)]، وَذَلِكَ يَعْنِي -بِوُضُوحٍ- أَنَّ قُوَى التَّغْرِيبِ هُمُ الطَّلَائِعُ الْأُولَى وَالْكَتَائِبُ

---

(١) ملاحظات نحو تعريف الثقافة لإليوت ص٤١، ترجمة شكري عياد، وهذا المـُنَظِّر المتعصب المسيحي إليوت حاز على جائزة نوبل في الأدب في ١٩٤٨م.

(٢) المرجع السابق ص١٠٩.

(٣) المرجع السابق ص١١٥.

الْخَفِيَّةُ لِلتَّنْصِيرِ الَّذِي يَعْنِي قِيَامَ جَحَافِلِ التَّغْرِيبِ بِمُهِمَّةِ إِدْخَالِ النَّاسِ فِي طَوَائِفِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَالضَّالِّينَ، وَانْظُرْ لِهَذِهِ النَّتِيجَةِ الرَّهِيبَةِ الَّتِي تُوَصِّلُنَا إِلَيْهَا سُورَةُ الْفَاتِحَةِ!

وَهُنَا يَأْتِي التَّحْذِيرُ الْعَظِيمُ لِلْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي هَاتَيْنِ الْكَلِمَتَيْنِ: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، وَهُوَ تَحْذِيرٌ مُزْدَوَجٌ:

فَهُوَ تَحْذِيرٌ مِنْ عَدُوٍّ خَارِجِيٍّ يَنْتَمِي إِلَى الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَالضَّالِّينَ مِنْ أَعْدَائِهِمُ الْمُتَرَبِّصِينَ.

وَهُوَ تَحْذِيرٌ مِنْ عَدُوٍّ دَاخِلِيٍّ؛ إِذْ قَدْ تُزَيِّنُ لَهُمْ أَنْفُسُهُمُ الْوُقُوعَ فِيمَا يُغْضِبُ اللهَ، أَوْ يُضِلُّ الْمَسِيرَ، وَقَدْ يُوجَدُ فِيهِمْ مَنْ يَدْخُلُ فِي الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَالضَّالِّينَ.

عِنْدَهَا -أَيَّدَكَ اللهُ- رُبَّمَا تَسَاءَلْتَ: هَلْ يُمْكِنُ أَنْ يَدْخُلَ بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ فِي أُمَمِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَالضَّالِّينَ؟

فَانْظُرْ لِلْأَحْدَاثِ الْحَيَاتِيَّةِ مِنْكَ وَحَوْلَكَ بِالْمِنْظَارِ الْقُرْآنِيِّ سَتَجِدُ الْمَغْضُوبَ عَلَيْهِمْ وَالضَّالِّينَ كُثُرًا، فَحَيْثُ فَعَلَ أَحَدٌ مَا يَسْتَوْجِبُ الْغَضَبَ وَالضَّلَالَ حَلَّ عَلَيْهِ، فَالْعِبْرَةُ بِالْأَفْعَالِ وَالْخِصَالِ لَا بِالنَّسَبِ وَالْحَسَبِ، فَهَذِهِ الْآيَةُ السَّابِعَةُ الْعَظِيمَةُ تُبَيِّنُ لِلْمُنْتَسِبِينَ إِلَى الْإِسْلَامِ أَنَّ الْمَطْلُوبَ مِنْهُمْ: الْبَحْثُ عَنْ كَيْفِيَّةِ الْفَوْزِ بِالْإِنْعَامِ لِيَكُونُوا مِنَ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِمْ، وَاجْتِنَابُ مَوَاطِنِ الْغَضَبِ وَالضَّلَالِ، فَلَا يَظُنَّنَّ أَحَدٌ أَنَّ الْجِنْسِيَّةَ الدِّينِيَّةَ تَمْنَحُهُ الْعِصْمَةَ عَنِ الْمُسَاءَلَةِ؛ لِأَنَّ الْأَكْرَمَ هُوَ الْأَتْقَى، وَلِذَا جَاءَ الْوَصْفُ لِلسُّعَدَاءِ وَالْأَشْقِيَاءِ فِي سُورَةِ الْفَاتِحَةِ وَفْقَ نَتِيجَةِ أَعْمَالِهِمْ.

أمثلة للمغضوب عليهم والضالين من المسلمين

01 قاتل المؤمن عمدًا مغضوبٌ عليه:

﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ﴾ [النساء: 93].

02 الكاذبة على زوجها في اللعان مغضوب عليها:

﴿وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [النور: 9].

03 الفارُّ من المواجهة الحربية مغضوبٌ عليه:

﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الأنفال: 16].

04 مُوالي الكفَّار والمعتدين ضالٌّ:

﴿وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ 1﴾ [الممتحنة: 1].

يدخل في الضالّين كلُّ عاصٍ مخالفٍ للقرآن:

05

﴿وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [النمل: 92].

أَمْثِلَةٌ لِلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَالضَّالِّينَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ:

إِلَيْكَ صُوَرًا مِنْ وَاقِعِ الْمُسْلِمِينَ تُجَسِّدُ انْحِرَافَاتٍ سُلُوكِيَّةً أَوْ فِكْرِيَّةً تُشَابِهُ، فِي بَعْضِ جَوَانِبِهَا، مَا حَذَّرَنَا مِنْهُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ فِي وَصْفِهِ لِلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَالضَّالِّينَ:

الْمِثَالُ الْأَوَّلُ: قَاتِلُ الْمُؤْمِنِ عَمْدًا مَغْضُوبٌ عَلَيْهِ، وَلَوِ انْتَسَبَ إِلَى الْإِسْلَامِ كَمَا قَالَ ﷻ: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ [النساء: ٩٣]، وَقَدْ أَدْخَلَ النَّبِيُّ ﷺ فِي الضُّلَّالِ قَاتِلَ النَّفْسِ فَقَالَ: «فَلَا تَرْجِعُوا بَعْدِي ضُلَّالًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ»(١).

الْمِثَالُ الثَّانِي: الْكَاذِبَةُ عَلَى زَوْجِهَا فِي اللِّعَانِ مَغْضُوبٌ عَلَيْهَا، فَاسْمَعْ إِلَى رَبِّكَ يُبَيِّنُ ذَلِكَ: ﴿وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [النور: ٩].

الْمِثَالُ الثَّالِثُ: الْفَارُّ مِنَ الْمُوَاجَهَةِ الْحَرْبِيَّةِ مَغْضُوبٌ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ خَاذِلٌ لِلصُّفُوفِ الْمُؤْمِنَةِ، وَرُبَّمَا وَقَعَتِ الْهَزِيمَةُ بِسَبَبِهِ، وَاللهُ -جَلَّ مَجْدُهُ- يُبَيِّنُ نُزُولَ الْغَضَبِ عَلَى فَاعِلِ ذَلِكَ، فَيَقُولُ: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الأنفال: ١٦].

الْمِثَالُ الرَّابِعُ: مُوَالِي الْكُفَّارِ وَالْمُعْتَدِينَ ضَالٌّ، فَقَدْ قَالَ -تَعَالَى عِزُّهُ-: ﴿وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الممتحنة: ١].

الْمِثَالُ الْخَامِسُ: يَدْخُلُ فِي الضَّالِّينَ كُلُّ عَاصٍ مُخَالِفٍ لِلْقُرْآنِ؛ وَاسْمَعْ إِلَى هَذِهِ الْحَقِيقَةِ الْقُرْآنِيَّةِ الَّتِي تَبْنِي الْفَهْمَ الْحَقِيقِيَّ لِتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [النمل: ٩٢].

---

(١) البخاري ٥/ ٢٢٤.

إِنَّهُ الْقُرْآنُ: مَنْ تَلَاهُ لِيَهْتَدِيَ بِبَيَانِهِ وَنَظْمِهِ وَتَعْلِيمَاتِهِ فَهْمًا وَعَمَلًا فَهُوَ الَّذِي يَبْنِي مَجْدَهُ، وَمَصَالِحَ نَفْسِهِ، وَمَنْ تَلَاهُ أَوْ سَمِعَهُ ثُمَّ اتَّخَذَهُ وَرَاءَهُ ظِهْرِيًّا، فَلَمْ يَمْتَثِلْهُ وَلَمْ يَعْمَلْ بِهِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ، فَمَا أَكْثَرَ الضُّلَّالَ الَّذِينَ هَجَرُوا الْعَمَلَ بِالْقُرْآنِ! وَقَدْ قَالَ فِيهِمْ مُحَمَّد سَالِم وَلَدُ عَدُّودٍ رَحِمَهُ اللَّهُ:

شَكَا دِينُ الْهُدَى مِمَّا دَهَاهُ ... بِأَيْدِي جَامِدِينَ وَمُلْحِدِينَا
شَبَابٌ يَحْسَبُونَ الدِّينَ جَهْلًا ... وَشِيبٌ يَحْسَبُونَ الْجَهْلَ دِينَا

وَلِأَنَّ الْعِبْرَةَ بِالْأَعْمَالِ، لَا بِالِانْتِسَابِ وَالتَّفَاخُرِ وَالِادِّعَاءِ بِالْأَقْوَالِ قَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ: «مَنْ فَسَدَ مِنْ عُلَمَائِنَا فَفِيهِ شَبَهٌ مِنَ الْيَهُودِ، وَمَنْ فَسَدَ مِنْ عُبَّادِنَا فَفِيهِ شَبَهٌ مِنَ النَّصَارَى»، فَمُجَرَّدُ انْتِسَابِ الْمُؤْمِنِينَ لِأُمَّةِ خَيْرِ النَّبِيِّينَ ﷺ لَا يَعْنِي الْحُصُولَ عَلَى بِطَاقَاتِ الْفَوْزِ، وَلَا أَوْسِمَةِ الْفَلَاحِ فِي عِلِّيِّينَ ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٩].

جِسْرُ اتِّصَالٍ: عَرَفْنَا الْبَصِيرَةَ الرَّابِعَةَ مِنْ بَصَائِرِ الْمَقْصِدِ التَّاسِعِ مِنْ مَقَاصِدِ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ، وَهِيَ: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ لَيْسَتْ تَزْكِيَةً لِلْمُسْلِمِينَ بَلْ هُوَ تَحْذِيرٌ لَهُمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ قَبْلَ غَيْرِهِمْ، فَيَجِبُ أَنْ يَجْتَنِبُوا مَوَاقِعَ الْغَضَبِ وَالضَّلَالَةِ، فَالْأَوْصَافُ تَتَحَقَّقُ بِالْأَعْمَالِ وَالِاكْتِسَابِ لَا بِالِادِّعَاءِ وَالِانْتِسَابِ، فَمَا الْبَصِيرَةُ الْخَامِسَةُ؟

الْجَوَابُ:

الْبَصِيرَةُ الْخَامِسَةُ

﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾ يُبَيِّنُ الْحُلَفَاءَ وَالْأَعْدَاءَ الِاسْتِرَاتِيجِيِّينَ لِلْأُمَّةِ الْمُسْلِمَةِ فِي الْحَاضِرِ وَالْمُسْتَقْبَلِ

تَأَمَّلْ كَيْفَ تَفْتَحُ لَكَ سُورَةُ الْفَاتِحَةِ آفَاقَ رُؤْيَةٍ قُرْآنِيَّةٍ شَامِلَةٍ، تَكْشِفُ عَنْ طَبِيعَةِ التَّفَاعُلَاتِ بَيْنَ الْقُوَى الْكُبْرَى الْمُهَيْمِنَةِ عَلَى الْمَسْرَحِ الْعَالَمِيِّ، وَتُجَلِّي لَكَ بِعُمْقٍ أَثَرَ هَذِهِ الْعَلَاقَاتِ عَلَى مَصَائِرِ الْعَالَمِ وَالْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ.

فِي آيَةِ الصِّرَاطِ (الْآيَةِ السَّابِعَةِ)، رَسَمَ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ لِلنَّاسِ مِعْيَارَهُمُ الْأَوْحَدَ وَتَقْسِيمَهُمُ الْأَبْقَى، تَصْنِيفًا إِلَهِيًّا لَا تُقَيِّدُهُ حُدُودُ الْأَرْضِ أَوْ وَشَائِجُ الْعِرْقِ، بَلْ يَسْتَنِدُ إِلَى جَوْهَرِ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ، وَالِالْتِزَامِ بِالصِّرَاطِ الْهَادِي وَالسَّبِيلِ الْعَاصِمِ مِنْ غَضَبِ اللهِ، وَالضَّلَالِ عَنْ دِينِهِ، فَتَنْجَلِي لِلْأُمَّةِ بِذَلِكَ خَرِيطَةُ الْوَلَاءِ وَالْبَرَاءِ، وَتُدْرِكُ مَنْ هُمْ أَنْصَارُهَا وَمَنْ هُمْ خُصُومُهَا.

الْأُمَمُ كَمَا قَسَّمَتْهَا سُورَةُ الْفَاتِحَةِ:

أَظْهَرَتِ الْآيَةُ السَّابِعَةُ مِنْ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ أَنَّ الْعَالَمَ يَنْقَسِمُ إِلَى ثَلَاثِ أُمَمٍ:

الْأُمَّةُ الْأُولَى: الْمُنْعَمُ عَلَيْهِمْ، وَهُمُ الْمُشَارُ إِلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾:

فَهُمْ يُشَكِّلُونَ الْأُمَّةَ الْمَرْضِيَّةَ الْمُفْلِحَةَ، وَيَجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَحَالَفُوا، وَيَعْقِدُوا أَوَاصِرَ الْأُخُوَّةِ وَالتَّنَاصُرِ فِيمَا بَيْنَهُمْ دُونَ النَّظَرِ إِلَى الْأَعْرَاقِ وَالْأَنْسَابِ وَالْأَلْوَانِ، وَهُمْ مِنَ النَّاحِيَةِ الزَّمَنِيَّةِ يَنْقَسِمُونَ إِلَى فِئَتَيْنِ:

الْفِئَةُ الْأُولَى: الَّذِينَ مَضَوْا عَلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَهُمُ الْقِيَادَاتُ الْعَظِيمَةُ الَّذِينَ اخْضَرَّتْ بِهِمْ مُرُوجُ الْعَدَالَةِ فِي الْأَرْضِ فَأَزْهَرَتْ وَازْدَهَرَتْ، إِنَّهُمْ مَنْ قَالَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمْ وَعَنْ أَمْثَالِهِمْ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾ [الأنعام: ٩٠].

الْفِئَةُ الثَّانِيَةُ: الَّذِينَ يَسِيرُونَ عَلَى مَنْهَجِ الْمُتَقَدِّمِينَ فِي صِفَاتِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ؛ فَهُمْ عَلَى آثَارِ مَنْ سَبَقَهُمْ يَسِيرُونَ، وَبِهَدَاهُمْ يَهْتَدُونَ، وَيَدْخُلُ فِيهِمْ جُمُوعُ الْمُوَحِّدِينَ الْمُؤْمِنِينَ بِاللهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ ﷺ نَبِيًّا وَرَسُولًا فِي كُلِّ بُقْعَةٍ مِنْ بِقَاعِ الْمَعْمُورَةِ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ، وَيَدْخُلُ فِيهِمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى الَّذِينَ مَدَحَهُمُ اللهُ ﷻ بِقَوْلِهِ: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٣]، فَهَؤُلَاءِ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ دُونَ النَّاسِ، يَجْمَعُهُمْ إِخَاءُ الدِّينِ، وَوَحْدَةُ الْوِجْهَةِ، وَهُمُ الْمَقْصُودُونَ بِقَوْلِ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النِّساء: ٦٩]، وَعَلَى هَذَا فَالْآيَةُ تُوَضِّحُ -بِجَلَاءٍ- مَنْ يَنْبَغِي أَنْ يَتِمَّ مَعَهُمُ التَّحَالُفُ وَالتَّعَاضُدُ وَالتَّنَاصُرُ، وَتُبَيِّنُ مَنْ يَنْبَغِي أَنْ نُقِيمَ مَعَهُمُ الْمُعَاهَدَاتِ الِاسْتِرَاتِيجِيَّةَ، وَنَرْبِطَ بِهِمُ الْمَصِيرَ الْمُشْتَرَكَ.

أَتَعْلَمُ -أَعَزَّكَ اللهُ- مَاذَا يَعْنِي مُخَالَفَةُ مَبْدَأِ التَّنَاصُرِ مَعَ مَنْ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ؟

إِنَّ ذَلِكَ يَعْنِي أَنَّنَا هَجَرْنَا أَهَمَّ الْمَقَاصِدِ الَّتِي أَقَامَتْ صَرْحَهَا الْفَاتِحَةُ، وَذَلِكَ يُؤَدِّي إِلَى تَرْكِ أَهَمِّ عَوَامِلِ بَقَاءِ الْإِنْعَامِ الْإِلَهِيِّ، وَمَاذَا سَيَكُونُ حَالُ الْأُمَّةِ عِنْدَمَا يُسْحَبُ الْإِنْعَامُ الْإِلَهِيُّ مِنْهَا؟ سَيَضِيعُ النَّجَاحُ الْفَرْدِيُّ وَالْفَلَاحُ الْجَمَاعِيُّ، وَتَكُونُ النَّتِيجَةُ مَا تَرَاهُ الْيَوْمَ مِنْ خَطْبٍ جَلَلٍ يَنْدَى لَهُ الْجَبِينُ خَجَلًا، وَتَعْتَصِرُ لَهُ الْقُلُوبُ أَسًى، وَتَتَفَطَّرُ لَهُ أَكْبَادُ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرَةً وَحُزْنًا عَمِيقًا.

الْأُمَّةُ الثَّانِيَةُ: الْمَغْضُوبُ عَلَيْهِمْ:

وَهَؤُلَاءِ هُمْ رَأْسُ الْأَفْعَى، وَقَلْبُ الْمُؤَامَرَةِ النَّابِضُ خُبْثًا وَمَكْرًا ضِدَّ أُمَّةِ الْإِنْعَامِ. هُمْ أَلَدُّ خُصُومِ أَهْلِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَأَشَدُّهُمْ كَيْدًا وَدَهَاءً، وَأَعْظَمُهُمْ سَعْيًا حَثِيثًا لِصَدِّ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ سَبِيلِ الرَّشَادِ وَإِغْوَائِهِمْ عَنِ الْحَقِّ الَّذِي هَدَاهُمُ اللهُ إِلَيْهِ.

الأُمَّةُ الثَّالِثَةُ: الضَّالُّونَ:

وَهَؤُلَاءِ يُمَثِّلُونَ الصِّنْفَ الثَّانِيَ مِنْ أَعْدَاءِ الْأُمَّةِ الِاسْتِرَاتِيجِيِّينَ، وَبَعْضُهُمْ تَائِهٌ يَحْتَاجُ إِلَى مَنْ يَأْخُذُ بِيَدِهِ إِلَى الصَّوَابِ.

وَغَالِبًا مَا يَتِمُّ التَّنْسِيقُ وَالتَّحَالُفُ وَالتَّنَاصُرُ بَيْنَ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَالضَّالِّينَ مِنْ خَارِجِ الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَمِنْ دَاخِلِهَا؛ بُغْيَةَ تَدْمِيرِ الْإِسْلَامِ أَوْ حِصَارِهِ، وَسَتَرَى التَّصْرِيحَ التَّامَّ بِالتَّحَالُفِ بَيْنَ فِرَقِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَالضَّالِّينَ فِي قَوْلِهِ -جَلَّ مَجْدُهُ-: ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [المائدة: ٥١]، وَيَنْضَمُّ إِلَى هَذَا الْحِلْفِ الدَّنِسِ مَنْ يَنْتَمِي إِلَى الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَالضَّالِّينَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ حَذَّرَ اللهُ ﷻ الْمُسْلِمِينَ مِنْ وَلَائِهِمْ لِلْمُجْرِمِينَ فَقَالَ: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٨، ١٣٩].

وَيَكْمُنُ جَوْهَرُ الْخِلَافِ وَمِحْوَرُ الِافْتِرَاقِ بَيْنَ هَذِهِ الْفِرَقِ الثَّلَاثِ فِي كَيْفِيَّةِ تَصَدِّيهَا لِجُذُورِ الشُّرُورِ الْكَامِنَةِ: الْهَوَى، وَالشَّهْوَةِ، وَالْغَضَبِ. فَالطَّائِفَةُ الَّتِي أَنْعَمَ اللهُ ﷻ عَلَيْهَا قَدْ غَالَبَتْ هَذِهِ النَّزَعَاتِ وَقَهَرَتْهَا بِعَزِيمَةِ الْإِيمَانِ، أَمَّا الطَّائِفَتَانِ الْأُخْرَيَانِ، مِمَّنْ بَاءُوا بِغَضَبِ اللهِ أَوْ ضَلُّوا السَّبِيلَ، فَقَدِ اسْتَجَابُوا لِنِدَائِهَا الْخَفِيِّ، وَأَسْلَمُوا إِلَيْهَا الْقِيَادَ طَائِعِينَ أَوْ كَارِهِينَ.

وَرُبَّمَا سَأَلْتَ الْآنَ عَنِ الْبَصِيرَةِ الْقُرْآنِيَّةِ الْفَرِيدَةِ الَّتِي أَثَارَهَا تَقْدِيمُ ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ﴾ على ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، وَمَا دَلَالَاتُ هَذَا التَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ؟

وَالْجَوَابُ: إِنَّهَا الْمُعْجِزَةُ الْقُرْآنِيَّةُ! سَتَرَى مَلْمَحًا جَدِيدًا مِنْ مَلَامِحِ الْإِعْجَازِ الْقُرْآنِيِّ الْفَرِيدِ فِي بِنَاءِ الْعَقْلِيَّةِ الْمُسْلِمَةِ:

فَسَبَبُ هَذَا التَّرْتِيبِ بَيْنَ فِرَقِ الْأَشْقِيَاءِ فِي قَوْلِهِ -عَزَّ ذِكْرُهُ-: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ أَنَّهُ قَدَّمَ ذِكْرَ الْقِيَادِيِّ عَلَى التَّابِعِ، وَأَبْرَزَ الْأَسْوَأَ عَلَى السَّيِّئِ، فَإِنَّ الضَّالَّ الْمَغْضُوبَ عَلَيْهِ أَسْوَأُ مِنَ الضَّالِّ الَّذِي لَمْ يَصِلْ إِلَى دَرَجَةِ الْغَضَبِ، إِلَّا أَنَّ الْمَغْضُوبَ عَلَيْهِمْ غَالِبًا هُمْ سَادَةُ الشَّرِّ وَقَادَتُهُ، أَمَّا الضَّالُّونَ فَتَائِهُونَ هَائِمُونَ يَقُودُهُمُ الْمَغْضُوبُ عَلَيْهِمْ، وَبَعْضُهُمْ يَشْعُرُونَ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ التَّحَرُّرَ بَعْدَ أَنْ كَبَّلَتْهُمْ خَطَايَاهُمْ، وَأَوْبَقَهُمْ تَوَاطُؤُهُمْ عَلَى الْإِجْرَامِ، وَبَعْضُهُمْ لَا يَشْعُرُونَ.

وَالْوَاقِعُ الْعَالَمِيُّ يَشْهَدُ بِصِدْقِ الْآيَةِ وَبَيِّنَتِهَا الْمُعْجِزَةِ، فَمُحَرِّفُو الْيَهُودِ مِنْ أَبْرَزِ فِئَاتِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ، وَيَنْقَادُ لِإِجْرَامِهِمُ الضَّالُّونَ مِنْ مُتَطَرِّفِي النَّصَارَى، وَالْمُنَافِقِينَ، وَبَعْضِ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَإِذَا كَانَ مُحَرِّفُو الْيَهُودِ بِمَحَافِلِهِمُ السِّرِّيَّةِ وَالْعَلَنِيَّةِ يُمَثِّلُونَ الْعَقْلَ الْمُدَبِّرَ؛ وَتُشَارِكُهُمْ جَحَافِلُ مِنَ الْمُنَافِقِينَ، وَحُشُودُ الضَّالِّينَ مِنَ النَّصَارَى وَالْوَثَنِيِّينَ وَفِرَقِ الْإِجْرَامِ الْبَاطِنِيَّةِ وَغُلَاةِ الْمُبْتَدِعَةِ، وَيُسَانِدُهُمْ -بِوَعْيٍ أَوْ بِغَيْرِ وَعْيٍ- ضُلَّالُ الْمُسْلِمِينَ؛ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ، وَهَذَا اعْتِرَافٌ وَإِقْرَارٌ مِنْ أَحَدِ قِيَادَاتِ الْإِفْسَادِ الْعَالَمِيِّ (الدُّكْتُورِ أُوسْكَارْ لِيفِي) حِينَ قَالَ: (نَحْنُ الْيَهُودَ لَسْنَا إِلَّا سَادَةَ الْعَالَمِ وَمُفْسِدِيهِ، وَمُحَرِّكِي الْفِتَنِ فِيهِ وَجَلَّادِيهِ)؟

أَلَا إِنَّهُ لَا يَكُونُ مُحَرِّفُو الْيَهُودِ سَادَةَ الْعَالَمِ -وَقَدْ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَمَا ثُقِفُوا- إِلَّا لِأَنَّ حَبْلَ اللهِ ﷻ قَدْ مُدَّ لَهُمْ، وَسَخَّرَ لَهُمْ حَبْلَ النَّاسِ لِيَبْتَلِيَهُمْ وَيَبْتَلِيَ بِهِمُ النَّاسَ، وَلِيَتَحَقَّقَ فِيهِمُ الْإِعْلَانُ الْإِلَهِيُّ: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: ٧].

❋❋❋

جِسْرُ اتِّصَالٍ: عَرَفْنَا الْبَصِيرَةَ الْخَامِسَةَ مِنْ بَصَائِرِ الْمَقْصِدِ التَّاسِعِ مِنْ مَقَاصِدِ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ، وَهِيَ: ﴿الصِّرَٰطَ﴾ يُبَيِّنُ الْحُلَفَاءَ وَالْأَعْدَاءَ الْإِسْتِرَاتِيجِيِّينَ لِلْأُمَّةِ الْمُسْلِمَةِ فِي الْوَاقِعِ الْعَالَمِيِّ، فَمَا الْبَصِيرَةُ السَّادِسَةُ؟

الْجَوَابُ:

الْبَصِيرَةُ السَّادِسَةُ

تَقْتَرِنُ أَفْعَالُ قِيَادَاتِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَالضَّالِّينَ بِالْوَحْشِيَّةِ

إِنَّ الْإِسْلَامَ هُوَ الدِّينُ الَّذِي جَاءَ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ، تِلْكَ الرَّحْمَةُ الَّتِي تَجَرَّدَتْ عَنْهَا طَائِفَتَا الْغَضَبِ وَالضَّلَالِ، وَالْفَاتِحَةُ لَا تَذْكُرُ الصِّفَاتِ الْمُجْرِمَةَ لِلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَالضَّالِّينَ لِأَنَّهُمْ عَصَوُا الرَّحْمَنَ فَقَطْ، بَلْ لِأَنَّ هَذَا الْعِصْيَانَ يُؤَدِّي إِلَى الْإِجْرَامِ الْمُمَنْهَجِ الَّذِي يُمَارِسُونَهُ عَلَى بَنِي الْإِنْسَانِ، فَقَدْ ذَكَرَ اللهُ ﷻ أَنَّ الْمَغْضُوبَ عَلَيْهِمْ وَالضَّالِّينَ قَوْمٌ ظَهَرَ مِنْهُمُ الْبَغْيُ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ [البقرة: ٩٠].

وَبَيَّنَ اللهُ ﷻ أَنَّ بَغْيَهُمْ يَرْبُو وَيَنْمُو وَيَفْشُو حَتَّى يُصْبِحَ اعْتِدَاءً مُمَنْهَجًا مُدَمِّرًا ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٦١]، فَانْتَقَلُوا مِنْ مَرْحَلَةِ الْبَغْيِ إِلَى مَرْحَلَةِ الِاعْتِدَاءِ عَلَى الْحُقُوقِ (حُقُوقِ الْخَالِقِ وَحُقُوقِ الْمَخْلُوقِينَ)، فَانْظُرْ لِتَرْتِيبِ جَرَائِمِهِمُ الَّتِي أَحَلَّتْ بِهِمْ غَضَبَ اللهِ -تَعَالَى جَدُّهُ-، وَتَأَمَّلْ فِيهَا كَيْفَ جَاءَتْ وَفْقَ تَحْلِيلٍ لِنَفْسِيَّاتِهِمُ الْعَفِنَةِ وَأَهْوَائِهِمُ الْمُتَقَلِّبَةِ:

فَهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ، وَبَادَرُوا فَقَتَلُوا الْأَنْبِيَاءَ الَّذِينَ هُمْ خِيرَةُ الْخَلْقِ، وَأَمَّا سَبَبُ وُصُولِهِمْ إِلَى هَذَا الْمُسْتَوَى مِنَ الْإِجْرَامِ فَبَيَّنَهُ اللهُ ﷻ فِي قَوْلِهِ: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ فَذَكَرَ

اللهُ ﷻ أَنَّهُمْ بَدَؤُوا بِعِصْيَانِهِ، وَاجْتَرَؤُوا عَلَى الْعُدْوَانِ عَلَى الْخَلْقِ، وَإِصْرَارُهُمْ عَلَى ذَلِكَ أَوْصَلَهُمْ إِلَى الْكُفْرِ وَقَتْلِ الْأَنْبِيَاءِ، فَبَدَأَ بِذِكْرِ أَبْشَعِ النَّتَائِجِ وَعَطَفَ عَلَيْهَا الْأَسَاسَ الَّذِي تَسَاهَلُوا فِي فِعْلِهِ، فَصَارَتْ قُلُوبُهُمْ شَدِيدَةَ السَّوَادِ، لَا نَقَاءَ فِيهَا وَلَا صَفَاءَ، وَهَذَا يُوَلِّدُ الْقَسْوَةَ الْمُجْرِمَةَ الَّتِي لَا تُبَالِي بِرُؤْيَةِ الْأَطْفَالِ وَهُمْ يُقَتَّلُونَ أَوْ يُحْرَقُونَ، وَلَا تُحَرِّكُ سَاكِنًا وَهِيَ تَرَى مِئَاتِ الْآلَافِ تُبَادُ.

إِنَّهَا قَسْوَةُ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَالضَّالِّينَ الَّذِينَ وَصَفَهُمُ اللهُ ﷻ بِقَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤]. فَيَجْتَرِئُ الْقَلْبُ الْقَاسِي عَلَى أَسْوَأِ أَنْوَاعِ الِاعْتِدَاءِ عَلَى الْأَبْرِيَاءِ، وَيَجْعَلُ ذَلِكَ بَرْنَامَجًا أَسَاسِيًّا فِي حَيَاتِهِ، بَلْ وَيُكَرِّسُ حَيَاتَهُ لِذَلِكَ، فَيُصْبِحُ وَحْشًا كَاسِرًا فِي مِسْلَاخِ إِنْسَانٍ لَا مَوْضِعَ فِيهِ لِلرَّحْمَةِ وَالشَّفَقَةِ بِبَنِي جِنْسِهِ، فَتَرَاهُ لَا يُنْقِذُ الْأَبْرِيَاءَ، وَلَا يُدَافِعُ عَنِ الضُّعَفَاءِ، ثُمَّ يَتَطَوَّرُ بِهِ الْأَمْرُ فَيَقْتُلُ الرُّضَّعَ، وَيُحْرِقُ الْأَطْفَالَ، وَيَهْتِكُ الْأَعْرَاضَ، وَيُدَمِّرُ الْأَرَاضِيَ، وَالْغَايَةُ عِنْدَهُ تُبَرِّرُ الْوَسِيلَةَ حَلَالًا أَوْ حَرَامًا.

وَالْأَدْهَى مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ يَسْتَمْتِعُ بِذَلِكَ كُلِّهِ، بَلْ رُبَّمَا جَعَلَهَا مُهِمَّةً مُقَدَّسَةً يُقِيمُ لَهَا الْمُؤَسَّسَاتِ الْأَمْنِيَّةَ وَالْعِلْمِيَّةَ وَالِاسْتِشَارِيَّةَ حَتَّى يُصْبِحَ مَنْ هَذَا حَالُهُ كَمَا قَالَ اللهُ -ﷻ: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾ [المائدة: ٧٨ - ٨٠].

التَّوْرَاةُ الْمُعَاصِرَةُ شَاهِدَةٌ عَلَى صِحَّةِ وَصْفِهِمْ بِالْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ: فَإِفْسَادُهُمْ مُتَوَاصِلٌ، وَيَتَوَارَثُونَ الْإِجْرَامَ:

وَكَمَا بَيَّنَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ حُلُولَ سَخَطِ اللهِ ﷻ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ جَزَاءً لِعُدْوَانِهِمُ الْمُتَكَرِّرِ وَظُلْمِهِمُ الْمُسْتَشْرِي، فَإِنَّ الْعَجَبَ لَيَأْخُذُكَ حِينَ تَجِدُ أَسْفَارَهُمُ الَّتِي يُقَدِّسُونَهَا، تُسَطِّرُ بِيَدِهَا شَهَادَةً مُفَصَّلَةً، وَفِي مَوَاضِعَ جَمَّةٍ، عَلَى ذَاتِ الْغَضَبِ الْإِلَهِيِّ الَّذِي اسْتَحَقُّوهُ بِجَرَائِمِهِمْ فِي حَقِّ أَنْفُسِهِمْ وَالْعَالَمِينَ، فَمِنْهَا:

فِي سِفْرِ الْعَدَدِ:

٢٥: ٣ وَتَعَلَّقَ إِسْرَائِيلُ بِبَعْلِ فَغُورَ، فَحَمِيَ غَضَبُ الرَّبِّ عَلَى إِسْرَائِيلَ.

٢٥: ٤ فَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى خُذْ جَمِيعَ رُؤُوسِ الشَّعْبِ، وَعَلِّقْهُمْ لِلرَّبِّ مُقَابِلَ الشَّمْسِ، فَيَرْتَدَّ حُمُوُّ غَضَبِ الرَّبِّ عَنْ إِسْرَائِيلَ.

وَفِي سِفْرِ الْعَدَدِ أَيْضًا:

٣٢: ١٠ فَحَمِيَ غَضَبُ الرَّبِّ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ وَأَقْسَمَ قَائِلًا:

٣٢: ١١ لَنْ يَرَى النَّاسُ الَّذِينَ صَعِدُوا مِنْ مِصْرَ مِنِ ابْنِ عِشْرِينَ سَنَةً فَصَاعِدًا الْأَرْضَ الَّتِي أَقْسَمْتُ لِإِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَتَّبِعُونِي تَمَامًا.

٣٢: ١٢ مَا عَدَا كَالِبَ بْنَ يَفُنَّةَ الْقَنِزِّيَّ وَيَشُوعَ بْنَ نُونَ؛ لِأَنَّهُمَا اتَّبَعَا الرَّبَّ تَمَامًا.

٣٢: ١٣ فَحَمِيَ غَضَبُ الرَّبِّ عَلَى إِسْرَائِيلَ وَأَتَاهُمْ فِي الْبَرِّيَّةِ أَرْبَعِينَ سَنَةً، حَتَّى فَنِيَ كُلُّ الْجِيلِ الَّذِي فَعَلَ الشَّرَّ فِي عَيْنَيِ الرَّبِّ.

وَفِي سِفْرِ الْقُضَاةِ:

١٠: ٦ وَعَادَ بَنُو إِسْرَائِيلَ يَعْمَلُونَ الشَّرَّ فِي عَيْنَيِ الرَّبِّ، وَعَبَدُوا الْبَعْلِيمَ، وَالْعَشْتَارُوثَ، وَآلِهَةَ آرَامَ، وَآلِهَةَ صَيْدُونَ، وَآلِهَةَ مُوآبَ، وَآلِهَةَ بَنِي عَمُّونَ، وَآلِهَةَ الْفِلِسْطِينِيِّينَ، وَتَرَكُوا الرَّبَّ وَلَمْ يَعْبُدُوهُ.

١٠: ٧ فَحَمِيَ غَضَبُ الرَّبِّ عَلَى إِسْرَائِيلَ، وَبَاعَهُمْ بِيَدِ الْفِلِسْطِينِيِّينَ وَبِيَدِ بَنِي عَمُّونَ.

وَبَعْدَ هَذَا النَّقْلِ يَنْبَغِي أَنْ نُقَرِّرَ حَقِيقَةً لَا تُخْطِئُهَا الْعَيْنُ فِي التَّوْرَاةِ الْحَالِيَّةِ؛ إِذْ نَجِدُ غَضَبَ الرَّبِّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ تَكَرَّرَ كَثِيرًا فِي التَّوْرَاةِ الْحَالِيَّةِ، حَتَّى تَتَعَجَّبَ مِنْ عَدَدِ الْجَرَائِمِ الْجَمَاعِيَّةِ الَّتِي يَقُومُ بِهَا الْإِسْرَائِيلِيُّونَ، وَتَرَى مِنْ خِلَالِهَا تِلْكَ النَّفْسِيَّاتِ الْمَرِيضَةَ الْمُتَمَرِّدَةَ الَّتِي لَا هَمَّ لَهَا إِلَّا اسْتِجْلَابَ غَضَبِ اللهِ، وَهِيَ ذَاتُهَا الَّتِي تَتَبَاهَى بِإِنْشَاءِ الْمُؤَسَّسَاتِ الْإِجْرَامِيَّةِ الَّتِي تُفْسِدُ فِي الْأَرْضِ، وَتَسْفِكُ الدِّمَاءَ.

الْإِعْجَازُ فِي وَصْفِ التَّائِهِينَ مِنَ النَّصَارَى بِالضَّالِّينَ (دَعْوَةٌ مُشْفِقَةٌ لِلنَّصَارَى لِتَصْحِيحِ الْمَسَارِ):

حَقًّا إِنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ تَنْزِيلٌ مُعْجِزٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ؛ إِذْ لَا يُمْكِنُ أَنْ يُدْرِكَ حِكْمَةَ هَذَا الْوَصْفِ ﴿الضَّآلِّينَ﴾ الْمُلْصَقِ بِالنَّصَارَى قَبْلَ غَيْرِهِمْ إِلَّا مَنْ كَانَ لَهُ اطِّلَاعٌ وَاسِعٌ، وَمَعْرِفَةٌ دَقِيقَةٌ بِتَارِيخِ نُشُوءِ الْمَسِيحِيَّةِ، وَتَطَوُّرِهَا فِي عَهْدِهَا الْأَوَّلِ، وَانْحِرَافِهَا عَمَّا بَنَاهُ لَهَا مُؤَسِّسُهَا الْمَسِيحُ -عليه السلام-، فَقَدْ جَاءَ الْمَسِيحُ بِمَعَالِمَ وَاضِحَةٍ تُؤَسِّسُ لِدِينٍ قَيِّمٍ يَتَّبِعُ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ -عليه السلام-، وَيُجَدِّدُ شَرِيعَةَ مُوسَى -عليه السلام- حَيْثُ قَالَ اللهُ ﷻ حَاكِيًا عَنْهُ: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [آل عمران: ٥٠، ٥١].

وَكَذَا وَرَدَ فِي الْإِنْجِيلِ الْمَوْجُودِ الْآنَ حَيْثُ جَاءَ فِي إِنْجِيلِ مَتَّى ٥: ١٧:

(لَا تَظُنُّوا أَنِّي جِئْتُ لِأَنْقُضَ النَّامُوسَ، أَوِ الْأَنْبِيَاءَ، مَا جِئْتُ لِأَنْقُضَ، بَلْ لِأُكَمِّلَ). وَمَا هُوَ إِلَّا زَمَنٌ يَسِيرٌ حَتَّى ضَلَّ كَثِيرٌ مِنْ أَتْبَاعِ الْمَسِيحِ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ، وَاتَّبَعُوا مِلَّةَ بُولُسَ وَسَمَّوْهُ الرَّسُولَ، وَوَضَعُوا لَهُ فِي الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ أَرْبَعَ عَشْرَةَ رِسَالَةً، وَلْنَأْخُذْ عَلَى ذَلِكَ شَهَادَةَ الْعَالِمِ الْمَسِيحِيِّ (Ernest de Bunsen): «إِنَّ الْعَقِيدَةَ وَالنِّظَامَ الدِّينِيَّ الَّذِي جَاءَ فِي الْإِنْجِيلِ لَيْسَ الَّذِي دَعَا إِلَيْهِ السَّيِّدُ الْمَسِيحُ بِقَوْلِهِ وَعَمَلِهِ. إِنَّ مَرَدَّ النِّزَاعِ الْقَائِمِ بَيْنَ الْمَسِيحِيِّينَ الْيَوْمَ وَبَيْنَ الْيَهُودِ وَالْمُسْلِمِينَ لَيْسَ إِلَى الْمَسِيحِ، بَلْ إِلَى دَهَاءِ (بُولُسَ) (Paul) ذَلِكَ الْمَارِقِ الْيَهُودِيِّ وَالْمَسِيحِيِّ، وَشَرْحِهِ لِلصُّحُفِ الْمُقَدَّسَةِ عَلَى طَرِيقَةِ التَّجْسِيمِ وَالتَّمْثِيلِ»[1].

بُولُسُ هُوَ الْبُؤْرَةُ الَّتِي تَفَجَّرَ مِنْهَا سَيْلُ الضَّلَالِ فِي تَارِيخِ النَّصْرَانِيَّةِ:

فِي غَيَاهِبِ التَّارِيخِ الْمُبَكِّرِ لِلنَّصْرَانِيَّةِ، وَبَعْدَ أَنْ رَفَعَ اللهُ ﷻ الْمَسِيحَ ﷺ بِقَلِيلٍ، بَرَزَتْ شَخْصِيَّةُ "بُولُسَ الطَّرْسُوسِيِّ"، الَّذِي لَمْ يَكُنْ مِنَ التَّلَامِيذِ الِاثْنَيْ عَشَرَ، بَلْ كَانَ فِي بَادِئِ الْأَمْرِ مِنْ أَشَدِّ مُضْطَهِدِي أَتْبَاعِ الْمَسِيحِ. ثُمَّ -فِي تَحَوُّلٍ دْرَامَاتِيكِيٍّ- أَعْلَنَ إِيمَانَهُ بَعْدَ رُؤْيَا مَزْعُومَةٍ يَقُولُ إِنَّهَا لِلْمَسِيحِ، لِيَبْدَأَ رِحْلَةً تَبْشِيرِيَّةً غَيَّرَتْ وَجْهَ الْمَسِيحِيَّةِ إِلَى الْأَبَدِ؛ فَقَدْ نَسَجَ خُيُوطًا جَدِيدَةً فِي نَسِيجِ الْعَقِيدَةِ النَّاشِئَةِ، وَبَدَلًا مِنَ الْمَسِيحِ النَّبِيِّ وَالْمُعَلِّمِ، بَدَأَ بُولُسُ يُبْرِزُ الْمَسِيحَ "ابْنَ اللهِ" الْمُتَأَلِّهَ وَالْمُخَلِّصَ، وَالَّذِي بِمَوْتِهِ وَقِيَامَتِهِ يُقَدِّمُ الْخَلَاصَ لِلْبَشَرِيَّةِ.

---

(١) Islam or True Chistianity P١٢٨

بِوَاسِطَةِ مُقَدِّمَةِ أَبِي الْحَسَنِ النَّدَوِيِّ ﷺ لِكِتَابِ الْعَلَّامَةِ مُحَمَّدٍ تَقِيِّ الْعُثْمَانِيِّ: مَا هِيَ النَّصْرَانِيَّةُ، وَتُذْكَرُ لِلْعَالِمِ الْمَذْكُورِ آرَاءٌ عُنْصُرِيَّةٌ مُتَعَصِّبَةٌ لَا تَعْنِينَا؛ إِنَّمَا يَعْنِينَا شَهَادَتُهُ عَلَى عَقِيدَةِ بَنِي قَوْمِهِ.

هَذَا التَّقْدِيمُ، مَهَّدَ الطَّرِيقَ لِإِدْخَالِ فِكْرَةِ "التَّثْلِيثِ" الْمُصَادِمَةِ لِعَقِيدَةِ وَحْدَانِيَّةِ اللهِ بِشَكْلٍ صَارِمٍ. كَمَا أَنَّ فِكْرَةَ "التَّجْسِيمِ" أَوِ "التَّجَسُّدِ" الْإِلَهِيِّ، أَيْ حُلُولِ الْإِلَهِ فِي جَسَدٍ بَشَرِيٍّ، تُعْتَبَرُ مِنَ الْإِضَافَاتِ الَّتِي كَرَّسَهَا بُولُسُ وَرَسَّخَهَا.

بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ، تَمَكَّنَ بُولُسُ، بِعَبْقَرِيَّةٍ وَدَهَاءٍ، أَنْ يُحَرِّفَ الْمَسَارَ الْأَصْلِيَّ لِرِسَالَةِ الْمَسِيحِ، وَأَنْ يُدْخِلَ مَفَاهِيمَ لَاهُوتِيَّةً مُعَقَّدَةً مِثْلَ التَّثْلِيثِ وَالتَّجْسِيمِ، لِتُصْبِحَ جُزْءًا لَا يَتَجَزَّأُ مِنَ الْعَقِيدَةِ الْمَسِيحِيَّةِ الَّتِي يَعْرِفُهَا الْعَالَمُ الْيَوْمَ، وَهِيَ الَّتِي أَوْدَتْ بِجُمُوعِ الْمَسِيحِيِّينَ عَبْرَ الْقُرُونِ الْمُتَطَاوِلَةِ فِي أَوْدِيَةِ التِّيهِ وَالتَّنَاقُضِ وَالضَّلَالِ الْعَقَدِيِّ وَالْفِكْرِيِّ.

يَا حَسْرَةً عَلَيْهِمْ! لَقَدِ اخْتَرَعَ هَؤُلَاءِ الضَّالُّونَ عَقِيدَةً خُرَافِيَّةً امْتَزَجَتْ فِيهَا ظُلَامُ الْأَسَاطِيرِ الْيُونَانِيَّةِ الْوَثَنِيَّةِ وَخُرَافَاتُهَا بِنُورِ التَّوْحِيدِ الَّذِي جَاءَ بِهِ الْمَسِيحُ -عليه السلام-؛ فَأَنْتَجَتْ عَقِيدَةً ذَاتَ صُورَةٍ مُرَوِّعَةٍ مُخِيفَةٍ بَنَتْهَا عَلَى أَفْكَارٍ رَهِيبَةٍ، كَفِكْرَةِ الْخَطِيئَةِ الْأَصْلِيَّةِ، وَرَتَّبَتْ عَلَيْهَا صُكُوكَ الْغُفْرَانِ، وَالتَّلَاعُبَ الضَّخْمَ بِالْإِنْسَانِ النَّصْرَانِيِّ الَّذِي يُرِيدُ التَّدَيُّنَ، وَلَكِنَّهُ يُرِيدُ فِي الْوَقْتِ ذَاتِهِ أَنْ يُحَطِّمَ الْعَالَمَ بِنَزَوَاتِهِ وَشَهَوَاتِهِ وَتَحَكُّمِهِ وَسَيْطَرَتِهِ، فَيَفْعَلُ فِي الْبَشَرِيَّةِ مَا شَاءَ، وَيَكْفِيهِ الِاصْطِفَاءُ الْكَنَسِيُّ الَّذِي أَعْطَى لِأَرْبَابِ الْكَنِيسَةِ سُلْطَةً إِلَهِيَّةً شِرْكِيَّةً زَعَمُوا فِيهَا: «أَنَّ النَّخْوَةَ الْإِنْسَانِيَّةَ خَلَقَتْ قُوَّةَ الْمُلُوكِ، وَأَنَّ رَحْمَةَ اللهِ خَلَقَتِ الْقِدِّيسِينَ»[1].

وَانْظُرِ الْمَآسِيَ الْعَالَمِيَّةَ كَيْفَ تَنْبُعُ بِإِشْرَافِ تَحَكُّمِ رُؤُوسِ الضَّالِّينَ فِي أَعْلَى هَيْئَةٍ أُمَمِيَّةٍ.

انْظُرْ بِعَيْنَيْكَ فِي عَالَمِ الْوَاقِعِ الْمُعَاصِرِ الْبَائِسِ الَّذِي خَلَقَتْهُ سَيْطَرَةُ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَالضَّالِّينَ لِتَرَى كَيْفَ بَلَغَ الضَّلَالُ الْمَسِيحِيُّ مَدَاهُ بِقَبُولِ الْكَنَائِسِ التَّحْرِيفَ الدَّائِمَ لِلْكِتَابِ

---

(١) وانظر: الفتنة الدجالية ص٥٦، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْوَصْفَ اللَّائِقَ بِأَتْبَاعِ عِيسَى عليه السلام إِنَّمَا هُوَ (النَّصَارَى) وَلَيْسَ الْمَسِيحِيِّينَ، وَلَكِنَّ هَذَا وَاحِدٌ مِنَ التَّحْرِيفَاتِ الْكَثِيرَةِ الَّتِي أُعِيدَ بِهَا صِنَاعَةُ الدِّيَانَةِ الَّتِي جَاءَ بِهَا عِيسَى عليه السلام.

الْمُقَدَّسِ؛ مِمَّا جَعَلَ أَذْكِيَاءَ النَّصَارَى لَا يَسْتَطِيعُونَ صَبْرًا عَلَى هَذَا التَّحْرِيفِ الْمُتَجَدِّدِ، فَقَدْ كَتَبَ (إِسْحَاقُ نْيُوتِنْ) رِسَالَتَهُ الْمُسَمَّاةَ: (وَصْفٌ تَارِيخِيٌّ لِتَحْرِيفَيْنِ مُهِمَّيْنِ لِلْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ)، وَبِالْإِنْكِلِيزِيَّةِ (An Historical Account of Two Notable Corruptions of Scripture)، وَطُبِعَتْ بَعْدَ مَوْتِهِ بِـ(٢٧) سَنَةً، وَأَهَمُّ التَّحْرِيفَيْنِ الْمَذْكُورَيْنِ هُوَ التَّحْرِيفُ الَّذِي أُرِيدَ مِنْهُ تَثْبِيتُ بِدْعَةِ التَّثْلِيثِ الْكُفْرِيَّةِ، حَيْثُ وُجِدَ فِي نُسْخَةِ الْمَلِكِ (جِيمْسَ) فِي يُوحَنَّا (٥: ٧) «فَإِنَّ هُنَالِكَ ثَلَاثَةَ شُهُودٍ فِي السَّمَاءِ، الْآبُ وَالْكَلِمَةُ وَالرُّوحُ الْقُدُسُ، وَهَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةُ هُمْ وَاحِدٌ».

كَشَفَ (نْيُوتِنْ) هَذَا التَّحْرِيفَ الْخَبِيثَ بِالرُّجُوعِ إِلَى الْمَخْطُوطَاتِ الْيُونَانِيَّةِ وَاللَّاتِينِيَّةِ الْأَصْلِيَّةِ، حَيْثُ لَمْ تُوجَدْ هَذِهِ الْفِقْرَةُ، وَبَيَّنَ أَنَّ «النُّسَخَ الْأَثْيُوبِيَّةَ وَالسُّرْيَانِيَّةَ وَالْعَرَبِيَّةَ وَالْأَرْمَنِيَّةَ وَالسِّلَافِيَّةَ الَّتِي مَا زَالَتْ تُسْتَعْمَلُ فِي عِدَّةِ أُمَمٍ شَرْقِيَّةٍ -أَثْيُوبِيَا، وَمِصْرَ، وَسُورِيَا، وَالْعِرَاقِ، وَأَرْمِينِيَا، وَمُوسْكُو، وَغَيْرِهَا- لَا تَعْرِفُ هَذِهِ الْقِرَاءَةَ»، وَأَوْضَحَ أَنَّ (الْكَارْدِينَالَ غُونْزَالُو سِيسْنِيرُوز) أَوَّلُ مَنْ وَضَعَهَا فِي النَّصِّ الْيُونَانِيِّ سَنَةَ (١٥١٥م)[1].

فَلِمَاذَا لَا يَكْشِفُ أَرْبَابُ كِبَارِ الْقَسِّيسِينَ عَنْ مِثْلِ ذَلِكَ أَمَامَ الرَّأْيِ الْعَامِّ الْمَسِيحِيِّ؟!

هُنَاكَ اخْتِرَاقٌ أَخْطَرُ حَقَّقَهُ مَنْ يَنْتَمِي إِلَى فِئَةِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ مِنَ الصَّهَاينَةِ الَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا، أَوْ سِيقَ إِلَيْهِمْ عَلَى طَبَقٍ مِنْ ذَهَبٍ يَزِيدُكَ وَعْيًا بِسَبَبِ وَصْفِ الْمُنْحَرِفِينَ مِنَ النَّصَارَى بِالضَّلَالَةِ، فَفِي عَامِ (١٥٢٣م) أَصْدَرَ (مَارْتِنْ لُوثَرْ) مُؤَسِّسُ الْفِرْقَةِ الْبُرُوتِسْتَانْتِيَّةِ

---

(١) انظر: (An Historical Account of Two Notable Corruptions of Scripture)، والكتاب صغير الحجم مصور على الشبكة الالكترونية باللغة الإنجليزية وفق طبعته القديمة، وربما الوحيدة.

الْمَسِيحِيَّةِ كِتَابَ (الْمَسِيحُ وُلِدَ يَهُودِيًّا)؛ لِيُؤَسِّسَ عَقِيدَةً رَهِيبَةً تَجْعَلُ كُلَّ الْأَحْدَاثِ الْعَالَمِيَّةِ رَهْنًا لِخُرَافَاتٍ يَهُودِيَّةٍ مُتَعَصِّبَةٍ، وَيَتِمُّ بِهَا التَّلَاعُبُ بِالْعَقْلِيَّةِ النَّصْرَانِيَّةِ لِلْأَسَفِ الشَّدِيدِ.

فَقَدْ كَانَ مِنْ ضِمْنِ الْمَفَاهِيمِ الْجَدِيدَةِ الَّتِي أَكَّدَهَا لِتَكُونَ أَهَمَّ هَمٍّ مَسِيحِيٍّ هِيَ رُجُوعُ الْمَسِيحِ، وَهِيَ عَقِيدَةٌ يَتَّفِقُ عَلَيْهَا الْمُسْلِمُونَ وَالنَّصَارَى، وَلَكِنَّ شَرْطَ الْمَجِيءِ الثَّانِي لَهُ – حَسَبَ التَّصَوُّرِ الْمَسِيحِيِّ الْجَدِيدِ– إِقَامَةُ دَوْلَةٍ لِلْيَهُودِ فِي فِلَسْطِينَ، وَكُلُّ مَنْ يُسَاعِدُ عَلَى ذَلِكَ يَكُونُ لَهُ نَصِيبٌ فِي مَلَكُوتِ الرَّبِّ، وَكُلُّ مَنْ يُعَرْقِلُهُ يَبُوءُ بِغَضَبِهِ.

وَصَارَتْ هَذِهِ الْفِكْرَةُ الْمَرْكَزِيَّةُ أَهَمَّ أَسَاسٍ لِلسِّيَاسَةِ الْغَرْبِيَّةِ الْبُرُوتِسْتَانْتِيَّةِ فِي بِرِيطَانْيَا وَالْوِلَايَاتِ الْمُتَّحِدَةِ، ثُمَّ تَبِعَهَا عَلَى عَمًى الدُّوَلُ الْكَاثُولِيكِيَّةُ، وَكُلُّهُمْ يَتَكَلَّمُونَ عَنْ حَمْلِ شَرَفِ إِعَادَةِ إِسْرَائِيلَ إِلَى أَرْضِ أَجْدَادِهِمْ، لِأَنَّ وُجُودَهُمْ هُنَاكَ هُوَ الَّذِي سَيُمَهِّدُ لِلْمَجِيءِ الثَّانِي لِلرَّبِّ الْمَسِيحِ.

وَأَكَّدَ (بِنْيَامِينُ نَتَنْيَاهُو) عِنْدَمَا كَانَ مَنْدُوبًا لِإِسْرَائِيلَ فِي الْأُمَمِ الْمُتَّحِدَةِ أَنَّ هَذِهِ الْعَقِيدَةَ – الضَّلَالَةَ الْكُبْرَى– هُوَ الْمِحْوَرُ الَّذِي أَدَارَ عَقْلَ أَبْرَزِ قِيَادَاتِ الْمَسِيحِيَّةِ الْمُعَاصِرَةِ: كَاثُولِيكَ وَبُرُوتِسْتَانْتَ ثُمَّ أُرْثُوذُكْسَ حَيْثُ قَالَ: «إِنَّ كِتَابَاتِ الْمَسِيحِيِّينَ الصِّهْيُونِيِّينَ مِنَ الْإِنْكِلِيزِ وَالْأَمْرِيكَانِ أَثَّرَتْ بِصُورَةٍ مُبَاشِرَةٍ عَلَى تَفْكِيرِ قَادَةٍ تَارِيخِيِّينَ، مِثْلَ (لُويْد جُورْج، وَآرْثَرْ بَلْفُور، وَوُودْرُو وِلْسُون)، فِي مَطْلَعِ هَذَا الْقَرْنِ. إِنَّ حُلْمَ اللِّقَاءِ الْعَظِيمِ أَضَاءَ شُعْلَةَ هَؤُلَاءِ الرِّجَالِ، الَّذِينَ لَعِبُوا دَوْرًا رَئِيسِيًّا فِي إِرْسَاءِ الْقَوَاعِدِ السِّيَاسِيَّةِ وَالدَّوْلِيَّةِ لِإِحْيَاءِ الدَّوْلَةِ الْيَهُودِيَّةِ».

وَلَقَّبَهُمْ بِـ«الْمَسِيحِيِّينَ الصِّهْيُونِيِّينَ»، وَاسْتَمَرَّ الْأَمْرُ عَلَى اعْتِمَادِ سِيَاسَةٍ مَرْكَزِيَّةِ الْقَضِيَّةِ الصِّهْيُونِيَّةِ فِي الِاعْتِقَادِ الْمَسِيحِيِّ الضَّالِّ حَتَّى اعْتَنَقَ تِلْكَ الْقَضِيَّةَ رُؤَسَاءُ أَمْرِيكِيُّونَ، وَمِنْهُمْ (رِيغَانُ) وَ(الْبُوشَانِ) الْكَبِيرُ ثُمَّ الصَّغِيرُ، وَمِنْ قَبْلِهِمْ أَصْدَرَ الرَّئِيسُ (تْرُومَانُ) بَيَانًا طَالَبَ فِيهِ بِإِدْخَالِ مِئَةِ أَلْفِ يَهُودِيٍّ فَوْرًا إِلَى فِلَسْطِينَ، وَكَانَ لَهُ دَوْرٌ مَشْهُودٌ بِجَانِبِ الْيَهُودِ فِي حَرْبِ

(١٩٤٨م) الَّذِي قَالَ عَنْ نَفْسِهِ: «إِنَّنِي كُورَشُ..إِنَّنِي كُورَشُ» إِشَارَةً إِلَى مُقَارَنَتِهِ نَفْسَهُ بِالزَّعِيمِ الْفَارِسِيِّ الَّذِي أَعَادَ الْيَهُودَ إِلَى فِلَسْطِينَ بَعْدَ التَّدْمِيرِ الْأَوَّلِ الَّذِي حَدَثَ لِدَوْلَتِهِمْ.

وَهَكَذَا أَدَارَتِ الصِّهْيُونِيَّةُ الْمُعَاصِرَةُ الْعَقْلِيَّةَ الْمَسِيحِيَّةَ الضَّالَّةَ حَوْلَ هَذِهِ الْفِكْرَةِ الرَّهِيبَةِ: وُجُودُ إِسْرَائِيلَ تَحْقِيقٌ لِلنُّبُوءَاتِ التَّوْرَاتِيَّةِ، وَهُوَ تَسْرِيعٌ لِعَوْدَةِ الْمَسِيحِ، وَالْعَالَمُ يَقْتَرِبُ مِنْ نِهَايَتِهِ مِنْ خِلَالِ مَعْرَكَةِ (هَرْمَجِدُّونَ) الَّتِي سَيَمُوتُ فِيهَا الْمَلَايِينُ![1].

تَخَيَّلْ هَذِهِ الضَّلَالَاتِ الَّتِي سَبَّبَتِ الشَّقَاءَ الْعَالَمِيَّ هِيَ الَّتِي يُدِيرُ الْمَغْضُوبُ عَلَيْهِمْ وَالضَّالُّونَ سِيَاسَتَهُمُ الْمُعَاصِرَةَ وَفْقَهَا..

كَمْ يَشْعُرُ الْمَرْءُ بِالْأَسَى عَلَى الْعَقْلِيَّاتِ النَّصْرَانِيَّةِ الْمَسِيحِيَّةِ! فَهِيَ تَهْرُبُ مِنْ ضَلَالَةٍ لِتَقَعَ فِي ضَلَالَةٍ أَكْبَرَ. هَرَبَتْ مِنْ ضَلَالَةِ الْبَابَوِيَّةِ الْمُنْحَرِفَةِ لِتَتَمَحْوَرَ حَوْلَ الضَّلَالَةِ الصِّهْيُونِيَّةِ!

انْظُرْ إِلَيْهِمْ يُضِيفُونَ عَلَى الضَّلَالَاتِ (الْبُولُسِيَّةِ) الضَّلَالَاتِ (اللُّوثَرِيَّةَ)! مَا لَهُمْ يَجْعَلُونَ حَيَاتَهُمُ الْفِكْرِيَّةَ وَالدِّينِيَّةَ تَتَمَحْوَرُ حَوْلَ (الْبُولُسِيَّةِ) فِي الْقَدِيمِ وَ(اللُّوثَرِيَّةِ) فِي الْقَرِيبِ، لِيَصْنَعُوا لَهُمْ دِيَانَةً مُزَيَّفَةً ﴿وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ٢٤]؟!

كَمْ سَبَّبَتْ قِيَادَاتُ الضَّالِّينَ مِنْ إِفْسَادٍ عَالَمِيٍّ لِأَقْوَامِهِمْ ثُمَّ لِلْعَالَمِ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴿فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٤ – ٥٦]؟!

إِذَا كَانَ الْمُعْتَدُونَ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى هُمْ رَأْسَ الْحَرْبَةِ فِي قِيَادَةِ فِرَقِ الْغَضَبِ وَالضَّلَالِ، فَإِنَّ أَتْبَاعَهُمْ مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَمَرْضَى الْقُلُوبِ يُسَارِعُونَ إِلَى تَقَمُّصِ دَوْرِهِمْ، بَلْ يَتَفَوَّقُونَ عَلَيْهِمْ

---

(١) يراجع كتاب النبوءة والسياسية لجريس هالسيل، فقد تحدثت عن ذلك تفصيلًا، وقد عملت فترة في المكتب البيضاوي، فحديثها يتسم بالرصد الواقعي.

فِي شَرَاسَةِ الْعُدْوَانِ، فَيَصُبُّونَ سَوْطَ عَذَابِهِمْ عَلَى الْبَشَرِيَّةِ جَمْعَاءَ، وَيَخُصُّونَ أَهْلَ الْإِسْلَامِ بِأَقْسَى أَلْوَانِ التَّنْكِيلِ، فِي مُحَاوَلَةٍ بَائِسَةٍ لِإِثْبَاتِ وَلَائِهِمُ الْأَسْوَدِ لِلشَّيْطَانِ، وَيُبَالِغُونَ فِي ذَلِكَ لِيَصِلُوا حَدًّا لَا يُعْهَدُ مِنَ الْمُعْتَدِينَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ.

وَهَذَا نَجِدُهُ وَاضِحًا فِي الْفِرَقِ الْخَائِنَةِ وَالْمُجْرِمَةِ عَبْرَ التَّارِيخِ؛ إِذْ هَدَمُوا مِنَ الْمَسَاجِدِ، وَأَحْرَقُوا مِنَ الْأَطْفَالِ، وَهَتَكُوا مِنَ الْأَعْرَاضِ، وَقَتَلُوا مِنَ الرِّجَالِ أَضْعَافَ مَا يُذْكَرُ عَنْ أَسْيَادِهِمْ ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ [الصافات: ١٧٤، ١٧٥].

***

جِسْرُ اتِّصَالٍ: عَرَفْنَا الْبَصِيرَةَ السَّادِسَةَ مِنْ بَصَائِرِ الْمَقْصِدِ التَّاسِعِ مِنْ مَقَاصِدِ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ، وَهِيَ: تَقْتَرِنُ أَفْعَالُ قِيَادَاتِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَالضَّالِّينَ بِالْوَحْشِيَّةِ، فَمَا الْبَصِيرَةُ السَّابِعَةُ؟

الْجَوَابُ:

الْبَصِيرَةُ السَّابِعَةُ

التَّنَاقُضُ بَيْنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ يُنَافِي مَبْدَأَ الِاسْتِقَامَةِ فِي ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾

يَظْهَرُ بِنَاءُ التَّرْبِيَةِ الْقُرْآنِيَّةِ لِلنَّفْسِ الْمُسْلِمَةِ فِي هَذِهِ الْبَصِيرَةِ بِصُورَةٍ مُدْهِشَةٍ، وَنَسْتَبِينُ ذَلِكَ مِنْ عَدَمِ إِضَافَةِ الصِّرَاطِ لِلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَالضَّالِّينَ:

فَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِم غَيرِ ٱلمَغضُوبِ عَلَيهِم وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ نُسَجِّلُ مُلَاحَظَةً وَاضِحَةً أَنَّ اللهَ ﷻ بَيَّنَ أَنَّ لِلْمُنْعَمِ عَلَيْهِمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا هُوَ الصِّرَاطُ الَّذِي تَكْمُنُ طُمُوحَاتُ السُّعَدَاءِ فِي سُلُوكِهِ، لَكِنَّ الْبَيَانَ الْقُرْآنِيَّ ذَكَرَ الْمَغْضُوبَ عَلَيْهِمْ وَالضَّالِّينَ دُونَ أَنْ يَذْكُرَ لَهُمْ صِرَاطًا وَلَا طَرِيقًا، وَذَلِكَ لِتَوْضِيحِ أُمُورٍ خَطِيرَةٍ تَكْشِفُ نَفْسِيَّاتِ فِرَقِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَفِرَقِ الضَّلَالَةِ:



الْأَمْرُ الْأَوَّلُ: أَنَّهُ لَا يُوجَدُ صِرَاطٌ تَسِيرُ عَلَيْهِ هَذِهِ الْفِرَقُ الْمُجْرِمَةُ الْمُسْتَكْبِرَةُ:

بَلْ هِيَ تَعْبُدُ أَهْوَاءَهَا وَذَوَاتَهَا وَمَصَالِحَهَا الْمُتَغَيِّرَةَ حَسَبَ أَمْزِجَتِهَا، وَاللهُ يَفْضَحُ هَذِهِ النَّفْسِيَّاتِ فَيَقُولُ عَنْهَا: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية: ٢٣]، وَهَذَا التَّصْوِيرُ لِنَفْسِيَّاتِهِمْ يُوَضِّحُ لَنَا تَغَيُّرَ أَمْزِجَتِهِمْ وَتَحْرِيفَهُمُ الدَّائِمَ لِكُتُبِ رَبِّهِمْ.

الْأَمْرُ الثَّانِي: أَنَّ الَّذِي تَسِيرُ عَلَيْهِ هَذِهِ الْفِرَقُ الْمُجْرِمَةُ يَأْخُذُ طَابَعَ التَّنَاقُضِ بَيْنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ، وَبَيْنَ النَّظَرِيَّاتِ وَالْمُمَارَسَاتِ:

فَمَنْهَجُهُمْ يَأْخُذُ طَابَعَ الْمُخَالَفَةِ الدَّائِمَةِ لِلصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ مَهْمَا كَانَتْ هَيْئَةُ الْمُخَالَفَةِ؛ فَإِذَا كَانَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ يَقْتَضِي الْعِفَّةَ وَالطَّهَارَةَ وَالزَّوَاجَ؛ فَإِنَّ الْمَغْضُوبَ عَلَيْهِمْ وَالضَّالِّينَ يَعْمَلُونَ عَلَى إِشَاعَةِ الْفَاحِشَةِ وَالْعَلَاقَاتِ الْجِنْسِيَّةِ خَارِجَ الزَّوَاجِ، وَيُسَخِّرُونَ الْمُؤَسَّسَاتِ الدَّوْلِيَّةَ لِذَلِكَ، أَلَا تَرَى جُهُودَهُمُ الْمُعَاصِرَةَ الْمُتَبَاهِيَةَ فِي ذَلِكَ؟! وَهَكَذَا فِي الْأُمُورِ الْمَالِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ.

وَاللهُ تَعَالَى يُوَضِّحُ هَذِهِ الطَّبِيعَةَ الْمُنْتَكِسَةَ الْمَقْلُوبَةَ لِعَقْلِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَالضَّالِّينَ فِي تَصْوِيرٍ بَلِيغٍ فَيَقُولُ: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الملك: ٢٢] يَمْشُونَ فِي الْحَيَاةِ، لَكِنْ أَتَرَاهُمْ فِي سَيْرِهِمْ يَمْشُونَ عَلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ؟ كَلَّا، بَلْ يُرِيدُونَ

مُخَالَفَةَ أَصْحَابِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ حَتَّى لَوِ اقْتَضَى الْأَمْرُ أَنْ يَسِيرُوا مُكِبِّينَ عَلَى وُجُوهِهِمْ، وَلَنَا أَنْ نَتَسَاءَلَ بَعْدَ هَذَا: كَيْفَ يُحَاوِلُ بَعْضُ مَنْ يَنْتَمِي إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ أَنْ يَلْتَمِسُوا الْحُلُولَ لِقَضَايَا الْمُسْتَضْعَفِينَ، أَوْ لِنُصْرَةِ الْمَظْلُومِينَ، أَوْ لِإِحْلَالِ الْعَدْلِ الْعَالَمِيِّ عِنْدَ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَالضَّالِّينَ؟

وَتَاللهِ إِنَّهُ لَيَصْدُقُ فِيهِمْ قَوْلُ الْأَوَّلِ:

الْمُسْتَجِيرُ بِعَمْرٍو عِنْدَ كُرْبَتِهِ ... كَالْمُسْتَجِيرِ مِنَ الرَّمْضَاءِ بِالنَّارِ[1]

التَّصَوُّرُ الْيَهُودِيُّ: تَنَاقُضٌ مُتَجَذِّرٌ، وَوَاقِعٌ مُشَوَّهٌ:

إِنَّ التَّنَاقُضَ وَالِانْفِصَامَ لَدَى طَائِفَتَيِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَالضَّالِّينَ يَذْهَبُ إِلَى مَا هُوَ أَبْعَدُ مِنْ لَكَ وَيَتَبَدَّى حُضُورُهُ فِي الْمَخْيَالِ الْيَهُودِيِّ فِي تَقَبُّلِ أَنْ يَكُونَ الشَّخْصُ (يَهُودِيًّا مُلْحِدًا) فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ، وَهَذَا الْوَصْفُ يَبْدُو وَكَأَنَّهُ تَرْكِيبٌ وَاضِحُ التَّنَاقُضِ؛ إِذْ إِنَّنَا نَتَصَوَّرُ أَنَّ الْيَهُودِيَّ هُوَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْيَهُودِيَّةِ قِيَاسًا عَلَى أَنَّ الْمُسْلِمَ هُوَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْإِسْلَامِ، وَالنَّصْرَانِيَّ هُوَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالنَّصْرَانِيَّةِ، بِكُلِّ مَا يَتْبَعُ ذَلِكَ مِنْ إِيمَانٍ بِالْإِلَهِ. وَلَكِنَّ الْمِعْيَارَ فِي تَعْرِيفِ الْيَهُودِيِّ لَيْسَ كَوْنَهُ مُؤْمِنًا بِالْعَقِيدَةِ وَإِنَّمَا كَوْنُهُ مَوْلُودًا لِأُمٍّ يَهُودِيَّةٍ. وَبِحَسَبِ الشَّرِيعَةِ الْيَهُودِيَّةِ، يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ الْيَهُودِيُّ مِنَ النَّاحِيَةِ النَّظَرِيَّةِ يَهُودِيًّا وَمُلْحِدًا فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ.

وَمِنْ عَجِيبِ مَا اتَّفَقَ أَنَّ رَاهِبًا كَاثُولِيكِيًّا وُلِدَ لِأَبَوَيْنِ يَهُودِيَّيْنِ ثُمَّ تَنَصَّرَ يُدْعَى (دَانْيَالَ) ذَهَبَ إِلَى إِسْرَائِيلَ وَطَالَبَ بِأَنْ يَحْصُلَ عَلَى الْجِنْسِيَّةِ الْإِسْرَائِيلِيَّةِ حَسَبَ قَانُونِ الْعَوْدَةِ، فَإِذَا كَانَتِ الشَّرِيعَةُ الْيَهُودِيَّةُ تَعْتَرِفُ بِالْمُلْحِدِ يَهُودِيًّا فَيُمْكِنُهَا (مِنْ بَابِ أَوْلَى) أَنْ تَعْتَرِفَ بِالْمَسِيحِيِّ

---

(١) ينسب البيت لجساس. ينظر المستقصى في أمثال العرب (٢/ ١٩).

يَهُودِيًّا! لَكِنَّ طَلَبَهُ رُفِضَ. وَقَدِ اسْتَنَدَتْ حَيْثِيَّاتُ الْحُكْمِ إِلَى مَقُولَةٍ عَلْمَانِيَّةٍ وَهِيَ (دَانْيَالُ)، بِاعْتِنَاقِهِ الْمَسِيحِيَّةَ، فَصَلَ نَفْسَهُ عَنِ «الْمَصِيرِ الْيَهُودِيِّ»، أَيْ إِنَّ الْمِعْيَارَ هُنَا هُوَ مَدَى الِارْتِبَاطِ بِالشَّعْبِ الْيَهُودِيِّ لَا بِالْعَقِيدَةِ أَوِ الْعَقَائِدِ الْيَهُودِيَّةِ؛ فَهَلْ مِنْ تَنَاقُضٍ صَارِخٍ أَعْظَمَ مِنْ هَذَا؟!(١).

الْأَمْرُ الثَّالِثُ: إِنْ وُجِدَ لَهُمْ طَرِيقٌ يَسِيرُونَ عَلَيْهِ فَهُوَ لَيْسَ بِطَرِيقٍ حَقِيقِيٍّ لِأَنَّهُ مُعْوَجٌّ:

وَلِذَا أَرَادُوا إِدَارَةَ الْحَيَاةِ وَفْقَ فَهْمِهِمُ الْمُعْوَجِّ الشَّدِيدِ التَّغَيُّرِ، وَهَاهُنَا تَعْلَمُ أَنَّ اللهَ ﷻ لَمْ يَذْكُرْ طَرِيقًا لِلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَالضَّالِّينَ؛ لِأَنَّهُمْ قَدْ قَسَّمُوا أَنْفُسَهُمْ إِلَى مَجْمُوعَاتٍ إِجْرَامِيَّةٍ قَذِرَةٍ لِتَصْبِيرِ الْحَيَاةِ الْمُسْتَقِيمَةِ مُعْوَجَّةً فِي كُلِّ قَضِيَّةٍ، وَانْظُرْ إِلَى التَّفْصِيلِ الْمُدْهِشِ لِذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [الأعراف: ٨٦]، فَهُمْ يُنْشِئُونَ مَجْمُوعَاتٍ لِتَحْرِيفِ النُّظُمِ الْعِبَادِيَّةِ الشَّعَائِرِيَّةِ وَالْمُعَامَلَاتِيَّةِ، وَيُؤَسِّسُونَ جَمْعِيَّاتٍ سِيَاسِيَّةً لِيَجْعَلُوا الْقَضَايَا الْعَادِلَةَ دَائِمَةَ الِاعْوِجَاجِ، وَيُنْشِئُونَ مَجْمُوعَاتٍ ثَقَافِيَّةً لِإِيجَادِ الِاعْوِجَاجِ فِي الْقَضَايَا الثَّقَافِيَّةِ، وَهَكَذَا.

هَلْ رَأَيْتَ دِقَّةَ التَّعْبِيرِ الْقُرْآنِيِّ هَاهُنَا؟!

هَلْ لَاحَظْتَ كَيْفَ تَرْسُمُ لَنَا الْفَاتِحَةُ الْمُبَارَكَةُ الْخَرِيطَةَ الْإِنْسَانِيَّةَ فِي جَانِبِهَا الْمُظْلِمِ الْمُتَمَثِّلِ فِي فِرَقِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَفِرَقِ الضَّلَالَةِ؟

وَهُنَا نَسْتَخْلِصُ الْإِجَابَةَ عَنْ سُؤَالٍ: أَيْنَ يَجِدُ الْإِنْسَانُ سَعَادَتَهُ الْحَقِيقِيَّةَ الْكَامِلَةَ؟ وَكَيْفَ يَشْعُرُ بِهَا؟

إِنَّ أَعْظَمَ مَا يُؤَدِّي إِلَى السَّعَادَةِ الْحَقِيقِيَّةِ تُبَيِّنُهُ سُورَةُ الْفَاتِحَةِ، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾، ثُمَّ يُفَصِّلُ اللهُ ﷻ لَنَا آيَاتِهِ بَعْدَ ذَلِكَ بِنَاءً عَلَى سُورَةِ الْفَاتِحَةِ، فَمِنَ

(١) ينظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية (٦/ ٧٩).

الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ أَنْ يَبْحَثَ الْإِنْسَانُ عَنْ شَرْحِ الصَّدْرِ، هُنَا يَسْأَلُ اللهُ تَعَالَى نَبِيَّهُ عَلَى سَبِيلِ الِامْتِنَانِ: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: ١] فِي أَوَّلِ سُورَةِ الشَّرْحِ، وَإِذَا بَحَثْنَا عَنْ وَسَائِلِ شَرْحِ الصَّدْرِ، سَتُجِيبُنَا الْآيَةُ الْأَخِيرَةُ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ: ﴿وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ [الشرح: ٨].

فَلَوْ قِيلَ لِلسَّعَادَةِ، أَيْنَ تَسْكُنِينَ؟ لَقَالَتْ: فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَوْ قِيلَ لَهَا: فَبِمَا تَدُومِينَ؟ لَقَالَتْ: بِحُسْنِ ظَنِّهِمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ. وَلَوْ سَأَلْنَا السَّعَادَةَ: أَيْنَ تُوجَدِينَ؟ لَقَالَتْ: فِي كِتَابِ رَبٍّ مُبِينٍ. فَأَعْظَمُ وَسِيلَةٍ لِلسَّعَادَةِ أَنْ يَسِيرَ الْإِنْسَانُ عَلَى طَرِيقِ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِمْ.

***

جِسْرُ اتِّصَالٍ: عَلِمْنَا الْبَصِيرَةَ السَّابِعَةَ مِنْ بَصَائِرِ الْمَقْصِدِ التَّاسِعِ وَهِيَ التَّنَاقُضُ بَيْنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ يُنَافِي مَبْدَأَ الِاسْتِقَامَةِ فِي ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾، فَمَا الْبَصِيرَةُ الثَّامِنَةُ؟

الْجَوَابُ:

الْبَصِيرَةُ الثَّامِنَةُ

آيَتَا الصِّرَاطِ تُمَثِّلَانِ دُسْتُورًا كَامِلًا لِلْمَعْرِفَةِ الْعُلْيَا وَالْعَمَلِ الْأَقْوَمِ

الْآنَ تَعَالَ إِلَى مَلْمَحٍ جَدِيدٍ تَرْسُمُهُ لَنَا الْفَاتِحَةُ الْمُبَارَكَةُ ضِمْنَ خُطَّتِهَا فِي بِنَاءِ الْحَيَاةِ وَفْقَ مَعَانِي كَلِمَاتِهَا وَنَظْمِهَا الْمُدْهِشِ الرَّائِعِ، فَهَاتَانِ الْآيَتَانِ ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ تَبْنِيَانِ الْمُجْتَمَعَ وَالطَّبِيعَةَ بِالْخِبْرَاتِ الضَّخْمَةِ، وَالْخِصَالِ الْخَيِّرَةِ الرَّفِيعَةِ، وَتَدُلَّانِ عَلَى أَنَّ بِنَاءَ النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ إِنَّمَا يَتِمُّ بِالْمَعْرِفَةِ الْمُبْصِرَةِ، وَالْمُمَارَسَةِ الصَّادِقَةِ وَفْقَ دَرَجَتَيْنِ:

آيتا الصراط تمثلان دستورًا كاملًا للمعرفة العليا والعمل الأقْوَم

الدرجة الأولى:

01 التحصيل الذاتي بالفكر والنَّظر والاستدلال، والاستهداء لأقوم الأمور.

الدرجة الثانية:

02 الإفادة من تجارب المتقدِّمين، وتجارب المتقدمين تنقسم:

إلى المجموعات التالية

الأولى

تجارب المنعم عليهم اقتداء بهم.

الثانية

تجارب المغضوب عليهم (الَّذين أخلُّوا بالأعمال الصَّحيحة ابتداءً، ثم حرفوا لأجلها العقائد).

الثالثة

تجارب الضالين (الذين أخلُّوا بالعقائد الصَّحيحة ابتداءً، ثم أوجدوا لأجلها أعمالًا باطلةً مبنيةً على باطلٍ).

الدَّرَجَةُ الْأُولَى: أَنْ يُحَاوِلَ تَحْصِيلَهُمَا بِالْفِكْرِ وَالنَّظَرِ وَالِاسْتِدْلَالِ، وَالِاسْتِهْدَاءِ لِأَقْوَمِ الْأُمُورِ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾.

الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ: أَنْ يَسْتَفِيدَ مِنْ تَجَارِبِ الْمُتَقَدِّمِينَ، فَتَسْتَكْمِلُ نَفْسُهُ صِفَاتِهَا الرَّائِعَةَ اقْتِدَاءً بِالصَّالِحَاتِ وَعَمَلًا بِالْإِيجَابِيَّاتِ، وَتَرْكًا لِلْقَبَائِحِ وَالسَّلْبِيَّاتِ.

وَتَجَارِبُ الْمُتَقَدِّمِينَ تَنْقَسِمُ إِلَى ثَلَاثِ مَجْمُوعَاتٍ:

الْمَجْمُوعَةُ الْأُولَى: التَّجَارِبُ الَّتِي يَجِدُهَا الْمَرْءُ مِنْ أَنْوَارِ الصَّالِحِينَ وَهُمْ نُخَبُ الْمُجْتَمَعَاتِ وَصَفْوَتُهُمْ، وَيُمَثِّلُونَ الطَّائِفَةَ الْمُحِقَّةَ الَّتِي جَمَعَتْ بَيْنَ الْعَقَائِدِ الصَّحِيحَةِ وَالْأَعْمَالِ الصَّائِبَةِ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، وَهَؤُلَاءِ هُمُ الْأَنْبِيَاءُ وَأَتْبَاعُهُمْ، وَحَوَارِيُّوهُمْ، وَحَمَلَةُ رَايَةِ التَّوْحِيدِ، وَمَشْعَلُ الْهِدَايَةِ عَبْرَ الْمَسِيرَةِ الرِّسَالِيَّةِ.

الْمَجْمُوعَةُ الثَّانِيَةُ: التَّجَارِبُ الَّتِي يَجْتَنِبُهَا مِمَّا وَجَدَهُ مِنْ ظُلُمَاتِ الْمُجْرِمِينَ الَّذِينَ أَخَلُّوا بِالْأَعْمَالِ الصَّحِيحَةِ ابْتِدَاءً، ثُمَّ حَرَّفُوا لِأَجْلِهَا الْعَقَائِدَ وَالتَّصَوُّرَاتِ الصَّحِيحَةَ، وَهُمُ الْمَغْضُوبُ عَلَيْهِمْ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾.

الْمَجْمُوعَةُ الثَّالِثَةُ: التَّجَارِبُ الَّتِي يَجْتَنِبُهَا مِمَّا وَجَدَهُ مِنْ ظُلُمَاتِ الْمُجْرِمِينَ الَّذِينَ أَخَلُّوا بِالْعَقَائِدِ الصَّحِيحَةِ ابْتِدَاءً، ثُمَّ أَوْجَدُوا لِأَجْلِهَا أَعْمَالًا بَاطِلَةً مَبْنِيَّةً عَلَى بَاطِلٍ، وَهُمُ الضَّالُّونَ، وَسَتَجِدُهُمْ يُحَاوِلُونَ أَنْ يُظْهِرُوا صِحَّةَ أَعْمَالِهِمْ بِبَعْضِ التَّزْيِينِ، وَلَكِنَّ الْعُقَلَاءَ يَعْرِفُونَ كَذِبَهُمْ.

جِسْرُ اتِّصَالٍ: عَلِمْنَا الْبَصِيرَةَ الثَّامِنَةَ مِنْ بَصَائِرِ الْمَقْصِدِ التَّاسِعِ وَهِيَ آيَتَا الصِّرَاطِ تُمَثِّلَانِ دُسْتُورًا كَامِلًا لِلْمَعْرِفَةِ الْعُلْيَا وَالْعَمَلِ الْأَقْوَمِ، فَمَا الْبَصِيرَةُ التَّاسِعَةُ؟

الْجَوَابُ:

الْبَصِيرَةُ التَّاسِعَةُ

(آيَتَا الصِّرَاطِ) تُبَصِّرُنَا بِتَجَلِّيَاتِ اللُّطْفِ الرَّبَّانِيِّ الْغَامِرِ

"الْإِنْعَامُ مِنَ ﷻ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْهِ، تَنْزِيهًا لِجَلَالِهِ"

يَتَجَلَّى بِصُورَةٍ جَذَّابَةٍ عَبَقُ الْفَضْلِ الْإِلَهِيِّ الْغَامِرِ، الَّذِي يُحِيطُ بِنَا كَالْهَوَاءِ وَالْمَاءِ؛ إِذْ نَسَبَ اللهُ ﷻ الْإِنْعَامَ إِلَيْهِ فِي حَالَةِ السُّعَدَاءِ فَقَالَ: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ لِبَيَانِ أَنَّ الْخَيْرَ كُلَّهُ بِيَدِهِ، وَهُوَ يُفِيضُهُ عَلَى عِبَادِهِ، فَهُوَ الَّذِي هَدَانَا فَدَلَّنَا عَلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، ثُمَّ هَدَانَا فَوَفَّقَنَا لِلسَّيْرِ فِيهِ، وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْنَا وَرَحْمَتُهُ لَكُنَّا مِنَ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ أَوْ مِنَ الضَّالِّينَ.

وَعَلَّمَ اللهُ سُبْحَانَهُ نَبِيَّهُ ﷺ أَنْ يُعْلِنَهَا عَلَى الْأَسْمَاعِ أَنَّ اللهَ ﷻ هُوَ مَنِ امْتَنَّ عَلَيْهِ فَهَدَاهُ، وَتَفَضَّلَ عَلَيْهِ بِوَحْيِهِ وَاجْتَبَاهُ فَقَالَ مُخَاطِبًا إِيَّاهُ: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [الْأَنْعَام: ١٦١].

وَلِتَثْبِيتِ ذَلِكَ فِي حَنَايَا نُفُوسِنَا، وَأَفْكَارِ عُقُولِنَا؛ عَلَّمَنَا النَّبِيُّ ﷺ اللُّجُوءَ إِلَى اللهِ فِي كُلِّ جُزْئِيَّةٍ مِنْ جُزْئِيَّاتِ الْحَيَاةِ، فَعَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ أَحَدِ عُظَمَاءِ الدُّنْيَا مِنْ خِرِّيجِي بَيْتِ النُّبُوَّةِ رضي الله عنه أَنَّهُ كَانَ مِنْ دُعَاءِ النَّبِيِّ ﷺ فِي اسْتِفْتَاحِ الصَّلَاةِ: «اللهُمَّ أَنْتَ الْمَلِكُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أَنْتَ رَبِّي، وَأَنَا عَبْدُكَ، ظَلَمْتُ نَفْسِي، وَاعْتَرَفْتُ بِذَنْبِي، فَاغْفِرْ لِي ذُنُوبِي جَمِيعًا، إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، وَاهْدِنِي لِأَحْسَنِ الْأَخْلَاقِ لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ، وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا لَا يَصْرِفُ

عَنِّي سَيِّئَهَا إِلَّا أَنْتَ، لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ، أَنَا بِكَ وَإِلَيْكَ، تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ»[1].

وَنِسْبَةُ الْإِنْعَامِ إِلَيْهِ لِتَعْلِيمِكَ كَيْفَ تَطْلُبُ الْفَلَاحَ، فَتُعِيدُ -أَيَّدَكَ اللهُ- نِسْبَةَ التَّوْفِيقِ فِي الْإِنْجَازِ الْفَرْدِيِّ وَالْجَمَاعِيِّ إِلَى إِنْعَامِ الْمُنْعِمِ سُبْحَانَهُ، فَلَوْلَا فَضْلُهُ لَمَا كَانَ تَوْفِيقٌ وَلَا نَجَاحٌ.

وَقَدْ نَقَلَ ابْنُ تَيْمِيَةَ عَنْ سَهْلِ بْنِ عَبْدِ اللهِ التُّسْتَرِيِّ -رحمه الله- قَالَ: إِذَا عَمِلَ الْعَبْدُ حَسَنَةً وَقَالَ: يَا رَبِّ، أَنْتَ -بِفَضْلِكَ- اسْتَعْمَلْتَ، وَأَنْتَ أَعَنْتَ، وَأَنْتَ سَهَّلْتَ. شَكَرَ اللهُ تَعَالَى لَهُ ذَلِكَ، وَقَالَ لَهُ: يَا عَبْدِي، بَلْ أَنْتَ أَطَعْتَ، وَأَنْتَ تَقَرَّبْتَ. وَإِذَا نَظَرَ إِلَى نَفْسِهِ وَقَالَ: أَنَا عَمِلْتُ، وَأَنَا أَطَعْتُ، وَأَنَا تَقَرَّبْتُ. أَعْرَضَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ، وَقَالَ: يَا عَبْدِي، أَنَا وَفَّقْتُ، وَأَنَا أَعَنْتُ، وَأَنَا سَهَّلْتُ. وَإِذَا عَمِلَ سَيِّئَةً وَقَالَ: يَا رَبِّ، أَنْتَ قَدَّرْتَ، وَأَنْتَ قَضَيْتَ، وَأَنْتَ حَكَمْتَ. غَضِبَ الْمَوْلَى عَلَيْهِ، وَقَالَ لَهُ: يَا عَبْدِي، بَلْ أَنْتَ أَسَأْتَ، وَأَنْتَ جَهِلْتَ، وَأَنْتَ عَصَيْتَ. وَإِذَا قَالَ: يَا رَبِّ، أَنَا ظَلَمْتُ، وَأَنَا أَسَأْتُ، وَأَنَا جَهِلْتُ. أَقْبَلَ الْمَوْلَى عَلَيْهِ وَقَالَ: يَا عَبْدِي، أَنَا قَضَيْتُ، وَأَنَا قَدَّرْتُ، وَقَدْ غَفَرْتُ، وَحَلُمْتُ، وَسَتَرْتُ[2].

فَيَا أَيُّهَا الْقَانِتُ الْمُنِيبُ الْأَوَّاهُ: أَعْلِنْ عَلَى مَسْمَعِ الدُّنْيَا أَنَّ الْهُدَى هُدَى اللهِ، وَأَلَّا مُوَفِّقَ لِسُلُوكِ سَبِيلِهِ إِلَّا إِيَّاهُ، وَأَنْشِدْ مَعَ رَكْبِ الْمُفْلِحِينَ الْهُدَاةِ:

حَمِدْتُ اللهَ رَبِّي إِذْ هَدَانِي ... إِلَى الْإِسْلَامِ وَالدِّينِ الْحَنِيفِ

---

(١) مسلم (٢ / ١٨٥).

(٢) مجموع الفتاوى٢/ ٣٢٨، وَكَلَامُ سَهْلٍ رحمه الله افْتِرَاضِيٌّ نَابِعٌ مِنْ نَظَرِهِ فِي الْأَدِلَّةِ وَالْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ، وَلَيْسَ دَلِيلًا بِذَاتِهِ.

فَيَذْكُرُهُ لِسَانِي كُلَّ وَقْتٍ وَيَعْرِفُهُ فُؤَادِي بِاللَّطِيفِ[1]

وَيَظْهَرُ لَنَا هُنَا سُؤَالٌ: لِمَاذَا جَعَلَ اللهُ ﷻ الْمَغْضُوبَ مَبْنِيًّا لِمَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ، وَلَمْ يَقُلْ غَيْرَ الَّذِينَ غَضِبْتَ عَلَيْهِمْ وَلَا الَّذِينَ أَضْلَلْتَهُمْ؟

وَالْجَوَابُ: جَعَلَ اللهُ ﷻ الْغَضَبَ مَبْنِيًّا لِمَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ فَقَالَ: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾؛ لِأَنَّ اللهَ لَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ، وَلَا الْمَعَاصِيَ الَّتِي تُسَبِّبُ الْغَضَبَ.

وَمَعَ أَنَّ اللهَ -جَلَّ فِي عُلَاهُ- نَسَبَ الْإِضْلَالَ الْجَزَائِيَّ إِلَيْهِ فِي مَوَاضِعَ أُخْرَى كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦]، إِلَّا أَنَّهُ هُنَا نَسَبَ الضَّلَالَةَ إِلَى أَصْحَابِهَا فِي سُورَةِ الْفَاتِحَةِ الَّتِي تُقَدِّمُ الْبَصَائِرَ الْكُلِّيَّةَ الْإِسْلَامِيَّةَ فَقَالَ: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾؛ لِأَنَّهَا اخْتِيَارُهُمْ، فَهُمُ الَّذِينَ أَصَرُّوا عَلَى سُلُوكِ طَرِيقِ الضَّلَالَةِ، وَنَبْذِ الْعِلْمِ، وَالسَّيْرِ عَلَى جَهَالَةٍ.

وَسَبَبُ عَدَمِ نِسْبَةِ الْغَضَبِ، وَعَدَمِ نِسْبَةِ الْإِضْلَالِ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ: مَا يُحْدِثُهُ ذَلِكَ مِنْ تَرْغِيبِ هَؤُلَاءِ الشَّارِدِينَ عَنْهُ، عَسَى أَنْ يَرْجِعُوا إِلَى الطَّرِيقِ الصَّحِيحِ، حَيْثُ أَشَارَ إِلَى ذَلِكَ بِجَعْلِ الْغَضَبِ عَلَيْهِمْ دُونَ نِسْبَةٍ إِلَيْهِ، فَكَأَنَّهُ غَضَبٌ جَزَائِيٌّ طَارِئٌ يُمْكِنُ إِزَالَتُهُ بِإِزَالَةِ سَبَبِهِ، وَمِثْلُهُ الضَّلَالَةُ فَهُمُ الَّذِينَ ضَلُّوا، وَلَوْ رَجَعُوا إِلَيْهِ لَهَدَاهُمْ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ [الأنعام: ٧١].

فَنَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يَمُدَّنَا بِفَضْلِهِ، وَرَحْمَتِهِ، وَكَرَمِهِ، وَإِحْسَانِهِ بِالْإِنْعَامِ، وَالْإِكْرَامِ، وَيَحْمِيَنَا بِالْفَاتِحَةِ تِلَاوَةً، وَفِكْرًا، وَعَمَلًا مِنْ طَرِيقِ الْمُعْتَدِينَ مِنَ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَالضَّالِّينَ الظَّلَّامِ،

---

(١) مفتاح الأفكار للتأهب لدار القرار، السلمان (٢/ ١٢٣).

لِكَيْ لَا نَكُونَ جُزْءًا مِنْ بَرَامِجِهِمْ، وَلَا نَصْنَعَ صَنِيعَهُمْ، وَلَا نُوَافِقَهُمْ عَلَى طَرِيقِ الْمَعَاصِي وَالْإِجْرَامِ.

وَخُلَاصَةُ ذَلِكَ أَنَّ هُنَاكَ أَمْرَيْنِ:

> **الْإِنْسَانُ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ: عِلْمٍ وَعَمَلٍ أَوْ رُؤْيَةٍ وَإِرَادَةٍ أَوْ بَصِيرَةٍ وَسُلُوكٍ؛ فَمَنْ عَلِمَ وَعَمِلَ فَأُولَئِكَ الْمُنْعَمُ عَلَيْهِمْ، وَمَنْ عَلِمَ وَعَانَدَ الْعَمَلَ أَوْ عَادَاهُ فَقَدْ نَسَبَ نَفْسَهُ إِلَى الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ، وَمَنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ -الَّذِي قَدْ يُسَمِّيهِ دِينًا- بِغَيْرِ عِلْمٍ فَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ.**

وَيَصْدُقُ ذَلِكَ عَلَى مَنِ انْتَسَبَ إِلَى جَمِيعِ الْأُمَمِ، وَمِنْهُمُ الْمُسْلِمُونَ وَالْيَهُودُ وَالنَّصَارَى، فَـ ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٢٣].

❊❊❊

جِسْرُ اتِّصَالٍ: بَصَّرَتْنَا سُورَةُ الْفَاتِحَةِ بِتَعْرِيفِ الْإِسْلَامِ بِصُورَةٍ مُدْهِشَةٍ مِنَ خِلَالِ الْمَقَاصِدِ مِنَ الْأَوَّلِ إِلَى التَّاسِعِ، فَمَا السَّبِيلُ إِلَى أَنْ يَعْرِفَ الْعَالَمُ قِيمَةَ هَذَا الدِّينِ الْعَظِيمِ؟

الْجَوَابُ: هُنَا يَأْتِي:

الْمَقْصِدُ الْعَاشِرُ

مَبْدَأُ الْأُمَّةِ الْوَاحِدَةِ هُوَ الْوَسِيلَةُ الْوَحِيدَةُ لِإِيجَادِ مَوْقِعٍ حَقِيقِيٍّ لِرِسَالَةِ الرَّحْمَةِ فِي الْعَالَمِ، فَالْأُخُوَّةُ الْمَصِيرِيَّةُ تُحَقِّقُ لَهُمُ النَّصْرَ الْجَمَاعِيَّ، وَتَحْمِي الْجَمِيعَ، وَيُبَصِّرُنَا بِهَذَا نُونُ الْجَمَاعَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿نَعْبُدُ﴾، ﴿نَسْتَعِينُ﴾، ﴿اهْدِنَا﴾ مَعَ التَّقْسِيمِ الثُّلَاثِيِّ لِلْعَالَمِ إِلَى: مُنْعَمٍ عَلَيْهِمْ، وَمَغْضُوبٍ عَلَيْهِمْ، وَضَالِّينَ

فَهَذَا مَقْصِدٌ تَعْرِيفِيٌّ بِوَسِيلَةِ فَوْزِ أَصْحَابِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، فَبَعْدَ الْمَقَاصِدِ السَّابِقَةِ لَا بُدَّ أَنْ يَأْخُذَكَ التَّفْكِيرُ، وَتَسْتَوْلِيَ عَلَيْكَ الْإِثَارَةُ الْعِلْمِيَّةُ، فَقَدْ لَاحَظْتَ أَنَّ تِلْكَ الْمَقَاصِدَ بِبَصَائِرِهَا وَتَفَاصِيلِهَا تَرْسُمُ حَيَاةَ الْمَجْدِ لِمَنْ يَسْتَقِيمُ عَلَيْهَا، وَالسُّؤَالُ الْأَهَمُّ يَظَلُّ قَائِمًا: كَيْفَ السَّبِيلُ لِتَحْقِيقِ خُطَّةِ الْحَيَاةِ الْمُسْلِمَةِ عَلَى الْوَجْهِ الْأَمْثَلِ؟ وَمَا الْوَسِيلَةُ لِمَنْعِ اعْتِدَاءَاتِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَالضَّالِّينَ الَّذِينَ يَبْغُونَ الْحَيَاةَ عِوَجًا عَلَى الصَّالِحِينَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَسْتَقِيمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ السَّوِيَّةِ؟

أَرَادَ رَبُّكَ -جَلَّ وَعَزَّ- أَلَّا تَخْلُوَ الْفَاتِحَةُ الْمُبَارَكَةُ مِنْ بَيَانِ أَنَّ أَعْظَمَ وَسَائِلِ النَّصْرِ وَالْحِمَايَةِ مِنْ كَيْدِ الشَّيْطَانِ وَأَوْلِيَائِهِ مِنَ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَالضَّالِّينَ هُوَ تَطْبِيقُ مَبْدَأِ (الْأُمَّةِ الْوَاحِدَةِ) فَالْوَحْدَةُ هِيَ الْكَيْفِيَّةُ الْوَحِيدَةُ الَّتِي تَكْفُلُ لِأَصْحَابِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ أَنْ يَتَمَكَّنُوا مِنْ إِقَامَتِهِ، وَيَنْجَحُوا فِي الْحِفَاظِ عَلَى كِيَانِهِمْ فِي ظِلِّ هِدَايَتِهِ، وَذَلِكَ يَتِمُّ عَبْرَ بِنَاءِ النَّفْسِ الْمُسْلِمَةِ عَلَى هَذَا الْمَبْدَأِ الْأَسَاسِيِّ (مَبْدَأِ الْأُمَّةِ الْوَاحِدَةِ)؛ لِنَشْرِ رِسَالَةِ الرَّحْمَةِ الْعَالَمِيَّةِ، وَتَحْقِيقِ النَّصْرِ

الْجَمَاعِيِّ، فَلَا يَتَصَوَّرُ الْمُسْلِمُ أَنَّهُ بِمُفْرَدِهِ يُمْكِنُ أَنْ يُحَقِّقَ النَّشْرَ الْعَالَمِيَّ لِمَبَادِئِ رِسَالَةِ الرَّحْمَةِ الْعَالَمِيَّةِ؛ ذَلِكَ أَنَّ الْبِنَاءَ الْحَضَارِيَّ وَالنُّهُوضَ الْمُجْتَمَعِيَّ الَّذِي تُؤَسِّسُ لَهُ الْفَاتِحَةُ الْمُبَارَكَةُ الْمَجِيدَةُ لَا يُتَصَوَّرُ أَنْ يَتِمَّ إِلَّا بِجُهْدٍ جَمَاعِيٍّ، وَتَآزُرٍ وَتَآخٍ بَيْنَ أَصْحَابِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَنَسْتَنْبِطُ هَذَا الْمَقْصِدَ مِنْ مَوْضِعَيْنِ فِي سُورَةِ الْفَاتِحَةِ الْمُبَارَكَةِ:

الْمَوْضِعُ الْأَوَّلُ: التَّعْبِيرُ بِالصِّيغَةِ الْجَمَاعِيَّةِ فِي ثَلَاثِ كَلِمَاتٍ فِي سُورَةِ الْفَاتِحَةِ الْمُبَارَكَةِ هِيَ ﴿نَعْبُدُ، نَسْتَعِينُ، اهْدِنَا﴾ الواردة في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

الْمَوْضِعُ الثَّانِي: مِنَ التَّقْسِيمِ الثُّلَاثِيِّ لِلْعَالَمِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ۝٧﴾، فَكُلُّ أُمَّةٍ جَعَلَهَا اللهُ ﷻ قِسْمًا بِمَجْمُوعِهَا، وَالْمُنْعَمُ عَلَيْهِمْ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ يَسِيرُونَ فِي صِرَاطٍ وَاحِدٍ عَلَى مَنْهَجٍ وَاحِدٍ.

وَسَنُفَصِّلُ ذَلِكَ فِي الْبَصَائِرِ الْآتِيَةِ:

المقصد العاشر

مبدأ الأمة الواحدة هو وسيلة أصحاب الصراط المستقيم الوحيدة لتقديم رسالة الرحمة للعالمين، فالأخوة المصيرية تحقق لهم النصر الجماعي، وتحمي الجميع، ويبصرنا بهذا نون الجماعة في قوله تعالى: (نَعْبُدُ، نَسْتَعِينُ، اهْدِنَا) مع التقسيم الثلاثي للعالم إلى: مُنعَمٍ عليهم، ومغضوبٍ عليهم، وضالين

[الفاتحة: 7]

بصيرة 01

مبدأ (الأمة الواحدة) يمثل سلاح البناء الحقيقي والردع الوقائي للمعتدين

بصيرة 02

أهم آثار التقسيم الإلهي الثلاثي للعالم: الوحدة الزمانية والمكانية بين أصحاب الصراط المستقيم

بصيرة 03

فقه التعايش والرحمة بالعالمين، وكون المنعم عليهم خير أمة أخرجت للناس أجمعين ملازم لفقه الحذر والتحذير من المغضوب عليهم والضالين، فذلك من تمام الإنعام والرحمة.

الْبَصِيرَةُ الْأُولَى

مَبْدَأُ (الْأُمَّةِ الْوَاحِدَةِ) يُمَثِّلُ سِلَاحَ الْبِنَاءِ الْحَقِيقِيِّ وَالرَّدْعِ الْوِقَائِيِّ لِلْمُعْتَدِينَ

قُلْ لِي -أَيَّدَكَ اللهُ- مَاذَا تَجِدُ فِي التَّعْبِيرِ بِالصِّيغَةِ الْجَمَاعِيَّةِ فِي هَذِهِ الْكَلِمَاتِ الثَّلَاثِ فِي سُورَةِ الْفَاتِحَةِ الْمُبَارَكَةِ «نَعْبُدُ، نَسْتَعِينُ، اهْدِنَا»؟

كُلُّهَا وَرَدَتْ بِنُونِ الْجَمَاعَةِ مَعَ أَنَّ الْقَارِئَ وَاحِدٌ، وَكُلُّهَا أَفْعَالٌ تَدُلُّ عَلَى الْجُهْدِ الْمُقَدَّمِ مِنْ قَارِئِهَا حَتَّى طَلَبُ الْهِدَايَةِ، فَإِنَّهُ طَلَبٌ مِنْ سَائِلِهِ.

أَلَا يَبْرُزُ عِنْدَكَ السُّؤَالُ الْمُهَيِّجُ لِلْأَفْكَارِ: لِمَاذَا وَرَدَتْ هَذِهِ الْأَفْعَالُ بِنُونِ الْجَمَاعَةِ مَعَ أَنَّ الْقَارِئَ وَاحِدٌ؟

الْجَوَابُ وَاضِحٌ: إِنَّهُ غَرْسُ مَبْدَأِ الْوَحْدَةِ الْإِيمَانِيَّةِ شُعُورِيًّا وَنَفْسِيًّا، وَالْآنَ اسْتَحْضِرْ صُورَةَ الْمُصَلِّي -أَيَّدَكَ اللهُ- وَهُوَ يَقُولُ: (نَعْبُدُ، نَسْتَعِينُ، اهْدِنَا) هَكَذَا بِنُونِ الْجَمَاعَةِ، وَلَا تَصِحُّ الْفَاتِحَةُ مِنْهُ إِلَّا كَذَلِكَ؛ لِتَرَى أَنَّهُ عِنْدَمَا يَفْعَلُ ذَلِكَ فَإِنَّهُ يَنْطِقُ بِاسْمِ الْجَمَاعَةِ، تَخَيَّلْ ذَلِكَ! كُلُّ فَرْدٍ يَنْطِقُ بِاسْمِ الْجَمَاعَةِ مِمَّا يُمَثِّلُ سِلَاحَ رَدْعٍ وِقَائِيٍّ لِحِمَايَةِ الْأُمَّةِ ذَاتِ الْمَصَالِحِ الْمُشْتَرَكَةِ الْمُتَعَدِّدَةِ، فَمَا بَالُ كَثِيرٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ الْآنَ يَقْرَؤُونَ سُورَةَ الْفَاتِحَةِ وَلَكِنَّهُمْ يُسَارِعُونَ فِي خُصُومَةِ إِخْوَانِهِمْ وَمُوَادَّةِ أَعْدَائِهِمْ؟!

ثُمَّ انْظُرْ -بَعْدَ ذَلِكَ- إِلَى تِلْكَ الْآيَاتِ الْمُبَارَكَاتِ الَّتِي يَحْوِيهَا الْقُرْآنُ الْمَجِيدُ، قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحُجُرَات: ١٠]، وقَالَ رَبُّنَا ﷻ: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عِمرَان: ١٠٣]، وَقَالَ ﷻ وَهُوَ يُبَيِّنُ كَيْفَ يُمْكِنُ الِانْتِصَارُ عَلَى الْمُعْتَدِينَ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [الأَنفَال: ٦٤]، وَقَبْلَهَا بَيَّنَ أَنَّهُ أَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ، فَقَالَ ﷻ: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأَنفَال: ٦٣]، فَإِذًا مَبْدَأُ الْأُمَّةِ الْوَاحِدَةِ هُوَ الَّذِي يُمَثِّلُ أَعْظَمَ وَسَائِلِ الْوِقَايَةِ مِنَ الْمُعْتَدِينَ.

وَتَأَمَّلْ بَيْنَ يَدَيْكَ فِي النُّصُوصِ الْقُرْآنِيَّةِ، وَالْأَحْكَامِ التَّشْرِيعِيَّةِ الْمُسْتَنْبَطَةِ مِنْهَا، وَقَلِّبِ النَّظَرَ فِيهَا لِتَرَى بِنَاءَ الْحِسِّ الْجَمَاعِيِّ جُزْءًا أَسَاسِيًّا مِنَ النِّظَامِ الْعِبَادِيِّ الْإِسْلَامِيِّ، فَالصَّلَاةُ يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ فِي جَمَاعَةٍ، وَكُلَّمَا كَثُرَتِ الْجَمَاعَةُ كَانَ أَحَبَّ إِلَى اللهِ تَعَالَى، فَانْظُرْ أَثَرَ ذَلِكَ فِي بِنَاءِ النَّبِيِّ ﷺ لِنَفْسِيَّاتِ الْأُمَّةِ الْمُنْقِذَةِ لِلْعَالَمِ حَتَّى قَالَ: «وَإِنَّ صَلَاةَ الرَّجُلِ مَعَ الرَّجُلِ أَزْكَى

مِنْ صَلَاتِهِ وَحْدَهُ، وَصَلَاتُهُ مَعَ الرَّجُلَيْنِ أَزْكَى مِنْ صَلَاتِهِ مَعَ الرَّجُلِ، وَمَا كَثُرَ فَهُوَ أَحَبُّ إِلَى اللهِ ﷻ»[1].

وَهَلِ الزَّكَاةُ إِلَّا أَحَدُ أَهَمِّ أَرْكَانِ النِّظَامِ الْعِبَادِيِّ الِاجْتِمَاعِيِّ الْإِسْلَامِيِّ؟ وَهَلِ الْمَقْصُودُ مِنْهُ إِلَّا تَغْطِيَةُ الِاحْتِيَاجَاتِ الضَّرُورِيَّةِ وَالْحَاجِيَّةِ لِسَائِرِ الْمُسْلِمِينَ؟

وَالْحَجُّ، أَلَا تَرَى أَنَّهُ عِبَادَةٌ جَمَاعِيَّةٌ تَتَدَرَّبُ فِيهَا قِطَاعَاتٌ وَاسِعَةٌ مِنَ الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ عَلَى الْعَمَلِ الْمُشْتَرَكِ مَعَ حِفْظِ الْأَخْلَاقِ الْجَمَاعِيَّةِ، وَالْمَوَدَّةِ الْبَيْنِيَّةِ: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٧].

وَنَقِّبْ فِي أَتَمِّ الْعِبَادَاتِ أَجْرًا خَارِجَ الصَّلَاةِ -فِيمَا عَدَا الْفَرَائِضَ الْعَيْنِيَّةَ- لِتَجِدَ أَنَّ الْأَتَمَّ أَجْرًا مَا تَعَلَّقَ بِصَالِحِ الْجَمَاعَةِ، أَيْ: مَا كَانَ نَفْعُهُ مُتَعَدِّيًا.

أَلَا يَأْخُذُكَ الْإِعْجَابُ بِهَذَا النِّظَامِ الْقُرْآنِيِّ الْفَرِيدِ؟ إِنَّكَ تَرَى عَظَمَةَ بِنَاءِ النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ فِي التَّرْبِيَةِ الْقُرْآنِيَّةِ وَتَلْمَسُ كَيْفَ تُضْعِفُ التَّرْبِيَةُ الْقُرْآنِيَّةُ النَّفْسَ الْفَرْدِيَّ الَّذِي قَدْ يَحْمِلُ مَعْنَى الْأَنَانِيَّةِ وَالذَّاتِيَّةِ وَالْمَصَالِحِ الشَّخْصِيَّةِ، وَتَبْنِي الشُّعُورَ بِالْجَمَاعَةِ، وَمَا يَسْتَلْزِمُهُ ذَلِكَ مِنْ مَحَبَّةٍ وَتَضْحِيَاتٍ وَصَبْرٍ، وَفِي قَوْلِ اللهِ ﷻ: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢]، يَجْمَعُ اللهُ ﷻ بَيْنَ كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ بِعِبَادَةِ رَبِّ الْأَنَامِ، وَبَيْنَ تَوْحِيدِ الْكَلِمَةِ مِنْ خِلَالِ الْجَامِعَةِ الَّتِي تَجْمَعُ أُمَّةَ الْإِسْلَامِ، وَلِذَا قِيلَ: ادْعُوا اللهَ بِأَلْسِنَةٍ لَمْ تَعْصُوهُ بِهَا، وَذَلِكَ بِأَنْ يَدْعُوَ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ، لِأَنَّكَ مَا عَصَيْتَ اللهَ بِلِسَانِ أَخِيكَ، وَهُوَ مَا عَصَى اللهَ بِلِسَانِكَ.

---

(١) أبو داود(١ / ٢٠٧)، أحمد٥/ ١٤٠، وفي نصب الراية (٢ / ٢٤): "قَالَ النَّوَوِيُّ فِي "الْخُلَاصَةِ": إِسْنَادُهُ صَحِيحٌ، إِلَّا أَنَّ ابْنَ بَصِيرٍ سَكَتُوا عَنْهُ".

وَكَمَا تَتَكَرَّرُ قِرَاءَةُ الْمُصَلِّي لِسُورَةِ الْفَاتِحَةِ، يَتَكَرَّرُ قَوْلُ الْمُصَلِّي فِي التَّشَهُّدِ: «**السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللهِ الصَّالِحِينَ**»، لِأَهْدَافٍ رَائِعَةٍ، مِنْهَا هَذَا الْبِنَاءُ الْإِيمَانِيُّ لِلْحِسِّ الْجَمَاعِيِّ.

وَالنُّونُ أَبْلَغُ فِي الثَّنَاءِ مِنْ قَوْلِكَ: (أَعْبُدُ وَأَسْتَعِينُ) لَا مِنْ حَيْثُ تَعْظِيمُ الْمَرْءِ نَفْسَهُ، بَلْ مِنْ حَيْثُ تَعَدُّدُ مَنْ يُثْنِي عَلَى اللهِ -تَعَالَى ذِكْرُهُ-، لِئَلَّا تَخْلُوَ الْمُنَاجَاةُ عَنْ ثَنَاءٍ أَيْضًا بِأَنَّ الْمَحْمُودَ الْمَعْبُودَ الْمُسْتَعَانَ بِهِ قَدْ شَهِدَ لَهُ الْجَمَاعَاتُ وَعَرَفُوا فَضْلَهُ، وَآمَنُوا بِعَظَمَتِهِ[1]، وَاسْتَقَامُوا فِي صَفٍّ وَاحِدٍ عَلَى طَاعَتِهِ، وَالْتَأَمَتْ قُلُوبُهُمْ عَلَى مَحَبَّتِهِ.

ذَلِكَ كَانَ شُعَاعًا مِنْ خَبَرِ بِنَاءِ الْحِسِّ الْجَمَاعِيِّ فِي النَّفْسِيَّةِ الْمُسْلِمَةِ مِنْ خِلَالِ النِّظَامِ الْعِبَادِيِّ الشَّعَائِرِيِّ، وَالنِّظَامِ الْعِبَادِيِّ الْمُعَامَلَاتِيِّ بِمَجَالَاتِهِ: الِاجْتِمَاعِيَّةِ، وَالسِّيَاسِيَّةِ، وَالِاقْتِصَادِيَّةِ فَكُلُّهُ تَفْصِيلَاتٌ تَنْظِيمِيَّةٌ لِمَبَادِئِ الْأُمَّةِ الْوَاحِدَةِ مِنَ السُّوقِ الِاقْتِصَادِيَّةِ الْمُشْتَرَكَةِ، إِلَى التَّحَالُفَاتِ السِّيَاسِيَّةِ، إِلَى الْجُيُوشِ الْعَسْكَرِيَّةِ الْمُوَحَّدَةِ.

وَالْآنَ تَعَالَ إِلَى التَّطْبِيقِ النَّبَوِيِّ الْفَرِيدِ لِتَرَى أَنَّ الْحِسَّ الْجَمَاعِيَّ الَّذِي تَبْنِيهِ آيَاتُ الْفَاتِحَةِ قَدْ بَنَاهُ النَّبِيُّ ﷺ فِي الْوَاقِعِ الْحَضَارِيِّ لِلْمُسْلِمِينَ عِنْدَمَا أَسَّسَ لَهُمْ دَوْلَةً مُسْتَقِلَّةً، وَجَعَلَ مِنْ أَهَمِّ الْمَوَادِّ الدُّسْتُورِيَّةِ فِيهَا: «الْمُسْلِمُونَ تَتَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ، يَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَدْنَاهُمْ، وَيُجِيرُ عَلَيْهِمْ أَقْصَاهُمْ، **وَهُمْ يَدٌ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ، يَرُدُّ مُشِدُّهُمْ عَلَى مُضْعِفِهِمْ، وَمُتَسَرِّيهِمْ عَلَى قَاعِدِهِمْ**»[2].

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ١٨٦).

(٢) أبو داود (٢ / ٨٩)، وفي غريب الحديث للخطابي (١/ ٥٥٣) بَيَانٌ لِلْكَلِمَاتِ: فَمَعْنَى: (يَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَدْنَاهُمْ) أَيْ: يَسْعَى بِأَمَانِهِمْ، وَمَعْنَى: (يَرُدُّ مُشِدُّهُمْ) يُرِيدُ: أَنَّ الْقَوِيَّ يُشَارِكُ الضَّعِيفَ فِيمَا يَغْنَمُهُ، وَمَعْنَى: (وَمُتَسَرِّيهِمْ عَلَى قَاعِدِهِمْ): أَنَّ الْخَارِجَ فِي السَّرِيَّةِ يَرُدُّ عَلَى الْقَاعِدِ مَا يُصِيبُهُ مِن الْغَنِيمَةِ، وَهَذَا فِي السَّرِيَّةِ يَبْعَثُهُمُ الْإِمَامُ وَهُوَ خَارِجٌ إِلَى بِلَادِ الْعَدُوِّ فَإِذَا غَنِمُوا شَيْئًا كَانَ ذَلِكَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَهْلِ الْعَسْكَرِ عَامَّةً؛ لِأَنَّهُمْ رِدْءٌ لَهُمْ..

وَبِنَاءً عَلَى هَذَا الْحِسِّ الْجَمَاعِيِّ الَّذِي تَرْسُمُ خُطَاهُ الْأَسَاسِيَّةَ سُورَةُ الْفَاتِحَةِ الْمُبَارَكَةُ نَظَرَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى الْأُمَّةِ عَلَى أَنَّهَا كُتْلَةٌ وَاحِدَةٌ زَمَانًا وَمَكَانًا، فَقَعَّدَ لِلْقُوَّةِ الِاقْتِصَادِيَّةِ وَالْحَرَكَةِ الِاسْتِثْمَارِيَّةِ فِيهَا بِمَا لَا يُؤَدِّي إِلَى التَّفَاوُتِ الْمَالِيِّ الضَّخْمِ بَيْنَ أَفْرَادِهَا، وَقَالَ: «أَمَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْلَا أَنْ أَتْرُكَ آخِرَ النَّاسِ بَبَّانًا -أَيْ: فُقَرَاءَ- لَيْسَ لَهُمْ شَيْءٌ مَا فُتِحَتْ عَلَيَّ قَرْيَةٌ إِلَّا قَسَمْتُهَا كَمَا قَسَمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَيْبَرَ، وَلَكِنِّي أَتْرُكُهَا خِزَانَةً لَهُمْ يَقْتَسِمُونَهَا»(١).

وَلِأَنَّ اللهَ تَعَالَى أَسَّسَ فِي الْفَاتِحَةِ الْمُحْكَمَاتِ الْقَطْعِيَّةَ الْأَسَاسِيَّةَ لِبِنَاءِ الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَمِنْهَا بِنَاءُ حِسِّ الْأُمَّةِ الْوَاحِدَةِ، فَإِنَّ سُوَرَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ بَعْدَ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ مَلِيئَةٌ بِتَرْبِيَةِ الْحِسِّ الْجَمَاعِيِّ الْإِسْلَامِيِّ، وَحَسْبُنَا أَنْ نَضْرِبَ مَثَلًا بِأَنَّ اللهَ ذَكَرَ مَبْدَأَ الْأُمَّةِ الْوَاحِدَةِ بِاعْتِبَارِهِ مَادَّةً تَعْلِيلِيَّةً مَقَاصِدِيَّةً -وَهُوَ يُبَيِّنُ أَحْكَامَ النِّكَاحِ فِي سُورَةِ النِّسَاءِ- فَقَالَ: ﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ [النساء: ٢٥]، وَهَذِهِ الْجُمْلَةُ الْمُبَارَكَةُ تَدُلُّ عَلَى عِدَّةِ مَفَاهِيمَ، مِنْهَا:

الْمَفْهُومُ الْأَوَّلُ: الْإِيمَانُ جَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [التَّوْبَة: ٧١]، وَكَمَا قَالَ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الْحُجُرَات: ١٣].

وَقَدْ فَصَّلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هَذَا الْبُعْدَ الِاسْتِرَاتِيجِيَّ الْأَخْطَرَ فِي الْوَاقِعِ الْعَمَلِيِّ -وَهُوَ يُبَيِّنُ لَنَا مَوَازِينَ التَّحَالُفَاتِ الْعَالَمِيَّةِ- بِقَوْلِهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الْأَنْفَال: ٧٣].

وَهُنَا نَذْكُرُ كَيْفَ اعْتَزَّ (هِنْرِي كِيسِنْجَرْ) بِقُدْرَةِ الْوِلَايَاتِ الْمُتَّحِدَةِ الْأَمْرِيكِيَّةِ الْفَائِقَةِ فِي هَزِيمَةِ أَعْدَائِهَا بِالتَّفْرِيقِ بَيْنَهُمْ؟، وَجَلْبِهِمْ بَعْدَ الْهَزِيمَةِ لِيَتَحَاكَمُوا إِلَى مُؤَسَّسَاتٍ مِنْ صُنْعِهَا،

(١) البخاري (٥ / ١٧٦).

مُشِيرًا إِلَى عَقْلِيَّةِ قَوْمِهِ الْفَرِيدَةِ ضِمْنَ حِوَارٍ دَارَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَئِيسِهِ (هَارِي تْرُومَان) عِنْدَمَا سَأَلَهُ فِيهِ: عَنْ أَهَمِّ الْإِنْجَازَاتِ الَّتِي يَفْتَخِرُ بِهَا [1].

إِنَّهُ يُعَبِّرُ عَنْ عَبْقَرِيَّةِ الْوِلَايَاتِ الْمُتَّحِدَةِ الَّتِي صَنَعَتْ بِاتِّحَادِهَا الْحَقِيقِيِّ الْعَادِلِ نِسْبِيًّا عَظَمَةَ الْقِيَادَةِ لِلْعَالَمِ. فَمَتَى سَيَكُونُ عِنْدَ الْأُمَّةِ الَّتِي تَدْعُو بِأَنْ تُهْدَى صِرَاطَ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِمْ هَذِهِ الْقُوَّةُ الْفَذَّةُ؟

الْمَفْهُومُ الثَّانِي: الْمُجْتَمَعُ الْمُسْلِمُ قَائِمٌ عَلَى هُوِيَّةٍ وَاحِدَةٍ وَاضِحَةٍ هِيَ الْهُوِيَّةُ الْإِيمَانِيَّةُ، وَكُلُّ فَرْدٍ فِيهِ جُزْءٌ مِنَ الْآخَرِ، فَهُوَ بَعْضٌ مِنَ الْآخَرِ، وَهَذَا التَّصَوُّرُ فِي بِنَاءِ الْحِسِّ الْجَمَاعِيِّ يَدُلُّ عَلَى شِدَّةِ اهْتِمَامِ النِّظَامِ الْإِسْلَامِيِّ بِبِنَاءِ الْوَحْدَةِ الْإِسْلَامِيِّ لِدَرَجَةِ وَضْعِ هَذَا التَّشْبِيهِ (الْبَعْضِيَّةِ).

كَيْفَ تَرَى -بَعْدَ ذَلِكَ- وَاقِعَ الْأُمَّةِ الْيَوْمَ؟ فَبَدَلًا مِنَ الِانْصِيَاعِ إِلَى الْوَصْفِ الشَّرْعِيِّ لِتَقْسِيمِ النَّاسِ إِلَى غُلَاةٍ (الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ) وَجُفَاةٍ (الضَّالِّينَ)، وَبَيْنَهُمَا أَصْحَابُ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ السَّوِيِّ، نَنْجَرُّ وَرَاءَ التَّقْسِيمَاتِ الَّتِي تَرْسُمُهَا مُؤَسَّسَاتُ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَالضَّالِّينَ.

وَهَاهُنَا يَغْرِسُ الشَّيْطَانُ رَايَتَهُ، وَيَلْعَبُ بِالْمُسْلِمِينَ كَأَنَّهُمْ لَمْ يَشْعُرُوا قَطُّ بِمَعْنَى الْحِسِّ الْجَمَاعِيِّ لِبَعْضِهِمْ.

---

(١) ذكر ذلك الحوار في مقدمة كتابه (النظام العالمي World Order) ص١، ونقل عن رئيس الولايات المتحدة Harry S. Truman قوله: "That we totally defeated our enemies and then brought them back to the community of nations. I would like to think that only America would have done this".

ذَلِكَ (الْأَمْرُ الَّذِي يُشَكِّلُ أَكْبَرَ مَصْدَرٍ لِلْفَخْرِ) أَنَّنَا هَزَمْنَا أَعْدَاءَنَا تَمَامًا ثُمَّ أَعَدْنَاهُمْ إِلَى الْمُجْتَمَعِ الدَّوْلِيِّ! إِنَّنِي أُحِبُّ التَّفْكِيرَ أَنَّ ذَلِكَ لَا يَحْدُثُ إِلَّا فِي أَمِيرْكَا فَقَطْ.

وَإِذَا كَانَ الْمُسْلِمُ يَأْسَى لِتَفَرُّقِ الْأُمَّةِ عَامَّةً دُوَلًا وَشِيَعًا مُتَنَاحِرَةً، وَلِتَشَرْذُمِ أَفْرَادِهَا قِدَدًا كَالشَّاءِ فِي اللَّيْلَةِ الْمَطِيرَةِ؛ فَإِنَّ الْأَسَى يَعْظُمُ وَالْقَلْبُ يَتَفَطَّرُ دَمًا لِتَفَرُّقِ نُخَبِ الْأُمَّةِ (الدَّعَوِيَّةِ وَالْعِلْمِيَّةِ) الْمُؤَمَّلِ مِنْهُمْ أَنْ يَلُمُّوا الشَّتَاتَ وَيُوَحِّدُوا الْكَلِمَةَ بَدَلًا مِنَ التَّهَاوُشِ وَالتَّنَاوُشِ، وَهَذَا مَا جَعَلَ شَاعِرَ الْبَصَائِرِ د. سَعِيدَ بْنَ دَحْبَاجٍ -وَفَّقَهُ اللهُ- يُنْشِدُ مُتَأَلِّمًا:

امْلَؤُوا الْجَوَّ كُلَّهُ بِالْهُتَافِ ... وَخُذُوا الدِّينَ عَنْوَةً بِاعْتِسَافِ
أَوْدِعُوا الْمُحْكَمَاتِ فِي قَعْرِ جُبٍّ ... وَابْحَثُوا عَنْ دَقَائِقِ الْإِخْتِلَافِ
وَلْيَقِفْ لِلنِّزَالِ كُلُّ فَرِيقٍ ... خَلْفَ شَيْخٍ مُعَمَّمٍ فِي اصْطِفَافِ
واتركُوا المُحْكَمَ الجَلِيَّ وَرَاءً ... مِنْ سَبِيلِ الإخا أَوْ الِائْتِلافِ
واجعلوا مِنَ الحُبُوبِ قِبَابًا ... وَلْيَكُنْ حَوْلَهَا جَمِيعُ الطَّوَافِ
أَبْدِعُوا فِي احْتِكَارِ جَنَّاتِ عَدْنٍ ... لذويكمْ وَحُورِيَاتٍ لِطَافِ
بَشِّرُوا غَيْرَكُمْ بِنَارٍ تَلَظَّى ... إِنْ بَدَا مِنْهُ عَنْ هَوَاكُمْ تَجَافِي
أَشْعِلُوا الحَرْبَ بينكمْ لا تَنَاهِي ... لِمَدَاهَا بِحِنْكَةٍ وَاحْتِرَافِ
واتركوا العُمْقَ نَحْنُ فِي العُمْقِ ... وَلْتَخُوضُوا نِزَالَكُمْ فِي الضِّفَافِ
أَسْرِجُوا للخِلافِ خَيلًا كَثِيفًا ... واملَؤُوا السَّاحَ بالخُيُولِ الصَّوَافِ
أَطْفِئُوا شَمْعَةَ الوِفَاقِ لِتَعْلُو ... رَايَةَ الْخُلْفِ فِي الرُّبَى وَالْفَيَافِي
بَأْسُكُمْ بَيْنَكُمْ شَدِيدٌ فَهَلَّا ... كَانَ ذَا الْبَأْسُ مَيْلَةً لِانْعِطَافِ[1]

اللَّهُمَّ أَلْهِمْنَا رُشْدَنَا، وَقِنَا شُرُورَ أَنْفُسِنَا.. يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.

---

(١) ديوان عتب القوافي (ص: ٧).

جِسْرُ اتِّصَالٍ: عَلِمْنَا الْبَصِيرَةَ الْأُولَى مِنْ بَصَائِرِ الْمَقْصِدِ الْعَاشِرِ وَهِيَ مَبْدَأُ (الْأُمَّةِ الْوَاحِدَةِ) يُمَثِّلُ سِلَاحَ الْبِنَاءِ الْحَقِيقِيِّ وَالرَّدْعِ الْوِقَائِيِّ لِلْمُعْتَدِينَ، فَمَا الْبَصِيرَةُ الثَّانِيَةُ لِهَذَا الْمَقْصِدِ الْعَظِيمِ؟

الْجَوَابُ:

الْبَصِيرَةُ الثَّانِيَةُ

أَهَمُّ آثَارِ التَّقْسِيمِ الْإِلَهِيِّ الثُّلَاثِيِّ لِلْعَالَمِ: الْوَحْدَةُ الزَّمَانِيَّةُ وَالْمَكَانِيَّةُ بَيْنَ أَصْحَابِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ

التَّقْسِيمُ الْإِلَهِيُّ الثُّلَاثِيُّ لِلْعَالَمِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧ ﴾ تَقْسِيمٌ سِيَاسِيٌّ بِامْتِيَازٍ، يُحَدِّدُ هُوِيَّةَ أُمَّةِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ عَلَى هُدَى الْوَحْيِ الْقَوِيمِ، وَيُحَقِّقُ الْمَصَالِحَ الْإِسْلَامِيَّةَ، وَيَضْمَنُ إِقَامَةَ الْحَيَاةِ الْمُسْلِمَةِ؛ فَإِنَّ أَعْظَمَ النِّعَمِ الْإِيمَانِيَّةِ الْأُخُوَّةُ الْحَقِيقِيَّةُ لِأَصْحَابِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ. إِنَّهَا الْأُخُوَّةُ الَّتِي تَجْمَعُ بَيْنَ أَجْيَالِ الْمُوَحِّدِينَ فِي الْمَاضِي وَالْحَاضِرِ وَالْمُسْتَقْبَلِ، فَهِيَ أُخُوَّةٌ مَكَانِيَّةٌ تَخْتَرِقُ الْأَمْكِنَةَ، وَزَمَانِيَّةٌ تَجْمَعُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ لَدُنْ آدَمَ عليه السلام إِلَى الصَّحَابَةِ الْكِرَامِ رضي الله عنهم، إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ يُظَلِّلُهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ﴾ [المؤمنون: ٥٢].

وَلَوْ سُئِلْتَ: مَاذَا تَجِدُ مِنْ إِشَارَاتٍ فِي وَصْفِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ بِأَنَّهُ صِرَاطُ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ؟

إِنَّهَا إِشَارَاتٌ قَوِيَّةٌ حَاسِمَةٌ تَنْبَثِقُ مِنْ طَبِيعَةِ الْحِمَايَةِ الْقَوِيَّةِ الَّتِي يَتَمَتَّعُ بِهَا مَنْ يَنْتَسِبُ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ؛ حَيْثُ أَلَّفَ اللهُ عز وجل بَيْنَهُمْ عَلَى اخْتِلَافِ الْحُدُودِ الزَّمَانِيَّةِ وَالْمَكَانِيَّةِ،

وَحَمَاهُمْ مِنْ أَنْ يَخْتَرِقَهُمْ غَيْرُهُمْ مِنَ الْفِرَقِ الْأُخْرَى، وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْمَكَاسِبِ السِّيَاسِيَّةِ، وَالْأُسُسِ الْحَضَارِيَّةِ لِأُمَّةِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَأَهَمِّ عَوَامِلِ قُوَّتِهَا، وَأَرْكَانِ عِزَّتِهَا.

أَهَمُّ أَهْدَافِ قُوَى الْكُفْرِ وَالِاسْتِكْبَارِ:

إِنَّ أَخْطَرَ هَدَفَيْنِ اسْتَطَاعَتْ قُوَى الِاسْتِعْمَارِ الْمُسْتَكْبِرَةِ تَحْقِيقَهُمَا وَالْوُصُولَ إِلَيْهِمَا:

الْهَدَفُ الْأَوَّلُ: تَفْتِيتُ الْوَحْدَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْمَكَانِيَّةِ بَيْنَ الْأَقْطَارِ الَّتِي سُمِّيَتْ بَعْدَ ذَلِكَ (دُوَلًا إِسْلَامِيَّةً)، إِذْ أَغْلَقَ الَّذِينَ يَنْتَسِبُونَ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ الْحُدُودَ فِي وَجْهِ بَعْضِهِمْ، وَفِي الْوَقْتِ ذَاتِهِ فَتَحَ الْمُنْتَسِبُونَ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ أَبْوَابَهُمْ وَحُدُودَهُمْ أَمَامَ الْغَزْوِ الثَّقَافِيِّ الْأُمَمِيِّ الرَّهِيبِ الْقَادِمِ مِنْ قُوَى الِاسْتِكْبَارِ مِنَ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَالضَّالِّينَ، وَبِذَا تَكُونُ الْأُمَّةُ قَدِ ارْتَكَبَتْ عَكْسَ مَا أَرَادَهُ اللهُ ﷻ مِنْهَا حِينَمَا قَسَّمَ الْفِرَقَ الْعَالَمِيَّةَ إِلَى: (أَصْحَابِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَالْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ، وَالضَّالِّينَ)، وَالْأَعْجَبُ مِنْ هَذَا هُوَ أَنَّ بَعْضَهُمْ يَفْتَخِرُ بِهُوِيَّتِهِ الْمَحْدُودَةِ، وَيَتَنَكَّرُ لِمَبْدَأِ الْأُمَّةِ الْوَاحِدَةِ، وَيَحْبِسُ نَفْسَهُ فِي حُدُودٍ جُغْرَافِيَّةٍ حِسِّيَّةٍ كَانَتْ أَوْ مَعْنَوِيَّةٍ، وَيَنْسَى الْأُفُقَ الرَّحْبَ لِأُمَّةِ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِمْ.

وَقَدْ أَنْكَرَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ عِنْدَمَا تَدَاعَوْا بِحُدُودِ الِانْتِمَاءِ الضَّيِّقِ (يَا لَلْمُهَاجِرِينَ، وَيَا لَلْأَنْصَارِ) فَقَالَ لَهُمْ زَاجِرًا، وَمُنَبِّهًا: «أَبِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ وَأَنَا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ؟»[1]. مَعَ أَنَّ انْتِمَاءَهُمْ قَائِمٌ وَتَعَامَلَ مَعَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى أَسَاسِ هَذَا التَّقْسِيمِ إِدَارِيًّا، وَاجْتِمَاعِيًّا، وَلَكِنْ حِينَمَا أَصْبَحَ إِطَارًا يُحَجِّمُ الِانْتِمَاءَ الْوَاسِعَ إِلَى أُمَّةِ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِمْ نَهَاهُمْ وَزَجَرَهُمْ.

(١) سيرة ابن هشام ت السقا (١/ ٥٥٦).

الْهَدَفُ الثَّانِي: تَفْتِيتُ الْوَحْدَةِ الثَّقَافِيَّةِ الزَّمَانِيَّةِ، وَتَقْطِيعُ أَوَاصِرِ الصِّلَةِ مَعَ التُّرَاثِ الْإِسْلَامِيِّ السَّابِقِ الَّذِي أَنَارَ الْعَالَمَ رَحْمَةً وَحِكْمَةً وَعِلْمًا، وَصَارَ الِانْتِسَابُ إِلَى السَّابِقِينَ مِنْ عَبَاقِرَةِ هَذِهِ الْأُمَّةِ تُهْمَةً يَتِمُّ التَّبَرُّؤُ مِنْهَا لِتَكُونَ النَّتِيجَةُ أَنْ يَقُومَ كَثِيرٌ مِمَّنْ يَنْتَسِبُ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ بِمُقَاطَعَةِ تَحْكِيمِ الشَّرِيعَةِ، وَالتُّرَاثِ الْإِسْلَامِيِّ الزَّاخِرِ الْأَصِيلِ بَدَلَ أَنْ يَفْتَخِرَ وَيَعْتَزَّ بِهِ.

يَا طِيبَ عَهْدٍ كَانَتْ عُهُودُ الْإِنَارَةِ الْعَالَمِيَّةِ الْحَقِيقِيَّةِ لَنَا فِيهِ عِنْدَمَا كَانَ هَذَا التَّقْسِيمُ الْإِلَهِيُّ الثُّلَاثِيُّ لِلْوَاقِعِ الْعَالَمِيِّ (الْمُنْعَمُ عَلَيْهِمْ، الْمَغْضُوبُ عَلَيْهِمْ، الضَّالُّونَ) هُوَ السَّائِدَ الْمُهَيْمِنَ عَلَى التَّفْكِيرِ الْمُسْلِمِ، حَيْثُ كَانَ يَهْرُبُ الْمُضْطَهَدُونَ مِنَ الْيَهُودِ وَغَيْرِهِمْ فِي الْعَالَمِ إِلَى أَحْضَانِ الْمُسْلِمِينَ الْمُحَكِّمِينَ لِلشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، فَمَا بَالُ الْحُشُودِ الْغَافِلَةِ مِنْ أُمَّتِنَا اسْتَبْدَلَتِ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ، فَصَارَتْ تَصِفُ تِلْكَ الْعُهُودَ الْإِسْلَامِيَّةَ الَّتِي أَشْرَقَتْ عَلَى الْعَالَمِ بِعُهُودِ الظَّلَامِ؟

لَقَدْ نَجَحَ الِاسْتِدْمَارُ الْحَدِيثُ (الَّذِي يُسَمُّونَهُ الِاسْتِعْمَارَ وَهُوَ ضِدُّ مَعْنَاهُ) فِي تَعْطِيلِ هَذَا الْمَفْهُومِ الْكَبِيرِ الَّذِي أَوْجَدَتْهُ آيَتَا ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ إِلَى دَرَجَةٍ مُدْهِشَةٍ مُبْكِيَةٍ مُضْحِكَةٍ؛ إِذْ تَرَى الدُّوَلَ الَّتِي تُسَمِّي نَفْسَهَا مُسْتَقِلَّةً تَجْتَمِعُ فِي تَحَالُفٍ قَوِيٍّ مَعَ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَالضَّالِّينَ مِمَّنْ قَتَّلَ مِنْ أَبْنَائِهَا الْمَلَايِينَ، وَتُغْلِقُ حُدُودَهَا مَعَ مَنْ يَنْتَسِبُ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ مِنَ الْأَطْفَالِ وَالنِّسَاءِ وَالرِّجَالِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا.

وَمَا أَصْدَقَ صَرْخَةَ شَاعِرِ الدَّعْوَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَلِيدِ الْأَعْظَمِيِّ حِينَمَا أَرْسَلَهَا مُدَوِّيَةً فِي أُذُنِ الزَّمَانِ فَقَالَ:

يَا عَاكِفِينَ عَلَى الْأَلْحَانِ تُطْرِبُهُمْ ... إِخْوَانُكُمْ فِي ذُرَى "بَنْزَرْتَ" أَمْوَاتُ

وَاتْرُكُوا الْعُمْقَ نَحْنُ فِي الْعُمْقِ ... وَلْتَخُوضُوا نِزَالَكُمْ فِي الضِّفَافِ

دَارَتْ عَلَيْهِمْ رَحَى الْإِجْرَامِ طَاحِنَةً ... وَلَمْ تَلُحْ مِنْ جَحِيمِ الْمَوْتِ مَنْجَاةُ
أَطْفَالُهُمْ تَأْكُلُ الْأَحْجَارَ مِنْ سَغَبٍ ... وَشَيْخُهُمْ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ يَقْتَاتُ
مَتَى النُّهُوضُ وَهَذَا الْعِرْضُ مُنْتَهَكٌ ... وَالصَّفُّ مُضْطَرِبٌ وَالشَّمْلُ أَشْتَاتُ
فِي كُلِّ يَوْمٍ لَنَا شَكْوَى نُقَدِّمُهَا ... وَلَيْسَ تُجْدِي شَكَاوَى وَاحْتِجَاجَاتُ
لَكِنْ تَصُونُ الْحِمَى مِنْ كُلِّ ذِي طَمَعٍ ... يَوْمَ الْكَرِيهَةِ نِيرَانٌ وَثَارَاتُ
كَفَى نِفَاقًا كَفَى غِشًّا كَفَى كَذِبًا ... فِي كُلِّ يَوْمٍ لَكُمْ نَفْيٌ وَإِثْبَاتُ
لَا شَيْءَ يَنْفَعُنَا إِلَّا عَقِيدَتُنَا ... اللهُ أَكْبَرُ لَا الْعُزَّى وَلَا اللَّاتُ[1]

وَلَكَ أَنْ تَسْأَلَ: مَا نَتِيجَةُ عَدَمِ تَطْبِيقِ هَذَا التَّقْسِيمِ الْقُرْآنِيِّ لِلْحُلَفَاءِ وَالْأَعْدَاءِ؟

إِنَّ النَّتِيجَةَ الْحَتْمِيَّةَ لِذَلِكَ هِيَ التِّيهُ وَالْهَلَاكُ وَالضَّيَاعُ الرَّهِيبُ الَّذِي نَعِيشُهُ ضِمْنَ أَرْوِقَةِ مَجَالِسِ الْإِخَافَةِ الدَّوْلِيَّةِ، وَمُؤَسَّسَاتِ شَيْطَنَةِ حُقُوقِ الْمَرْأَةِ، وَمَتَاهَاتِ التَّفَرُّجِ عَلَى الْإِبَادَاتِ الْجَمَاعِيَّةِ لِعَدَمِ وُجُودِ شَرْعِيَّةٍ دَوْلِيَّةٍ إِلَّا الشَّرْعِيَّةَ الَّتِي لَمْ تَعْرِفِ الْبَشَرِيَّةُ شَرْعِيَّةً عُنْصُرِيَّةً شِرِّيرَةً مِثْلَهَا.

إِنَّهَا شَرْعِيَّةُ (الْفِيتُو) الْعُنْصُرِيَّةُ الْمُتَوَحِّشَةُ، حَيْثُ صَارَ مُسْتَضْعَفُو الْعَالَمِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَغَيْرِهِمْ فَرِيسَةً لِأَبْشَعِ الْأَعْدَاءِ، كَمَا هِيَ الْحَالَةُ الْمُعَاصِرَةُ الَّتِي وَصَفَهَا النَّبِيُّ ﷺ بِقَوْلِهِ: «يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا» فَقَالَ قَائِلٌ: وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: «بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ -مَا يَحْمِلُهُ السَّيْلُ مِنْ وَسَخٍ- كَغُثَاءِ السَّيْلِ،

(١) ديوان وليد الأعظمي (ص: ٢٣٨).

وَلَيَنْزِعَنَّ اللهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَلَيَقْذِفَنَّ اللهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ» فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ: «حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ»[1].

لقد قال ابنٌ مِنْ أبناء هذه الأمة متوجعًا[2]:

أُمَّاهُ، أَعْرِفُ أَنَّ تَاجَكِ قَدْ نُقِشَ عَلَيْهِ قُرْآنًا وَسُنَّةْ

أُمَّاهُ، أَعْرِفُ أَنَّ فِي أَحْشَائِكِ الْحَرَّى مَلَايِينَ الْأَجِنَّةْ

أُمَّاهُ، لَا أَخْشَى عَلَيْكِ الْعُقْمَ، لَكِنِّي أُحِسُّ بِمَا يُدَسُّ لِكَبْتِ أَنْفَاسِ الْأَجِنَّةْ

وَأَرَى حَوَالَيْكِ الذِّئَابَ نُيُوبُهُنَّ مُكَشَّرَاتٌ كَالْأَسِنَّةْ

لِلْحَقِّ تَكْبِيلٌ، وَتَنْكِيلٌ، وَلِلنَّزَوَاتِ إِطْلَاقُ الْأَعِنَّةْ

أُمَّاهُ، مَا سَفَحَتْ دُمُوعِي كَثْرَةُ الْأَعْدَاءِ إِنْ نَبَحَتْ عَلَيْكِ

أَوْ أَرْسَلَتْ جُنْدَ الضَّلَالَةِ وَالْهَوَى مِنْهَا إِلَيْكِ

أَوْ أَعْلَنَتْ وَبِكُلِّ أَسْلِحَةِ الدَّمَارِ، وَنَفَّذَتْ حَرْبًا عَلَيْكِ

لَكِنْ مَا يُدْمِي ضَمِيرِي أَنْ يَقُومَ بَنُوكِ بِالتَّدْمِيرِ فِيكِ.

❊❊❊

---

(١) أبو داود (٢ / ٥١٤)، وجوَّد الهيثمي إسناده، والغثاء ما يحمله السيل من وسخ.

(٢) الأبيات للشاعر عبد الفتاح محمد جمال.

جِسْرُ الِاتِّصَالِ: عَلِمْنَا الْبَصِيرَةَ الثَّانِيَةَ مِنْ بَصَائِرِ الْمَقْصِدِ الْعَاشِرِ وَهِيَ أَنَّ أَهَمَّ آثَارِ التَّقْسِيمِ الْإِلَهِيِّ الثُّلَاثِيِّ لِلْعَالَمِ: الْوَحْدَةُ الزَّمَانِيَّةُ وَالْمَكَانِيَّةُ بَيْنَ أَصْحَابِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، فَمَا الْبَصِيرَةُ الثَّالِثَةُ لِهَذَا الْمَقْصِدِ الْعَظِيمِ؟

الْجَوَابُ:

الْبَصِيرَةُ الثَّالِثَةُ

فِقْهُ التَّعَايُشِ وَالرَّحْمَةِ بِالْعَالَمِينَ، وَكَوْنُ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ أَجْمَعِينَ مُلَازِمٌ لِفِقْهِ الْحَذَرِ وَالتَّحْذِيرِ مِنَ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَالضَّالِّينَ، فَذَلِكَ مِنْ تَمَامِ الْإِنْعَامِ وَالرَّحْمَةِ

فِقْهُ التَّعَايُشِ وَالرَّحْمَةِ بِالْعَالَمِينَ، وَكَوْنُ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ أَجْمَعِينَ مُلَازِمٌ لِفِقْهِ الْحَذَرِ وَالتَّحْذِيرِ مِنَ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَالضَّالِّينَ، فَذَلِكَ مِنْ تَمَامِ الْإِنْعَامِ وَالرَّحْمَةِ.

فِي فِقْهِ آيَتَيِ الصِّرَاطِ نَسْتَنْبِطُ بَصَائِرَ قُرْآنِيَّةً ثَرِيَّةً تَبْنِيهَا آيَةُ السُّعَدَاءِ وَالْأَشْقِيَاءِ فِي الْعَقْلِيَّةِ الْمُسْلِمَةِ، وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّ الْمُنْعَمَ عَلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ؛ يَجِبُ عَلَيْهِمُ الْحَذَرُ وَالتَّحْذِيرُ مِنَ الْفِرَقِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهَا وَالضَّالَّةِ، لِأَنَّهَا تَتَسَبَّبُ فِي اسْتِجْلَابِ غَضَبِ أَرْحَمِ الرَّاحِمِينَ، وَتُوقِعُ الْأُمَّةَ فِي الضَّلَالَاتِ الْفِكْرِيَّةِ، فَقَدْ وَصَفَ اللهُ ﷻ صِرَاطَ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِمْ بِأَنَّهُ ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾.

إِنَّهَا الْوَاقِعِيَّةُ الرَّائِعَةُ لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، فَلَمْ يَجْعَلْنَا نَعِيشُ فِي فِخَاخِ الْأَحْلَامِ، وَشِبَاكِ الْأَوْهَامِ؛ فَإِنَّ مِنَ الْحَقَائِقِ الْكَوْنِيَّةِ الْوَاضِحَةِ وُجُودَ الْمُجْرِمِينَ وَالْمُعْتَدِينَ وَالْمُفْسِدِينَ مِنَ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَالضَّالِّينَ؛ لِيَتِمَّ الِاخْتِبَارُ فِي دَارِ الدُّنْيَا بِكَيْفِيَّةِ تَفَاعُلِ الْأَخْيَارِ مَعَ شَرِّ

الْأَشْرَارِ ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٠]، وَهَذِهِ الْبَصِيرَةُ الْقُرْآنِيَّةُ تَعْنِي أَنْ يُوجَدَ فِقْهُ التَّعَايُشِ جَنْبًا إِلَى جَنْبٍ مَعَ فِقْهِ الْحَذَرِ وَالتَّحْذِيرِ.

فَفِي فِقْهِ التَّعَايُشِ يَتَعَايَشُ أَهْلُ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ مَعَ غَيْرِهِمْ فِي ظِلِّ قِيَمِ: الْعَدْلِ، وَالْإِحْسَانِ، وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى، وَتَرْكِ الْفَحْشَاءِ، وَالْمُنْكَرِ، وَالْبَغْيِ. وَفِي فِقْهِ الْحَذَرِ وَالتَّحْذِيرِ تَقْتَضِي مَعَانِي سُورَةِ الْفَاتِحَةِ وَتَوْجِيهَاتُهَا إِيجَادَ آلِيَّاتٍ فَرْدِيَّةٍ وَجَمَاعِيَّةٍ لِلْحَذَرِ وَالتَّحْذِيرِ مِنَ الْفِرَقِ الْمُجْرِمَةِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهَا وَالضَّالَّةِ، وَهَذِهِ التَّوْجِيهَاتُ نُلَاحِظُهَا بَيِّنَةً فِي وَصْفِ اللهِ -عَزَّ جَارُهُ- لِلْمُجْرِمِينَ بِأَنَّهُمْ مَغْضُوبٌ عَلَيْهِمْ أَوْ ضَالُّونَ، وَهَذَا الْوَصْفُ وَصْفٌ لِمَبْدَأِ فِعْلِهِمْ وَنَتِيجَتِهِ فِي الْوَقْتِ ذَاتِهِ، فَقَدْ عَصَوْا فَضَلُّوا، وَاسْتَحَقُّوا الْغَضَبَ النَّازِلَ عَلَيْهِمْ، ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا أَكْثَرَ، وَلِأَنَّهُمْ مَغْضُوبٌ عَلَيْهِمْ وَضَالُّونَ فَقَدْ حُرِمُوا التَّوْفِيقَ لِلتَّوْبَةِ، فَهُمْ مِنَ الْغَضَبِ وَالضَّلَالِ يَنْطَلِقُونَ لِيَزْدَادُوا غَضَبًا وَضَلَالًا.

مُخَطَّطُ تَفْرِيقِ أُمَّةِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ:

الْآنَ اسْتَرْجِعِ الذَّاكِرَةَ التَّارِيخِيَّةَ لِتَرَى بِوُضُوحٍ أَنَّ الْكُلِّيَّاتِ الْجَامِعِيَّةَ وَالْمُؤَسَّسَاتِ الثَّقَافِيَّةَ الْمُنْبَثِقَةَ عَنِ الْإِرْسَالِيَّاتِ التَّنْصِيرِيَّةِ فِي لُبْنَانَ وَمِصْرَ قَدْ أَدَّتْ دَوْرًا وَظِيفِيًّا قَذِرًا فِي الْفَصْلِ بَيْنَ الْمُسْلِمِ التُّرْكِيِّ وَالْمُسْلِمِ الْعَرَبِيِّ بِاسْمِ الْقَوْمِيَّةِ وَالْحِرْصِ عَلَى اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ أَوِ الْهُوِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ، فَهِيَ لَمْ تُحَارِبْ مَبْدَأَ الظُّلْمِ الَّذِي قَدْ يُوجَدُ عِنْدَ الْعَرَبِ، وَقَدْ يُوجَدُ عِنْدَ الْأَتْرَاكِ، وَقَدْ يُوجَدُ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ، وَقَدْ يُوجَدُ عِنْدَ النَّصَارَى، بَلْ صَارَتْ تُحَارِبُ الْجِنْسِيَّةَ ذَاتَهَا لِلتَّفْرِيقِ بَيْنَ أَصْحَابِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ (الْمُسْلِمِينَ)، فَجَعَلَتِ الْأَتْرَاكَ فِي جِهَةٍ، وَالْعَرَبَ فِي جِهَةٍ أُخْرَى، وَالْأَكْرَادَ فِي جِهَةٍ ثَالِثَةٍ، وَهَلُمَّ جَرًّا.. حَتَّى تَغَوَّلَتْ قِيَمُ الْقَوْمِيَّةِ عَلَى الْعَرَبِ فَصَاحَ صَائِحُهُمْ:

هَبُونِي دِينًا يَجْعَلُ الْعُرْبَ مِلَّةً ... وَسِيرُوا بِجُثْمَانِي عَلَى دِينِ جُرْهُمِ

رَضِيتُ بِكُفْرٍ قَدْ يُوَحِّدُ بَيْنَنَا ... وَأَهْلًا وَسَهْلًا بَعْدَهُ بِجَهَنَّمِ

ثُمَّ خَطَتْ مُخَطَّطَاتُ التَّفْرِيقِ وَالتَّفْتِيتِ خُطْوَةً أُخْرَى -بَعْدَ فَصْلِ الْعُضْوِ التُّرْكِيِّ الْمُسْلِمِ عَنِ الْجَسَدِ الْإِسْلَامِيِّ الْعَامِّ- فَفَرَّقَتْ بَيْنَ الْعَرَبِ ذَاتِهِمْ بِاسْمِ الْهُوِيَّاتِ التُّرَابِيَّةِ الضَّيِّقَةِ الَّتِي عَبَّرَتْ عَنْهَا حُدُودُ سَايْكِسْ بِيكُو الْمَشْؤُومَةُ، وَبِإِحْيَاءِ الْقَوْمِيَّاتِ الْجَاهِلِيَّةِ الْغَابِرَةِ: كَالْفِرْعَوْنِيَّةِ، وَالْبَابِلِيَّةِ..الخ، وَلَكِنَّ أَسْوَأَ الْخُطُوَاتِ فِي خُطَّةِ الْفَصْلِ بَيْنَ أَصْحَابِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ هِيَ: خُطْوَةُ الشَّرْخِ الرَّهِيبِ الَّذِي أَحْدَثَهُ الضَّالُّونَ الَّذِينَ يَعِيشُونَ دَاخِلَ الْجَسَدِ الْإِسْلَامِيِّ، وَهُمْ ثَلَاثُ فِئَاتٍ: الْمُنَافِقُونَ، وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ، وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَإِمَّا سَمَّاعُونَ لَهُمْ كَمَا قَالَ رَبُّنَا جَلَّ شَأْنُهُ: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ [التَّوبَة : ٤٧].

وَقَدْ حَاوَلَ الضَّالُّونَ أَنْ يَصْنَعُوا إِسْلَامًا مُغَايِرًا لِلْإِسْلَامِ الَّذِي ارْتَضَاهُ اللهُ، إِسْلَامٌ يَخْتَلِفُ عَنِ الْإِسْلَامِ الَّذِي وَصَلَنَا صَافِيًا نَقِيًّا عَنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَنَقَلَهُ إِلَيْنَا الْأَصْحَابُ رضي الله عنهم.

وَتَطَوَّرَتْ حَرَكَاتُ الضَّالِّينَ فِي الدَّاخِلِ الْإِسْلَامِيِّ بِصُورَةٍ وَبَائِيَّةٍ، وَرِعَايَةٍ مِنْ قِيَادَاتِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَالضَّالِّينَ فِي الْخَارِجِ تَحْتَ شِعَارِ حِمَايَةِ الْأَقَلِّيَّاتِ، وَرِعَايَةِ الطَّوَائِفِ، وَالِاهْتِمَامِ بِالْقَوْمِيَّةِ، وَالتَّرْكِيزِ عَلَى الْجِنْسِ (حُقُوقِ الْمَرْأَةِ)؛ حَيْثُ وَجَدَتْ فِيهَا كَنْزًا اسْتِرَاتِيجِيًّا رَهِيبًا يَقُومُ بِالتَّدْمِيرِ السَّرَطَانِيِّ لِلْأُمَّةِ الْمُسْلِمَةِ، وَلَمْ يَتَنَبَّهْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ إِلَى خُطُورَةِ كُلِّ هَذِهِ الْفِخَاخِ الْفِكْرِيَّةِ، وَالشُّرُوخِ الْعُنْصُرِيَّةِ، وَالشُّقُوقِ الْحُدُودِيَّةِ الَّتِي قَسَّمَتِ الْمُقَسَّمَ، وَجَزَّأَتِ الْمُجَزَّأَ، وَحَوَّلَتْهُمْ مِنْ أُمَّةٍ وَاحِدَةٍ إِلَى أُمَمٍ مُتَفَرِّقَةٍ مُتَنَاحِرَةٍ.

لَقَدْ قَسَّمَتْ آيَتَا الصِّرَاطِ الْعَالَمَ تَقْسِيمًا مَنْطِقِيًّا، فَأَبَى الْمَغْضُوبُ عَلَيْهِمْ وَالضَّالُّونَ إِلَّا التَّلَاعُبَ لِإِبْطَالِ هَذَا التَّقْسِيمِ الْقُرْآنِيِّ، فَظَهَرَ فِي الْأُمَّةِ الِانْحِرَافُ الْجُزْئِيُّ التَّدْرِيجِيُّ عَنْ مَنْهَجِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَعَنِ الْوَحْدَةِ الَّتِي فَرَضَتْهَا آيَةُ الصِّرَاطِ بَيْنَ الْمُنْتَسِبِينَ إِلَى الْمُنْعَمِ عَلَيْهِمْ.

وَإِنْ تَعْجَبْ لِذَلِكَ فَازْدَدْ يَقِينًا بِدِينِكَ وَإِيمَانِكَ عِنْدَمَا تَعْلَمُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَدْ أَشَارَ إِلَى وُقُوعِ هَذِهِ الْأُمَّةِ فِي الْفِتْنَةِ الْمُفَرِّقَةِ لِأَصْحَابِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ؛ حَيْثُ سَأَلَ رَبَّهُ أَنْ لَا يُسَلِّطَ بَعْضَ

أُمَّتِهِ عَلَى بَعْضٍ، فَمَا النَّتِيجَةُ؟ اسْمَعْ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ زَوَى لِيَ الْأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا، وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ، وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لَا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ بِعَامَّةٍ، وَأَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ، وَإِنَّ رَبِّي قَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ، وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ أَنْ لَا أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ بِعَامَّةٍ، وَأَنْ لَا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ يَسْتَبِيحُ بَيْضَتَهُمْ وَلَوِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا -أَوْ قَالَ مَنْ بَيْنَ أَقْطَارِهَا- حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا، وَيَسْبِيَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا**»[1].

هَذَا التَّذْكِيرُ النَّبَوِيُّ بِالْمَأْسَاةِ الْحَاصِلَةِ تَارِيخًا وَوَاقِعًا بَيْنَ الْأُمَّةِ يَقْتَضِي الْحَذَرَ مِنْ أَنْ يَكُونَ الْمُسْلِمُ طَرَفًا فِيهَا، فَيَنْثَنِيَ عَنْ صِرَاطِ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِمْ إِلَى طُرُقِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَالضَّالِّينَ.

وَالْآنَ أَخْبِرْنِي -أَيَّدَكَ اللهُ-: أَلَمْ تَرَ إِلَى آيَتَيِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ كَيْفَ أَنْتَجَتْ لَنَا بَصَائِرَ يُمْكِنُ أَنْ نُسَمِّيَهَا: فِقْهَ آيَتَيِ الصِّرَاطِ؟ وَبِمُقْتَضَى هَذَا الْفِقْهِ الْقُرْآنِيِّ يَتَوَجَّبُ إِنْشَاءُ الْهَيْئَاتِ الْعِلْمِيَّةِ الْمُخْتَصَّةِ الَّتِي تَمْنَعُ وُقُوعَ الْأُمَّةِ فِي فِخَاخِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَالضَّالِّينَ، كَمَا يَقْتَضِي ذَلِكَ تَشْكِيلَ اللِّجَانِ وَالْمَرَاكِزِ الْمُتَخَصِّصَةِ لِتَوْحِيدِ الْمُسْلِمِينَ، وَجَمْعِ كَلِمَتِهِمْ حَوْلَ قَضَايَاهُمُ الْمَرْكَزِيَّةِ وَالْمَصِيرِيَّةِ، وَتَقْرِيبِ وِجْهَاتِ النَّظَرِ بَيْنَهُمْ، وَتَحْذِيرِهِمْ مِنْ مَغَبَّةِ التَّمَادِي فِي التَّفَرُّقِ، وَالِانْسِيَاقِ وَرَاءَ إِمْلَاءَاتِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَالضَّالِّينَ فِي مُعَادَاةِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا.

---

(١) مسلم (٨ / ١٧١).

إِنَّ وَاجِبَ مُؤَسَّسَاتِ الْعِلْمِ الشَّرْعِيِّ كَبِيرٌ فِي تَحْقِيقِ وَحْدَةِ أُمَّةِ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِمْ؛ لِأَنَّهَا تَقُومُ بِالتَّخْلِيَةِ وَالتَّحْلِيَةِ؛ وَالتَّصْفِيَةِ وَالتَّزْكِيَةِ؛ وَتُنَمِّي حَاسَّةَ الْحَذَرِ مِنَ الْمَزَالِقِ الْفِكْرِيَّةِ الضَّالَّةِ؛ وَتُرَبِّي عَلَى كَيْفِيَّةِ التَّعَامُلِ الشَّرْعِيِّ مَعَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ، وَالْمُرْجِفِينَ وَقُوَى النِّفَاقِ دَعْوَةً، وَإِصْلَاحًا، أَوْ رَدْعًا وَمُجَاهَدَةً وَكِفَاحًا، وَذَلِكَ لِحِمَايَةِ الثَّابِتِينَ عَلَى الصِّرَاطِ الْمُستَقِيمِ مِنَ الْغُلُوِّ وَالِانْجِرَافِ فِيهِ، أَوِ الزَّلَلِ وَالِانْحِرَافِ عَنْهُ كَمَا قَالَ -جَلَّ مَجْدُهُ-: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

وَلِذَا بَيَّنَ النَّبِيُّ ﷺ لِحُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ ﷺ السَّبِيلَ الْعَاصِمَ مِنْ حَالَةِ الْفِتْنَةِ الَّتِي يُسَيْطِرُ فِيهَا الشَّرُّ عَلَى مَقَالِيدِ الْأُمُورِ، وَذَلِكَ لَمَّا سَأَلَهُ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ أَبَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ شَرٌّ؟ فَقَالَ: «**يَا حُذَيْفَةُ، تَعَلَّمْ كِتَابَ اللهِ وَاتَّبِعْ مَا فِيهِ**» ثَلَاثَ مِرَارٍ. قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَبَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ شَرٌّ؟ قَالَ: «**يَا حُذَيْفَةُ تَعَلَّمْ كِتَابَ اللهِ وَاتَّبِعْ مَا فِيهِ**» ثَلَاثَ مِرَارٍ. قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَبَعْدَ هَذَا الشَّرِّ خَيْرٌ؟ قَالَ: «**هُدْنَةٌ عَلَى دَخَنٍ، وَجَمَاعَةٌ عَلَى أَقْذَاءَ فِيهَا**» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَبَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ شَرٌّ؟ قَالَ: «**يَا حُذَيْفَةُ تَعَلَّمْ كِتَابَ اللهِ وَاتَّبِعْ مَا فِيهِ**» ثَلَاثَ مِرَارٍ. قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَبَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ شَرٌّ؟ قَالَ: «**فِتْنَةٌ عَمْيَاءُ صَمَّاءُ، عَلَيْهَا دُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ النَّارِ، وَأَنْ تَمُوتَ يَا حُذَيْفَةُ، وَأَنْتَ عَاضٌّ عَلَى جِذْلٍ خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَتَّبِعَ أَحَدًا مِنْهُمْ**»[1].

---

(١) تم دمج ألفاظ الحديث من السنن الكبرى للنسائي(٧ / ٢٦٤)، وأحمد (٥ / ٣٨٦)، وحسنه الأرناؤوط، والجذل: أصل الشجرة، انظر: مجمل اللغة لابن فارس (ص: ١٨١).

فَيَا لِلَّهِ إِلَى أَيِّ مَدًى بَلَغَ هَذَا الْحِرْصُ النَّبَوِيُّ عَلَى الْأَمْرِ بِتَعَلُّمِ كِتَابِ اللهِ؟ أَلَمْ تَرَهُ كَرَّرَ ذَلِكَ الْأَمْرَ فِي حَدِيثٍ وَاحِدٍ تِسْعَ مَرَّاتٍ، وَهَلْ ذَاكَ إِلَّا لِأَنَّهُ مَنْبَعُ الْحِمَايَةِ وَالرِّعَايَةِ وَالتَّغْيِيرِ نَحْوَ الْخَيْرِ وَالْحُسْنَى! وَمِنْ هُنَا نَعْلَمُ لِمَاذَا تُصِرُّ الْقُوَى الْعَالَمِيَّةُ لِلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَالضَّالِّينَ عَلَى إِلْغَاءِ دَوْرِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَالْمَدَارِسِ الشَّرْعِيَّةِ، وَالْمَعَاهِدِ الْعِلْمِيَّةِ الَّتِي تَنْشُرُ الْعَدْلَ وَالْخَيْرَ وَالنُّورَ فِي الْعَالَمِ.

إِخْوَةَ الدِّينِ مَا تَغَزَّلْتُ يَوْمًا ... بِسُلَيْمَى وَبِالْجُفُونِ الرِّهَافِ
بَلْ تَغَنَّيْتُ مُبْحِرًا فِي هَوَاكُمْ ... وَاسِعَ الْخَطْوِ لِلْإِخَاءِ مُوَافِي
لَا تَرُوعَنَّكُمْ خُشُونَاتُ قَوْلِي ... مِنْ عِتَابٍ أَسُوقُهُ بِالْقَوَافِي
هَالَنِي الْخُلْفُ بَيْنَكُمْ فَعَلَتْنِي ... مَوْجَةُ الْحُزْنِ أَرْهَقَتْ مِجْدَافِي
سُنَّةُ الْمُصْطَفَى سَبِيلِي وَقَصْدِي ... وَفَخُورٌ بِمَنْهَجِ الْأَسْلَافِ
مِنْ هُدَى الْوَحْيِ وَالْكِتَابِ انْبِعَاثِي ... وَوُرُودِي إِلَى الْهُدَى وَارْتِشَافِي
عُصَبُ الظُّلْمِ وَالضَّلَالِ تَدَاعَتْ ... وَأَرَى الْبَغْيَ لَيْسَ عَنْكُمْ بِخَافِ
فَهَلُمُّوا إِلَى الْوِفَاقِ هَلُمُّوا ... وَارْفَعُوا الْيَوْمَ رَايَةً لِلتَّصَافِي[1]

***

(١) الأبيات للدكتور سعيد بن دحباج وفقه الله. ديوان عتب القوافي (ص: ٧).

خَتْمُ (الْفَاتِحَةِ)

وَمُوجَزٌ لِمَا تَبْنِيهِ فِي الْعَقْلِيَّةِ الْمُسْلِمَةِ

لَاحَتْ لَنَا مِنْ مَعَانِي سُورَةِ الْفَاتِحَةِ أَجْمَلُ النَّسَائِمِ، وَيَشْعُرُ بِالْقُوَّةِ الَّتِي تَكْتَنِزُهَا كُلُّ قَلْبٍ صَادِقٍ مُصَدِّقٍ هَائِمٍ.

وَلِهَذَا فَالْخِتَامُ لِلْفَاتِحَةِ الْمُبَارَكَةِ قِسْمَانِ:

الْقِسْمُ الْأَوَّلُ: الْآلَاءُ وَالْعَظَمَةُ فِي خَتْمِ الْفَاتِحَةِ بِـ(آمِينَ).

الْقِسْمُ الثَّانِي: الْفَاتِحَةُ الْمُبَارَكَةُ تَحْوِي أُمَّ الْمُحْكَمَاتِ وَالْأَوْلَوِيَّاتِ الْحَيَوِيَّةِ الْقُرْآنِيَّةِ.

الْقِسْمُ الْأَوَّلُ

الْآلَاءُ وَالْعَظَمَةُ فِي خَتْمِ الْفَاتِحَةِ بِـ(آمِينَ)

نِعْمَ الْخَاتِمَةُ.. تَصْدِيقٌ وَاشْتِيَاقٌ لِلْعَطَايَا الْقَادِمَةِ

الْفَصْلُ الْأَوَّلُ

فَضَائِلُ هَذِهِ الْكَلِمَةِ الْمُبَارَكَةِ الْمُخْبِتَةِ (آمِينَ)

الْفَاتِحَةُ: دُعَاءٌ وَثَنَاءٌ، وَتَمْجِيدٌ لِرَبِّ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ، وَمَطَالِبُ يَرْتَجِيهَا مِنْهُ عِبَادُهُ الْأَصْفِيَاءُ، وَلِذَا جَاءَ خِتَامُهَا بِـ(آمِينَ).

هَذِهِ الْكَلِمَةُ الْمُبَارَكَةُ لَيْسَتْ مِنَ الْفَاتِحَةِ إِجْمَاعًا، إِلَّا أَنَّهَا تَزِيدُ الْفَاتِحَةَ ضِيَاءً، وَتَكْسُو التَّالِيَ لَهَا بَهَاءً، وَلَهَا فَضَائِلُ تَهْتَزُّ لَهَا قُلُوبُ الْمُتَّقِينَ، وَتُشْرِقُ بِهَا نُفُوسُ الْمُخْبِتِينَ، مِنْهَا:



الْفَضِيلَةُ الْأُولَى: الْغُفْرَانُ لِقَائِلِهَا إِنْ وَافَقَ تَأْمِينُهُ تَأْمِينَ الْمَلَائِكَةِ:

فَفِي مَشْهَدٍ شُعُورِيٍّ غَامِرٍ يَدُلُّ عَلَى الِانْسِجَامِ بَيْنَ الصَّالِحِينَ وَالْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ، يَقْرِنُ النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ تَأْمِينِ الْبَشَرِ وَتَأْمِينِ الْمَلَائِكَةِ، وَيَبْنِي عَلَى ذَلِكَ الْأُجُورَ الْوَفِيرَةَ، وَالنِّعَمَ الْكَثِيرَةَ، فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا قَالَ الْإِمَامُ: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ فَقُولُوا: آمِينَ. -وَفِي رِوَايَةٍ-: إِذَا أَمَّنَ الْقَارِئُ فَأَمِّنُوا، فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ تُؤَمِّنُ، **فَمَنْ وَافَقَ تَأْمِينُهُ تَأْمِينَ الْمَلَائِكَةِ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ**»[1].

فَانْظُرْ إِشْرَاقَ الْفِكْرِ، وَجَمَالَ الصُّورَةِ، فَالْمُخْبِتُونَ مِنَ الْعِبَادِ يَشْعُرُونَ بِأَنَّهُمْ يَلْتَقُونَ بِالْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ فِي هَذَا التَّرْدِيدِ، وَذَلِكَ التَّمْجِيدِ.

الْفَضِيلَةُ الثَّانِيَةُ: حَسَدُ الْيَهُودِ لَنَا عَلَيْهَا:

عَجِيبٌ أَمْرُ الْحَاسِدِ؛ إِذِ الْحَسَدُ يَأْكُلُ الْقَلْبَ، وَيُهْلِكُ الْجَسَدَ، إِلَّا أَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْبَشَرِ لَا يَتْرُكُونَهُ، وَمِنْهُمْ كَثِيرٌ مِنَ الْيَهُودِ مُذْ كَانَتْ وَاقِعَةُ الْحَسَدِ لِيُوسُفَ -عَلَيْهِ وَعَلَى نَبِيِّنَا أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ-، وَكَمَا حَسَدُوا النَّبِيَّ ﷺ عَلَى خَتْمِ النُّبُوَّةِ بِهِ، فَقَدْ حَسَدُوا أَتْبَاعَهُ عَلَى

---

(١) البخاري (١/ ١٩٨).

تَفَاصِيلِ شَرِيعَتِهِ، وَمِنْ جُمْلَةِ ذَلِكَ التَّأْمِينُ، فَعَنْ عَائِشَةَ ﵂ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَا حَسَدَتْكُمُ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ، مَا حَسَدَتْكُمْ عَلَى السَّلَامِ، وَالتَّأْمِينِ**»[1]، فَمَا سَبَبُ حَسَدِهِمْ لَنَا عَلَى هَذِهِ الْكَلِمَةِ؟ هَلْ ذَلِكَ لِأَنَّ هَذِهِ الْكَلِمَةَ غَيْرُ مَوْجُودَةٍ عِنْدَهُمْ؟ كَلَّا! فَهِيَ مَزْبُورَةٌ فِي كُتُبِهِمْ، وَلَعَلَّ حَسَدَهُمْ لَنَا عَلَيْهَا لِأَوْجُهٍ، مِنْهَا:

الْوَجْهُ الْأَوَّلُ: (آمِينَ) عَلَامَةٌ عَلَى التَّصْدِيقِ وَالِاشْتِيَاقِ لِلْعَطَايَا الْإِلَهِيَّةِ الْقَادِمَةِ، وَهُمْ لَا يُرَدِّدُونَهَا كَمَا نُرَدِّدُهَا، وَلَا يَحْفِلُونَ بِهَا كَمَا تَفْعَلُ الْأُمَّةُ الْإِسْلَامِيَّةُ الْمُبَارَكَةُ.

الْوَجْهُ الثَّانِي: هَذِهِ الْكَلِمَةُ لَهَا رَمْزِيَّتُهَا الدِّينِيَّةُ الْعَظِيمَةُ، فَهِيَ تَدُلُّ عَلَى وَحْدَةِ مَصْدَرِ الرِّسَالَاتِ السَّمَاوِيَّةِ، كَمَا تَدُلُّ عَلَى أَنَّ مُخَالَفَةَ الْأُمَّةِ لِأَهْلِ الْكِتَابِ لَيْسَتْ عَلَى إِطْلَاقِهَا بَلْ يُخَالَفُ أَهْلُ الْكِتَابِ فِيمَا ابْتَدَعُوهُ مِنَ الْأَهْوَاءِ وَالرَّدَاءَةِ وَالِارْتِيَابِ، وَأَمَّا مَا كَانَ ذَا أَصْلٍ شَرْعِيٍّ أَخَذُوهُ مِنْ أَنْبِيَائِهِمْ فَهُوَ جُزْءٌ مِنَ الْإِسْلَامِ مَا لَمْ يُنْسَخْ.

وَلَفْظَةُ (آمِينَ) نَجِدُهَا فِي التَّوْرَاةِ بَعْدَ الدُّعَاءِ عَلَى الْمُجْرِمِينَ الَّذِينَ يَقْتَرِفُونَ أَرْذَلَ الْقَبَائِحِ، فَفِي سِفْرِ التَّثْنِيَةِ:

«فَيَصْرُخُ اللَّاوِيُّونَ وَيَقُولُونَ لِجَمِيعِ قَوْمِ إِسْرَائِيلَ بِصَوْتٍ عَالٍ:

٢٧: ١٥ مَلْعُونٌ الْإِنْسَانُ الَّذِي يَصْنَعُ تِمْثَالًا مَنْحُوتًا، أَوْ مَسْبُوكًا، رِجْسًا لَدَى الرَّبِّ عَمَلَ يَدَيْ نَحَّاتٍ، وَيَضَعُهُ فِي الْخَفَاءِ، وَيُجِيبُ جَمِيعُ الشَّعْبِ وَيَقُولُونَ: آمِينَ.

٢٧: ١٦ مَلْعُونٌ مَنْ يَسْتَخِفُّ بِأَبِيهِ أَوْ أُمِّهِ، وَيَقُولُ جَمِيعُ الشَّعْبِ: آمِينَ.

٢٧: ١٧ مَلْعُونٌ مَنْ يَنْقُلُ تُخْمَ صَاحِبِهِ، وَيَقُولُ جَمِيعُ الشَّعْبِ: آمِينَ.

٢٧: ١٨ مَلْعُونٌ مَنْ يُضِلُّ الْأَعْمَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَيَقُولُ جَمِيعُ الشَّعْبِ: آمِينَ.

---

(١) ابن ماجه (١/ ٢٨٧)، وفي مصباح الزجاجة: "هذا إسناد صحيح. احتج مسلم بجميع رواته".

٢٧: ١٩ مَلْعُونٌ مَنْ يُعَوِّجُ حَقَّ الْغَرِيبِ وَالْيَتِيمِ وَالْأَرْمَلَةِ، وَيَقُولُ جَمِيعُ الشَّعْبِ: آمِينَ.

٢٧: ٢٠ مَلْعُونٌ مَنْ يَضْطَجِعُ مَعَ امْرَأَةِ أَبِيهِ؛ لِأَنَّهُ يَكْشِفُ ذَيْلَ أَبِيهِ، وَيَقُولُ جَمِيعُ الشَّعْبِ: آمِينَ.

٢٧: ٢١ مَلْعُونٌ مَنْ يَضْطَجِعُ مَعَ بَهِيمَةٍ مَا، وَيَقُولُ جَمِيعُ الشَّعْبِ: آمِينَ.

٢٧: ٢٢ مَلْعُونٌ مَنْ يَضْطَجِعُ مَعَ أُخْتِهِ بِنْتِ أَبِيهِ أَوْ بِنْتِ أُمِّهِ، وَيَقُولُ جَمِيعُ الشَّعْبِ: آمِينَ.

٢٧: ٢٣ مَلْعُونٌ مَنْ يَضْطَجِعُ مَعَ حَمَاتِهِ، وَيَقُولُ جَمِيعُ الشَّعْبِ: آمِينَ.

٢٧: ٢٤ مَلْعُونٌ مَنْ يَقْتُلُ قَرِيبَهُ فِي الْخَفَاءِ، وَيَقُولُ جَمِيعُ الشَّعْبِ: آمِينَ.

٢٧: ٢٥ مَلْعُونٌ مَنْ يَأْخُذُ رِشْوَةً لِكَيْ يَقْتُلَ نَفْسَ دَمٍ بَرِيءٍ، وَيَقُولُ جَمِيعُ الشَّعْبِ: آمِينَ.

٢٧: ٢٦ مَلْعُونٌ مَنْ لَا يُقِيمُ كَلِمَاتِ هَذَا النَّامُوسِ لِيَعْمَلَ بِهَا، وَيَقُولُ جَمِيعُ الشَّعْبِ: آمِينَ».

فَإِذَا رَدَّدَ الْمُسْلِمُونَ (آمِينَ) كَانَ تَرْدِيدُهُمْ مِنْ أَدِلَّةِ وَحْدَةِ الرِّسَالَاتِ السَّمَاوِيَّةِ، وَصِدْقِ النُّبُوَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ -عَلَى صَاحِبِهَا أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ، وَعَلَى أَنْبِيَاءِ اللهِ أَجْمَعِينَ-، فَهُوَ لَمْ يَكُنْ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ، وَمَا ذَكَرَ إِلَّا مَا ذَكَرَهُ الْأَنْبِيَاءُ مِنْ قَبْلُ مِنَ الْمُحْكَمَاتِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهَا، وَالْمَسَائِلِ الَّتِي لَمْ تُنْسَخْ.

وَمِنْ أَوْجُهِ غَيْظِ الْيَهُودِ، وَاشْتِعَالِ قُلُوبِهِمْ حَسَدًا لَنَا عَلَى هَذِهِ الْكَلِمَةِ: أَنَّ تَرْدِيدَ الْمُسْلِمِينَ لَهَا يَجْعَلُ الرَّأْيَ الْعَامَّ الْكِتَابِيَّ (الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى) يَتَنَبَّهُ إِلَى أَنَّ هُنَاكَ مُشَابَهَةً بَيْنَ رِسَالَةِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَبَيْنَ مَنْ قَبْلَهُ، وَرُبَّمَا دَفَعَ ذَلِكَ عَوَامَّهُمْ إِلَى التَّسَاؤُلِ عَنِ الْإِسْلَامِ، وَرُبَّمَا الدُّخُولِ فِيهِ، فَهَذَا وَجْهٌ مِنْ أَوْجُهِ حَسَدِ الْيَهُودِ لَنَا عَلَى هَذِهِ الْكَلِمَةِ الْمُبَارَكَةِ.

الْفَصْلُ الثَّانِي

مَعْنَاهَا (تَصْدِيقٌ وَاشْتِيَاقٌ لِلْعَطَايَا الْقَادِمَةِ)

(آمِينَ) تَدُلُّ عَلَى التَّصْدِيقِ الْحَقِيقِيِّ، وَالْإِيمَانِ الْعَمِيقِ بِكُلِّ مَا سَبَقَهَا مِنْ كَلِمَاتِ الْحَمْدِ وَالثَّنَاءِ وَالدُّعَاءِ، وَتَدُلُّ عَلَى التَّرَقُّبِ وَالِاشْتِيَاقِ لِلْعَطَايَا الْإِلَهِيَّةِ الْقَادِمَةِ عَلَى أَسَاسِ الِاسْتِجَابَةِ الْإِلَهِيَّةِ لِلْمَطَالِبِ السَّابِقَةِ لِهَذِهِ الْكَلِمَةِ الْمُبَارَكَةِ[1]، وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الْوَرَّاقُ رَحِمَهُ اللَّهُ: "هُوَ قُوَّةٌ لِلدُّعَاءِ وَاسْتِنْزَالٌ لِلرَّحْمَةِ"[2].

(آمِينَ) كَلِمَةٌ وَاحِدَةٌ تَجْمَعُ كُلَّ تَذَلُّلٍ وَرَغْبَةٍ مِنْ قَائِلِهَا، عِنْدَ طَلَبِهِ مِنَ اللهِ أَنْ يَقْضِيَ الْحَاجَةَ، وَيُفَرِّجَ الْكُرْبَةَ، وَيُحَقِّقَ الْمُرَادَ، فَهِيَ بِمَعْنَى: اللَّهُمَّ اسْتَجِبِ اسْتِجَابَةً تَقْضِي بِهَا الْحَاجَةَ، وَتُفَرِّجُ بِهَا الْكُرْبَةَ، وَتُغِيثُ بِهَا اللَّهْفَةَ، وَتُقِيلُ بِهَا الْعَثْرَةَ، وَتُرْوِي بِهَا الظَّمْآنَ، وَتُزِيلُ بِهَا حَيْرَةَ الْوَلْهَانِ، وَتُؤْوِي بِهَا الْغَرِيبَ، وَتُسْعِدُ بِهَا الْقَلِقَ الْكَئِيبَ.

---

(١) وشاعت آمين على ألسنة الناس حتى قال قيس بن الملوح:

يَا رَبِّ إِنَّكَ ذُو مَنٍّ وَمَغْفِرَةٍ ... بَيِّتْ بِعَافِيَةٍ لَيْلَ الْمُحِبِّينَا
الذَّاكِرِينَ الْهَوَى مِنْ بَعْدِ مَا رَقَدُوا ... السَّاقِطِينَ عَلَى الْأَيْدِي الْمُكِبِّينَا
يَا رَبِّ لَا تَسْلُبَنِّي حُبَّهَا أَبَدًا ... وَيَرْحَمُ اللهُ مَنْ قَالَ: آمِينَا

(٢) التبيان في آداب حملة القرآن (ص: ١٣٣).

الْفَصْلُ الثَّالِثُ

سَبَبُ انْفِرَادِ الْفَاتِحَةِ بِخَتْمِهَا بِـ«آمِينَ» دُونَ غَيْرِهَا مِنَ السُّوَرِ

لِمَاذَا اخْتُتِمَتِ الْفَاتِحَةُ بِالتَّأْمِينِ بِخِلَافِ السُّوَرِ الَّتِي تَضَمَّنَتْ أَدْعِيَةً كَسُورَةِ الْبَقَرَةِ، وَسُورَةِ آلِ عِمْرَانَ، فَقَدِ اخْتَتَمَهَا اللهُ بِالدُّعَاءِ أَيْضًا، وَلَكِنْ لَمْ يُسَنَّ لَنَا فِيهَا قَوْلُ: (آمِينَ) كَسُورَةِ الْفَاتِحَةِ؟

لَعَلَّ ذَلِكَ -أَيَّدَكَ اللهُ- لِمَكَانَةِ الْفَاتِحَةِ: مَبْنَاهَا وَمَعْنَاهَا؛ فَهِيَ بِأَجْمَعِهَا دُعَاءٌ يَتَضَمَّنُ الثَّنَاءَ، وَلِذَا رَوَى جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللهِ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ: «أَفْضَلُ الذِّكْرِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَفْضَلُ الدُّعَاءِ: الْحَمْدُ لِلَّهِ»[1]؛ فَالْحَمْدُ فِي ذَاتِهِ دُعَاءٌ، وَأَيُّ دُعَاءٍ، فَقَدْ قَالَ اللهُ -تَعَالَى مَجْدُهُ: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ١٠].

أَنْوَاعُ الدُّعَاءِ:

الدُّعَاءُ نَوْعَانِ:

النَّوْعُ الْأَوَّلُ: دُعَاءُ تَعْظِيمٍ وَتَضَرُّعٍ وَثَنَاءٍ، وَهُوَ فِي سُورَةِ الْفَاتِحَةِ فِي نِصْفِهَا الْأَوَّلِ مِنْهَا، وَأَعْظَمُ رُمُوزِهِ الْحَمْدَلَةُ.

النَّوْعُ الثَّانِي: دُعَاءُ مَسْأَلَةٍ وَطَلَبٍ وَرَجَاءٍ، وَهُوَ فِي سُورَةِ الْفَاتِحَةِ فِي النِّصْفِ الثَّانِي مِنْهَا ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾.

وَمِنْ أَمْثِلَةِ النَّوْعِ الْأَوَّلِ: عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ: «**دَعْوَةُ ذِي النُّونِ إِذْ دَعَا وَهُوَ فِي بَطْنِ الْحُوتِ: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فَإِنَّهُ**

---

(١) الترمذي (٥/ ٤٦٢)، وقال: "هذا حديث حسن غريب"، وابن حبان (٣/ ١٢٦).

لَمْ يَدْعُ بِهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا اسْتَجَابَ اللهُ لَهُ»[1]، وَمِثْلُهُ مَا جَاءَ عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «خَيْرُ الدُّعَاءِ دُعَاءُ يَوْمِ عَرَفَةَ، وَخَيْرُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي: **لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَحْدَهُ، لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ، وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»**[2].

أَلَا تَرَى أَنَّ هَذَا أَيْضًا ثَنَاءٌ يَتَضَمَّنُ انْتِظَارَ قَائِلِهِ لِلْعَطَاءِ؟ وَقَدْ سُئِلَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ عَنْ ذَلِكَ: لِمَاذَا كَانَ -أَيِ التَّهْلِيلُ- أَفْضَلَ الدُّعَاءِ- أَيْ مَعَ أَنَّهُ ثَنَاءٌ؟

قَالَ: أَلَمْ تَسْمَعْ قَوْلَ أُمَيَّةَ بْنِ أَبِي الصَّلْتِ فِي مَدْحِ عَبْدِاللهِ بْنِ جُدْعَانَ:

أَأَذْكُرُ حَاجَتِي أَمْ قَدْ كَفَانِي ... حَيَاؤُكَ إِنَّ شِيمَتَكَ الْحَيَاءُ

إِذَا أَثْنَى عَلَيْكَ الْمَرْءُ يَوْمًا ... كَفَاهُ مِنْ تَعَرُّضِهِ الثَّنَاءُ

كَرِيمٌ لَا يُغَيِّرُهُ صَبَاحٌ ... عَنِ الْخُلُقِ الْجَمِيلِ وَلَا مَسَاءُ[3]

قَالَ سُفْيَانُ: فَهَذَا مَخْلُوقٌ حِينَ نُسِبَ إِلَى الْكَرَمِ اكْتَفَى بِالثَّنَاءِ عَنِ السُّؤَالِ، فَكَيْفَ بِذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ؟!

مَحَبَّةُ الْوَهَّابِ الْمَحْمُودِ سُبْحَانَهُ جَعَلَتِ الْحَمْدَ لِسَانَ مَقَالِ النَّبِيِّينَ، وَمَحَلَّ تَرْدِيدِ الْمُبْتَهِلِينَ، فَرَوَى عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ﷺ قَالَ: أَتَى (بُخْتَنَصَّرُ) بِـ(دَانْيَالَ) النَّبِيِّ ﷺ فَأَمَرَ بِهِ فَحُبِسَ، وَأَجَاعَ أَسَدَيْنِ، فَأَلْقَاهُمَا فِي جُبٍّ مَعَهُ، وَطَبَّقَ عَلَيْهِ وَعَلَى الْأَسَدَيْنِ، ثُمَّ حَبَسَهُ خَمْسَةَ

---

(١) الترمذي (٥/ ٥٢٩)، ورواه أحمد١/ ١٧٠، وصححه الحاكم (٢/ ٦٣٧)، ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (٦ / ٤٤٣): "ورجاله رجال الصحيح غير إبراهيم بن محمد بن سعد بن أبي وقاص وهو ثقة".

(٢) الترمذي (٥/ ٥٧٢)، وقال: "حسن غريب"، وفي تحفة الأحوذي (٨ / ٤٨٢): "قَالَ الْقَارِي: وَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ بِلَفْظِ: «أَفْضَلُ مَا قُلْت وَالنَّبِيُّونَ قَبْلِي عَشِيَّةَ عَرَفَةَ لَا إِلَه إِلَّا الله» إِلَخْ، وَسَنَدُهُ حَسَنٌ جَيِّدٌ كَمَا قَالَهُ الْأَذْرَعِيّ".

(٣) محاضرات الأدباء، الراغب الأصبهاني (١/ ٦٣٧).

أَيَّامٍ مَعَ الْأَسَدَيْنِ، ثُمَّ فَتَحَ عَنْهُ بَعْدَ خَمْسَةِ أَيَّامٍ، فَوَجَدَ دَانْيَالَ قَائِمًا يُصَلِّي، وَالْأَسَدَيْنِ فِي نَاحِيَةِ الْجُبِّ لَمْ يَعْرِضَا لَهُ، فَقَالَ لِـ(بُخْتَنَصَّرَ): أَخْبِرْنِي مَاذَا قُلْتَ فَدُفِعَ عَنْكَ؟ قَالَ قُلْتُ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَا يَنْسَى مَنْ ذَكَرَهُ، الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَا يَخِيبُ مَنْ رَجَاهُ، الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَا يَكِلُ مَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ إِلَى غَيْرِهِ، الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هُوَ ثِقَتُنَا حِينَ تَنْقَطِعُ عَنَّا الْحِيَلُ، الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هُوَ رَجَاؤُنَا يَوْمَ تَسُوءُ ظُنُونُنَا بِأَعْمَالِنَا، الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي يَكْشِفُ حُزْنَنَا عِنْدَ كَرْبِنَا، الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي يَجْزِي بِالْإِحْسَانِ إِحْسَانًا، الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي يَجْزِي بِالصَّبْرِ نَجَاةً»[1].

إِنَّهُ دُعَاءُ الْحَمْدِ، دُعَاءُ الْمُنَاجَاةِ وَالثَّنَاءِ، يَجِدُ الدَّاعِي بِهِ كُلَّ رَاحَةٍ وَهَنَاءٍ، كَمَا قَالَ حَادِي الْهُدَاةِ وَلِسَانُ الْمُخْبِتِينَ التُّقَاةِ:

إِلَهِي مِنْ سَنَاكَ قَبَسْتُ نُورِي ... وَأَنْبَتُّ الْمَحَبَّةَ فِي ضَمِيرِي
أَفِرُّ إِلَيْكَ مِنْ نَكَدِي وَيَأْسِي ... وَمِنْ عَفَنِ الضَّلَالَةِ فِي شُعُورِي
فَقِيرًا جِئْتُ بَابَكَ يَا إِلَهِي ... وَلَسْتُ إِلَى عِبَادِكَ بِالْفَقِيرِ
غَنِيٌّ عَنْهُمُ بِيَقِينِ قَلْبِي ... وَأَطْمَعُ مِنْكَ فِي الْفَضْلِ الْكَبِيرِ
إِلَهِي مَا سَأَلْتُ سِوَاكَ عَوْنًا ... فَحَسْبِي الْعَوْنُ مِنْ رَبٍّ قَدِيرِ
إِلَهِي مَا سَأَلْتُ سِوَاكَ عَفْوًا ... فَحَسْبِي الْعَفْوُ مِنْ رَبٍّ غَفُورِ
إِلَهِي مَا سَأَلْتُ سِوَاكَ هَدْيًا ... فَحَسْبِي الْهَدْيُ مِنْ رَبٍّ بَصِيرِ
إِذَا لَمْ أَسْتَعِنْ بِكَ يَا إِلَهِي ... فَمَنْ عَوْنِي سِوَاكَ؟ وَمَنْ مُجِيرِي؟

❋❋❋

(١) الشكر لابن أبي الدنيا ص٦٠.

الْقِسْمُ الثَّانِي

(الْفَاتِحَةُ) الْمُبَارَكَةُ تَحْوِي أُمَّ الْمُحْكَمَاتِ وَالْأَوْلَوِيَّاتِ الْحَيَوِيَّةِ الْقُرْآنِيَّةِ

وَإِذَا قُلْنَا بِأَنَّ الْفَاتِحَةَ تَحْوِي أُمَّ الْمُحْكَمَاتِ، فَهَذَا يَعْنِي أَنَّنَا يَجِبُ أَنْ نَتَحَاكَمَ إِلَيْهَا عِنْدَ الِاخْتِلَافِ فِي مَعْنَى آيَةٍ، أَوْ فِي مُقْتَضَاهَا وَمَفَاهِيمِهَا، أَمَّا لِمَاذَا؟

فَلِأَنَّ الْفَاتِحَةَ بِمَثَابَةِ الْإِعْلَانِ الدُّسْتُورِيِّ الْمُهَيْمِنِ الَّذِي يَحْوِي الْقَوَاعِدَ الْكُلِّيَّةَ الْعَامَّةَ الَّتِي يُفْهَمُ الْقُرْآنُ مِنْ خِلَالِهَا، وَخُذْ بَعْضَ الْأَمْثِلَةِ الَّتِي تُوَضِّحُ مُحَاكَمَةَ الْمَعَانِي الْقُرْآنِيَّةِ الْمُخْتَلِفَةِ إِلَيْهَا:

فَإِدَارَةُ الْمَالِ مَوْضُوعٌ مَبْثُوثٌ فِي سُوَرِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ الْأُخْرَى كَسُورَةِ الْبَقَرَةِ، وَآلِ عِمْرَانَ، وَالنِّسَاءِ وَغَيْرِهَا، فَإِذَا سَأَلَ سَائِلٌ: لِمَاذَا كَانَتْ قَوَاعِدُ إِدَارَةِ الْمَالِ فِي التَّصَوُّرِ الْإِسْلَامِيِّ تَقْتَضِي كِتَابَةَ كُلِّ شَيْءٍ، وَلِمَاذَا وُجِدَ مَعَ ذَلِكَ الِاسْتِثْنَاءُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾ [البقرة: ٢٨٢].

فَالْجَوَابُ مَوْجُودٌ فِي سُورَةِ الْفَاتِحَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، فَالتَّنْظِيمُ الْمَالِيُّ عَائِدٌ إِلَى مَقَاصِدِ التَّرْبِيَةِ، وَالرَّحْمَةِ، وَإِلَى مَقْصِدِ الْمِنْهَاجِ الْعِبَادِيِّ، وَإِلَى قَاعِدَةِ حِمَايَةِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ مِنِ اعْتِدَاءَاتِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَالضَّالِّينَ.

وَإِذَا سَأَلَ سَائِلٌ مَثَلًا: لِمَاذَا كَانَ تَقْسِيمُ الْإِرْثِ بِالصُّورَةِ الْمَذْكُورَةِ فِي سُورَةِ النِّسَاءِ؟ وَلِمَاذَا تَمَّ تَشْرِيعُ الْقِصَاصِ، وَغَيْرِهَا مِنْ أَحْكَامِ الْإِسْلَامِ؟

فَالْجَوَابُ: لِأَنَّهُ يَعُودُ إِلَى الْمَقَاصِدِ ذَاتِهَا.

وَإِذَا سَأَلَ سَائِلٌ عَنْ أَسْرَارِ نُظُمِ السِّلْمِ وَالْحَرْبِ فِي الْإِسْلَامِ؟ فَالْجَوَابُ مَوْجُودٌ فِي الْفَاتِحَةِ. وَفِي حَالِ تَعَارُضِ بَعْضِ الِاجْتِهَادَاتِ فِي الصُّوَرِ الْجُزْئِيَّةِ لِلْأَحْكَامِ نَرْجِعُ إِلَى مَقَاصِدِ الْفَاتِحَةِ كَالرَّحْمَةِ، وَالتَّرْبِيَةِ؛ لِنُحَاكِمَ إِلَيْهَا الِاجْتِهَادَاتِ الَّتِي تَمَّ الِاخْتِلَافُ فِيهَا.

وَإِنَّمَا حَوَتِ الْفَاتِحَةُ الْقَوَاعِدَ الْأَسَاسِيَّةَ الْكُلِّيَّةَ؛ لِتَكُونَ الْمُنْطَلَقَ فِي إِصْلَاحِ الْوَاقِعِ الْحَيَاتِيِّ، وَالْأَسَاسَ الَّذِي يُبْنَى عَلَيْهِ مَشِيدُ الْحَضَارَةِ الَّتِي يَنْشُدُهَا الْإِسْلَامُ مِنْ أَبْنَائِهِ، وَالْفَيْصَلَ الَّذِي تَؤُولُ إِلَيْهِ الْأُمَّةُ إِنْ بَدَتْ بَادِرَةُ اخْتِلَافٍ فِي تَوْصِيفِ الْمُشْكِلَاتِ الْوَاقِعِيَّةِ وَتَشْخِيصِهَا، أَوْ فِي عِلَاجِهَا وَحَلِّهَا.

وَالْفَاتِحَةُ تُمَثِّلُ الْقُرْآنَ الْوَاجِبَ تَعَلُّمُهُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ؛ لِذَاكَ حَوَتِ التَّصَوُّرَ الْإِسْلَامِيَّ الْكُلِّيَّ الَّذِي يَتَضَمَّنُ الْأَوْلَيَاتِ الضَّرُورِيَّةَ لِإِدَارَةِ الْحَيَاةِ، بِصُورَةٍ مُتْقَنَةٍ تَامَّةٍ.

إِنَّ الْفَاتِحَةَ تَحْوِي أُسُسَ الْبِنَاءِ لِأَعْمِدَةِ السَّعَادَةِ وَالرَّخَاءِ فِي الْأَفْرَادِ وَالْأُسَرِ وَالْمُجْتَمَعَاتِ؛ لِتَسْتَنِيرَ النُّفُوسُ بِمَا فِيهَا مِنْ أَرْكَانِ الْخَيْرِ وَالضِّيَاءِ.

إِنَّ الْفَاتِحَةَ تُؤَسِّسُ لِلْمُجْتَمَعَاتِ حَضَارَةً تَقَدُّمِيَّةً تَزْدَانُ بِالصَّالِحَاتِ وَتُكَلَّلُ بِالْجَمَالِ وَالْبَهَاءِ عَلَى غِرَارِ مَا كَانَ فِي عَهْدِ النُّبُوَّةِ وَالْعَهْدِ الرَّاشِدِيِّ؛ حَيْثُ رَأَيْنَا الْمَثَلَ الْأَعْلَى لِلْأُنْمُوذَجِ الْقُرْآنِيِّ الْمُغِيثِ لِلْإِنْسَانِيَّةِ مِنَ الضَّرَّاءِ وَالْبَأْسَاءِ ﴿وَهَٰذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٦].

وبعـــد:

فَفِي إِطْلَالَةٍ أَخِيرَةٍ عَلَى سُورَةِ الْفَاتِحَةِ وَمَعَانِيهَا حَيْثُ التَّعْلِيمُ الِاخْتِيَارِيُّ الْإِجْبَارِيُّ:

أَوَّلُ مَا يُقَابِلُكَ مِنْ آلَائِهَا، وَسَابِغِ نَعْمَائِهَا أَنَّهَا تُعَلِّمُ قَارِئَهَا أَعْظَمَ الْمَسَائِلِ الْكُلِّيَّةِ الْعِلْمِيَّةِ وَالْعَمَلِيَّةِ الَّتِي يَحْتَاجُ إِلَى مَعْرِفَتِهَا، فَهِيَ تُعَلِّمُهُ كَيْفَ يَتَّصِلُ بِاللهِ، وَيُثْنِي عَلَيْهِ -جَلَّ فِي عُلَاهُ، تُعَلِّمُهُ كَيْفَ يُنَاجِيهِ وَيَدْعُوهُ، تُعَلِّمُهُ كَيْفَ يَسْتَلِذُّ بِمَا يُنْعِمُ بِهِ عَلَيْهِ وَبِمَا يُعْطِيهِ وَيَحْبُوهُ.

لَقَدْ أَوْدَعَ اللهُ ﷻ فِي الْفَاتِحَةِ مَعَانٍ وَقَوَاعِدَ وَجَعَلَ فِيهَا مُحْكَمَاتِ شَرْعِهِ بِصُورَةٍ يَتَضَاءَلُ عِنْدَهَا الذَّكَاءُ، وَتَتَحَوَّلُ الْكَآبَةُ وَالْبَأْسَاءُ إِلَى سَعَادَةٍ وَهَنَاءٍ، وَتَأْخُذُ بِيَدِ تَالِيهَا إِلَى أَجْمَلِ الْحَدَائِقِ الْغَنَّاءِ الْمُتَزَيِّنَةِ فِي حُلَلِ الْبَهَاءِ.

وَمِنْ عَجِيبِ أَمْرِهَا أَنَّ آيَاتِهَا لَمْ تَبْدَأْ بِالْأَمْرِ (قُلْ)، بَلْ نَرَاهَا مُبَاشَرَةً تُعَلِّمُنَا أَعْظَمَ الْمَحَامِدِ وَالتَّمْجِيدِ، وَذَلِكَ عِنْدَمَا نَقْرَأُ آيَاتِ الْحَمْدَلَةِ، وَالثَّنَاءِ، وَالْمَالِكِيَّةِ، وَالتَّوْحِيدِ، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ أَلَا تَرَاهَا تُعَلِّمُنَا أَنْ نَدْعُوَ أَعْظَمَ الدَّعَوَاتِ؟ فَنَحْنُ نَطْلُبُ الرَّحْمَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ بَيْنَ ثَنَايَا الثَّنَاءِ عِنْدَمَا نُرَدِّدُ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾.

مِنْ عَجِيبِ أَمْرِهَا أَنَّهَا تَأْخُذُ عَلَيْنَا الْعَهْدَ الْمُوَثَّقَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ اللهِ بِمُجَرَّدِ قِرَاءَتِنَا لِـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، فَانْظُرْ لِلْجَمَالِ وَعَظَمَةِ الْمَقَالِ، فَاللهُ يُلْجِئُنَا إِلْجَاءً إِلَى أَنْ نَنْطِقَ نَصَّ الْعَهْدِ فَنَقُولُ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ تَصَوَّرْ ذَلِكَ! هَكَذَا دُونَ مُقَدِّمَاتٍ، وَدُونَ إِظْهَارِ الْأَرْكَانِ الْمُعْتَادَةِ لِلْعُهُودِ وَدُونَ أَنْ نَسْتَطِيعَ التَّرَاجُعَ عَنِ الْكَلِمَاتِ، نَعَمْ! هَكَذَا دُونَ أَنْ نَسْتَطِيعَ الْفِرَارَ مِنْ تَرْدِيدِ هَذَا النَّصِّ الْعَظِيمِ الْمُدْهِشِ أَوِ نُحَاوِلَ الْهُرُوبَ وَالْإِنْكَارَ، وَانْظُرْ لِهَذَا الْكَنْزِ الْمُخْتَبِئِ فِي هَذِهِ الْكَلِمَاتِ الْأَرْبَعِ: تَجْبُرُكَ الْفَاتِحَةُ عَلَى أَنْ تُخْبِرَ عَنْ عِبَادَتِكَ الْوَاقِعَةِ لِلَّهِ بِقَوْلِكَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، وَفِي الْوَقْتِ ذَاتِهِ تُخْبِرُ عَنِ اسْتِعَانَتِكَ الْمُحَقِّقَةِ لِلنُّهُوضِ بِالْعِبَادَةِ بِقَوْلِكَ: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

إِنَّهَا الْفَاتِحَةُ الْمُبَارَكَةُ تَبْدَأُ بِالثَّنَاءِ فِي الْأَرْبَعِ الْآيَاتِ الْأُوَلِ ثُمَّ مَا تَلْبَثُ حَتَّى تَنْقُلَكَ إِلَى الِالْتِزَامِ بِالْعَهْدِ الْعَظِيمِ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، ثُمَّ تَنْقُلُكَ نَقْلًا سَلِسًا تَشْعُرُ عِنْدَ انْقِيَادِكَ لَهُ بِلَذَّةٍ غَامِرَةٍ تَلْتَزِمُ فِيهِ بِصَرِيحِ الدُّعَاءِ بِطَلَبِ الْهِدَايَةِ لِصِرَاطِ الْأَصْفِيَاءِ الْأَتْقِيَاءِ الْأَنْقِيَاءِ السُّعَدَاءِ.

وَهَذَا بَعْضٌ، فَانْظُرْ وَتَأَمَّلْ مَا تَكْتَنِزُهُ الْفَاتِحَةُ مِنْ جَمَالٍ، وَمَا تُخَبِّئُهُ مِنْ مَحَاسِنِ الْخِصَالِ، وَلَوْ تَدَبَّرْتَهَا وَأَدْمَنْتَ التَّأَمُّلَ فِيهَا؛ لَاعْتَرَاكَ الْجَلَالُ لِعِظَمِ الْكَمَالِ فِي الْمَقَالِ مِنْ رَبِّنَا الْمُتَعَالِ.

وَبِذَا ظَهَرَ لَنَا مَا تَيَسَّرَ مِنْ بَصَائِرِ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ، وَعَظَمَتِهَا، وَاسْتَبَانَ لَنَا كَيْفَ أَشْرَقَ نُورُهَا عَلَى الْأُمَّةِ فَبَنَى لَهَا مَجْدَهَا وَعِزَّتَهَا وَكَرَامَتَهَا، وَكَيْفَ وَضَعَتْ بَصَائِرُهَا أُسُسَ الصَّلَاحِ النَّفْسِيِّ، وَالسَّكِينَةِ الشَّخْصِيَّةِ، وَالنُّظُمِ الْجَامِعَةِ لِتَجْعَلَ الْأُمَّةَ فِي حِصْنٍ حَصِينٍ مِنْ هَزَائِمِ الْفَاشِلِينَ، وَسَبِيلِ الْمُجْرِمِينَ.

فَيَا لَلَّهِ! مَاذَا حُرِمَ الْمُعْرِضُونَ عَنْ نُصُوصِهَا مِنْ كُنُوزِ الذَّخَائِرِ، وَمَاذَا فَاتَهُمْ مِنْ حَيَاةِ الْقُلُوبِ، وَاسْتِنَارَةِ الْبَصَائِرِ، وَيَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ! حُرِمُوا -وَاللهِ- الْوُصُولَ بِعُدُولِهِمْ عَنْ مَنْهَجِ الْوَحْيِ وَتَضْيِيعِهِمُ الْأُصُولَ[1].

(وَإِلَى اللهِ -تَعَالَى ذِكْرُهُ- جَزِيلُ الضَّرَاعَةِ وَالْمِنَّةِ بِقَبُولِ مَا مِنْهُ لِوَجْهِهِ، وَالْعَفْوِ عَمَّا تَخَلَّلَهُ مِنْ تَزَيُّنٍ وَتَصَنُّعٍ لِغَيْرِهِ)[2].

اللَّهُمَّ يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ وَالْعِزَّةِ الَّتِي لَا تُرَامُ، يَسِّرْ لِي إِتْمَامَ تَفْسِيرِ كِتَابِكَ عَلَى أَحْسَنِ وَجْهٍ وَأَجْمَلِهِ، وَأَكْمَلِهِ، وَأَحَبِّهِ إِلَيْكَ، وَأَرْضَاهُ عِنْدَكَ، وَأَكْثَرِهِ تَأْثِيرًا فِي نُفُوسِ

---

(١) بعض الكلمات مقتبسة من مقدمة مدارج السالكين.

(٢) من خاتمة كتاب الشفا للقاضي عياض ٢/ ٣١٢.

الْخَلْقِ، وَأَعْظَمِهِ بَيَانًا لِإِعْجَازِ آيَاتِكَ، وَاجْعَلْ ذَلِكَ عَلَى نَحْوٍ لَمْ أُسْبَقْ إِلَيْهِ، وَأَلْقِ الْقَبُولَ فِي قُلُوبِ الْخَلْقِ لِي فِيهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، وَهَيِّئْ لِي أَسْبَابَ ذَلِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، وَاجْعَلْنِي بِذَلِكَ مِنَ الْمُخْلِصِينَ الشَّاكِرِينَ.

رَبَّنَا يَا رَبَّنَا، نَحْنُ عَبِيدُكَ بَيْنَ يَدَيْكَ، مُتَضَرِّعُونَ مُحْتَاجُونَ إِلَيْكَ، فَأَعِنَّا عَلَى تَدَفُّقِ نُورِ الْإِيمَانِ فِي قُلُوبِنَا، وَاهْدِنَا وَيَسِّرِ الْهُدَى لَنَا رَبَّنَا.

رَبَّنَا، اقْذِفْ حُبَّكَ فِي قُلُوبِنَا حَتَّى لَا نُحِبَّ أَحَدًا كَحُبِّكَ، وَاقْذِفْ رَجَاءَكَ فِي أَفْئِدَتِنَا حَتَّى لَا نَرْجُوَ أَحَدًا غَيْرَكَ، وَاقْذِفْ خَشْيَتَكَ فِي بَوَاطِنِنَا حَتَّى لَا نَخْشَى أَحَدًا سِوَاكَ.

رَبَّنَا، عَلِّمْنَا الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلِّمْنَا مَا لَمْ نَكُنْ نَعْلَمْ، وَاجْعَلْ فَضْلَكَ عَلَيْنَا عَظِيمًا، كُنْ بِنَا حَفِيًّا، وَارْفَعْنَا -بِفَضْلِكَ وَرَحْمَتِكَ وَجُودِكَ وَإِحْسَانِكَ- مَكَانًا عَلِيًّا، لَا تَجْعَلْنَا عِطَاشًا مِنْ دُونِ مَحَبَّةٍ، رَبَّنَا، لَا تَتْرُكْنَا حَيَارَى مِنْ دُونِ نُورِ الْقُرْآنِ، رَبَّنَا، لَا تَجْعَلْنَا مِنْ دُونِ نُصْرَةِ الْقُرْآنِ هَلْكَى، رَبَّنَا.

رَبَّنَا، عَبِيدُكَ دُونَ نُورِ الْقُرْآنِ تَخْطَفُهُمُ الطَّيْرُ، وَتَهْوِي بِهِمْ رِيَاحُ الظُّلْمِ وَالظُّلُمَاتِ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ، اللَّهُمَّ أَنِرْ أَبْصَارَنَا وَبَصَائِرَنَا بِبَصَائِرِ الْقُرْآنِ، وَخُذْ بِأَيْدِينَا الْمُضْطَرِبَةِ إِلَى سُبُلِ السَّلَامِ، يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ.

اللَّهُمَّ إِنَّا عَبِيدُكَ بَنُو عَبِيدِكَ بَنُو إِمَائِكَ، نَوَاصِينَا بِيَدِكَ، مَاضٍ فِينَا حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِينَا قَضَاؤُكَ، نَسْأَلُكَ اللَّهُمَّ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قُلُوبِنَا، وَنُورَ صُدُورِنَا، وَجَلَاءَ أَحْزَانِنَا، وَذَهَابَ هُمُومِنَا، وَأُنْسَ حَيَاتِنَا، وَغَيْثَ أُمَّتِنَا الَّذِي يُخْرِجُهَا مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ، وَأَبْدِلْنَا مَكَانَ أَحْزَانِنَا أَعْظَمَ الْغِبْطَةِ وَالسُّرُورِ، يَا رَحِيمُ يَا غَفُورُ.

رَبَّنَا، مُلِئَتِ الْأَرْضُ بِالْجَوْرِ، وَعَادَتْ عِبَادَةُ الْأَوْثَانِ، وَاجْتَمَعَتْ أَحْزَابُ الشَّيْطَانِ لِطَمْسِ نُورِ الْقُرْآنِ، وَاحْتِنَاكِ الْبَشَرِيَّةِ بَعِيدًا عَنِ الْإِيمَانِ، وَنَحْنُ الْأُمَّةُ الْحَيْرَى الْمُسْتَضْعَفَةُ بَيْنَ يَدَيْكَ رَبَّنَا يَا رَحْمَنُ، اللَّهُمَّ فَأَعِنَّا وَلَا تُعِنْ عَلَيْنَا رَبَّنَا، امْكُرْ لَنَا وَلَا تَمْكُرْ عَلَيْنَا رَبَّنَا، انْصُرْنَا وَلَا تَنْصُرْ عَلَيْنَا رَبَّنَا.

رَبَّنَا، قِنَا شُرُورَ أَنْفُسِنَا، وَانْصُرْنَا عَلَى أَهْوَائِنَا وَعَلَى مَنْ بَغَى عَلَيْنَا رَبَّنَا، اللَّهُمَّ ارْحَمْ عِبَادًا غَرَّهُمْ طُولُ إِمْهَالِكَ، ارْحَمْ عِبَادًا أَطْمَعَهُمْ كَرَمُ نَوَالِكَ، ارْحَمْ عِبَادًا ذَلُّوا لِعِزِّكَ وَجَلَالِكَ، ارْحَمْ عِبَادًا عَلِمُوا أَلَّا غِنًى لَهُمْ عَنْ سُؤَالِكَ.

اللَّهُمَّ ارْحَمْ أُمَّةَ عَبْدِكَ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَارْزُقْهَا قَادَةً رَبَّانِيِّينَ يَقُودُونَهَا بِكِتَابِكَ وَسُنَّةِ نَبِيِّكَ، وَارْزُقْهَا فَهْمَ كِتَابِكَ، وَالتَّلَذُّذَ بِالْعَمَلِ بِخِطَابِكَ.

رَبَّنَا، اجْعَلْنَا أَهْلًا لِوِلَايَتِكَ، وَنُصْرَتِكَ، وَتَوْفِيقِكَ، وَتَأْيِيدِكَ، وَمَحَبَّتِكَ، وَرِضَاكَ، فَإِنَّهُ لَا يُعِينُ عَلَى الْحَقِّ غَيْرُكَ، وَلَا يُؤْتِيهِ إِلَّا أَنْتَ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ.

رَبَّنَا نَسْأَلُكَ إِيمَانًا لَا يَرْتَدُّ، وَنَعِيمًا لَا يَنْفَدُ، وَمُرَافَقَةَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ فِي أَعْلَى جِنَانِ الْخُلْدِ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.

وَصَلَّى اللهُ تَعَالَى وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

❊❊❊

أهم المصادر والمراجع

١) **آثَارُ الإِمَام مُحَمَّد البَشِير الإِبْرَاهِيمِي**، لمحمّد بن بشير بن عمر الإبراهيمي (ت: ١٣٨٥هـ)، جمع وتقديم: نجله الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٩٩٧م.

٢) **الأحاديث المختارة أو المستخرج من الأحاديث المختارة مما لم يخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما**، لضياء الدين أبي عبد الله محمد بن عبد الواحد المقدسي (ت: ٦٤٣هـ)، دراسة وتحقيق: أ.د/ عبد الملك بن عبد الله بن دهيش، دار خضر، بيروت – لبنان، ط٣، ١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠م.

٣) **الأخلاق والسير في مداواة النفوس**، لأبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري (ت: ٤٥٦هـ)، المحقق: بلا، دار الآفاق الجديدة – بيروت، ط٢، ١٣٩٩هـ- ١٩٧٩م.

٤) **أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي**، علي محمد جريشه – محمد شريف الزيبق، دار الوفاء، ط٣، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.

٥) **أسرار التكرار في القرآن المسمى البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان**، لمحمود بن حمزة بن نصر الكرماني (ت: نحو ٥٠٥هـ)، المحقق: عبد القادر أحمد عطا.

٦) **الإتقان في علوم القرآن**، لعبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت: ٩١١هـ)، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة: ١٣٩٤هـ-١٩٧٤م.

٧) **اتفاق المباني وافتراق المعاني**، لسليمان بن بنين بن خلف الدقيقي المصري (ت: ٦١٣هـ)، المحقق: يحيى عبد الرؤوف جبر، دار عمار – الأردن، ط١، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.

٨) **الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان**، لمحمد بن حبان التميمي البُستي (ت: ٣٥٤هـ)، ترتيب: الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي (ت: ٧٣٩هـ)، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٠٨ هـ- ١٩٨٨ م.

٩) **الله أهل الثناء والمجد**، د. ناصر الزهراني.

١٠) **البدر المنير في تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في الشرح الكبير**، لابن الملقن عمر بن علي بن أحمد الشافعي (ت: ٨٠٤هـ)، المحقق: مصطفى أبو الغيط وعبد الله بن سليمان وياسر بن كمال، دار الهجرة – الرياض-السعودية، ط١، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م.

١١) **البرهان في علوم القرآن**، لمحمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي، دار المعرفة- بيروت، ١٣٩١، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم.

١٢) **البر والصلة**، الحسين بن الحسن بن حرب السلمي، تحقيق: د. محمد سعيد بخاري، دار الوطن – الرياض، ط١، ١٤١٩هـ.

١٣) **البصائر والذخائر**، أبو حيان التوحيدي، تحقق: د. وداد القاضي، دار صادر – بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م.

١٤) **التحرير والتنوير**، لمحمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت: ١٣٩٣هـ)، الدار التونسية للنشر – تونس، ١٩٨٤هـ.

١٥) **تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي**، لأبي العلا محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفورى (ت: ١٣٥٣هـ)، دار الكتب العلمية – بيروت.

١٦) **التذكرة في الوعظ**، ابن الجوزي، تحقيق: أحمد عبد الوهاب فتيح، دار المعرفة – بيروت، ط١، ١٤٠٦هـ.

١٧) **التسهيل لعلوم التنزيل**، لأبي القاسم، محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله، ابن جزي الكلبي الغرناطي (ت: ٧٤١هـ)، المحقق: الدكتور عبد الله الخالدي، دار الأرقم، بيروت، ط١- ١٤١٦هـ.

١٨) **التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد**، ابن عبد البر، تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي، محمد عبد الكبير البكري، وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية – المغرب، ١٣٨٧هـ.

١٩) **تفسير الإيجي جامع البيان في تفسير القرآن**، لمحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الحسني الحسيني الإيجي الشافعيّ (ت: ٩٠٥هـ)، دار النشر: دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٤م.

٢٠) **تفسير الطبري (جامع البيان في تأويل القرآن)**، لأبي جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي الطبري (ت: ٣١٠هـ)، المحقق: أحمد محمد شاكر، ومحمود محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

٢١) **تفسير القرآن العظيم (ابن كثير)**، لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (ت: ٧٧٤هـ)، المحقق: محمد حسين شمس الدين،

٢٢) دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ.

٢٣) **تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)**، لمحمد رشيد بن علي رضا القلموني الحسيني (ت: ١٣٥٤هـ)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م.

٢٤) **تهذيب اللغة**، أبو منصور الأزهري، تحقق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط١، ٢٠٠١م.

٢٥) **توقيع في الخلية (الدنا وأدلة التصميم الذكي)** للدكتور/ ستيفن ماير، ترجمة د.آلاء حسكي وآخرون، نشر مركز براهين ط١، ٢٠١٧م.

٢٦) **التيسير بشرح الجامع الصغير**، لزين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري (ت: ١٠٣١هـ)، مكتبة الإمام الشافعي- الرياض، ط٣، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

٢٧) **جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثًا من جوامع الكلم**، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: الدكتور محمد الأحمدي أبو النور، دار السلام، ط٢، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م.

٢٨) **جمع الفوائد من جامع الأصول ومجمع الزَّوائِد**، لمحمد بن محمد بن سليمان بن الفاسي بن طاهر السوسي (ت: ١٠٩٤هـ)، تحقيق وتخريج: أبو علي سليمان بن دريع، مكتبة ابن كثير، الكويت- دار ابن حزم، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ- ١٩٩٨م.

٢٩) **جمهرة اللغة**، لأبي بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (ت: ٣٢١هـ)، المحقق: رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين- بيروت، ط١، ١٩٨٧م.

٣٠) **حاشية السندي على سنن ابن ماجه = كفاية الحاجة في شرح سنن ابن ماجه**، لمحمد بن عبد الهادي السندي (ت: ١١٣٨هـ)، دار الجيل- بيروت، بدون طبعة.

٣١) **الحكم العطائية**، ابن عطاء الله السكندري، منشورات منتديات دار الإيمان.

٣٢) **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**، لأبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني (ت: ٤٣٠هـ)، دار السعادة- بجوار محافظة مصر، ١٣٩٤هـ- ١٩٧٤م.

٣٣) **الخطر اليهودي بروتوكولات حكماء صهيون**، ترجمة: محمد خليفة التونسي (نسبة إلى قرية تونس في صعيد مصر) (ت: ١٤٠٨هـ)، قدم له: عباس محمود العقاد، دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان.

٣٤) **الدر المصون في علوم الكتاب المكنون**، شهاب الدين السمين الحلبي، تحقيق: الدكتور أحمد محمد الخراط دار القلم، دمشق.

٣٥) **دلائل الإعجاز في علم المعاني**، لأبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الأصل، الجرجاني الدار (ت: ٤٧١هـ)، المحقق: محمود محمد شاكر أبو فهر، مطبعة المدني بالقاهرة – دار المدني بجدة، ط٣ ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م.

٣٦) **الدين (بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان)**، الدكتور محمد عبد الله دراز، دار القلم.

٣٧) رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه، ابن القيم، تحقق: عبد الله بن محمد المديفر، مطابع الشرق الأوسط ــ الرياض، ط١، ١٤٢٠هـ.

٣٨) **الرسالة القشيرية**، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري، تحقيق: الدكتور عبد الحليم محمود، الدكتور محمود بن الشريف، دار المعارف، القاهرة.

٣٩) **الزبد في الفقه الشافعي**، لشهاب الدين أبي العباس أحمد بن حسين بن حسن بن علي ابن رسلان الشافعي (ت: ٨٤٤هـ)، دار المعرفة – بيروت.

٤٠) **الزهد**، لعبد الله بن المبارك بن واضح المرزوي [١١٨ – ١٨١]، المحقق: حبيب الرحمن الأعظمي، دار الكتب العلمية – بيروت.

٤١) **السراج المنير في ترتيب أحاديث صحيح الجامع الصغير**، للحافظ جلال الدين السيوطي– العلامة محمد ناصر الدين الألباني، رتَّبه وعلق عليه: عصام موسى هادي، دار الصديق– توزيع مؤسسة الريان، ط٣، ١٤٣٠هـ– ٢٠٠٩م.

٤٢) **سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها**، لأبي عبد الرحمن محمد ناصر الدين الألباني (ت: ١٤٢٠هـ)، مكتبة المعارف، الرياض، ط١.

٤٣) **سُنَن أبي داود**، لأَبي دَاوُدَ سُلَيْمَان بن الأَشْعَثِ السِّجِسْتَانِيِّ (ت: ٢٧٥هـ)، كتب الحواشي والتعليقات: محمود خليل.

٤٤) **سنن الترمذي**، لمحمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (ت: ٢٧٩هـ)، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر (جـ ١، ٢)، ومحمد فؤاد عبد الباقي (جـ ٣)، وإبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف (جـ ٤، ٥)، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر، ط٢، ١٣٩٥هـ – ١٩٧٥م.

٤٥) **سنن النسائي بشرح السيوطي وحاشية السندي**، لأبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي، المحقق: مكتب تحقيق التراث، دار المعرفة ببيروت، ط٥ ١٤٢٠هـ.

٤٦) **سنن النسائي الكبرى**، لأحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي، دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، ١٤١١ه – ١٩٩١م، تحقيق: د.عبد الغفار سليمان البنداري، سيد كسروي حسن.

٤٧) **السنن الكبرى**، لبي بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى البيهقي (ت: ٤٥٨هـ)، المحقق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنات، ط٣، ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م.

٤٨) **سنن ابن ماجه**، لابن ماجة أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، وماجة اسم أبيه يزيد (ت: ٢٧٣هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية – فيصل عيسى البابي الحلبي.

٤٩) **سنن الدارقطني**، لأبي الحسن علي بن عمر البغدادي الدارقطني (ت: ٣٨٥هـ)، حققه وضبط نصه وعلق عليه: شعيب الارنؤوط، حسن عبد المنعم شلبي، عبد اللطيف حرز الله، أحمد برهوم، مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان، ط١، ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٤م.

٥٠) **شعب الإيمان**، لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٠ه، تحقيق: محمد السعيد بسيوني زغلول.

٥١) **الشفا بتعريف حقوق المصطفى**، لأبي الفضل القاضي عياض بن موسى اليحصبي (ت: ٥٤٤هـ)، مع حاشية أحمد بن محمد بن محمد الشمنى (ت: ٨٧٣هـ)، دار الفكر، ١٤٠٩هـ – ١٩٨٨م.

٥٢) **الشكر**، لأبي بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس البغدادي الأموي القرشي المعروف بابن أبي الدنيا (ت: ٢٨١هـ)، المحقق: بدر البدر، المكتب الإسلامي- الكويت، ط٣، ١٤٠٠ه-١٩٨٠م.

٥٣) **شرح الحكم العطائية**، لعبد المجيد الشرنوبي، كتاب الكتروني.

٥٤) **صحيح البخاري (الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله وسننه وأيامه)**، لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية، ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، ط١، ١٤٢٢هـ.

٥٥) **صحيح مسلم (المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله)**، لأبي الحسن مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت: ٢٦١هـ)، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي - بيروت.

٥٦) **صحيح ابن خزيمة**، لأبي بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة بن المغيرة بن صالح بن بكر السلمي النيسابوري (ت: ٣١١هـ)، المحقق: د. محمد مصطفى الأعظمي، المكتب الإسلامي - بيروت.

٥٧) **صحيح وضعيف سنن الترمذي**، لمحمد ناصر الدين الألباني (ت: ١٤٢٠هـ)، مصدر الكتاب: برنامج منظومة التحقيقات الحديثية- المجاني- من إنتاج مركز نور الإسلام لأبحاث القرآن والسنة بالإسكندرية.

٥٨) **الصراع من أجل الإيمان (انطباعات أمريكي اعتنق الإسلام)**، للدكتور جفري لانج، ترجمة الدكتور منذر العبسي، دار الفكر المعاصر-دمشق، ط٢١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.

٥٩) **العلم يدعو للإيمان**، لكريسى موريسون، المترجم: محمود صالح الفلكي، دار وحي القلم، ط١، ١٤٣٤هـ-٢٠١٣م.

٦٠) **طريق الهجرتين وباب السعادتين**، ابن القيم، دار السلفية، القاهرة، مصر، ط٢، ١٣٩٤هـ.

٦١) **علل الدارقطني من مسند أمِّ الفضل بنتِ حمزة إلى مسند خنساء بنت خدام، وهو آخر مسند في الكتاب** لأبي الحسن علي بن عمر البغدادي الدارقطني (ت: ٣٨٥هـ)، تحقيق: د/ علي الصياح.

٦٢) **العقد الفريد**، ابن عبد ربه الأندلسي، دار الكتب العلمية - بيروت، ط١، ١٤٠٤هـ.

٦٣) عُقُودُ الْجُمَان فِي عِلْمِ الْمَعَانِي وَالْبَيَان، جَلَالُ الدِّينِ السُّيُوطِيُّ، تَحْقِيقٌ وَضَبْطٌ: عَبْدُ الْحَمِيدِ ضَحَا، دَارُ الْإِمَامِ مُسْلِمٍ، الْقَاهِرَةُ، ط١، ١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م.

٦٤) **العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية**، لشمس الدين محمد بن أحمد بن عبد الهادي بن يوسف الدمشقي الحنبلي (ت: ٧٤٤هـ)، المحقق: محمد حامد الفقي، دار الكاتب العربي - بيروت.

٦٥) **كتاب العين**، لأبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (ت: ١٧٠هـ)، المحقق: دمهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال.

٦٦) **العمدة في إعراب البردة قصيدة البوصيري**، المؤلف: مجهول، تحقيق: عبد الله أحمد جاجة، تقديم: محمد علي سلطاني، دار اليمامة للطباعة والنشر- دمشق، ط١، ١٤٢٣هـ.

٦٧) **عيون الأخبار**، ابن قتيبة الدينوري، دار الكتب العلمية ـبيروت، ١٤١٨هـ.

٦٨) **غريب الحديث**، لأبي سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي المعروف بالخطابي (ت: ٣٨٨ هـ)، المحقق: عبد الكريم إبراهيم الغرباوي، خرج أحاديثه: عبد القيوم عبد رب النبي، دار الفكر - دمشق، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

٦٩) **الفائق في غريب الحديث والأثر**، الزمخشري، تحقيق: علي محمد البجاوي -محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة – لبنان، ط٢.

٧٠) **الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني ومعه بلوغ الأماني من أسرار الفتح الرباني**، لأحمد بن عبد الرحمن بن محمد البنا الساعاتي (ت: ١٣٧٨هـ)، دار إحياء التراث العربي، ط٢.

٧١) **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، لزين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السَلامي، البغدادي (ت: ٧٩٥هـ)، تحقيق: محمود بن شعبان بن عبد المقصود وآخرين، مكتبة الغرباء الأثرية- المدينة النبوية، الحقوق: مكتب تحقيق دار الحرمين- القاهرة، ط١، ١٤١٧هـ- ١٩٩٦م.

٧٢) **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني الشافعي، دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، عليه تعليقات العلامة: عبد العزيز بن عبد الله بن باز.

٧٣) **الفتنة الدجالية**، لمناظر أحسن الكيلاني المتوفى ١٣٧٥هـ-١٩٥٦م، تعريب الأستاذ محمد عارف جميل القاسمي الأعظمي، أكاديمية شيخ الهند، الجامعة الإسلامية، دار العلوم، ديوبند.

٧٤) **الفرج بعد الشدة**، أبو علي التنوخي، تحقيق: عبود الشالجي، دار صادر، بيروت، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.

٧٥) **في ظلال القرآن**، لسيد قطب (ت: ١٣٨٥هـ)، دار الشروق- بيروت- القاهرة، ط١٧، ١٤١٢هـ.

٧٦) **فيض القدير شرح الجامع الصغير**، لزين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين الحدادي ثم المناوي القاهري (ت: ١٠٣١هـ)، المكتبة التجارية الكبرى – مصر، ط١، ١٣٥٦ه.

٧٧) **اللطائف من علوم المعارف**، لمحمد بن عمر بن أحمد بن عمر بن محمد الأصبهاني المديني (ت: ٥٨١هـ)، مخطوط نُشر في برنامج جوامع الكلم المجاني التابع لموقع الشبكة الإسلامية، ط١، ٢٠٠٤م.

٧٨) **ما هي النصرانية**، محمد تقي العثماني، مكتبة دار العلوم، كراتشي ١٤٠٣هـ.

٧٩) **مباحث الأمر التي انتقدها شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى**، لسليمان بن سليم الله الرحيلي، الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة، الطبعة السنة السادسة والثلاثون- العدد (١٢٣).

٨٠) **المجالسة وجواهر العلم**، أبو بكر الدينوري، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، جمعية التربية الإسلامية (البحرين – أم الحصم)، دار ابن حزم، بيروت – لبنان، ١٤١٩هـ.

٨١) **محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء**، الراغب الأصفهانى، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم – بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ.

٨٢) **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**، لمحمد بن أبي بكر، ابن قيم الجوزية (ت: ٧٥١هـ)، المحقق: محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي – بيروت.

٨٣) **المجالسة وجواهر العلم**، لأبي بكر أحمد بن مروان الدينوري المالكي (ت: ٣٣٣هـ)، المحقق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، جمعية التربية الإسلامية (البحرين- أم الحصم)، دار ابن حزم (بيروت- لبنان)، ١٤١٩هـ.

٨٤) **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، لأبي الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي (ت: ٨٠٧هـ)، المحقق: حسام الدين القدسي، مكتبة القدسي، القاهرة، ١٤١٤هـ، ١٩٩٤م.

٨٥) **المحكم والمحيط الأعظم**، لأبي الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي [ت: ٤٥٨هـ]، المحقق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م.

٨٦) **المستدرك على الصحيحين**، لأبي عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله النيسابوري المعروف بابن البيع (ت: ٤٠٥هـ)، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية – بيروت.

٨٧) **مسند أبي يعلى**، لأحمد بن علي بن المثنى أبو يعلى الموصلي، ت: ٣٠٧ هـ، المحقق: حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث – جدة، ط٢، ١٤١٠هـ- ١٩٨٩م.

٨٨) **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، لأحمد بن حنبل الشيباني (ت٢٤١هـ)، المحقق: شعيب الأرناؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، ط٢ ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م.

٨٩) **مشكلة الشر ووجود الله، الرد على أبرز شبهات الملاحدة**، سامي عامري.

٩٠) **مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه**، لأبي العباس شهاب الدين أحمد بن أبي بكر البوصيري (ت: ٨٤٠هـ)، المحقق: محمد المنتقى الكشناوي، دار العربية – بيروت، ط٢، ١٤٠٣هـ.

٩١) **المعجم الصغير للطبراني** للحافظ أبي القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي الطبراني (ت: ٣٦٠ه)، ويليه رسالة غنيد الالمعي لمؤلفها العلامة الحافظ أبي الطيب شمس الحق العظيم آبادي غفر الله لنا وله وللمسلمين، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.

٩٢) **المعجم الأوسط**، لسليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي الطبراني (ت: ٣٦٠هـ)، المحقق: طارق بن عوض الله بن محمد، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين – القاهرة.

٩٣) **المعجم الكبير**، لسليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي الطبراني (ت: ٣٦٠هـ)، المحقق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية – القاهرة، ط٢.

٩٤) **معجم مقاييس اللغة**، لأبي الحسين أحمد بن فارِس بن زكَرِيّا، المحقق: عبد السَّلام محمد هَارُون، اتحاد الكتاب العرب، الطبعة: ١٤٢٣هـ = ٢٠٠٢م.

٩٥) **معنى لا إله إلا الله**، بدر الدين الزركشي، تحقيق: علي محيي الدين علي القرة راغي، دار الاعتصام – القاهرة، ط٣، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

٩٦) **مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة**، لمحمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت: ٧٥١هـ)، دار الكتب العلمية – بيروت.

٩٧) **مفاتيح الغيب = التفسير الكبير**، لأبي عبد الله محمد بن عمر الرازي الملقب بفخر الدين الرازي (ت: ٦٠٦هـ)، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط٣- ١٤٢٠هـ.

٩٨) **مفردات غريب القرآن**، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى (ت ٥٠٢هـ)، المحقق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، دمشق، ط١، ١٤١٢هـ

٩٩) **ملاحظات نحو تعريف الثقافة**، ت.س. إليوت، ترجمة وتقديم: دشكري محمد عياد، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

١٠٠) **مجموع الفتاوى**، أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني (ت: ٧٢٨هـ)، المحقق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.

١٠١) **موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية**، عبد الوهاب المسيري.

١٠٢) **الكشف والبيان عن تفسير القرآن**، أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي (ت: ٤٢٧هـ)، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق: الأستاذ نظير الساعدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، ط١ ١٤٢٢هـ- ٢٠٠٢م.

١٠٣) **لسان العرب**، لمحمد بن مكرم، ابن منظور (ت: ٧١١هـ)، دار صادر – بيروت، ط٣- ١٤١٤هـ.

١٠٤) **لطائف الإشارات = تفسير القشيري**، لعبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري (ت: ٤٦٥هـ)، المحقق: إبراهيم البسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب – مصر، ط٣.

١٠٥) **النبوءة والسياسة**، لجريس هالسيل، ترجمة محمد السماك، دار الشروق، ط٢، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.

١٠٦) **نصب الراية لأحاديث الهداية مع حاشيته بغية الألمعي في تخريج الزيلعي**، لجمال الدين عبد الله بن يوسف بن محمد الزيلعي (ت: ٧٦٢هـ)، المحقق: محمد عوامة، مؤسسة الريان للطباعة والنشر- بيروت- لبنان/ دار القبلة للثقافة الإسلامية- جدة – السعودية، ط١، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.

١٠٧) **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، برهان الدين البقاعي، دار الكتب العلمية – بيروت، ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م.

١٠٨) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، التلمساني، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر- بيروت – لبنان.

١٠٩) **صحيفة الرياض** العدد١٤٨٧٤ الأحد١٨ربيع الأول١٤٣٠هـ الموافق١٥مارس٢٠٠٩م، نقلا عن جريدة: L'osservatore Romano ٤/٣/٢٠٠٩.

١١٠) The Jewish Encyclopedia (New York: Funk and Wagnalls Company) ١٩٠٩.

١١١)) An Historical Account of Two Notable Corruptions of Scripture.(

١١٢) World Order Henry Kissinger

***

المحتويات

مقدمة: فِي بَصَائِرِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ، وَرَسْمِهَا لِخَرِيطَةِ النَّجَاحِ الْإِنْسَانِيِّ ٦
البصيرةُ الْأُولَى: القُرْآنُ الْمَجِيدُ «صَانِعُ السَّلَامِ الْحَقِيقِيِّ ٨
البصيرةُ الثَّانِيَةُ: الِاعْتِزَازُ بِبَصَائِرِ الْقُرْآنِ؛ سَبِيلٌ لِإِظْهَارِ أَنْوَارِ الْقُرْآنِ ١٠
البصيرةُ الثَّالِثَةُ: مِنْ أَهَمِّ أَهْدَافِ هَذَا الْكِتَابِ ١٦
البصيرةُ الرَّابِعَةُ: حِكْمَةٌ مُدْهِشَةٌ: تَرْتِيبُ آيَاتِ الْقُرْآنِ وَسُوَرِهِ ٢١
البصيرةُ الْخَامِسَةُ: مَنْهَجُ التَّدَبُّرِ (أَيُّهَا التَّالِي: أَمْعِنِ النَّظَرَ، وَأَعِدِ التَّفْكِيرَ وَالْتَمِسِ الْعِبَرَ) ٢٥
البصيرةُ السَّادِسَةُ: تَعْتَمِدُ الْبَصَائِرُ الْقُرْآنِيَّةُ عَلَى الْمَصْدَرِيَّةِ الْإِلَهِيَّةِ لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ٢٨
أَنْوَارُ الفَاتِحَةِ ٣١
النُّورُ الأَوَّلُ: مِنْ فَضَائِلِ الْفَاتِحَةِ الَّتِي تَجْعَلُنَا نُدْرِكُ قِيمَتَهَا وَعَظَمَتَهَا ٣٣
الْأُنْمُوذَجُ الْأَوَّلُ: بَيْنَ الْحَضَارَةِ الْعَظِيمَةِ (حَضَارَةِ أَصْحَابِ الْحِجْرِ) وَسُورَةِ (الْفَاتِحَةِ) ٣٣
الْأُنْمُوذَجُ الثَّانِي: أَسْرَارٌ وَرَاءَ الْبَيَانِ، لِمَاذَا كَانَتِ الْفَاتِحَةُ (أُمَّ الْقُرْآنِ)؟ ٣٦
الْأُنْمُوذَجُ الثَّالِثُ: (الْفَاتِحَةُ) تُمَثِّلُ اللِّسَانَ الصَّادِقَ لِلْبَشَرِيَّةِ الْمُؤْمِنَةِ فِي الصِّلَةِ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ٣٨
النُّورُ الثَّانِي: عَمُودُ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ (مَوْضُوعُهَا الْكُلِّيُّ) ٤٠
النُّورُ الثَّالِثُ: الْمَعَايِيرُ الثَّمَانِيَةُ لِتَحْدِيدِ عَمُودِ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ (مَوْضُوعِهَا الْكُلِّيِّ) ٤٣
الْمِعْيَارُ الْأَوَّلُ: أَسْمَاءُ الْفَاتِحَةِ الْمُعَظَّمَةِ: ٤٣
الْمِعْيَارُ الثَّانِي: نُزُولُهَا التَّارِيخِيُّ: ٤٤
الْمِعْيَارُ الثَّالِثُ: تَرْتِيبُهَا الْمُصْحَفِيُّ: ٤٥
الْمِعْيَارُ الرَّابِعُ: الْمَوْضُوعَاتُ الْكُبْرَى لِلْفَاتِحَةِ: ٤٨
مَقَاصِدُ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ ٥١
أَوَّلًا: نَمَاذِجُ لِجُهُودِ الْعُلَمَاءِ فِي تَحْدِيدِ الْمَقَاصِدِ الْكُلِّيَّةِ لِسُورَةِ الْفَاتِحَةِ الْمُبَارَكَةِ: ٥١
ثَانِيًا: أُنْمُوذَجُ التَّقْسِيمِ النَّبَوِيِّ الْمَقَاصِدِيِّ لِلْفَاتِحَةِ الْمُبَارَكَةِ: ٥٦
الْمِعْيَارُ الْخَامِسُ: مَدَدُ السَّابِقِينَ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ فِي تَحْدِيدِ الْمَوْضُوعِ الْكُلِّيِّ لِلْفَاتِحَةِ: ٦٤

الْمِعْيَارُ السَّادِسُ: الْأَلْفَاظُ الَّتِي انْفَرَدَتْ بِهَا السُّورَةُ: ٦٥
الْمِعْيَارُ السَّابِعُ: الْكَلِمَاتُ الْمُتَكَرِّرَةُ بِنَصِّهَا أَوْ مَعْنَاهَا فِي السُّورَةِ: ٦٧
الْمِعْيَارُ الثَّامِنُ: الْخَرِيطَةُ الْكُلِّيَّةُ الْمُوَضِّحَةُ لِعَمُودِ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ وَمَوْضُوعِهَا الْكُلِّيِّ ٧٠
الْخَرِيطَةُ الْكُلِّيَّةُ لِسُورَةِ الْفَاتِحَةِ ٧١
الْمَقْصِدُ الْأَوَّلُ: التَّعْرِيفُ بِاسْمِ الْإِلَهِ الْحَقِّ (الْأَوَّلِ وَالْآخِرِ) -جَلَّ مَجْدُهُ-، فَاسْمُهُ: اللهُ، وَأَسَاسُ صِفَاتِهِ، وَهِيَ الرَّحْمَةُ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝١﴾ ٧٩
الْبَصِيرَةُ الْأُولَى: الْبَسْمَلَةُ تُعَرِّفُ الْعَالَمَ بِاسْمِ إِلَهِهِمُ الْحَقِّ الْأَوَّلِ وَالْآخِرِ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ ٨١
الْبَصِيرَةُ الثَّانِيَةُ: الْبَسْمَلَةُ مَرْسُومٌ إِلَهِيٌّ جَعَلَهُ اللهُ مُقَدِّمَةً لِكَلَامِهِ لِيُوَضِّحَ أَنَّ الرَّحْمَةَ أَسَاسُ الصِّفَاتِ ٩٠
الْبَصِيرَةُ الثَّالِثَةُ: الْبَسْمَلَةُ مُقَرِّرَةٌ لِحَقِيقَةِ التَّوْحِيدِ الَّتِي هِيَ أَعْظَمُ الْحَقَائِقِ الْكَوْنِيَّةِ ٩٦
الْبَصِيرَةُ الرَّابِعَةُ: الْبَسْمَلَةُ أَسَاسٌ يُكَمِّلُ الِاسْتِعَاذَةَ، وَيُنْبِتُ غِرَاسَ الْحِمَايَةِ وَالرِّعَايَةِ ١٠٣
الْبَصِيرَةُ الْخَامِسَةُ: الْبَسْمَلَةُ تُبَصِّرُنَا بِقُوَّةِ التَّوْحِيدِ وَالتَّعَبُّدِ الصَّادِقِ مِنَ الْعَبِيدِ ١٠٩
الْمَقْصَدُ الثَّانِي: التَّعْرِيفُ بِالْعَالَمِينَ، وَأَنَّ وُجُودَهُمْ لِأَنَّ اللهَ ﷻ رَبَّاهُمْ، فَكُلُّهُمْ مِنَ الذَّرَّاتِ إِلَى الْمَجَرَّاتِ بَرَاهِينُ لَا حَصْرَ لَهَا عَلَى أَنَّ اللهَ ﷻ هُوَ الْإِلَهُ الْحَقُّ، وَلِذَا فَهُوَ يَسْتَحِقُّ جَمِيعَ الْمَحَامِدِ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢﴾ ١١٢
الْبَصِيرَةُ الْأُولَى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ شِعَارُ الشَّاكِرِينَ، وَنَبْضُ قُلُوبِ الْمُوَحِّدِينَ وَمِعْرَاجُ السَّعَادَةِ ١١٥
الْبَصِيرَةُ الثَّانِيَةُ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أَجْمَلُ مَا تَتَزَيَّنُ بِهِ الْأَفْوَاهُ وَيُرَدِّدُهُ الْقَانِتُ الْأَوَّاهُ ١٢٣
الْبَصِيرَةُ الثَّالِثَةُ: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ اسْمٌ يُبَيِّنُ حَقَّ الرُّبُوبِيَّةِ لِلَّهِ، وَبَرَاهِينَهُ ١٤٣
الْبَصِيرَةُ الرَّابِعَةُ: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ اسْمٌ يُبَيِّنُ حُقُوقَ الْخَلْقِ فَيَفِيضُ تَعَطُّفًا وَرِعَايَةً ١٦٨
الْبَصِيرَةُ الْخَامِسَةُ: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ اللهَ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ، فَهُوَ رَبُّ الْخَلْقِ أَجْمَعِينَ . ١٧٧
الْبَصِيرَةُ السَّادِسَةُ: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يُرَبِّي تَرْبِيَةً كَامِلَةً تَضْعُفُ عِنْدَهَا تَرْبِيَةُ النُّظُمِ الْبَشَرِيَّةِ الْآفِلَةِ ١٨١
الْمَقْصِدُ الثَّالِثُ: التَّعْرِيفُ بِطَبِيعَةِ الْعَلَاقَةِ بَيْنَ اللهِ وَخَلْقِهِ وَأَنَّهَا قَائِمَةٌ عَلَى الرَّحْمَةِ بِهِمْ، فَالرَّحْمَةُ أَسَاسُ خَلْقِ الطَّبِيعَةِ، وَإِنْزَالِ الشَّرِيعَةِ ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝٣﴾ ١٨٨

الْبَصِيرَةُ الْأُولَى: ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ إِشَاعَةَ الرَّحْمَةِ أَهَمُّ أَهْدَافِ خَلْقِ الطَّبِيعَةِ، وَإِنْزَالِ الشَّرِيعَةِ ١٨٩
الْبَصِيرَةُ الثَّانِيَةُ: الرَّحْمَةُ فِي التَّصَوُّرِ الْإِسْلَامِيِّ مَطْلُوبَةٌ غَايَةً وَوَسِيلَةً، وَابْتِدَاءً وَانْتِهَاءً ١٩٧
الْبَصِيرَةُ الثَّالِثَةُ: حَقِيقَةُ الْخَلْقِ وَالْأَمْرِ هِيَ الرَّحْمَةُ الْإِلَهِيَّةُ، وَإِنْ ظَهَرَ مِنْ بَعْضِ صُوَرِهَا غَيْرُ ذَلِكَ ٢٠١
الْمَقْصِدُ الرَّابِعُ: التَّعْرِيفُ بِقِصَّةِ نِهَايَةِ الْعَالَمِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَتَطْبِيقِ الْعَدْلِ الْإِلَهِيِّ الْكَامِلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَفِيهِ يَكُونُ الدِّينُ أَيِ الْجَزَاءُ عَلَى الدِّينِ أَيِ النِّظَامِ الَّذِي اتَّبَعَهُ الْإِنْسَانُ فِي الدُّنْيَا ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۝٤﴾ ٢٠٩
الْبَصِيرَةُ الْأُولَى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ تَخْتَصِرُ قِصَّةَ نِهَايَةِ التَّارِيخِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ٢١١
الْبَصِيرَةُ الثَّانِيَةُ: ﴿الدِّينِ﴾ هُوَ النِّظَامُ الَّذِي يَدِينُ بِهِ النَّاسُ فِي الدُّنْيَا، وَيُدَانُونَ وَفْقَهُ فِي الْآخِرَةِ..... ٢١٦
الْبَصِيرَةُ الثَّالِثَةُ: (اللهُ) هُوَ الْمَلِكُ الْمَالِكُ لِيَوْمٍ يُحَاسَبُ فِيهِ الْخَلْقُ عَلَى نِظَامِهِمُ الدُّنْيَوِيِّ ٢٢٠
الْبَصِيرَةُ الرَّابِعَةُ: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ تَمْجِيدٌ لِبَيَانِ هَيْبَةِ الْعَدْلِ، وَتَفْوِيضٌ لِبَيَانِ جَمَالِ الرَّحْمَةِ وَالْفَضْلِ ٢٢٨
الْبَصِيرَةُ الْخَامِسَةُ: ﴿يَوْمِ الدِّينِ﴾ هُوَ أَعْظَمُ حَلٍّ لِإِيجَادِ التَّنْمِيَةِ الصَّادِقَةِ فِي الْمُجْتَمَعَاتِ ٢٣٤
﴿يَوْمِ الدِّينِ﴾ هُوَ أَعْظَمُ حَلٍّ لِإِيجَادِ التَّنْمِيَةِ الصَّادِقَةِ فِي الْمُجْتَمَعَاتِ ٢٣٤
الْمَقْصِدُ الْخَامِسُ: التَّعْرِيفُ بِوَظِيفَةِ الْعَالَمِينَ، وَهِيَ الِالْتِزَامُ بِأَنْظِمَةِ الْعِبَادَةِ الْمُوَحِّدَةِ لِلهِ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، وَذَلِكَ لِتَحْقِيقِ السَّعَادَةِ فِي الْحَيَاتَيْنِ، وَالْعِبَادَةُ تَشْمَلُ كُلَّ عَمَلٍ صَالِحٍ نَعْمُرُ بِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا، وَالْحَيَاةَ الْآخِرَةَ... ٢٥١
الْبَصِيرَةُ الْأُولَى: العِبَادَةُ هِيَ الْبَرْنَامَجُ الْحَيَاتِيُّ الْعَمَلِيُّ الَّذِي يَدُلُّ عَلَى صِدْقِ التَّوْحِيدِ ٢٥٣
الْبَصِيرَةُ الثَّانِيَةُ: نِظَامُ العِبَادَةِ: تشريعٌ إلهيٌّ يُنَظِّمُ الْحَيَاةَ، ويَجْلِبُ السَّعَادَةَ لِلْإِنْسَانِيَّةِ ٢٥٧
الْبَصِيرَةُ الثَّالِثَةُ: (الْعِبَادَةُ) هِيَ طَرِيقُ الْبَشَرِيَّةِ الْوَحِيدُ لِلتَّحَرُّرِ الْحَقِيقِيِّ، وَتَحْقِيقِ السِّيَادَةِ وَالرِّيَادَةِ..... ٢٦٦
الْمَقْصَدُ السَّادِسُ: الِاسْتِعَانَةُ بِاللهِ ﷻ نِظَامٌ تَعَبُّدِيٌّ يُظْهِرُ الِافْتِقَارَ لِقُوَّةِ الْقَادِرِ الْقَهَّارِ، وَيُعِينُ عَلَى بِنَاءِ الْحَيَاةِ وَتَحْقِيقِ النَّجَاحِ وَفْقَ أَنْظِمَةِ الْعِبَادَةِ ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ٢٧٥
الْبَصِيرَةُ الْأُولَى: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ تَحْصُرُ طَلَبَ الْعَوْنِ لِيَكُونَ مِنَ اللهِ لَا مِنْ غَيْرِهِ؛ تَعْظِيمًا وَحِمَايَةً .. ٢٧٧
الْبَصِيرَةُ الثَّانِيَةُ: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ تَبْنِي الِاسْتِقْلَالَ الذَّاتِيَّ، وَالتَّحَرُّرَ مِنَ التَّبَعِيَّةِ لِلْآخَرِينَ ٢٨٦
الْبَصِيرَةُ الثَّالِثَةُ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ تُصَوِّرُ كَمَالَ التَّحَقُّقِ، وَالتَّعَلُّقِ، وَالتَّخَلُّقِ..... ٢٩٧

الْبَصِيرَةُ الرَّابِعَةُ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ تَعْنِي أَنَّ "مِنْ عَلَامَاتِ النَّجَاحِ فِي النِّهَايَاتِ اللُّجُوءَ إِلَى اللهِ ﷻ فِي الْبِدَايَاتِ..... ٢٩٩

الْمَقْصَدُ السَّابِعُ: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾، تُعَرِّفُنَا بِأَنْ نَسْأَلَ اللهَ الْبَيَانَ وَالْإِرْشَادَ وَالتَّوْفِيقَ لِلْوُصُولِ إِلَى الْقَرَارِ الصَّحِيحِ فِي عِبَادَتِنَا لِتَكُونَ كَمَا يَرْضَاهُ اللهُ لَا لِتَكُونَ وَفْقَ أَهْوَائِنَا، أَوْ رَغَبَاتِ غَيْرِنَا..... ٣٠٥

الْبَصِيرَةُ الْأُولَى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ هِيَ الْحِصْنُ الْعَاصِمُ لِلْعِبَادَةِ مِنَ الِانْحِرَافِ الْأَثِيمِ ٣٠٧

الْبَصِيرَةُ الثَّانِيَةُ: ﴿اهْدِنَا﴾ عَلَامَةٌ عَلَى أَنَّ الثَّنَاءَ عَلَى اللهِ الْكَرِيمِ الْوَاهِبِ كَفِيلٌ بِتَحْقِيقِ أَعْظَمِ الْمَطَالِبِ. ٣١٢

الْبَصِيرَةُ الثَّالِثَةُ: ﴿اهْدِنَا﴾ بِدَايَةُ الْحَيَاةِ الْحَقِيقِيَّةِ لِلْخُرُوجِ مِنَ الْأَزَمَاتِ وَالْحَيْرَةِ فِي الظُّلُمَاتِ..... ٣١٤

الْبَصِيرَةُ الرَّابِعَةُ: الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ دِرْعُ الْحِمَايَةِ الْمُصْطَلَحِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ النَّقِيَّةِ وَحِصْنُهَا مِنَ الْمَخَاطِرِ. ٣٢٧

الْبَصِيرَةُ الْخَامِسَةُ: الرَّحْمَةُ تَقْتَضِي هِدَايَةَ الْعَالَمِ إِلَى الصِّرَاطِ وَحِرَاسَتَهُمْ مِنَ الِانْحِرَافِ أَوِ الِانْجِرَافِ. ٣٣٢

الرَّحْمَةُ تَقْتَضِي هِدَايَةَ الْعَالَمِ إِلَى الصِّرَاطِ وَحِرَاسَتَهُمْ مِنَ الِانْحِرَافِ أَوِ الِانْجِرَافِ..... ٣٣٢

الْبَصِيرَةُ السَّادِسَةُ: ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ يُقَدِّمُ الْحُلُولَ الْعَادِلَةَ وَالْعِلَاجَاتِ النَّاجِعَةَ لِلْقَضَايَا الْعَالَمِيَّةِ..... ٣٣٨

الْبَصِيرَةُ السَّابِعَةُ: ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ يَعْنِي أَنَّ عَوْدَةَ أُمَّةِ الْإِسْلَامِ إِلَى الصَّدَارَةِ الْعَالَمِيَّةِ يَتِمُّ عَبْرَ الْقُرْآنِ.. ٣٤١

الْبَصِيرَةُ الثَّامِنَةُ: ﴿الصِّرَاطَ﴾ يَرْبِطُ بَيْنَ عَالَمَيِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، وَيَصِلُ بَيْنَ مَرْحَلَتَيِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.... ٣٤٥

الْمَقْصَدُ الثَّامِنُ: وَهُوَ مَقْصِدٌ يَتَعَلَّقُ بِتَحْدِيدِ مَاهِيَّةِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، فَهُوَ ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، أَيْ صِرَاطُ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ..... ٣٥٣

الْبَصِيرَةُ الْأُولَى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ تَحْدِيدٌ لِمَاهِيَّةِ الْإِسْلَامِ يَحْمِي مِنَ التَّحْرِيفِ وَالضَّيَاعِ..... ٣٥٤

الْبَصِيرَةُ الثَّانِيَةُ: قِيَادَاتُ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِمْ عَلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ بَعْدَ الْأَنْبِيَاءِ هُمْ: السَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ ٣٦٤

الْبَصِيرَةُ الثَّالِثَةُ: ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ اللهُ ﷻ مَصْدَرُ الْإِنْعَامِ الْكُلِّيِّ..... ٣٧٢

الْمَقْصَدُ التَّاسِعُ: يَجِبُ حِرَاسَةُ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ مِنْ خَطَرِ الْعَدُوَّيْنِ الْأَزَلِيَّيْنِ (الِاسْتِرَاتِيجِيَّيْنِ): خَطَرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ، وَخَطَرِ الضَّالِّينَ؛ سَوَاءٌ أَكَانُوا يَنْتَمُونَ لِلْمُسْلِمِينَ أَمْ يَنْتَمُونَ لِلْكَافِرِينَ، لِحِمَايَةِ الصِّرَاطِ مِنَ الِاخْتِرَاقِ الدَّاخِلِيِّ وَالْخَارِجِيِّ: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾..... ٣٧٦

الْبَصِيرَةُ الْأُولَى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ تُشِيرُ إِلَى الصِّفَاتِ الْخَطِيرَةِ..... ٣٧٨

الْبَصِيرَةُ الثَّانِيَةُ: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ تَعْنِي وُجُوبَ حِمَايَةِ صِحَابِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ ٣٩٠
الْبَصِيرَةُ الثَّالِثَةُ: تَغَايُرُ النَّفْيِ فِي ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ يُبَيِّنُ اخْتِلَافًا وَاتِّفَاقًا بَيْنَ الْفِئَتَيْنِ..... ٤٠٠
الْبَصِيرَةُ الرَّابِعَةُ: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ لَيْسَتْ تَزْكِيَةً لِلْمُسْلِمِينَ بَلْ هُوَ تَحْذِيرٌ لَهُمْ ٤٠٨
الْبَصِيرَةُ الْخَامِسَةُ: ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾ يُبَيِّنُ الْخُلَفَاءَ وَالْأَعْدَاءَ الِاسْتِرَاتِيجِيِّينَ لِلْأُمَّةِ الْمُسْلِمَةِ ٤٢٠
الْبَصِيرَةُ السَّادِسَةُ: تَقْتَرِنُ أَفْعَالُ قِيَادَاتِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَالضَّالِّينَ بِالْوَحْشِيَّةِ ٤٢٤
الْبَصِيرَةُ السَّابِعَةُ: التَّنَاقُضُ بَيْنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ يُنَافِي مَبْدَأَ الِاسْتِقَامَةِ فِي ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾..... ٤٣٤
الْبَصِيرَةُ الثَّامِنَةُ: آيَتَا الصِّرَاطِ تُمَثِّلَانِ دُسْتُورًا كَامِلًا لِلْمَعْرِفَةِ الْعُلْيَا وَالْعَمَلِ الْأَقْوَمِ ٤٣٨
الْبَصِيرَةُ التَّاسِعَةُ: (آيَتَا الصِّرَاطِ) تُبَصِّرُنَا بِتَجَلِّيَاتِ اللُّطْفِ الرَّبَّانِيِّ الْغَامِرِ ٤٤١
الْمَقْصِدُ الْعَاشِرُ: مَبْدَأُ الْأُمَّةِ الْوَاحِدَةِ هُوَ الْوَسِيلَةُ الْوَحِيدَةُ لِإِيجَادِ مَوْقِعٍ حَقِيقِيٍّ لِرِسَالَةِ الرَّحْمَةِ فِي الْعَالَمِ، فَالْأُخُوَّةُ الْمَصِيرِيَّةُ تُحَقِّقُ لَهُمُ النَّصْرَ الْجَمَاعِيَّ، وَتَحْمِي الْجَمِيعَ وَيُبَصِّرُنَا بِهَذَا نُونُ الْجَمَاعَةِ فِي: ﴿نَعْبُدُ﴾، ﴿نَسْتَعِينُ﴾، ﴿ٱهْدِنَا﴾ مَعَ التَّقْسِيمِ الثُّلَاثِيِّ لِلْعَالَمِ ٤٤٥
الْبَصِيرَةُ الْأُولَى: مَبْدَأُ (الْأُمَّةِ الْوَاحِدَةِ) يُمَثِّلُ سِلَاحَ الْبِنَاءِ الْحَقِيقِيِّ وَالرَّدْعِ الْوِقَائِيِّ لِلْمُعْتَدِينَ ٤٤٧
مَبْدَأُ (الْأُمَّةِ الْوَاحِدَةِ) يُمَثِّلُ سِلَاحَ الْبِنَاءِ الْحَقِيقِيِّ وَالرَّدْعِ الْوِقَائِيِّ لِلْمُعْتَدِينَ..... ٤٤٧
الْبَصِيرَةُ الثَّانِيَةُ: أَهَمُّ آثَارِ التَّقْسِيمِ الْإِلَهِيِّ الثُّلَاثِيِّ لِلْعَالَمِ: الْوَحْدَةُ الزَّمَانِيَّةُ وَالْمَكَانِيَّةُ ٤٥٤
الْبَصِيرَةُ الثَّالِثَةُ: فِقْهُ التَّعَايُشِ وَالرَّحْمَةِ بِالْعَالَمِينَ، وَكَوْنُ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ أَجْمَعِينَ مُلَازِمٌ لِفِقْهِ الْحَذَرِ وَالتَّحْذِيرِ مِنَ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَالضَّالِّينَ ٤٥٩
خَتْمُ (الْفَاتِحَةِ) وَمُوجَزٌ لِمَا تَبْنِيهِ فِي الْعَقْلِيَّةِ الْمُسْلِمَةِ..... ٤٦٥
الْقِسْمُ الْأَوَّلُ: الْآلَاءُ وَالْعَظَمَةُ فِي خَتْمِ الْفَاتِحَةِ بِـ(آمِينَ) ٤٦٥
الْقِسْمُ الثَّانِي: (لْفَاتِحَةُ) الْمُبَارَكَةُ تَحْوِي أُمَّ الْمُحْكَمَاتِ وَالْأَوْلَوِيَّاتِ الْحَيَوِيَّةِ الْقُرْآنِيَّةِ ٤٧٣
أهم المصادر والمراجع ٤٧٩
المحتويات ٤٩٠

للتعرف على مؤسسة بصائر المعرفة القرآنية

امسح الرمز

الأستاذ الدكتور عبد السلام مقبل المجيدي

- رئيس مؤسسة بصائر المعرفة القرآنية، ومؤسس مشروع تسوير السور القرآنية.
- رئيس مشيخة الإقراء اليمنية
- أستاذ دكتور (برفسور) في قسم القرآن والسنة/ كلية الشريعة/ جامعة قطر حاليًا، واليمن سابقًا عبر خبرة تمتد لأكثر من ٣٠ عامًا من تدريس علوم التفسير وعلوم القرآن بعد البكالوريوس والماجستير والدكتوراه.
- أشرف على الكثير من رسائل الماجستير والدكتوراه.
- له أكثر من ٣٣ كتابًا ومؤلفًا في التفسير وعلوم القرآن والدراسات الإسلامية.
- له أكثر من ٢٥ بحثًا علميًا منشورًا في عدة مجلات علمية محكمة.
- أسهم في تأسيس عدد من الكليات والجامعات الشرعية في اليمن.
- له العديد من الأسانيد في القرآن والقراءات العشر الصغرى والكبرى، والإجازات في دواوين السنة وكتب التراث.
- له مشاركة واسعة في مسابقات القرآن الكريم الدولي في أكثر من ٣٥ مسابقة دولية.
- شارك في العديد من المؤتمرات العلمية في أنحاء متفرقة من العالم.
- قدّم عددًا من البرامج الإعلامية، والدورات العلمية والتدريبية في التفسير وعلوم القرآن في اليمن وقطر والبحرين والكويت وبريطانيا وفرنسا وتركيا و إندونيسيا وكينيا وغيرها من الدول.

بَصَائِرُ المَعْرِفَةِ القُرْآنِيَّة — تَسْوِيرُ السُّوَرِ القُرْآنِيَّة — الفصل في تفسير — سُورَةُ الفَاتِحَة

فِي بَارِيسَ، كَانَ ذَلِكَ الشَّابُّ يَسْبَحُ مُتَأَمِّلًا فِي أَنْوَارِ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ، مُتَنَقِّلًا بَيْنَ أَفْلَاكِهَا، مُسْتَضِيئًا بِمَصَابِيحِهَا مُسْتَمْتِعًا بِأَسْرَارِهَا، يَطِيرُ مِنْ نَجْمٍ إِلَى نَجْمٍ، يَشُدُّهُ جَمَالُ مَحَاسِنِهَا، وَتَسْتَهْوِيهِ رَوْعَةُ مَقَاصِدِهَا، وَحُسْنُ تَرْتِيبِهَا، وَجَلَالُ شَمَائِلِهَا وَعَظَمَةُ شُمُولِهَا؛ إِذْ أَضَاءَتْ فِي قَلْبِهِ فِكْرَةٌ، فَقَالَ لِلْمُؤَلِّفِ لَمَّا عَلِمَ أَنَّهُ سَيَطْبَعُ مَادَّةَ الدَّوْرَةِ فِي كِتَابٍ:

لِمَاذَا لَا تُسَمِّيهِ الْإِسْلَامَ فِي سَبْعِ آيَاتٍ؟

لِمَاذَا هَذَا الِاسْمُ؟

لِأَنَّ الْفَاتِحَةَ مِنْهَاجُ حَيَاةٍ تُعَرِّفُ بِالْإِسْلَامِ تَعْرِيفًا مُكَثَّفًا فِي آيَاتِهَا السَّبْعِ..

إِنَّهَا أَعْظَمُ الْكَلِمَاتِ الْإِلَهِيَّةِ الَّتِي تَتَوَاصَلُ بِوَاسِطَتِهَا مَعَ رَبِّكَ وَمَعَ الْآخَرِينَ مِنْ حَوْلِكَ.

إِنَّهَا السُّورَةُ الَّتِي تَخْتَصِرُ الْكُتُبَ الْإِلَهِيَّةَ الْمُنَزَّلَةَ.

إِنَّهَا الْمِفْتَاحُ الْأَعْظَمُ لِكُنُوزِ الْأَرْضِ، وَمِفْتَاحُ كُنُوزِ الْجَنَّةِ، وَلَكِنْ لَيْسَ كُلُّ أَحَدٍ يُحْسِنُ الْفَتْحَ بِهَذَا الْمِفْتَاحِ...

تَفْتَحُ (الْفَاتِحَةُ) كِتَابَ الْحَيَاةِ الْحَقِيقِيَّةِ لِتَحُلَّ أَلْغَازَ الْوُجُودِ الْكَوْنِيِّ، وَتُقَدِّمَ لَكَ الْكُنُوزَ الَّتِي تُدِيرُ الْحَيَاةَ، وَتُنْشِئَ حَضَارَةً تَقَدُّمِيَّةً تَزْدَانُ بِالصَّالِحَاتِ، وَتُكَلَّلَ بِالْجَمَالِ وَالْبَهَاءِ، وَيُحِيطَ بِهَا الِاسْتِسْلَامُ الْخَاشِعُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ، فَتَعَالَ مَعِي نَكْتَشِفُ الْإِسْلَامَ وَالْكَوْنَ وَالْإِنْسَانَ فِي ثَلَاثَةِ أَسْطُرٍ مِنَ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ!

هَذِهِ حِكَايَةُ تَسْمِيَةِ هَذَا الْكِتَابِ. وَهُوَ أَسَاسٌ لِمَشْرُوعِ (بَصَائِرِ الْمَعْرِفَةِ الْقُرْآنِيَّةِ).